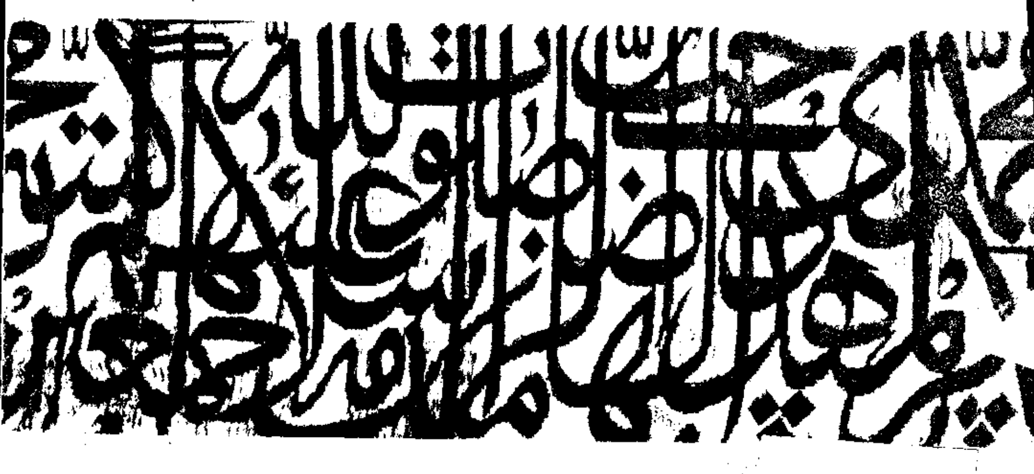
محمد الغزالى

سؤال عن الإسلام

الجزء الأول



دار ثابت

محمد الغزالي

مائة سؤال عن الإسلام

الجزء الاول

دار ثابت

الطبعة الثانية

محرم ١٤٠٤هـ

اكتوبر ١٩٨٣م

الناشر : دار ثابت للنشر والتوزيع ــ ٩٢ (أ) شارع محمد فريد
القاهرة ــ ت : ٧٦٩٥٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمـــة النـــاشر

توجهنا الى فضيلة الامام الشيخ محمد الغزالى بمائة سؤال عن الاسلام .. وتوخينا أن تكون الاسئلة اثارة وتبيانا .. اثارة لشبه الذين يضعون الشبهات فى طريق الاسلام والذين يجهلون حقائقه ، فهم فى جهلهم يعمهون .. وتبيانا ونورا للذين هم مشغوفون بأن يزدادوا بالاسلام علما وله فهما حتى يثبتهم الله بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الاخرة .

والشيخ الامام ، من الذين لهم قدم صدق عند ربهم ، ودراية كاثرة بدينهم .. نحسبه كذلك ولا نزكى على الله أحدا .

وحين توجهنا بهذه الاسئلة المائة لم يخـامرنا شك فى اننا سنظفر منه بأصدق الاجابات وازكاها — كما لم يداخلنا ريب فى أننا نقدم للمسلمين ولغير المسلمين من الذين يبحثون عن الحقيقة فى شوق عظيم نورا مبينا ورؤية جـديدة ومجيدة لطائفـة من قضايا الاسلام .

فالشيخ الغزالى من عدول هذا العصر الذين توجهم الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : « يحمل هـذا العلم من كل خلف عـدوله . ينفـون عنه تحـريف الغـالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » .

والشـيخ الامـام من الذين اذا صمتوا أسمعوا .. واذا قالوا اقنعوا .. وله بالاسلام فهم مقتدر وثاقب .

وقد راينا تيسيرا على القارىء أن يخرج الكتاب فى جزأين . ينتظم كل جزء خمسين سؤالا باجاباتها .

وها هو ذا الجزء الاول نقدمه للقارىء .. قارىء اليوم ، وقارىء الغد من المسلمين ومن الذين هم فى طريقهم الى الاسلام .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مقـــدمة

قلبت بصرى فى عشرات الاسئلة المعروضـــة على ثم قلت لصاحبى : اننى فى كتبى الكثيرة قد تعرضت لهذه الموضوعات ، واحسبنى اجبت عنها اجابة شافية .. !

قال لا تستطيع أن تحيل الناس على ما كتبت فى اسئلة محددة توجه اليك ، أعط خلاصة علمية موجزة سهلة فى الموضوع المطلوب منك ، حتى يرجع السائل وقد اضاء الحق لبه وقلبه !! وتريثت قليلا ثم قلت لنفسى : ان هذا العلم خزائن، لعل الاسئلة تكون مفاتيحه ! وما يدرينى ؟ لعل الله يؤتينى الرشد ويلهمنى الصواب ، فأكشف ظلمة ، او أمحو حيرة ، أو أطفىء فتنة ، او اثبت حقا يعصـــف من حوله الباطل ... وقررت ان اجيب بعد أن يعافينى الله من بعض العلل .

ولما شرعت أكتب ، وجدت أنى قلما اكرر نفسى ، ففى هذا الكتاب حقائق جديدة ، او أداء — أخصر وأيسر ، أو ترتيب لادلة كانت مشوشة ، فيما يقرأ الناس من علوم الدين ، او مزاوجـــة بين التراث القديم والعقل الحديث .

فاذا وقع بعد ذلك تكرار لفكر سبق فهو مغتفر ان شاء الله مع هذه الفوائد الجمة اللاحقة .

ان اللوم يتجـــه الينا — نحن دعاة الاســـلام — لاننا لا نعرف طبيعة العصر الذى نعيش فيه ، والمنطق الذى يقتنع أهله ، والشبهات التى جدت مع مدنيته !

وبعضنا قد يحيا متخلفا عن عصره الف سنة . يخاصم فرقا بادت ، ويناقش قضايا نسيت ما يحب الناس أن يسمعوا عنها جدا ولا هزلا .. والاسلام لا يخدم بهذا الاسلوب .

وحين نظرت فى الاسئلة المطروحة على ادركت انها وضعت بحكمة وسيقت الى هدف ، وان الاجابة الحسنة عنها تغنى الثقافة الاسلامية ، وتجلو غبارا كثيرا عن حقائق الرسالة الخالدة. أن الاسلام دين عظيم حقا ، بيد أن الساسة الذين حكموا باسمه من بضعة قرون لم يرتفعوا الى مستواه ، الا من عصم الله .. وكان لذلك اثره فى مسيرة الدعوة ، وايضاح معالمها .. ! ومصابنا هنا يجب أن يجبره نشاط علمى دءوب مخلص شجاع ، يرد التهم ويقيم العوج وينفع العالمين برحمة الله المهداة ، ويصل الناس بربهم عن الطريق الوحيد المحترم ، طريق العقل المفتوح والمنطق السمح والجدال الحسن .

وانها لفجيعة أن يسبق الحاد أعرج ، ويتأخر هدى مستقيم لا لشىء الا لان حملة هذا الهدى كسالى ، ومفرطون !

أعترف بأنى لولا عون الله ما كنت لاخط حرفا ، فقد حاصرتنى متاعب كثيرة ، وأملى أن اكون قد وفقت ، ونلت ما أطمح فيه من مغفرة الله ورضاه .

محمد الغزالى

١ ــ ما الاسلام ؟ ولماذا سمى كذلك ؟

الاسلام الخضوع لله ، وتسليم النفس والامر اليه سبحانه أى اقامة العلاقة بين الانسان وربه على مبدأ « السمع والطاعة »!

قد يشعر امرؤ بأنه لا سلطان لاحد فى الارض والسماء عليه ، وأنه يفعل ما يهوى دون ارتباط بتوجيه ما . وقد يقبل هذا الشعور فى تحديد العلاقة بين انسان وانسان مثله ، أما بين الانسان وربه الذى خلقه بقدرته ورباه بنعمته ورسم له طريقا مستقيما وأمره أن يسير عليه .. فلا مكان لهذا التمرد والشموخ .

اذ الواجب أن يجعل الانسان نفسه تابعا لمــراد الله ، أو الشخص الذى يتلقى التعليمات من أعلى ويرى ضرورة التزامها .. قال الله تعالى : « ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور » (١) .

وماذا يمكن أن تكون العلاقة بين الخالق والمخلوق ؟ بين موجود سيقضى على ظهر الارض بضع عشرات من السنين تقل أو تكثر ثم يرجع بعد ذلك الى من اوجده ؟

أتكون علاقة تجاهل أم معرفة ؟ أتكون علاقة تمرد أم خضوع ؟

انه طبيعى جدا ان يعرف الانسان هذا الرب الكبير ، وأن يرتبط بأمره ونهيه وأن يتوجه وفق هــديه ، وهــذا هو معنى الاسلام وهو المعنى الذى قرره المرسلون .

قال تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام » (٢) .

والمرء اذ يعلن خضوعه لله واحترامه لوصاياه وانقياده المطلق لتوجيهه سبحانه ــ يتجاوب مع الكون كله الساجد لربه ، الهاتف

---

(١) لقمان : ٢٢ (٢) آل عمران : ١٩

بمجده « افغير دين الله يبغون ؟ وله اسلم من في السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون » (١) .

ويخطىء من يظن الاسلام عنوانا خاصا بالدين الذى جاء به « محمد » من خمسة عشر قرنا ، ان الاسلام عنوان لجميع الرسالات التى هدت الناس من بدء الخليقة الى يوم الناس هذا .

صحيح أن حقيقة الاسلام بلغت تمامها وأخذت صورتها الاخيرة فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، بيد ان هذا العنوان اطلقه القرآن الكريم على ما بلغه انبياء الله كلهم دون استثناء .

ان اسرائيل — وهو لقب التشريف ليعقوب — ليس الا نبيا دعا الى الاسلام وتشبث به ومات عليه واوصى به أولاده « أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون » (٢) .

والواقع ان الدولة التى تسمى اليوم باسرائيل هى اسم بلا مسمى وعلم على وهم كبير لان اسلامها لله صفر أو قريب من الصفر .

وكان عيسى يعلم اتباعه الانقياد لله وصدق عبوديته . وتأمل فى هذه الاية « واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون » (٣) .

ويشمل وصف الاسلام جميع الانبياء الذين نفذوا الاحكام السماوية بدءا من عهد التوراة الى اليوم . قال تعالى : « انا انزلنا

---

(١) آل عمران ا ٨٣ (٢) البقرة : ١٣٣
(٣) المائدة : ١١١

التوراة فيها هــدى ونور يحكم بهــا النبيون الذين أسلموا للذين هــادوا والربانيــون والاحبار بمــا استحفظــوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء .. » (١) .

ولا يصح الاسلام الا باكتمال حقيقتين مهمتين أولاهما حسن معرفة الله ، وتصور الالوهية بامجادها كلها ، فلا يعــد مسلما من أشرك بالله شيئا أونسب لله ولدا أو ظن الذات العليا متلبسة بالعالم حالة فى الكون الذى نعيش فيه .. لابد من العلم الصحيح بالله .. ويجيىء بعد ذلك الانقياد له وتنفيذ أوامره .

وفى القرآن الكريم فيض غامر من تنزيه الله والثناء عليــه واحصاء لاسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وابراز لمعالم العظمــه الالهية لا مثيل له فى كتاب قديم أو حديث سماوى أو أرضى

فأنت تحس عند قراءة القرآن بالشــهود الالهى على كل شىء ، والهيمنة المطلقة ، « له غيب السموات والارض أبصر به واسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا » (٢) .

وكيف لا يسلم المرء نفسه لمن خلق كل شىء ودبر كل أمر وملك السمع والابصــار ، وقلب الليل والنهار وارســل الرياح لواقح ، وفرج الكروب واخرج الحيارى من الظلمات الى النور وفى القرآن الكريم انكار شديد وغضب هائل على من ينسب لله ابنا ، أو يجعل له بعباده شبها « قالوا اتخذ الله ولدا ، سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الارض ان عندكم من سلطــان بهذا اتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ قل ان الذين يفترون عــلى الله الكذب لا يفلحون » (٣) .

---

(١) المائدة : ٤٤ (٢) الكهف ٢٦

(٣) يونس : ٦٨ ، ٦٩

وبعد اثبات هذه الحقيقـــة فى صحة المعرفـــة بالله تجيء الحقيقة الاخرى .... وأساسها الانقياد التام لله ، والاصطباغ بطاعته .

ولا يجتمع اسلام لله وتمرد عليه . أو خضوع له ورغض لامره !!

فهل معنى ذلك ان المسلم لا يتورط فى معصـــية ؟ الحق أن المسلم اذا عرض له عصيان كان ذلك طارئا غير محسوب ، أو عملا انزلق اليه صاحبه وهو كاره له أو غير مستبين لشره ، ومن ثم فهو يتخلص منه آسفا ونادما وخجلان .. !!

وطبيعة النفس ، وظروف البيئة قد توقع المرء فى سيئة ما ، كالذى يقـــود سيارته آيبا الى بيته فتغفـــو عينه اغفـــاءة تفقده السيطرة على مقود السيارة فيصاب هو أو يصيب غيره .

ان نور العقل قد ينكسف ، وطاقة العزيمة قد تنفد ، وعندئذ يقترف المرء ما لا يليق ، ولا يخرج المرء بذلك عن الاسلام«ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون »(١) ولذلك رفض النبى صلى الله عليه وسلم استنزال اللعنة عـــلى شارب خمر أوهن الادمان ارادته ومروءته . ان هذا الشارب يمثل نوعا من العصيان او حالة من الاضطراب غير ما يقع فى مجتمع آخر يزرع العنب ويعـــد المعاصر ، ويفتح الحانات وينظم تـــوزيع الاثم ، ويفرض ضرائب على المتاجرة به .. الفـــارق بعيد بين مستبيح لا يرى لله حقا ولا يحس فى عمله جرما ومعتل خارت قواه فسقط ، الاول مجرم لا مسلم والاخر مريض تلتمس له العافية ، ويحسب بين أهل الاسلام .

---

(١) الاعراف : ٢٠١

وقد استطاع نبى الاسلام تكوين أمة مسلمة لله ، تنهض للصلاة له من طلوع الفجر الى غسق الليل ، وتتردد على المساجد فى رتابة ودقة يمكن أن تضبط عليهما الساعات .

كما أن هذه الامة التزمت فى شئونها المدنية والعسكرية ، الثقافية والسياسية أن ترضى ربها وأن تتوجه وفق مراده ، بحرص واخلاص .

قدوتها الاولى والاخيرة انسان تجرد للحق واصاخ من اقاصى فؤاده الى أمر الله له « قل أن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له . وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (١) .

وكذلك وعى أتباعه هذا القسم المؤكد « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (٢) ... أن خضوع الانسانية لبارئها الاعلى صدق وشرف ، وهذا هو الاسلام .

---

(١) الانعام أ ١٦٢ ، ١٦٣

(٢) النساء : ٦٥

٢ ـ لمــاذا كان الاسلام خاتم الاديان ؟

الاسلام هو العلاقة الوحيدة بين الناس وربهم منذ بـدات الخليقة : وتكونت للبشر مجتمعات ونستطيع القول بأن القـرآن حوى جملة التعاليم التى بلغها الانبياء الكبار ـ أعنى أولى العـزم وحملة الرسالات المهمة ـ فلو كان مـوسى أو عيسى موجودين لاكتفيا بما قال القرآن فى ترسيخ العقائد وتأديب الامم .

أما الشرائع الجزئية فان التفاوت فيها ليست له قيمة كبيرة .

والاسلام الذى بلغه محمد واخذ الناس به هو الصورة الاخيرة للوحى الاعلى وهو كذلك الصورة العامة التى تستغرق الاجناس كلها وتتناول الاجيال التى تسكن الارض حتى قيام الساعة .. النبوات السابقة كانت كلها محلية مؤقتـة أى محـدودة الزمان والمكان ، اما النبوة العامة الخالدة ـ فهى نبوة محمد وحـده لا يشركه فى ذلك نبى من السابقين .

وعلة ذلك أن الاسلام بعد ما زود الانسان بالوصايا الاخيرة للوحى الالهى وكل الى عقله أن يتحرك ويشق طريقه ويستغل قدرته على الفهم والحكم وتعرف الصواب والمصلحة .. فانتهاء عصر الوحى هو ابتداء عصر العقل ، وقد شرحنا ذلك بتفصيل فى كتابنا « فقة السـيرة » .

ان نبى القرآن عليه الصلاة والسلام أرسى دعائم العقيـدة والعبادة والخلق وساق نصوصا حاسمة تضبط سيرة المرء وتقاليد الجماعة وهذه اسس وتوجيهات لا تختلف باختلاف العصـور ، ولا يمكن اختراق اسوارها .

أما ما وراء ذلك من شئون ـ وما اكثره ـ فموكول الى العقل الانسانى يمحو فيه ويثبت .. فى ميدان العلوم والانشطة الارضية

وشئون الحياة المدنية والاطوار الحضارية يقدر العقل على الحركة دون قيد يضعه الدين . وفى كل المجالات التى تتحدد فيها المبادىء وتتحرر الوسائل يستطيع العقل أن يتصرف دون عائق .

فالشورى مثلا مبدأ دينى لمنع الاستبداد السياسى ومنع عبادة الفرد ، وتمكين الامة من فرض رقابتها على ما يعنيها . .

والعقل له ان يضع من الدساتير ما يحقق هذه الغاية .

والعدل مبدأ دينى لمنع الافتيات والتظالم ، وللعقل أن يشرع من القوانين وينشىء من المحاكم ما يحقق هذه الغاية اداريا واجتماعيا واقتصاديا .

والجهاد مبدأ دينى لحماية الايمان وكبح الفتنة ، ووسائل الجهاد فى البر والبحر والجو لا حصر لها ، والابداع العقلى فى هذه الميادين لا حدود له ... بل ان شرائع العقوبات المروية تركت أغلب الجرائم للاجتهاد العقلى ، مثل الغش والغصب والتزوير والربا والخيانة والاختلاس وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف ... الخ .

وقد تنشأ احوال يتعين على العقل أن يعالجها ويرقب آثارها لانها لم تعهد من قبل فى عهود الانبياء ، لا اقول مثل غزو الفضاء وحرب الاقمار الصناعية ، بل فى النشاط الانسانى العادى على ظهر الارض . فقد جدت قضايا خطيرة جعلت الحكومات تفرض سلطانها على نحو لم يعرف فى تاريخ الحياة البشرية من قبل ، وما يتم هذا العلاج الا بالفعل اليقظ ، مع استصحاب هذا العقل لوحى الايمان وتقوى الله .

ان الله لا يعجزه أن يرسل نبيا آخر ، لكن هذا الارسال سيكون عبثا اذا كان عمل النبى المرتقب قطرة من البحر الذى

سبقــه أو ترســـما لخطاه أو تكــرارا لما قاله ... ومن ثم اكتفت الاقدار بكتاب محمد وحكمته فى قيادة الانسانية الى آخر الدهر .

ولو أن ورثة الاسلام من امراء وعلماء ادوا واجبهم بأمانة ما كان هناك داع لهذا السؤال :

لماذا كان الاسلام خاتم الاديان ؟

فان هذا التساؤل تولد من الفراغ والقصور الملحوظين على الحياة الاسلامية العامة ، وبخاصة فى العصور الاخيرة .

من المقطوع به ان الامة الاسلامية فقدت القــدرة على قيادة نفسها بسبب فسادها الثقافى والسياسى فكيف تقود العـــالم ؟ أو كيف تقدم نموذجا لصلاحية الاسلام الابدية لقيادة العالم ؟

أن أصحاب العقول يرفضون أن يشد العالم الى وراء وان توضع قيود على حراكه الفكرى والحضارى ولو كان الاســلام مسلكا رجعيا ، أو توقفا حضاريا لرفضناه دينا يرقى باتباعه بل دينا يرقى بالعالمين .

لكن فقهاء الاسلام الحقيقيين قالوا : حيث تكــون العدالة والرحمة فثم شرع الله ! حيث تكون الفضيلة والحرية والمصلحة فثم شرع الله !

وماذا ينشد الناس الى آخر الدهر غير هاتيك الغايات ؟
ان أختلاف الليل والنهـــار لن يقلب حقائق الاشياء .. فاذا كانت الوحدانية صفة الله فان هذه الصفة لن تتغير ولن تزول مهما اطردت مواكب الزمان .

واذا كانت تبعية الانسان لربه حقا لا معدى عنه ، فان تقدم الحضارة لن يعنى ابدا ان الانسان استغنى عن الله و الصلاة له والضراعة اليه .

وقل مثل ذلك فى ميدان الاخلاق ، والعلاقات الانسانية كلها

ويوم ظن اهل الكتاب ان الـــدين عنوان ومراسم واوهـــام مقدسة قيل لهم : كلا ، الدين ارتباط بالله واحســـان للعمل ، ولن يضام أحد أخلص لله قلبه ، وأصلح له عمله ، واستقام عـــلى الطريق .. ! وقالوا : « لن يدخـــل الجنة الا من كان هـــودا او نصارى ، تلك أمانيهم ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) .

لماذا لا تكون هذه الحقائق ختام الدين كله ؟ رب العالمين يقول للناس فى القارات المعمورة من ارضـــه : اتجهوا الى مخلصين ، واحسنوا كل عمل تكلفون به ، تظفروا بالامن وتنجوا من الحزن وتكسبوا الدنيا والاخرة ..

ماذا بعد هذا الكلام ؟ وماذا يقوله نبى آخر بعد محمد عليه الصلاة والسلام ؟

على أن هناك شرائع تفصيلية ترتبط بهذا الاصـــل ارتباط الشجرة بجذعها ، ولا يقبل الاهمال لهذه الشرائع الفرعية !

غير اننا نلفت النظـــر الى أمرين مهمـــين — الاول أن تفكير المسلمين لان أمام بدع وخرافات ادخلت على دين الله وهو منهـــا برىء ، وبرزت هذه الاهواء الدخيلة فى اعمال المسلمين أكثر ممـــا برزت معالم الدين الحق ، ومن مصلحة الاسلام لكى يبقى ان ينقى من هذا الغش ... !

الثانى ان الترتيب المفـــروض بين شـــعب الايمان سرت فيه الفوضى ، فتحولت أركان الى نوافل ، ونوافل الى أركان .

---

(١) : البقرة ١١١ — ١١٢

وامتدت خيمة الغيبيات لتشمل أمورا عقلية لها منطقها الحر ، وتبعت أحكام الحلال والحرام تقاليد بعض الاجناس التى أعتنقت الاســـلام .

والمعروف أن الحكم الشرعى هو خطـــاب الله المتعلق بأفعال المكلفين ؛ فلا حكم حيث لا خطـــاب .

ان الاسلام كان ولا يزال الدين الذى ارتضاه الله لعباده الى اللقاء الاخير ، ومصلحة الانسانية فى استمساكهـــا بهذه العروة الوثقى .

٣ ـ هل يستطيع الانسان السوى الرشيد ان يعيش بلا اسلام ؟

لو كان التدين غباوة لآثرت العيش بلا دين ولو كان حرجا على النفس او قبولا للدنية او سطوة عنصرية لآثرت العيش بلا دين ! لكن الدين ليس كذلك ، بل هو مخاصمة لكل ذلك . ان الملاحدة خلطوا خلطا قبيحا بين الحق الذى نزل من عند الله ، وبين الباطل الذى صنعه البعض من عند نفسه وزعم انه دين .

ومن عرض باطلا ما على انه دين فهو كاذب ، والكفر بما عرضه واجب .

والناس فى عصرنا هذا فرقاء متباينون ، منهم من ينكر الالوهية ويتصور العالم لا رب له . ومنهم من يعترف اعترافا غامضا بالالوهية ، ويحسب الاديان الكبرى متساوية المنهج والقيمة . ومنهم من يعتنق اليهودية أو النصرانية ولا يرغب عنهما أبد ا، ومنهم الوثنى المغلق ومنهم المسلم الذى رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا .

وفى المسلمين غوغاء يحيون وفق ما ورثوا من سنن وبدع وعلم وجهل وهدى وهوى .

وفيهم دعاة الى الحق الذى نفذه السلف الكبار ، ثم استوحش قليلا و كثيرا مع مسيرة التاريخ ، ثم أمسى غريبا فى هذه الايام .

ومشكلة الدعاة المسلمين تجيىء من الصورة التى يظهر بها الاسلام فى العالم الاسلامى ، وتجعل المرء السوى فى بلاد أخرى ينفر منه .

فلو ان رجلا يعيش فى بلاد حرة ، يناقش فيها الحكومة دونما رهبة ، ويعترض رئيس الدولة ويعارضه دونما قلق ، مثلما كان

يفعل المسلمون قديما مع ابى بكر وعمر ، لو أن هذا الانسان قيل له : اعتنق عقيدة التوحيد فهى حق ، ولكن اذا قلت للحاكم : لا ، رميت فى السجن ! او ضرب عنقك !!

اتحسب هذا الانسان يسلم ؟ كلا وماذا يغريه بالدخول فى دين يقدر الحاكم فيه على تدمير مدينة ودفن ثلاثين الفا تحت انقاضها ويبقى بعد ذلك مهيبا مصونا توجل وسائل الاعلام القريبة والبعيدة من تناوله .

ان هذا الانســـان يكفر وبكفر ، ولا يرضى بالدخـــول فى هذه الدائرة المزعجة ... ومن المسئول عن محنته ؟ ساسة جبابرة لا دين لهم اشتغلوا ... عن الاسلام بأسلوبهم فى الحكم .

وهناك مشتغلون بالعلم الدينى يقدمون الاســـلام على انه حبس وتجهيل للمرأة ويجتهدون فى تقرير احكام تظهر النساء وكأنهن جنس مهدر الحقوق ، محقور المنزلة مغموص العقل يستغرب وجوده فى ميادين العلم والعبادة والجهـــاد ، بل يستنكر عليه أن يقـــود سيارة .

لا جرم ان النســاء فى شرق العالم وغربه تأبى اعتناق هذا الدين وترى الحكمة فى تجنبه .. !! ويؤازرهن فى ذلك الـــوف الرجـــال الشرفاء .

ان فتنة الناس عن الاسلام بهذه الطريقة هى شىء محزن حقا وكثيرا ما أذكر قصة البدوى الذى قالوا : انه عرض ناقته فى السوق بدرهم واشترط ان يباع مقودها معها بعشرة آلاف .. فكان الناس يقولون ما ارخصها لولا هذا المقود الملعون .

أجل وما اسهل اعتناق الاسلام لولا هؤلاء المحمولـــون عليه اللاصقون به .

نسأل بعدئذ : هل الشخص الملحد الكافر بالله ولقائه ووحيه يمكن أن يكون سويا رشيدا ؟ ونجيب أن مثل هذا المخلوق مصاب يقينا فى بصيرته وسيرته ، وانكاره لربه أفحش من عقوق الولد لابيه البر الرحيم .

وقد تكون له موهبة علمية لكن ذلك لا يرفع خسيسته ، وقد حكمت الولايات المتحدة بالاعدام على عالم بالذرة أفشى أسرار عمله للروس ، أنه عد من كبار المجرمين لانه خان وطنه وقومه .

وما الوطن ؟ قطعة من الارض . وما القوم ؟ قبيل من الناس . فكيف بمن خان رب الارض والسماء ورب البشر كلهم ؟ الا يعد مجرما ؟

ان عظمة موهبة ما لا تنفى الاصابة بعلل مهلكة ، فقد يكون المرء حاد البصر جدا ولكنه مصاب بسرطان يوشك أن يخترم عمره ويورده المهالك فما غناء بصره القوى مع علته الجسيمة ؟

والشخص الذى يرفض معرفة الله والتقيد بدينه مهما نبغ فى أمر ما فهو معتل الضمير،زائغ التفكير،مخوف السلوك على الاقربين والابعدين ، بل هو الى الحيوان أقرب منه الى الانسان .

وعبادته لهواه تجعله مشئوما على نفسه ومن اقترب منه ، وقد يعاقبه الله فى العاجلة فيجعل ذكاءه ضده ، فيبحث عن حتفه بظلفه ويحفر قبره بيده .

وقد وصف الله سبحانه عبيد أهوائهم الكارهين للاستضاءة به والاستمداد منه فقال « أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ أن هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا » (١) .

---

(١) الفرقان : ٤٣ — ٤٤

ولقد رأيت فى أرجاء البلاد العربية ناسا ينتمون الى«العلمانية» ويستبعدون بعنف كل اثارة للاسلام فى ميدان التربية او القانون أو الثقافة أو التوجيه .

وتفرست فى وجوه هؤلاء وأعمالهم فما رأيت صحة نفسية ولا دقة عقلية . فيهم مسلمون — كما يقال — يكرهون ما انزل الله . وفيهم كتابيون ينضمون الى كل جبهة تخاصم الاسلام لكى يكثروا السواد ويشبعوا الاحقاد ، ويتظاهرون — مع ذلك — بالحياد !!

ويستحيل وصف احد من هؤلاء بأنه انسان سوى رشيد ، لانه لو كان ذا نزعة قومية مجردة لعلم أن بنى اسرائيل تسلحوا بعقيدة مهاجمه وسياسة جعلت الدين يغتصب الارض والعرض ، فكيف يقبل الدين مهاجما وترتضى سياسته وتحترم سطوته ؟ ويرفض الدين مدافعا ويعتبر اشراكه فى التربية والتقوية سياسة رجعية مرفوضة .

ألان الدين هنا هو الاسلام ، ولان الدين هناك هو اليهودية !!!

لا سياسة فى الدين اذا كان اسلاما يدافع ، وتقام الدول من الهباء اذا كان الدين صهيونية تسطو وتوصف السياسة هنا بأنها حكمة وتقدم ؟؟

على أنه ليس من الحصافة والرشد رفض نبوة محمد ، وكراهية هذا الانسان العظيم والتحامل عليه . اننا نضحك من انسان يرى ان الارض كوكب مثلث أو مربع ، أو أن موسى عليه السلام ولد فى الولايات المتحدة . فكيف لا نضحك من شخص يرى بوذا الها ومحمد قاطع طريق ؟

وكيف لا نضحك من شخص يرى الاسلام عبادة أصنام واستباحة أعراض ولا يعرفه دين توحيد وعفاف ؟ اذا لم يكن هذا

الشخص مغفلا : فهو جاهل بلا ريب ، والجاهل لا يوصف بأنه امرؤ سوى ورشيد،قد يكون الجهل عذرا يسقط المسئولية الاخلاقية عند مخالفة القانون ، ولكنه لن يكون منقبة تزين صاحبها ... ان هناك يهودا يصدقون أن الله صارع أباهم اسرائيل وكاد ينهزم أمامه . ونصارى يصدقون أن الطفل يولد وهو حامل للعنة الخطيئه التى اقترفها آدم ، واذا لم يعتقد أن عيسى صلب فداء له باء هو الاخر باللعنه الابدية !

فليعتقد من شاء ما شاء ، ولا يتطاول فوق مكانته ، ولا يتعرض بالتكذيب للانسان الذى جاء ينقى رسالات السماء مما أهانها والذى جاء فى كتابه هذا التقريع لكل شارد « أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى . الا تزر وازرة وزر أخرى وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الاوفى » (١) ؟

ان جرس هذه الايات الموجزة ينبعث دقات رهيبة الرنين تثير الحذر وتوقظ الانتباه ! أو هى ومضات متقطعة تلفت السائر فى الدرب المتشابه كيف يعرف هدنه ولا ينثنيه عنه .

ان الجهل بالاسلام نقص شائن ، وما يستطيع أحد الاكتمال بدونه،وكيف يتزكى امرؤ استغنى عن توفيق الله وهدايته.وبشارته ونذارته ، لم ترطب قلبه لحظة خشوع ، ولم يقل يوما : رب أغفر لى خطيئتى يوم الدين ... ؟؟

---

(١) النجم : ٣٦ — ٤١

٤ ــ كيف بنى الاسلام على خمس ؟ ومــا هى ؟ ولماذا خمس بالذات ؟

شرحنا أن الاسلام هو العنوان المعروف للدين الذى جاء به خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الانبياء الاوائل بلغوا صورا محدودة لهذا الاسلام تناسب مــدارك الامم الاولى وقدراتها فالدين فى الحقيقة واحد ، يشبه انسانا فى فترات الصــبا واليفاعة ... ثم اكتمل هذا الانســان وبلغ اشده ، اكتمل مبنى ومعنى . ذلك هو الفرق بين الرسالة الاسلامية كمــا بلغها النبى الاخير ، وهذه الرسالة كما بلغها فى فجر الخليقة مرسلون محليون محدودون ...

وبناء الرسالة على خمس يحتاج الى ايضاح فان شعب الايمان ومعالم الانقياد الى الله تقارب السبعين عنصرا .

وهذه العناصر السبعون مبينة فى كتاب الله وسنة رسوله . وهى تتناول الفرد والمجتمع والدولــة وتســتوعب قضايا خلقية واجتماعية واقتصادية وسياسية كثيرة !

من أجل ذلك لم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم : الاسلام مؤلــف من خمس أو يتكــون من خمس وانمــا قال «بنى على خمس » .

فهو يشبه الخيمة التى يقيمها الجوالة فى رحلاتهم . والخيمــة تقوم على عمود أساسى فى وسطها وأربعة أعمــدة تمد جوانبها وتثبت قماشها !

وانت تعلم أن جسم الانسان يتكون من اعضــاء وعضلات واربطة واعصاب وعظام وحواس .. الخ ومع ذلك فهناك عــدة اجهزة رئيسية هى دعائم هذا الكيان الدقيق أحصاها علم الاحياء

ى (١) الجهــاز العصــبى (٢) الجهــاز الــدورى (٣) الجهــاز الهضمى (٤) الجهاز التنفسى (٥) الجهاز التناسلى والتنويه بهذه الاجهزة ووظائفها لا يلغى بقية ما يتكون الجسد الانسانى منه ...

والخمس التى بنى عليها الاسلام هى شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رســول الله ، واقام الصــلاة وايتاء الزكاة ، وصيام رمضان وحج البيت ....

هذه دعائم البناء ودعائم البيت غير جدرانه وسقفه وأبوابه ونوافذه ومرافقه ... الخ .

وشهادة التوحيد ترجمة عن الايمان القائم فى القلب . والايمان معرفة بلغت حد اليقين او تصديق جازم لا يحتمل الريبه ؛ وانقياد لله لا يقبل ذرة من تمرد .

عندما يشهد المرء ان لااله الا الله وان محمدا رسول الله فقد عالن الناس ورب الناس بأنه ارتضى هذا الدين ، ولزم منهجه ، وتبع قائده ...

ولا تقبل هذه الشهادة من قائلها ما لم يكن لها رصيد قائم فى القلب مهيمن على باطن النفس . ويعنى هذا ان يكون المسلم ذا ضمير يرفض الدنايا ويأبى مواقعتها ، ويحذر ربه ويتقى عقوبته لانه يفقــه قوله سبحانه « واعلموا ان الله يعلم مــا فى أنفسكم فاحذروه » (١) « ويحذركم الله نفســه والى الله المصــير » (٢) « انما هو اله واحد فاياى فارهبون » (٣) « فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين » (٤) .

كما يعنى هذا ان يظاهر المرء دينه وأتباعه وان اشتد ساعد الخصوم وامتد اذاهم وعظم بأسهم وتلك حقيقة التوكل المعتمد

---

(١) البقرة : ٢٣٥ (٢) آل عمران : ٢٨
(٣) النحل : ٥١ (٤) آل عمران : ١٧٥

على الايمان بالله الكبير ، انه ينفى العزيمة الخائرة والارادة المنسحبة « وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » (١) « أن ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٢) ..

والايمان مصدر ولاء لاخوان العقيدة وسخط على خصوم الحق ، فالمؤمنون يحبون لله ويبغضون لله ، ولا يكونون اذنابا ابدا ولا اشياعا لاهل الفسوق والالحاد « ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء .. » (٣) ان شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله رمز لمعان نفسية بالغة الاثر فى توجيه المجتمع كله ..

ويجيىء بعد الشهادة اقام الصلاة ، انه ليس أغدر من انسان يسمع ويرى بقدرة الله ، ويأكل ويشرب من خير الله ومع ذلك يضن على ربه بساعات قلائل يتذكره فيها .

اننا ننفق الكثير من أوقاتنا فى اللهو واللعب ونستكثر لحيظات تقفنا أمام الله متعبدين .. والمدنية الحديثة مسئولة عن السعار المادى الذى اذهل الناس عن كل شىء الا نداء غرائزهم ، أن المرء ينطلق وراء رزقه انطلاق الوحش فى البرية لا يهدأ حتى يظفر بفريسته ، ثم يعود فيلتهمها هو واسرته ثم ينطلق لمثلها فى يوم جديد .

وهكذا دواليك حتى ينتهى عمره وهو يلهث وراء مآربه وحدها لا يعرف له ربا ولا يؤدى له حقا ! ما اتفه هذه الحياة ، وما اسوأ عقباها ..

---

(١) المائدة : ٢٣ (٢) آل عمران : ١٦٠
(٣) المائدة : ٨١

أما المسلم فهو بين الحين والحين يصـــغى الى داعى الله يهتف بصوت جهير الله اكبر الله اكبر ، فيلبى النداء ويكرر التكبير ويسعى للوقوف بين يدى ربه قانتا خاشعا ..

والصلاة فى الحياة الاسلامية ليســت عملا فرديا يهتم به صاحبه وحسب ، بل هى سمـــة اجتماعية تســيطر على جمهور المؤمنين وتدفعهم الى التلاقى فى محراب العبادة جماعات متكررة من الفجر الى العشاء .

ومن هنا جاء التعبير باقام الصلاة لا اداء الصلاة اذ المقصود اتيانها فى جماعة ، والتحشيد لها والخشوع فيها واعلاء شعائرها اعظاما لله ، وابرازا لحقه تبارك اسمه .

ونرجىء الكلام فى الزكاة والصيام والحج الى مكـــان آخر ونتحدث الان عن الاركان الخمسة جملة لماذا كانت خمسة ؟

ترى لو كانت أربعة أو ستة اكان الســؤال ينتفى ؟ لا . والسؤال الدائر يسقط من تلقاء نفسه ، مثل لماذا كان اسم فلان زيدا ولم يكن عمرا ، انه سؤال يتسلسل الى ما لا نهاية فلا معنى لـــه .. ومع ذلك فهناك اجابة مقنعة فى هذه القضية قدمها الشيخ الكبير الدكتور عبد الله دراز تدور على ان هذه العبادات خاصـــة هى شارات الاسلام ومعالمه التى تميزه عن غيره ، وأن غيرهـــا قد يقوم به هود او نصارى او ما ديون ، كمكارم الاخلاق مثلا !! وقد تكون هناك عبادات اسلامية محضة لكنها دون هذه الاركان فى الدلالة والقيمة .

وننقل ما قاله الرجل الذكى رحمه الله بعد أن تحدث عن الايمان وانه عصب الحياة فى الدين ومصـــدر الطاقة الكامنة فى أعماله كلها تساءل عن الصلاة والزكاة والصيام والحج لمـــاذا

ذكرت دون شعب الاسلام الاخرى ؟ فقال : « لانها اعظم المظاهر واوضح العناوين علـى الايمان بهذا الدين من حيث هـو دين سماوى ــ لما فيها من الاستسلام لامر الله لمجرد انه أمره دون تصد الى مصلحة عاجلة من المصالح العامة أو الخاصة ؛ امـا ما عداها من الاعمال فليست لها هذه المنزلـة فى الدلالة عـلى الانتماء الى الاسلام .

ذلك ان الفروع الدينية منها مـا هو باطن لا اطلاع لنا عليه كالاخلاص والتوكل والرضـا ومحبة الخـير للغير وسائر مـا يبحث عنه علم الاخلاق ، وهذا القسم لا يصلح شعارا ولا علامة ظاهرة للمسلمين فضلا عن أن يكون اساسا لشـتى العبادات والمعاملات ..

اما الاعمال الظاهرة فى الشريعة فأنواع ، منها ما يرجع الى المصالح التى تقتضيها الفطرة ، كوسائل الحفاظ على الشخص او النوع من النظافة والستر وطلب الرزق وابتغـاء النسل من طريق شريف ، وكالجهاد دفاعا عن النفس أو العرض أو الحق كيف كان ..

ومنها ما يرجع الى المصالح التى تدركها العقول وتهـدى اليها التجارب كقوانين المعاملات وآداب الاجتماع من الصـدق الوفاء بالعهد والاقساط فى الحكم وبذل العون للمحتاجين والدعوة الى الخير والضرب على ايدى المفسدين ...

وهذان النوعان لا يعد الاستمساك بهما دليلا على اسلام صاحبهما ، فقد يستمسك بهما من هو على دين باطل ومن لا دين له اصلا ، استجابة منه لدواعى الفطرة والعقل دون نظر الى توجيه سماوى ...

بقى قسم العبادات واعنى بها الامور التعبيرية التى لها رسوم وأوضاع دينية خاصة لا تهدى اليها الغرائز ولا العقول ، كالصلاة المحدودة بأوقاتها وأعدادها وهيئاتها ، وكالزكاة المحدودة بأنواعها وانصبتها ومقاديرها ومواقيتها ، وكالصيام المحدود بزمانه وكيفيته وكالحج ، والاضاحى ، والكفارات ونظام التوارث ، والعقوبات المقدرة المعروفة بالحدود ، ونحو ذلك من الامور التى لا حظ للاجتهاد فى وضعها ولا فىتبديلها وتغييرهامهما تغيرت الاحوال والعصور . . .

فهذه الامور جديرة بأن تسمى رموزا دينية ، وشعائر اسلامية لانها لا يتعاون فيها مع باعث الدين باعث آخر من غرائز النفس ولا هدايات العقول ، ولذلك لا يشارك المسلمين فيها أهل دين آخر بصورتها المرسومة فى الاسلام . .

لكن منها ما ليس بواجب قطعى عينا كالضحايا ، ومنها ما لم يقصد وضعه ابتداء بل علق على وقوع شىء من المخالفة لتعاليم الدين كالحدود والكفارات . .

على ان الحدود ونظام المواريث — وان كانا تعبديين — الا انهما من الامور الموضوعة لاقامة مصالح الدنيا بالقصد الاول ، وقد يأخذ بهما من ليس على هذا الدين لما فيهما من المناسبة للعقول . . فلم يبق من فروع الدين ما يصلح أن يكون أساسا لشعائر الدين سوى الاركان الاربعة المذكورة فى الحديث — مع الشهادتين — لانها شعائر ظاهرة خاصة بهذا الدين وحده ، واجبة وجوبا عينيا ، مقصودة للشارع قصدا اوليا ، موضوعة لاقامة مصالح الدين أولا وبالذات ، ومصالح الدنيا ثانيا وبالعرض !

فلذلك كانت لها الصدارة على سائر الفروع ، حتى نظمت مع الاصل الذى هو مبدأ الاسلام ــ يعنى الشهادتين ــ فى سلك واحد ، وصارت القواعد خمسا ..

وهذا الكلام للعلامة الشيخ دراز من خير ما قيل فى شرح بناء الاسلام على خمس ..

٥ ـ ما مكان التصوف فى الاسلام ؟

اذا ذكر التصوف تراءت للعين صور شائهة لرجال يتبعون طرقا شتى ، وتنتظم فى المناسبات الدينية مواكب لها بغام منكر . تخدم السلطات الغاشمة ، وتحيى البدع والخرافات ، وقلما ارتفعت لها راية فى ميدان جهاد ..

والحق ان هؤلاء الغوغاء لا علاقة لهم بالتصوف ، ولا يعرفون منه قليلا ولا كثيرا ..

التصوف ـ سواء كانت الكلمة عربية او مترجمة ـ يعنى حقائق اخرى جديرة بالدرس والتمحيص . والتراث الصوفى يتضمن احيانا قضايا فى ذروة الشرف والسناء ، كما يتضمن احيانا اخرى شطحات لا وزن لها ، بل ينبغى اطراحها والنأى عنها ..

واول ما نحذر منه هو التصوف الفلسفى الذى نقل عن الهنود واليونان الاقدمين عقائد الحلول ووحدة الوجود ومشيا وراء تهويمات عاطفية بعيدة عن هدايات الاسلام ، ولا يمكن ربطها بالوحى الصحيح كما ان هناك تصوفا ضاهى الرهبانية البوذية والنصرانية ، واعلن حربا على الجسد لا عقل فيها ولا جدوى منها ، او استدار للحياة الدنيا فلم ينشغل بها ولم يكدح فيها ، وكون اجيالا من القاعدين والمنسحبين فى ميادين الحياة شقى بهم الاسلام دهرا ، ولم ينجحوا لا فى كسب الدنيا ولا فى كسب الاخرى .

اننا نرفض هذا اللون من التصوف ، ونؤكد ان الاسلام يستنكره ، واظن ان بداهات الفطرة والعلم والارتقاء الانسانى تعترضه ...

لكن هناك تصوفا نبت فى اكناف الايمان والاسلام والاحسان ، ونما على اغذية جيدة من العلم والعمل واستطاع ان يلون المشاعر الانسانية بصدق العبودية ودفعها الى التفانى فى مرضاة الله

والحس الدقيق بوجوده وشــهوده ، وجعل أصحــابه يسعدون بمشاعرهم الباطنة وان كانت احوالهم نكدة فيما يرى الناس ، حتى يقول قائلهم : حبسي خلوة ، ونفيي سياحة ، وقتلي شهادة !!

هذا التصوف يحول المعرفة النظرية المجردة الى عاطفة قلبية مشبوبة ، فالتكاليف تــؤدي برضا واســتحلاء لا بتعب ومعاناة والمعاصي تترك باستغناء واستعلاء ، كما قال يوسف عندما تعرض لاغراء الملكة وصويحباتها وفرش له طريق الغواية بالازهار «رب : السجن احب الى مما يدعونني اليه والا تصرف عنى كيدهن أصــب اليهن واكن من الجاهلين » (١) !!

وانتقال العلم من تصور ذهني جاف الى شعور قلبي رقيق عطــاء الهي جليل القدر ، وقــد اشـار ــ اليه القرآن الكريم وهو يذكر امتنان الله على أصحاب رسوله « واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم ، ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة .. » (٢) . كما أشار اليه النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله « ذاق حلاوة الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا » . ويقول علماء النفس : ان للشعور ثلاثة مظاهر هى الادراك والوجدان والنزوع .

ونقول نحن : من اراد الله به خيرا جعل ادراكه يقوم على الصــدق ، وجعل وجدانه يقوم على العمق ، وجعل نزوعه يقوم على الشوق ..

اننا عندما نرمق عظماء المؤمنين نجدهم اوتوا من عمق العاطفة بقدر ما أوتوا من صدق المعرفة ومن ثم يكون نزوعهم حارا ممتدا .

---

(١) يوسف : ٣٣ (٢) الحجرات ٧ ، ٨

وتدبر الايات فى وصف موسى عليه السلام « ما اعجلك عن قومك يا موسى ؟ قال هم اولاء على اثرى وعجلت اليك رب لترضى » (١) .

وتدبر حرارة الحب ونزوع الشوق فيما روى من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعرض ثوبه لبواكير المطر ، ويقول : « هذا مطر حديث عهد بربه . . »

أفكذلك نرى جماهير المتدينين ؟ أو هل يرتفع علماء الدين الى هذا المستوى ؟ .

فى قراءاتى وتجاربى رأيت ناسا على حظ حسن من علوم الشريعة واحكام الفقة ، بيد ان قلوبهم خاوية من الاحساس اللطيف ، والرغبة فى التسامى ، والحب للاخرين . . كما رأيت ناسا فى مشاعرهم لطف ، وفى مسالكهم ايثار لكن يشينهم قصور علمى وفقه قليل فى شرائع الاسلام .

كلا الصنفين مسيىء ومقصر ! والواقع ان العالم الذى لا قلب له كالشاعر الذى لا وعى له بلاء على الاسلام وعائق عن الانتفاع به . .

فالدين عقل وعاطفة ، وعلم وادب ، ونظر صائب ، وبصيرة نيرة .

ومن سوء حظ الثقافة الاسلامية فقهاء لا دراية لهم بعلم القلوب ونهج التربية ، ومتصوفين صفر الايدى من قوانين الشريعة وضوابطها !

والراسخون فى العلم سالمون من هذه الآفات ومن يقرأ لابن تيمية وابن القيم والغزالى وابن الجوزى والرازى وغيرهم يرى رجالا على درجة رفيعة من جيشان المشاعر والاستبحار العقلى

---

(١) طـه : ٨٤

واسمع للامام المدقق ابن القيم وهو يحدو النفوس الى الدار الاخرة ، ويقول لكل سائر على الدرب :

فحى على جنات عدن فانها   منازلك الاولى ، وفيها المخيم

أو الى أبى حامد الغزالى الذى أشرف على تفكير ارسطو وافلاطون ، واستبان عثراته وكشف ما أعوج منه ، ومع هذا الاستعلاء العقلى فهو يتحدث عن استدامته لذكر الله حتى اذا سكت لسانه ظل الفؤاد على حالته يلهج ويردد ولا ينقطع له صدى !!

وعندى أن تفاوت هؤلاء الاعلام فى آرائهم يرجع الى تفاوت العلل التى عالجوها وتشخيص الاسباب التى أدت اليها ، ذلك الى جانب ما بين طبائع البشر من خلاف فى الاذواق والآفاق .

والقدر المقبول ، بل المطلوب ، من التصوف يكون فى الميادين الآتية :

أولا : فى دراسة البواعث النفسية وفرض رقابة صارمة على بواعث العمل حتى تصفو النية من كل كدر وتخلص لله سبحانه .

ويلاحظ ان النفس الانسانية شديدة المكر واسعة الحيلة ، وانها قد تحقق ما تهوى عن طريق ظاهره الطاعة ، وباطنه اشباع الهوى ..

ثانيا : التمرس بمقام الاحسان ، وطول البقاء فى نطاق أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك .

ولا يتم ذلك بتالق ذهنى فى خلوة بعيدة ، وانما يتم مع التقلب فى البلاد والتعرض للشدة والرخاء والصحة والمرض والنصر والهزيمة .. الخ

ثالثا : تتبع آيات الله فى الانفس والافاق ، ومدارسة الحاضر والماضى ، ومحاولة الارتقاء الى مستوى — الكتاب الكريم والسيرة

الشريفة ، فان الابواب كلها موصدة امام من حرم التآسى بمحمد صلى الله عليه وسلم فهو امام الاتقياء وسيد المربين ..

وفى هذا المجال أذكر أننى أفدت افادة عظيمة من ابن عطاءالله السكندرى ، وقد شرحت جملة من حكمه فى كتابى « الجانب العاطفى من الاسلام » .

واذا كان سعد زغلول قد وصف ادب « الرافعى » بأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم فانى — مع اكبارى للرافعى وأدبه — أرى ان كلمة سعد أصدق ما تكون فى حكم ابن عَطاء الله رحمه الله . وأعرف أن ناسا سيقولون أننى خلطت بين تعاليم الاسلام وشمائل الانقياء من ناحية ، وتراث الصوفية وتعاليم رجالهم من ناحية أخرى . .

ولو صدق هؤلاء فسيكون الخلاف على أسماء لا على مسميات ، ويكون سهلا . والمهم أن تتوقد روحانية الانسان من خلال كيانه المادى ، وتشرئب عواطفه الى السماء بدل ان يخلد الى الارض .

وان يطالع أمجاد الالوهية فيما يرى ويسمع ، ويتجافى عن دار الغرور ، ويطمئن الى دار الخلود !

٦ ــ ما موقف أهل الكتاب فى الاسلام ؟

اذا تحدثت ــ انا المسلم المحرج فى هذا العصر ــ عن اهــل الكتاب ، شعرت بظلم فوى القربى ومقــدار حزه فى النفوس . وشعرت بالدهشة للضغائن التى اكنها القوم ضــد محمد وكتابه ورسالته وما كان ينبغى بتة أن يقابل الاسلام بكل هذه البغضـاء ولا ان يلقى نبيه كل هذا النكير .. بدا الحــديث عن أهل الكتاب مقرونا بحسن الظن ورجاء الخير من جانبهم وانتظــار عونهم فى مواجهة عبدة الاصنام الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ، فاذا كذب الوثنيون التوحيد ، وخاصموا صاحبه فان اليهود والنصارى لن يفعلوا ذلك !

وشرحا لهذا الموقف المرتقب يقول الله تعالى « ويقول الذين كفروا : لست مرسلا ! قل : كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب (١) !

وعندما يوغل المشركون فى عنادهم يعتز المسلمون بأن نفرا من اهل الكتاب ايدهم ، وصدق ما لديهم ، ودخــل فى دينهم ، قال تعالى « ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون . الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، واذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين » (٢) .

وربما تعصب بعض اليهود والنصارى ضد الاسلام ، وتحاملوا على نبيه ودعوته ، وتجهموا لما تلقــاه الرسالة من رواج هنا أو هناك فما الموقف منهم ؟

يقول الله تعالى « ولا تجادلــوا اهل الكتاب الا بالتى هى أحسن ، الا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل الينــا

---

(١) الرعد : ٤٣ (٢) القصص : ٥١ ــ ٥٣

وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن لــه مسلمون » (١) .

لكن جمهرة اهل الكتاب ــ خصوصا اليهود ــ رفضوا الاعتراف بالنبى الجديد ، ونافسوا المشتركين فى اطفاء نوره ، واقتلاع جذوره ووضع العوائق فى طريقه حتى ينفض الناس عنه .

كان من الممكن بمقياس العقل والمصلحة ــ ترك الاســلام يعرض نفسه على الناس ، وهو لا يملك سلاحا الا الاقتناع المجرد « ان هذه تذكرة ، فمن شاء اتخــذ الى ربه سبيلا » (٢) ومن لم يشأ فليدعنا وشأننا وندعه وشأنه .

وتدبر هذا التوجيــه الالهى « استجيبوا لربكم من قبل ان ياتى يوم لا مــرد لــه من الله ، مــا لكم من ملجــأ يومئذ وما لكم من نكير ، فان اعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظــا ان عليك الا البلاغ (٣) .

فليرفض الاسلام من كرهه ، فلن نحاول اكراهه على شيء . ان النبى مبلغ وحسب .. لكن أهل الكتاب وقفوا فى جبهة واحدة مع الوثنيين يعترضون الدين الجديد ويرفضــون مهادنته ولا يأذنون لــه بالمرور ..

فاذا انشرح بالاسلام صــدر ضاقت لذلك صدورهم وتمنوا لصاحبه ان يرتد عن ايمانه الجديد الى جاهليته القديمة « ود كثير من أهل الكتاب لو يرد ونكم من بعد ايمانكم كفارا ، حسدا من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى ياتى الله بأمره ... » (٤) .

---

(١) العنكبوت : ٤٦ (٢) المزمل : ١٩

(٣) الشورى : ٤٨ (٤) البقرة : ١٠٩

والغريب أن أهل الكتاب بعد خمسة عشر قرنا من مطلع الرسالة الخاتمة لا يزالون كما هم ، لم يثوبوا الى رشدهم . تهدد الفلسفات المادية وجودهم ، ويزحف الالحاد الاحمر على حضارتهم ، وبدل أن يتعاونوا مع المسلمين على مقاومة الظلام المقبل ، يتجاهلون كل شيء الا ضرورة القضاء على الاسلام وابادة اهله ...

سمعت واحدا من أهل الكتاب يقول : من الصعب تصديق رجل مولع بالنساء ، تزوج تسعا منهن ، من الصعب تصديق أنه نبي ... !

قلت : ومن السهل التصديق بنبوة رجل زنى ببناته وهو مخمور .. !!!

ومن السهل التصديق بنبوة رجل زنى باحدى قريباته خداعا أو اغتصابا .

ومن السهل التصديق بنبوة رجل تعجبه امراة مجاهد فى سبيل الله ، فيستقدمها ويضاجعها ويضع خطة لقتل زوجها حتى ينفرد بها ... !!

هؤلاء فى مواريثك الدينية انبياء عظام .. أما محمد الذى تزوج بعض الارامل وعاهدهن على ترك الدنيا وزينتها ، وطلب منهن أن يقمن الليل معه متهجدات ، وما تزوج واحدة الا لسبب اجتماعى ، وعرض عليهن جميعا مفارقته ان رغبن فى المتاع العاجل ، محمد بعد هذا كله ليس جديرا بالنبوة ، ان الزناة فى منطق العميان أولى بها منه !!!

وتوجد الان عصابات من المبشرين والمستشرقين والمستعمرين تقاتل الامة الاسلامية ، وتقترف المناكر للاتيان على رسالة محمد ، وتشويه سمعته واطلاق الاشاعات الكاذبة حوله ...

على أن هنا ناسا من أهل الكتاب أوتوا سـعة فى العلم ، ونزاهة فى الحكم ورغبة الى الله ، آمنوا بموسى وعيسى ومحمـد جميعا ، ورفضوا ان يهتوا عباد الله الصالحين ، ويناصبوهم العـداء . وقد أشار القرآن الكريم الى أولئك الصنف الطيب من اليهود والنصارى منوها بسيرتهم وعدالتهم « وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ومـا أنزل اليكم وما انزل اليهم خاشـعين الله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم » (١) كما قال تعالى : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الاخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما » (٢) .

ويمتاز هؤلاء : ببحثهم عن اليقين ، وعشقهم للحق وازدرائهم للظنـون السـائدة مهمـا غلب سلطانها وقـد التقيت بالدكتور « موريس بكاى » فى ملتقى الفكر الاسلامى بالجزائر وسـمعته يتحدث باعجاب واحترام شديدين عن اسلوب القرآن فى تناولـه للحقائق العلمية والتاريخية ، وكيف عصم من الاخطاء التى تورطت فيها كتب مقدسة أخرى .

وقد سأله أحد الناس : لم لم يعلن اسلامه ؟ فأجاب : قلما أسير الا متوضئا . . !

وقد أسلم بعض المستشرقين ممن غالبوا قيود التقاليـد ، ونلحظ أنه اذا أسلم عشرة آلاف نصرانى فلن يسلم الا يهـودى واحد ! ان النصارى ارق قلوبا والين عريكة « . . . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . واذا سمعوا مـا أنزل

---

(١) آل عمران : ١٩٩ (٢) النساء : ١٦٢

الى الرســـول ترى أعينهم تفيض من الـــدمع ممـــا عرفوا من الحق . . » (١)

وهناك أهل الكتاب خطوا الى الامام خطوة واحدة ، فقالوا : ان محمد رسول حقا ولكن الى العرب وحدهم !

وقد ظهر هذا الفريق قديما وحديثا ، لانه تأمل فى ســـيرة النبى وحبه العميق لله وتفانيه فى نصرته وحرارته فى دعـــوته ، واستعداده للقائه بامداد لا تنقطع من العبادات والجهاد فاستيقن أن ذلك كله يستحيل أن يصدر عن كاذب ، فماذا يصنع ؟ قال : انه رسول للعرب حتما !!

ونحن مع ترحيبنا بكل خطوة سلام من خصومنا نقول : ان هذا الموقف لا يكفى ولا يشفى فمحمد يحمل اشفية السماء الى أهل الارض أجمعين ، والتنكر لعموم الرسالة قريب من انكار أصلها . .

والواقع أن المطالع للقرآن الكريم يجتذبه هـــذا الحمـــاس الجارف فى الحديث عن الله ووحدانيته وأسمائه الحسنى ، والحاح محمد — باسم الله — على الخلق كلهم أن يعودوا الى ربهم الاحد — « ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين ، ولا تجعلوا مع الله الها آخر انى لكم منه نذير مبين » (٢) ارايت ؟ انه نذيـــر مبين وحسب ! من يرفض هذا الاخلاص الرائع ؟؟

وهناك أهل كتاب يحيون فى نطاق مـــا ورثوا لا يعرفون عن محمد شيئا ، أو يعرفون ترهات من رجال الدين التائهين أو بعض السادة الموتورين .

وتبصير هؤلاء بالحقيقة كلها دين فى أعناق الدعاة المسلمين لم ينهضوا بسداده ، ترى متى ينهضون ؟ وحساب هؤلاء الى ربهم!

---

(١) المائدة : ٨٢ ، ٨٣ (٢) الذاريات : ٥٠ ، ٥١

والذى اراه انهم مكلفون — فى غياب الوحى عنهم — بمقدار مـــا أوتوا من ذكاء وقدرة على نقــد الموروثات الرديئة واتخـــاذ موقف مـــا منهـــا .

ولا اظن هذا الموقف ينطبق على اهل الكتاب الذين يعيشـــون بين ظهرانى المسلمين ! والذين جند الاستعمار العالمى نفرا منهم ارتكبوا المذابح واقترفوا المآسى وخانوا الجوار .... !

على أن الاسلام وضع شرائع فى معاملة اهل الكتاب والتلطف معهم يمكن أن نذكرها فى الفصل القادم عند الحديث عن الرسـالات السابقة ...

وهناك حـــديث يعطى معناه للوهلـــة الاولى حكمـــا لم يقل به الفقهاء، ومن ثم فان قبوله مطلقا أو رفضه مطلقا لا يجوز ! والواجب استبانة معناه الحقيقى كما قرره الراسخون فى العلم !

والحديث من رواية البخارى « امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله » فان قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها ... » مصدر الخطأ فى الفهم « اقاتل الناس » فقد طارت اذهان الى ان كلمة (الناس) تعنى البشر كلهم! وهذا غلط باجماع العلماء فانهم اتفقوا على أن الحديث لا يتناول أهل الكتاب من يهـــود ونصارى .. !!

لمـــاذا ؟ لان المهتدين من هؤلاء اذا ضربت الحرب بيننا وبينهم ونسوا منطق الايمان والحلال والحرام فى تصديهم لنا ، لم نقاتلهم حتى ينطقوا بالشهادتين بل اذا كسر الله شوكتهم ، بقوا عـــلى اديانهم ، وجردناهم من اسلحة العدوان ، وتولينا نحن الدفـــاع عنهم اذا هاجمهم احد ، وعليهم — والحالة هذه — ان يسهموا فى نفقات الحرب .

وهذه ما ابانته سورة براءة : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . فليست الغاية من القتال اذن أن يقولوا : لا اله الا الله ، كما جاء فى الحديث !!

فاذا كان أهل الكتاب مستثنين من الحديث المذكور . فهل يتناول الوثنيين كلهم ؟؟ والجواب لا ! ففى حديث آخر صحيح الحاق للمجوس بأهل الكتاب«سنوابهم سنة أهل الكتاب»الحق أن الحديث فى مشركى العرب الذين ضنوا على الاسلام واهله بحق الحياة ، ولم يحترموا معاهدة مبرمة ولا موثقا مأخوذا . وقد منح هؤلاء اربعة اشهر يراجعون أنفسهم ويصححون موقفهم ، فان أبوا الا القضاء على الاسلام وجب القضاء عليهم وقد فصلت سورة براءة هذه القضية فى أوائلها « الا الذين عاهدتهم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم احدا فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم » .

أما من نصبوا أنفسهم لحرب الله ورسوله وعباده الى آخر رمق فلا يلومون الا انفسهم .

وقد يتساءل البعض : لماذا جاءت كلمة الناس عامة فى الحديث « أمرت أن أقاتل الناس » والجواب أن (ال) كما يقول علماء اللغة للعهد ، تأمل قوله تعالى « الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » فكلمة الناس الاولى : تعنى بعض المنافقين ، والثانية : تعنى بعض الكفار . وهذا هو المعهود فى اذهان المخاطبين وتأمل قوله تعالى : « ورأيت الناس يدخلون فى دين الله افواجا »ان الناس هنا ليسوا البشر جميعا ،أنهم العرب وحسب !

رأيت فريقا من الناس يخدعه الظاهر القريب فى هذا الحديث فيتوهم أن الرسول يشن حربا شاملة علـى البشر ، ولا يزال يحرجهم حتى ينطقوا بالشهادتين .

وهذا فهم ــ كما أسلفنا ــ لم يقل به فقيه ، ولا يستقيم مع مرويات أخرى فى غاية الصحة والوضوح ، ولم يؤثر عن تاريخ المسلمين وهم يقاتلون « الامبراطوريات » الاستعمارية التى أظلم بها وجه الحياة قرونا عدة .

ورأيت ناسا آخرين يسارعون الى تكذيب الحديث ، دون وعى ويتخذون منه ذريعة الى مهاجمة شتى الاحاديث الصحيحة دون تمحيص لسند أو متن ، ودون تقيد بقواعد اللغة أو مقتضيات السياق ، وقد رأيت لاولئك القاصرين افهاما فى كتاب الله لابد من تفنيدها واهالة التراب عليها .

٧ – هل الايمان بالانبياء الاولين والكتب السابقة ضرورى فى الاسلام ، وما حكمة ذلك ؟

وجـــود العالم لم يبدا ببعثة محمد ، ولا بولادة عيسى ، ان قوافل البشرية تنساب فى دروب الحياة قبل ذلك بقرون طويلة .

ورب العباد لم يدع عباده حيارى خلال هذه القرون . لقـــد اصطفى (موسى) من بين الناس وقال له « وانا اخترتك فاستمع لما يوحى ، اننى انا الله لا اله الا انا فاعبدنى واقـــم الصـــلاة لذكرى » (١) ومن قبل موسى بأجيال اختار ابراهيم والهمـــه أن يقول لقومـــه « .. اعبدوا الله واتقوه ذلكم خـــير لكم ان كنتم تعلمون . انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقـــون افكا . ان الذين تعبـــدون من دون الله لا يملكـــون لكم رزقـــا فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه ، واشكروا له اليه ترجعون » (٢) .

ومن قبل ابراهيم بعث نوحا الذى مكث قرابة عشرة قرون يلح على قومه أن يعرفوا ربهم ويوحدوه ويستغفروه ويســـألهم موبخا (ما لكم لا ترجـــون لله وقارا وقد خلقكم أطـــوارا الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ..) (٣) .

ان المعانى التى رددها هؤلاء النبيون خالدة ، والحقائق التى شدوا الجماهير اليها يجب ان يبقى صـــداها مـــا بقيت الارض والسماء .

والنبى الخاتم أكد انه لا يبنى على فراغ ، وانما على دعائم مهدها السابقون ، وانه يذكر الامم كلها بالاصول التى جهلتهـــا او

---

(١) طه : ١٣ ، ١٤ (٢) العنكبوت : ١٦ ، ١٧
(٣) نوح : ١٣ ، ١٦

تجاهلتها ، الله الواحد ، اليوم الاخر ، الطاعة المطلقة لرب الارض والسماء ، التزام صراطه المستقيم ، الاحتكام اليه فيما شرع ، التعاون على البر والتقوى ، الامر بالمعروف والنهى عن المنكر واقامة العدالة وتحقيق الخير .. الخ .

وفى هذا يقول الله للمسلمين « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا ، به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا ... » (١)

ونحن المسلمين نجزم بان كل رشد آتاه الله رسله الاولين فقد أتى القرآن به ، ثم أربى عليه بعد ذلك ما تفتقر اليه الاجيال اللاحقة مما يسد كل ثغرة ، ويمحق كل شبهة ويرد همزات الشياطين .

اننى انا المسلم اشعر بولائى لموسى وعيسى ومن قبلهما من انبياء الله ، ومحبتى لاولئك المصطفين الاخيار نبعت من أن محمدا عرفنى بهم ، وأعلن أخوته لهم وجهاده معهم فى طريق مشترك !

وفى السورة الاولى — بعد فاتحة الكتاب — تذكر أصول التقوى كما بينها القرآن الكريم فتشرح على هذا النحو « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك .. » (٢) .

ومع هذا التلاقى البين بين الاسلام والاديان الاولى ، فان تاريخ الحياة مع أتباع الاديان محزن موجع ، قال اليهود : ليست النصارى على شىء وبادلهم النصارى الحكم نفسه ، ثم قال

---

(١) الشورى : ١٣ (٢) البقرة : ٢ ، ٤

الاثنان معا : ليس المسلمون على شيء !! وقال الماديون جميعا : ليست الاديان السماوية الثلاثة الا خرافة ، وليس اتباعها على شيء !

ويظهر أن النفس الانسانية تشدها الى شهواتها خيوط قوية ، وقد يكره المرء ان يظهر عبد غرائزه فماذا يصنع ؟

يستبدل بهذه الخيوط أوامر سماوية شريطة أن تحقق له ما يشتهى ! فاذا هو ينتمى الى أحد الاديان ظاهرا ودينه الباطن عبادة نفسه ، وبلوغ هواه ، وقد يكون التدين الفاسد أضر بالحياة من الجهل بالدين كله !!

وعندما نطالع مسيرة الانسانية من قديم تفجؤنا هذه المأساة. ولنتدبر قوله تعالى « كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم .. » (١) الجملة الاخيرة ازاحت الستار عن أسباب الاختلاف ، والتعادى والتقاتل الذى وقع بين المتدينين أنه البغى .. !!

والانسان يتحول الى وحش خبيث عندما يغلف شهوته بالقيم الرفيعة ، ويزعم انه يقاتل من اجلها والواقع انه يقاتل من اجل شىء آخر .. !

لنترك هذه التهم فكل دين ابتلى بمستغلين اساءوا الى الناس باسم رب الناس . ولنشرح تحديد الاسلام لعلاقته بمن سبق من رسل وبما سبق من كتب .

---

(١) البقرة : ٢١٣

عندما شاء اهل الكتابين السابقين تحكير الهدى على ما عندهم وحدهم « وقالوا : كانوا هودا او نصارى تهتدوا . . . » (١) قال الله لاتباع محمد « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (٢) .

ان هناك وحدة دينية يدعو اليها النبى الخاتم تقوم على أصول عامة جامعة ، وصحيح ان هناك اختلافا فى الفروع تنوعت من أجله الشرائع على مر العصور ، لكن الخلاف فى هذه الشرائع ليس ذا بال .

وعلى اية حال فان شبكة القوانين التى رسمها القرآن ، واوضحتها السنة هى الطريقة المثلى لضمان المصالح المنشودة الى آخر الدهر .

ولم يقع التقاتل على هذه التشريعات الفرعية ، انما وقع التقاتل على أركان العقيدة واصول الايمان ، وان كان الشرود المبدئى قد جرالى مخالفات اهدرت معالم الحلال والحرام ، وجرأت على اقتراف الربا والزنى والسكر وكثير من الاثام . .

ونحن المسلمين المصدقين بنبوة موسى وعيسى وبما انزل الله عليهما من كتب نرى ان اليهود والنصارى هجروا ما انزل الله اليهم ، وتركوا الايام تجر عليه ثوب النسيان .

ومن هنا اوحى الى النبى الخاتم ان يستمسك بما أوتى ، وان يلتزم الانصاف فى معاملة اتباع اولئك النبيين « فلذلك فادع واستقم كماامرت ولا تتبع اهواءهم وقل : آمنتبما انزل الله منكتابوامرت لاعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لا حجة بيننا

---

(١) ، (٢) البقرة : ١٣٥ ، ١٣٦

وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير»(١) ونثبت هنا ابا جليل القدر التزمه القرآن الكريم وهو يحكى سير الانبياء الاولين ، وما تعرضت لــه هذه السير ــ بعد ــ من تحريف يتصل بجوهر الايمان ، فقد ذكر سفر التكــوين ان الله تنزل من عليائه وتناول الطعــام مع نبيه ابراهيم !!

وقد ابى القرآن مناقشة هذه القضية الغريبة ، واكتفى بذكر قصة ضيف ابراهيم المكرمين على حقيقتها دون تكاذيب لاحــد م الرواة . . !!

والمعروف ان الله انزل التوراة على موسى قيل : كتبها لــه بيده ، وامره ان يأخذ بنى اسرائيل باحكامها . .

والذى يقرأ التوراة اليوم يجد فيها مشهدا مؤثرا لوفاة موسى . وكيف أنه عاش مائة وعشرين سنة فلم يتغضن له جلد ، ولم يكل له بصر ثم مات ، وناحت عليه نسوة اسرائيل كــذا يوما ، ودفن بعرصات « مؤآب » ولم يعرف قبره !!

وظاهر ان هذا الكلام لمؤرخ كان يســجل حياة موسى بين قومه ، ولكن كلام المؤرخ تسلل بطريقة ما الى التوراة نفســها . التوراة التى نزلت على موسى ! واصبح جزءا منها !!

ولم يشأ القرآن الكريم ان يكشف هذا الزيف ، مكتفيا بتقرير العقائد والاخبار الصحيحة ، على نحو ما ورد فى عدد الفتية اهل الكهف ، ما قيمة الجدال الطويل هنا وهناك ؟ « فلا تمار فيهم الامراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا » (٢) .

ومع ذلك الخلط فقد اعتبر الاسلام أن ما لدى القوم من مواريث يجعلهم أهل كتاب ويجعل مكانتهم ارفع من مكانة الملاحدة وعبدة

---

(١) الشورى : ١٥ (٢) الكهف : ٢٢

الاصنام ، وان ما بقى لديهم من تعاليم سماوية يتيح مخالطتهم ، والاكل من أطعمتهم ، والتزوج من نسائهم وحماية معابدهم وشعائرهم ....

« يسألونك : ماذا أحل لهم ؟ قل : اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا اتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان » (١).

والمقصود من هذا كله تذويب الجفوة ، وتمويت الفرقة والتعرف بما لدينا فى جو من السماحة والود . واحسب أن هذه الحكمة من وراء السكوت المتعمد عن مناقشة مواضع التحريف الكثيرة فى مرويات القوم ، وانها جزء من نطاق العفو الذى ورد فى قوله تعالى « ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » (٢) .

وما اجمل أن يعرض موسى قضية اليوم الآخر فى خطاب الله له « ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » (٣) والتوراه القائمة ليس فيها ذكر ليوم القيامة أو الجنة والنار ..

وما أجمل أن يعرض عيسى نفسه قضية التوحيد فيقول لقومه : « أن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » (٤)

هكذا عرض القرآن النبوات السابقة لتبقى تعاليمها مع النبوة الخاتمة هداية للانسانية حتى يومها الاخير ...

---

(١) المائدة : ٥ (٢) المائدة : ١٤ ، ١٥
(٣) طه : ١٥ ، ١٦ (٤) آل عمران : ٥١

٨ — ما مفهوم الاسلام عن الحياة والموت ؟

نظرت عن كثب الى الفندق الذى أنزل به — وكنت فى أحد أسفارى — ثم دار فى نفسى هذا السؤال :

ترى كم شخصا سكن غرفتى قبل أن اسكن فيها : وكم شخصا سيحل مكانى بعد ما أغادرها : ما أوهى علاقتى بهذه الغرفة ..! واحسست أن هذه الغرفة ، بل احسست أن الفندق كله شبيه بهذه الدنيا نظهر بها بغته ثم نختفى .

ان ناسا كثيرين قروا هنا ثم ولوا .

لقد رأى بعضهم بعضا كما يرى النزلاء أنفسهم حينا فى صالة الفندق وكل مشغول بشأنه يعيش فى جوه الخاص فما تربطه بغيره الا نظرة عابرة وبسمة عارضة !

هكذا التقى أبناء كل جيل بأترابهم ، ثم ... ثم .. انتهوا .

وتذكرت الاية التى وصف الله بها هذه الحياة « ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار — يتعارفون بينهم ... » (١) وشعرت بأن الدنيا تظفر من اهتمامنا بأكثر مما تستحق !!

هل هذه حقيقة الدنيا : وترددت شيئا ما فى الاجابة ثم قلت : على أية حال لا خلود لنا هنا، أننا راحلون يوما . ولكننا نؤثر أن نتناسى ذلك اليوم !

لست أسجل هذه الخاطرة تهوينا لشأن الدنيا ان شأنها يجب أن يهوى عندما تحاول احتواءنا ، وعندما نفقد فيها عزيزا فنكاد نهلك أو عندما نكسب فيها نفيسا فنكاد

---

(١) يونس : ٤٥

نطير غرورا وفرحا وعندما نحتبس داخل مآربنا العاجلة فنكاد نلقى مصير دودة القز التى تختنق داخل ما تنسج بريقها الناعم ....

والمخدوعون فى الدنيا أعداد فوق الحصر ، أن قتالهم رهيب للحصول على مغانمها وتصارعهم دامى الجوانب للعب منها دون وعى !

وتحت الاقدام فى هذه الساحة الخسيسة ارحام مقطوعة ؛ وحرمات منتهكة ومروءات ضائعة،وصداقات منسية ، ومستضعفون ديسوا . واشياء كثيرة محزنة ...

ما أحقر الدنيا يوم تنال بهذا الثمن ، وما احراها بهذا الوصف الحكيم « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ، كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الارض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرا » (١) .

لكن للحياة الدنيا جانبا آخر من بحثه ودراسته ، اننا نوجد فيها ونقضى فيها أمدا لا ندرى مبدأه ولا منتهاه ، والذى أوجدنا اخبرنا اننا لن نترك سدى ، وانه لم يخلقنا عبثا !!

اننا أمام عمل جاد وامتحان خطير .. ! وان علاقتنا بالاشياء والاشخاص محكومة بقوانين دقيقة ، واننا خلقنا للبقاء لا للفناء ؛ وأن اليوم بذر وغدا حصاد ..

وان المكان الممهد والزمان المحدد هما ساحة سباق هائل توشك نتائجه ان تعلن ! « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم أحسن عملا ...» (٢) واذا كانت الدنيا قنطرة لما وراءها فمن الحماقة محاولة الخلود فيها ؛ أو حصر الاهتمام فى مآربها وحسب !

---

(١) الكهف : ٤٥ (٢) الملك : ٢

ان ما يستصحب منها للغد المرتقب هو الحق ، والذى يعيش عبد بطنه دابة ، وقيمته ما يخرج منه ! والذى يسببه جنون المال والجاه ، ويقلقل كل شىء لاثبات ذاته رجل تائه !

كان ابو الطيب المتنبى يرى أن العظمة هى مجد السلطة ونيل الحكم .

وتركك فى الدنيا دويا كأنما   تداول سمع المرء أنمله العشر !!

كان يرى نفسه قمة يجب ان تتوج بالابهة والسناء ، وما لم يتح لاحد ! أليس القائل :

وكل ما خلق الله وما لم يخلق   محتقر فى همتى كشعرة فى مفرقى !!

وازن بين غرور هذا الانسان الذاهل وبين قول ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه .. « من مدحك فانما مدح مواهب الله عندك ، فالفضل لمن منحك لا لمن مدحك » ..

كذلك يستكين المؤمن لله ، ويعرف نعمته ، ويقر بعبوديته ، ويمهد لنفسه عند عودته !

ان أغلب الناس بهم من نزق أبى الطيب ، وشرودهم فى الحياة يرجع الى ذلك ، وما أحوج الناس الى فهم قوله تعالى « وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون ، ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » (١) الحياة الصحيحة فى الاسلام ان تعتبر الدنيا لك ولست لها،ان الله لم يخلق الانسان ليجوع ويعرى ويذل ويخزى كلا ان له حقوقه المصونة لا فى الضرورات فقط ولكن فى المتاع والزينة ! لكن على شرط ان يعرف المنعم ويشكره .

---

(١) النحل : ٥٣ ، ٥٥

بيد ان اكثر الناس يلهيه التهام ما يطلب عن رؤية مرسله كالحيوان الذى يتبع حامل البرسيم او الفول ، فاذا نفذ ما بيده من طعام انصرف عنه ! فقد انتهى الرباط الذى يشده اليه .. !! لماذا يكون بعض الناس كهذه الانعام ؟ لماذا ننسى من يطعم ويكسو . ولا نذكره الا اذا — احتجنا ؟

ان الله انبت الحدائق لتبهجنا ، وملكنا الانعام تغدو وتروح الى الحقول وقال لنا : « لكم فيهـا جمال حـين تريحون وحين تسرحون » (١) ورصع السماء بالدرارى اللامعات ، وقال : « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين » (٢) !

ورفض مسـالك اهل القنوت الذين يحبون الحياة الخشـنة فوق أرض تفور بالبركة والعطاء وقال : « من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٣) ؟

المعقول — بعد هذا الرزق المبسوط — أن ننتفع بهذا الفضل الاعلى ونقدر صاحبه حق قدره .. ! والحياة الصحيحة فى نظـر الاسلام أن تعرف ربك من خلال آفاقها . ان المهندس الماهر يضع بصماته على الالة المحكمة التى يبدعها ، ورب العالمين — وله المثل الاعلى — اظهر صفاته العلى فى خلقه هذا العالم الرائع ..

وحياتنا نحن البشر فوق ظهر الارض فرصة لا تتكرر لمعرفـة الله ، وانشاء علاقة صحيحة به تبارك اسمه وانا لا انفلسف حين أصف اعجابى بعظمة الله ، ولا اذهب بعيدا ! اننى املأ صـدرى بالهواء ثم اقول : سبحان من غلف كوكبنا بهذا الجو الذى تتنفس فيه الوف مؤلفة من الناس والدواب والطيور ان هذا الهواء سواء هب ريحا عاصفة أم نسيما عليلا شىء عجيب الخلق !

---

(١) النحل : ٦ (٢) الحجر : ١٦
(٣) الاعراف : ٣٢

وهذا الماء الذى يلف أرضنا ؟ ان العلماء قالوا : أنه يكون ٨٠٪ من سطح هذه الكرة الطائرة حول امها الشمس ، ومع جريها الحثيث ما سقطت منه قطرة فى الفضاء ، وكان المفروض أن ينسكب فى كل ناحية ! من يمسكه فى بحاره وأنهاره ؟ ويجتـــذبه ليبقى فى قراره ؟ انه الله .

ان الملكوت الرحب الذى نسكن جانبا ضئيلا منه يشير الى ربه ويسبح بحمـــده ، وعلينا أبناء الحياة الدنيـــا ان نتجاوب مع هذه الحقائق حتى اذا غادرناها الى ما بعدها كنا أهلا لجوار كريم !

اما اذا عشنا نأكل ونلهو وحسب فالمصير كالح . وقد نبهنا الى هذه الحقيقة الصارمة « ان هذه تذكرة فمن شـــاء اتخذ الى ربه ســـبيلا » (١) « ذلك اليـــوم الحق فمن شـــاء اتخـــذ الى ربه مآبا » (٢) وحق على أهل الايمان أن يتمكنوا فى الدنيا . ويقدروا عليها بنسعة العلم وقوة العمل لان الله لم يخلق عباده كى يعيشوا على هامش الحياة ، أو يضطرب فى أيديهم زمامها وهو القائل « ولقد مكناكم فى الارض وجعلنا لكم فيها معايش .. » (٣) .

ولهذا التمكن ثمرتان : الاولى حسن ارتفاق الارض ، واستغلال خيراتها فى رفاهة الانسان ومتاعه الى حين ...

والثمرة الثانية : تطويع ما فى الارض من قوى لدعم الحق ، واقامة نظام محكم لجعل الامور تمشى وفق ما شرع الله ، وهـــذا ما تنضح به الاية الكريمة « .... وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » (٤) ..

---

(١) المزمل : ١٩ (٢) النبأ : ٣٩
(٣) الاعراف : ١٠ (٤) الحديد : ٢٥

ان الجهلة بالحياة ليسوا ناسا صالحين ! وكيف يكون صالحا من لم يقرأ عظمة الله فى صحاف كونه ؟ وكيف يكون صالحا من ملكه الله الارض وقال له ولامثاله « هو الذى خلق لكم مــا فى الارض جميعا ... » (١) فعاش ملكا للارض تافها فوق ثراها وملكته هى بدل أن يملكها ؟ وكيف يكون صالحا من سمح للالحاد أن يسبقه فى كل ميدان ويهزمه فى كل نزاع ؟

(١) البقرة : ٢٩

٩ ـ ما فكرة الاسلام عن البعث والجزاء ؟

انكار الدار الاخرة ليس بدعة هـذا العصر ، فمن قديم كان هناك من يكذب الانبياء ويتهمهم بالجنون لانهم يؤكدون أن الموتى سوف يبعثون ويحاسبون ويثابون أو يعاقبون ! كان أولئك المكذبون يقولون للامم التى تسمع وعيد الرسل « هيهات لما توعدون أن هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين »(١)

لكن عصرنا امتاز بأنه زعم للنزعات المادية أصلا علميا . واشاع بان الدين بعيد عن المنطق العقلى !! ومن ثم شاع الالحاد ، وعاش الكثيرون لدنياهم وحدها ، وقلما تذكر الآخرة فى مؤتمر جاد او ينظر اليها على انها حقيقة مقررة ، والذى أراه أن الايمان بآخرة فرع الايمان بالله عز وجل ، فمن آمن بوجوده لم يستبعد قط قدرته على ايجاد العالم بعد افنائه واقامة ساحة عامة لحساب دقيق يلقى فيه كل أمرىء جزاءه « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » (٢) ان الفلاح يستطيع أن يزرع الارض مرة ثانية بعدما حصدها . والمهندس يستطيع اعادة بيت تهدم ، فما الذى يعجز خالق هذا العالم على انشائه مرة أخرى بعد أن يبلغ أجله الذى حدده لـه ؟

« وقالوا : أاذا كنا عظاما ورفاتا أانا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ قل : كونوا حجارة أو حديدا او خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا ؟ قل : الذى فطركم اول مرة .... » (٣) !!

لو كان هـذا الكلام من خالق الكون ـ وعدا مجردا ، ما تأخرت فى تصديقه ! فكيف وانا ارى فى كل لحظة من دنيا الناس

---

(١) المؤمنون : ٣٦ ، ٣٧ (٢) آل عمران : ٣٠
(٣) الاسراء : ٤٩ ـ ٥١

خلقا جديدا يبرز فيه الابداع الاعلى أجلى ما يكون ؟ فى كل ساعة من ليل أو نهار تقذف الارحام بعشرات ومئات من الاجنة السوية الخلق الدوارة الاجهزة المتجاوبة مع عناصر البيئة التى ترتقبها ، فهى تسمع وترى وتعى وتمضى فى طريقها قدما الى استكمال وجودها المقدور ....

هل صنع الابوان شيئا فى هذا التخلق الباهر ؟ اعنى من صنع الحيوان المنوى وأودع فيه خصائص الوراثة المادية والادبية ؟ ومن صنع بويضة الام ومد اليها صفات الاباء والاجداد ؟ « أفرأيتم ما تمنون ؟ أانتم تخلقونه ام نحن الخالقون » (١) ؟

ان انشاء الحياة فى عالم الانسان والحيوان والنبات يتكرر كل يوم فلماذا نستبعد بعثا يتم مثله بين أسماعنا وابصارنا ؟ ان ذلك سر تقريع القرآن للذاهلين عندما يقول : (ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون (٢) .

أن انتشار الجهالة لا يعطيها وجاهة ! واذا كان منكرو البعث كثيرين ، فليسوا الا قطعانا من الغافلين أو المستغفلين !!

وعلى كل عاقل أن يستمع الى هذا النداء « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه . فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى أهله مسرورا وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا .. » (٣).

ان العدالة لا تتحقق فى هذه الدنيا ، فهناك سفلة تبوءوا القمم ، وعباقرة توسدوا التراب ، وقتلى أزهق المجرمون أرواحهم وعادوا يضحكون أو يسكرون .

---

(١) الواقعة : ٥٨ ، ٥٩ (٢) الواقعة : ٦٢
(٣) الانشقاق : ٦ ــ ١٢

ان اثنين وسبعين الفا من عــرب فلسطين ومسلمى لبنان قتلوا فى الحرب الاخيرة ، فلنفرض ان الله ادال للعرب وارتدت لهم الكرة بعد سنين طويلة او قصيرة ، سيكون الجزارون قــد ماتوا ، وقد يعفى عن ابنائهم او احفادهم ــ كما فعل صلاح الدين ــ وقد يقتص ممن لم يقترف جرما !!

ان القوانين الكونية لها منطق فوق ما نعرف ، ولهــا ضحايا يضيعون فى حركتها الدائبة يقول الشـاعر :

وقالوا يعود الماء فى النهر بعد ما ذوى نبت جنبيه وجفت مشارعه

فقلت : الى ان يرجع النهر جاريا ويعشب جنباه تموت ضفادعه !

من اجل ذلك كانت الاخرة حافلة بالانقلابات المثـيرة ، رب كاسية فى الدنيا عارية فى الاخــرة رب مالك هنا يكون مملوكــا هناك ، سيهبط ناس من الاوج الى القاع ويرتفع آخرون من القاع الى الاوج « اذا وقعت الواقعــة ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة » (١) .

ان الاخرة حق لانها تصحيح لاوضاع ، ورد لاعتبار ، وتحقيق لعدل اختبر الله الناس بتأخيره الى حين ــ هذا الحين جزء من نظام الدنيا ، ومن امتحاناتها الصعبة ، ولابد من مراعاته ، ولذلك جاء فى الحديث القدسى ، فى اجــابة دعوة المظلوم « وعزتى وجلالى لانصرنك ولو بعد حين » وجاء فى انتصار المؤمنين على الكافرين « فتول عنهم حتى حين ، وابصرهم فسوف يبصرون ، افبعذابنا يستعجلون فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين . وتول عنهم حتى حين » (٢) .

---

(١) الواقعة : ١ ــ ٣ (٢) الصافات : ١٧٤ ــ ١٧٩

لقد تكرر هذا الحين وانتظاره مرتين فى سياق متقارب ، لان الله لا يعجل بعجلتنا ، ولان سنن الله الكونية فوق تفكيرنا المحدود ، ولكن وزن الذرة من الخير او الشر لا يضيع أو ينسى .. وحديث الاسلام عن القيامة والحساب تناول مرحلتين : الاولى مرحلة الدمار الذى ينزل بهذا العالم ، والانهيار الفلكى الذى يمحو نظامه ويطفى نجومه ! وقد جاء فى السنة : من سره أن يرى القيامة رأى عين فليقرأ « اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت ... » « اذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت » « اذا السماء انشقت واذنت لربها وحقت .. »

ويظهر أن الهول الذى يصحب هذه الاضطرابات الشاملة يغمر الافئدة بالفزع والرهبة فترى الناس سكارى وما هم بسكارى ...

ومجىء الساعة يكون بغته ، والناس ما ضون فى أعمالهم العادية . الآكل يرفع لقمته الى فمه ، والبناء يشيد البيت الذى يبنيه ، والتاجر يناول البائع السلعة التى يطلبها ، وهذا وذاك فى جدالهم — حول شئونهم ، مستغرقون فيما يعنيهم ! يقول تعالى « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ؟ ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون (1)

اما المرحلة الثانية فهى مرحلة الحساب الذى يشمل الاولين والاخرين . ويحشد أبناء آدم منذ بدءوا حتى انتهوا ، ويستعرض أعمالهم منذ عقلوا حتى ماتوا !!

قيل لعلى بن ابى طالب : كيف يحاسب الله الناس على كثرتهم فى يوم ؟ قال : كما يرزقهم على كثرتهم ...

---

(1) يس : ٤٨ — ٥٠

والذى نحسبه نحن أن الزمان سوف ينعدم — كما ينعدم الوزن عند رواد الفضاء — وهل الخلود الا انعدام الزمان ؟ وان رب العالمين سيجعل الخلق فى حال من الاحساس العام بكل ما اسلفوه فى الدنيا ، وكأن اشرطة مسجلة تمر بأذهانهم ملأى بكل ما كان منهم وحكم الله فيه !

ثم يستعد كل انسان للانطلاق الى مصيره العدل « ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره الا لاجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس الا بأذنه فمنهم شقى وسعيد »(١)

والجزاء مادى وروحانى معا ، انه للانسان الذى عبد بجسمه وعقله ، أو فجر بجسمه وعقله ! ولا يستطيع اى دارس للقرآن الكريم أن يفسر آياته فى وصف الجنة والنار بأنها من قبيل المجاز ، وليس هناك بتة ما يدعو لهذا التعسف فى التفسير .

والنظر الى مادية الانسان بأنها معرة ، ولذاته الحسية بأنها هبوط هو تأثر بفلسفات خيالية لا وزن لها ..

نعم ان مع هذه اللذات ما هو أسنى وازكى ، معها الرضوان الاعلى والاستغراق فى شهود امجاد الالوهية « ان الابرار لفى نعيم على الارائك ينظرون تعرف فى وجوهم نضرة النعيم » (٢) جعلنا الله من هؤلاء المكرمين ..

---

(١) هود : ١٠٣ — ١٠٥ (٢) المطففين : ٢٢ — ٢٤

الى يوم يبعثون » (١) ويشبه ما يلقاه الفجار فى البرزخ ما يفعله رجال الشرطة بالمجرمين عندما يقعون فى قبضتهم .. هناك تحقيق ابتدائى سريع ثم يرمى المتهمون فى السجن ريثما يقدمون للقضاء فىمحكمة كبرى ..

ويشبه ما يلقاه الابرار ما يصنعه رجال العلم عندما يستقبلون مؤلفا تقررت مكافأته أو عبقريا منح جائزة سنية ، انه يجاء به مكرما ويستريح فى احدى الغرف الانيقة ريثما يأخذ ما تقرر له ...

والذين يفعلون الخير أو الشر سواء فى مراتبهم ، فمن الاشرار من ينفتح له شواظ من نار يشوى وجهه حتى يوم اللقاء ! ومن الاخيار من يتذوق النعيم من أول يوم كما جاء فى وصف الشهداء ان أرواحهم معلقة فى قناديل تحت العرش ترد أنهار الجنة وتطعم من ثمارها ... !

المهم ان الموت رحلة من حياة أرضية محسوسة لنا الى حياة غيبية نسمع بخبرها .. وحسب . وقد كان الاصحاب الكرام يعرفون ذلك معرفة يقين ، فلما حضرت « بلالا » الوفاة صاحت امراته : —

واكرباه .. !! وصاح المحتضر المشرف على الموت : بل واطرباه ، غدا الاقى الاحبة ، محمدا وحزبه ! والواقع ان الموت نقلة الى عالم مستقر مطرد النمو ، ان اودية الموت ، من بدء الخليقة تستقبل الاجيال المدبرة ، الاجداد ثم الآباء ثم الاولاد ثم الاحفاد وهكذا من قديم ، فعالم الموتى يتسع باستمرار والنتائج تتكشف فيه ، ومعادن الناس تعرف ...

لكل اناس مقبر بفنائهم ... فهم ينقصون والقبور تزيد

---

(١) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠

وليس القصد من زيادة القبور أن مبانيها تزيد ، وانما القصد أن اللاحقين يتبعون السابقين ! مددا بعد مدد وهؤلاء وأولئك فى انتظار القيامه الكبرى حتى يجيىء أوانها ..

وتبدأ حياة البرزخ بلونيها من ساعة مفارقة الروح للجسد ، وتدبر قوله تعالى « ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت ، والملائكة باسطو ايديهم : اخرجوا انفسكم ! اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون » (١).

واليوم — لا الغد — يبدأ العقاب على ما مضى من افتراء وكبرياء .

ان الانسان طرق الدنيا عاريا ، ولقد تقلب فيها ثم ها هو ذاك ، يتركها كما جاءها — لا مال ولا جاه ولا عزوة ولا سلطان « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ... » (٢)

ويظهر أنه بقدر ما يكون المرء طاغية فى حياته الاولى ، يكون ترصد الزبانية له وارتقابهم لمقدمه كيما يؤدب على غلوه وفساده، فتكون مراحل البرزخ الاولى لطمات تتناوله من كل جهة ، واهانات تلفه بالخزى والعار ، وذلك كله أيام القبر الاولى ، أعنى ايام البرزخ ، وليس يحتاج الامر الى مساءلة فمامحلها اذا كان المجرم قد لحقته الوفاة وهو يقاتل الحق ويخاصم حملته من المرسلين والصالحين ترى ذلك فى قصة الفراعنة « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب » (٣) وتراه كذلك فى كبراء قريش الذين ادركتهم مناياهم وهم يقاتلون النبى صلى الله عليه وسلم فى معركة بدر قال تعالى :

---

(١) ، (٢) الانعام : ٩٣ ، ٩٤

(٣) غافر : ٤٦

«ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وادبارهم وذوقوا عذاب الحريق ! ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد » (١) .

وقد رميت جثث المشركين البغاة فى بئر ، ووقف النبى بعد دفنهم يقول بصوت جهير : هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ وهو يناديهم بأسمائهم ! فقال له أصحابه : اتنادى قوما جيفوا ؟ قال : ما أنتم بأسمع لما اقول منهم ، ولكنهم لا يجيبون !

اننا لا نشعر بما يلقاه الراحلون عنا ؛ بل لا نشعر بشىء من عالم الغيب وهو عالم مديد رهيب !

ولن تتأخر نفس ابدا عن اخذ طريقها الى البرزخ ! وملاقاة الجزاء المعد لها ، مهما كان حب الاقربين والاصدقاء والاتباع ! وتدبر قوله تعالى يصف حالة المحتضر وعجز من حوله « فلولا اذا بلغت الحلقوم وانتم حينئذ تنظرون ونحن اقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون ، فلولا ان كنتم غير مدينين . ترجعونها ان كنتم صادقين » (٢) .

لا أريد تفسير الايات ، ولا ذكر من عجزنا عن ابصاره وهو أقرب الى الميت منا نحن الملتصقين به الحانين عليه !! اللهم ان البشر كلهم اصفار امام سلطان الموت ، وامام ما يقترن الموت به من مبادىء الحساب .

ان الموت فضح الحياة ، ومع ذلك فحبنا للحياة يعمى ويصم ! وذهولنا عن الجزاء المرتقب ادهى وامر ! ذلك ، وقد ورد فى الآثار أن الموتى لا يرجعون الينا ، بذلك سبق القول من الله ، وبذلك اجيب شهداء أحد .

---

(١) الانفال : ٥٠ — ٥١ (٢) الواقعة : ٨٣ — ٨٧

ومن ثم فالزعم بأن الارواح تستحضر فى مجالس خاصة وتقصرها تلقى على الحضور يكاد يكون رجما بالغيب وقد تتبعت بعض ما نسب الى هذه الارواح الحاضرة من كلام فوجدته تخليطا وقد يكون من عبث الجن واستهزائهم بالبشر !!

١١ — ما طبيعة الجزاء الاخروى ! هل هو روحى أم مادى ؟

هل خلق الانسان من روح وجسد شىء يعاب ؟

كذلك يرى بعض الناس ! بل كذلك قال اعداء الانبياء لهم وهم يرفضون رسالاتهم وينكرون حديثهم عن الله ، مقترحين ان يكون الرسول ملكا « وقالوا ما لهذا الرسول ياكل الطعـام ويمشى فى الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا » !!

وكما أستنكروا ان يكون المرسلون بشرا يأكلون ، استنكروا عليهم الزواج ، والنسل ظانين ان الرغبة الجنسـية تشـين الانسان الكبير ، وعليه اذا اراد الكمال ان يكبتها .

وقد رد القرآن هذه المزاعم ، وبين جل شأنه أن المصطفين الاخيار من عباده كانوا رجالا ناضجى الغرائز « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية .. »

ومع ذلك فان بقايا من منطق الجاهلية القديمة لا تزال عالقة بأذهان الكثيرين ممن يحسبون السمو البشرى لا يتم الا باعلان حرب مجنونة على البدن توهى قواه وتدوخ غرائزه .

بل سرى ذلك الفكر الى بعض المـذاهب الدينية ، وانبنى عليه ، ان التقوى فى هذه الحياة تعنى الرهبانية وان السمو فى الحياة الاخرى لا يتصور معوجود هذا الجسد اللعين!وعليه بعد ذلكفلابد أن يكون النعيم الموعود روحانيا محضا وكذلك العذاب المرصـد للاشقياء !!

ولمـا كان الاسلام دين الفطرة السليمة ، ولما كان لبابه احترام الحقيقة المجردة ، فانه رفض كل هاتيك المقدمات والنتائج ، وأسس تكاليفـه واجزيتـه الدينية عـلى اعتبار الانسـان كائنا متميزا يجمع بين جملة من المواهب والخصال المتلاقية فى شخصيته ، بها جميعا يسمو أو يهبط وبها جميعا يثاب أو يعاقب .

أو كما يقول الاستاذ العقاد : « ليس ما يدين به المسلم أن يرتد النوع الانسانى الى ما دون — طبيعته ، ولكن مما يؤمن به ان ارتفاع الانسان وهبوطه منوطان بالتكليف ، وقوامه الحرية والتبعة فهو بأمانة التكليف قابل للصعود الى قمة الخليقة ، وهو بالتكليف قابل للهبوط الى أسفل سافلين ، وهذه الامانة هى التى رفعته مقاما فوق الملائكة ، أو هبطت به الى زمرة الشياطين » .

ليس الهبوط ان يشتهى الانسان طعاما أو امرأة . انما الهبوط أن يأكل المرء من سحت ، أو يتصل بمن لا تحل له .

فاذا طعم من حلال ، أو اتصل بأنثى لتكون زوجة يسكن اليها ويتم بها ويمتد وجوده معها فلا شىء فى ذلك ابدا .

لقد اخطأ كثير من المنتسبين الى الدين فى احتقارهم للبدن ، وفهمهم أن التسامى لا يحصل الا بسحقه ، وفهمهم بعد ذلك ان الحياة الاخروية لا وجود للبدن فيها ، وان النعيم أو الجحيم معنويان ، وحسب !!

وقد سرى هذا الخطأ — كلا او جزءا — الى بعض متصوفة المسلمين ، فاعتنقوه ، وحسبوه دلالة ارتقاء ، وتجرد ، فظلموا بهذا المسلك دينهم ، واوقعوا خللا سيئا فى موازين الجزاء كما اقامها الكتاب العزيز ..

وقلدوا أتباع الديانات المنحرفة فى الجور على الطبيعة البشرية وبذلك افسحوا للمذاهب المادية طريق التقدم والسيادة .

بل بلغت المجازفة بهذا البعض أن حقروا عبادة الرغبة والرهبة، واشاعوا أن من الهبوط ان تطيع الله طلبا لجنته ، أو تدع عصيانه خوفا من ناره حتى توهم الناس أن الامل فى الجنة والخوف من النار ليس شأن العباد الصالحين !!

وهذا الضرب من التفكير لا يمكن وصفه بأنه تفكير أسلامى . انه ضرب من الشرود والغرور تبدو تفاهته عندما يحاكم الى العقل والنقل على سواء .

ولنبدأ بالنقل ... يصف لنا القرآن الكريم مشاهد الجزاء ، فيذكر لنا أن رجلا مؤمنا بحث عن صاحب لــه كان ظاهر الالحاد والفسوق ، فوجده قد أستقر فى سواء الجحيم ! فحمد الله أن لم يتأثر به : « تالله ان كدت لتردين ، ولولا نعمـــة ربى لكنت من المحضرين ، أفما نحن بميتين الا موتتنا الاولى وما نحن بمعذبين ان هذا لهو الفوز العظيم ، لمثل هذا فليعمل العاملون » .

النجاة من النار امل ضخم لمثله يعمل العاملون ، فكيف يجىء أحد من الناس : رجلا او امرأة ليقول : بل هو امل تافه ؟

ويقول الله جل جلاله « ان كتاب الابرار لفى عليين ، ومـــا أدراك ما عليون ؟ كتاب مرقوم يشهده المقربون . ان الابرار لفى نعيم . على الارائك ينظرون . تعرف فى وجوههم نضرة النعيم. يســـقون من رحيق مختــوم . ختامـــه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافســـون » .

فى الرحيق المختوم يسقاه قوم تعرف فى وجوهم نضرة النعيم، فى هذا الجزاء الجزيل ينبغى أن يتنافس المتنافسون ! فكيف يجىء انسان رجلا كان او امرأة ليقول : لا أعبد الله طلبا لشىء من ذلك

ان هؤلاء الناس يكذبون على طبائعهم الانسانية كما يكذبون على دين الله ، ثم هم يسيئون تصور النعيم الاعلى ، او العقاب السرمدى .

أن الجنة دار لنوعين من المتع أحدهما مادى والاخر معنوى ، فالمادى تكريم للانسان بفيض من التجلى الالهى يشعره بالرضوان ويرفعه بالرؤية .

وبديهى أن المتاع الثانى أكبر من الاول ، كما قال جل شأنه « ... ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .

ولكن هل هناك فواصل — فى هذا الكيـــان البشرى — بين الاحساسين أم أن الانسان بأجهزته المادية والمعنوية يذوق الخير والشر جميعا ؟

أن اللذة والالم قوانين انسانية صارمة فلم الطعن فيها ؟

ولو فرضنا أن الجنة محلّ الكرامة الالهية ، لكفاها ذلك ، ولاحترمناها من أجل هذه النسبة ! ولا يأبى الكرامة الا لئيم ، فكيف — وهى الى جانب ما وصفناه — تلبية لحاجة طبيعية يحسها كل انسان ، حاجة ذلك البدن الذى يضيره الحرمان ، ويضنيه القل والذل ، حاجة ذلك البدن الذى يكره الجوع والعطش والعرى والهوان ..

أمن اجل فكرة خيالية نجىء الى مئـــات الايات الصريحة الواضحة فنحاول صرفها عن ظاهرها والتمحل فى تأويلها وافساد الاثار التربوية المقترنة بها .

« قل انى اخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم » .

ماذا يبقى من آيات القرآن بنجاة من التأويل والابطال اذا تمت هذه المحاولة .

ان الله وجه الى نبيه هذا الامر ووصف أنبياءه الكرام بأنهم « كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين » .

ووضع أمام أبصار البشر كلهم هذا الترهيب « فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز » .

فهل بعد ذلك نسمع لقول امرىء ير   بعبادة الرغبة والرهبة ويزعم أنه لا يخاف من النار ولا يحب الجنه ، وانه — ان عبد — فانما يعبد أبتغاء وجه الله !!

ما هذا اللغو ؟ وهل الوجوه الناضرة بنظرها الى الله تظفر بذلك فى قعر جهنم ، أم تظفر بذلك فى حدائق الجنة ؟

قال لى أحد المتصوفين : ان من الخساســـة أن تعبد الله منتظرا أجرا . فقلت : من العبودية أن تستبشر بفضل الله وان توجل من عقوبته ، وان تعرف قدرك وتلزم حدك ! أين تريد أن تضع نفســـك ؟

ان الله قال عن نبيه ابراهيم : « وجعلنـــا فى ذريته النبوة والكتاب ، وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الاخرة لمن الصالحين » .

فهل انت فوق الانبياء استغناء عن الاجر الالهى ؟

وقال عن عباده المؤمنين الموفقين « تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأعد لهم أجرا كريما » .

ووصف عاقبة الصادقين المضحين بأنفسهم فى سبيل ربهم فقال « والشهداء عند ربم لهم أجرهم ونورهم » فهل انت فى مكانة أخرى غير ما أعد الله للشهداء والصالحين ، مكانة الزاهد فى اجر أو الرافض له ؟ ما هذا الغرور ؟

لقد وصف الله أولى الالباب بأنهم « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .

فهل يرفض أن يكون من اولى الالباب الا البله ؟

ولقد اهاب الله بخلقـــه أن يسارعوا الى جنة « عرضهـــا السموات والارض اعدت للمتقين » فهل يكره أن ينتظم فى عداد المتقين الا الحمقى ؟

إننى أطلب من اخواننا الذين يكتبون فى التصوف أن يدمنوا النظر فى كتاب الله ، وان يستوحوه ما يستجيدون من معان وغايات ، وبذلك وحده ينصفون أنفسهم وطريقهم . أما ترويج فكرة لرجل أو امرأة تبتعد عن هذا الضوء الكريم فأمر لا يستساغ، ومن حقنا ان نرفضه

لقد سمعت أشعاراً تنسب الى رابعة العدوية بل حكى الرواة عنها ــ والعهدة عليهم ــ انها لما سمعت أتتذكير بفواكه الجنة وخيراتها ، قالت : لسنا أطفالا ، فنغرى بهذه الاشياء وسواء صح ما نسب الى هذه السيدة أو بطل ، فنحن كما قال أمير المؤمنين عمربن الخطاب فى فاطمة بنت قيس ــ وهى صحابية أفضل من رابعة ــ « لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى أحفظت أم نسيت » !

ان الجنة وعد الله لعباده فنعما هى ، وشكراً لمن أعدها للمتقين ، وهنيئا لمن يصير اليها ، يمرح فى بحبوحتها ويسعد بربه الذى طالما صلى وصام من أجله !!

انه فى هذه الجنة يشهد من كان يعبده بالغيب ، ويتلقى فضله فى قلبه وعلى بدنه ، لذات مادية ومعنوية متشابكة لا انفصام بينها ، « واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . . . ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً » .

ونحن نلفت نظر المفسرين الا ينخدعوا بما شاع فى الديانات الاولى من أوهام أو بما نسب اليها من افهام فاننا ورثنا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . .

١٢ — ماذا عن القضاء والقدر ؟ وكيف نوفق بين الآيات التى تدل على ان الانسان مختار ، والاخرى التى تدل على انه مجبر ؟

يقول الله تعالى مبينا عن حكمته فى خلق العالم « وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم احسن عملا (١) » أى أن هناك اختبارا كبيرا مفروضا على الناس يتحقق بعده — مصيرهم !

ما هذا المصير ؟ يقول جل شأنه فى آية اخرى « ولله ما فى السموات وما فى الارض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى » (٢) هناك مسىء ينتظره العقاب ومحسن ينتظره الثواب !

وتلك عدالة لا مطعن فيها! بيد أن بعض الناس يقول : هذا الامتحان مزور ، وهذه النتائج مغشوشة والذى حدث ان الله هيأ للجنة ناسا وللنار ناسا واجرى الامور كما شاء وستر مشيئته وراء فصول هذه التمثيلية الهازلة !!!

الله يقول انه ارسل للبشر رسلا يدلونهم على الصراط المستقيم ، وقبل أولئك المرسلين منحهم عقولا يحسنون بها التفكير ويستطيعون بها الاختيار وقال لهم انى اقطع بهذا كله أعذاركم » ... ان تقولوا يوم القيامة : انا كنا عن هذا غافلين . او تقولوا : انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم افتهلكنا بما فعل المبطلون » (٣)

لن يقبل من احد كلام بعد هذا البيان ! ومع ذلك يجىء اناس معتوهون يقولون، لا شىء الا الله لا عمل الا الله، أصابعه وراء كل

---

(١) هود : ٧ (٢) النجم : ٣١
(٣) الاعراف : ١٧٢ ، ١٧٣

شىء ، وبقى ان يقولوا : ما فى الجبة الا الله ، لا موجود غيره ، نحن وهم ما نصنعه وهم !!

واعرف ان وراء هذا التماوت وانكار الارادة البشرية والقدرية البشرية من يزعم التقوى ويدعى التصوف . ولقد ظل اولئك يتماوتون حتى ماتوا أدبيا ، وتحولوا الى دواب يمتطيها المستعمرون ، ويذللونها لمآربهم !

بحثت عن السبب فى هذا الكذب فوجدته احيانا رغبة البعض فى أن ينحرف ثم يرمى بالتبعة على القدر القاهر !

ووجدته أحيانا أخرى سوء الفهم لايات القرآن الكريم ، وجنون الجدل الذى مس بعض العلماء ثم نضح على جماهير الغوغاء .

وربما نشأ هذا التعلل المردود عن الخلط بين مواطن الاختيار الحق ومواطن الجبر القاهر ، فان — الانسان يحيا بين جبر واختيار فى كيانه الداخلى وفى حركاته الخارجية !

ان قلوبنا تدق دون استئذان وتمضى فى اداء وظيفتها دون تدخل من رادتنا ، افكذلك السنتنا حين نتكلم ؟

وقد يكون بعضنا ابيض الجلد والاخر أسوده ! ايسأل عن هذا التلوين كما يسأل الانسان عندما يحسد ذا نعمة أو يزدرى ذا عاهة ؟

وندع هذه النماذج للقدر الظاهر والاختيار الحر ، ونسوق امثله مما تشترك فيه الارادة الانسانية مع الارادة الالهية ، فان هذا الاشتراك هو غالبا المهرب الذى يلجأ اليه الجبريون ويسيئون فيه تفسير النصوص . .

اننا نستغل الكهرباء فى بيوتنا للانارة والاذاعة والتبريد والتسخين ، فتصور ساكنا جاءه المحصل يطلب منه ثمن ما أفاد

من كهرباء ، فقال له : ان التيـــار مر فى الاســـلاك من عندكم ، والمصباح عندى لا يمكن أن يضىء من ذاته ولو بقى دهرا ! يقول لــه المحصل : ماذا تقصد ؟ يقول : لا ادفع ثمن شىء أنتم السبب الاول فيه ! يقول المحصل : انك تحرك المفاتيح فتسمع الاذاعــة ، وتنير المنزل ... الخ يقول لــه الساكن : لولا التيار الذى ارسلتموه ما تم شىء ... هكذا يقول بعض الناس لله : لولا ارادتك ما كان شىء ، فلماذا احاسب ؟

وتصور فلاحا ــ كما قلت فى كتاب لى ــ زرع حشيشــا او افيونا ، او اى نبت مخدر ، ثم وقف أمام القضاء يدافع عن نفســه يقول : كيف احاسب على ما زرع الله ؟ صحيح انى وضعت بذرة تافهة ، لكن من الذى نماها وحملها ثمرها ؟ انه القائل : « أفرايتم ما تحرثون اانتم تزرعونه أم نحن الزارعون (١) ؟

كثير من الناس يعالج قضاياه الدينية بهذا المنطق !

نحن نعلم أن الانسان اذا أراد الــذهاب الى المســجد أو الى الخمارة بقى قلبه يدق بقدر الله ، وبقى جهازه العصبى يصدر اوامره الى الاقدام لتتحرك بقدر الله ، وبقيت الارض دون خسف ولا زلزال باسم الله ! فهل معنى ذلك أن الله هو الذى دفع هذا الى المسجد دفعا ودفع ذلك الى الخمارة دفعا .

كلا كلا ! ان للانسان ارادة حرة ، بها كلف ، وبها صــح اختباره ، وبها تم جزاؤه . وكون الله اعانه على ما اراد لنفسه ، او أنضج له ما بذر فى ارضه ، او أمده بالتيار الكهربى الذى انار بيته لا ينفى مسئوليته التامة عما فعل !!

---

(١) الواقعة : ٦٣ ، ٦٤

الارادة ميزة محققة مؤكدة فى الكيان الانســانى ، بها حمل امانة التكليف ، وبها تميز عن الجماد الاصــم والحيوان الاعجم ، وبها يعلو أو يهوى ويشكر او يكفر !

وعندما يتجه المرء ــ بمحض اختياره ــ الى الاحسان والاساءة فان تيار الارادة المبعوث فى ارجاء الوجود طيع بين اصابعه ، ان شاء اضاء فمشى فى النور ، او اطفأ فخبط فى الظلام ..

وآيات القرآن تؤكد هذه الحقائق ، ويجب أن نعلم أن القرآن يفسر بعضه بعضا ويصدقه ويكمله !

اذا قال تعالى : « كذلك يضــل الله من يشاء ويهــدى من يشاء وما يعلم جنود ربك الا هو » (١) فلنسأل أنفسنا : من الذين يشاء الله اضلالهم ؟ ولنسمع الاجابة من القرآن نفسه « ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشــاء » (٢) « ان الله لا يهدى من هــو كاذب كفار » (٣) « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » (٤)

ليس الامر اذن ليّ عِنان رجل صالح كى يتعرض لعــذاب الله ، لان الله شاء اضلاله وتعذيبه ، كلا ، وحاشا للبر الرحيم ، العدل الكريم أن يفعل ذلك ...

هذا امرؤ اتجه الى الشر فدفعته الاقدار فى طريقه الذى اختاره ، وهل يجنى العنب من بذر الشوك ؟

وكلمــا أوغل الشرير فى الطــريق زاد ســمك الغشــاوة المضروبة على بصيرته ، فيظلم القلب وتعجــز أهل الارض عن انارته « كلا بل ران على قلوبهم مــا كانوا يكسبون » (٥) وهكذا

---

(١) المدثر : ٣١ (٢) ابراهيم : ٢٧
(٣) الزمر : ٣ (٤) غافر : ٣٤
(٥) المطففين : ١٤

يصنع الله بالمجادلين فى آياته ، المستكبرين على الحق « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » (١) .

الاساس أن هذا الذى شاء الله اضلاله ، اضل نفسه اولا، فاتم الله له مراده كما قال : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » (٢). وكما قال فى موضع آخر « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى . . » (٣) .

ومن السفاهة الظن بأن الله ازاغ طالب هدى . او اضل من اتبع سبيل المؤمنين !

وكما يشاء الله اضلال هؤلاء يهدى الى الحق من ابتغاه ونشده « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » (٤) وقال تبارك اسمه « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم (٥) وقال : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » (٦) وقال « يهدى اليه من اناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله»(٧)

---

(١) غافر : ٣٥ — (٢) الصف : ٥
(٣) النساء : ١١٥ — (٤) محمد : ١٧
(٥) يونس : ٩ — (٦) التغابن : ١١
(٧) الرعد : ٢٧ — ٢٨

ان المشيئة الالهية ليست رمزا للفوضى وعندما يقول الله « من يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل » (١) فالامر كما شرحنا وكما شرحته آيات اخرى مثل « من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا » (٢) أى يزيده حيرة وعمى فيستحيل ان يعينه او ينقذه أحد ! « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » (٣) فيستحيل ان يضرهم او يتشرد بهم أحد بعد هذا العون الاعلى ! حيث يكون التكليف الالهى تكون الارادة الحرة ، وتكون المسئولية الخلقية والجنائية فى الدنيا والاخرة !

فاذا انعدمت الارادة لسبب ما فلا مسئولية البتة ، وكيف يكلف الانسان بما لا يطيق والله سبحانه يقول « لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما أكتسبت » (٤) .

قال لى احدهم : كيف يكون للانسان اختيار وارادة الله نافذة فى خلقه جميعا ؟

قلت : ان الله فاوت بين خلقه ، فهناك فارق بين الجدار والحمار والانسان ! الجدار لا يحس والحمار لا يعقل ، والانسان يحس ويعقل وله ميزة فى تكوينه تجعل له معاملة أخرى غير معاملة الجدار والحمار !!

ان معاملتى لسائق السيارة غير معاملتى للسيارة نفسها ، الفارق واسع بين القائد والمقود والراكب والمركوب !! والمساواة بينهما فى التكليف حمق ...

وذكر لى آخر قوله تعالى : « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما

---

(١) الزمر : ٣٦ ، ٣٧ (٢) مريم : ٧٥
(٣) مريم : ٧٦ (٤) البقرة : ٢٨٦

يصـــعد فى الســـماء . كذلك يجعل الله الرجس عـــلى الذين لا يؤمنون » (١) .

وقال : أليست هذه الاية نصا فى سبق الهداية الالهية والاضلال الإلهى ؟ قلت لـــه : أنت واهم تدبر ختام الاية الكريمة تجد مفتاح المعنى الـــذى غـــاب عنك « يجعـــل الله الرجس عـــلى الذين لا يؤمنون » .

ان الرجس الذى خنق صدورهم نشأ عن عدم ايمانهم ، فلما رفضوا الايمان وغصت به حلوقهم جوزوا بهذا الضيق والحرج ، أما الذين رضوا بالحق واستراحوا اليه فقد أستحقوا الهداية العليا وكوفئوا بشرح الصدر ....

ذلك . والاختيار بين النهجين يصحب المرء فى كل يوم بل فى كل لحظة وهذا هو السر فى أننا نطلب من الله الهدى فى صلواتنا اليومية نحو عشرين مرة **بالليل والنهار** ...

ان ظروفا هائلة تحيط بنا لا تعرف ارادتنا ولا قدراتنا مـــا تصنع بازائها ، وما أشبه الانسان بزورق ـــ هش الصنع يعوم فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه سحاب .. هنا يتشبث الانســـان بالتوفيق الالهى ويسأل ربه النجاة .

ومن العقل أن نميز بين الاقدار التى تحيط بنا وتتحكم فينا ، والاعمال التى طولبنا بها ونسأل غدا عنها !

---

(١) الانعام : ١٢٥

وارى أن انكار الاختيار البشرى فرار من وظائف العبودية ، واتهام لصفات الربوبية ، وهذه جريمة . ما الذى نحاوله بهـذا المسلك ؟ يقول الله سبحانه : « للذين احسنوا الحسنى وزيادة »(١) ثم يقول « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها » (٢) ثم يقول عن الجـزاء الاخـير « هنا لك تبلوكل نفس مـا اسلفت وردوا الى الله مولاهم الحق » (٣) فأين الظلم او الجبر فى هـذا الصـنيع ؟

---

(١) يونس : ٢٦
(٢) يونس : ٢٧
(٣) يونس : ٣٠

١٣ — ما دور المسجد فى الاســـلام ؟

فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ... (١) احيانا اتصور أن الرفع هنا ليس للدعائم والجدران انما هو للساحـــات الطهور التى تخصصت للركع السجود ، فبعد أن كانت ارضـــا عادية يغشاها اى انسان أضحت أرضا لا يدخلها الا متوضىء ، وبعد أن كانت لاى غرض عادى اضحت همزة وصل بين الناس ورب الناس ، ومهادا للمعراج الروحى الذى ينقل البشر من مآربهم القريبة الى مناجاة الله وتسبيحه وتمجيده !

اليس هذا ارتقاء معنويا للارض نفسها ؟ أحسست ذلك وانا أطالع ما جاء فى السنة المطهرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل ذات يوم المسجد،فاذا هو برجل من الانصار يقال له ابو امامة : فقال : يا ابا امامة ، مالى اراك جالسا فى المســـجد فى غير وقت الصلاة ؟ قال : هموم لزمتنى وديون يا رسول الله ! فقال لــــه : الا أعلمك كلمات ! اذا قلتهن أذهب الله عنك همك ، وقضى دينك ؟ قال : قلت : بلى يا رسول الله .

قال : قل اذا اصبحت واذا امسيت : « اللهم انى اعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ... فقلت ذلك فاذهب الله عنى غمى وقضى دينى » .

هذا رجل احرجته الايام ، وبدل أن يذهب الى بيت واحد من الاغنياء يستجديه ، ويرقب الفرج عنده على نحو ما قيل :

يسقط الطير حيث ينتثر الحب وتغشى منازل الكرماء !

---

(١) النور : ٣٦

ذهب الى بيت الله يرجو جداه ، وينتظـــر نداه ! فلم يخب سعيه ، ولم يطل همه ...!

لقد نفعته كلمات تعلمها من صاحب الرسالة غيرت نفســـه وحياته ..

واذا كان الرسول قد استغرب وجود الرجل فى المسجد فى غير وقت صلاة فانه عزم على المسلمين كافة أن يثوبوا الى المسجد وقت الصلاة وقال : ان صلاة الجماعة افضل من صلاة الفذ — المنفرد — بسبع وعشرين درجة .

وذلك انه اذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج الى المسجد ، لم يخط خطوة الا رفعت له بها درجة وحطت عنه خطيئة فاذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه ، تقول : اللهم صل عليه اللهم ارحمه ، ولا يزال احدكم فى صلاة ما انتظر الصلاة »

والواجب ان تتوطد صلة المؤمن بالمسجد ، وان يكثر التردد عليه صباحا ومساء ، بل ينبغى أن يتعلق به قلبه وان يزداد له حبه .

قال عبد الله بن مسعود : لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة الا منافق قد علم نفاقه أو مريض ! ان كان المـــريض ليمشى بين الرجلين حتى يأتى الصلاة ! وقال :

ان رسول الله علمنا سنن الهدى ، وان سنن الهدى الصــلاة فى المسجد الذى يؤذن فيه قال عبد الله وما منكم من أحد الا ولـــه مسجد فى بيته ، ولو صليتم فى بيوتكم وتركتم مساجـــدكم تركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لكفرتم ...

وجمهور الفقهـــاء يرى الجماعـــة فى المسجد سنة مؤكـــدة، ولاريب ان التجمع نزعة أصيلة جادة فى تعاليم الاســـلام ، وان الجماعة من شعائره العظمى .

والاسلام يحارب بذلك المتدين المنهزم الفار من الحياة العاجز عن مواجهتها ، كما يحارب بعض المتدينين الذين يحسبون انفسهم ازكى واتقى ، وان مخالطة الناس تنقصهم ! فهم يؤثرون العزلة — ويتهمون الغير ويغطون كبرا فى صدورهم ما هم ببالغيه .

ولعل اولئك هم الذين عناهم ابن عباس لما سئل عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل ، ولا يشهد الجماعة ولا الجمعة ؟ فقال : هذا من أهل النار .. !!

ان رسالة المسجد فى الاسلام حشد المؤمنين فى صعيد واحد، ليتعارفوا ويتحابوا ، ويتعاونوا على البر والتقوى ويتدارسوا ما يعنيهم من شئون !!

وهذا التلاقى المنشود ليس حشر اجساد ، انما هو اندماج الفرد فى المجتمع على اساس من الحب وطلب مرضاة الله ، وعلى كل مسلم أن يرتفع الى هذا المستوى ، وان يقتل نوازع الانانية اذا حدثته بالعزلة لامر ما فقد جاء فى الحديث، «ثلاث لا يغل عليهن قلب أمرىء مؤمن — أى لا يحقد أو يخون — اخلاص العمل لله ، والمناصحة لائمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم فان دعاءهم محيط من ورائهم » أى ان بركة الله على الجماعة تشمل الكل وان كان بينهم من هو دونهم كما جاء فى حديث أخر : —

« يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ فى النار » .

ومن رسالة المسجد خلق نظام الصف ، وتعويد المسلمين عليه،والغريب أن امتنا ابعد الامم عن احترامنظام الصفوالخضوع له ... مع ما ورد فى تنظيم الصفوف بالمساجد من توكيد وتشديد.

وتأمل فى هذا الحديث عن أبى مسعود « كان رسول الله يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول : استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ليلنى منكم أولوا الاحلام والنهى ثم الذين يلونهم » .

وفى روايـــة « أقيموا الصـــفوف ، وحـــاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ولينوا بأيدى اخوانكم ولا تزرو فرجات الشيطان، ومن وصل صفا وصله الله ، ومن قطعه قطعه الله » !!

لقد قرأت فى حرب فارس أن صفا من المجاهدين كان يعبر نهرا، فسقط كوز أحد المجاهدين فتريث الصف كلـــه حتى عثر الجندى على ما سقط منه !! انهم يتحركون بروح الجماعـــة ، ولا يتصرفون كأنهم عقدا انفرطت حباته !

وكم يشعر المسلم بالاسى وهو يرى أمته فى زحام الحياة تتحرك بروح القطيع ، لا يهتم المرء الا بنفسه ومصلحته !! هذا الشعور الهابط يقتل العشرات فى مناسك الحج ، لان نظام الصف ، والاحســـاس بالغير مفقودا عندنا فالمسجد لا يؤدى رسالته !!

ومن رسالة المسجد رفع المستوى الثقافى للامة ، وذلك عن طريقين : الاول تدبر ما يتلى من القرآن فى الصلـــوات الجهرية وخطب الجمعه ، والقرآن كتاب يتحـــدث فى العقائد والعبادات والاخـــلاق والقوانين والشـــئون المحلية والدوليـــة ويصـــف الكون ويسرد التواريخ مثلما يتحدث عن الله وصفاته وحقوقه سواء بسواء .

وقد كان ذلك المصدر الاول للمعرفـــة عند السلف ، اذ ان سليقتهم اللغوية امكنتهم من الاستمداد المباشر من آيات الله والحق ان الذين انصتوا للرسول الكريم وهو يتلو كتابه بلغـــوا شأوا لا يضارع من السمو الفكرى والتربوى ، فليس عجبا أن ينطلقـــوا مشاعل هدى فى أرجاء الارض وينقلوها من الظلمات الى النور .

أما الطريق الثانى لتثقيف الامة فهو الدروس التى انتظمت فى ساحات المساجد ، تتناول جميع العلوم بل ان الشعر كان يلقى فى

المسجد ، وكان الصحابة يستمعون الى حسان بن ثابت وهو ينشد قصائده السياسية !

ومعروف أن المدارس الفقهية الكبرى كانت فى المساجد وان الائمة العظام كانوا يلقون تلامذتهم فيها ، والفقه الاسلامى يحتوى على كل ما يهم البشرية من المهد الى اللحد .

ولما كنت مديرا للمساجد وضعت لايام الاسبوع الستة غير الجمعه ستة دروس فى التفسير والحديث والفقه والتاريخ والعقيدة والاخلاق ، اما يوم الجمعة فحسبه الخطبة،وأعددت لذلك كراسات تحضير تراجع بعناية . . .

بل وضعت لتعمير سيناء خطة تقوم على انشاء مستوطنات . أساسها ثلاثة رجال ، امام مسجد ومهندس زراعة وضابط جيش وتركت اختيار الاماكن للمتخصصين . . .

وكان رأيى أن تبنى المساجد فى المدن والقرى على أساس مسجد واحد كبير لكل ثلاثة آلاف من السكان . . .

أن المسجد كان القلعة الروحية التى ينطلق منها المجاهدون لمقاومة كل غزو ، وقد قاوم الجامع الازهر الفرنسيين منذ قرنين حتى احتلوه بخيلهم،وقاوم الانجليز أوائل هذا القرن ،وكان يستقبل الاحرار من اقباط مصر الذين يحاربون الاستعمار ، ويؤازرون أخوانهم المسلمين .. وقد روى التاريخ كيف أن امرأة من المصليات سمعت الخطيب يتحدث عن الجهاد — ايام الحروب الصليبية — فقصت شعرها ، وأرسلت الضفائر الى الامام مقترحة أن تكون قيد جواد لاحد المجاهدين مما جعل المسجد يضج بالحماس ، وأغرى الرجال بالتفانى ..

وهل انهزمت أوربا فى حملاتها الاولى الا بهذه المشاعر وهل تراجع الاستعمار الجديد الا بالروح نفسها ؟

١٤ — لماذا كانت الصلوات خمسا فى اليوم ؟ وما هو شكل الصلاة المقبولة !

كما يحتاج الجسم الناشط الى وجبات غنية تمده بالحرارة ، وتجدد ما بلى من خلاياه ، وتحفظ عليه عافيته ، تحتاج النفس الانسانية الى وجبات أخرى تعينها على التحليق وتمنعها من الاسفاف، وتستنقذها من أمواج الفتنة والذهول ، وشتى الاهواء والاقذاء !

ان الانسان — بجواذب من طبعه — يحب ان يذكر نفسه وينسى ربه ، يحب أن يضمن مصلحته وحدها ولا عليه أن يضيع الآخرين، يحب أن يأخذ ولا يعطى ، واذا أخذ فالشكر ثقيل عليه ، وان شكر فبكلمات خفيفة ... ثم لا حق بعد لاحد !!

وقد فرض الله الصلاة على الناس طهرا من هذه الدنايا وتربية على جميع الفضائل التى تصح بها انسانيتهم وتكمل بها عبوديتهم ، وتتم بها رسالتهم فى هذه الحياة ، وهل خلقوا الا لعبادته سبحانه ؟

وكون الصلوات عددا معينا ككون السعرات الحرارية التى يفتقر اليها الجسم عددا معينا ! لا تتحقق الثمرات المطلوبة الا بهذا المقدار ، ويقع الخلل المادى والادبى بمقدار هنا وهناك !

وننظر الى حقيقة الصلاة التى شرعها الله للناس ، يقول الفقهاء عن هذه الصلاة : انها اقوال وافعال مبدوءة بتكبير الله تبارك اسمه ومختومة بالسلام على عباد الله جميعا ...

قالوا : أما الافعال فقد استوعبت صور التحية التى كان يتقدم بها الناس الى رؤسائهم وعظمائهم بعد تجريدها من المقاصد الرديئة ! الوقوف الخشع ! القعود المؤدب ! الركوع والسجود اللذان هما نهاية الاستكانة والاستسلام .. !

فأفعال الصلاة ان نقوم لله قانتين ، وان نركع ونسجد لـــه معظمين ، وان نقعد مخبتين قائلين لـــه : ان هذه التحيات التى اديناها . وكل عمل صالح نقوم به فى حياتنا هو لك وحـــدك يا ربنا الكبير !!

اليس ربنا أهلا لهذه التحيات اللطيفة نقدمها له ـــ سبحانه ـــ صباحا ومساء ؟

بلى!وهو اهل التقوى وأهل المغفرة. .لذلك يقول الله لكلمسلم « أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، ان الحسنـــات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين » (١) .

وربما أحس المرء بكلفة فى أداء هذا الواجب ! واستثقل تكراره الم نقل ان الانسان قليل الشكر ؟ لا بأس عود نفسك « واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » (٢)

وتكتنف أفعال الصلاة او تتخللها أقوال كثيرة والمطلوب أن يكون المصلى حاضر الوعى حين يتكلم ، فاذا بدأ صلاته قائلا : الله أكبر ، فمعنى ذلك أنه فى موقف جدير يجمعه مع الله فلينتبه !

ويسمى الفقهاء هذه التكبيرة تكبيرة الاحرام ، كأن الانسان حرم على نفسه الانشغال بشىء آخر لانه شرع فى مناجاة الله ، والالتفات اليه وحده . .

والاقوال التى يرددها المصلى كثيرة ، لعل أهمهـــا تلاوة أم الكتاب ، وقراءة هذه السورة ليس اختبارا فى الحفظ ! فان كلماتها تمثل لقاء حيا بين الله وعبده ، العبد يتكلم والسيد يجيب !

فى الحديث القدسى « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل . . .

---

(١) هود ١١٤ (٢) هود ١١٥

فاذا قال العبد « الحمد لله رب العالمين » قال الله عز وجل حمدنى عبدى !

واذا قال « الرحمن الرحيم » قال الله : اثنى على عبدى ..

واذا قال : « مالك يوم الدين » قال : مجدنى عبدى ..

واذا قال : « اياك نعبد واياك نستعين » قال : هــذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ..

واذا قال « اهدنا الصراط المستقيم صراط الــذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل — اى اعطيته ما طلب ..

وتكرار هذه المعانى حق ، فان نعم الله مترادفة توجب تكرار الشكر ، وذكر الله بصفاته العلا ، واسمائه الحسنى ثناء صادق ومدح مستحب ، والشعور بيوم الدينونة وملكه القائم على كل نفس بما كسبت يكفكف الغرور بالدنيا ..

وتعهد المصلى أن يعبد الله وحده ، ويستعين بالله وحــده هو ب التوحيد . فاذا وفى المصلى بعهده ، فسأل ربه من رفده منحه ما يطلب ، وافضل ما يطلب الانسان هدى يقيه الانحراف، ورضا يقيه الطرد ، ونعمة تقر بها عينه ، وسدادا يقيه الحيرة ...! الظفر بذلك سعادة الدنيا والاخرى .. !

ومع فاتحة الكتاب يقرأ المرء ما يشاء من الكتاب نفســه . وفى هذه الزيادة معرفة اكثر بالوحى الاعلى ، وما فيه من تبصرة بشئون الحياة كلها ..

ثم يركع المصلى مسبحا ربه العظيم ، فكم من سكان الارض يشرك به أو يجحد وجوده أو يجهل ما ينبغى له من نعوت الكمال ، اما المسلم فهو يخالف أولئك جميعا وينزه ربه عمــالا يليق به من

نقائص . وهو موقن بأن تنزيهه هذا قد صـــعد الى الله الجدير به ولذلك يرتفع من ركوعه قائلا : سمع الله لمن حمده .. اى استجاب الله لمن اثنى عليه وحمده .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع من ركوعه احيانا ويقول : اللهم ربنا لك الحمـــد ملء الســموات وملء الارض وملء ما بينهما من شيء بعد ، اهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ــ وكلنا لك عبد ــ لا مانع لما اعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .. !!

ومعنى الجملة الاخيرة أن المرء لا ينفعه عند الله ما نال فى الدنيا من حظوظ الرفعة والنعمة،فليس فى ذلك دليل على الرضوان الاعلى « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقـــدر وفرحوا بالحيـــاة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الاخرة الا متاع » (١)

ثم يهوى المصلى ساجدا يسبح اسم ربه الاعلى . ومع كل ركوع سجودان ! والانسان يكون فى أزكى احوال واشرفها عندما يضع جبهته على الارض بين يدى ربه ، فليدع بما شاء .

وكان النبى أحيانا يقول فى سجوده : « سجد وجهى للذى خلقه وصـــوره وشـــق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخـــالقين أو « سبحان ذى الملكوت والجبروت والعظمة » وهذه الحركات كلها يكتنفها التكبير بدءا او ختاما ...

وفى القعود الاول او الاخير يذكر المرء لربه أن كل مـــا سبق من افعال واقوال تحيات لوجهه الكريم ، فهو يقول : التحيات لله ، والصلوات الطيبات ثم يلقى السلام على صاحب الرسالة العظمى لقاء ما علم وربى وارشد ، وكأن هـــذا السلام اشـــارة الى انه

---

(١) الرعد ٢٦

الاسوة الحسنة ، فى اقام الصلاة ، وسائر الشرائع التى جاء بها ! ثم يرسل سلاما آخر على نفسه وعلى عباد الله الصالحين . !

ما أحلى هذه الكلمات كلها ، وما أشرف الصــلاة التى يكلف المسلم بأدائها . .

ومهم أمران : أحدهما عقلى والاخر قلبى ! اما العقلى فيجب أن يعلم ما يقول ، ويعرف ما يناجى ربه به فقد جاء فى السنة ان المرء لا يكتب له من صلاته الا ما عقل منها ! أما ان يكون سكران بخمرة الدنيا وشواغلها ثم يقف تائها لا يدرى ما يتكلم به فهذا هبوط وضياع « لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون»(١)

أما القلبى فان الصلاة تورث الخشوع والادب والخشية . وهى معراج روحى يرقى بصاحبه الى الملأ الاعلى ، انها ــ ان اقيمت كما شرع الله ــ توبة كاملة تمحو الخطايا محوا ، وتطهر النفس تطهيرا قال عليه الصلاة والسلام : أرايتم لو أن بباب احدكم نهرا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، ما تقولون أيبقى ذلك من درنــه شيئا ؟ قالوا : لا يبقى ذلك من درنه ــ قذاه ــ شيئا ! قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا .

والاساس أنها تعصم من الخطايا ، وتحــول دون مواقعتها كما قال تعالى : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » (٢) .

---

(١) النساء : ٤٣
(٢) العنكبوت : ٤٥

بيد أن البشر ضعاف وقد تهى ارادتهم أمام اغراء ما ، ويزلهم الشيطان فهل ييأسون من تسام ومتاب وعـود الى الله ؟ كلا ، فليفزعوا الى الصلاة فهى تنقى أرواحهم وتشد عزائمهم وتردهم الى الصراط المستقيم ، المسلم لا يذهب الى كاهن يأخذ بيده ، فليس الكاهن خيرا منه؛ولو فرضنا أنه خير فما ينفع الا نفسه ولامفزع الا الله . . .

١٥ ــ ماذا يرمز اليه الوضوء ولماذا لا تصح الصلاة الا به ..!

نظرت الى بعض الاشجار القريبة منا وكان غبار الجو قد كساها ، وجعل اوراقها داكنة ، فلم تثر انتباها وخلفتها دون توقف .. وشاء الله ان تمطر السماء بعد قليل ، وكان مطرا غزيرا ، ومررت بالاشجار نفسها فكان منظرها عجبا كانت خضرتها تزهو ، والاوراق تحت أشعة الشمس تلمع ! فقلت : ما احسن النظافة ، أبرزت الخلقة الطبيعية فى جمالها الاصيل وبعثت النفوس على الاعجاب ..

كذلك جسم الانسان . ان النظافة تجلوه وتزكيه ، والجسم الانسانى احوج من غيره الى التطهير الدائم ، لان متاعبه لا تجىء من الغبار وحده ، وانما تجىء من افرازات الجلد والاعضاءونفايات الاجهزة التى لا تهدأ حركتها ولم أر نظاما للتنقية والتطرية ادق من التشريع الاسلامى فى احترام الجسم وازالة القذى عنه ، واستئصال ما يشينه واستبقاء ما يزينه ...

والوضوء من شعائر الاسلام المطردة فى الحياة الاسلامية ، وهو من الوضاءة أى الحسن الباهر ، ومعنى ذلك أنه فوق النظافة انه تخلية وتحلية ، والنظافة قد تعنى ازالة الاوساخ وحسب !

وكلمة الغسل فى اللغة لا تعنى اسالة المــاء فقط ، يقال : غسلت السماء الأرض اذا كان المطر بالغ الشدة ، واذا فرض الاسلام غسل أعضـــاء معينة فهو يريد تدليكها بمـــا يطهرها ولا يترك أثرا منفرا فوقها ..

وقد أوجب الاسلام الوضوء كما فرض جملة من الاغسال التى تشمل الجسد كله ! ونستطيع جعل الوضوء رمزا لفلسفة الاسلام فى تكريم الجسم الانسانى واعزازه اذ أن هناك عقائد تعلن حربا

على هذا الجسم وترى الارتقاء فى اهماله وانحافه والجور عليه ، وذلك فى زعمها لترقية الروح .

والواقع أن الانسان معنى ومبنى وقلب وقالب ، وعزل المادة عن الروح صعب .

والمفروض أن يكون المعنى الشريف فى مبنى نظيف ، وان يكون القلب الطيب فى اهاب نفيس .. !

روى مسلم عن عمرو بن عبسة رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف الوضوء ؟ قال أما الوضوء فانك اذا توضأت فغسلت كفيك ، فأنقيتهما ، وغسلت وجهك ، ويديك الى المرفقين ، ومسحت رأسك ، وغسلت رجليك الى الكعبين ، خرجت من خطاياك كيوم ولدتك امك !

قال ابو أمامة : يا عمر بن عبسة انظر ما تقول ؟ أكل هذا يعطى فى مجلس واحد ؟

قال عمرو : اما والله لقد كبرت سنى ، ودنا أجلى ، وما بى من فقر فأكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد سمعته أذناى ووعاه قلبى من رسول الله .

والواقع ان الجزاء المذكور ليس على مجرد الوضوء ، فان الوضوء وسيلة الى الصلاة ، وهذى وذاك مظهران لايمان حسن ، ومسارعة الى رضوان الله ، فالثواب الوارد منظور فيه الى جملة هذه الخصال المترابطة ، وقد تأكد هذا المعنى من احاديث كثيرة ..

والوضوء وحده لا يصلح اذا كان الجسم بحاجة الى تطهير تام ، كما فى حالة الجنب والحائض والنفساء ، وقد أمر الاسلام بتتبع ما يلوث البدن حتى لا يبقى اى اثر لنجس ، وكانوا قديما

يستعينون ببعض الاعشاب والالياف لادراك النظافة المطلوبة ، وفى عصرنا توصل العلماء الى مواد كثيرة يمكن استخدامها لتحقيق هذا الغرض !

ان المعلم كالطبيب ، كلاهما يريد الكمال للانسان ، والطبيب فى كشوفه وعلاجاته يتناول الجسم كله لا ينسى منه شيئا ، وكذلك فعل الاسلام وهو ينقى البدن ويجمله ، انه لم يتحرج من ذكر شىء مهم وفى الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الفطرة خمس ، الختان ، والاستحداد — ازالة الشعر حول المواضع الحساسة — وقص الشارب ، وتقليم الاظافر ، ونتف الابط » .

اى أن من المحافظة على الفطرة السليمة — وهى جوهر الدين — أن يتعهد المرء بدنه بهذه الاداب ..

ومن اطال شعر راسه يجب عليه أن ينظفه ويسرحه ولا مانع من تعطيره ، ففى الحديث « من كان له شعر فليكرمه » !!

ولابد من غسل الفم وتعهد الاسنان ومنع الفضلات من التخلف بين الثنايا ، ان الفم المتغير الرائحة بلاء على صاحبه ، ومصدر اذى لاصحابه ، وقد أسقط الاسلام صلاة الجماعة عن الابخر !! كما ندب لمن أكل ثوما أو بصلا او فجلا أن يبتعد عن المجالس العامة، وتعاليم الاسلام فى استعمال السواك كثيرة ، ويمكن الاستعانة بالمعاجين التى تنظف الفم ، وقد تغنى مكان السواك ..

والغريب أن الاسلام لم يكتف بالطهارات التى قررها ، بل ضم الى ذلك التزين الذى يصلح الهيئة ، ويجلب الاحترام ، وقد

روى أبو داود والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « أو مأت امراة من وراء ستر ، بيدها كتاب ! الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبض يده ! وقال : ما أدرى ، أيد رجل أم يد امراة ؟ فقالت : بل يد امراة ! فقال لو كنت امراة لغيرت أظافرك — يعنى بالحناء — أى لظهرت حمرة الخضاب على الاظافر !!

وعن عائشة أيضا أن هند بنت عتبة قالت : يا رسول الله بايعنى . قال : لا أبايعك حتى تغيرى كفيك كأنهما كفا سبع — أى وحش — !

والتجمل شىء غير التبرج ، التبرج اهاجة الغرائز الساكنة بصورة تميل بها نحو الاثم ! أما التجمل فهو ابراز الجمال الطبيعى فى اطاره العادى المعتدل ، وجمال الانوثة غير جمال الرجولة . والاسلام يرفض تشبه أحد الجنسين بالاخر ، وليس معنى نهى المرأة عن التبرج أن تكون دميمة المظهر أو كريهة الرائحة ، كلا فلتكن حسنة الهيئة مع الاحتشام ، ولتكن طيبة الرائحة دون تعطر صارخ .. !

قلنا : ان الوضوء من الوضاءة ، أى الحسن والملاحة والاشراق ! والحياة الاسلامية الاولى كانت آية فى النظافة والارتقاء ، فلما ساء معنى التدين وانحدر مستواه ظن البعض أن الهيئة الرثة من الدين وان اهمال الجسم دليل على التقوى وطلب الاخرة ! والحق أن الشكل الفوضوى دليل موضوع مشوش وأن من أهمل حق بدنه لا يؤتمن على كثير من الحقوق ..

أما نستحى — وقد أضاف الله الزينة الى نفسه — ان ننأى عنها ؟ ألم يجىء فى الكتاب العزيز « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق (1) .. ؟ ان الله يريد وضاءتنا فلم نريد نحن الدمامة والرثاثة ؟؟

---

(1) الاعراف : ٣٢

ان الوضوء رمز اسلامى لكل أسباب النظافة والزينة على ان يكون وراء ذلك بداهة فكر نظيـــف ، وأدب رائق جميل ، فيكمل الانسان جوهرا ومظهرا وحقيقة وصورة . . !

والوضوء ليس شرطا لذكر الله سبحانه وتعالى ، فالمسلم يستطيع أن يذكر ربه فى أوقاته كلها جنبا او طاهرا بل يستطيع ان يقرأ القرآن الكريم — فيما ارى — وتسطيع الحائض ذلك . والمؤمن لا ينجس ابدا والجنابة عارض لبدنه يمكن الخلاص منه على عجل . .

اما الصلوات المكتوبة كلها فيستحيل الدخول فيها دون طهر، والوضوء كاف لمن قام به حدث أصغر ، اما الحدث الاكبر فلابد من الغسل . .

وانما اشترط ذلك حتى لا يتجوز المؤمن فى شئون النظافة ، ويتركها لاى عذر ينويه ، فما أسرع الناس الى الترخص فيما لم يلزموا به حتما ، واذا كانت الصلاة من اركان الاسلام الخمسة ، فان النظافة تعد من الاركان لانها تمهيد لامناص منه للصلاة ، ثم جاء تعبير القرآن بعد ذلك أعم والطف اذ أمر باتخاذ الزينة عند الوقوف بين يدى الله «يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد . .»(٢)

والنظافة خلق قبل ان تكون عادة تتبع الغنى او الفقـــر ، ومن كان شديد الحس بطهارة جسمه لن يعدم اية وسيلة تجعله نقيا وسيما ، وكم من فقير نظيف ! وغنى ممجوج . . . !

---

(٢) الاعراف ٣١

١٦ — ما حكمة الحج ؟ ولماذا كان الطواف حول الكعبة وهي بناء من حجر ؟

سمعت أحد الدعاة يقول : ان الله كلفنا بما نعقل فأطعنا ، فأراد ان يبلونا بأفعال الحج ليرى : أنطيعه فيما لا نعقل أم نعصيه ؟ قلت له : هذا كلام ردىء ، وأفعال الحج ترتبط بحكم لا ينكرها العقل ، وقد شرحتها فى موضع آخر ولابأس من اعادتها هنا .

ان الامم تغالى بكثير من ذكرياتها ، وتقرن به مشاعر نفسية واجتماعية بعيدة المدى ، وقد ربط النصارى أنفسهم بقبر المسيح وطريق الالام ، كما يقولون ، وربط اليهود أنفسهم بحائط المبكى ، وأسسوا عليه حقوقا ما انزل الله بها من سلطان ! فلماذا يستغرب من المسلمين ان يرتبطوا بأماكنهم المقدسة ، ارتباطا — يبدو — عندما يدرس — أقرب الى الرشد ، وأبعد عن الوهم ؟ ..

الكعبة هى البيت الحرام الذى بنى لتقام فيه وعنده الصلوات لله وحده ، وقد قيل لابراهيم وهو يؤسسه « لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود » (١) .

وهذا المسجد الحرام — أعنى الكعبة — هو أول مسجد بنى فى الدنيا لتوحيد الله ، ونبذ الشركاء ، وتمحيض العبادة لرب العالمين

أليست لهذه الاولية حقوق ؟ بلى . وطبيعة هذه الحقوق الا يشاد مسجد فى العالم الا اتجه اليه وشاركه غايته فى التوحيد

---

(١) الحج ٢٦

الخالص ! وكذلك من هذه الحقوق المقررة أن ينبعث كل قادر ليزور هذا المسجد الذى أصبح قبلته حيا وميتا . !

هذه المعانى هى التى ذكرها القرآن الكريم فى اثناء الحديث عن هذه الكعبة«ان أول بيت وضع للناس للذى ببكه مباركا وهدى للعالمين » (١) لله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » (٢) « فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » (٣) ...

من أجل ذلك تنبعث الوفود من المشارق والمغارب لترى البيت الذى تصلى اليه ، ولتطوف حوله طواف تقدير واحترام !

ماذا يقول الحجيج وهم يطوفون بهذا البيت ؟ يقولون « لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » ! يقولون : « سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر » ..

انهم لا يعبدون البيت وانما يعبدون رب البيت ، والطواف كما جمع العلماء — صلاة لابد لها من طهارة البدن ولابد فيها من خلوص لقلب لله .

ومن زعم أن الكعبة كلها أو بعضها يضر أو ينفع فهو خارج من الاسلام .

---

(١) آل عمران ٩٦
(٢)آل عمران ٩٧
(٣) البقرة ١٤٤

ومن حق رب البيت أن يضع طريقا لزيارة بيته ، فاذا جعلها طوافا من سبعة أشواط فليس فى الامر مـــا يستغرب ، ففى طول الدنيا وعرضها توضع طرائق شتى للاستقبالات والاستعراضات!!

وحكمة أخرى لا تقل جلالا عن سابقتها ، تفسر الطواف حول البيت العتيق ، ان الامة الاسلامية التى تبلغ الان الف مليون من البشر ، بدات دعوة حارة على السنة الرسولين الكريمين اللذين توليابناء هذا البيت!دعوة ملؤها الاستسلام لله،والرغبة فىمدعبادته من الاباء الى الابناء الى الاحفاد الى قيام الساعة « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمـــة مسلمة لك .. » (١) كمـــان هذين الرسولين الكريمين دعـــوا الله ان يجعل فى هـــذه الامة نبيا يعلم ويربى ويتلو آيات الوحى الصادق ، فكانت بعثة النبى الخاتم بعد قرون طوال !

اهناك ذكريات تاريخية أعز من هذه الذكريات ؟ فاذا لم يحج المسلمون البيت الذى بدا عنده تاريخهم ، فأين يحجون ؟ واذا لم يقصدوا البيت الذى كان نبيهم دعوة مخبوءة فى ضمير عند بنائه استجابها الله وباركها فأين يقصدون ؟

ان الكعبة بناء من حجر ، ما يغليها ان تكون بناء من ذهب ولا يرخصها ان تكون من خشـــب ، المهم هـــو المعنى الـــذى يحفها .. !

رجل واحد هو فى طاقته أمة ! احب الله من أعماق قلبه، والقى فى النار لحرصه على توحيده ، وخاصم الملوك والجماهير لاعلاء هذه الحقيقة ، وتنقل بين ارجـــاء رحبة من الارض يدعو

---

(١) البقرة : ١٢٨

ويجادل ، طوحت به سياحاته الى هذا المكان النائى ليشيد على انقاض الوثنية حصنا للتوحيد، ويسأل ربه وهو يبنى أن يجعل من عقبه امة تحمى الحق وترفع رايته ، أكان للناس عجبا أن تهرع هذه الامة بعدما تمخض عنها الغيب لتزور المسجد الذى وضع أبوها ، وتهتف من حوله بشعار التوحيد ؟

ان الاب الراحل دعا الاجيال لتزور بيت الله ، وتوثق حبالها بالعقيدة التى انشاته ، ووقع فى قلوب الالوف المؤلفة صدى هـــذا النداء ، فاتت من كل فج تقـــول : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة والملك لك ، لا شريك لك !

فهل تتهم هذه الوفود الموحدة بانها وثنية ؟ اليست هـــذه السفاهة بعينها ... ؟

ان بعض الناس لا يدرى المعانى العظيمة التى تحف مناسك الحج ، وقد يكون الحجاج انفسهم من هذا القبيل !

نظرت الى « المسعى » وهو يموج بحشود كثيفة تطوف بين الصفا والمروة ، وساءلت نفسى : ان هذا الســـعى بين الجبلين الصغيرين شرع لترسيخ عقيدة التوكل عـــلى الله ، وان وهت الاسباب المادية ، فهل الساعون يعون ذلك ؟

من قرون خلت كانت هذه البقعة يسودها صمت الوحشة والانقطاع ، لا انيس هنا لك ولا عمران ، جاءهـــا ابراهيم عليه السلام بامراته وابنه الرضيع ، ثم قال : للام الضعيفة : ساتركك هنا .. !

وتساءلت هاجر دهشة : تتركنا هنا أنا واسماعيل .. ؟

حيث لا زرع وضرع ، ولا دار ولا ديار ؟ نعم قالت : الله أمرك بهذا ؟ نعم ..

أذن لا يضيعنا !! وانصرف الاب لا يدرى ماذا سيقع له ولا ما سيقع لاسرته ، لقد نفذ ما أوحى الله به وحسب !

ونفد الزاد والماء من هاجر ، وجاءت الساعة الحرجة ، وانطلقت الام بين الربوتين الجاثمتين على صدر الوادى تبحث عن غوث للرضيع الذى يوشك أن يهلك .

وبعد أمد جاء الملك وفجر بئر زمزم ، وحامت الطير حول الماء الدافق ، واحس الناس ما جد فأقبلوا على المكان يعمرونه !

ان ثقة هاجر فى الله اثمرت الخير ، ولم يخذلها الله بعدما آوت اليه ..

والتوكل على الله — مع ضعف الاسباب أو انعدامها — زاد يحتاج اليه المجاهدون ، والمضطهدون ، يعتمدون عليه فى اليوم الكالح كى يسلمهم الى غد رابح .

وقد خسر المسلمون معارك كثيرة ، كانوا جديرين بكسبها لو استندوا الى الله ، ولكنهم خاروا لضعف يقينهم ثم هانوا فى ارضهم !

هل يعى ذلك الساعون بين الصفا والمروة ؟ وهل عرفوا عقبى التوكل عندما يمثلون الدور الذى قامت به ام اسماعيل وهى تتحرك جيئة وذهابابين الربوتين ؟

قال التاريخ : واعترض الشيطان ابراهيم لما ترك أسرته بالوادى المقفر ، يقول له : كيف تنفذ امرا فيه هلاك أهلك ، لان الله أمرك ؟ فحذفه ! ابراهيم بحصيات التقطها من التراب ، فكانت تلك سنة رمى الجمار فيما بعد !

ان مناسك الحج تنمية لعواطف المسلمين نحو ربهم ودينهم وماضيهم وحاضرهم .

ويكفى أنها تجمعهم من أطراف الارض شعثا غبرا لا تفريق بين ملك وسوقة ، ولا بين جنس وجنس ، ليقفوا فى ساحة عرفة فى تظاهرة هائلة ، الهتاف فيها لله وحده ، والرجاء فى ذاته والتكبير لاسمه ، والضراعة بين يديه ، فقر العبودية ظاهر ! وغنى الربوبية باهر ! ومن قبل الشروق الى ما بعد الغروب لا ذكر الا لله ولا طلب الا منه سبحانه ..

ان الحج من الناحيــة الروحية اذكاء مشـاعر ، وتجـديد عاطفة . ومن الناحية الاجتماعية فرصة ثمينة للتوجيهات الجامعة التى تكفل مصلحة المسلمين العليا .

ولكى ندرك ذلك ندرس كيف حج المسلمون فى السنة التاسعة والسنة العاشرة للهجرة .

فى السنة التاسعة رجع الحجاج وقد تلقوا تعليمات بقطع علاقاتهم مع العابثين بمعاهداتهم ، ومعاملتهم بالشدة بعدما فشل اللطف معهم ..

وفى السنة العاشرة وضعت تقاليد انسانية وآداب عامــة تضمنتهــا الخطبة الجليلــة التى القاهــا الرسول صــلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ..

فهل يسمع المسلمون شيئا ذا بال عندمـا يحجون فى هــذه الأيام ؟

١٧ ـ ما هى دار الحرب ، وما هى دار الاســلام ؟

يقصد بدار الاسلام جميع الاراضى التى يعمرها المؤمنون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم العاملون بكتابه وسنته المنفذون لشرائعه ، والمنضوون تحت لوائه . ويقصد بدار الحــرب جميع الاراضى التى يقطنها الكافرون بهذه الرسالة ، المخاصمون لها ، المعترضون لدعوتها . .

قد تتسع هذه الدار فتشمل كل الاوطان التى غزانا منهــا الصليبيون القدامى ، اى أوربا كلها تقريبا ! وقد تتسع لتشمل كل الاقطار التى اغار منها التتــار علينا ، فوصلوا من الصـــين الى فلسطين ! ، وقد تضم كتابيين ، ووثنيين ، وملاحدة !

وقد سميت هذه البقاع واهلوها دار حرب من باب المعاملة بالمثل ـ كما يتبين ذلك قريبا ـ فان ارض الاسلام لم تكن لهــا حرمة عند أعدائه فلم تصان ارض أولئك الاعداء . . ؟

على انى اشعر بالالم لهذه الجفوة القاســية وآسى لانسانية انقسمت على هذا النحو الدامى ، وتاريخ مليىء بالاحن والحروب !

لم تكن هناك جسور تصل بين الدارين ، ولا عهــود تؤمن الاتباع من هنا ومن هنا ، بل كانت هناك تيارات من الجدل والمهاترة تشعل الاحقاد ، وتورثهــا للاحفاد ، وليس بين الفريقين الا مــا يقوله الشاعر .

الله يعلم انا لا نحبكم ... ولا نلو مكمو الا تحبونا
كل له نية فى بغض صاحبه ... بنعمة الله نقليكم وتقلونا !!

من المسئول عن ذلك ؟ قبل ان اذكر ما عندى اذكر ما قاله أقطاب القانون الدولى عند الأوربيين ، وهي اقوال نقلتها عن كتاب « المجتمعات الدولية الاقليمية » المقرر فى معهد الدراسات العربية العالمية بجامعة الدول العربية .

والمؤلف رجل محايد لم يره أحد يوما فى ميدان الدعوة الاسلامية هو الدكتور محمد حافظ غانم وزير التعليم العالى الاسبق ..

كتب تحت عنوان « العائلة الدولية كانت تستبعد دار الاسلام من حظيرتها » فقال : منذ نشأة القانون الدولى الحديث كان من المقطوع به اعتبار الاسلام خارج نطاق العلاقات الدولية ! وعدم الاعتراف بتمتع الشعوب الاسلامية بالحقوق التى يقررها هذا القانون » (١) .

وعلى هذا الاساس لم يكن الفقهاء الاوربيون راغبين فى اعتبار الدولة العثمانية جزءا من الجماعة الدولية فـ « جروسيوس » أبو القانون الدولى قال بوجوب عدم معاملة الشعوب غير المسيحية على قدم المساواة مع الشعوب المسيحية ! ومع أنه يرى القانون الطبيعى مجيزا لعقد معاهدات مع أعداء الدين المسيحى الا انه نادى بتكتل الامراء المسيحيين ضد أعداء العقيدة .

و « جينتليس » هاجم « فرانسوا الاول » ملك فرنسا لعقده معاهدة مع السلطان سليمان القانونى — الخليفة العثمانى — سنة ١٥٣٥ مع أن هذه المعاهدة أقامت سلاما بين الدولتين وأعفت الرعايا الفرنسيين من دفع الجزية التى كانت مقررة على غير

---

(١) جميع العبارات المنقولة هنا مؤصلة بمراجعها العلمية والاجنبية وقد اثبتها كلها فى كتابى « كفاح دين »

المسلمين اذا ما اقاموا فى دار الاسلام ! ومنحتهم امتيازات دينية وقضائية .

وذلك على اساس أن هذه المعاهدة تقيم تعاونا بين ملك مسيحى وبين غير المؤمنين !

اقول : وهو تعاون — فى نظر رجل القانون الدولى — لا يجوز بل يجب ان يبقى التناكر والتعادى بين الفريقين وان تهيا الفرص لسفك المزيد من الدماء ! بم نعلق ؟ « قل : لا تسألون عما أجر منا ولا نسأل عما تعملون ، قل : يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم » (١) ..

يقول المؤلف : بل لقد ذهب فقهاء آخرون الى انه من الممكن اقامة سلام دائم فى اوربا ، على اساس تكتيل الدول المسيحية ضد العثمانيين — اى ضد المسلمين — وظهرت عدة مشروعات — من هذا النوع .

ويستطرد المؤلف — بعد شرح هذه المشروعات — فيقول : ان الدول الاوربية فى تعاملها مع الشعوب الاسلامية كانت تنظر اليها كجماعات همجية غير جديرة بالتمتع بقواعد قانون الحرب ! ولقد اعتبر الاستيلاء على اراضى المسلمين عملا فاضلا يدعو الى الفخر .. !!

ثم يقول المؤلف : ونخلص مما تقدم الى انه حتى النصف الاول من القرن التاسع عشر لم تكن الدولة العثمانية او اية دولة اسلامية اخرى تتمتع بحقوق القانون الدولى .

---

(١) سبأ : ٢٥ ، ٢٦

هكذا كانت النظرة الينا حتى بدايات العصر الحديث ! والواقع ان رجال الحـــرب والسياسة والقانون كانوا قبل الحروب الصليبية وبعدها ينظرون الينا ببغضاء عميقة ، وقد ورثوا عن آبائهم كفرا برسالة محمد ورغبة جامحة فى تشويهها والقضاء عليها !

محمد مـــدع لا صلة له بالنبوة ! واتباعه مخدوعـــون لا يقبل منهم ايمان ،وليس لهذا الدين ولا لمن دخل فيه حق مادى او ادبى ينبغى ان يراعى ! انهم خارجـــون عـــلى القانون فمن اغتالهم أو اجتاحهم لم يرتكب اثما !

ماذا يفعل المسلمون اذا رأو هذا الحيف ، وهم موقنون بأن الله واحد ، وان رسله كلهم — ومعهم محمد — حق ؟

اذا اعتبرت ارضـــهم دار حرب اعتبروا أرض غـــيرهم دار سلام ؟ هذى بلاهة !!

كان عباد الاصنام يشمئزون من عقيدة التوحيد ! ويرفضون سماع شيء عنها « واذا ذكرت ربك فى القرآن وحـــده ولوا على ادبارهم نفورا » (١) .

ليكن « لى عملى ولكم عملكم انتم بريئون مما اعمل وانا برىء مما تعملون » (٢) !!

لا ، لن ندعك تدعو ولن ندع الاخرين يتبعوك ، والسيف هو الحاكم ! ويصور القرآن الموقف فى هذه العبارة « لا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » (٣)

---

(١) الاسراء : ٤٦

(٢) يونس : ٤١

(٣) البقرة : ٢١٧

فاذا تجاوزنا الوثنيين الى أهل الكتاب وجدنا الضغائن اشد، والانياب احد .. انهم لا يطيقون سماع كلمة عن الاسلام « وقالوا : كونوا هودا او نصارى تهتدوا .. » (١)

كلا الفريقين من يهود ونصارى يريد أن ننسلخ عن ديننا ونتبعه !

اننا يا قوم أعرف بموسى وعيسى ، وأرعى لتراثهما الصحيح، واسرع الى مرضاة الله الذى أرسلهما ، وارسل بعدهما محمدا ..

لا لن نصغولكم « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم .. » (٢)

ويبذل اهل الكتاب جهود المستميت لسحق الدين الجديد ، وتعويق المصدقين له ، وصرفهم ولو الى الالحاد او الوثنية !!

وانك لترى تقريع الاسى والغضب فى تعليق القرآن على هذا الموقف الوضيع « قل يا اهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون » (٣) .

ماذا يصنع المسلمون بازاء هذه العداوات المحيطة ؟ ان الذى يطلب منهم الاستكانة لها لا ذرة لديه من عقل ..

---

(١) البقرة : ١٣٥
(٢) البقرة : ١٢٠
(٣) آل عمران ٩٨ — ٩٩

وها قد طلع العصر الحديث ، عصر عصبة الامم ، ثم هيئة الامم ، ومجلس الامن ، وقيل ان للانسان حقوقا ، وللشعوب كرامات ! فهل اختفت المواريث القذرة فى تاريخ العالم وتخلصت البشرية من طبائع الظلم والغبن ؟

ان قضية فلسطين نموذج لشر ضروب التعصب ، فقد طرد شعب مسلم من داره،وحلت محله اسرائيل،وقالت الدول الراقية : لقد خلقت اسرائيل لتبقى ...

وستتبع فلسطين اقطار اخرى مادامت جزءا من ارض الاسلام لانها فى نظر الاستعمار القديم والحديث دار حرب !!

اننا لا نحب هذا التقسيم ، ولكن غيرنا الجأنا اليه واذا تركه تركناه ....

١٨ — ما حقيقة الحرب والسلم فى الاسلام .... ؟

الف « ابن تيمية » رسالة صغيرة عن القتال فى الاسلام بداها بهذا السؤال : هل مقاتلة الكفار بسبب عدوانهم ام لمجرد كفرهم ؟ ثم أجاب (١) : فى ذلك قولان مشهوران للعلماء .

الاول قول الجمهور كمالك واحمد بن حنبل وابى حنيفة وغيرهم، فهؤلاء يرون أن الكفار يقاتلون لاعتدائهم لا لضلالهم !

والثانى قول الشافعى وربما علل به بعض اصحاب احمد ، واساس هذا القول أن الكفار يحاربون لسوء عقيدتهم وجحدهم لله ولحقوقه !

قال ابن تيمية : وقول الجمهور هو الذى يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار فان الله سبحانه قال : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة اشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين » (٢)

---

(١) تصرفنا فى العبارات بما يقرب المعانى الى القارىء

(٢) البقرة : ١٩٠ — ١٩٤

فقوله : « الذين يقاتلونكم » تعليق للحكم بأنهم يقاتلوننا ، فدل على أن هذا علة الامر بالقتال . ثم « ولا تعتدوا » والعدوان مجاوزة الحد فدل على أن قتال من لم يقاتلنا عدوان ، ويدل عليه ايضا قوله بعد هذا « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » فدل على انه لا تجوز الزيادة .

ثم قال : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » الفتنة تحويل المسلم عن دينه قسرا كما كان المشركون يفعلون بالمستضعفين ، ومقاتلتهم حتى تنكسر قواهم ويعجزوا عن الفتنة ، ولم يقل سبحانه قاتلوهم حتى يسلموا !

« ويكون الدين لله » وهذا يحصل اذا ظهرت كلمة الاسلام وكان حكم الله ورسوله غالبا ..

ذاك ما جاء فى الكتاب الكريم ، أما ما جاء فى السنة فقد صح ان النبى صلى الله عليه وسلم مر فى بعض غزواته على امراة مقتولة — فكانه كره ذلك — وقال : « ما كانت هذه لتقاتل ! فعلمنا ان العلة فى تحريم قتلها انها لم تكن تقاتل » .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يوصى بعدم التعرض لمن ليس من شأنه القتال روى ابو داود ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يوصى الجيش الذاهب الى المعركة « انطلقوا باسم الله ، وبالله ، وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا ، ولا صغيرا ، ولا امراة ، ولا تغلوا ، وضموا غنائمكم واصلحوا ، واحسنوا ان الله يحب المحسنين » .

. وقد ادعت طائفة ان هذه الاية منسوخة ، قال ابن تيمية : وهذا راى ضعيف ، ودعوى النسخ تحتاج الى دليل وليس فى القرآن

ما يناقض — الايات التى ذكرناها — بل فيه ما يوافقهـا فمن أين يجيىء النسخ ؟ الصحيح انها محكمة وان من ليس معدا نفســه للقتال كالرهبان والشيوخ الفناة ، والزمنى والمكافيف والمجانين ، فان هؤلاء لا يقاتلون وهذا حكم باق غير منسوخ ، وهذا قــول جمهور العلماء ..

ونمضى نحن فى مناقشة القائلين بالنسخ بشىء من التفصيل يزيد الحق وضوحا . .

من اعجب ما قرات أن قوله تعالى :« قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » منسوخ بالاية التالية مباشرة « اقتلوهم حيث ثقفتموهم » !!

وهذا ضرب من اللغوما كان يجوز اثباته ، لان القائل قطع جملة من الاية عن بقيتها « واخرجوهم من حيث اخرجوكم » وضرب بها السياق كله على نحو لا يسوغ فى دماغ عاقل ، ولذلك نتجاوز هذا الراى ...

الدليل الذى يعتمد عليه القائلون بالنســخ مــا يسمى بآية السيف يعنون مثلا قوله تعالى : « فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ... » (١)

وفى هذا الكلام تلبيس خطير يجب أن ينكشف لكل ذى عينين فان كلمة المشركين هنا فسرت فى الايات السابقة والايات اللاحقة بانهم قوم تفاحش عدوانهم حتى بلغ حدا لا يطاق ، وانهم جماعةمن

---

(١) التوبة : ٥

الفتاك القادرين تعرفهم عندما تقرأ الاية التى استثنت من تصان دماؤهم من المشركين ، وهى قوله سبحانه « الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم احد (١) .

يعنى أن المشركين المطاردين هم قوم نقصونا حقوقنا وظاهروا اعداءنا ، واحتقروا عهودنا .

ولكى نزداد بهم معرفة نقرأ وصفهم فى الايات الاتية « كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولاذمة ؟ يرضونكم بافواههم وتابى قلوبهم واكثرهم فاسقون اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون لا يرقبون فى مؤمن الا ولاذمة واولئك هم المعتدون » (٢) !!

هؤلاء المعتدون هم الذين أعلنت الحرب عليهم فى صدر سورة براءة ، واعطوا اربعة اشهر مهلة ليروا ما يصنعون بانفسهم ! فهل هذا الحكم يطابق أم يخالف آية«قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم»

ان القول بنسخ لا قتال الا للمعتدين لا مساغ له ابدا ، ولا يدل على نفقه فى القرآن الكريم .

قال لى بعض الاخوة : على رسلك ، ان الاطار الذى تريد وضع الجهاد الاسلامى داخله قد محته آيات الجهاد المطلق ، الجهاد الذى يخاصم الضلال حيثكان ،ويريد غسل الارض منه ، فلا داعى لهذه القيود التى تذكر .. . !!

---

(١) التوبة : ٤
(٢) التوبة : ٨ ، ٩ ، ١٠

قلت : أين هذه الايات ؟ قال : ألم تقرأ قوله تعالى يغرى طلاب الاخرة بالجهاد : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالاخـــرة . ومن يقـــاتل فى ســـبيل الله فيقتل أو يغلب فســـوف نؤتيه أجرا عظيما» (١)أن هذه الاية تحثعلى خوضالحروب انتصر المرء فيها او انهزم وما دام يريد اعلاء كلمة الله فله أجره !

قلت : لعلك لو قرأت الاية التى تليها مباشرة لعلمت أن هذه الحرب لم تكن عدوانا بل ردا للعدوان وكسرا للطغيان !

اليس يقول الله سبحانه فى حفز الهمم لخوض هذه الحرب « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم إهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » (٢) .

ان هذا القتال من اشرف ما دار على سطح الارض بالنسبة الى جمهور المسلمين ، فكيف يوصف بانه قتال لم يرتبط بقيد معين ؟

فصمت قليلا ثم قال خذ آية اخرى قال تعالى : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الـــرقاب ، حتى اذا اثخنتمـــوهم فشـــــدوا الوثاق . . » (٣)

قلت : هذه آية تصف ما يجب عند التحام الرجال فى المعركة، ولا تتحدث عن سبب القتال ، ومع ذلك فلو سلمنا بوجهة نظرك فان

---

(١) النساء : ٧٤
(٢) النساء : ٧٥
(٣) محمد : ٤

أول السورة التى ذكرت فيها الاية يحدد من هو العدو الذى نحاربه !

أول هذه السورة « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله اضل اعمالهم » (١) والصد عن سبيل الله يعنى تعويق الدعوة عن المضى فى مسارها ، وايذاء المؤمنين الذين تنشرح صدورهم بها ، وهذا عدوان حقيقى !!

قال : خذ آية اخرى والايات كثيرة « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وانفسكم فى سبيل الله » (٢) قلت : هذه الاية بين عشرات من الايات التى نزلت فى غزوة تبوك تستنفر المؤمنين كى يقاتلوا الروم ، ويحدوا من طغيان النصرانية شمال جزيرة العرب ، ومعروف أن الرومان قتلوا بعض من اسلم فى مدينة «معان»،ونشروا الرعب فى بقاع واسعة كان عملاؤهم يحكمونها ..

وقد حاول المسلمون أن يقفوا هذا التحدى ، وارسلوا جيشا لى « مؤته » هزمه الرومان ، وقتل القواد الثلاثة الذين حاولوا لصمود به ، ولم يجد المسلمون بدا من الانسحاب ، فعادوا الى المدينة وقلوبهم كسيرة .

وازداد الطين بلة ، فان تيار الدعوة ركد تحت تأثير السطوة الرومانية المحذورة ولم ير النبى مناصا من اعداد أكبر جيش فى تاريخ الدعوة لينازل الامبراطورية العجوز ويلزمها حدودها ! ان الحرب كانت واجبا حتما ، ولم تكن غارة عمياء ، وسوف نزيد الامر وضوحا فيما بعد

---

(١) محمد : ١
(٢) التوبة : ٤١

١٩ — لماذا حمل الرسول السيف ؟ ولم يكتف بالاقناع ؟

فى هذا السؤال ايماءة مرفوضة الى ان الرسول حارب ليحمل الخصوم على قبول الدعوة ! وهذه تهمة لا اصل لها من عقل او نقل ! ماذا يدعيه المدعون بعد أمر الله لرسوله « قل : الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (١) » وقوله سبحانه : ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا » (٢) .

ان الاسلام بنى خطته فى الحياة على استحالة زوال الاديان كلها ، واكتفى بأن يبقى مذكرا بالحق ، منكرا للهوى ، وترى ذلك فى قوله سبحانه « ولئن اتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما انت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت اهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين» (٣)

حسبنا نحن المسلمين أن نقرر الحق ، وان نحيا على هداه، وان نمهد طريقه لمن أحب سلوكه ، ولنا بلا ريب ان نرد المهاجمين، وان نحمى المستضعفين ، وان نسكت المفترين اذا تمادوا فى اذاهم !

ولننظر فى الكتاب الذىأرسله النبى صلى الله عليه وسلم الى هرقل يدعوه الى الاسلام ، ولنتأمل ما جاء فيه بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . اما بعد فانى ادعوك بدعاية

---

(١) الكهف ٢٩
(٢) الانسان ٢٩
(٣) البقرة ١٤٥

الاسلام . أسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين ، وان توليت فان عليك اثم الارسيين « يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون » (١) !

بم ختم هذا الكتاب ؟ ان رفضتم الاسلام فاعلموا اننا مسلمون باقون على اسلامنا ، لا تهديد ولا سباب ! وانما جاء التأثيم فى موقف هرقل — اذا بقى على دينه — من « الاريسيين » .

ونحن نرى مع بعض المحققين أن الاريسيين هم اتباع آريوس البطريق الذى قاد حركة الموحدين فى التاريخ الكنسى ، ورفض بقوة جعل عيسى الها أو ابنا لله ..

وهذا القس الموحد لقى مع أتباعه اضطهادا شديدا ، وتضافرت قوى الدولة الرومانية على مطاردته ومصادرة دعوته ، وورثت الحكومات الاخرى هذا الترويع حتى انقرضت كنيسته أو كادت .. !

ونستبعد أن يكون المراد بكلمة الاريسيين الفلاحين ، ومأساة الموحدين فى أرجاء الامبراطورية الرومانية ثم فى أرجاء أوربا معروفة ، ومن حق نبى الاسلام أن يندد بها ، ويذكر هرقل بموقفه منها .

---

(١) آل عمران ٦٤

اننى بعد اذ هـديت الى ذلك الفهم ـ عرفت أن الاستاذين معروف الدواليبى وابا الحسن الندوي سبقانى اليه ، وذلك مـا يقويه ويؤكده . . .

وربما كان الرومانيون يحسـبون الاسلام امتدادا لبدعـة آريوس ـ كما يصفونها ـ وأياما كان الامر فقد حاولوا البطش بالاسلام ودعاته ، وشرعوا يقتلون من دخل فيه !

ولولا السيف الاسلامى الصلب ، ولولا الرجال اولو البأس الذين حملوه ، ولولا نبى الملحمة الذى انتصب دون دينه وعرينه . لذهب الاسلام فى خبر كان ، وربما ضن عليه الاستعماريون بدموع التماسيح بعد ما يزول ! !

ان المؤرخين الاوربيين غضاب لان الاسلام قاتل الرومان ! فهل سأل احدهم نفسه : ما الذى جاء بالرومان الى الشام وآسيا الصغرى ؟ وما الذى جاء بهم الى مصر والشمال الافريقى ؟

اكان الاقناع طريقا الى اخراج اولئك المستعمرين من ارض احتلوها أكثر من خمسة قرون ؟ هل افلح الاقناع فى انهاء استعمار البيض لجنوب افريقية ؟

ان الحرب وحدها بكل مغارمها ومتاعبها هى الطريق الفـذ لمحو الإستعمار الطويل !

ان الاسلام أغنى الاديان بالادلة واحرصـها على استثارة الافكار ومناشدة الضمائر ، وكان يمكن أن يلام لو انه آثر اعمال السيف على اعمال العقل ، أو قابل اللطف بالعنف ! اما ان يعرض

حجته فيلقى الهزء والهوان ، ثم يحاول المترسون بالدهاء والجبروت أن يواروه الثرى ، فدون ذلك ركوب الاهوال .

والناس ان ظلموا البرهان واعتسفوا فالحرب اجـدى على الدنيا من السلم .

يقول ابن تيمية فى رسالته عن القتال : كانت سـيرته صلى الله عليه وسلم أن كل من هادنه من الكفار لا يقاتله ! وهذه كتب الحديث والتفسير والفقه والمغازى تنطق بذلك ، بل هو متواتر فى سيرته ، فلم يبدأ احدا من الكفار بقتال ... ولو أن الله امره بقتل اعدائه لبداهم بالحروب — ولكنه لم يفعل —

ثم قال : اما النصارى فلم يقاتل احدا منهم حتى السنة السابعة من الهجرة — يعنى الى عشرين سنة من بدء الرسالة — فلما ارسل بعد صلح الحديبية يدعو جميع الملـوك الى الاسلام ، وكتب الى قيصر وكسرى والمقوقس والنجاشى ، وملـوك العرب بالشرق والشام دخل فى الاسلام من النصارى من دخل ، فعمـد النصارى بالشام فقتلوا بعض من أسلم من كبارهم بـ « معان » .. !!

قال ابن تيمية : فالنصارى هم الذين حاربوا الاسلام اولا ، وقتلوا من اسلم منهم بغيا وظلما !! ورسله عليه الصلاة والسلام كانوا يدعون الى الاسلام — دعوة مجردة — فمن دخل فيه دخل طوعا لا كرها ، ما اكرهوا على الاسلام احدا ، فلما بدأ النصارى بقتل المسلمين ارسل النبى جيش مؤته الذى انسحب كما ذكرنا فى الفصل السابق بعد مصارع قواده الثلاثة ، ثم كانت غزوة تبوك التى قرر الرومان الا يشتبكوا مع جيشها لحظة راوها ..

ان القتال فرض على المسلمين فرضا ، سواء كان مع الوثنيين أم مع الكتابيين ، واضطروا لخوضه دفاعا عن أنفسهم وعقيدتهم أو الى هذا تشير الاية الكريمة « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله .. » (١)

اترى المطرود من وطنه لانه مؤمن بربه يعد مهاجما اذا قاتل طارديه ؟ ان الدهشة تملكتنى عندما رايت كتابا يصفون معركة بدر بأنها دليل على ان الحرب فى الاسلام هجومية ! قريش كانت مظلومة وكان المسلمون هم الظلمة !

انه المنطق نفسه الذى اتبع فى وصف المقاتلين الفلسطينين الذين اغتصبت ارضهم ودورهم والجئوا الى العراء !! اعتبروا ارهابيين معتدين على اليهود الامنين الطيبين !!

وقد ربط القرآن الكريم بقاء المساجد والمعابد بقتال المؤمنين ورفضهم الاستكانة والاستسلام « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره » (٢) !!

ايحسب عاقل أن هذه النتائج النبيلة نشأت عن حروب عدوانية ؟ ترى لو أن الرومان نجحوا فى قهر المسلمين واجتياح بلادهم اكان يبقى مسجد يرتفع فوقه صوت مؤذن ؟ ذاك سر الغضب فى نظم الاية الكريمة«ومن أظلمممن منع مساجدالله أن يذكر فيها

---

(١) الحج ٣٩ ، ٤٠
(٢) الحج ٤٠

اسمه وسعى فى خرابها ؟ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين. لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الاخرة عذاب عظيم » (١) .

والحرب مع الفرس بدأ شررها منذ مزق كسرى كتاب الرسول الذى يدعوه فيه الى الاسلام ، لقد غضب هذا الكسرى غضبا شديدا وكلف واليه على جنوب الجزيرة أن يأتيه بمحمد هذا ؟

وكان الفرس ينظرون الى العرب بازدراء ، ويحتلون أرض العراق.ومن ثم أنف كسرى أن يحاول عربى هدايته !! أفكان الفرس يأذنون لمسلم ان يجوس خلال ديارهم يدعو احدا الى الله ؟

السيف وحده هو الذى يحل تلك المشكلة ، وماذا صنع السيف ؟ قلم أظافر الطغاة ، وتركهم بعد تجريدهم من السلاح يفكرون فى هدوء ! ويتدبرون ما يعرض عليهم بعقل ! لا اكراه على دين !!

لا نعرف فى تاريخ البشرية حامل سيف أعف من محمد ، ما غضب لنفسه قط ، ما غضب الا لله وحده ...

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
بقتل نفس ولا جاءوا بسفك دم

جهل ، وتضليل احلام ، وسفسطة
غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم

والجهل ان تلقه بالحلم ضقت به
ذرعا وان تلقه بالجهل ينحسم

---

(١) البقرة ١١٤

٢٠ هل الجهاد مقصور على الدفاع ام يتجـاوز ذلك لاكراه الناس بالقوة على الدخول فى الاسلام ؟

هناك ثلاثـة مواطن يجب فيهـا عـلى المسلم أن يقاتل فى سبيل الله ، ويعد مسيئا اذا تخلف عنها ..

الموطن الاول منع الفتنة ، فقد يتعرض المسلمون فى بعض البلاد لصـنوف من الترويع والاذى تنزل بهم حتى يرتدوا عن دينهم ، ولا يجوز ترك حملة العقيدة تحت وطأة هذا العذاب ، بل يجب كسر شوكة المعتـدين واسقاط سلطتهم حتى تتقـرر حرية الضمير ، ويؤمن من شاء دون خوف ! قال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير ، وان تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير »(١)

الموطن الثانى تأمين الدعوة ، فمن حق المسلمين ان يعرضوا ما عندهم على غيرهم عرضا عاديا لا تقترن به رغبة او رهبة ، اى رشوة او تخويف ، فاذا عطلت اذاعتهم او صـودرت كتبهم او حبس دعاتهم جازلهم ان يقاتلوا حتى يتقرر لهم هذا الحق ، اى جازلهم أن يكسروا السـياج الحـديدى الذى تحتمى وراءه بعض الفلسفات والمذاهب الضالة .

الموطن الثالث عند الحفاظ على الدم والمال والعرض ، فلا يجوز لمسلم ان يسلم حقوقه الطبيعية لقطاع الطرق المحليين او الدوليين عليه ان يناضل لتبقى له ، ولا يحل له أن يقبل الدنية فى دينه

---

(١) الانفال ٣٩ ، ٤٠

أو دنياه « والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها » (١) .

ويمكن أن ينضاف الى هذا الموطن جهاد المجرمين الذين يحيون فى الميدان العالمى على القرصنة والتفرقة العنصرية وايقاع المظالم بالضعفاء أيا كانوا وأين كانوا ..

أما القتال لنعرة جنسية أو لاطماع شخصية أو لفرض الاسلام نفسه على الناس بالسلاح فمرفوض قال تعالى « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » (٢) .

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات تزيد على مائة وعشرين آية تفيد كلها أن نشر الاسلام أساسه الاقناع الهادىء ، والتعليم المجرد ، وترك الناس أحرارا بعد عرض الدعوة عليهم ليقبلوها أو يردوها !!

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم شديد الالحاح على الناس ليفهموا ما جاء به ، ويهجروا عبادة الاصنام ! وكان لشدة حنوه عليهم يطيل مطالبتهم باعتناق الحق وترك الباطل فقال الله له : « ولو شاء ربك لامن من فى الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٣) .

والواقع أن الاكراه على الحق لا وجود له فى الرسالات السماوية كلها وتدبر ما جاء فى القرآن الكريم على لسان نوح « قال

---

(١) الشورى ٣٩ — ٤٠
(٢) البقرة ٢٥٦
(٣) يونس ٩٩

يا قوم ارايتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمــة من عنده فعميت عليكم انلزمكموها وانتم لها كارهون » (١)

وقد حدد القرآن الكريم عمل النبى صلى الله عليه وسلم فى نشر الاسلام ، فكشف انه ليس حاكما عسكريا يفرض على الناس ما عنده او موفدا من السماء لارغام مستمعيه على قبول ما يقول.

« فذكر انما انت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » (٢) .

« نحن اعلم بما يقولون وما انت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » (٣)

« فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا ان عليك الاالبلاغ » (٤)

نعم بعد بيان شاف لحقائق الايمان بالله واليوم الاخر يقال للمستمعين « ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا » (٥)

« قد جاءكم بصــائر من ربكم فمن ابصر فلنفســه ومن عمى فعليها ، وما انا عليكم بحفيظ » (٦)

---

(١) هود ٢٨
(٢) الغاشية ٢١ ، ٢٢
(٣) ق ٤٥
(٤) الشورى ٤٨
(٥) النبأ ٣٩
(٦) الانعام ١٠٤

« ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السـمع وهو شهيد » (١) .

هذا نموذج من الايات التى نزلت فى مكة ، قبل أن يشتبك المسلمون مع أعدائهم فى حروب دامية ؛ كان أولئك المشركون هم موقدى نارها وحاملى عارها ، فماذا حدث فى المدينة بعد ما قامت الدولة الاسلامية ؟ يقول تعالى « فان حاجوك — يعنى خصوم الاسلام — فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن . وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم ؟ فان اسلموا فقد أهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » (٢) .

وفى موضع آخر « واطيعوا الله واطيعوا الرسول واحذروا، فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين » (٣)

ويؤمر صاحب الرسالة الخاتمة بهذه الاية « قل : أطيعوا الله واطيعوا الرسول ، فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين»(٤)

وقد قلنا : ان اسلوب عرض الاسلام على الناس تحدد فى نحو مائة وعشرين آية

قال ابن تيمية : بعد فتح مكة ترك الرسول صلى الله عليه وسلم أهلها ، قائلا لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، لم يكرههم عـلى

---

(١) ق ٣٧
(٢) آل عمران ٢٠
(٣) المائدة ٩٢
(٤) النور ٥٤

اسلام،ولا يقدر أحد ابدا أن ينقل أنه اكره احدا على دخول الاسلام، لا متحصنا ولا مقدورا عليه ، ولا فائدة فى اسلام مثل هذا ..

نقول : وهذا بداهة وقع نزولا على قوله تعالى « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » !!

ومن أغرب الاقوال زعم بعض الناس ان هذه الاية منسوخة !!

قال ابن تيمية : وجمهور السلف والخلف على أن الاية لا مخصوصة ولا منسوخة ، وأنا لا نكره أحدا على الاسلام ، وانما نقاتل من حاربنا ..

وآفة ثقافتنا الاسلامية أنها تدون كل شىء ، ويتجاور فيها التافه والثمين ! فهذا القول الشاذ بأن آية « لا اكراه فى الدين » منسوخة كتب الى جوار القول الذى تواتر عن السلف والخلف ! واصبح كلاما يقال ! ثم أصبح رايا يذكر !

وينضم اليه أن الرسول حارب فى بدر مهاجما !! وبذلك وهذا يصبح الاسلام دين عدوان ... ثم يجىء دور المبشرين الذين يصيحون : الم نقل لكم ان الاسلام انتشر بالسيف ؟

ان هذا المنطق اللصيق بالاسلام يعجب علماء البدو الذين يحبون الغارات ، ويرحبون بويلاتها ويقولون :

واحيانا نكر على اخينا اذا ما لم نجد الا أخانا

وتسرهم الحياة على ما وصف دريد بن الصمة :

يغار علينا واترين فيشتفى   بنا ان اصبنا ، أو نغير على وتر
قسمنابذاكالدهر شطرينمن بيننا فما   ينقضى الا ونحنعلى شطر !!

وما اسوأها حياة أن نغير طلاب ثأر ، او يغار علينا لمثل ذلك .. !!

وهذا المنطق الدموى قد يعجب السلاطين والقادة المرضى بجنون العظمة ، انهم قد يحملون اسم الاسلام والحقيقة أنهم يعبدون أنفسهم ، ويسفكون فى سبيلها دماء المؤمنين والكافرين جميعا ..

لماذا فتح السلطان سليم مصر ؟ وأجرى الدماء فيها أنهار ؟ ولماذا لم يستعن بالمسلمين العرب على نشر الثقافة الاسلامية فى بلاده وفى غيرها ؟ ولماذا ترك مسلمى الاندلس يبيدون دون عون وتموت دولتهم أمام الزحف الصليبى ؟

اننا نكرر القول بأن الاسلام يأبى الاكراه فى الدين ، وان كل ما ينشد حياة تتلاقى فيها التيارات الفكرية من كل جهة ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض ..

قال ابن القيم فى كتابه هداية الحيارى : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » هذا نفى فى معنى النهى ! أى لا تكرهوا أحدا على الدين ، نزلت هذه الاية فى رجال من الصحابة كان لهم اولاد قد تهودوا أو تنصروا قبل الاسلام ، فلما جاء الاسلام أسلم آباؤهم وارادوا اكراه أولادهم على الدين فنهاهم الله سبحانه عن ذلك . حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول فى الاسلام !

قال : « والصحيح أن الاية على عمومها فى حق كل كافر »

ان الاكراه سلاح كل فقير فى براهينه فاشل فى اقناعه ، اعوزه المنطق فاسعفته العصا !

وانه لمن الجهل المخزى ان يتحدث فى الاسلام من لا يعرف اعجازه العقلى ، وقدرته الذاتية على الانتشار والانتصار ...

٢١ — هل فريضة الجهاد لا تزال قائمة ؟ وما واجب المسلمين اليوم تجاهها ؟

ما من أيام الجهاد فيهن احب الى الله من هذه الايام النحسات التى يذوق فيها المسلمون هزائم فى كل ميدان ويفقدون فيها الارض والعرض والدنيا والاخرة !!

غير أن الجهاد المطلوب من طراز آخر غير ما الف الناس ، انه جهاد الكلمة ، وجهاد البحث والدرس ، وجهاد المال والقانون ... وأخيرا الجهاد بالنفس حتى لا نفقد عقائدنا وكل مقوماتنا المادية والادبية ..

كان العدوان على ارض الاسلام قديما يتم بين دق الطبول وصيحات المتعصبين الوحشية ، والصراخ المجنون بضرورة القضاء على دين محمد !

أما فى العصر الحديث فجريمة القتل تتم بمسدس به كاتم للصوت ، ووسط كلمات معسولة تخفى وراءها الحقد الدفين ..

ان الاستعمار العالمى لم ينس يوما كراهيته العميقة للاسلام، ورغبته الهائلة فى واده !

وقبل أن أشرح خطته الجديدة اشير الى خطة قديمة مستغربة.

ان الغرض من كشف العالم الجديد لم يكن لاسباب اقتصادية مجردة !! بل كان لاسباب دينية اهمها القضاء على الاسلام !! واترك الكلام المؤرخ العالمى « هربرت فيشر » « لا يمكن القول بأن

الدافع لاكتشاف العالم الجديد لا يتعدى الرغبة فى الحصول على التوابل والذهب اذ اختلطت المشاعر الدينية بالمطامع الاقتصادية ، ففى الفاتيكان كانت المشروعات التبشرية تتناول العالم بأسره وكانت مشروعات البرتغال واسبانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام ، لا لانها تفضى الى تنصير الوثنيين فحسب ، ولكنها ايضا ستفضى الى شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق !! كان المعروف أن نجاشى الحبشة مسيحى ، وكان المعتقد ان بالهند دولة مسيحية يحكمها عاهل يلقب بالخان الاكبر وكان يداعب اوربا الكاثوليكية أمل كبير فى أن تتلقى من هؤلاء الملوك الشرقيين مساعدة فعالة فى حرب صليبية ضخمة أخيرة تشنها على المسلمين ، تلك هى خطة الهند كما رسمها نقولا الخامس — بابا روما — منذ وقت مبكر يرجع الى سنة ١٤٥٤ فى مرسوم بابوى الى ملك البرتغال ، وفى هذا الجو المفعم بالامال الكبار اقلع كولومبس ليكشف الطريق الى الهند غربا » (١)

نقول وليبدأ تنفيذ المخطط الاستعمارى كما رسمه البابا نقولا الخامس ..

لكن القدر لم يقد كولمبس الى الهند كما كان يتصور ، لقد قاده الى امريكا !

وتأخر تنفيذ الخطة العتيدة ، الى ان استولت أوربا على الشرق الاسلامى وغير الاسلامى فى القرن الرابع عشر للهجرة ،

---

(١) من كتاب « اصول التاريخ الاوربى الحديث » ترجمة أساتذة التاريخ بجامعة عين شمس وقد لفتنى الى هذه الفقرات الدكتور عبد الجليل شلبى الامين العام لمجمع البحوث الاسلامية .

وشرع الحقد القـــديم يتنفس انه يتنفس هـــذه المرة بخبث هائل، ويعمل بدهاء واناة داخل حجرات ناعمة ، تاركا خصومة ينبحون فى العراء !

واذا احتاج الامر الى البطش اخمد انفاس الجماهير فى صمت كذلك او باقل الضجيج !!

وقد شرحنا فى موضع آخر من كتبنا الاسلوب الذى اتخـــذ للقضاء على الاسلام وأمته ودولته ولا باس من الاشارة اليه هنا .

١ ــ بعد توهين دولة الخلافة وانتقاص اطرافها وجهت اليها ضربة قاتلة فى أعقاب الحرب العالمية الاولى طوت رايتها ،وقضت على الوجود الرسمى للاسلام فى الميدان الدولى .

والخلافة بين المسلمين تمثل ــ كما قلنا ــ ابوة روحية وثقافية مهيبة ، وترمز الى ولاء المسلمين لدينهم ، واستمســـاكهم بوحدتهم الكبرى واخوتهم العامة .

وفى الوقت الذى محا الاستعمار فيه هذه القياده التقليدية دعم القيادات التقليدية لشتى الاديان الاخرى .. !

٢ ــ اكثر الاستعمار من صناعة دول لها صبغـــة تريحه ، وليس لها كيان طبيعى ، ولما كان الدين الاول فى افريقية هو الاسلام فقد أعاد رسم القارة المنكوبة جغرافيا وسياسيا فأنشأ اكثر من خمسين دولة راعى فى تكوين كل واحدة ضم كثرة اسلامية الى قلة خلقتها التبشير ، وجعل الحكم فى هذه القلة ! واسبغ عليها رعايته وتأييده ، وترك الجمهور المسلم لا حول له ولا طول يفترسه الجهل والفقر والمرض .. !

٣ — عمل على تنمية القوميات الصغيرة والكبيرة ، واجتهد ان تحيا وفق مذاهب علمانية أو شيوعية وأوعز الى ساستها الا يجعلوا الاسلام دين الدولة ، وان يحذفوا هذا النص من الدستور .

٤ — فى الاقطار التى يعز فيها ذلك ، يكون تمويت النزعة الاسلامية باقصائها عن ميادين التعليم والتشريع وخلق اعلام مائع وأدب ماجن وقضايا تشغل الفراغ وتبدد الطاقات وتدوخ الجماهير .

٥ — فسح الطريق أمام الحركات الدينية المخرفة ، وتركها تنشط لجمع الاجيال التائهة على أفكار بالية وجدل عقيم والمتدينون البله عون عظيم — من حيث لا يشعرون — للاستعمار العالمى ، وطريق مختصر للازراء على الدين وأهله .

٦ — الغاء التعليم الاصلى ان امكن ، وتنصيب رؤساء تافهين على معاهده التقليدية يدورون حول أنفسهم ولا يغنون عن الاسلام شيئا ، ويلحق بذلك الحاق هزائم منكرة باللغة العربية فى كل ميدان .

٧ — ابقاء التخلف الحضارى والصناعى والثقافى وجعل المسلمين أمما مستهلكة لا منتجة بحيث اذا حدثت صحوة اسلامية — رغم كل حيطة — لم تجد وراءها ، ما يمدها بالقوة أو يهيىء لها التقدم والنجاح .

من أجل ذلك قلنا : ان الجهاد الاسلامى حق ، لكن الوسائل الصحيحة ليست فى العنف والنزق والحماس الطفولى ، بل فى خطوات مدروسة وغايات واضحة تلبى حاجات أمة كسيرة ودين مهزوم فى اغلب الجبهات !!

إن الجهاد أضحى فرض عين على كل مسلم ومسلمة فى وجه غارات دائبة لحوح تريد اقتلاع الاسلام من جذوره وترفض كل الرفض أن يعيش أتباعه وفق تعاليمه .

وقد كنت أحسب ان الارتقاء الحضارى الحديث قد محا أحقاد الماضى ، ويسر للناس جميعا أن يتعارفوا لا ان يتناكروا ، فلما وقعت مذابح لبنان الاخيرة رأيت كأن العداوة ولدت اليوم أو أمس فقط ! ورأيت جثث الاطفال المشوهة المبعثرة هنا وهناك تشــــهد بأن القوم يقتلون فى هؤلاء الاطفال امتداد الاسلام للغد القريب أو البعيد !! انها هى مذبحـــة بيت المقــدس أواخر القرن الرابع الهجرى !

ومن المفيد أن يعرف من يجهل ان مذابح صــــبرة وشاتيلا كشفتها المصادفات البحتة ، وان مذابح سبقتها بين الفلسطينين واللبنانيين تمت فى صمت كئيب ، وخرس من شاهدها من الصحافيين الاجانب لانهم وجدوا انفسهم فرادى مروعين .

وقد احصت منظمة التحرير عدد القتلى باثنين وسبعين الفا منذ الهجوم الذى اغضت عنه المنظمات الدولية واكتفت فى استنكاره ببيان شاحب خافت ...

ان من حقنا أن ندفع عن ديننا وعن أرضنا وانها لسفالة إن يطلب منا طالب ان نرتد عن ايماننا وأن نترك لغيرنا بلادنا ...

لماذا يباح لليهودى أن ينتمى الي توراته ، وإن يهتدى بنصوصها على تحديد الارض التى يريدهـــا من كيانا ولا يباح للمســـلم أن ينتمى الى قرآنه وهو يرد هذا الاعتداء

لماذا يكون الايمان — من خلال تعاليم القرآن — رجعية ممقوتة ، ويكون الالحاد من خلال تعاليم الماركسية تقدما محترما ؟

لماذا يكون سجن يهودى فى روسيا جريمة يضطرب لها الضمير العالمى ويكون قتل الالوف المؤلفة منا شيئا عاديا ؟

ان الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة حتى يظفر الاسلام بحق الحياة لنفسه واتباعه دون ضغائن وعوائق ، ولسنا نوجب الجهاد لاضطهاد اقلية أو قسر الغير على عقيدة يأباها .. !

بيد أن حق الحياة للاسلام وامته مطلب منكور بغيض لدى الكثيرين ، والاستعمار العالمى بشعبه كلها يمتد فى فراغ ، وسط أمم استهلكها اتباع الشهوات ، وحب الدنيا وكراهية الموت ! ! وتوجد حرب دامية الان بين مسلمى أفغانستان والاتحاد السوفيتى ، وأعرف من المجاهدين رجالا يقاومون ببسالة ما يراد بهم ، لكن ماذا يفعلون أمام أنواع من المبيدات الكيماوية ، والالات الجهنمية فى البر والجو ؟

اننا ندفع ضريبة تخلفنا العام ! والجهاد المثمر ينبغى أن يتجه الى اسباب هذا التخلف العلمية والخلقية الموروثة والمجلوبة. وبذلك ننجح فى صد الطغاة ودحر العدوان ...

٢٢ ـ ما معنى ان الله جعل المسلمين أمة وسطا ؟

قالوا من قديم : أن الفضيلة وسط بين رذيلتين ، وسواء اضطردهذا القول أم لم يضطرد فان الحقيقة تضيع بين الافراط والتفريط ، والناس يعانون كثيرا من الغلو الشديد والاهمال البارد .

وعندما ظهر الاسلام كان اليهود معروفين بالحرص على الحياة والحب القوى للمال ، وطلبه من الربا ومن وجوه السحت الاخرى ، وكان المسيحيون يرون التقوى فى الرهبانية والزهد واحتقار المال ، حتى قيل فى كتبهم : لان يلج الجمل فى سم الخيال اقرب من ان يدخل الغنى ملكوت السموات !!

وجاء الاسلام فرفض المسلكين ، وعد المال وسيلة لما بعده وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان هذا المال خضر حلو ! ونعم صاحب المسلم هو لمن اعطى منه اليتيم والمسكين وابن السبيل وان من يأخذه بغير حق كمن ياكل ولا يشبع ، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة » .

وكانت الصرامة والقسوة ملحوظتين فى تعاليم اليهود ، كأن التقوى عقوبة مرصدة لكل ذنب ، وكأن مرضاة الله لا تتم الا بواجبات جافة ومظاهر محبوكة ، فجاء عيسى عليه السلام يتحدث عن القلوب الرقيقة والبشرية الضعيفة الفقيرة الى عفو الله .

وقالوا : انه ترك امراة اقتيدت متهمة بالاثم ، وقال لليهود : من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم ليرجمها .. !

وجاء الاسلام فرفض العبادة المقرونة بالصلف والاستعلاء على الناس ! وبسر التوبة لكل عاثر وأمر بستره والتجاوز عنه ! واقر العقاب لمن يتبجح بجرمه ويؤذى المجتمع بالاصرار عليه !!

أى أنه رفض الطاعة المستكبرة ، ورحم المعصية النادمة وطلب الصلاح المتواضع الرقيق ! يقول على بن ابى طالب : الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم مكره !

والحق أن عيسى عليه السلام لم يستهن بجريمة الزنى، ولكنه كما روى الامام مالك عنه يقول : لا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عبيد ، فانما الناس مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية ..

والاسلام دين وسط يأمر الامة بالتزام الصراط المستقيم ويحذرها من الخطوط المنحرفة يمينا والمنحرفة يسارا .

سئل ابن مسعود رضى الله عنه : ما الصراط المستقيم فقال تركنا محمد فى أدناه ، وطرفه فى الجنة ، وعن يمينه جواد وعن يساره جواد يعنى طرقا شتى — وثم رجال يدعون من مر بهم ، فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت بهم الى النار ، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به الى الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود « .. وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » (١) .

والغلو فى الدين قد ينتج عن خطأ فى الفكر اوعوج فى الطبع ، وغالبا ما يزيغ عن الحق وينتهى بالانسلاخ عن الدين الصحيح لذلك

---

(١) الانعام ١٥٣

يقول الله تعالى لنبيه «قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل واضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل » (١) .

هناك من يبالغ فى التعبد فينحرف يمينا بالابتداع والحماس الكاذب ، وهناك من ينحرف يسارا بالاهمال المنتهى بالجحود والتمرد .. يقول الشيخ محمد عبد الله دراز : « كانه اشار باليمين الى طرف الافراط والتعمق فى الدين ، وباليسار الى طرف التفريط والتقصير ، وكلاهما منحرف عن سواء السبيل ، وعن الوسط الذى لا يميل الى احد الجانبين . ونحن لو تتبعنا انواع البدع والضلالات الاعتقادية وفتن الشبهات التى اشارت اليها احاديث افتراق الامة على بضع وستين شعبة أو البدع والضلالات العملية وفنون الشهوات التى اشارت اليها احاديث فتح الدنيا وبسطها لهذه الامة وتنافسهم فيها وجعل بأسهم بينهم الخ لوجدناها لا تعدو هذين الطرفين » ...

ان الاسلام يجعل التوسط فضيلة فى شئون الدين والدنيا جميعا ، ففى مجال التعبد يرفض الاسلام الجهد المضنى ، ويؤثر الاعتدال المستمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان لكل شىء شرة — حماسا ونشاطا — ولكل شرة فترة — برودا وعجزا — فان صاحبها سدد وقارب فارجوه ، وان اشير اليه بالاصابع فلا تعدوه » .

---

(١) المائدة ٧٧

وفى شئون الدنيا يكره الاسلام التبذير والتقتير ، ويحب الانفاق المعقول وقد وصف الله عباد الرحمن فقال : « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (1) .

فى مجال العلم الدينى رايت ناسا متبحرين فى المنقول والمعقول بهم فقة واسع ، ومحفوظات كثيرة ، لكن قلوبهم يشينها جفاف بالغ ، تولى أحدهم القضاء ، وقدمت اليه أمرأة متهمة بالزنى ، فما زال يستدرجها ويمكر بها حتى اعترفت له ، وحكم برجمها ، لانها متزوجة !!

قلت : هذا منهج يهودى ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرشد المتهم ليفر من العقاب ويتراجع عن اقراره . ويتحايل عليه لينصرف آمنا .. اما هذا القاضى فانه احتال على المذنب ليقتله ! ليس هذا أسلوب الاسلام ، والعلة أن جانبا آخر من الثقافة الاسلامية لم يصلح قلب الرجل فبقى معتلا ، ولو الف « علم القلوب » وذاق الجانب العاطفى من الاسلام لستر وغفر يستره الله ويغفر له !!

والمحزن أن هناك انفصالا فى علومنا الدينية بين الفقه والتصوف ، مما جعل المتصوفين ، يجنحون احيانا الى الجنون ، وجعل الفقهاء أحيانا يمثلون القانون العاتى الاصم ..

والوسطية فضيلة تبرز فى توجيهات الاسلام الاجتماعية والاقتصادية ، ففى العلاقة بين الرجال والنساء مثلا ابى ان تكون

---

(1) الفرقان ٦٧

المراة حبيسة البيت او طريدته ! وان تكون نظرة الرجل اليها نظرة السجان أو الصياد !

البيت هو المحضن الذى تتولى المراة فيه تربية الجيل الجديد وتنشئته على تعاليم الدين وتقاليده ، وليس البيت سجنا كما تفهم ذلك بعض التقاليد السائدة عندنا ، وليس ملتقى عابرا للابوين والاولاد كما تألف ذلك أوربا حيث الاسر شكل لا موضوع له .

وللمجتمع العام حظ من حياة المراة ، فهى تتعلم وتعلم وتتداوى وتأمر وتنهى وتبايع ، وقد تشارك الجيش فى بعض الخدمات الطبية ، وقد تقاتل ان اقتضى الامر الدفاع ، وينبغى ان تكون خبيرة بشئون امتهاالدينية والمدنية .

وهناك من يأبى على المراة هذا كله أو بعضه ... فى الوقت الذى أسرفت فيه المراة الغربية اسرافا شائنا فى الذوبان خارج البيت ، وضد رسالتها الاولى .
لو التزمنا وسطيه الاسلام لكان ذلك ارضى لله واسعد للامة وازكى للجنسين معا .

وفى الناحية الاقتصادية أقر الاسلام حق الملكية الفردية ، بيد انه كبح جماحه بقيود الحلال والحرام ، وانتقص اطرافه بحقوق الضعاف والمتعبين ..

وبذلك ضمن انتاجا غزيرا لان الحوافز قائمة ، وحفظ الجماعة من التفكك لان التواصى بالرحمة لم يدع ثغرة الا سدها ، ونجت الشعوب من الشيوعية الكافرة والراسمالية الجائرة ...

والمفروض ان المسلمين يتعلمون من نبيهم هذه الحقائق ويعونها ويطبقونها ، فان الله سائلهم عن الهدايات التى بلغتهم : هل انتفعوا بها ونفعوا بها الناس ؟

وما من أمة الا وهى موقوفة لتواجه هذا الحساب يوم القيامة « فكيف اذا جئنا من كل أمه بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (١) ؟

نعم ومحمد شهيد على المسلمين انه أخذهم بتلك التعاليم الجليلة ، وسيدلى بهذه الشهادة أمام الله ، كما أن المسلمين سيسألون : هل علموا كما تعلموا ؟ ان الامم كلها مكلفة ان تسمع منهم وتستفيد !

وهم شهداء على الامم لانهم حملة الرسالة العامة ، ومبلغو « الوسطية » التى شرحناها آنفا وكما كان محمد استاذا لهم فهم اساتذة لسائر شعوب الارض !!

ذلك معنى قوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٢) .

والمؤسف أن الامة المكلفة بذلك فرطت فى البلاغ والتعليم ! ، بل فرطت فى العمل والتأسى بنبيها ، بل لقد أصبحت اليوم ذيلا لاحزاب الميمنة والميسرة فى الشرق والغرب ونسيت الصراط المستقيم .

---

(١) النساء ٤١
(٢) البقرة ١٤٣

٢٣ كيف يبنى الاسلام الامة المسلمة ؟

الف الناس فى عصرنا أن يكون ولاء الانسـان الاول لوطنه وقومه ! حسنا ما الوطن ؟ قطعة من الارض تربطنا بها حقوق وذكريات ! لكن من صاحب هذه الارض ومالكها ؟ « قل : لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون » (١) ؟ ومن خلق الاقوام الذين يحيون فوقها وشد اسرهم ودبر امرهم ؟ « الا ان لله من فى السموات ومن فى الارض .. » (٢)

الا تكون العلائق أوثق وأسبق بهذا الاله الخالق المالك ؟

أن الاسلام حين يبنى الامة يجعل الايمان العميق هو الدعامة الاولى فى هذا البناء ، ويجعل الولاء لله والعمل له الوظيفة الاولى للانسان الراشد السوى .

ان عواطف من الربانية الغامرة هى التى تحرك المسلم وتحدد له غايته ومنهاجه ، وهى عواطف تتنامى كلما سمع الاذان للصلوات الخمس ، وكلما حجزه ايمانه عن رغبة مجنونة أو دفعه الى عطاء سخى ، أو وقفه ليشد أزر ضعيف ، أو أغراه بالصياح فى وجه منكر ... ! !

أن الربانية التى صنعها الدين انفس معدنا وأرجى ثوابا من المواطنة التى صنعها الناس ، ومع ذلك فالمسلم اول المدافعين عن الوطن ، وأول المحامين عن العشـيرة ، وأول القائمين بالحقوق المطلوبة من كل انسان كريم ، لانه يأبى الضيم ويرد العدوان .

وبديه أن يكون ذلكم الايمان هو الروح السارى فى كيان الامة كلها ، والمنتظم للكبار والصغار والاقوياء والضعفاء والاغنياء والفقراء ..

---

(١) المؤمنون ٨٤ (٢) يونس ٦٦

وبعد أن يرسى الاسلام أسس هذا اليقين يفرض مبدأ الاخوة « انما المؤمنون أخوة » (١) .

والاخوة ليست لفظا اجوف ، انها رحم دينية موصولة تعطى ثمارا اشهى وأزكى مما تعطى الديمقراطية والاشتراكية فى الميدانين السياسى والاقتصادى ، انها خلق فردى ونظام اجتماعى ، وقد اعتمدت الدولة الاسلامية منذ نشأتها الاولى على هذه الاخوة فى مواجهة ظروف الحرب والسلام والاقامة والهجرة واقتسام المغارم والمغانم وتحمل الاعباء والواجبات ..

ومن ينبوع الاخوة ينبجس رافدان من روافد العزة والاستقرار هما مبدأ التناصر ومبدأ التحارب ..

أساس التناصر ان المسلم لا يدع اخاه ابدا يحرج أو يذل ، ويمضى لشأنه تاركا اياه يواجه وحده ما يقع لـــه كلا ، يجب أن يلزمه ويثبته ويدفع عنه ، يحامى معه أو دونه ..

والواقع ان أشجع الشجعان لا يستغنى عن عنصر مــادى يسعفه فى الشدائد ، ان المرء قد يغضب اذا أهين ، وقد يستعد للقتال اذا قطــع عليه الطــريق ! ولكنه يغضــب ، ويستعــد ويهجم على المعتدى اذا كان معه سلاحه ، والمؤمن سلاح لاخيه، وعضد له فى الشدائد ، والمؤمن بين اخوانه يتحرك بقواهم كلها، لا بقوته وحده ، وهذا الشــعور الجماعى من معــالم الجماعة المســلمة ..

قال عليه الصلاة والسلام : « المسلم اخو المسلم لا يظلمــه ولا يسلمه ... » وفى رواية « المسلم اخو المسلم لا يخذله ولا يكذبه ولا يظلمه ، ان أحدكم مرآة اخيــه » !! وقال « من ذب عن عرض أخيه رد الله النار عن وجهه يوم القيامة » .

---

(١) الحجرات ١٠

على أن لهذه النصرة الواجبة صورا مختلفة تقتضى التبصر والروية ، فليس الامر عصـــبية عمياء ، كلا ، المهم احقــاق الحق وابطال الباطل فعن انس رضى الله عنه قال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم : « أنصر أخاك ظالما أوْ مظلوما ! قيل : أنصره اذا كان مظلوما ، فكيف أنصره ظالمــا ؟ قال : تحجزه عن الظلم فان ذلك نصره » .

والاستعمار العالمى بجتهد فى قتل مبدأ التناصر ، وفك تضافر الامـــة ، وقـــد أعانه على ذلك الاستبداد الـداخلى ، او قل : ان الاستعمار سخر الحكم الفردى لاشاعـــة الفتك والسفك ونشر العار والدمار حتى كادت بعض الشـــعوب الاسلامية تفقـــد ملكة الشجاعة وعاطفة التعاضد والتناصر ، فأصبح أحد لا يلوى على احـــد !!

ولكى نحيـــا لابد من احيـــاء مبدأ التنـــاصر بين المسلمـــين جميعا . . .

امـــا المبدأ الثانى من آثار الاخـــوة الاســـلامية فقوامـــه التحاب لوجه الله ، وجعل الأنتماء اليه عاطفـــة شريفة تعلو كل صداقة وترجع كل قرابة ولذلك جاء فى الحديث القدسى « يقول الله عز وجل يوم القيامة : اين المتحابون بجلالى ؟ اليوم اظلهم فى ظلى يوم لا ظل الا ظلى »

والواقع أن الحب فى الله يهـــون مشاق الحياة كما يهون الحـــداء مراحل الطـــريق ومتاعب العمل ، وعندمـــا يستوحش المرء من الناس ، بل من نفسه ، تجيىء هذم العاطفة المباركة فتؤنس البعيد ، وتمنحه قوة على مواصلة العمل لله والجهاد فى سبيله .

وتقديرا لهذه الحقيقة يقول الله سبحانه فى الحديث القدسى : « وجبت محبتى للمتحابين فى ، وللمتجالسين فى وللمتزاورين فى ،

وللمتباذلين فى » يعنى من ينفقون أموالهم بسخاء اجابة لهذه العاطفة حين تفرض النفقة !

وليس حب المؤمن لاخوانه نافلة يتطوع بها اذا أراد كلا ، انها أثر اليقين الناضج ؟ ولا يسوغ ان يكون المؤمن ميت الاحساس يتحرك لما يعنيه ويبرد لما يعنى غيره ، أن هذا الانحصار الشخصى هدم للجماعة واضاعة للامة ، والمؤمن الحق يحب غيره كما يحب نفسه ، فى هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم «والذى نفسىبيده لا تدخلوا الجنةحتى تؤمنوا ولا تؤمنواحتى تحابوا ،الا أدلكم علىشىء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » .

وتحية الاسلام مفتاح التعارف أو نقطة البدء فى انخلاع المرء عن عزلته واهتمامه باخوته ، وفرحه بما يفرحهم وحزنه لما يحزنهم !

ومن اللطائف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا أحب أحدكم أخاه فليخبره بأنه يحبه » وقوله « اذا آخى الرجل الرجل فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو ؟ ، فانه أوصل للمودة » !

وفى كل مجتمع بشرى أغنياء وفقراء ، حتى المجتمع الشيوعى فيه من يصبرون كرها على طعام واحد ، ومن يطاف عليهم بالصحاف المنوعة ، ان العلاقة بين هؤلاء وأولئك جديرة بالتأمل ...

ايكون ذلك التفاوت مبعث حقد ؟

عند المؤمنين بالدنيا وحدها لاريب أنه يخلف فى النفوس آثارا سيئة ! اما المشغولون بآخرتهم — الى جانب دنياهم — فهم لا يأبهون لذلك كثيرا مادام عند كل امرىء مايكفية ويغنيه بل لقد وجدنا التنافس اتجه الى ناحية أخرى ، فقد شكا الفقراء الى رسول الله انهم متخلفون عن الاغنياء فى مجال الاحسان ! قد تجمعهم الصلاة والصيام ، ويتساوون فى الاجور ، لكن الاغنياء يعتقون ويتصدقون ويجاهدون بمالهم ويمكنهم التفوق الاقتصادى من أعمال صالحة كثيرة ...

٦

أرأيت فيم فكر فيه القوم ؟ انهم لم يشكوا عيلة فى الدنيا ولا غبنا نزل بهم ، انهم يفكرون فى الاخرة ، وتلك خاصة يمتاز بها مجتمع ربانى ...

جاء فى السنة أن فقراء المهاجرين اتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ! قال : وما ذلك ؟ قالوا يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق ، فقال رسول الله : الا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ؟ الا من صنع مثل صنيعكم ! قالوا : بلى يا رسول الله ! قال تسبحون وتكبرون وتحمدون ثلاثا وثلاثين مرة دبرة كل صلاة ! قال ابو صالح : فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله فقالوا : سمع اخواننا أهل الاموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، يعنون أنه بقى لهم تفوقهم — فقال رسول الله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء !

ان همة المؤمنين تنشد الرضوان الاعلى ومنازل الاخرة ، وهذه الصبغة الربانية صانت الامة الاسلامية فى ميدانين مهمين .

الاول : فى تلقى العلوم الدينية وصيانتها وتعليمها للاخرين ابتغاء وجه الله .

والثانى : فى الجهاد المتفانى لرد أعداء الاسلام ، واستبقاء دولته قائمة مع الحاح الغارات الصليبية والوثنية عليها . .

ان النجاح فى هذين الميدانين استبقى أصول الاسلام ومعالمه وغطى عيوبا كثيرة نشأت عن مفاسد الحكم ، وشهوات الحكام . .

وأمر آخر يظهر فى ثبات البناء الاسلامى على تراخى الازمنة، أن الاسلام عد العمل للحياة عبادة ، وعد المال قيام الحياة

وسياجها وكان الصحابة يقسمون ايامهم ، فيجعلون بعضها للبقاء مع النبى صلى الله عليه وسلم يتعلمون ويقتدون ، والبعض الاخر للضرب فى الارض يكدحون ويكسبون ، فاذا غابوا عهدوا الى اخوانهم الحاضرين أن يحفظوا لهم ما يجد من وحى وسنة ، ليعرفوا بعد عودتهم ما هنالك ، ثم يردون الصنيع لاخوانهم اذا غابوا ...

ومن ثم لم يقع قط ان كان المسلمون فى الشئون المدنية اخف كفة ، أو اسوأ حظا ، والدين لا يتم تحصينه الا بدنيا قائمة ، وسناد مدنى متين ... !!

٢٤ ـ كيف يبنى الاسلام المسلم القوى فى مواجهة متغيرات العصر ... ؟

لا أظن الانسان المعاصر يختلف عن الانسان القديم الذى خاطبه أنبياء الله من عشرات القرون ! ولا أظن انسان هذا العصر مكلفا بوظيفة أخرى غير الوظيفة التى كلف بها الانس والجن من فجر التاريخ ، والتى أوضحها القرآن فى هذه الكلمات الوجيزة « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » (١) .

انه هو الانسان السوى القوام ، الخصب المواهب ، المفضل على مخلوقات أخرى تملا البر والبحر ، الذى حمل وحده أمانة التكليف ، وقدر على الترفع والاسفاف والتقوى والفجور .. !

نعم ، هناك أمور جديدة فى هذا العصر ، فقد تقدم العلم ، واكتشف كثيرا من أسرار الكون وقواه ، وارتقت الصناعة ، واخترعت آلات وأجهزة رفهت المعايش ويسرت للانسان فى لحظات ما كان يعجز عن تحصيله فى سنوات .. كما افتن الانسان فى صناعة آلات الفتك والدمار الشامل حتى لأمست الحروب تؤذن بانتهاء العمران البشرى .. وازدهرت العلوم الانسانية وطمحت أن تقود العالم أجمع فى شئونه الادبية والاقتصادية والسياسية ... الخ

ماذا يصنع الانسان المسلم وهو يواجه هذا الجديد كله .. ؟ اننى لخبرتى الحسنة بالاسلام لا أشعر بقلق ما على ايمانى أو منهجى فى الحياة ، لكأنى أشعر بأن الاسلام هو الدين الاوحد لمواجهة هذا العصر ! أليس عصر العلم ؟ بلى ، وكذلك دينى

(١) الذاريات ٥٦

عين العلم الذى اهاب بالناس ان يبحثوا كل شىء « او لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شىء » (١) .

ان العلم مؤمن لا ملحد ، وهو يدعو الى الايمان لا الى المروق ! وما كفر العلم — فى الاعم الاغلب — الا بما يجب الكفر به من كهانات وخرافات ومتناقضات ! وانا أؤيده فى ذلك كله .. !

اننى ارى بلادة الكفر ضربا من الحيوانية ! أو هى اقتراب منها ! اليس يقول ربى « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » (٢) .

وقد تابعت استطلاع الاراء بين جماعات علميه فى أوربا وأميركا فرايت الكثرة الكبرى تؤمن بالله ، ووجدت قلة متوقفة حائرة ، ووجدت ندرة تافهة زائغة القلب لا عقيدة لها .. فالزعم بأن جمهور العلماء لادين لهم كذب ، أو شائعة تنشر لغرض خسيس !!

ان روحى تعشق المعرفة كما يعشق الجسم وجبة شهية ، ومن محبة العلم يجيىء هذا الدعاء « وقل رب زدنى علما » (٣) ، وعلى المسلم اذا احب مرضاة ربه ان يزداد تضلعا فى العلم ، واستكشافا لافاقة .

وما يسمى بالعلم المادى — أعنى العلم الباحث فى ملكوت الله — أرجح موضوعا وأطيب ثمرة من الفلسفات الشرود التى شاعت قديما وحديثا ، ولم تكسب الانسانية منها الا الحيرة والجدل ، والغرور .

اما التقدم الصناعى الذى نعم الانسان وأراحه فهو خير كثير ! ونعمة جديرة بالشكر الجزيل ، الم تر أن الله تبارك

---

(١) الاعراف ١٨٥ (٢) الانفال ٢٢
(٣) طـه ١١٤

اسمه كى يرغب آدم فى الطاعة ، اسكنه الجنة وقال له : « ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى ، وانك لا تظما فيها ولا تضحى » (١) اى لا تتكلف الكدح فى وهج الشمس ، فتتصبب عرقا ويحول لونك وراء لقمة العيش .

من قال : ان الانسان يحب الوصب والنصب وركوب المشقات ؟ اذا كان هناك ما يغنى عنها !

والمرء الان ينتقل من بلد الى بلد ، ومن قارة الى قارة ، وهو جالس فى كرسى وثير يتناول ما يشاء من طعام وشراب ، تشق الطائرة به الجو فاذا هو بعد ساعات بين احبته !

ماذا كان يفعل اجدادنا عندما يغبرون اقدامهم ، وتتغير ملامحهم ويتعرضون للحتوف فى هذه الاسفار المعنتة ؟

الحق ان هذا المتاع الميسر لنا ما ينقصه الا شكر الله على ما هدى وأسدى !

وعلى المسلم أن يجيد هذه الصناعات المحدثة ، وأن يألف استخدامها واستصلاحها وأن يتفوق على جن سليمان الذين قال الله فيهم « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . اعملوا آل داود شكرا . وقليل من عبادى الشكور » (٢) !

نعم ان المهارة فى تلك الصناعات المدنية مهاد لابد منه لاجادة الصناعات العسكرية التى تحتاج اليها حروب البر والبحر والجو .

اننى اكره الحروب ، ولا اتمنى لقاء العدو ، ولكن ماذا أصنع اذا اجتاح الطغاة دينى وبلدى وارادوا اثبات باطلهم ومحو

---

(١) طـه ١١٨ ، ١١٩ (٢) سبأ ١٣

حقى ؟ ماذا صنع اذا كان هناك من يحرق الثمار حتى لا يرخص سعرها ولا يرى ان يطعمها الجياع ؟

ماذا أصنع اذا وجد من ملأ من خير الله فمه ، فاذا حدثته عن الله رد يده فى فمى لاخرس عن الكلام . . ؟

لا حل الا القتال ، ولا يقدر على القتال من يعجز عن صنع أدواته ، ان المهارة هنا دين ، والصبر جهاد ! وكما يقول شوقى :

الحرب فى حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء !

من ناحية أخرى يجب التنويه بالشأو البعيد الذى بلغته الحضارة الحديثة فى التنظيمات السياسية والاقتصادية والادارية التى تحرك الجماهير ، وتوجهها الى أهداف مرسومة . . .

ان من وراء هذا النجاح تقدما عظيما فى دراسة العلوم الانسانية كلها ، حتى كادت هذه العلوم تكون « الشريعة » التى تلتزمها اوربا فى أحوالها الخاصة والعامة . .

وهذه العلوم ليست الا فروع الفلسفة القديمة بعد ادخال المنهج العلمى عليها ، أو بتعبير أصح على بعضها ، لان هناك نظرات فى علوم التربية والاجتماع والاقتصاد بعيدة عن الدقة العلمية . .

وارى أن نستفيد نحن المسلمين من هذه الدراسات ومن تطبيقها فى ميادين الحياة . .

ان ضوابط الشورى هناك نجحت فى محق الحكم الفردى . واعلاء سلطات الامة ، لم لا نستفيد من ذلك ؟

وحماية المال العام من الساسة المهرة فى أختلاسه او الموظفين المحبين للسحت بلغت منتهى الدقة ، لماذا لا نقلد القوم فى تلك الوسائل الناجعة .. ؟

لست أجهل أن لدينا من علماء الدين من يكره العلوم الانسانية وما نشأ عنها .. لانه يقصر نظرته على ما بها من أخطاء ، ولانه يرى أن هذه العلوم تتحدث فى النفس الانسانية والمجتمع البشرى ، وقد قال الدين كلماته فى هذه النواحى كلها ...

ومعاذ الله ان نهمل كلمة الدين فى قضية نفسية أو اجتماعية ! اننا نقتبس من جهود البشر ما يحقق الاهداف التى يتفق عليها العقل والنقل ، واذا سبقنا غيرنا الى عمل ما يحقق العدالة فنحن أولى به .!

هل امتنع نبينا عن حفر الخندق لانه خطة فارسية ، أو حيلة لم تألفها العرب ؟ كلا ، والحضارة الحديثة — برغم مقابحها الكثيرة — تجاوبت مع العقل والفطرة فى ساحات علمية ودستورية واسعة ، من حقى أن أترك شرها وأقبل خيرها .

وربما يدفعنى الى هذا ان الدين أصيب بمتحدثين عنه يجهلون جوهره ويكترثون للمظهر الملصق به ، وليس غالبا منه .

سمعت رجلا يقول بفخر انه اقنع أحد الاميركيين باعتناق الاسلام ، وان الداخل فى ديننا بلغ من تقواه انه اقتنع بلبس الجلباب الابيض !!

قلت له فى أسى وسخرية :هل اقتنع بلبس العقال ؟ قال : ما تعنى ؟ قلت : ما دخل الملابس فى ديننا ، ولماذا لا تترك الرجل يرتدى زيه القديم ، ويعرف الناس من سمته وسيرته وشرف فكره وخلقه انه مسلم ؟

ان الاسلام لا يؤخذ من فقهاء البدو ، ولا من عسكر الترك ولا من دراويش التصوف !

لماذا ننسى فرائض ديننا وفضائله الاولى ونعلق الناس بتقاليد جنس ما ، أو بخصائص عصر ما ؟

عرفت « انجليزيا » أسلم وتصـوف ، وانتمى الى الطريقـة النقشبندية ! وأشـهد أنه كان انسانا طيبا ! بيد انى يئست من أنه سينفع الاسلام بشىء طائل !

ان عدد المسلمين المهاجرين الى انجلترا يبلغ المليونين . وهم ضـعف اليهود الانكليز ، ولكن أثر اليهود فى ميدان الثقافـة والسياسة والاقتصـاد بعيـد المـدى ، عميق الاثـر ، يكادون يوجهون انجلترا كلها .. أما المسلمون الذين يحمل اكثرهم جنسية انكليزية ، فلا وزن لهم فى شىء !

انهم — مثل غيرهم — لا يحملون الاسلام النازل من السماء ، وانما تستبد بأفكارهم وأحوالهم قضايا دخيلة واضافات تافهة ..

ان الاسلام يصفى القلب من الاهواء ، والعقل من الاوهام . ويرص صفوف المؤمنين بعدئذ فى جهاد موصول لاعلاء كلمة الله

أما مع فساد الفطرة واعوجاج الفكر ، فلا مكان لاسلام ...

٢٥ ـ لماذا كان الحل الاسلامى لمشاكلنا هو الافضل والامثل والانجع ؟

الشعور عام بان الامة الاسلامية تعانى فى العصر الاخير من علل معقدة ومعضلات اجتماعية كثيرة !

كانت حكومة الخلافة العثمانية تسمى « الرجل المريض » ثم ذهب الرجل المريض ، واقتسمت تركته حكومات اخرى ! فهل شفى الحكم العليل وصحت الشعوب المريضة ، واصبح الشرق الاسلامى موارا بحركات الاصلاح ووثبات النهوض .. ؟

لا اظن ان الحاضر ليس خيرا من الماضى ، فالمسلمون جميعا والعرب خاصة يترنحون امام ضربات « اسرائيل » التى اقامت سطوتها على انقاضهم المادية والادبية .

ولا يزعم عاقل ان هذه الحالة تدل على عافية وسلامة أوضاع .. !

ان الرجل المريض عاد مرة أخرى فى أشخاص رجال يحكمون اممهم كرها ! ويعالجون عللها بجهل ! ويسكتون الناصحين بكبر ! ويفلسفون الهزائم المخزية حتى يبقوا فى الحكم الى ان يقضى الله امرا كان مفعولا .. !!

نظرت يوما فى برنامج رجل يدعى الاصلاح ، كان شيوعيا يستر نفسه بعناوين مزورة ، فقلت : تجربة فاشلة ! وسألنى سائل : لماذا ؟ فقلت : هل يمكن ان يزرع الشاى فى الشرق الاوسط ؟ لا ، لا التربة تقبل البذر ، ولا الجو يعين على النمو ، انه جهد ضائع ! قال : ان الجيش معه ، والصحافة معه ، و ... قلت : لو كان كل شىء معه فالتجربة فاشلة .

قد يملك الاجسام ولكنه لن يملك القلوب ! قد تحفه طوائف من المرتزقة ، وهواة الكسب الحرام ، ولكنه عند الجد سيفقد كل شىء .. !!

ان هذه الامة الاسلامية لا تصلح الا بدينها وحـــده ، بعد استكمال العناصر الناقصة منه ـــ وهى خطيرة ـــ وبعد استبعاد الخرافات الملصقة به ـــ وهى كذلك خطيرة ـــ !

ان أمتنا بطبيعتها سوف تستعصى على كل حل غير اسلامى، وسوف تبذل المحاولات الدامية لاكراهها على تجرع أدوية لا تريدها، وسوف تتبدد الطاقة ـــ طاقة الشعب والدولة معا ـــ بين الاخـــذ والرد !

وفى غضون هذا التناقض الداخلى يكسب الاستعمار العالمى معاركه ، ويفرض نفسه .. !

وهنا حقيقتان يحتاجان الى الشرح . الاولى أن الاســـلام صدى الفطرة الانسانية وخلاصة ما قال النبيون كلهم لكبح جماح البشر وهداية العالم الى ربه الواحد .

ان الاسلام لم يجىء لهدم موسى أو عيسى بل جاء لاحياء ما قالوه وضاع فى غمار الماضى « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ، ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » (1) فاذا كان الاســـلام رسالة لاصلاح العالم بوحى الله ، فكيف يعجز عن اصلاح الأمة التى حملته وبلغته ؟

والحقيقة الثانية أن العرب ما دخلوا التاريخ الا بهذا الدين وما عرفت لهم حضارة ، وتمت لهم قيادة ، وتحققت لهم سيادة الا تحت راية الاسلام فكيف تكلف أمة بنسيان شخصيتها وحضارتها

---

(1) فصلت ٤٣

وتاريخها ؟ ان هذا تكليف لها بالانتحار ! وتلك هى المهمة القذرة التى ينفذها بعض الساسة المرتدين ..

ان العرب عاشوا بلا دين أيام آبائهم عاد وثمود ومدين . فبماذا جوزوا ؟ رجفت بهم الارض ورجمتهم السماء حتى بادوا وتطهرت منهم الدنيا ..

ثم اختار الله محمدا وقومه لاقامة حكم صالح مصلح . اساسه القرآن العربى ، ومنهج محمد الهادى الملهم . وقال الله سبحانه للانسان الذى ناط به اصلاح الارض : « وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق » (١) فكيف يكلف أحد أتباع محمد بترك ما لديهم من علم ، واتباع الاهواء الراشحة من شرق أو غرب تحمل الشر والشرر ؟ ..

ان العرب لا يصلحون الا بالاسلام وحده ! هو الذى أذهب جاهليتهم وأخرجهم من الظلمات الى النور ، والمرء قد يعرض له ذهول فيكبو ، ثم يفيق فيبصر الطريق كما قال تعالى « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » (٢) وكذلك العرب قد يفقدون رشدهم حينا ويفسدهم الترف والبطر ، ثم تصحو ضمائرهم فيتوبون ، أو تظل قلوبهم قاسية حتى تنزل عليهم سياط الغزو الخارجى ، وتجوس الاعداء خلال ديارهم ، وعندئذ يكويهم الندم ويسارعون بالعودة الى الله فيقبلهم ويرد لهم الكرة على أعدائهم ..

واليوم نريد أن ننفض تراب الهزيمة عنا وأن نستأنف مسيرتنا كما كنا ... اعنى كما كان سلفنا الاوائل الكبار ..

لابد لذلك من عناصر معينة لا يصنعها الا الاسلام

---

(١) الرعد ٣٧ (٢) الاعراف ٢٠١

نريد العاملين الذين يرقبون الله فى الخلوات ، فلا يكسلون عن واجب ، ولا يخونون فى أمانة ، ولا تمتد أيديهم الى رشوة ، ولا يبحثون عما لهم ويتجاهلون ما عليهم ..

نريد أساتذة وطلابا يسعدون بالمعرفة ، ويلتذون بالبحث ويحترمون الكتاب ، ويرون الدراسة عبادة ، والسهر فى التحصيل تهجدا ، ونفع الامة بأى نوع من العلوم قربى الى الله ..

نريد زراعا وصناعا وتجار ينمون اقتصاد امتهم كما ينمون ثرواتهم ، ويدركون أن غنى الامة يقدرها على صون شرفها وحفظ حقوقها ، وان الجهاد المالى صنو الجهاد النفسى ، وأن الامم التى تتسول الاعانات من الدول الكبرى لن تعلو لها رسالة مادامت يدها السفلى ..

نريد ناسا يحافظون على المال العام ، ويشعرون بحق الله فيه ، وان الاخذ منه دون وجه حق غلول « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (١) .

نريد حكاما لا يعبدون أنفسهم ! يبرءون من جنون العظمة وشهوة السلطة ، ويعرفون أن كل رئيس يجىء يوم القيامة مغلولة يداه الى عنقه ، فكه عدله أو أوبقه جوره كما جاء فى الحديث الشريف .

ان حكام المسلمين من زمان غير قريب آذوا الله ورسوله ، واستهلكوا شعوبهم حتى فنيت أو كادت خصال الاباء والانفة ، لطول اذلالهم لمن اعز الله واعزازهم لمن أذل الله !!

ان الاسلام وحده هو صانع هذه العناصر التى لاتتم لنا حياة الا بها ، والامر كما قال الله : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (٢)

---

(١) آل عمران ١٦١ (٢) الرعد ١١

ربما استطاعت امم اخرى أن تعيش قصيرا او طويلا وفق فلسفات مادية أو خلقية لا صلة لها بالسماء ! لكن امتنا تحول مزاجها وكيانها الى جهاز فريد لا يدور فيه الا مفتاح واحـــد هو الاسلام ، وستذهب جميع المحاولات الاخرى سدى ، لا محالة .

ثم من من اهل الملل والنحل ترك دينه ؟ لقد اقبل اليهود فى موكب تظله صحائف التوراة والتلمود ، ويتقدمه صخب من مزامير آل داود، وراى الناس بين القطبين الشمالى والجنوبى هذا الولاء الدينى العاصف فما انكروا له صيحة ، مع انها صيحات جزارين ، وديست مدننا وقرانا فما رثى لنا احد !!

فهل كل ولاء مقبول الا الولاء للاسلام ؟ وهل كل حل حسن الا الحل الاسلامى ؟

لقد آن الاوان ليختفى الى الابد اولئك الساسة العرب الذين يكرهون الاسلام ، ويطلبون من أمته أن تدير ظهرها لكتاب الله وسنة رسوله ، الواقع انهم ثرثروا اكثر مما يطاق ، وطال بقاؤهم اكثر مما ينبغى ...

على أن الحل الاسلامى المنشود يخشى عليه من التزوير فى ايام اعتقلت فيها الحقائق ، وتجرا المفتون الكذبة على التزوير ، وتصـــوير الاسلام دينا لا يحترم الشـــورى مثلا ، أو لا يعترض استغلال النفوذ ، او لا يكترث لهضم الجماهير ...

ان الحل الاسلامى ، لا يحتاج الى عبقرية فى تصوره وتصويره، لانه سهل المأخذ من مصادر الاسلام المعصومة ، والواقع ان العوائق دون تحكيم الاسلام خلقية لا علمية ، وان الحل الاسلامى يعرفـــه اهل الذكر ، ولكن ابعادهم مقصود مرسوم ...

ان « المراكسة » فى الصين وروسيا ، شكوا من تحكم الفرد، ومع ان نظمهم بطبيعتها استبدادية فقد قرروا ان تدور شئونهم فى وسط جماعى ، يتم فيه تبادل الاراء والبحث عن الصواب .. واسرة الدول الاوربية تأبى ان ينتسب اليها الا الحكام « الديمقراطيون » .

ليس هناك الا العالم العربى والاسلامى الذى يعيش وحده فى ضباب من الدعاوى والترهات : انه وحده دون اقطار الارض كلها هو الذى يقول فيه حاكم : انا صانع القرار .. وهو وحده الذى يسمع فيه ان الحاكم لا يسأل عما يفعل !!

ان الاسلام غريب فى هذا الجو الاسن الكريه ، والحل الاسلامى لا يؤخذ من افواه الجهال والكذبة .

الف الناس أن تكون العبادات أقرب الى شئون الغيب منها الى دائرة المنطق ، لكنى ارى غير هذا ، فأنا انادى الى الصلاة لا بدقات طبل ولا بزمارات انذار ، وانما بصوت يشدنى من عقلى .. !

وعندما انصرف من صلاتى لا اجزى الا بما عقلت منها !

والدين الذى اعتنقته قام على معجزة عقلية ، تعرفنى أن الله واحد فى الارض والسماء لانه « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » (١) .

وفى القرآن مئات الايات التى تتحدث عن العقل ووظائفه والاساليب الصحيحة لاستدلاله ، وبعده عن الاوهام والظنون !

وقد احصيت فى مقال لى ست عشرة آية تنوه بأولى الالباب . وترى انهم هم الناس حقا ! وهل الانسان الا عقله ؟ ما اصدق قول المتنبى .

اولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى الى شرف من الانسان !

من اجل ذلك يرى الاسلام ضرورة صقل العقل وتوسيع آفاقه وزيادة اشراقه بأنواع العلوم والتجارب ان الاعمار العقلية للناس تنقص أو تزيد وفق ما يفيدون من تجربة ويتلقون من تعليم .

والحق أن الامم تتقدم أو تتأخر بمقدار انصبتها من العلم وقدرتها على تحويله الى حضارة مثمرة . والعقل الصحيح هو الذى يقرأ آيات الله فى الكون كما يقرؤها فى المصحف . أما التخلف العقلى فستارة تسدل على البصائر والعيون فلا تكشف

---

(١) الانبياء ٢٢

سرا ولا تدعم حقا « أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » (١) .

ان الامم المتخلفة عقليا كالاطفال الذين لم يبلغوا الحلم يوضعون فى وصاية الكبار حتى ينضجوا ! وربما كرهت الامم المتخلفة هذه المنزلة المهينة ! بيد أن سنن الله الكونية تفرض نفسها طوعا أو كرها ..

وقد رأيت عابدين فى أفكارهم — لا فى قاماتهم — قصر فشعرت بخيبة الامل ، لان هؤلاء العابدين كانوا بلاء على دينهم ، وربما ضروه من حيث أرادوا نفعه ، لانهم كالدبة التى قتلت صاحبها .. !

يصقل العقل خلال مراحل الدراسة المتتابعة ، ويصقل العقل بالحفاظ على سلامة الحواس ، وعافية البدن ، ويحفظ بازدراء المسكرات والمخدرات والمفترات التى تنال من وعى المرء وكرامته، ويحفظ قبل ذلك وبعده باستلهام الله الرشد واستمداد النور منه سبحانه !!

وقد وردت فى ذلك كله توجيهات من الكتاب والسنة يطول سردها ..

وننتقل من صون العقل الى صون النفس . ان احترام الانسانية كلها يبدو فى احترام فرد واحد قال تعالى « من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ..» (٢) وجاء الاسلام فجعل النفس الانسانية أقدس من الكعبة المشرفة ومن الاشهر الحرم قال عليه الصلاة والسلام

---

(١) الحج ٤٦ (٢) المائدة ٣٢

« ... الا وان الله حرم عليكم دماءكم واموالكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا ، الا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال اللهم اشهد — ثلاثا — ويلكم لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض.. »

ونظر عبد الله بن عمر الى الكعبة وقال : ما اطيبك واطيب ريحك ، وما اعظمك واعظم حرمتك ، والمؤمن اعظم حرمة عند الله منك حرمة دمه وماله وعرضه .. !

ومقتضى الايمان الا يكون المؤمن مصدر افزاع أو ترويع لغيره ، ومن جوامع الكلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم « الايمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن » يعنى كما تربط الاغلال يدى الرجل فلا يقدر على عمل شيء ، يقيد الايمان يدى المؤمن فلا يعتدى على نفس ، المؤمن اشرف من ان يفتك بأحد.. !

وفى الحديث كذلك « قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا » « لو أن اهل السماء واهل الارض اشتركوا فى دم مؤمن لكبهم الله فى النار »

ويرى الاسلام من المحافظة على الحياة ان يعتنى المرء بصحته ، ويستكمل أسباب عافيته ، ويهتم بحواسه وأعضائه وسائر بدنه ، فان البدن القدير على اداء الواجبات الناهض بشتى الاعباء من أجل النعم .. !

وقد كان من أدعية النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم متعنا باسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما احييتنا ، واجعلها الوارث منا » اى استبقيها مادامت الارواح فى الاجساد حتى اذا متنا خلفناها فى ابداننا فورثتنا ، بدل ان نرثها ونحن على ظهر الارض ..

ومن المحافظة على الحياة توقى الامراض ، وتناول الادوية وقد رفض عمر السفر الى ارض موبوءة بالطاعون ! قيل له : تفر من الله ؟ قال : أفر من قدر الله الى قدر الله !

وقد اصاب امير المؤمنين السنة ، واخذ كلمته احد العارفين فولد منها هذه الحكمة « الرجل كل الرجل من يغلب قدر الله بقدر الله .

ان الله يمهد للانسان السبيل ، وعليه بعدئذ ان يقدم لا ان يحجم ، وهذا معنى قول الله فى ذى القرنين « انا مكنا له فى الارض وآتيناه من كل شيء سببا فاتبع سببا » (١) .

ان النفس شيء غال ، وقد كرمها الاسلام فلم يهنها، وصانها فلم يضعها حتى تؤدى فى الحياة رسالتها ..

ويجيء بعد النفس المال ، وهو قوام الحياة الشخصيه والعامة، فما من أحد يستغنى عن المال ليطعم ويلبس ويقوت عياله ، ويصون مروءته ، وما من أمة تستغنى عن المال لتحمى كيانها وتدبر مصالحها ، وتستبقى ذاتها .

ولذلك أمرنا بتأثيله وتنميته ، ونهينا عن جعله بين أيدى السفهاء ، فلا يحسنوا التصرف فيه ولا الافادة منه قال تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » (٢) .

ونظرا لما للمال من آثار خاصة وعامة طلب الاسلام من صاحبه أن يرد عنه عدوان الغاصبين ! ولو بذل دونه دمه !! روى النسائى عن مخارق بن سليم الشيبانى أحد الصحابة قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، الرجل يأتينى ليأخذ مالى ؟ قال : ذكره بالله ! قال : فان لم يذكر ! قال فاستعن عليه بمن حولك من المسلمين ! قال : فان لم يكن حولى احد من المسلمين ؟ قال : فاستعن عليه بالسلطان ! قال : فان نأى السلطان عنى ؟ قال : قاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة ، أو تمنع مالك — تحميه —

---

(١) الكهف ٨٤ ، ٨٥ (٢) النساء ٥

وقد روى مسلم فى صحيحه حديثا يؤكد هذا المعنى ، ويحكم بالشهادة لمن قتل دون ماله ! !

وانما ذكرنا ذلك ليعرف المسلمون قيمة المـــال ، وضرورة حفظه والذود عنه ! ترى ايوصى الشارع بهذه الاستماتة فى شىء تافه ؟؟ كلا كلا .. انه لولا خطورة المال فى الحياة الخاصة والعامة ما فرض القتال دونه .

ومعنى ايجاد المال وتحصينه ايجاد منابعه وتفجيرهـــا ، وهل منابع المال الا الضرب فى الارض ، واســـتغلال ظاهرها ، واستخراج باطنهـــا ، واستثارة البر والبحر ليجودا بخـــيرات الله المودعة فيها ؟

والحق أن المـــال سلاح رهيب ، والســـلاح لا يحمد أو يعاب لذاته ! ولكن يحمد فى يد الشـــجاع المدافع عن حقوقـــه ، ويذم فى يد الظلوم المعتدى على غيره !! انه وسيلة الى الجنة أو الى النار ، بطريقة استخدامه « فأما من أعطى واتقى وصـــدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ما له اذا تردى » !!

وقد نظر بعض الجهال الى المال فى أيدى الاشرار ، وكرهوه لانهم يستعينون به على الفجور والفســـاد ، ثم شرعوا ينظمون قصائد طويلة فى هجاء المال ، وحسن التخلى عنه ! حتى وهم العوام أن المال شر فى كل يد ، وان البعد عنه غنيمة .. !!

ومعنى البعد عنه البعد عن مصـــادر كسبه ، واســـباب اقتنائه ، وشاع هذا الفكر الفوغائى بين الجماهير ، فاذا المسلمون من بضعة قرون لا يحسنون استخراج معدن من الارض ، ولا اجادة صناعة من صناعات السلام أو الحرب !

وإذا هم يحسبون الصعلكة تقوى ، والافتقار فى الدنيا هو الاغتناء فى الاخرة ، وسجلوا فى بعض كتب السنة والتصوف ان الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر !!

ونشأ عن هذه الجهالات السائدة فى مصادر الثقافة الدينية انهيار شامل للعالم الاسلامى لان مواهبه الدينية والمدنية تبلدت وفسدت ، حتى الاقطار التى رزقت سعة فى ثروتها تيسر لها ذلك من جهد الاجانب فى تحصيل خيراتها واستخراج كنوزها .. !!

ان العقل الاسلامى تحيط به غشاوات سميكة ولابد من تمزيق هذه الغشاوات أن أردنا الحياة ، ولابد من مطاردة الغوغاء الذين فرضوا أنفسهم على الثقافة الدينية ، وهم لايصلحون لا لدنيا ولا لدين ...

٢٧ ـ ما دور الاسلام فى ترشيد الضمير الانسانى ... ؟

نظرة الاسلام الاولى الى القلب الانسانى ـ أو الضمير ـ كما يقول علماء الاخلاق ، فان سلامة هذا القلب من العلل ، وثبات وجهته الى الخير ، تعنى الكثير من توفيق الله ورضوانه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله لا ينظر الى صوركم واموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم واعمالكم . التقوى ها هنا التقوى ها هنا ـ ويشير الى صدره .. »

نعم فالصدر المشروح بالحق ، المستقر على النهج يؤتمن على الدقيق والجليل ، ويضع طابعه الطهور على كل شىء وتحفه بركات الله ، لان صلته به قائمة دائمة ..

ونحب أن نسوق أمثلة تبين كيف يكون القلب سليما أو كيف يكون الضمير نقيا ..

المرء فى طفولته ويفاعته قد يحب الظهور ويسره سماع الثناء عليه وقد يبذل جهودا شاقة فى هذه السبيل .. ان الرياء ليس مستغربا على الطبيعة البشرية ، فارضاء الناس هدف حقيقى فى المراحل الاولى من العمر ، ثم يكبر المرء وتسمو نظرته ويتجه الى الله ، ان المرائى لا يرى الا الناس فهو يعمل لهم أما المخلص ، فهو يرى رب الناس ولذلك يعمل له .

ويتعهد الدين هذا التسامح ، فهو يوصى بتمحيض العمل لله ، لان الانسان اذا اشرك الناس مع الله فى طلب الرضاء رفض الله عمله !

ان الله لا يقبل من العمل الا ما كان خالصا له وحده ، ومن ثم ترى المؤمن حقا يجيد عمله ويؤدى واجبه سواء رآه الناس أم

لم يروه ، وسواء اثنى عليه رؤساؤه ام ضاقوا به ، انه يحسن الصنيع على اية حال وفى اى وضع ...

والانســـان بطبيعته يحب ان يكافــأ عــلى عمله ماديا او ادبيا ، وربما ترك العمل اذا لم يجد له جزاء عاجلا ، وقد يتراخى فيه او لا يكترث باجادته اذا كان الجزاء قليلا اومؤجلا .. لكنه اذا صدق يقينه احسن أداء واجبه ! وادخر ثوابه عند ربه ، وعد ما يقبضه فى اليوم الاخر اضمن وابقى .. !

عمل الضمير هنا تثبيت المرء على الوفاء بما عليه ولو غمطه الناس وفى الحديث ان النبى صلى الله عليه وسلم قال للانصار : انكم ستجدون أثرة بعدى ! قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : ادوا الذى عليكم ، وسلوا الله الذى لكم !!

الواجب يؤدى على وجهــه الكامل ، وحســابى على الله والامر لـــه .. !!

ان الانبعاث الى العطاء يجب ان يكون بدوافع ذاتية ، غايتها استرضاء الله وان جحد الخلق « الذى يؤتى ما له يتزكى ، وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعــلى ولسوف يرضى » (١) .

قال المؤرخون : لا حظ صلاح الدين وهو يقاتل الصليبيين أن النار اشتعلت مرتين فى معسكرات الاعداء مخلفة وراءها الدمار والقلق ! وبينا هو يرقب جهة العدو لاحظ ان النار بدات تشتعل ، ورمق الفاعل ــ بعد ما بدا الحريق ــ يتحيز الى جند المسلمين ، فأمر فجبىء به ، فلما مثل بين يديه قال له : ما اسمك ؟ قال الرجل : يعلمه الله ! قال له صلاح الدين مطمئنا : انى اريد مكافاتك ! قال

---

(١) الليل ١٨ ــ ٢١ .

الرجل : لو أردت المال ما جئت هنا ، وانصرف لشأنه !!

هذا جندى باسل حضر الوغى ليقاتل فى سبيل ربه ، واكتفى وهو يناضل العدو بنظر الله اليه ، فلما استدعاه السلطان كره ان ينال على جراءته ثمنا .. حسبه ما عند الله !!

والحق أن انتصار المسلمين ، وفتح بيت المقدس ، وكسر حدة الغارة الحاقدة ، وجمع فلول الامة المزقة كان من ورائه عدد من ذوى الضمائر الموصولة بالله الراغبة اليه ، قامت بعملها فى صمت وعزلة وعفة .. !

لعل السلطان نفسه كان يضىء الطريق لهذه القلوب الطيبة حين قرر ان يشارك فى حمل الاحجار على عاتقه بكرة واصيلا ، ولو شاء لاصدر الاوامر وراقب المنفذين ، انه أبى الا أن يسد الثغرات ويشيد الحصون بنفسه مع جيشه !!

ونتدبر عبارة القرآن فى وصف هذه الضمائر البارئة من العلل قال تعالى : « يوم لاينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم » (١) سليم من اوضار الغش وجنون العظمة ولفت الانظار ! ان الشخص الذى لا يعمل أو لا يجيد عمله الا ابتغاء ثناء يسمعه ، او مال يأخذه لن يعمل شيئا طائلا اذا انقطع الثمن، وابتعد الناس !

ومعنى هذا أن الخير عنده عرض عابر لا باعث أصيل ، ان قلبه فى الحقيقة ناضب من حب الخير والاندفاع الذاتى اليه ، انه قلب غير سليم ..

وربما خامرت القلب تطلعات دنيا الى مال أو جاه ، بيد أن الايمان يطاردها ويبقى الضمير متشبثا بربه مؤثرا له وهذا معنى

---

(١) الشعراء ٨٨ ، ٨٩

قوله تعالى : « من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » (١)

انه ليس غريبا على النفس ان تحب المال والجاه ، بيد أن هذه المحبة يجب أن تنهزم امام وجه الله وارتقاب جداه !

ولو نقبنا عن أسباب الزلازل التى تهز كيان الامم لوجدناها تلك الضمائر الميتة ، تلك القلوب التى تيبست ، فهى لا ترشح بنبل ولا تهش لفضيله ولا تشمئز من قبيح ..

وقد ذكرت السنة الشريفة امثلة للضمير الحى عندما يتغلب على المغريات ويهزم الوساوس ويسبح بقوة ضد التيار وينجو !!

فعن أبى ذر رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يبغضهم الله ..

فأما الثلاثة الذين يحبهم ، فرجل أتى قوما فسألهم بالله ، ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم ، فمنعوه فتخلف رجل بأعقابهم ، فأعطاه سرا ، لا يعلم بعطيته الا الله والذى اعطاه .

وقوم ساروا ليلتهم حتى اذا كان النوم أحب اليهم مما يعدل به فنزلوا فقام رجل يتملقنى ويتلو آياتى ...

ورجل كان فى سرية فلقى العدو ، فانهزموا ، فأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له ..

وأما الثلاثة الذين يبغضهم الله فالشيخ الزانى ، والفقير المحتال ، والغنى الظلوم ...

وظاهر أن الثلاثة الاخرين ماتت قلوبهم ، فاستمرغوا الرذائل مع ضعف الاسباب التى تدفع اليها ..

---

(١) ق ٣٣ ، ٣٤

ومن صور الضمائر الحية ما ذكرته احاديث اخرى ، عن الرجل يقدر على الفاحشة ، ولكنه يدوس مغرياتها ، ويستبقى نفسه طاهرا . وصلته بالله زاكية .

وصورة هذا الرجل الذى استأجر عاملا عنده ، فأدى واجبه ثم عرض له ما صرفه قبل ان يأخذ اجره وبعد سنين طوال رجع العامل يطلب حقه الذى تركه من زمن بعيد !

كان رب المال ، قد أدار الاجرة فى عمله فنمت حتى أمست ثروة ! فلما جاء العامل اعطاه الاصل والنماء ، والعامل مدهوش !

ان الايمان يضع ضوابط صلبة للسلوك ، ويجعل من القلب ديدبانا صاحيا يحرس الحقوق والواجبات ، فلا حيف ولا فوضى . . !

وبعض الانظمة تجعل من سلطان الدولة شبحا رهيبا يحمل الناس حملا على العمل ، والاتقان ! فهل تم ذلك ؟ لا ، لانه ليس فى مقدور نظام ما أن يضع شرطيا مع كل عامل فى الارض او فى المصنع لينشط ، ومع كل مقاول حتى لا يغش ، ومع كل طبيب حتى لا يتهاون ، ومع كل تاجر حتى لا يحتكر ، ومع كل رئيس حتى لا يستبد ويطغى .

واذا خان الشرطى فهل نجيىء له بشرطى آخر ؟ قد يقال : ان رفع المستوى الثقافى وتبصير الكبار والصغار بما ينبغى وما لا ينبغى يمكن أن يمنع هذه المحذورات . .

والواقع أن الجرائم الكبرى لم يقترفها الا مجرمون على حظ كبير من المعرفة ، وأن النضج العقلى لا يستلزم الطيبة والاخلاص والشرف ، وكم من اذكياء أساءوا الى أنفسهم وأممهم . . ! « افرايت من اتخذ الهه هواه . وأضله الله على علم ، وختم على سمعه

وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » (١) .

ان القلب النقى ، الغيور على الحق الحريص على الشرف ، القاهر للاثرة ، المحب للناس لا يصنعه الا ايمان وثيق ، وتعلق بالله وحده ..

والواقع ان حديث القرآن عن الله سبحانه وعن تاريخ الماضين الطويل ، وعن البعث والحساب والثواب والعقاب ، وما شرعه الله سبحانه من عبادات كثيرة ، ان ذلك كله عناصر لضمان سلامة القلب ، واتجاهه الثابت الى الحق والخير ..

---

(١) الجاثية ٢٣

٢٨ ــ ما موقف الاسلام من العنصرية السـائدة فى بعض الحضارات ؟

ظهر خلال هذا القرن الزعيم الالمانى « هيتلر » يزعم أن الدم الارى أرقى من غيره ، وان الشعب الالمانى بطبيعته يرجح غيره من الشعوب السامية ــ يعنى اليهود والعرب وأشباههم ــ وتحول هذا الزعم الى عقيدة تساند مشاعر الكبرياء ونزعة السيادة عند الالمان ومن على مستواهم ...

وهذا كلام خرافى لا وزن له ! وان كان راسبا لا فى نفوس الالمان وحدهم بل فى نفــوس الاوربيين وافــراد الجيش الابيض عموما !

ان بنى آدم من ناحية الخلقة يستوون فى انهم نفخة من روح الله الاعلى حلت فى اهاب من تراب هــذه الارض ، فالبشر كلهم ينميهم أصل واحد ، ويجمعهم نسب مشترك . قال تعالى يشرح تلك الحقائق : « الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانســان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والابصــار والافئدة ، قليلا مــا تشكرون » (١) .

لا فروق بين جلد ابيض أو أسود أو اصفر أو احمر ، ان هذه الالوان المختلفة تشابه ما تراه العيون من اختلاف فى ألوان الازهار والورود ، ولا دلالة على عراقة أو تفاهة ..

بيد أن كثير من الناس يسرهم أن يختلقوا من عند أنفسهم هذه الفروق ، وان يقيموا حولها عصبيات ، وان يجعلوا لهــا وزنا خاصا فى التقديم والتأخير ، والقبول والرفض !

---

(١) السجدة ٧ ــ ٩

وقد رايت البعض يتشبث بهذه الاوهام لانها رجحت كفته دون جهد ! ومنحته شرفا جعله ــ دون حركة ــ يسبق الناشطين! انه لشيء ظريف ان يحسب المرء سيدا لانه تكون فى بطن معين ، ونشأ الناس من ماء مهين اما هو فمن ماء شريف .

انه ــ مع احترامنا لقوانين الوراثة ــ نقــرر ان الوراثة لا تنشيء عظمة ولا تكسب فجاحا ، فهناك انبياء من اصلاب كافرة، وهناك فجار من اصلاب انبياء ، وقد كان ابو الطيب شاعرا مفلقا من اب لا يعرف شعرا ولا نثرا ، وكان ابو العلاء فيلسوفا متشائما من اب لا يدرى شيئا من الفلسفة ..

ثم ان روافد الوراثة غامضـــة المنبع والكنه فى ابناء الجيل الواحد فكيف اذا تكاثرت الاجيال ؟ ونحن نعرف النكتة المروية عن امــرأة جميلة أحبت عبقريــا دميما وعرضــت عليه الــزواج ليجّبا ابنا يرث جمالها وذكاءه ! فقال لها الرجل : اخشى ان يرث غباوتك ودمامتى !!

ان القول بأن جنسا ما ذكى بأصل الخلقة وجنسا آخر غبى بأصل الخلقة قول فيه ادعاء ظاهر ، ان ظروف البيئة هى التى تصنع الاعاجيب ، وهى التى تنمى المواهب أو تقتلها ، بل هى التى تحيى الفطرة أو تميتها .

والجنس الابيض الذى يعمر غرب أوربا وشمالها ، والذى يفرض وصايته على العالم كله ، كان أياما طوالا يشتهر بالغباوة والانحطاط ، وقــد نقلنا فى كتابنا « مع الله » كلام المستشرق « فيلب حتى » عن تأخر الاوربيين الحضارى وتفوق عرب الاندلس عليهم « ... فى الوقت الذى كانت فيه جامعة « اكسفورد » ترى الاستحمام عــادة وثنية ، كانت الاجيال من علماء قرطبة تتمتع

بالاستحمام فى مؤسسات فاخرة ، ويدلنا على موقف العرب حيال برابرة الشـمال ـ هكـذا كان اباؤنا يسـمون سـكان أوربا وفكرتهم عنهم ماورد فى كلام عالم « طليطلة » صاعد القاضى المتوفى سنة ١٠٧٠ م فقد كتب عنهم : ان افراط بعد الشمس عن مسامتة رءوسهم برد هواءهم وكثف وجوهم فصارت لذلك أمزجتهم باردة واخلاطهم فجة! فعظمت ابدانهم وابيضت الوانهم وانسلت شعورهم وانعدمت دقة الافهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة وفشا فيهم العمى والغباوة !!

ارايت هذا الوصف ؟ انه لاهل أوربا الذين يقودون العالم الان ، وليس للهنود او الـزنوج أو العرب .. أو بقية العالم الثالث !!

والعالم اليوم ينظر الى هزائم العرب أمام اليهود ، ويبتسم ساخرا .. ! وقد كان آباء أولئك المهزومين يحتقرون الجبن اليهودى ويبرءون منه ويقولـون لنبيهم فى اول قتـال لـه مع الوثنيـة لا نقول لك مـا قال بنو اسرائيل لمـوسى : اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون !

بل اذهب انت وربك فقاتلا أنا معكما مقاتلون ، ان خضت بنا هذا البحر خضناه معك ، ما يتخلف منا احد !!

ان الاسلام بين أن الافراد والاجناس يصنعون يومهم وغدهم بانفسهم ، وهم فى سباق مفتوح يتقدم فيه من شاء ويتأخر فيه من شاء لا مدخل للون أو عرق ، « أنها لاحدى الكبر ، نذيرا للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » (١) فقد يسبق الاسـود فى الدنيا والاخرة ، أو يقع العكس ! وقد ترجح كفة رجل من سواد الناس، وتطيش كفة آخر من ابناء الرسل ، أو العكس « والوزن يومئذ

---

(١) المدثر ٣٥ ـ ٣٧

الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » (١) .

وجاء فى السنة ان النبى صلى لله عليه وسلم نبه قومه : لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم وقال : « من ابطأ به عمله لم يسرع به نسبه » وهذا مصداق الاية الشريفة « فاذا نفخ فى الصور فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وقال تعالى « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لايظلمون » (٢) .

ومع كثرة ما نبه الاسلام الى مبدا « ان أكرمكم عند الله اتقاكم » لوحظ ان العرب يغالون مغالاة منكرة بالانساب والحرف ، ويجعلونها محور تقدير جائز وعصبيات عمياء .

الزراعة مهنة تافهة ، وكلمة فلاح رمز لامرىء نازل المرتبة ، وقد كان الفرزدق يهجو جريرا بأن اباه حداد ! اما هو فان الذى سمك السماء بنى له بيتا دعائمه أعز وارفع ! بم ؟ بغير شىء !

وفرضت تقاليد البدو نفسها على المجتمع العربى بل على جانب من الفقه الاسلامى ، فاذا عدد كبير من رجال الفقه يرون ان الهاشمية لا يكافئها عربى عادى وان العربية لا يكافئها اعجمى ، وحكم القضاء الشرعى بتطليق فتاة من أسرة شريفة النسب تزوجت بالشيخ على يوسف محرر صحيفة « المؤيد » المشهورة .

أما حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « اذا أتاكم من ترضون دينه ومروءته فزوجوه الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير » فقد وضع على الرف !

وكما تسللت هذه التقاليد الى ميدان الفقه تسللت الى ميدان الحكم والسياسة ، فكانت عصبيات القبائل قديما وعصبيات الاسر

---

(١) الاعراف ٨ ، ٩ (٢) الاحقاف ١٩

حديثا من وراء طلب الرياسة وبسط النفوذ . .

وعندما يبحث سبب فساد المجتمع الاسلامى وانهيار الحضارة الاسلامية عموما ، فستكون هذه الجاهليات من ابرز العلل .

والى يوم الناس هذا لا تزال الكفاءة الشخصية تؤخر أمام مكانة العائلة وقيمة النسب ! ذلك فى وقت يشيع فى ارجاء العالم تنافس لا حدود له فى البحث العلمى والانتاج الغزير وتجويد السلع وكشف المجهول ومراقبة الخصوم وكسب الاصدقاء ، انه تنافس ترتبط به مصاير أمم ومستقبل رسالات ! ترى ما موقفنا ؟

جاء فى السنة عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ألا انى جعلت نسبا وجعلتم نسبا جعلت اكرمكم عند الله اتقاكم فأبيتم الا أن تقولوا : فلان بن فلان خير من فلان ابن فلان ! فاليوم أرفع نسبى وأضع نسبكم ، اين المتقون ؟

وعن جابر خطبنا رسول الله فى أوسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : يا أيها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد ! ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لاحمر على أسود ولا لاسود على أحمر الا بالتقوى . ان اكرمكم عند الله أتقاكم ، الا هل بلغت ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : فليبلغ الشاهد الغائب . . !

وروى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لينتهين أقوام عن الفخر بآبائهم الذين ماتوا ، انما هم فحم جهنم ، او ليكونن اهون على الله من الجعل الذى يدحرج النتن بأنفه ! ان الله أذهب عنكم عبية الجاهلية — أى كبرها — وفخرها بالاباء ، انما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى الناس بنو آدم وآدم من تراب . . . !!

٢٩ — ما موقف الاسلام من مظاهر الحضـــارة الحديثة ، السينما والمسرح والموسيقى والفنون جميعها ، كالرسم والنحت والتصوير ؟

الحضارة الحديثة نتاج تقدم علمى باهر ، وصل اليه الانسان بعد قرون من البحث المضنى والتجارب الغالية ! ولم يكن عجبا أن يستغل الانسان كشوفه لاسرار الكون وقـــواه الخفية فى ترقية نفسه وترقية معايشه ، بل ان ذلك أقرب الى الحكمة من استغلال هذه الكشوف فى تدمير الحضارة نفسها وتيسير الانتحار الجماعى على الناس !

وأحسب أن التقدم الصناعى العام وفر للجماهير متعا ما كان يحصل عليها الملوك الاقدمون ! الاطعمة أنعم ، والاشربة صنوف، والملابس تفضل الحرير نسجا ولونا ورقة ، وأدوات النقل اغنت عن الخيل والبغال والحمير ، والقيان التى كانت تغنى فى مقاصير الامراء انتقل صوتها الى الاكـــواخ ، ونام عـــلى لحنها العمال والفلاحون ، والمرء فى المشرق يكلم صاحبه فى المغرب بثمن ميسور، وربما بلغ الناس من الرفاهة درجة اعلى ، وملكوا غدا انصبة أكثر . . !

ومع هذا كله فالاعصاب مشدودة ، والاطماع طاغية ، والبكاء على القليل المنشود يفسد السعادة بالكثير الموجود ، وتحاســـد الافراد والاقطار اشعل البغضاء هنا وهناك !

وقيل فى وصف العالم : ان عضلاته أكبر من فكره ، ولو انصفوا لقالوا : أنه عالم يذكر نفسه ، وينسى ربه ، ويجحد حقه ، ويمارى فى لقائه ، ويظن ان هذه الدنيا كل شىء ، فلا امتداد لوجود آخر ، ولا حياة الا هنا . . !!

وانا رجل مسلم احب الحياة وابتهج بطيباتها ! ان الله استضافنى فى كونه واطعمنى خيره فمن السفاهة ان ارفض الكرم المبذول ، ومن السفاهة **كذلك أن أضن** بشكر المنعم !

ان الله تبارك اسمه يعطى الفضل ولا يطلب الا الاعتراف بالجميل ، فهل هذا ثمن فادح ؟؟

يبدو أن ناسا كثيرين يعز عليهم دفع هذا الثمن « وقليل من عبادى الشكور » (١) .

على ذلك الاساس انظر الى ما قدمته الحضارات قديمها وحديثها ! أنه — كما علمنى الاسلام — لى وليس لغيرى ، أليس يقول الله : « هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا » (٢) ؟

ومن ثم فالاصل فى الاشياء الاباحة ، ولا تحريم الا بنص قاطع ، والواقع أن نفرا من سوداويى المزاج أولعوا بالتحريم ومنهجهم فى الحكم على الاشياء يخالف منهج نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام الذى ما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما فان كان اثما كان أبعد الناس عنه روى أنس ابن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فان قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والاديرة رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » .

وقد أشاعت المدنية الحديثة « الراديو و « التليفزيون » وغيرهما من الاجهزة الناقلة للثقافة والملاهى على سواء ، ومعروف أن هذه الاجهزة أدوات غير مسئولة عما يصدر عنها ، وان المسئولية تقع على المؤلفين والمغنين والمخرجين ، ففى استطاعتهم أن يقدموا النافع ويحجبوا الضار .. !

---

(١) سبأ ١٣ (٢) البقرة ٢٩

لقد كان من المستطاع أن نتوسل بهذه الاجهزة لاشاعة اللغة السليمة وتذوق الاداب الرفيعة وحماية الاخلاق ودعم التقاليد الفاضلة ، بل كان من الممكن أن ندرب الالوف على اتقان حرف نحن محتاجون اليها ، وأن نرفع مستوى الاداء لاشغال كثيرة ، فان البطالة السافرة والمقنعة تفتك لدينا بأعمار الناس .

كان من الممكن أن نحارب عادات ضارة موروثة أو مستوردة انتشرت بيننا ووقفت مسيرتنا ، ان وسائل الاعلام لو أحسنا استغلالها تصنع الكثير ، ولكن ذلك لا تستطيعه الا امة تحس أن لها رسالة فى الحياة ، أما الامة الذنب فقد سقط عنها التكليف لان غيرها يشدها .

قد يفهم من ذلك انى احارب الغناء والموسيقى والترويح عن النفس .. لا ، ولكنى الحظ أن الامة العربية والاسلامية تريد ان تعمل قليلا وتغنى كثيرا،والاستجمام حق المرهقين لاحق القاعدين !

أما الغناء فكلام ، حسنه حسن وقبيحه قبيح ، ومن غنى أو استمع الى غناء شريف المعنى طيب اللحن فلا حرج عليه ! وما نحارب الا غناء هابط المعنى واللحن ..

لم يرد حديث صحيح فى تحريم الغناء على الاطلاق ، وقد احتج البعض بقوله تعالى « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها .. »(1)

ولعمرى ان من يشترى جد الحديث او لهوه للاسباب المذكورة فى الاية جدير بسوء العقاب ، أما من يريح اعصابه المكدودة بصوت حسن ولحن جميل فلا علاقة للاية به ، وكما يقول ابن حزم : لو اشترى مصحفا للاضلال فهو مجرم ...

---

(1) لقمان : ٦ ، ٧

ويبدو أن اقتران الغناء ببعض المحرمات من خمر وفحش . وما يشاع عن البيئة الفنية من تحلل ، هو الذى جعل عـــددا من العلماء يحرمه ، والى هذه الجملة من الرذائل يشير حديث البخارى الى من يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف ..

بيد أنه ليس من الضرورى أن تجتمع هذه العناصر كلهـــا عند سماع أغنية .. وعلى أية حال فاذا كان الغناء مقرونا بتلك المحرمات فهو مرفوض ، أما اذا برىء منها فلا شىء فيه .

والموسيقى كالغناء وقـــد رايت فى السنة ان النبى صـــلى الله عليه وسلم مدح صوت ابى موسى الاشعرى — وكان حلوا وقد سمعه يتغنى بالقرآن — فقال لـــه : لقـــد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود ! ولو كان المزمار آلة رديئة ما قال له ذلك ..

وقد سمع رسول الله صوت الدف والمزمار دون تحرج . ولا أدرى من أين حرم البعض الموسيقى ، ونفر من سماعها ؟

على أن الالحان تختلف فى تأثيرها وصداها النفسى ، فاذا كان هناك مجال لاعتراض فعلى الاصوات الخنثة والالحان الطرية المائعة ..

ونعود الى ما بدأنا به موضوعنا وهو أن أمتنا بحاجـــة الى الكثير من الجد والقليل من اللهو ، ولو رزقنا بفنانين ذوى شرف ومقدرة لامكن تحويل الفنون الى عوامل للبناء لا للهدم ، ولاثارة المشاعر النبيلة لا اهاجة الغرائز الدنيا ...

أما الصور فيجب أن نفرق بين نوعين : المجسم الذى يصنعه المثالون الان لاغراض شتى ! والرسوم التى توضع على المسطحات من أوراق واقمشة وغير ذلك .

والتصوير سواء كان شمسيا أو قلميا هو جزء من الطب والامن والعلوم الكونية والحيوية والتاريخ والشئون الاجتماعية الكثيرة ،

والاصل فيه الاباحة لحديث مسلم « الا رقما فى ثوب » ولحديث رزين سئل ابن عباس عن أجر كتابه المصحف ، فقال : « لا باس انما هم مصورون ، وانهم انما ياكلون من عمل ايديهم » .

ولم يقل احد ان صورة الوجه فى المرآة محرمة ، ولا يقول احد ان اثباتها بطريقة او باخرى تحول المباح الى محرم ..

ولا يحرم من هذا النوع الا ما حمل طابعا دينيا لعقائد يرفضها الاسلام كصور بوذا ، او ابراهما ، او صلبان النصارى ، أو اى شعار دينى يخالف التوحيد ..

كما يحرم اى تصوير يخل بالاداب ، ويحرك الغرائز الى المعصية ..

أما التماثيل المجسمة فان النصوص الواردة تتظاهر على رفضها ما لم تكن الاعيب للصبية أو عرائس هزلية كحلوى المناسبات المختلفة ، فان أحدا لا يفكر فى توقيرها أو عبادتها ..

لقد رايت بعينى من يعبدون هذه الاصنام فى جنوب آسيا ، ورايت فى مصر من يحيى بخشوع تمثالا لعبد الناصر !! وذلك اثناء نقله من مكان الى مكان .. !!

واعرف ان هناك من رجال الفتوى من يحرم التصوير كله سواء كان مجسما أو كان رسما على ورق ، واخشى أن يكون سوق النصوص مقطوعة عن ملابساتها سببا فى ضياع الدين والدنيا معا ! .

ولنضرب مثلا بالمرويات التى جاءت فى قضية البناء ! روى الشيخان عن خباب بن الارت قال : ان المسلم يؤجر فى كل شىء ينفعه الا فى شىء يجعله فى هذا التراب !

وروى الترمذى عن انس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « النفقة كلها فى سبيل الله ، الا البناء فلا خير فيه » !

وأخرج داود عن انس أيضا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اما ان كل بناء وبال على صاحبه الا مالا ، الا مالا ... بد منه — » .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال مــر بى رســول الله صلى الله عليه وسلم وانا أطين حائطا من خص ، فقال : ما هذا يا عبد الله ؟ فقلت : حائط اصلحه ! فقال : « الامر أيسر من ذلك» وفى رواية : « ما ارى الامر الا اعجل من ذلك » ! يعنى الموت او الساعة !! والحديث رواه ابو داود وصححه الترمذى !!

هذه الاثار كلها لو اخذت على ظاهرهــا مــا بنيت مدينة ولا قرية ! ولعاش الناس فى اكواخ لا تستر العورات الا بجهد !

والواقع انها واردة فى المكاثر والمفاخرة والاستطالة عــلى الناس ! وبناء القصور جائز بلا ريبة !

فهل الذين يحرمون التصوير مطلقا يحرمون بناء القصور ؟

انهم فى بعض البلاد لا يزالون يرون الصــورة فى التليفزيون محرمة ، واقمار الاجانب تلتقط الصور لنا فى ايام السلام والحرب على سواء ، ونحن ندرى او لا ندرى ...

٣٠ – كيف اعلن الاسلام حقوق الانسان ... ؟

خلق الله الانســـان ليكرم لا ليهان ، ولتسجد لـــه الملائكة لا ليعيش مع الحيوان ! ومع ان الانسان يعانى على الارض مـــا يعانى فهو مع بنى جنسه اذا صلحوا واستقاموا افضل عند الله من ملائكة السماء ، وقد قال الله سبحانه : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم عـــلى كثير ممن خلقنا تفضيلا » (١) .

ولكن المتأمل فى تاريخ البشر يجد ان جماهير كثيفة طحنهـــا الذل والضياع ! ربما اهز لها الجوع والدواب تجد ما تأكله ! وربما فقدت حقوقها المادية والأدبية وعاشت كسيرة اسيرة وغيرها من الطير والحشرات ينطلق دون قيد !

من الذى انزل بالبشر هـــذه الكوارث ؟ لم يفعل ذلك ملك ولا جن ، لم يفعل ذلك ماء ولا هواء !

ان الذى فعل ذلك بعض البشر ، ناس لديهم فضول سلطة او ثروة ، استغلوا سلطانهم وغناهم فى ايذاء الاخرين والحيف عليهم .

ومضت قافلة البشرية من قديم تتعســـف الطريق ، وتكابر الوحى ، وتعارض الانصاف ، وتدفن الاخلاق ، وتفرض الاهواء ... واخيرا استطاع نفر من أولى العزم وحماة الحقيقة ان يقلموا الاظافر الحادة وأن يروضوا الطبائع النهمة ، وان يضعوا دساتير حسنة ترد المظالم وتحمى الضعاف ، وتصون الحقوق فى اسلوب مفصــل اوحت به ســـلســـلة التجارب الطـــويلة فى محاربـــة الاســـتبداد الســـياسى والظلم الاجتماعى والانحراف الخلقى ..

---

(١) الاسراء ٧٠

وعندما ننظر الى المواد التى تضمنتها هذه الدساتير نعرف بدقة ماهى الحقوق التى يطلبها الانسان والتى لايزال الكثيرون يشكون فقدها ! .

ان المادة الاولى فى الميثاق العالمى لحقوق الانسان تنص على أن الناس يولدون احـــرارا ، يتساوون فى الحقـــوق والواجبات ، وكون الناس يولدون احرارا متساوين كلمة نطق بها عمر بن الخطاب ارتجالا لا اعداد ولا تكلف ، بل انطلاقا من الفطرة الاسلامية ! .

ولكن هذه الكلمة ظلت دهرا نظرية خيالية !! فكم من اناس ولدوا لهم حقوق ليست لغيرهم ، وكم من أناس ولدوا مثقلين بواجبات ليست على غيرهم ، وكم من وظائف تفاوتت الفرص فى شغلها ، واختير لها من ليس لها بأهل ، ولا تسل كيف ؟ فان ناسا قبلك تجرعوا على السؤال فلم يوقف لهم على أثر او عاشوا ناكسى رؤوسهم لفرط ما حل بهم ، ان القدرة التى يملكها البعض ولايدرى كيف امتلكها — فعلت مآثم ومناكر لا حصر لها ، ومع انه الله — وهو المقتدر الاعلى — لايظلم احدا فى الملكوت الذى تفرد بحكمه ، وقال : يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى فلا تظالموا ، مع ذلك فان ملاك السلطة والثروة دابوا على الظلم فى اقطار كثيرة ، وبعد لاى تدرت الجماهير على تقييدهم بالدساتير والمواثيق التى وضعت نصوصها على ضوء التجارب المستفادة والذكريات المرة .... !!

ان حقوق الانسان ولدت فى ديننا مع النطق بكلمة التوحيد ، فعندما نؤمن بالله الذى لا يعبد غيره ولايشرع غيره ولايحكم غيره ، عندئذ تسقط الوثنيات كلها عقائدية كانت أو سياسية او اجتماعية !!

نعم ، ان الايمان بوحدانية الله وقيامه على خلقه وتدبيره لكل أمر ، والاحساس بأنه — وحده — الضار النافع الخافض الرافع المعطى المانع ، ان ذلك يمنح الانسان حرية واسعة تجعله

لا يبالى بطواغيت الارض كلهـا ، لانهم مهمـا فحش سلطانهم ليسو الا عبيدا لربه ...

ونلحظ ان القرآن الكريم كرر قصة فرعون مع موسى بضع عشرة مره ، ذلك لان الفرعنة مرض نفسى شائع بين الحكـام المستبدين ، وتأمل قول فرعون لقومه : « ما اريكم الا ما ارى ومـا اهديكم الا سبيل الرشاد » (١) وقوله للسحرة لمـا آمنوا بعد ما شهدوا معجزة موسى تلقف ما صنعوا : « آمنتم له قبل ان آذن لكم ؟ انه لكبير كم الذى علمكم السـحر ، فلا قطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولاصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن اينا اشد عذابا وابقى » (٢) .. ان ذلك الفرعون السخيف يرى الا راى الا رايه ! فهو وحده الذى يصنع القرار ! وبرى ان من اعتنق رايا قبل ان يستأذنه مخطىء متمرد !! انه ملك الضمائر والسرائر ، والناس عبيد احساناته .. !!

ولكى توقى الانسانية هذه اللون شددت الدساتير الحديثة فى أمر الشورى والزام اولى الامر بها ، كما وضعت قيودا حديدية على التصرف فى المال العام ومنع العبث فيه ...

وكذلك وضعت قوانين صارمة لحق كل انسان فى محاكمة عادلة ، فلا يحبس أو يعتقل او يؤذى جورا وطغيانا ، وانما يبقى انسانا مصونا حتى يصدر القضاء النزيه حكمـا عليه فيؤخذ به وحـده !

ان الرسول رأى وحشيا الذى قتل عمه حمزة أحب الناس اليه فما استطاع ان يسىء اليه بكلمة بعدما اسلم ..

ورأى عمر بن الخطاب رجلا كان قد قتل أخاه فى الجاهلية ثم أسلم ، فقال لـه عمر : والله لا احبك ! قال : أذلك يمنعنى

(١) غافر ٢٩ (٢) طـه ٧١

حتى ربا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ... قال : لا حرج اذن ، انما يأسى على الحب النساء !!

الحق ان سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقاليد الخلافة الراشدة كانت نموذجا اعلى لاحترام الانسان والمحافظة على حقوقه ، كان النبى يدعو من له مظلمة عنده أن يقتص منه ، ويأخذ حقه ! وكان خلفاؤه كذلك ، وقد رفض عثمان أن يستنفر أهل المدينة ــ خصوصا قبيلته ــ للدفاع عنه ، حقنا لدماء من استباحوا دمه !

ولو كان فى الحكم رجل آخر لاهلك نصف الناس للدفاع عن شخصه !!

فى هذه البيئة الحرة تربى الرجال الذين هدموا القيصرية والكسروية ، واستمع التاريخ الى رجل منهم يقول فى ارض فارس : جئنا نخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ! جئنا نخرج الناس من ضيق الاديان الى سعة الاسلام !

كانوا يدركون أن الوجه الاخر لكلمة التوحيد هو حقوق الانسان ، الانسان الذى لا ينحنى الا لربه وحده !

من هنا كانت البيئة الحرة المهاد الفذ لتكوين الامة المسلمة العارفة بربها السيدة فى وطنها التى لا يجار عليها ولا يستباح حماها ، وقد كره الاسلام الاستضعاف ، وعزم على المؤمن أن يكون حمى الانف عزيز الجانب !

فان ضاقت به ارض فليرحل الى غيرها وليبق كما كتب الله له قويا أبيا « قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة .. »

على أن الرحيل لا يسوغ أن يكون فرارا من مقاومة ممكنة جاء فى خطبة لابى بكر الصديق « .. انا سمعنا رسول الله يقول :

ان الناس اذا راوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب أو انى سمعت رسول الله صـــلى الله عليه وسلم يقول : ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون عـــلى ان يغيروا فلم يغيروا الا يوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

والواقع أن الظلمة من اجبن الناس ، ويوم يحس احدهم انه اذا لطم أحدا ارتدت اللطمة الى خده ، فكر الف مرة قبل ان يعتدى ، انهم لا يزأرون الا فى الخلاء ، ولا يمتدون الا فى الفراغ والويل للشعوب الجبانة !!

للانسان حقوق سياسية تجعله ينقد اى خطـــأ من السلطات كلها علياها ودنياها دون أن يلحقه اى ضرر ، ولـــه ان يتولى اى منصب تؤهله له كفايته دون ان يقفه عائق ما . واساس ذلك انه ليس لاحد بعد رسول الله عصـــمة تعلو به عـــلى النقد ، وان المناصب امانات ينالها الجدير بها ، ويبعد عنها من لا يستحقها .

وللانسان حقوق مالية تفرضها له الاخوة العامة بين المسلمين، وقد اشرنا من قبل الى ان المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه . قال ابن حزم : ومن ترك أخاه يجوع ويعرى وهو قادر على اطعامه وكسوته فقد أسلمه ! وذكر ابن الجوزى فى سيرة عمر بن الخطاب وقد أصابت الناس ازمة : « لو لم اجد للناس ما يسعهم الا ان ادخل على أهل كل بيت عددهم فيقاسمونهم أنصاف بطونهم حتى يأتى الله بالمطر فعلت ، فانهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم » .

وللناس حقوق ثقافية تجعل العلم بينهم مشاعا ، ميسور الاخذ ، يستنير به الذكر والانثى والغنى والفقـــير ، فطلب العلم فريضة كما جاء فى السنة الشريفة ، وما تنضج ملكات الانسان ، ويخصب تفكيره وشعوره ، الا بأمداد لا تنتهى من المعرفة .. !

والمستغرب أن الانسان المسلم من بضعة قرون يحيا بعيدا عن دينه وينبت فى غير مغارسه ويحكم بغير شرائعه .

الشعوب هنا تختار حكامها وتبعدهم ان سئمتهم ! أما عندنا فالشعوب تفاجأ بحاكميها كما يفاجأ المريض بعلة لا يعرف كيف الخلاص منها !

وعندما وقعت مذابح لبنان تظاهرت الالوف غضبا فى كل عاصمة الا فى العواصم الاسلامية ، لان التظاهرات ممنوعة ! من يدرى ؟ ان الشجا يبعث الشجا ، فقد تتحول هذه التظاهرات ضد الحكام بفعل فاعل !! فالافضل أن تمنع ، والرؤساء المحبوبون سيؤدون الواجب !

٣١ ـ هل مسئولية المسلم تجاه المجتمع الاسلامى وحده ام تجاه المجتمع البشرى كله . وكيف ؟

معرفتى بالاسلام تجعل ولائى للناس كلهم جـزءا من ولائى للدين الذى أحببته ! فانا لا اشعر بانشطار فى هذا الولاء الواحد .

وقد سمعت احد الشيوخ فى اثناء الدرس يقول : نحن المسلمين أمة الاجابة ، وغيرنا من أهل الارض أمة الدعوة ! قلت : ما معنى هذا ؟ قال : ان محمدا صلى الله عليه وسلم دعـا العالمين الى الله ، فنحن استمعنا الى النداء واسلمنا وجوهنا لله ، وحق فينا قوله تعالى « ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فـآمنـا ربنـا فـاغفر لنـا ذنوبنـا وكفـر عنـا سـيئاتنا وتوفنا مع الابرار » (١) فنحن امة الاجابة !!

اما غيرنا فهو مدعو مثلنا ، ولمـا يجب بعد ! لعل النداء لم يصل اليه ، أو لعله وصل اليه مشوها لا يحرك دواعى القبول ، وايا ما كان الامر فهو مدعو !

وعلى أن أبلغه ما يجهل ، وان اثير فيه دواعى التصديق ؛ لقد عرفت الحق قبله فآمنت ، ولست أولى منه بذلك الخير ، وقد يكون خيرا منى لو عرف ما أعرف ، والواجب يفرض على أن اكون صورة مرغبة لا صورة منفرة ، والا كنت مسئولا عن اضلاله ، او حاملا معه بعض أوزاره !!

ومن المحزن أن عددا من علماء المسلمين شغله الترف العقلى فخان أمانة الدعوة والبلاغ ، وان عددا من حكام المسلمين شغله المجد السياسى فما أحسن خدمة الحق ولا جـذب الانتباه اليه !

---

(١) آل عمران : ١٩٣

ونشأ عن ذلك أن العلاقة بين أمة الاجابة وامة الدعوة كانت مليئة بالخصام بل كانت مخضبة بالدم !

قد تقول : اهذا كل ولائك للانسانية ؟ واجيب للفور : لا .. لا تنس انى حسن الظن بالفطرة الانسانية نفسها لانى مسلم اعلم أن الصفة الاولى لدينى انه دين الفطرة ! ان الناس يولدون عليه ويتجاوبون مع تعاليمه اذا أدركوها .. ويوم تخف قبضة الموروثات الرديئة فان الجماهير ستكون قريبة منى أو أكون أنا قريبا منها .

ولو خلى المرء وفكره لاتجه الى آله واحد ، ولشعر بدوافع ذاتية الى هذا الرب الوحيد ، ولو خلى المرء وفكره لاثر الزواج على العهر ، والصحو على السكر ، والاخاء على الاثرة ، والنصيحة على الغش !

اننى حسن الظن بالفطرة البشرية ، واعتقادى انها كالثمر الذى ينبت جميل الرواء شهى الطعم ، بيد أن النبات قد تعدو عليه أمراض تشوه لونه ومذاقه ، ان هذه الامراض علل طارئة ، وقد تعارف الزراع على مقاومتها كى يحموا محاصيلهم ، لكن الاجيال الناشئة بيننا لا تجد الحماية الكافية ، ومن ثم قد تلتهمها الاوبئة الخلقية والاجتماعية والسياسية ، فيشب الصغار مائلين زائفين !

وماذا يفعل أولئك الصغار اذا سمعوا منذ نعومة أظفارهم انه لا إله والحياة مادة ؟ او سمعوا أن الالهة شركة مقرها جبل اولمب أو صحراء الجزيرة او فوق السحاب ؟ انهم يكبرون زائغين

اترانى أدافع عن ذلك الانحراف ؟ كلا ، وانما اذكر الواقع المجرد ! والذى أعلمه ان الله زود الفطرة بخصائص تملك بها

حق الاعتراض على الباطل الذى يعرض او يفرض عليها ، وان هذه الخصائص من القوة بحيث يعد اهمالها تقصيرا سيئا وأساسا لمساءلة عادلة يوم الحساب قال تعالى « واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم : الست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة : انا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا : انمـــا اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذريـــة من بعـــدهم افتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ وكذلك نفصل الايات ولعلهم يرجعون» (١)

هذا الحوار ناضح بأن الخصائص الذاتية للفطرة الانسانية قادرة على المقاومة والرفض ، يجب أن يرفض العقل الخرافـــة ، ويتشبث بالحقيقة ، يجب ان يرفض الضمير البشرى الاثم ويتشبث بالبر والطيبة ..

واذا حدث أن خفت صوت الفطرة ، جاءت نجدات من الخارج لمعاونته كى يؤدى وظيفته ، ويبقى الانسان انسانا ، يعرف ربه ويؤثر دربه !!

واذا كان الوحى الالهى غير كاف فى ايقاظ الفطرة واعـــادة التائه الى رشده أحاطت بالافراد والجماعات آلام تكسر الغرور وترفق الحجب وتحمل البشرية على الخضوع لمولاها ومناشدته الرحمة«وما ارسلنا فىقرية مننبى الا آخذنا اهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون » (٢) !!

ومع ذلك فالفطرة وحدها لا تخطىء فى كل شىء ! انها تخطى وتصـــيب ، وتجور وتستقيم ! ودورنا نحن المسلمين ان ندعم الصواب ، وأن نوهن الخطأ ، وأن نذكر بما تنوسى من حق .

وفى ظلمات الجاهلية الاولى شعر نفر من ذوى القلوب النبيلة أن المستضـــعفين يجار عليهم فى الحرم ، وتغصـــب حقوقهم ،

---

(١) الاعراف ١٧٢ ـــ ١٧٤ (٢) الاعراف ٩٤

فتجمعوا وقرروا أن يغيثوا الملهوف ، ويبقوا الى جانبه حتى يرضى،ذلك هو حلف الفضول الذى تم فى دار عبد الله بن جدعان .

وبعد ظهور الاسلام ونزول الوحى ، ذكر النبى صلى الله عليه وسلم هذا الحلف باعزاز وولاء وقال : لو دعيت به فى الاسلام لاجبت ! نعم ان الاسلام الذى جاء به هو الانسانية فى صورتها الوسيمة ، ونحن ـ انبعاثا من هذا المعنى ـ نرى لزاما علينا فى الميدان الدولى أن نحارب التفرقة العنصرية ، وان نخاصم الاستكبار بالقوة ، وأن تقر عيننا بانتصار العدالة ، وان نفرح بشيوع الرخاء بين عباد الله ...

اننى أغبط الرجال الذين يعملون باسم « لجنة العفو الدولية» على اليقظة الخلقية والغيرة الانسانية التى تجعلهم يرقبون الاحداث فى العالم ، فاذا وجدوا ظلما شهروا به ومزقوا الاستار عنه والبوا الدنيا عليه .

أشعر كأن هؤلاء الناس ينفذون التعاليم التى تلقيتها من رسولى المنصف الرحيم القائل « اذا عملت الخطيئة فى الارض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها . ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » !!

ان الدين تحسين للحسن وتقبيح للقبيح حيث كان ومن اى الناس كان .

واذكر أننى لم اعلم بمصارع العلماء الصوماليين العشرة الذين رفضوا قوانين الاسرة الجديدة فى الصومال ، الا من استنكار لجنة العفو الدولية لما وقع . ان اغلب الاذاعات الاسلامية والعربية آثرت الصمت . !!

قلت : هؤلاء الساكتون اقرب الى الكفر منهم الى الايمان ،

أما الاجانب الغاضبون للظلم فهم أقرب الى الايمان منهم الى الكفر ! ان هلاك الاجيال على ظهر الارض يجيء من شيوع الخبث وسكات العارفين ، قال تعالى : « فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الارض ، الا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (١) .

والانتماءات المزورة لا تخدع ذا لب، كم من منتمين الى الاسلام لو تفرست فى أعمالهم ما وجدت أثرا لفطرة سليمة ، او تقوى حقيقية وكم تجد مسالك هى الاسلام بعينه ولكن العنوان مفقود .. !

اعجبتنى نظم الشورى فى الغرب ورايتها تطويرا جيدا لما حدث فى سقيفة بنى ساعدة قديما .. فماذا أذناب لولاة الجور الذين أهانوا الاسلام وأمته يقولون فى صفاقه نادرة : هذا اقتباس اجنبى والشورى عندنا لا تقيد حاكما ... !!

وتأملت فى احوال هؤلاء القائلين فرأيت ناسا يخزى بهم الحق، وتستخفى المروءة ، يسترون عوراتهم العقلية بركعات ميتة ، وتدين شائه ، فقلت فى نفسى : الاوربيون فى نظم الشورى قلدوا النبوة والخلافة الراشدة ، وهؤلاء العرب قلدوا الحجاج والمعتصم وبقية السلاطين .. !

ما اكثر ما ظلمت أمتنا بالمتقولين الجهلة ..

على ان الانسانية فى غيبة الوحى تشعبت بها الطرق وتفرقت مذاهب شتى ، كما زاحمت الفطرة غرائز واهواء جامحة، والحضارة التى تسود العالم اليوم تشوبها نقائص ونقائص كثيرة .. وربما

---

(١) هود ١١٦ ، ١١٧

اختلف الناس فى مفهوم العدل ، بل فى مفهوم الفضيلة والرذيلة ، وبين الجبهتين اللتين تحكمان العالم تفاوت واسع فى وجهات النظر ..

وذلك كله يؤكد ضرورة الرجوع الى وحى الله والاستهداء به فى متاهات الظنون ، ومتشبعات الهوى ، انه لابد من دين لدنيا الناس ..

ونحن المسلمين نملك الوحى الخاتم ، ومن حقنا وحدنا ان نتكلم باسم موسى وعيسى ومحمد جميعا ، فان كتابنا جمع لباب الدين ، وتضمن جملة الحقائق التى يفتقر اليها البشر ، ليوفوا بحق الله اولا ثم ليتعايشوا متعاونين متراحمين فى هذه الحياة .

بيد ان الناس لن يسمعوا حرفا منا ما بقينا على تخلفنا الشائن ، وما بقينا جهلة بقيمة التراث الذى لدينا ، وما بقينا — على غنانا — نتسول من الشرق أو الغرب برامج اصلاح وضرورات حياة ...

فلنستمد ثقتنا بأنفسنا ولنوثق ايماننا ، ولنتمسك بالخصائص التى زكت وارتقت بها امتنا ، وهى ما قررته الاية الكريمة « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١) .

اننا لسنا جبهة ثالثة فى العالم اننا الجبهة الاولى فيه فلما ازرينا بأنفسنا ازرى بنا الاخرون ، وطريق العودة ممهد لا مسدود !

---

(١) آل عمران ١١٠

٣٢ — ما تأثير القرآن فى الفكر الانسانى .. ؟

يحسب كثيرون أن صلة الدين بالقلب أسبق من صلته بالعقل ، او أنه بحسب الانسان ان يكون صافى الروح نبيل الخلق صادق المشاعر ليتم دينه ويكتمل يقينه ، مهما كان عقله بعد ذلك ..

وذلك خطأ ! فان الاسلام يريد أولا عقلا سليما وفكرا مستقيما فما قيمة امرىء مشوش الذهن سقيم التفكير ؟

ان صحة النظر الى الامور ودقة الحكم على الاشياء تجيىء اولا ثم تجيىء الطيبة والنية الحسنة بعد ذلك ..

وعندما بدأت الدعوة الى الاسلام اهاب القرآن بالناس ان ينفضوا عنهم ما ورثوا من خرافة ، وان يعيدوا اليقظة الى عقولهم المغيبة « قل : انما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى (١) .. »

كان المتعصبون للتقاليد القائمة يقولون : « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » (٢) وكان النبى المكافح لازالة هذه الغيبوبة العقلية يرفض هذا التقليد الاعمى « قل : أو لو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم .. » (٣) .

لابد من موازنة عادلة ، ونتيجة صحيحة تحترمونها وتصيرون اليها ! والحق انى لم أقرأ كتابا منسوبا الى السماء احتفى بالنظر العقلى وخط على ضوئه معالم الايمان مثل ما فعل القرآن الكريم..

انه يخاطب الانسان هكذا « ألم تر أن الله انزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ... » (٤) ؟ « الم تر ان الله سخر

---

(١) سبأ ٤٦ — (٢) الزخرف ٢٢
(٣) الزخرف ٢٤ — (٤) الحج ٦٣

لكم ما فى الارض ، والفلك تجرى فى البحر بامره ويمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه » (١) ؟ « الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . . » (٢) « الم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله . . . » (٣) .

لعمرى ما وجد العقل من بدء الخلق الي يوم الناس هذا كتابا يعترف به ويجلو بريقه ويمهد طريقه مثل هذا الكتاب الجليل ! كان الدين عند كثيرين ينتظم مع أدب الخيال واحلام الوجدان وهيام الشعر وتهاويل الفن حتى جاء القرآن الكريم فاذا الدين علم يعتمد على الحقيقة ، وقضايا تعتمد على البرهان سواء اتصلت بعالم الغيب أو عالم الشهادة ، أو كما يعبرون فى عصرنا بالمادة وما وراء المادة . . .

وانضم العلماء بالدين الى الملائكة المقربين فى الشهادة بوحدانية الله وعدالته كما جاء فى الاية « شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم » (٤) .

وبديه أن العلم هنا ليس العلم النظرى الجاف ، لا انه علم صادق مطابق للواقع ، يمهد لما نسميه العاطفة العاقلة ! ثم نتشبث به ونتعصب له ، فلا نرخص قيمته ولا نتنازل عنه ، انها خيانة أن نتخفف من الحق عند ثقل الاعباء ، أو نستدير له اذا ارهقنا الاعداء . . !

وفى القرآن الكريم نماذج كثيرة للتعريف بالحق ولفت البصائر اليه ، ولنختر هذا النموذج !

---

(١) الحج : ٦٥ — (٢) الفرقان ٤٥

(٣) النور : ٤٣ — (٤) آل عمران ١٨

يقول الله سبحانه معرفا نفسه لعباده « وهو الذى انشأ لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون ، وهو الذى ذراكم فى الارض واليه تحشرون ، وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل النهار افلا تعقلون » (١) ؟؟

هذه انارة للعقل لا يجوز أن يضل بعدها الطريق ، ومنهج القرآن فى الحديث عن الله جدير بالاحترام كله ، انه يضع أصابع الانسان على ما حوله ثم يقول له : فكر ! اتظن الشمس عقدت اتفاقا مع الارض لتعاقب الليل والنهار ؟ أتظن كلتيهما حددت المدار الذى يخصها ، ووضعت عقوبة لمن يتجاوره ؟ أن هذه الاجرام السابحة فى الفضاء لا تعقل شيئا ، وانما تديرها حكمة .. « أفلا تعقلون » ؟

وبعد استعراض للكون تناول عرشه وفرشه جاء هذا التقرير الحاكم « بل اتيناهم بالحق ، وانهم لكاذبون . ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » (٢) .

هذه عقيدة التوحيد ، وتلك اسانيدها العقلية ، تتابعت فى سياق صريح قاطع يثبت لله كل كمال وينزهه عن كل نقص ، ويسند اليه المدائح التى تنبغى له ، وتليق بمجده !!

حسنا ، فهل وقف الامر عند هذا التقرير المدعوم ببراهينه ؟ لا لقد جاء بعده تيار عاطفى يدفع الى البراءة من كل شرك وجهل ويخوف من عواقب هذا الانحدار ، جاء هذا التيار فى صورة

---

(١) المؤمنون ٧٨ — ٨٠
(٢) المؤمنون ٩٠ — ٩٢

استعاذة من صاحب الرسالة أن يلحقه رشاش من الغضب الماحق الذى سينزل بالشاردين المعاندين ، وغضب الجبار محذور ، ومن شمائل العبودية ان نتوقاه ، ونناى عن اسبابه « قل : رب اما ترينى ما يوعدون ! رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين ! وانا على ان نريك ما نعدهم لقادرون » (١) .

والغريب انه بعد تمزيق الحجب دون الحقيقة وبعد مواجهة البشر بما يحملهم عليها جهلا : يقول الله لنبيه : تمهل ، وتذرع بالحلم ، وقابل باحسان من يسف « ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون . وقل : رب اعوذ بك من همزات الشياطين .. » (٢) الخ

هذا نموذج من عشرات تنبنى عليها السور فى القرآن النازل بمكة والنازل بالمدينة على سواء ، والغريب أن النموذج هنا من سورة مكية ، والمستشرقون يرون أن القرآن المكى يعتمد على العاطفة اكثر مما يعتمد على الفكر .. فهل لديهم ما يوصف بأنه فكر او عاطفة ؟ ان ما لديهم فراغ !!

ولا يوجد كتاب بنى الايمان على البرهان ، الا هذا القرآن ، ان التفكير فريضة اسلامية كما يقول الاستاذ العقاد !

ومجال التفكير هو فى العالم المادى ، هنا يستطيع الانسان ان يلاحظ ويستنتج ويتابع التجارب ويكرر الفروض ويصل آخر الامر الى ما يفيده فى دينه ودنياه،وذلك ما نبه اليه القرآن الكريم عندما قال : « أن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار

---

(١) المؤمنون ٩٣ — ٩٥
(٢) المؤمنون ٩٦ — ٩٧

لايات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » (١) .

أولو الالباب هنا يتفكرون فى خلق العالم ! ويستنتجون من قوانينه المطردة ، ونظامه المتناسق انه مخلوق لرب حكيم ، فلا عبث ولا فوضى ..

وفى أول السورة نفسها ورد ذكر أولى الالباب على نحو آخر ، انهم لا يحاولون اكتناه الذات العليا ، ولا يخوضون فيما يصعب دركه من شئونها ، انني شخصيا « أشعر » بأن الله ملك مستو على عرشه ، لا يند شيء عن سلطانه ، ولا يبعد أمر عن حكمه ! لكن كيف ذلك ؟ لا ادرى !

أنا لا ادرى علاقة روحى بجسدى فكيف أدرى استواء الله على عرشه !! الافضل أن أتجاوز ذلك الى غيره على نحو ما قيل :

اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع !!

« والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا الالباب » (٢) على أن هذا التسليم ليس جواز مرور للخرافة أو قبولا للمتناقضات ! وكما قيل : ما يعز على العقل فهمه شيء وما يحكم العقل باستحالته شيء آخر .. !

وقد حارب القرآن الاوهام ، وكم يعيش الناس صرعى اوهام ! وحارب الظنون ، وكم من ظنون توارثها البشر ، وجعلوا منها عقائد مقدسة ، وما كانت يوم وجدت الا شائعات

---

(١) آل عمران ١٩٠ — ١٩١
(٢) آل عمران ٧

لا اساس لها ... « وما يتبع اكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، ان الله عليم بما يفعلون » (١)

ومن هنا نهى الله سبحانه ان نتبع ما لا نعلم وان نتأثر مما لا اصل له ، لقد وهب لنا الفكر والحواس لنستخدمها فى تبين الحق وسوف يسألنا عن طريقة استخدامنا لتلك المواهب « لا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »(٢)ومن معالم الجماعة المسلمة انها تحترم المنطق،وتسلم باليقينيات وتخضع لسطوة العلم ! وقد مضى هذا المنهج الى غايته وهو يحارب الشرك ويؤسس التوحيد ، فترى الحملة على المشركين معللة بانهم يتبعون ما لا دليل عليه ! قال تعالى « ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه » (٣) بل ان ذلك يراعى عند قصص الاولين ، وذكر اسباب الخروج على الضالين المستبدين ، فقد جاء على السنة الفتية اهل الكهف « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين » اى بدليل واضح مقبول !

الحق ان اثر القرآن فى الفكر الانسانى عميق ، انه هو الذى اقام الايمان على المنطق ورفع راية العقل !

---

(١) يونس ٣٦
(٢) الاسراء ٣٦
(٣) المؤمنون ١١٧

٣٣ ـ كيف ، ولماذا ، وقع النسخ فى القرآن ... ؟

للنسخ معنيان : أحدهما سائغ لاريبة فيه وهـو تخصيص عام او تقييد مطلق أو اظهار حكم ما بطريق التدرج .

والثانى محو حكم سابق بآخر لاحق ، وهو عند التحقيق العلمى لا وجود له فى القرآن الكريم .. !!

ونسوق الامثلة الشارحة لما ذكرنا ، المرأة اذا فقدت زوجها وجبت عليها عدة وفاة مقدارها أربعة أشهر وعشرة أيام كما جاء فى الاية الكريمة « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجـا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ، فاذا بلغن اجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى انفسهن بالمعروف » (١) ... لكن هذا الحكم العـام عرض له استثناء ضيق دائرته ، فان المتوفى عنها زوجها اذا كانت حاملا فعدتها وضع الحمل ، ولو بعد يوم من الوفاة ! قال تعالى : « وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن » (٢)

كلتا الايتين لها موضعها الذى تعمل فيه ، وحكمها باق الى قيام الساعة .. !

وحرم الاسلام اكل « الدم » وجـاء ذلك فى الايـة « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ... الخ » (٣) ثم جاءت آية اخرى تكشف ان الدم المحرم هو السائل من الذبيحة « قل لا اجد فيمـا

(١) البقرة ٢٣٤
(٢) الطلاق ٤
(٣) المائدة ٣

اوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا ان يكون ميتة او دما مسفوحا (١) الخ فعلم من ذلك ان الشارع يبيح اكل الكبد والطحال وكان العرب يعدونها من الدم ، فتقيد الدم المحرم بصفته المذكورة !

اما التدرج فى الكشف عن حقيقة حكم ما ، فانه يبدأ تلويحا يفهمه الاذكياء ، ثم تزداد الابانة بما يكاد يوحى بالحكم ، ثم يجىء الحكم حاسما بالمعنى المراد ، وقد تم تحريم الربا والخمر بهذا الاسلوب المتأنى ، وليس فى القرآن نص باباحة الخمر او الربا !

وعندما يقول سبحانه : « وما آتيتم من ربا ليربو فى اموال الناس فلا يربو عند الله .. » (٢) فذلك تمهيد لقوله فيما بعد « احل الله البيع وحرم الربا » (٣) !!

وعندما يقول : « يسألونك عن الخمر والميسر قل : فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما » (٤) فذلك تمهيد لقوله فيما بعد « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » (٥) .

ان هذا التدرج كان الطريقة المثلى لفطام الناس عن رذائل الفوها وادمنوها وتعصبوا لها ، وقد حاولت

---

(١) الانعام ١٤٥
(٢) الروم ٣٩
(٣) البقرة ٢٧٥
(٤) البقرة ٢١٩
(٥) المائدة ٩٠

الولايات المتحدة تحريم الخمر بقانون صارم مرة واحدة ففشلت فشلا محزنا، بصورة أشنع !! وتبين ان الشارع الاسلامى اذكى واحكم ..!!

ومنفعة الميسر ان ربحه كان يرمى للفقراء ، ومنفعة الخمر ما يشعر به الشارب من نشوة وغيبوبة ينسى فيهما أحزانه ... الى حين ، أو ما يحسه من دفء كاذب !

وكفة الاضرار أرجح ، والقانون الشرعى « للاكثر حكم الكل. وما قارب الشىء يعطى حكمه .. » !

وبعض المفسرين رأى أن الايات الاخيرة فى الخمر والربا ناسخة لما نزل قبلها من آيات ، متوهما ان بينها تعارضا ، وهذا خطأ فلا تعارض ولا نسخ ...

بيد ان حمى النسخ اصابت قوما من الفقهاء والمفسرين فجعلتهم يقولون كلاما غريبا ، اذكر انى كنت اقرأ شرح الخازن لسورة الانعام بدءا من قوله تعالى : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ » (١) فاذا الرجل يقول : الاية منسوخة ، وبعدها قال تعالى « اتبع ما أوحى اليك من ربك لا أله الا هو وأعرض عن المشركين » (٢) فاذا هو يقول : الاية منسوخة !

ولا ادرى بدقة كم آية نسخها فى صفحة واحدة !!

وقد وصل بعضهم بالايات المنسوخة الى بضع مئات ، وهذا كلام منكر ، وقد رفضه الراسخون فى العلم ، والشبهة التى قامت فى ذهن الخازن ــ غفر الله له ــ أنه ظن آيات الجهاد تعارض الايات التى ذكرها ، وهو ظن مستبعد ! ..

---

(١) الانعام ١٠٤

(٢) الانعام ١٠٦

بل ان البعض يرى قوله تعالى « اتقوا الله ما استطعتم »(١) ناسخا لقوله تعالى « اتقوا الله حق تقاته » (٢) كأن بين الايتين تناقضا ، ولا تناقض الا فى دماغه هو !!

لقد رايت القائلين بالنسخ يتورطون فى مهازل ، وعلة هذا انهم بعيدون عن التفسير الموضوعى للقرآن الكريم ، سواء كان هذا التفسير يتبع قضية واحدة فى طول القرآن وعرضه ، او كان استكشافا للوحدة التى تشمل اجزاء السورة ، والتى تجعل آياتها معالم لصورة بينة التقاسيم ، متعانقة المعانى والاهداف ...

وعلى اية حال ، فما من آية فى كتاب الله قيل بنسخها الا كان هناك قول آخر باحكامها ، حتى ما كان ظاهره النسخ مثل قوله تعالى « الان خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا ، فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مئتين » (٣) قال كثيرون : كان الحكم الشرعى أن يثبت الواحد لعشرة من الاعداء ثم خفف بالثبات أمام اثنين !

وقال المحققون : الحكم الثابت والعزيمة الماضية أن يقف الواحد امام عشرة مادام قادرا صابرا آملا فى النصر او راغبا فى الشهادة، على أن له رخصة اخرى ان عجز ، وهى أن يقف أمام اثنين ولا يؤذن له بترك العدو ابدا دون ذلك ... قالوا : والرخصة هنا كقصر الصلاة فى السفر ، فالقصر فى السفر لا ينسخ الاتمام فى الاقامة ...

وما دام لم يرد قول بنسخ الا ورد معه قول باحكام ، فلنستبعد ابطال الايات ولنقرر انه لا نسخ فى القرآن الكريم ابدا ، الا ما كان بمعنى تخصيص العام أو التدرج فى التشريع .

---

(١) التغابن ١٦

(٢) آل عمران ١٠٢

(٣) الانفال ٦٦

قد يقال : أليس يقول الله تعالى : « ما ننسـخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها .. » (١) .

لقد ذكر صاحب المنار الوجه الحق فى تفسير هذه الاية ، ونقلت رأيه مع تعليقات لى فى كتابى « نظرات فى القرآن الكريم » ، وخلاصته أن الايات نوعان تكليفية وتكوينية .

والمقصود بالايات التكوينية خوارق العادات التى يجريهـا الله لتأييد أنبيائه ودعم رسالتهم ، ومن هـذا القبيل قوله تعالى « وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جـاءتهم آية ليؤمنن بها » (٢) وقوله « وما منعنا أن نرسل بالايات الا ان كذب بها الاولون »(٣)

أما الايات التكليفية ، فهى كلمات الله المتضمنة هداه لعباده، وذلك مثل قوله تعالى « ويل لكل افاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كان لم يسمعها .. » (٤) وقوله « تلك آيات الكتاب المبين » (٥) .

والنسخ يقع فى الاولى ولا يقع فى الاخرى ، فان المعجزة التى تصلح لامة ، لا تصلح لاخرى ، ولا شك أن المعجزة الاخرى ، التى ايد الله بها خاتم انبيائه تغاير الخوارق الحسية التى ايد بهـا الانبياء السابقين .

---

(١) البقرة ١٠٦
(٢) الانعام ١٠٩
(٣) الاسراء ٥٩
(٤) الجاثية ٧ ، ٨
(٥) يوسف ١

وقد طلب كفار قريش وغيرهم خوارق حسية مجددة ، وجاء بعد قوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها . . الخ » مقترح عجيب من هؤلاء الكفرة « وقال الذين لا يعلمون : لولا يكلمنا الله او تأتينا آية » (١) !

بل ان آية « ما ننسخ من آية . . . » اتصل بها قوله تعالى « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل » (٢) ؟ وهو تساؤل يجعلنا نقطع بأن النسخ ليس فى آيات تكليفية او احكام شرعية وانما هو فى حقيقة المعجزة التى تصحب رسالات المرسلين وتشد ازرهم امام اعدائهم ، وقد كان مشركو العرب ضائقين بالمعجزة الانسانية التى ميز الله بها محمدا صلى الله عليه وسلم ، يريدون معجزة تسير الجبال لا معجزة تصنع الرجال !

ومن الشائعات التى انطلقت فى ميدان النسخ أن هناك قرآنا أنزل ثم سحب ! والمعروف فى ديننا ان القرآن لا يثبت الا بالتواتر الذى يفيد اليقين ، وان خبر الواحد لا يثبت قرآنا ابدا ، فالزعم بأن قرآنا كان ، ثم رفع كلام لا يلتفت اليه . .

والقرآن الكريم قد ينسخ احكاما جاءت فى السنة الشريفة وذلك مثل نسخ استقبال بيت المقدس فى الصلاة باستقبال المسجد الحرام ، قال تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره . . » (٣)

---

(١) البقرة ١١٨
(٢) البقرة ١٠٨
(٣) البقرة ١٤٤

واستقبال بيت المقدس لم يكن بنص قرآنى ، وانما كان بالهام الهى عن طريق السنة التى يهدى اليها قلب الرسول الكريم، ولم يكن ذلك اجتهادا شخصيا ، قال تعالى « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه »(١).

ومن قبيل نسخ السنة بالقرآن الكريم ، منع تسليم النساء المؤمنات الى قريش ، وقد كان عهد الحديبية ينص على رد كل من آمن الى مكة ، حتى نزل قوله تعالى : « اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات **فامتحنوهن الله اعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار » (٢) .**

---

(١) البقرة ١٤٣
(٢) الممتحنة ١٠

٣٤ ـ هل الاستدلال القرآنى فى قضية الالوهية على الوجود ام على التوحيد ؟

ان الطفل الذى يودع فى احد الملاجىء قد يفكر فى ابيه عندما يكبر ، وقد يبحث عنه ، ولكن لا يجرى فى خاطره ابدا أنه جاء الدنيا من عدم ، او ظهر على الارض من غير اب !!

والبشرية فى اغلب العصور بحثت عن ربها وفكرت فيه وربما اخطات الطريق اليه ، فقد تعبد اسما لا حقيقة لـه ، وقـد تعبد حجرا موهوم الضر والنفع ، وقـد تعبد عجلا او تقـدس بقرة او تؤله نهرا ، وقد يجىء من يرفض هذه الالهة المزعومة كلها وينكر ان يكون للوجود سيد !!

ان قضية الالوهية فى التاريخ الانسـانى يكتنفها قـدر من الغموض ، وجمهرة الامم رنت الى اله كبير ، ثم رمزت اليه او تعرفت عليه عن طريق التماثيل ، او الكائنات التى تنتمى اليه على نحو مـا ، ويخيل الى ان رفض عقيدة الالوهية من الاسـاس لم ينجم الا بعد شيوع التدين الخرافى ، ورفض العقل السجود لحجر او حيوان او انسان ..

وكان هذا الرفض المطلق يقع على ندرة ثم شاع فى عصرنا الحديث ، مع التقدم العلمى وانتشار تدين مغشـوش ، وخيانة المسلمين لرسالتهم فما بلغوها ولا انصفوها .

وحديث القرآن الكريم عن الالوهية يتسم بالوضوح الشديد ، فهو ينفى الشركاء بحـدة وحسم ، وينفى ان يكون هناك احـد فوق مستوى العبودية لان له بالله صلة خاصـة لا ، هو الـه

واحد ، وكل ما عداه عبد له « ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » (١) .

وخلال الحديث عن الوحدة ، وكشف الحجب عن أمجاد الاله الحق ، وأسمائه الحسنى ، وأوصافه العلى ، تتشعب الدلائل لتسحق كل تفكير قد يعرض عن استغناء العالم عن ربه ، وقيامه بنفسه .

اى أن شرح حقيقة التوحيد فى الاسلوب القرآنى يمحو آثار الالحاد ، وينفى شبهات الملحدين ، وبذلك تتعانق ادلة الوجود الاعلى وادلة التوحيد المطلق فى نسق فذ !

وهاك أمثلة من الكتاب العزيز ، يقول الله سبحانه عن المشركين : « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم (٢) « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فانى يؤفكون » (٣) ؟ ان وصف الله سبحانه الخالق يعنى انه أوجد العالم من عدم ، فهو بارئه ومبدعه ومصوره ومبدئه ومعيده .. الخ ومعنى ان العالم مخلوق انه برز من العدم الى الوجود بقدرة قادر وحكمة حكيم وعلم عالم ... الخ ان الصفر لا يصنع شيئا ، والعدم لا ينشىء وجودا ، ومن ظن أن العالم كان معدوما ثم عراه الوجود من غير شىء فهو أحمق .

والخلق من لا شىء ليس عملا تافها يقدر عليه اى تافه ، ومن يتصور ذلك فهو مغفل ! ان الخلق عمل هائل واذا كان صنع مطبعة أو سيارة أو راديو يحتاج الى متخصصين مهرة ـــ وهذا عمل دون الخلق بمراحل ـــ فكيف بالخلق نفسه ؟ اننى لا اجنح الى

---

(١) مريم ٩٣ ـــ ٩٥
(٢) الزخرف ٩
(٣) الزخرف ٨٧

خيال بعيد ، ولكننى اسأل : ان العلماء مشدوهون أمام سعة الكون التى لم تعرف لها الى اليوم نهايات ، أفلا يكون رب الكون اكبر من الكون نفسه ؟ بلى ، والله اكبر !

الامر هنا ليس نفيا للشركاء ! فان الشركاء تساقطوا من أول الطريق ! والوثنيون لم يزعموا لاحجارهم شيئا ، والمصابون بجنون العظمة كفرعون واضرابه لم يزعموا انهم خلقوا شيئا ، « الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل » (١) .

ولا يسوغ لاحد ان ينتظر من القرآن الكريم ان يجعل من الوجود الاعلى قضية هى موضع الاخذ والرد والقبول والانكار ! الله اعلى واجل ! اقصى ما ينتظر ان يتناول اوهام الجهال بما يدمغها ، وان يدوس التعطيل وهو يمحو الشرك !

وتدبر الايات « قل من يرزقكم من السماء والارض ، أم من يملك السمع والابصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل افلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون » (٢) ؟ ظاهر من السياق انه لنفى الشركاء ، واظهر منه انه لنفى الالحاد والتعطيل ، ذلك ان صور الموت والحياة تترادف تحت حواسنا ، ومن حقنا ان نسأل : مصانع من التى اختفت تحت التراب تبرز الحبوب والفواكه ؟ ومع من اتفقت لتحول المياه الكدرة وفضلات المجارى الى ورود وازهار وطعوم جيدة والوان بهيجة ؟؟ من رب هذه وتلك ؟ انه الله !

وفى كل لحظة من ليل او نهار تخرج من بطون الامهات اطفال سوية المشاعر ، نابضة بالحياة ، صالحة للنماء ، مستعدة للاكتمال

---

(١) الزمر ٦٢

(٢) يونس ٣١ ، ٣٢

العقلى والعاطفى ، متهيئــة لشتى التكاليف ، من جعلهــا كذلك هل الاب هو الذى اختار خصائص الوراثة فى الحيوان المنوى الذى انزله ؟ انه لا يدرى كيف تكون ولا متى ولا من اين جاء ؟ هل الام اختارت بويضتها ، وساعة نزولها انها ليست اقل جهـــلا مـــن رجلها !! من المسئول عن هذا الايجاد الذى لا يمكن انكاره ؟ ان رد الايجاد الى «الصفر» أو الى «س» أو الى مبهم سخف لا يطيقه الا فكر ساقط سخيف ! المسئول من هذا القائل : « الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الارحام ومـــا تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار » (١) .

وكل انثى هنا تعميم يستوعب الاناث فى عالم الاحياء من طير ودابة وحشرة وزاحفة،فى البر او فى البحر،بل من الانس والجن !ولذلك جاء عقب هذه الكلية المحيطة المستوعبة قوله«عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » (٢) ...

ان الفرار من الحقائق ليس ذكاء ولا شرفا ، واذا كان بعض الملحدين يحسب نفسه مفكرأ ، فليعلم واقعه المر ! انه امرؤ معتل الفكر ، مصاب بداء عقلى منفر لا يقل عن الجذام ! بل ربما كان المجزوم أشرف خلقا واصح فكرا ..

قلنا : ان منهج القرآن هو الجمع فى سياق واحد بين دلائل الوجود الاعلى وأدلة الوحدانية المطلقة ، ليس القرآن كتابا فنيا يفرد فصلا لهذه القضية ، وفصلا لتلك القضية انه يبنى العلائق بالله على نحو يربط الناس بخالقهم،ملك الاسماع والابصار والافئدة مدبر الامور كلها ، الذى لاراد لحكمة ، ولا مهرب من قضـــائه ، ولا منتهى لعلمه ، ولا مجير عليه .

---

(١) الرعد : ٨

(٢) الرعد : ٩

. ومن رحمة الله بخلقه أنه يفتح عيونهم على آياتـــه ليعرفوه من خلال نظرهم فى هذا العالم الذى يعيشون فيه ..

يقول تعالى : « والهكم اله واحد ، لا الـــه الا هو الرحمن الرحيم » (١) .

الجملة الاولى فيها تأسيس لعقيدة التوحيد ، والجملة الثانية فيها نفى لحكاية الشركاء ، والاية كلها تمهيد للحديث عن مجالى الوجود الالهى فى آفاق العالم « ان فى خلق الســـموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون » (٢) .

فى هذه الاية تنبيه للعقلاء الى ان كل شىء فى الكون يشير الى سيده ، ويدل على الخالق الكبير ، وقد جاء الكلام على اسلوب السرد المجمل ، لكننا نرى التفصيل فى مواضع أخرى ، تدبر قوله تعالى « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشـــاء من عبـــاده اذا هم يستبشرون وان كانوا من قبل ان ينزل عليهم ، من قبله لمبلسين » (٣) بعد هذا التفصيل لنزول الغيث الى مترقبيه بلهفة بالغة تسمع رب العالمين يقول للانسان : « فانظر الى آثار رحمة الله ، كيف يحيى الارض بعد موتها ..» (٤)؟

---

(١) البقرة ١٦٣

(٢) البقرة ١٦٤

(٣) الروم ٤٨ ، ٤٩ .

(٤) الروم ٥٠

كأنه يقود المرء الى النتيجة البديهية بعد تجربة معملية تمت بين سمعه وبصره ! هذه آثار الرحمة ، وهذه آثار القدرة ، وهذه مظاهر العلم . وهذه .. الخ كل شيء يشهد لله ويوجه اليه .!!

وكما قال للانسان أنظر ... قال للناس « انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، ان فى ذلكم لايات لقوم يؤمنون » (١) .

ومما يعين على فهم الاسلوب القرآنى أن نتذكر حقيقة فلسفية معروفة هى أن العالم ليس له من ذاته وجود ! ان وجوده طارىء عليه من خارج ! اترى المصباح الكهربائى عندما تغمز « الزر »فيضىء ؟ انه لا يضيىء ابدا من ذاته ، لابد من تيار خارجى يسرى فيه ليتوهج ! أنه معد فقط للاستقبال ، واشعاع ما يجيئه من جهة اخرى ، كذلك الكون ، ، ان وجوده ، ذاتا وصفات مفاض عليه من اعلى ، واذا انقطع التيار الذى يمده تلاشى ، واستخفى فلا أثر له ، وهذا معنى قوله تعالى : « ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده انه كان حليما غفورا » (٢) .

وعندما يلفت القران الكريم نظرنا الى آيات الله فى الارض والسماء وما بينهما ، فهو يعطينا فكرة عن الايجاد والامداد معا ، ولا بأس أن يضم الى ذلك اشعارا بأنه الله الواحد ، وان ما عداه

---

(١) الانعام ٩٩
(٢) فاطر ٤١

من آلهة مزعومة افك مبين ، « الله الذى جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله رب العالمين هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين .. » (١)

هكذا اشتمل القرآن على دلائل الوجود الاعلى فى ثنايا توحيد الله وتمجيده ، فالله أعظم واعز من أن يكون اثبات وجوده أمر يفرد له عنوان ، وكأنه موضوع يفتقر الى البرهان .

(١) غافر ٦٤ ، ٦٥

٣٥ ــ ما اهمية القصص فى القرآن ، وهل لها اصل تاريخى . وما الحكمة فى تكرارها ؟!

لابد من دراسة الماضى والتفرس فى احداثه ، فان هذه الاحداث ليست ملكا لاصحابها ، وانما هى ملك الانسانية جميعا يدرسها الخلف ليستفيدوا منها العبر ويستخلصوا منها النتائج ويضعوها نصب اعينهم وهم يخططون للحاضر والمستقبل على سواء ...

وظاهر ان سير الافراد والامم يخضع لسنن دقيقة ، وان ازدهار الحضارات وانطفاءها ، وبقاء الدول أو فناءها لا يتم خبط عشواء ! وانما يقع وفق قوانين صارمة ! بل ان القوانين الاجتماعية لا تقل عن القوانين العلمية دقة واطرادا ، ومن ثم كان تجاهل هذه القوانين وخيم الاثار .

وقصص القرآن الكريم جزء من التاريخ المهم ، ومعرفتها حصانة للباحثين لا يستغنى عنها ذولب قال تعالى : « كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا » (١) وقد لام سبحانه الغافلين عن هذا التاريخ وما وعى من مصارع الظلمة وهلاك المفسدين « افلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لايات لاولى النهى » (٢) ! وقال : « تلك القرى نقص عليك من انبائها، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » (٣) .

وتتشابه القوانين الاجتماعية والقوانين الكونية فى عمومها وانطباقها على شتى الامكنة والازمنة ، فقانون الاجسام الطافية

(١) طه ٩٩
(٢) طه ١٢٨
(٣) الاعراف ١٠١

مثلا يشمل جميع الانهار والبحار ، وانهيار الامم لشيوع الفوضى والفساد يتناول شتى الاجناس والعصور ، وقد هدد الله العرب بالمصير الكالح اذا بقوا على عنادهم ومكرهم « .. لا يحيق المكر السيىء الا باهله ، فهل ينظرون الا سنة الاولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » (١) .

وسنن الله الكونية لا تحابى احدا ، وكذلك سننه التاريخية والحضارية ، وهى منطبقة على المؤمنين والكافرين دون استثناء ، وقد وقعت محنة احد لان المسلمين لم يلتزموا النصر ، بيد أن الهزيمة الطارئة لن تغير مستقبل الضلال ، وان واتته مؤقتا ظروف مساعدة . قال تعالى « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ! ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الايام نداولها بين الناس » (٢) !

وقد تضمن القرآن الكريم عدة قوانين اجتماعية وعمرانيه حاسمة ساقها فى تضاعيف القصص التى ذكرها أو فى خواتيمها مثل قوله سبحانه « تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » (٣) وقوله « انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » (٤) وقوله « كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض » (٥) الخ

---

(١) فاطر ٤٣
(٢) آل عمران ١٣٧ — ١٤٠
(٣) القصص ٨٣
(٤) يوسف ٩٠
(٥) الرعد ١٧

ان القصص القرآنى سرد واع موجه للتاريخ الانسانى ليس الغرض منه الالهاء والتشويق ! بل الغرض منه التربية والتوعية ، وتجديد المعانى بعد انتهاء اهلها لتكون عظة دائمة !!

وقد شاع ادب القصة فى عصرنا شيوعا يستحق الدهشة ، وامتلات الايدى بروايات يقرؤها حاملوها ليقطعوا الوقت أو يلتذوا بحسن العرض ! وجملة هذه الرويات من نسج الخيال ، وقد تكون ذات مغزى جيد ، وقد تكون اثارة وضيعة .

والبون شاسع بين هذه الاقاصيص ، وبين التاريخ الذى يجسده القرآن الكريم ويغزو به الالباب والبصائر ليمحو الغفله ويرفع المستوى ويضىء السبل ، البون بعيد بعيد .

عندما يقول الله لنبيه « وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة ، وذكرى للمؤمنين » (١) فهو يقول ذلك فى أعقاب سرد لواقع لاريب فيه ، فقد ذكر فى هذه السورة قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى مع اممهم التى ظهرت فى عصور متعاقبة،وانتظمتها ادواء التكذيب والمكابرة حتى اهلكتهم امة بعد أخرى .

وهو يحكى ذلك ارهابا للعرب المستكبرين وتسلية للنبى وتسرية له ! ، وفى موضع آخر يقول له : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا واوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله » (٢) فأين موضع الخيال فى هذه الوقائع ؟؟

---

(١) هود ١٢٠
(٢) الانعام ٣٤ .

وبعد أن قص الله سبحانه قصة يوسف ، وشرح أطوار حياته منذ اختطف الى أن صار ملك مصر ، قال عنه وعن غيره من المرسلين : « لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء .. » (١) فأين موضع الخيال هنا ؟

ان اتهام القرآن بانه يعرض خيالات فنية أو يمزج فى سياقه بين الواقع والخيال اتهام لا مساغ له ، وهو فى نظرنا بلاهة نشأت عن أتباع المستشرقين !

والمستشرقون يحسون ما فى كتبهم من غثاثة وعوج وبعد عن الحق ، ويريدون الايهام بأن القرآن لا يزيد على غيره ! وهذا كذب لا يروج عند عاقل .. !!

ومعلوم أن القصة الواحدة قد تتكرر فى عدة سور ، غير أن هذا التكرار صورى فان كل قصة تختلف عن الاخرى اما فى العناصر الجوهرية التى تتألف منها ، أو فى طريقة العرض الذى يناسب مقتضيات الاحوال .. !

فقصة موسى وبنى اسرائيل فى سورة « غافر » أنفردت بالحوار الطويل للرجل المؤمن الذى يكتم ايمانه ، بل هو العنصر البارز فيها .

والقصة نفسها فى سورة « القصص » أنفردت بتفصيل السبب فى خروج موسى الى أرض مدين وزواجه هناك .. !

---

(١) يوسف ١١١ .

والقصة فى سورة الكهف انفردت بلقاء موسى مع الخضر هذا اللقاء المثير المستغرب ! ..

والقصة فى سورة طـــه انفردت بالحديث عن العصا التى كان موسى يهش بها على غنمه ثم تحولت الى قوة هائلة فى يده كما انفردت بادعية موسى واجابة الله له .. الخ

وقد استطال الحديث فى سورتى البقرة والاعراف عن قصة بنى اسرائيل ، ومع ذلك فان المنهج غير المنهج والنتائج غير النتائج وما اتفقت فيه السورتان جاءت صياغته عـــلى نحو يلائم البيئة المتغايرة ، فالسورة الاولى مدنية والاخرى مكية ...

وشرح النواحى الفنية والموضوعية فى هذه القصة وحدهـــا يحتاج الى كتاب عن « اليهود فى القرآن الكريم » مع ملاحظة ان القرآن ليس كتابا فنيا فى الجغرافيا أو التاريخ ، انه يهتم بالجانب الانسانى والاجتماعى وحسب !

والحوار المبثوث فى ارجاء كل قصة يساق بحكمة الى غاية محددة ! خذ مثلا قصة شعيب مع مدين فى سورة الاعراف لقد جاء فيهـــا هذا الخطاب يناشد فيه شعيب قومه الا يستبد بهم اللدد فى الخصومة، والا يحملهم النزق على ارتكاب ما لا يليق « وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » (1) اى دعوا الامـــر للزمن ، ولا تتعجلوا العواقب !

---

(١) الأعراف ٨٧ .

فماذا كان الجواب ؟ « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا .. » (١) !!

وظاهر أن هذا السياق من قبيل اياك أعنى واسمعى ياجارة، وكأن النبى يقول للعرب المناوئين له : احذروا مثل هذا المسلك فى مصادرةالايمان ومخاصمة أهلهفعقباه صيحة من السماء تذركم فى دياركم هلكى كما حدث لقوم شعيب !!« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين » (٢) .

ويلفت نظرنا فى تكرار اى قصة أن القرآن الكريم يقلب النفس الانسانية على شتى جوانبها ، ويعالجها طورا بالهدوء وطورا بالصرامة ، طورا بالشد وطورا بالارخاء ، والغرض أن تترك باطلها وتقبل على هدايات الله ..

انظر مثلا الى قصة هود مع عاد ، انك ترى هودا فى سورة الاعراف بدأ هادئا طويل الاناة مع ناس أشبه بالثيران الهائجة « والى عاد أخاهم هودا قال:ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره افلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه : انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين » (٣) !!

فاذا تأملت فى القصة نفسها عندما تعرضها سورة هود وجدت النبى الحليم يبدأ منددا بوثنية قومه وحاسما فى كشف كذبهم على الله ومندرا بسوء المآل أن هم بقوا على جبروتهم « والى عاد أخاهم هودا قال : ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره

---

(١) الاعراف ٨٨
(٢) الاعراف ٩١ ، ٩٢
(٣) الاعراف ٦٥ ، ٦٦

ان انتم الا مفترون ... ويا قــوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قــوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » (١) !!

وتفسير هذا أن لقاء اى نبى مع قومه لا يقع مرة واحدة انه لقاء يبقى عشرات السنين ، وما يدور بينهم وبينه من حديث لا يأخذ صورة واحدة ، بل يأخذ صورا كثيرة !

وحتى لو وقع لقاء واحد ـــ كما حدث لموسى مع السحرة ـــ فان كل ما دار من حوار لا يثبت فى عرض واحد ، بل توزع اجزاء الحوار على ما تقتضيه المناسبات المتفاوتة ...

ومن ثم كان القصص القرآنى مجالا رحبا لمعالجة النفــوس والجماعات من عللها المنوعة بما يلائمها من الدواء الناجع ، فسبك القصة ملحوظ فيه نقل ما يفيد الناس من بدء الوحى حتى قيــام الساعة !

ليس المهم تحديد مولد أو وفاة ، ليس المهم تحديد موقع ، أو حتى تحديد الشخص ! فما يعنينا أن نعرف « هوية » ذى القرنين . أو الرجل الذى جاء من اقصى المدينة يسعى !! المهم تقديم الشفاء النفسانى والاجتماعى من خلال تاريخ صادق وقصص حق .

---

(١) هود : ٥٠ ، ٥٢

٣٦ ــ ما تفسير الايات التى قد تصف الله سبحانه وتعالى وصفا ماديا ؟ مثل ((وجاء ربك والملك صفا صفا)) .. ؟

جلست يوما افكر : ما أنا بين الناس ؟ قلت : واحد من الوف مؤلفة تسكن هذه الارض ! سألت مرة ثانية : ما أنا بين من سكنوها منذ الازل ومن يسكنونها آخر الدهر ؟

فشعرت بأنى اتضاءل ، وان وجودى يصغر !

سألت مرة ثالثة ما أنا بين شتى العوالم ؟ ان أرضنا التى نحس ضخامتها ذرة محقورة بين اسراب لا تحصى من الكواكب الثابتة والدوارة ، وما يقدر العلماء ابدا على معرفة حدود هذا الكون ، ولا أن يعرفوا ما يذخر به من أحياء .. !

وشعرت بأنى ازداد تضاؤلا .. ! وقلت : يجب أن أعرف قدرى ، والا اعدو حدى ، ان الغرور جريمة علمية قبل أن يكون جريمة خلقية ...

وراقبت بعض الحشرات السارحة فى عالمها الخاص بها وقلت : اتدرى عن عالم الانسان شيئا ؟ أتعرف ما يجول فى فكره ؟ أتعرف ما يبحث من قضايا وما يقرأ من كتب ؟؟ كلا كلا انى لها هذا ؟؟

قلت : ان علمى بحقائق الالوهية كعلم هذه الحشرات بحقيقتى ! ينبغى أن أعرف قدرى والا أعدو حدى ! أننى نقطة مغموصة فى مساحات رهيبة من الزمان والمكان ، كيف تحاول قطرة

فى ترعة أن تستوعب البحار والمحيطـــات وتشرف عـــلى اللجج والانوار ؟؟

ورحت مع ابى القاسم القشيرى اناجى ربى بهذه الابيات .

يامن تقاصر شـــكرى عن أياديه وكل كل لسان عن معـــاليه
وجوده لم يزل فردا .. بلا شبه علا عن الوقت ماضيه وآتيه
لا دهر يخلقه ، لاقهر يلحقه لا كشف يظهره لا سر يخفيه
لا عد يجمعه ،لا ضـــد يمنعه لا حد يقطعه ..لا قطر يحويه
لا كون يحصره ، لا عون ينصر وليس فى الوهم معلوم يضاهيه
جلا لـــه أزلى لا زوال لـــه وملكـــه دائم لا شىء يفنيـــه !!!

ان القرآن الكريم حسم طيش الخيال عندما قال فى التنزيه والتجريد « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير» ونحن من بعيد قد نشيم لمعان البرق ، وقد يمر بعقلنا طيف عن امجـــاد الالوهية ، لا ندرى مأتاه ، ومع ذلك فان هذه الخطرات العابرة لا تغنى شيئا، بل هى كما قال أبو الفتح البستى

كل من يرتقى بوهـــم من جلال وقـــدرة وسناء
فالذى أبدع البرية أعلى منه ، سبحانه مبدع الاشياء

اننى اعد الباحثين فى ذات الله مرضى ! فنحن ــ على تفاهتنا ــ لا نعرف من نحن ؟ فكيف نعرف الذات العليا ؟

والافهام البشرية فى ذات الله تفـــاوتت تفـــاوتا بعيدا بين التجسيد والتجـــريد ، فكتاب العهـــد القديم صـــوروا الله يبكى ويندم ويمشى ويقعد وياكل ويشرب ويضرب ويضرب الى جانب ماله من صفات رفيعة .

من اغرب الصور انه جلس مستلقيا على قفاه متمددا على الارض واضعا قدما فوق أخرى ! .

وفلاسفة اليونان المؤلهون — فى مقدمتهم ارسطو — صوروا الله منزها عن كل شىء ، حتى عن الصفات التى يعلم بها ويقدربها ، فهو عالم بذاته قادر بذاته وبالغوا فى التجريد حتى كأن الله معنى لاذات !!

فاذا تجاوزنا الافهام البشريه الى الوحى الاعلى ، واستمعنا الى القرآن الكريم وجدنا اوصافا تقرب معنى الالوهية الى الحس الانسانى من غير تجسيد ، وتبلغ بها كمالا لا يتناهى من غير تجريد . .

المسلم يقرا قوله تعالى « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريـــد » (١) فيشعر بأن الله قريب منه ، مطلع على دخيلته ، ومع ذلك فهو يعلم أن الله مستو على عرشه محيط من وراء خلقه .

انه يحس بالله دون أن يجســــده ، وينـــزه الله دون أن يفقده . .

والايمان الحقيقى أن تشعر بان أصابع القدرة هى التى تحرك قلبك فيدق ، ومعدتك فتهضم !

---

(١) ق ١٦

ماذا قلت ؟ أصابع القدرة ؟ هل للقــدرة أصابع !

هنا ندخل فى مبحث قديم ، قتله المتقدمون تقعرا وجدلا .. وانقسموا فيه فرقا .. أما أنا فأمر به مر الكرام ! وقد قلت فى كتابى « مشكلات ... » أنا مع السلف من غير تجســيم ومع الخلف من غير تعطيل .

لقد كان طبيعيا أن تجيىء فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة جمل يتهيب العقل الغوص فى معناها مثل « فأينما تولوا فثم وجــه الله » (١) « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى » (٢) « أصبر لحكم ربك فانك بأعيننا » (٣) .

وقد نبه القرآن ــ مذ أنزل ــ الى أن هناك آيات ينبغى التسليم بها لان حقيقتها فوق الفكر المادى ، ومن الزيغ اكثار اللجاجة حولها .. لكن العناد والفراغ خلقا طوائف لا شغل لها الا هذا اللغو ، فكانت بلاء على الامة ولا تزال !

ان اللغات على كثرتها من وضع البشر ، وقد ألفوها ليعبروا بهــا عمــا يريدون من معــان وما يستخــــدمون من أدوات ، وشئون الالوهية فوق اللغات وفوق واضعيها ، فاذا أفهمنا الله بلغاتنا شيئا يتصل بذاته العليا فعلى أسلوب التنزيل والتقريب .

واذا كان عبد الله بن عباس يقول : انه ليس فى الدنيا من أوصاف الجنة الا الاسماء ، يعنى أن الحقائق لم ترها عين ولم تسمعهــا اذن ، فكيف بالحديث عن رب العالم وخالق الجنة والنار ؟

---

(١) البقرة ١١٥
(٢) ص ٧٥
(٣) الطور ٤٨

ان الرغبة فى فهم حقيقة العرش وحملته ! أو كيف يجيىء الله فى ظلل من الغمام ، وكيف يجيىء والملائكة صفا صفا ، هذا كله فهم مردود ، ومجازفة الذاهب فيها مفقود ، ومن الخير أن يعرف العقل أين ينتج فيتحرك ، والا سكن !!

وقد كنا ونحن طلاب ندرس مذهبى السلف والخلف بهدوء ، وبغتة لاحظت فى ايامنا تحاقدا بين ناس يتبعون السلف ، وناس يتبعون الخلف ، والامة الاسلامية تكـــاد تســـقط من الاعياء ومن ضربات الاعداء فعجبت لانفجار الخصومة فى هذا الوقت العصيب !

وقد رايت ان اثبت كلاما للدكتور الشـــيخ محمد عبد الله دراز فى الموضوع لعله يخفف من هذا البلاء قال : « ان كلمـــة اليد فى قوله تعالى « يد الله فوق أيديهم » (١) أو كلمة « اليمين » فى قوله « والســـماوات مطويات بيمينه » (٢) فسرهـــا العلماء المتاخرون بأنها تعنى القدرة ، وهو استعمال مجازى مشـــهور يقال لا يد لى بكذا اى لا قدرة عليه اما السلف الصالح فقد اشتهر عنهم انهم لا يؤولون هذه الظواهر بل يأخذونها على الحقيقة . والواقع انهم لا يمنعون اصل التأويل ، ولكنهم يسلكون فى تأويلها مسلكا علميا متينا يدل عـــلى علو كعبهم فى الفهم ، وانا احب أن افسره لكم لانه ينفعكم فى مواضع كثيرة .

قال : انه لمـــا دلت الادلـــة القاطعة عـــلى مخالفته تعالى للحوادث ، كان هذا قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى المعروف لنا ، فاذن هى مصروفة عن هذا الظاهر ، وكأنه يراد بها معنى مجازى ، لكننا لم تقم لنا قرينة معينة على تحديد هذا المعنى فى اغلب الايات ، هل المراد به القـــدرة ، أم الارادة ، أم صـــفة لا

---

(١) الفتح ١٠

(٢) الزمر ٦٧

نعرفها ؟ أم ليس هناك مجاز فى المفرد يشار به الى صفة معينة وانما هو كلام تمثيلى لتربية المهابة فى النفوس ؟ كل ذلك سائغ فى النظر ، وليس ثم دليل يعين واحدا بخصوصه ! لذلك وجب ان نقف حيث وقف بنا الدليل ، فلنثبت له تعالى ما أراده من كلامه على الوجه الذى أراده مع تنزيهه عن المعنى الذى نألفه من صفات المخلوقين !

قال : ترون من هذا أن السلف يجوزون المعنى الذى ذهب اليه المتأخرون ، على انه احتمال يحتمله الكلام ، ولكنهم لا يلتزمونه التزاما ، لان القول بالالتزام قول بغير دليل ، من اجل ذلك سكتوا عن الخوض فى تحديد معاني هذه الظواهر ، واكتفوا بمعناها الاجمالى المصروف عن الظاهر ... أما طريق الخلف ــ وهو الخوض فى تحديد التأويلات ــ فانما ألجأهم اليه والله أعلم ظهور بدع المشبهة والمجسمة وغيرهم ، فأرادوا سد باب الابهام ، ودفع الوساوس عن العوام ، لكيلا يخرجوا عن دائرة التنزيه ، ولا يحوموا حول التشبيه جزاهم الله خيرا بما قصدوا ، وغفر لهم تحديد ما حددوا .

قال : وجملة القول أن طريق السلف هو الاليق بالعلماء ، وطريق الخلف أصلح للعوام وأنصاف العوام !!

وأرى أن كلام الشيخ الجليل فيه خير كثير ، اننى فى دروسى وعظاتى اتبع مذهب السلف ، وعندما أجادل أهل الكتاب والماديين انتفع بمباحث الخلف !

وفى كل الاحوال أرفض تجريد الفلاسفة ، وتجسيم اليهود والنصارى ، ومن تأثر بهؤلاء وأولئك من ضعاف التفكير ..

٣٧ ـ كيف تفسر ما ذكره القرآن من ان السموات سبع والارضين سبع مع حقائق العلم التى ترى ان الارض واحدة والسماء فضاء ؟

ذكرت فى أكثر من كتاب أنه يستحيل ان يقع تناقض بين الدين والعلم ، فان العلم الصحيح وصف دقيق لجزء من ملكوت الله والدين الحق توجيه آت من عند الله خالق هذا الملكوت ، فكيف يحدث بينهما تكاذب ؟ .

ما أثار التساؤل يرجع الى ان الناس سمت شيئا ما دينا وليس بدين ، أو سمت شيئا ما علما وليس بعلم ! وقد يكون مثار التساؤل خطأ شخصيا من أحد المتكلمين فى الدين أو أحد المتكلمين فى العلم ، وما أكثر أخطاء الفريقين !

قال لى أحد الناس : ثبت أنه لاحياة الا فى أرضنا ، وأن الكواكب الاخرى ميتة لاحياة فيها ! قلت : هذا التعميم خطأ ، يمكن أن يقال : لا حياة بشرية ، أولا حياة نباتية ، أولا حياة لكائنات تعتمد على التنفس وتعجز عن الوجود فى درجات حرارة معينة !!

ومن قال : أن المخلوقات كلها على غرارنا ؟ « ماأشهدتهم خلق السموات والارض ولاخلق أنفسهم وماكنت متخذ المضلين عضدا » (١) انها جراءة أن يتحدث بعض الناس باسم العلمفينطق بالجهل ، ويبدو أن الامر كما يقول العقاد : هناك مقلدون فى كراهية التقليد !

---

(١) الكهف ٥١ .

هل يمكن ان تتلاقى هـــذه الكائنات وأن يعرف بعضهـــا بعضا ؟ من يدرى ؟ قد يقع ذلك « ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة ، وهو على جمعهم اذا يشاء قدير » (١) .

هناك أمر مستيقن ان بنى آدم مجموعون ليوم لاريب فيه ! وان هناك جنا سوف يحاسبون مثلنا لأنهم داخل دائرة التكليف ، اما ما وراء ذلك فلا ندريه ولعله لا يعنينا . . المهم أن هناك سموات معمورة بخلائق اخرى . . وفى الحديث « أطت السماء وحق لهـــا ان تئط — اى ضجت من ازدحامها — » .

ان السموات حق ، ولا نعرف كنهها ، والملائكة حق ، ولا نعرف كنهها . ولم نكلف بذلك ، وليس فى العلم ما ينافى ذلك !! بل ان الملائكة — كما افاد الدين — موجـــودة بين الناس ، وهى تؤدى وظائف منوطة بها فى الاحياء والامامة والمراقبة والتسجيل والالهام والتخذيل !!

العلم المادى لا يدرى ذلك ، وليس فى حقائقه ما يناقضه ، وآفة بعض المنتمين الى هذا العلم أنهم يريدون بالمنطق المادى ، أن يفهموا ما وراء المادة والا أنكروه وتلك حماقة لا يقرها العقلاء !

اما الكلام عن الأرض والأرضين فالسؤال يشير الى قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وان الله قد احاط بكل شىء علما » (٢) وقد تساءل المفسرون : هل المراد مثلهن فى العدد ؟ أم مثلهن فى الايجاد ؟

---

(١) الشورى ٢٩
(٢) الطلاق ١٢

والعلماء الكونيون يرون أن الارض ولداتها من المجموعة الشمسية كانت سديما ثم انفصلت أجزاؤه على النحو المعروف الان ، أى أن أصل الخلق واحد .

وأرجح هذا ، فان الارض لم تجيء فى القرآن الكريم الا مفردة، أما السماء فقد جمعت كثيرا جدا ..

وقد يكون المقصود من تعدد الارضين كثرة طبقات الارض، او ما طرأ على وجه الأرض من تغيرات ؟ والمعنى الأخير ساورنى وانا اقرأ فى علم « الجيولوجيا » هذه العبارات « لعل احدث فروع هذا العلم واخطرها أثرا « جيولوجية » الالواح المتحركة ! وهى التى أسفرت عنها دراسة انتقال موجات الزلازل ! فقد بينت الى حد بعيد أن القشرة الارضية التى يتراوح سمكها بين ٤٠ ، ٦٠ ميلا ، والتى كنا نظنها ثابتة ، تتكون من مجموعة من الالواح أو الدروع تغطى مسطح الارض ، بما فيه قاع المحيط ، وهى فى حركة دائمة بطيئة لا تتعدى نصف بوصة فى العام الواحد !

وهى اما متباعدة او متقاربة أو متحاكة جنبا الى جنب مما نتج عنه خلال الاحقاب الماضية أن ما يعرف بالقطب كان صحراء، وما كان جنوبا صار شمالا ، وأن الوضع الحالى للقارات والمحيطات فى تغير مستمر ! بل ان الصخور السطحية تغرق فى باطن الارض على خط التقاء الألواح المتقاربة ، لتصهر مرة اخرى — مع شدة الضغط وارتفاع الحرارة — ثم تعود الى سطح الارض مع مقذوفات البراكين .. » (١)

وما دمنا نتحدث عن العلاقة بين الدين والعلم فلنفرق بين نوعين من المعرفة الدينية ، هناك أحكام متطوع بها فى الدين كالايمان

---

(١) الجيولوجيا والانسان للأستاذ درويش مصطفى الفار مدير متحف قطر .

بالله الواحد ، والصلاة له ، وانتظار لقائه للحساب ! فهذه أحكام يستحيل ـــ كما قلنا آنفا ـــ ان يوجد فى العلم ما يكذبها .

اما وجهات نظر الفقهاء فى قضية ما وتفاوت تفسيرهم لنص من النصوص ، فتلك احكام ظنية يكتنفها الخطأ والصواب ، ولا يعتبر احدها الرأى الرسمى للاسلام ، انه رأى صاحبه ، وافق العلم المادى ام خالفه ....

ومن هذا القبيل مرويات الاحاد التى لم تبلغ حد التواتر ، فهى ظنية الثبوت ، يعمل بها فى الفروع ولا تنبنى عليها عقائد..

والامر فى ميدان العلم كذلك ، فهناك مقررات علمية مستيقنة لم يوجد فى الاسلام قط ما يخالفها .. وهناك نظريـــات تشـــبه الاجتهاد الفقهى عندنا ، لا يمكن التعويل عليها او التسليم المطلق بها ، وعسى أن ينقض البحث فيها اليوم مـــا أبرم بالامس ، وأن يهدم الغد ما بناه اليوم .

هذه النظريات العائمة لا نترك من أجلها رأيا لفقيه ، ولا حديث آحاد ! ولم ؟ وافتراض الصواب والخطأ واحد فى الطرفين ؟

اننا سنستبقى ما لدينا على حاله حتى يقطع الشك باليقين!

ويؤسفنا أن الكهـــان فى ميدان العـــلم أكثر من الكهان فى ميدان الدين ، وانهم يحاولون بجراءة ترويج نظريـــات مهتزة ، واكسابها أمام القاصرين طابع اليقين ...

٣٨ ــ هل تم جمع القرآن بطريقة تدحض كل شك وكيف تم جمعــه ؟؟

يوجد فارق ضخم بين تاريخ الاسلام ــ فى نشأته الاولى ــ وتاريخ الدينين السابقين عليه ، أعنى اليهودية والنصرانية . ان الاسلام تحول على عجل الى دولة قائمة لها سلطات وطيدة، أما النصرانية فلم تقم لها دولة الا خلال القرن الرابع لوجودها ، واذا كانت اليهودية قد صار لها جيش ووجود سياسى على عهد مبكر . فان كيانها قد تلاشى كل التلاشى بعــد قليل ، وضاعت مقدساتها كلها ...

ان هذا الفارق الكبير بين الاسلام وغيره يفسر كيف بقى كتاب الاسلام مصونا ! ، وكيف تعرضــت كتب أخرى للعوادى الماحقه ....

ظل النبى صلى الله عليه وسلم يتلقى القرآن الكريم فى مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة ، كان كل حرف ينزل يعيه الحفظة فى قلوبهم ويسجله الكتبة فى صحفهم ، وكان هــذا القرآن معروفا للعدو والصديق! أما المؤمنون فهم يستمدون منه النور الذى يمشون به ، وأما الكافرون فقد شد انتباههم كتاب يهاجم آلهتهم وينقض مواريثهم ويثير دهشــتهم ! حــاولوا أولا التهوين من شــأنه وقالوا : «لو نشاء لقلنا مثل هذا ، ان هذا الا اساطير الأولين»(١)

ثم تواصوا بافتعال الضجيج لــدى سماعه « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه .... لعلكم تغلبون»(٢) ولعمرى ان هذه لهى الهزيمة النفسية الموجعة ، ان تخاف سماع كلام معين لانه يغلبك !

---

(١) الأنفال ٣١
(٢) فصلت ٢٦

ثم جاء التحدى البالغ لهم « قل : لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله .. » (١) .

ان التحدى يتوجه الى قوم سمعوا القرآن وعرفوه عن خبرة وأدركوا أثر عجزهم عن مضاهاته !

المهم ان القرآن خلال فترة الضعف فى تاريخ الاسلام ، كان متميزا معروفا لا يلتبس بغيره ، ولا يلحقه نقص أو ازدياد ..

وانتقل نبى القرآن الى المدينة ، وهناك باشر سلطات رئيس الدولة من حكم بين الناس وعقد للمعاهدات وتوجيه للمصالح العامة وقيادة او بعث للجيوش هنا وهناك !

وظل القرآن ينزل عشر سنين أخرى ، الكتبة يسجلون باشراف الرسول عليهم ، والحفظة يختزنون العلم فى صدورهم ، وما يكتب ويحفظ تعاد تلاوته فى الصلوات الخمس ، فى قيام الليل، فى مجالس التلاوة ، فى خطب الجمعة ، الافراد والجماعات مقبلة على قراءة الكتاب العزيز .. !

وكانت مكانة المرء تعظم بمقدار اقباله على القرآن ، وكان النبى يرعى هذه المكانة حتى عند دفن الشهداء فهو يقدم فى اللحد أكثرهم أخذا للقرآن !

---

(١) الاسراء ٨٨

حكومة قائمة ترى القرآن دستورها ومنارها فهى تحفظه وتحافظ عليه وترسل الوفود به الى الافاق ، من أين يتطرق الريب الى كتاب هذه بيئته الاولى ؟

امة تعبد ربها بفقه كتابه وتجويد حروفه ، ودولة بكل أجهزتها تصون وتحمى ما عرفت الدنيا من بدء الخليقة مثل هــذا الصون لكتاب من الكتب .

ومضت دولة النبوة ، ثم جاءت دولة الخلافة الراشدة . ورجالها هم السابقون الاولون فى اعتناق الاسلام وحفظ آياته وكتابة مصاحفه !

وظلت هذه الدولة ثلاثين عاما شرق فيها الاسلام وغرب . واثر عن جيوشها انها كانت لا ينتهى لها هدير بالتلاوة آناء الليل واطراف النهار !

ومضت دولــة الخلافة ، وجــاءت دول أخرى كثيرة فماذا حدث خلالها للقرآن ؟

كان تواتره يمتد ليشمل أجيالا أخرى . وكانت مصاحفه تملأ المساجد والعواصم والدور والقصور ... وصدق الله العظيم « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » (١)

سأضرب مثلا لشرح ما اقصد — وان كنت على وجل من ضربه واستحياء — لقد وضعت الولايات المتحدة لها دستورا بعد حرب الاستقلال ، تضافر الامركيون حكومة وشعبا عــلى دراسته وتنفيذه،فهل يمكن القول بأن هذا الدستور حرف وشوه ؟

---

(١) الحجر ٩

وكذلك فعل الاتحاد السوفيتى ! فهل يمكن القول بأن ما وضعه الثوار الحمر تغير وتبدل ؟

اننى لا اشبه القرآن الكريم بهذه الوثائق — معاذ الله — فان القرآن لم يجىء من مصدر واحد هو الكتابة ، بل المصدر الاول لتلقيه قبل أن يكتب هو الحفظ فى الصدور ، وقراءته عن ظهر قلب ! وانما لفت النظر الى ان الدولة حين تقوم على دعامة ما فانها سوف تحمى دعامتها ، وتفرضها على الزمن .

وتحول الاسلام فى عهد مؤسسه الى دولة مكينة السلطان جعل الكتاب المعجز يحظى بالحياطة الشعبية والرسمية جميعا. وجعل كل حرف منه بين العيون !

أكذلك كانت الكتب السابقة ؟ لا .. اننا نؤمن بالتوراة النازلة على موسى كما علمنا الله « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور » (١) ونؤمن بالانجيل النازل على عيسى كما علمنا الله « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور » (٢) .

فماذا حدث للوحى السابق ؟ اغار أعداء بنى اسرائيل عليهم وهدموا الهيكل ومزقوا صحائف التوراة ولم يبقوا لهم أثرا يتمسكون به ... فلما تحرروا من أسرهم ، بعد امد طويل ،

---

(١) المائدة ٤٤
(٢) المائدة ٤٦

تقدم لكتابة التوراة من ذاكرته من تقدم فاذا الصحائف الجديدة ملأى بالغرائب !

من بضع سنين تقدم للقضاء الاسرائيلي جندى يشكو الضابط الذى يرأسه بانه اغتصب زوجته ، وتحدث محامى الضابط فقال : ان موكله مشهور بالاقدام والشجاعة ، ومثله ينبغى التجاوز عنه كما تجاوز الله عن داود الذى اغتصب امرأة « اوريا »ولم يكتف بالزنى ! بل اوصى بقتل الزوج المفجوع ، فقتل فى الميدان بحيلة مرسومة !!

ان هذا الدفاع كان مفاجأة للناس لكنه لم يكن مفاجأة للقضاة ، فهم يعرفون القصة فى كتابهم ، ولا اذكر بم حكموا فى هذه القضية ! وانما غاظنى ان نبيا كريما يتهم بالزنى والقتل ، ويراد جعل مسلكه اسوة !

وداود رجل برىء والصحائف التى لوثت سمعته وسمعة غيره من المرسلين هى التى يجب ان تحاكم !! فما اكثر ما بها من افتراء على الله والمرسلين !!

اما الانجيل الذى نؤمن بنزوله على عيسى فانه لا يوقف له على اثر ! والقصة كما يراها اتباعه ان عيسى ومن معه اعتبروا خارجين على القانون ، فقتل الحكم الرومانى عيسى بطلب من الشعب اليهودى وانتهت المأساة !

وقد الف تلامذة عيسى ــ هكذا قالوا ــ سيرا تضمنت ما يعلمون من عظاته ، وما يقال عن مصرعه !

وسميت هذه السير اناجيل ! وكانت اول الامر تبلغ العشرات ، ولكن تم اختيار اربعة منها هى التى اقرت قصة الصلب واعترفت بألوهية المسيح ..

وقامت للمسيحيــة القائلة بربوبيــة عيسى وصلبه دولــة رومانية فى القرن الرابع لميلاده .

ونحن المسلمين نعتقد ان التثليث لم يجىء به دين ولا نزل به وحى ، وان الأنبياء من عهد آدم الى محمد ، وفيهم عيسى نفسه دعــوا الى الــه واحد هو سـيد العالمين وربهم الفرد ، ومــا عداه عبد مخلوق لــه ...

والواقع أن القرآن الكريم هو السجل الجامع للعقيدة التى بلغهــا المرسلون ، وتواصــوا كابرا عن كابر أخــذ الناس بها وتنشئتهم عليها .

وقد حصنه القدر من التحريف والتغيير ، فتعدت القداسة الموضوع الى الشكل ، والمعنى الى الحروف فأصبح ضبط الالفاظ نفسها دينا ، وقراءتها عبادة ، وذلك حتى لا يعترى الكتاب الخاتم ما اعترى الكتب من قبل !

كان النبى صلى الله عليه وسلم ــ وهو رئيس الدولة ــ يجعل خطب الجمعة تلاوة لسور القرآن ، فى أغلب الاحيان وكذلك كان الخلفاء الراشــدون ، ومن الطرائف ان عمر خطب بســورة النحل يوما ، فلما بلغ آية السجدة نزل من المنبر فسجد وســجد الناس معه ، ثم خطب فى الجمعة التى بعدها بالسورة نفسهــا دون أن ينزل ويسجد فلما سئل فى ذلك قال : امرنا ان نســجد اذا نشاء ! يعنى ان سجدة التلاوة ليست فريضة .. !

وهاجم المشركون يوما رسول الله وهو يدعو الى الله الواحد وتدخل أبو بكر يذودهم عنه وهو يقول : « اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » (١) وهــذا بعض آية من سور غافر !

وصلى عمر الفجر بالناس يقرا سورة يوسف ، فلما بلــغ قوله تعالى على لسان يعقوب « يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » (٢) سمع نشيجه بالبكاء .

لقد كان القرآن ، ومــا زال ، شــغل الامــة الشاغل ، واهتمامها الدائم ، وهى تسمع نبيها يقول : — خيركم من تعلم القرآن وعلمه — ويقول : لا حســد الا فى اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل واطراف النهار ، ورجل آتاه الله ما لا وسلطه على هلكته فى الحق

ان الناس يقرءون القرآن الان ، كما نزل به امين الوحى على خاتم الرسل ، لا تغيير فى حرف ولا فى شكل

ومنذ اربعة عشر قرنا لم يتغــير شىء من هــذه الثلاثة . الشمس هى الشمس والقمر هو القمر والقرآن هو القرآن !!

---

(١) غافر ٢٨
(٢) يوسف ٨٤

٣٩ ـ ما الفارق بين القرآن ، والحديث القدسى ، والحديث النبوى

القرآن الكريم هو كلام الله تبارك وتعالى ، المسجل بين دفتى المصحف الشريف ، وهو المعجزة التى أيد الله بها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وتحدى مكذبيه ! وهو منقول بالتواتر ، ومتعبد بتلاوته ، ومعصوم الى آخر الدهر من أى تحريف

وكان العرب يودون لو جاءتهم خوارق حسية بدل تحديهم بكتاب يخاطب الالباب والافئدة ، وجاء على السنتهم ـ « لو ان قرآنا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الارض ، او كلم به الموتى .. » ـ (١) ، لا ، هذا قرآن تسير به الجبال وتقطع به الخرافات ، ويكلم به الاحياء !

وقد وقعت الخوارق التى يطلبون فما آمن منهم أحد لان العناد اعماهم ...

ولعل أفضل ما يوصف به القرآن ما جاء عن الحارث الاعور قال : مررت فى المسجد فاذا الناس يخوضون فى الاحاديث ، فدخلت على على رضى الله عنه فأخبرته ! فقال : أو قد فعلوها قلت : نعم ، قال : اما انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اما انها ستكون فتنة ، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ، قال : كتاب الله تعالى ..

---

(١) الرعد ٣١

فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعـالى ، ومن ابتغى الهدى فى غيره اضله الله تعالى . وهو حبل الله المتين . وهو الذكر الحكيم . وهو الصراط المستقيم . وهو الذى لا تزيغ به الاهواء ، ولا تلتبس به الالسنة ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا : ــ « انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به » ــ (١) من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم .

والحديث يفيد أن دراسة القرآن تسـبق دراسة السـنة او بتعبير آخر : لن يكون فقيها فى السنة قصير الباع فى فقه القرآن الكريم ، والكتاب والسنة معا دعائم الدين .

أما الحديث القدسى فهو كلام الله تعالى ولكنه لا يحتوى الخصائص القرآنية ، فليس معجزا فى عبارته ولا وقع به التحدى ثم انه لا يتعبد بتلاوته ، فلا تصح به صلاة .. واخيرا لم يصـل الينا بطريق التـواتر القطعى ، فالأحاديث القدسـية قد يكون فيها الصحيح والحسن والضعيف ، بل قد يكون فيها الموضـوع كحديث عبدى أطعنى اجعلك ربانيا تقول للشىء كن فيكون ، فانه لا أصل لـه .. !

---

(١) الجن ١ ، ٢

ويرى البعض أن الحديث القدسى من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عبر فيه الرسول عن مراد الله تعالى وكأن لسان الحال يقول كذا ، والجمهور على الرأى الاول ، وانه يشبه الوحى النازل فى صحف ابراهيم وموسى أى كلام ألهى غير معجز. ولم نكلف بتلاوة الفاظه والتعبد بها كما تقرر ذلك للقرآن الكريم..!

من نماذج الحديث القدسى الصحيح ما رواه مسلم عن أبى ادريس الخولانى عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله فيما يروى عن ربه عز وجل انه قال :

« يا عبادى ، انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ..

يا عبادى كلكم ضال الا من هديته فاستهدونى أهدكم ..

يا عبادى كلكم جائع الا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم !

يا عبادى كلكم عار الا من كسوته فاستكسونى أكسكم .

يا عبادى ، انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى اغفر لكم ..

يا عبادى ، انكم لن تبلغو ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى !

يا عبادى ، لو أن اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد منكم ذلك فى ملكى شيئا ..

يا عبادى لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على انجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا :

يا عبادى لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد وسألونى فأعطيت كل انسان مسألته ما نقص ذلك عندى الا كما ينقص المحيط اذا ادخل فى البحر !

يا عبادى انما هى اعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها،فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه ..

ومن نماذج الحديث القدسى الحسن السند ما رواه أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى :

يا بن آدم ، انك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا ابالى !!

يا بن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا ابالى !!

يا بن آدم لو اتيتنى بقراب الارض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لاتيتك بقرابها مغفرة !!

فى هذا الحديث جرعة منعشة للارادة التى غلبها اليأس من طول ما انهزمت فى الحرب السجال بين الخير والشر أو بين العصمة والسقوط ، والمراد أن تفيق لتستأنف سيرها الى الله ، وتلزم الصراط المستقيم فالحديث هنا يشبه قوله تعالى « يا عبادى الذين اسرفوا

على انفسهم لا تقنطو من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا الى ربكم واسلموا له » ... (١)
وليس الحديث تهوينا من مغبة الانحراف كما يتصور الجهال .

وشيء آخر ، نلفت البصائر اليه ان آفة الكثيرين من العصاة هى عبادة النفس ! اعنى أنهم يعبدون انفسهم من دون الله ، او يشركون أنفسهم مع الله ، ويقدمون هواهم على دينه .

ومن برىء من هذه الاثرة الغبية ، ووقف أمام الله ، أو لقيه هاضما نفسه ، بادى الفاقة اليه وحــده ، فهــو اهل لان يحظى بمغفرته .

وذلك فى نظرى السر فى رفض الله سبحانه لاى شىء يعتبر شريكا له ، ان اى شىء يعكر حقيقة التوحيد ، مهما كان امره ، بشرا أو حجرا أو مالا او جاها هو صدع هائل فى الايمان !!

---

١ ــ الزمر ٥٣

اما الحديث النبوى فهو ما ينسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو حكم او تقرير ، فان الرسول الكريم امام الامة ، واسوتها الحسنة ، وله عليها حق الطاعة ، كما بين الله ذلك فى كتابه « واطيعوا الرسول لعلكم ترحمون » (١) « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٢)

وبعض الناس لا يفقه معنى الرسالة ولا مكانة الرسول ، ويحسب ان القرآن وحده كاف فى هداية الناس دون بيان من صاحبه، ودون تطبيق عملى يوضح مراد الله من عباده وهذا خطأ بالغ ، فان القرآن ليس لقطة عثرنا عليها فى فلاة ، ولا كتابا نظريا يستطيع كل امرىء ان يفسره على هواه ضاربا عرض الحائط بتوجيهات من نزل عليه وكلف بتبليغه !!

والحق ان تجاهل السنة النبوية جهل فاضح بقدر اعظم رجل فى تاريخ الانسانية الطويل .

ان محمدا — لو لم يكن رسولا — لكان لنفاسة معدنه ، وطهر سريرته ، ومجادة نفسه ، اهلا لان يسمع نصحه ! فكيف وهو بالرسالة التى اختير لها — قد اتصل بالملأ الاعلى ، واضحى معصوما فى كل ما يصدر عنه « وما ينطق عن الهوى » (٣)

انه عندما يتكلم يبلغ عن الله ! ويصدر عن فؤاد موصول بنور السماوات والارض ، وكما قال الله له : « وكـذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنتتدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم..»(٤)

---

(١) النور ٥٦
(٢) النســاء ٨٠
(٣) النجم ٣
(٤) الشــورى ٥٢

ونختار من الحكمة النبوية هذا الحديث الشريف ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة ، ولا ينظر اليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم :

رجل على فضل ماء بفلاة يمنعه ابن السبيل ، يقول الله له يوم القيامة : اليوم أمنعك فضلى كما منعت فضل ما لم تعمل يداك .. !

ورجل بايع رجلا بسلعة بعد العصر فحلف له بالله تعالى : لقد اخذها بكذا وكذا تصدقه واخذها وهو على غير ذلك .. !

ورجل بايع اماما لا يبايعه الا لدنيا ، فان اعطاه منها ما يريد وفى له ! وان لم يعطه لم يف له .. !!

وجمهور المسلمين على ان طاعة الرسول من طاعة الله سبحانه ، وأن من قرر عصيان رسول الله ، ورفض ما امر به أو نهى عنه . فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه ..

والواقع ان من يترك حديثا ما من المرويات التى بلغتنا ، لا يفعل ذلك تمردا على صاحب الرسالة ، وانما شكا منه فى صدق ما نسب اليه ، أو فى المعنى المراد منه .. !

بيد أن السنة الشريفة ليست كما يتصور البله ، كلاما جمع بطريق الجزاف أو سجل دون وعى !! لا ، ان جميع الضوابط التى يمكن حشدها لضمان الصدق والدقة قد اتخذها علماء المسلمين .

ثم ان السنة العملية ، وصلت الينا بطريق التواتر ، الذى وصل به القرآن نفسه ، فلا مجال لانكار صلاة او زكاة من الصلوات المكتوبة ، أو الزكوات المحسوبة ...

٤٠ ماذا لو تعارض الحديث مع القرآن الكريم ؟؟

لا يتعارض حديث مع كتاب الله أبدا ! وما يبدو حينا من تعارض هو من سوء الفهم لا من طبيعة الواقع ، وذلك مثل حديث « لن يدخل احد الجنة بعمله » وقوله تعالى « ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون»(١)

الفهم الصحيح للموضوع كله ، انه لابد من عمل ينال به المرء رضا ربه ، ويستحق رحمته ، فالجنة ليست للكسالى والاراذل بيد أن العمل المقبول هو المقرون بالتواضع لله ، وانكار الذات ، والقلق من أن يرفض رب العالمين العمل المتقرب به لان عيوبه لا تخفى عليه ، أو لانه دون حقه ، أو لاى سبب آخر . .

فمن تقدم بعمل وهو شامخ الانف ، ليس فى حسابه الا انه تدم العمل المطلوب للجنة ، وعلى الله أن يسلم له المفاتيح ليدخلها بعد ما امتلكها بعمله !! هذا المغرور لا يقبل منه شىء ، ولا مكان له فى الجنة .

أما من جاء خاشعا خفيض الجناح ، شاعرا بالانكسار لانه لم يقدم ما الله اهل له ! فانه يدخل الجنة بعمله !

والدلائل على هذا المعنى كثيرة ، وما يعقلها الا العالمون !

ان السنة بحر متلاطم الامواج ، وما يستطيع فهمها على وجهها ! الا فقيه يدرك ملابسات كل قول ، والمراد الحق منه !

---

(١) النحل ٣٢

كان النبى عليه الصلاة والسلام ظل يكلم الناس ثلاثا وعشرين سنة ، اختلفت فيها الاحوال ، وتباين الافراد وتشعبت القضايا..

ووضع كل حديث بازاء المقصود منه ، او معرفة النطاق الذى يصح فيه ، هو عمل الفقهاء . وهو عمل لامناص منه والا حرفنا الكلم عن مواضعه !

والمحزن ان ناسا لافقه لهم تكلفوا ما لايحسنون من قراءة للسنة ، وافتاء بها ، فأساءوا ولم يحسنوا ؛ وهم الان حجر عثرة فى طريق الدعوة الاسلامية !

بعضهم فهم ان الاسلام يشن حرب العدوان ويأخذ الناس على غرة دون دعوة الى دين !

وبعضهم فهم ان مستقبل الامة الى ضياع لانه لا يجيىء يوم الا والذى يليه شر منه !

وبعضهم فهم أن الغنى مضاد للتقوى ، وان الفقر اخو اليقين وطريق الاخرة !

وبعضهم فهم أن القدر تحويل قسرى للمرء من طريق النجاة الى طريق الهلاك أو العكس لان العلم الالهى سبق بذلك !!

وسبب هذا الخبط اشتغال الدهماء بالسنة ، دون أن يكون لديهم رصيد من الحكمة القرآنية ! ودون ان يكون لديهم ذوق أدبى بأساليب الادب العربى ، ودون ان يكون لديهم بصر بأغوار النفس الانسانية ، وأحوال المجتمعات البشرية ، ودون دراسة

عميقة للسيرة الشريفة ، وما حفل به ربع قرن من احداث جسام وشئون وشجون ! ودون تفريق بين ما هو عادى وما هو عبادى .

فالسنة عندهم الاكل على الارض ، لا على مائدة . وتنظيف الفم بالسواك لا بالفرشاة والاستنجاء بالاحجار لا بالاوراق ، وارخاء ذيل العمامة على الاقفية ، وايثار الابيض من الملابس الفضفاضة ، وضرب النقاب على الوجه حتما ، وذلك بالنسبة الى النساء !

والواقع ان العادات البدوية عدت سنة نبوية ، ولما كان العرب يؤخرون المراة فى المكانة فقد منعت باسم الاسلام من التردد على المساجد ، ومن تلقى العلم فى المدارس ، ومن جهاد الكلمة أى جهاد الامر والنهى ! ومن اى مشاركة فى جهاد عسكرى الخ ...

والعارفون بالسنة المطهرة يدركون بطلان هذه التقاليد . ومنافاتها للكتاب والسنة،ومع ذلك فان الدهماء المتحدثين فى الاسلام يقاومون الحق بعصبية ، ويرمون غيرهم بالانطلاق مع المدنية الحديثة .

والذى اراه ان السنة ركن الاسلام بعد القرآن الكريم ، ولكن لا يشتغل بتفاصيلها الا الفقهاء ، ومن يعنيهم الامر من الولاة والقضاة والدعاة ، والاخصائيين فى اى مجال يحتاج الى الالمام بهذه التفاصيل ..

اما رجل الشارع أو الشخص العادى ، فان اربعين حديثا تكفيه وتغنيه ...

وعلى اية حال ما يجوز لجاهل بالقرآن ان يحدث الناس او يتصدر للفتوى فى شئونهم !

لقد رأيت أغيلمة تشتغل بالسنة ، انتهى امرها بالهجرة الى اليمن لعلها تبدأ من هناك نهضة اسلامية !! نهضـــة بعيدة عن فته الحياة والاستمكان من الدنيا ! لعل صالحى الجن ســوف يمدونهم بالمتفجرات فى ميادين الحرب ، او بالغذاء والكساء والدواء فى ميادين السلام ... والجنون فنون !!

نحن نستمد معاقد الايمان وأركان الاسلام وأعمدة الاخلاق والمعاملات من الكتاب والسنة معا ، والسنة العملية التى وردت بطريق القطع تفسير مستيقن للقرآن نفسه ، وعلى ضوء هـــذا نصلى الخمس ، ونحج البيت ، ونعرف الكيفيات لهذه الفروض من السنة العملية . وهناك أحكام كثيرة فى الفروع اجمـــع عليها الفقهـــاء ، ولا يخرج عـــلى هـــذا الاجمـــاع مؤمن ، اما ما كان موضـع خلاف ، فالامر فيه على الاتساع ، يعتنق أى مسلم مـــا شاء من وجهات النظر العلمية دون حرج ..

قال الفقهاء : والسنة المشهورة تخصص عموم القرآن فالاولاد مثلا يرثون اباهم بنص الاية « يوصـــيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين..الخ » (١) وقد جاءت السنة بأن القاتل لا يرث اباه الذى قتله . كما جاءت السنة بأن الكافر لا يرث اباه المؤمن ..

وقد تقيد السنة نصا جاء فى القرآن الكريم مطلقا فالاية تجعل الام من الرضاع محرمة كالام نفسها ، وكذلك الاخوات قال تعالى « ... وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم واخواتكم من الرضـــاعة » (٢)

---

(١) النســـاء ١١
(٢) النســـاء ٢٣

وجاء فى السنة ان ذلك ليس على اطلاقه فلا تحرم رضعة ولا رضعتان ، ويرى عدد من الائمة ان اقل من خمس رضعات لا يفيد التحريم !!

وبقى ابو حنيفة ومالك على القول بالتحريم المطلق !

والذى اميل اليه ان الامومة لا تتكون الا من رضاع كثير ، فاذا ورد فى السنة ان الحد الادنى لذلك خمس رضعات ، او عشر كما يرى البعض فهو قيد جدير بالرعاية !

وقال تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » (١) ، ولكن السنة بينت انه لا يقتص للفرع من الاصل فاذا قتل اب ابنه عوقب بغير القتل ! ، والسبب ان هذا القتل شذوذ عن سنن الاباء الذين قد يفتدون ابناءهم بحياتهم ، ويحيون كادحين ليوفروا لهم السعادة !

لابد ان هذا القتل لا تصحبه نية الاجرام ، وانه وقع تحت ضغط جنون طارىء !

ويرى مالك انه لا قصاص الا اذا كشفت التحقيقات أن الاب رجل متوحش مجرد من مشاعر الحنو ، فكر ودبر لغرض خسيس ! ويرى غيره الغاء القصاص مطلقا امضاء للسنة !

وهذا التخصيص او التقييد هو تفسير ممن تلقى الوحى للمراد الإلهى ، ومن احق من نبى القرآن بتفسيره ! ولا يسمى معارضة للقرآن الكريم ، بل هو بيان وتوضيح .

---

(١) البقرة ١٧٩

وتستقل السنة بانشاء احكام الى جوار ما شرع فى القرآن ، واى ضير فى هذا ! قالوا : مثل المسح على الخفين يدل شريعة الغسل ! ومثل تحريم الذهب والحرير على الرجال .. الخ

والتحقيق ان تشريعات السنة كلها داخلة فى نطاق القرآن الكريم ، ودلالاته القريبة والبعيدة وعندى ان المسح على الخفين ليس من انشاء السنة بل هو معنى القراءة الثابتة « امسحوا برءوسكم وارجلكم الى الكعبين » (١) بكسر اللام عطفا على ما قبلها . والتعبير مجازى كما يقول علماء البلاغة ، اطلق الحال واراد المحل !!

اما تحريم الذهب والفضة فسدا لابواب الترف ! واظن ماورد من تحريم استعمال الجرس فلحماية شعيرة الاذان ، والا فلا مانع من استعمال الجرس للانذار او فى الساعات المنبهة ، او فى الهاتف او فى أعناق الدواب مثلا ..

ولفقهاء الحنفية كلام فى هذا الموضوع أورده هنا لانى ميال اليه . انهم يرون ان الفرض والمحرم لابد فى اثباتها من نص قاطع . ومعنى هذا أن خبر الواحد لا ينهض على اثبات حرمة او اثبات فرضية ..

ويعنى هذا ان الاحكام الشرعية تزيد اثنين فوق ما قرره الائمة الاخرون !

---

(١) المائدة ٦

الائمة يقولون : الواجب ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه . والمحرم بالعكس ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه . والمندوب ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه والمكروه ما يثاب على تركه ولا يعاقب على فعله ، والمباح ما استوى فيه طرفا الفعل والترك.

ويرى فقهاء الحنفية أن ما أمر به حديث آحاد لا يرتفع الى درجة الفرض ، ويسمى لديهم واجبا يؤمر بفعله ويلام على تركه ، وما نهى عنه حديث آحاد لا يرتفع الى درجة المحرم بل يؤمر بتركه ويلام على فعله ، ويأخذ حكم الكراهة التحريمية ، وهم يطلقون هذا الحكم على ما أنفردت السنة بحظره كلبس الحرير والذهب للرجال مثلا .

لا فريضة عندهم الا بنص قطعى ، ولا تحريم الا بنص قطعى ، ولا تحريم الا بنص قطعى ، وأخبار الآحاد عند الجمهور لا تفيد إلا الظن العلمى ، وشذ بعض الحنابلة فروى عن امامه انها تفيد القطع ، وهذا فهم مردود !

٤١ ـ هل الصورة التى رسمها القرآن لخلق آدم حقيقية أم رمزية ؟ وما معنى الحديث « خلق الله آدم على صورته » ؟؟

ظاهر ان الذى أوحى بهذا السؤال ما كتبه « داروين » عن اصل الانواع . وما أعلنه من راى فى قضية النشوء والارتقاء .

ومع ان النظرية منقوضة من جوانب كثيرة ، ومع ان هناك من علماء الاحياء من رفضها جملة وتفصيلا،فان اعدادا من الناس لا تزال تروج لها ، بل ان هذه النظرية لاتزال تدرس فى بلادنا وكأنها حقيقة علمية !

والسبب فى ذلك إن سدنه المذاهب وسماسرة الالحاد الزاحف من الشرق والغرب يريدون اقناعنا بأننا من الارض وحدها تخلقنا، وان الروح الذى نسمو به ونسود بقية الاحياء لم يجىء من الله ! فهم لا يعترفون به !! انه ظاهرة ارضية بحتة !

وانا رجل مسلم ، اشعر بأن نسبى السماوى ازكى من نسبى الارضى واحق بالتقديم ، واننى ابن آدم الذى خلقه الله من تراب الارض ، ولو استبقاه على هذا الطور من الايجاد ما كان له شأن يذكر !

ان آدم اكتسب مكانته وكرامته بعد ان نفخ الله فيه من روحه بهذه النفخة العلوية اضحى كائنا جديرا بأن تسجد له الملائكة وتحيى فى وضعه الجديد الابداع الالهى وحسن التقويم وعبقرية العقل وسناء المواهب !! « واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأمسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (١) !

---

(١) الحجر ٢٩

لولا هذه النفخة لكنت نوعا من الانواع التى تحدث «داروين» عنها ، ولكنت من أسرة متفاوتة الافراد من زواحف وسباع ومن طيور وانعام !!

اننى أومن بان الله خلقنى ونفخ فى من روحه ، واذا كان ابى آدم صور من طين مباشرة ، فأنا من سلالته على طول المـــدى . وقد قال الله فى وفى اخوتى من أبناء آدم « الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالـــة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه » (١) .

والنفخة التى سرت فى أوصالى وجعلتنى خلقا آخر تستحق التأمل العميق ، اننى الان واحد من خمسة آلاف مليون بشر هل نحن خمسة آلاف مليون نسخة من كتاب واحد ! كلا ، انه كمـــا تختلف بصمات اصابعنا ، وملامح وجوهنا تختلف مواهبنا الفكرية. ومشاعرنا النفسية

لكل قلب همومه واشواقه ، ولكل عقل مجرى تفكير وقدرة استنباط ، أى ان النفخة هنا !

فاذا كان ذلك فى عصر واحد فماذا عن نهر الحياة الدافق من بدء الخليقة ! وماذا عن اجيال البشر الذين يتوارثون عمارة هذه الارض ما شاء الله !

ان الله العظيم الذى أشرف على كل جنين ، وتابع أطواره حتى اكتمل وزحم القرون بين أن هذه الحياة الانسانية المذهلة شىء صغير بالنسبة الى ما خلق من عوالم لا ندريها ! اليس القائل :

---

(١) السجدة ٧ — ٩ .

« لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لا يعلمون » (١)

ان الشبه واحد بين اسماع الناس وابصارهم اى بين مظاهر الحياة الانسانية العادية ، ولعل ذلك ما جعل شوقى يقول يا نفس مثل الشمس انت أشعة في عامر ، واشعة في بلقع ! فاذا طوى الله النهار تراجعت شتى الاشعة والتقت فى المرجع !

ان الغروب الذى يطوى الاشعة فى رأى العين فيبدا الليل ، كالموت الذى يسترد السر الالهى فتنتهى الحياة .

لكن الشمس تغرب من ناحية لتطلع فى اخرى ، والنفس تموت بيننا ، أو تختفى بيننا لتستأنف وجودها فى عالم آخر !

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يشير الى هذا المعنى عندما يقول فى كل صباح « اصبحنا واصبح الملك والحمد لله لا شريك له لا اله الا هو واليه النشور » وعندما يقول فى كل مساء « امسينا وامسى الملك لله والحمد لله لا شريك له لا اله الا هو واليه المصير »

ومع البعث تبدا الخصائص الالهية فى كل نفخة تقدم حسابها الخاص بها ، ولكل امرىء حسابه على قدر ما أعطى من مواهب وامكانات « لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها » (٢) « فلا تزكوا انفسكم هو اعلم بمن اتقى » (٣) .

وعلى اية حال فانى قد ادرى ان جسمى يتكون من تراب هذه الارض ، لكنى لن اصدق ابدا ان الحب والبغض والرجاء واليأس والذكاء والغباء والذكر والنسيان معان نبتت مع العشب والكلأ ، وجاءتنى من تراب هذه الارض !

---

(١) غافر ٥٧
(٢) الطلاق ٧
(٣) النجم ٣٢

ثم شيء آخـر يجعلني أحس بأبى آدم ، وبأنه حقيقـه لا يبليها تطاول العصور . ذاك هو وحدة الشعور والفكر بيني وبينه ، ان الله أسكنه دارا حسنة وسط حديقة يانعة ، فيها مُـا يغني ويكفي وقال لـه : « اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منهـا رغدا حيث شئتما . . . ولا تقربا هذه الشجرة » (١) بيد ان الانسان يريد اكتشاف المجهول ولو كان تافها ، يريد الحصول على الممنوع وان كان مؤذيا ! فى الحلال الطيب سعة او فى دائرة المباح متنع ! لكن آدم ابى الا الجرى وراء الوهم . . .

وكانت لـه آمال باطلة يود لو تحققت ، انه يحب الخلود . ويحب أن يكون ملاكا !! يا أبانا ما تبغى ! ان الله اسجد لك ملائكته فكيـف تنزل دون مكانتك ! وجعل الى مشيئتك البقـاء فى الجنة والتقلب فى رياضها فماذا تخاف !

وعرف الشيطان مكان الضعف من نفس ابينا الطامع ! فحلف لـه بالله ان امانيه سوف تتحقق ان هو اكل من الشجرة المحرمة .. وكان صوت النهى قد بدأ يخفت ، ومضى زمن عـلى الحظر المفروض كانت الامانى الباطلة خلاله لا تزال على شدتها ، ولم ييأس الشيطان من مهمته فظل يوسوس ، ويغرر بالاب الذاهل . حتى دحرجه من مكانته ، واخرجه من جنته تذكرت قول المتنبى : وفى الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جلده ! ولكن قلبا بين جنبى مـاله .. مدى ينتهى بى فى مراد احده ! بخير ان يكسى شـغوفا تربه فيختـار أن يكسى دروعا تهده !

لقد مضى المتنبى مع طمعه فى الامارة والجاه ، واثار الغبار وراء ركضه ! مدح وهجا ، وخاصم وسالم . واشتبك مع الاقيال

---

(١) البقرة : ٣٥

والانذال ، وفى ليلة ليلاء لقى مصرعه على أيدى جماعة من الموتورين فمرغت الحكمة والشعر فى الثرى ! واجهز الموت على تطلعات الرجل الذى لم يرضه شىء !

اننا أبناء أبينا غفر الله لـــه ، ما اشبهنا به وما اشبهه بنا !

لكن أغلى وأعلى ، ما فى قصته لم يذكر بعد ! لقـــد تذكر الناسى ، او صحا الذاهل ، وعرف آدم أنه ضل الطريق ، واضاع تقواه وراء وهم ، واغضب ولى نعمته ! فوقف مع امراته يجأران بهذا الدعاء : « ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » (١) .

وهبطا الى الارض . وارسل الله ســبحانه من يتلو علينا خبرهما لنتعظ ! ان قصـــة الانســـانية فى حياة آدم هى قصـــة الانسانية فى حياة نبيه ، خطيئة ومتاب . . . فما هى قصة الانسانية عند الملاحدة ! جراثيم وجدت من غير موجد ، ظلت تتعارك ليبقى الاقوى ، وظل الاقوياء يتعاركون حتى استطاع الانسان الغلب على غيره من الدواب وأن يسودها ، فبلغ الانسان بجدارة قمـــة المملكـــة الحيوانية ! وامسى ســـيدا للفيلة والحمـــير والارانب والسباع . . !! لقد ساد اخوانه فى سباق شريف !

ان القصة بهذا السياق أكذوبة حقيرة . .

ومع ان « داروين » قال : أنه لا ينكر الالوهية ! فـــان كلامه مضطرب متهافت ، وهو منته آخر الامر الى قطع الصلة بين الانسان ، ورب الارض والسماء . .

أما حديث أن الله خلق آدم على صورته فقـــد قبله اغلب المحدثين وفسروا الصورة بالصفة ! يعنون ان الله لمـــا نفخ من

---

(١) الاعــراف ٢٣

روحه فى الكيان المادى لادم اصبح آدم بهذه النفخة حيا ، قادرا ، مريدا ، سميعا ، بصيرا ، متكلما .. الخ

وظاهر من تكوين آدم أن العقل الذى أضاء فى دماغه علمه الكثير مما يعمر الكون ، وبصره بما تعجز الملائكة عن ادراكه « وعلم آدم الاسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا»(١)

وقـــد انطلق بنو آدم فى الارض بمواهبهم العليا وغرائزهم الدنيا ، وتعرضوا لامتحانات هائلة ولا يزالون فى ضوضاء المعركة وبأسائها ، الى يوم الفصل !!

ومن العلماء من يقول : خلق آدم على صورته ، اى صورة آدم نفســـها فلم يعرض لهـــا تغيير عن الاصل ، ولن يعرض فى المستقبل ، اى لا تطور !

ورايت لبعض الكتاب طعنا فى الحديث ! يقول : ان أبا هريرة نقل هذه الجملة عن كعب الاحبار ، وهو يهودى الاصل ، والجملة موجودة فى سفر التكوين أول أسفار التوراة ، فانخـــدع بهـــا ابو هريرة ورواها حديثا !

والذى اراه ان وجود الجملة فى التوراة لا يعنى انها موضع ريبة ، وأن المعنى الصحيح لها قـــائم ومقبول ، وليس للاتهـــام دليل ...

---

(١) البقرة ٣١ ، ٣٢

٤٢ — هل يؤخذ القرآن بنصه ، ام على اساس الظروف التي نزلت فيها آياته ؟؟

يندر ان يكون المرء شريرا من جميع نواحيه ، اندر من ذلك ان يكون — مع غلبة الشر عليه — شريرا فى جميع الاوقات

السمة الغالبة ان يخلط الانسان عملا صالحا وآخر سيئا ، وأن تمر به فترات صحو تبدد غيومه بين الحين والحين .

والمخـوف من الانســان الــذى يصــحو ويغيــم ، ويكبو ويقوم ، أن يفلسف انحرافه الذى يعروه ليجعلــه مسلكا عاديا أوامر لا يجوز التنديد به والتوبيخ عليه ، وان جاز لضرورة فلتكن الكلمات خفيفة الوقع ، وتوطئه للعتبى !

استمعت الى النص البدوي الذى يسوغ سرقته قائلا

ولا اسأل الجبس اللئيم بعيره   وبعران ربى فى البلاد كثير !

وقلت : هذا رجل يكره ان يقبل البعير صدقــة ، ويكره ان يأخذه عارية ، لانه يكره أعطية اللئام ، لماذا تكون يده السفلى ! فليذهب الى الصحراء أو الى البيوت وليسرق اى بعير ! ولا جميل لاحد ! !

ان السرقة فى منطقة استجابة لرغبة نفسية طبيعية !

قلت : لو حمل هذا الرجل اجازة علمية فى القــانون ، فلن يعاقب سارقا ولو حدث عن حد السرقة لارعد وازبد وهاج وماج وقال : لا عود الى الوراء ، لا نريد وحشية !

ولو أن انسانا عاش فى بيئة اعتادت السطو على الاعراض أو تسلل اليها الشذوذ ، فأصاب وأصيب منه واعتدى واعتدى عليه ، فانه سينظر الى الحياة من خلال جوانبها الاخرى التى لم يتدنس فيها ، ويحاول تضخيمها والتعويل عليها وحدها ، والنظر الى المباذل التى تلوثه على انها هنات ينبغى التجاوز عنها وعدم الوقوف عندها ..

وهذا ومثله لو ملكوا سلطة التشريع لجعلوا العلاقات الجنسية كلا مباحا ، فى حدود التراضى طبعا ، كما هو الشأن فى القوانين الاوربية !

اننى أفهم أن يقع الخطأ ، لكنى لا افهم ان يتحول الى قانون !

وقد يستكبر انسان ! لكن ما معنى أن يعتذر عن ابليس ! ويفلسف تطاوله على الله تبارك وتعالى !

وقد ينزلق امرؤ فى الوحل ! المفروض أن ينهض ويصلح شأنه ويغسل درنه ! أما أن يتغزل فى الطين ، ويرمى به وجوه السائرين فهذه دناءة غليظة !

يؤسفنى ان ناسا كثيرين بدل أن يصلحوا أنفسهم يريدون افساد القانون ، وذلك هو السر وراء المحاولات المجنونة لتعطيل الشرائع السماوية ، وهى محاولات نجحت بين أهل الكتاب الذين سبقونا ، فأمسى الوحى حبرا على ورق .

ويراد فى كبوة الاسلام المعاصر أن يفعل المسلمون مثل ما يفعل غيرهم فتوضع شرائع الاسلام على الرف أو يحكم على بعضها بالاعدام تمهيدا لانفاذ الحكم فيها كلها .

والامر لا يحتاج الى الحيلة ، فلنقل : اننا نتجاوز النص الى روح النص ، أو لنقل ان الظروف التى نزل فيها النص قد طرأ عليها تغيير ، فليتغير النص تبعا لذلك !!

ما أسهل تطويق الاسلام بهذه الطريقة ! وجعله اسما لا حقيقة له ، أو جعله شكلا لا موضوع له !

وقد بدأ سماسرة الاستعمار تنفيذ الخطة ، فسمعنا من يقول : ان الضرائب تغنى عن الزكاة ! ومن يقول : ان الصلاة والصيام يعطلان الانتاج ، فلا حرج من التنازل عنهما ! ومن يقول : انما حرم لحم الخنزير لقذارة مراعيه قديما وقد زالت الآن هذه العلة ! ومن يقول : ان العربدة فى الطريق هى سر تحريم الخمر ، فمن تناول منها قليلا فى بيته فلا حرج .. الخ

وهكذا ، تنهد اركان الدين وتضيع معالم الحلال والحرام باسم « روح النص » « وتغير الظروف » ويمنع انتفاع الناس بالاسلام ، بل يمنع دخولها فيه ! وينفسح المجال بعد ذلك للالحاد أو للاديان الخرافية !!

ومعروف أن تعطيل شرائع الحدود والقصاص ، كان تمهيدا للقضاء على العبادات والعقائد والتاريخ والتراث والادب واللغة ، وسائر مقومات الامة ..!

ونحن اذ نوصد الباب فى وجه الاستعمار الثقافى نفتح الباب على مصراعيه أمام أولى الالباب ، ليحسنوا فقه الاسلام وعرضه، ونذكر بدءا اننا لسنا من المتعصبين للفقه الظاهرى،بل على العكس نحن مع الجمهور على أن القياس من أدلة الشريعة ، ومع اغلب الفقهاء فى رعاية المصلحة المرسلة ، واحترام جملة القواعد التى تحكم الفكر التشريعى عندنا ..

والحق أن علم أصول الفقه علم جليل القدر ، وهو كما قال الشيخ مصطفى عبد الرازق أدل على خصائصنا من الفلسفة الاسلامية ..

لكن علم الاصول مجمد فى كتبه ، والمسيرة فى القرون المتأخرة تكاد تكون متخلية عنه ! والعالم الاسلامى تحكمه بعض الآراء الاجتهادية التى لقيت حظوة عند فريق من الناس ، ثم قامت عليها تقاليد راسخة ، ثم اعتبرت هذه التقاليه هى الاسلام بعينه،واعتبر تركها خروجا على الدين ، وربما وصف تاركوها بالارتداد !!

اذا كان ذلك ما دعا الى الكلام عن النص وروح النص - والظروف وتغاير الظروف ، فللموضوع وجه آخر ، وان لم يحسن أصحابه الكلام فيه ، أو تصوير شكاتهم كما يجب !

أعرف مجتمعات حبست فيها الوف الفتيات لأن الكفء لم يتقدم ! من الكفء المرتقب ؟ أستاذ فى العلوم ؟ محام قدير ! اديب رائع ؟ تاجر ناجح ؟ شاب تزينه التقوى وخدمة المثل ؟ لا ، لا كفاءة وراء هذه الخلال كلها ! المهم النسب الفارغ ، والمكانة المدعومة بالمال الكثير !.

وقضية الكفاءة يسندها فقه معين ! ، لكن هناك فقهـــا اسلاميا آخر يقول ان الزنجى المسلم كفء لبنت الخليفة الهاشمى لا ، هذ فقه مهمل ! لمـــاذا لا يكون الاهمال نصيب الاجتهـــاد الأول ؟ هذا ما حدث !

فهل الدين من حيث هو عقيدة وشريعة ـ يزدرى بسبب هذا الذى حدث ؟؟

انه لا شكاة من نص معين ، لا شـــكاة من امر أو نهى عن محـــرم ، الشكاة من فهم ضيق لأحـــد النصـــوص او من واجب لم يرد به أمر ، او من تحريم لا يسنده نهى !!

وعلاج هذا الخلل ميسور ، بل هو عمل المجددين والمصلحين والدعاة الفاقهين ..

قال لى أحد الناس : ان اعطـــاء الأنثى نصف نصيب الذكر موضع ضيق من المثقفين فى الغـــرب ! وهم يرون المســـاواة بين الجنسين ، واهمال هذا النص !

قلت : ان هذا النص جزء من خطة اجتماعية كبرى تجعـــل نفقة الفتاة مسئولية الاسرة لا مسئوليتها الشخصية ، وقد ساوى الغـــرب بين الذكر والأنثى فى طلب الرزق ، وخـــرجت الفتـــاة للكدح من سن السادسة عشرة ، فماذا حدث ؟

ان الغربيين يجب أن يخجلوا من الادران الجنسية التى تلف بلادهم وتلطخها بالعار لتكليف المرأة بالتكسب منذ صباها الباكر ، والزعم بأن الجنسين سواء فى الغنم والغرم ...

وأنا لا زال حائرا فى تعليل هـــذا الرضا العام ، بانتهاك الاعراض ، واشباع الرغبات ، وتقديم الاجســـاد فى المراقص والحدائق ! .

وعلى أية حال ، الرجل ملزم بالانفاق على زوجته ان كان زوجا ، وعلى أبنته ان كان أبا ، ولا تكلف الفتاة بالتعرض للارتزاق كى تعيش ، فانها ستفقد نفسها فى مآزق كثيرة !

ولها يقينا أن تعمل وتكسب فى أوضاع متخـــيرة مضبوطة ! لها وليس عليها ! ومع ذلك فما ناله الرجـــل من زيادة فى ميراثه سيرجع لها بصورة أو بأخرى .

وسوف يجنى الغرب نتائج فسوقه ! ولولا أن أتباع الرسالة الخاتمة فقدوا القدرة على التصدر لقيادة الانسانية ، لمـــا بقى الغرب فى مكانته تلك ، مع بغيه وبغائه !! انه باق لعدم وجـــود البديل وحسب !

القرآن الكريم قد أحكم الله آياته ، ويسر فهمهـــا وذكراها . وما تشابه من آيات القـــرآن فلا علاقة له بالأحكام العملية . والمسالك الفردية والاجتماعية .. !

وليست هناك آية قط يمكن الحكم عليها بوقف التنفيـــذ . او تعطيل عملها ، تصريحا او تلميحا .

واذا كنا نعيب على بعض الماجنين تبرمهم بأحكام الحـــدود والقصاص،فهناك عيب أشد على نفر من المنتمين الى الدين،انهم أطاعوا ما استسهلوا ، وتركوا ما استوعروا .

انهم صلوا لأن الصـــلاة عمل لا يجـــر وراءه المتاعب ... أما قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شـــــهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعـــدلوا ... (١) » فأمر فوق طاقة الجبناء الحراص على منافعهم ومناصبهم هنـــا يمكن اللجوء الى تأويل النصوص وتغاير الظروف ، وجعل العجـــــز عقلا والجبن حكمة ...!

والبعد عن الصراط المستقيم يستوى أن يكون الانحـــراف فيه ذات اليمين أو ذات اليسار ..

---

(١) المـــائدة ٨

٤٢ ــ ما حاجة الانسان الى الايمان باليوم الآخر ؟ وما اثر انكاره على السلوك الانسانى ؟

اذا طال الكلام عن الدار الآخرة فلا يأمن احد ! فان توارث الذهول عنها امات الشعر بها ، حتى قال الحسن البصرى عن الموت ــ وهو اول مراحلها ــ ما رايت حقا اشبه بباطل من الموت ..!

وكل حقيقة يجب أن نعترف بها خصوصا عندما تتصل هذه الحقيقة بمستقبلنا ، وعندما يكون الشاطىء عميقا ، ثم تترك غرا لا يحسن السباحة ينزل فيه ، فانك قاتله !!

قد نستغنى عن بعض الحقائق وان كان الجهل بها عيبا . ما دامت لا تمسنا ، اما اذا ارتبط كياننا المادى والأدبى بشىء ثم غفلنا عنه فهنا الطامة ..!!

اننى اتخيل فجيعة الجاحد عندما يحس فجأة أنه مكتمل الحواس امام غيب تحول الى شهادة ! امام امر كان يهزا منه فاذا هو جدار يصدع دماغه ! لقد وقف وجها لوجه أمام ما كان ينكره بقوة « وجاء ربك والملك صفا صفا ، وجيىء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الانسان وانى له الذكرى يقول : يا ليتنى قدمت لحياتى (١) » .

ليت ! وهل ينفع شيئا ليت ؟ انه اضاع ماضيه فى الحياة الاولى سدى ، وها هو ذا يحصد ما زرع ! ما فكر قط فى هذا اليوم ولا أعد له عدة ، ومع التأوه والندامة يقول : ياليتنى قدمت لحياتى ، وهيهات ..

---

(١) الفجر ٢٤

وهناك شخص آخر ، كان فى دنيا الناس يذكر الله ويغالب النسيان ، ويستعد لمواجهة عاصفة فهو يترك فراشه منطلقا الى المسجد ، يغمض عينيه عن الفاتن المبذولة ، يستعف عن المحرمات وان كثرت حولها المغريات .

انه — يوم الحساب — يتلقى نبأ نجاحه فيصيح جذلان . مسمعا كل انسان « هاؤم اقرءوا كتابيه . انى ظننت انى ملاق حسابيه . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية (١) ... » .

انها فرصة العمر ، بل فرصة الخلود ! شتان بين مصير ومصير !

واثر الايمان باليوم الآخر عميق فى التربية النفسية والاجتماعية ، انه يتحمل العنت حينا ليظفر بالراحة بعد حين ! كما قيل لأعرابى : تصوم فى هذا اليوم الحار ؟ قال : اصومه ليوم أحر منه !

وتعليل النفس بالآمال عون على الرضا بالمتاعب ، وحبسها على ما تكره لتنال ما تحب ! وكما قال الشاعر :

منى ان تكن حقا تكن اسعد المنى
والا فقد عشنا بها زمنا رغدا !

وهذا الاستثناء بالنسبة الى الآخرة مرفوض ، فان الدار الآخرة أحق واثبت من الدار الأولى ، على نحو ما ذكر العارفون : الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا ومن هنا صح وصفها بما يدل على زيادة الحس فى قوله تعالى : وان الدار الآخرة لهى الحيوان

---

(١) الحاقة ١٩ — ٢٤

لو كانوا يعلمون (١) » . والحيوان كالفيضان مصدر يدل على سعة المعنى ..

وقد كثرت فى القرآن الكريم المواطن التى تذكر فيها الآخرة لتصحيح السلوك فى هذه الدنيا أو تزكيته وترقيته ، فعندما ضاقت زوجات النبى صلى الله عليه وسلم بمعيشته الخشنة قيل لهن : الأمر على غير ما الفتن قديما ، لقد جئتن من بيوت حافلة بالسعة والمتاع الى بيت لا سرف فيه ولا ترف !

انه بيت الكفاح والخشونة ! بيت التلاوة والتهجد ! لابد لرب هذا البيت أن يكون قدوة للمضطهدين والمحاصرين ، ومن صودرت ثرواتهم وفقدوا طمأنينتهم لنصرة الاسلام !

من طلب متعة الحياة فلا مكان له هنا ، ومن رنا الى الآخرة وسعى لها سعيها فليبق موطنا نفسه على حياة ناشفة ! « يا أيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ... (٢) » .

وجمهور الناس قد يحس غصه وهو يرى المرتشين والمفسدين أو الملحدين المجرمين يمرحون فى طول البلاد وعرضها ، عليهم شارة النعمة وامارة القوة ..

---

(١) العنكبوت ٦٤

(٢) الأحزاب ٢٨ ، ٢٩

وقد يكون ذلك مبعث فتنة لأهل التقى والعفاف ، لكن الله سبحانه يمحو ذلك محوا عندما يقول « لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ! متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ، لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . نزلا من عند الله ، وما عند الله خير للأبرار ... (١) » .

ومن مشاهد القيامة مشهد يتكرر فى القرآن كثيرا ليحارب ظاهرة مؤذية تسود الامة العربية والاسلامية من زمان غير قريب حكام الجور الذين يتهافت حولهم الاتباع ليؤازروهم على ظلمهم . ويشاركوهم فى منافعهم الحرام .

ان التبعة فى الفساد والافساد مقسمة على الفريقين قسمة عادلة لان هؤلاء يوحون وأولئك ينفذون ، الرءوس والأذناب شركاء فى اقتراف الجرائم ، وفتنة المستضعفين واثارة الفتن . ومن هنا جمعهم مصير وحد .

وتدبر قوله تعالى يصف هذا المصير ، ويذكر ما يقع فيه من حوار ! « هذا وان للطاغين لشر مآب . جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا ، فليذوقوه ، حميم وغساق . وآخر من شكله أزواج . هذا فوج مقتحم معكم ... لا مرحبا بهم ! . انهم صالو النار . قالوا بل انتم لا مرحبا بكم ! انتم قدمتموه لنا فبئس القرار ! قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار (٢) » ان الكبراء عندما يرون الأذناب يلحقون بهم فى دار الجحيم تسوءهم اللقيا ، ويصيحون مستنكرين مرآهم ! لطالما هشوا لهم فى الدنيا وسارعوا الى لقائهم ، أما اليوم فان الفريقين يتبادلان السخط ، والتشاؤم وعدم الترحيب ..!!

---

(١) آل عمران ١٩٦ — ١٩٨

(٢) ص ٥٥ — ٦١ .

ويتذكر الفريقان انهم كانوا يتفقون على اهانة المؤمنين ، ونعتهم بأقبح النعوت ، ويتظاهرون على اضطهادهم وآذاهم ! ، اين هم الآن ؟ ..

وقالوا : ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار؟ اتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار ؟ ان ذلك لحق تخاصم اهل النار » (١) .

تسجيل هذا المنظر الذى سيقع حتما ، والتعجيل بعرضه الآن ، فيه طمأنة لجمهور المؤمنين الذى ارهقه الاستضعاف والاستهزاء ! اما الكافرون فانهم لا يعونه ولا يصدقونه !

ومنظر آخر جديد بالتأمل ، يقوم بعض اهل الجنة بسياحة قصيرة يستكشفون فيها مصاير من كانوا يعرفونهم قديما من اهل الضلال والكفران ! « قال قائل منهم : انى كان لى قرين ، يقول : انك لمن المصدقين ؟ أاذا متنا وكنا ترابا وعظاما أانا لمدينون (٢) » ؟

هذا القرين يظن المؤمنين رجعيين يصدقون الخرافات ، ويتبعون الترهات ، فهو يقول لصاحبه : اتصدق اننا بعد فنائنا نبعث ونجزى ؟

ويشرف الرجل المؤمن على قرينه القديم ليراه وسط اهوال « قال : هل انتم مطلعون ؟ فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ! قال : تالله ان كدت لتردين . ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين (٣) »

---

(١) ص ٦٢ — ٦٤
(٢) الصافات ٥١ ، ٥٣
(٣) الصافات ٥٤ — ٥٧

وعبارة ان كدت لتردين ، تشعر المؤمنين فى يوم الناس هذا بضرورة الثبات على الحق ، لأن التهوين فيه طريق السقوط والضياع ، كما تشعرهم بقية الكلام بفضل الله عليهم ، اذ شرح صدورهم لهذا الحق واستدامهم لهذا الحق واستدامهم عليه !

وفى دنيانا الحاضرة ، ينفر المنافقون من أهل الاخلاص واليقين ، ويهجرون مجالسهم ، ويبعدون عنهم اذا جمعتهم المصادفات فى طريق ، ذلك لأن قلوبهم مع الكفر وأحزابه . ما يأنسون الا بهم ... بيد أن الحال تتغير تغيرا عميقا فى الدار الآخرة « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب (١) » !

ان القرآن الكريم يربى الناس بيوم الحساب حين يذكره وحين يكرره ، ويعالج عللهم بما يسوق من صوره !

انه يذكره لاصلاح الدنيا لا لهدمها ، ولتعليق الهمم بالأبقى والأجدى لا بالسراب الخادع ..

أما الماديون الذين يزحمون الآن مشارق الارض ومغاربها . فما يعرفون الا هذا التراب ، وما يعولون الا على ايامهم فوقه وما يرمقون السماء بنظرة رجاء ، وما يعطفهم على ربهم ولاء ولا عرفان ...

---

(١) الحديد ١٣

مررت يوما بأحد شـــوارع القاهرة ، فرأيت عربة قد نفق الحمار الذى يجرها ، وتجاوزت صاحبها الجزين على ضـــحيته ، ونظرت الى الدابة الميتـــة عنـــد اقدامه وقلت فى نفسى : انتهى أمرها ، ان كثيرا من القـــادة والساسة لا يرقون بحيـــاتهم فوق هذا المستوى الحيوانى ، يظنون أمرهم انتهى عندما ينفقـــون كهذه الدابة ، الا ما احقر الكفر ، وأســـوأ تصوره للوجود !

٤٤ ــ ما اثر الايمان على الأخلاق والسلوك والضمير ، على ضوء ما يحدث فى الدول المتقدمة التى تاخــذ بالعقــل ونتائج العلوم فقط ؟؟

لا نستطيع انكار المدى الكبير الذى بلغته الحضارة الحديثة فى اكتشاف أسرار الكون ! انها حضارة ذكية العقــل واســعة المعــرفة ، وقد طوعت ما بلغته الى تقــدم صناعى باهر طفــر بالانسانية طفرة رحيبــة ورهيبــة ، فى جميع المجالات المدنيــة والعسكرية ...

ولكن هناك احساسا عاما بأن هذا التقدم المادى لم يواكبه تقــدم روحى وأن انســـان العصر الحديث لا يختلف كثــيرا عن انسان العصر الاول فى غرائزه وشهواته !

واذا كانت ثمة فروق ففى الوســـائل لا فى البــواعث والغايات ، بل لقد قيل فى انسان العصر الحاضر : أن عضــلاته أكبر من عقله .

والواقع ان الانسان يتضاعف شره عندما يكون حاد الذكاء حقير الخلق ، وطالما رددنا أن الاســـلام عقل يرفض الخرافة ، وقلب يكره الرذيلة !

أن الكمال الحقيقى امتــداد ونضــج فى جميع الملــكات الانسانية ، وهذا التوازن أساس لابد منه لقيام مجتمع رشــيد ، وحضارة يانعة الثمار ، مديدة الظلال ، فهل الحضارة الحديثــة ــ بعد تلك المقررات ــ جديرة بالخلود ؟ أو هى ارجح من غيرها فى موازنة منصفة ؟ الحق ، لا ..!

فالرجل الابيض ، قائد هذه الحضارة ورائدها ، انسان طافح الانانية ، يشده الى منافعه الف رباط ، وقبل ان نشرح شرهه المسعور ، واستعلاءه على غيره ، نذكر احد مظاهر الحضارة الاسلامية القديمة !

فالعرب الفاتحون قدموا الاسلام للاعاجم ، ونقلوهم به من الظلمة الى النور ، وبعد ردح من الزمان كان هؤلاء يصلون وراء الأتقياء من شتى الأجناس ، ويتلقون عنهم العلوم الدينية ، دون غضاضة أو كبرياء ..

فالبخارى هو المحدث الأول وأبو حنيفة الفقيه الأول . والحسن البصرى المربى الأول وسيبويه اللغوى الاول ... الخ ولم يشعر المصريون بأى ضيق من أن يقودهم « قطز » فى معركته الهائلة ضد التتار بعين جالوت ، وما خامرهم حرج فى ان يقودهم صلاح الدين ضد الصليبيين فى حطين .

ان الاسلام محا النعرات الجنسية فى اغلب الميادين ، وربط الناس بمثلهم العالية وحدها !

أما الجنس الابيض ، وطلائعه الغازية والمكتشفة ، فقد كانوا يعبدون أنفسهم ، ويقدسون مصالحهم ولا تحكمهم الا شرعة الغاب !

اكتشف الانكليز استراليا فماذا فعلوا بسكانها ؟ شرعوا يطاردونهم من مكان الى آخر حتى حصدوا جمهرتهم ، وأخبرنى صديق قادم من استراليا ان البيض ييسرون اردأ الخمور لهؤلاء السكان الاصليين حتى يقضوا عليهم القضاء الاخير ، وتبقى استراليا للمغيرين المسلحين بالتقدم العلمى والصناعى ، المجردين من كل رحمة وايثار ... !

اكان سكان أمركا الاصليون أسعد حظا من استراليا ؟ . لقد تتبعتهم حرب الابادة من بلد الى بلد ، وكان المكتشف الذى يسيل ريقه للذهب ينظر ، فاذا وجد هنديا احمر على راسه تاج من ذهب ، قطع الراس ، وعاد بالتاج ..!

قد يقال : كان ذلك فى الايام الاولى لاكتشاف العالم الجديد وقد ارتقت اليوم البشرية ، وضاقت بما كان يفعله المستعمرون الاولون ، واستنكرته !

ونجيب أن الاستهانة بالأجناس الأخرى كانت وما زالت ديدن الرجل الابيض ؛ وعندما أعوزه الانتصار السريع ضد اليابان التى قنبلتين مبيدتين على هيروشيما وناجازاكى فقتل نصف مليون انسان بين طفل وامراة وشيخ وشاب ، ولا ريب ان عشر هؤلاء الهلكى فقط هو الذى كان يمكن ان يجند فى الحرب ..!!

المأساة أن هؤلاء « المتحضرين » ارتقوا علميا وهبطوا خلقيا ، وأنهم عبيد لذاتهم العاجلة ، وأن الفكرة عن يوم الدينونة غامضة أو معدومة لديهم ، انهم لم يسمعوا يوما من يقول لهم : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء . وانذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا اخرنا الى اجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ... (١) » .

ان الانسان يتحول الى وحش كاسر عندما ينسى الله واليوم الآخر ، لاسيما اذا كان هو واضع القانون ومطبقه ! ان القانون

---

(١) ابراهيم : ٤٢ — ٤٤

يومئذ يحرس الأقوياء ويجتاح الضعفاء ؛ وقد رأينا كيف يباد الشعب الفلسطيني ويمحى وجوده فوق أرضه ، ويجاء بألوف مؤلفة من اليهود لتحيا فوق أنقاضه ، والقانون الدولى مكمم الفم لأن ملاك القوة يريدون ذلك ، وأجهزة الدعاية قديرة على ابطال الحق واحقاق الباطل ..!

ان الغرائز المهتاجة ، والعادات السيئة ، والموروثات الرديئة ، تهزم الحق فى دنيا الناس ، وقد نظرت الى جموع المستشرقين — وهم قوم ذوو ثقافة واسعة — لفتهم ضغائن غبية ضد « محمد » صلى الله عليه وسلم ، فأذاعوا عنه أنه كبنى جنسه محب للنساء ...

ان هؤلاء المستشرقين قرءوا فى العهد القديم ان سليمان جمع فى عصمته ألفا من النساء ، سبعمائة من الحرائر وثلاثمائة من الاماء ، فهل كان لدى محمد عشر ما عنده ؟ لا ! نصف العشر ؟ لا ! ربع العشر ؟ لا !

ومع ذلك فسليمان نبى حكيم ، ومحمد دون ذلك !!

ونشيد الانشاد الذى لسليمان تسمع فيه صيحات الباحث عن الحبيب المجهول او المعلوم ، اما قرآن محمد فليس فى طوله وعرضه الا جؤار يدفع البشر الى ربهم ، ويذكر بيوم لقائه ؛ ! ومع ذلك فمحمد لا يوحى اليه ، والأشواق وراء الحبيب المنشود هى الوحى المعصوم ! ما قيمة العلم اذا لم يكن معه انصاف ولا عدالة ؟ اننى أمقت الذكاء الخبيث ، والثقافة المسفة . وعندى ان امرأة حصانا غافلة أشرف من مومس عبقرية ، وان رجلا ساذجا يعرف ربه أشرف من خبير فى الذرة يعبد نفسه !!

وقد افهم ما يعنيه الرسول الكريم فيما روى عنه : « النار أسرع الى فسقة القراء منها الى عبدة الاصنام ! فيقولون : يبدأ بنا قبل عبدة الوثن ؟ فيقال لهم : ليس من يعلم كمن يجهل » (١)

والحضارة الغربية ، كما قلنا آنفا ، اتسع علمها وضاق أدبها ، او طالت ثقافتها وقصرت تربيتها ، فهى الآن تصنع اجيالا لا تعرف الا الحياة ليومها فوق هذا التراب ، وتؤمن انها لن تحيا مرة أخرى أبدا ، ومن هنا غلب عليها هذا السعار فى اقتناص الموجود ، الركض وراء المفقود ، والحقد على من وجد ، والازدراء على من فقد !

انها لا تؤمن بالله واليوم الآخر ! ورجال الدين مشغولون بسخائمهم القديمة ! ان كانوا هودا فهمهم الاكبر امتلاك ارض الميعاد كما يحلمون ، وان كانوا نصارى فهمهم الاكبر استعادة قبر المسيح والثأر ممن اخذوه فى العصور الوسطى ..

وما يدور فى ذهنهم تعاون عام لابقاء الارض موصولة بالسماء ، فهل هذا تقدم علمى أم نجاح للغرائز الهابطة والاغراض الدنيا ...

على أن القرون الاولى لم تخل من علم اثارت به الارض . وزينت به الحياة ! والمنكور هو انعدام التوازن فى اية حضارة بين جوانبها المادية والادبية ، لقد بنى المصريون الاهرام . والبناء فى ذاته ليس عيبا ، وانما العيب ان تهلك اسرة فى سبيل بناء مقبرة الملك ! وبنت عاد قصورا شامخة ، وابراجا عالية . فاذا اصطدم برغبتها احد سحقته ، واغراها جبروتها بحرب

(١) الحديث رواه المنذرى فى الترغيب والترهيب وقال : هو على غرابته له شاهد من الصحيح .

الابادة ، فكان من قصص القــرآن عنهم « ... اتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ وتتخذون مصـــانع لعلكم تخلدون ؟ واذا بطشتم بطشتم جبارين ! فاتقوا الله وأطيعون » (١) .

ورفض هؤلاء وأولئك تقوى الله ، وسماع الناصح الأمين فماذا كانت العقبى ؟ « الم تر كيف فعــل ربك بعــاد ، ارم ذات العماد. التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعــون ذى الأوتاد . الذين طغــوا فى البلاد فأكثروا فيها الفســاد . فصب عليهم ربك ســوط عــذاب . ان ربك لبالمرصاد » (٢) .

ان هذه المدنيات البائدة قامت على علم له بحاجات الناس يومئذ وفاء ، ولقد اغتروا بهذا العــلم وحسبوا انهم يسبق بهم ولو اثقلهم الهوى . وهيهات ، « فلما جاءتهم رسلهم بالبينــات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا يستهزئون..(٣)» .

ان العلم مهما تقدم لا يغنى عن الايمــان ، والايمان الذى نحترمه هو الذى يعانق العقل وتزدان به الحياة .

---

(١) الشــعراء : ١٢٨ — ١٣١
(٢) الفجــر ٦ — ١٤
(٣) غافــر ٨٣

٤٥ ـ لماذا كانت المذاهب الفقهية المعمول بها اربعة ، وما ضرورتها ؟

ائمة الفقه الاسلامى المشهورون اربعة ، وقد كانوا قديما ضعف ذلك مرة او مرتين ، بيد ان الذين رسخت مكانتهم وخلد ذكرهم اولئك الاربعة الكبار ، ابو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل !

أكان ذلك لمصادفات عارضة ؟ ام تم وفق سنة البقاء للأصلح ؟ لا تعنيني الاجابة ! وانما يعنينى القول بأن أولئك الرجال الاربعة كانوا قمما فى التقوى والمعرفة ، والنصح للأمة ، واقصاء مشاعر الرغبة والرهبة مع كل حاكم مهما امتدت دولته وعظمت سلطته ..

والخلاف الفقهى أول امره كان علامة صحة ، ولا ضير من بقائه الى آخر الدهر ما دام لا يعدو حدوده ! وحدوده هى دائرة الاعمال الفرعية .

أما اركان الدين ومعالم الايمان ، ودعائم الأخلاق ، ومعاقد الشريعة ، فهى موضع اتفاق بين خاصة المسلمين وعامتهم ...

والذى ضخم الخلاف الفقهى ، وشغل الناس به على نحو مستهجن امران :

أولهما : جهل الغوغاء ، وفرح الواحد منهم بحكم عرفه . ومغالاته به كما يقول الناس فى مصر « الكعكة فى يد اليتيم عجب » ! ولذلك ترى هؤلاء يقدمون فقه المضمضة والاستنشاق على رعاية العهود والامانات ! وهذا ضلال مبين .

والأمر الثانى : طول اجل الفساد السياسى فى تاريخنا . فقد اخرس الالسنة عن الكلام فى الفقه الادارى والدستورى والدولى . وضمانات الشورى والمال العام ، واغرى اهل البطالة بالثرثرة المملة فيما وراء ذلك حتى جعل جماهير تهتاج لقضية « وضع اليدين » فى أثناء الصلاة ولا تتحرك بقوة لضرب الاستعمار المغير ، ومحو الاسباب التى جلبته ..

ولو تعاون المسلمون على تنفيذ ما اتفقوا عليه — وهو لب الدين وجمهرة تعاليمه — لكان الخلاف فيما وراءه شيئا لطيفا وطريفا . ومصدر تراحم لا خصام .

والائمة الاربعة كما أسلفنا القول رجال كبار ، لكنهم ليسوا معصومين ، ولا فرض احدهم نفسه على الامة ، ولا كلفنا شرعا باتباع واحد بعينه منهم .

وانما نحترمهم لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه » .

وأحب ان اعرض نماذج متناثرة للخلاف الفقهى تومىء الى طبيعته وعلته ، اما التأصيل العلمى لاسباب الخلاف فقد شرح فى أماكن اخرى .

هل القاذف الكذاب تقبل شهادته بعدما تتم توبته ... من الأئمة من يرفض شهادته أبدا وان تاب ، ومنهم من يقبلها بعد توبته .

وأصل المسألة تفسير قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة . ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا واولئك هم الفاسقون . الا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا (١) » .

(١) النور ٤ ، ٥

قال البعض الاستثناء وقع من الوصف بالفسق ، وبقى الحرمان من الشهادة على التأييد . وقال آخرون : بل الاستثناء يلحق الجملتين معا ، وتقبل شهادته ليكن هذا او ذاك . فلا حجر على فهم !

والتائبون من جريمة قطع الطريق ، اذا استسلموا قبل القاء القبض عليهم ، تقبل توبتهم وتسقط عقوبتهم لقوله تعالى « الا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم (١) » فهل يسقط الحد عمن ارتكب جريمة السرقة . أو الزنى ؟ اذا تاب ؟

من الفقهاء من اعمل القياس ، واستشهد بالسنة ، واوقف الحد ، جاء عن انس بن مالك : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال : يا رسول الله ، انى اصبت حدا فأقمه على — قال : ولم يسأله عنه — فحضرت الصلاة ، فصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما قضى النبى الصلاة قام اليه الرجل ، فقال : يا رسول الله ، انى اصبت حدا فأقم فى كتاب الله !! قال : اليس قد صليت معنا ؟ قال : نعم ! قال : فان الله عز وجل قد غفر لك ذنبك » !

وهناك فقهاء آخرون يرون ضرورة اقامة الحد رافضين القياس ومؤولين الحديث الوارد .. لكل رأيه ولا تثريب على احد .. !

وفى فقه الاسرة نقرأ شريعة الخلع ! ولا ادرى لماذا اهملت ؟ ولماذا كان القضاء الشرعى يأمر رجال الشرطة باقتياد الزوجة الكارهة الى بيت زوجها لتسلمه جسدها !

---

(١) المائدة ٣٤

وهل الخلع طلاق أو فسخ لعقد الزوجية ؟ خلاف بين الفقهاء ، وظاهر القرآن أن الخلع فسخ لان الله سبحانه يقول : « الطلاق مرتان (١) » ثم يقول : « فامساك بمعروف أو تسريح باحسان (٢) » وفسر التسريح بعد ذلك بقوله : « . . .فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره (٣) » .

وقد توسط الخلع احكام الطلاق بقوله سبحانه « فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به (٤) » .

فالظاهر أن رد المرأة للمهر الذى قبضته عود فى العقد ! ويحكم القضاء بالفسخ .

ويرى آخرون ان الخلع طلاق بائن للحديث الوارد للاشهاد عليه ، والحق انى حائر فى ذلك مع قوله تعالى : « امسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر (٥) » .

كيف يكون الاشهاد نافلة مع هذه التوكيدات ؟ ويغلب على ظنى ان التقاليد التى ضامت المرأة من قديم لها دخل كبير فى هذا الاضطراب .

ان التحقيق العلمى يوجب احترام شريعة الخلع التى اهملت ، كما يوجب ضرورة الاشهاد على الطلاق !

---

(١) ، (٢) ، (٤) البقرة ٢٢٩
(٣) البقرة ٢٣٠
(٥) الطلاق ٢

ونترك فقه الاسرة الى طرف من فقه العبادات ، اننى قضيت ردحا من الزمان اعمل فى المساجد ، ورأيت مظاهر الخلاف بين الأئمة الأربعة ، هذا يقنت فى الفجر وذاك يصمت ! هذا يصلى نافلة قبل المغربوذاك يأبى!هذا يحيى المسجد فى اثناء الخطبة وذاك يجلس ! هذا يقرأ فاتحة الكتاب وراء الامام وهذا ينصت ! هذا يقبض يديه الى سرته ، وهذا يقبضهما الى صدره ، وهذا يسدلهما الى جنبيه !

قال لى صديق : أيسرك هذا التفاوت ؟ قلت : كنت اوثر وحدة الصورة ، لكنى ادع الوضع كما ترى لأن عنايتى بالموضوع اكثر من عنايتى بالشكل ، ولأن هناك وجهات نظر فقهية محترمة وراء هذا التفاوت ، اكره الاصطدام بها ... !

المشكلة ليست فى هذا الخلاف الفقهى ، انها فيما وراءه من غلو وتعصب ، فالذى يمنع القنوت فى الفجر وبعض جماعة القانتين يظن انه استنقذ القدس من براثن اليهود ! ومنع بدعة تقود الى النار !

المشكلة فى الضحالة الفكرية والضغائن النفسية التى تغلف أولئك الناس ، وهى آفات تفسد الطاعات ولا احسب ان صلاة تقبل معها !

ان هؤلاء المتعصبين يعيشون داخل حجب سميكة ، كما يعيش الكتكوت داخل قشر البيضة قبل الفقس لا يرى أرضه وسماءه الا هذه الدائرة الضيقة ...

والدين بداهة غير هذا ، الدين الذى لا خلاف فى عناصره قلب خاشع وفكر فاضل ، وامانات مرعية فى تقلب المرء على ظهر الارض منذ رشده الى ان يلقى ربه !

ليختلف المسلمون فى الفروع العملية وراء أئمة اربعة او ثمانية ، فالخطورة لا تنشأ من الخلاف الفرعى ، انما تنشأ من فساد الأفئدة والألباب ... !

على ان الخلاف يحسم ، ويختار رأى واحد حتما عندما يتعلق الأمر بالدولة وشئونها الادارية ، وقوانينها الحاكمة فى الدماء والاموال والأعراض !

لنفرض ان فقيها يرى أن طلاق البدعة يقع ، وفقيهاآخر يرى أن طلاق البدعة لغو ، فهل تقف أجهزة الدولة فى انتظار غلبة احد الاجتهادين ؟ انها لن تدور ابدا والحالة هذه !

واثبات الطلاق لابد من تدوينه فى سجلات ومن رعايته فى النسب والتوارث !

ومن حق الدولة أن تختار مذهبا فقهيا لتدير الأمور على اساسه ، وتحفظ الحقوق وفق نصوصه ..

هل المخدرات خمر يعاقب على تناولها ام لا ؟ من حق الدولة ان تختار مذهبا فقهيا تجرم به تناول المسكرات والمخدرات جميعا ، وتهمل المذاهب الاخرى .

ويطرد الأمر بالنسبة الى قضايا القتل مع اختلاف الدين ، ومع الملابسات الأخرى .

ويمكن ان يتغير القانون ، وان تترك الحكومة مذهبا وتؤثر عليه آخر ، وذلك وفق نشاط الاجتهاد الفقهى ووزن الناس لمصالحهم المتجددة ، وذاك ما نشرحه فى فصل آخر ان شاء الله.

٤٦ ـ ما مدى حرية الفكر فى الاسلام ، وكيف نوفق بينها وبين قتل المرتد ؟؟

هناك فرق بين حرية القول وحرية الشتم ! وحرية العمل وحرية الايذاء ! انا اقول ما اشــاء وافعــل ما اشــاء ، ولكن تقف مشيئتى عندما تبدأ حرية غيرى وحقوقه ..

وقد اقتنعت بان كمال الانسانية وارتقاءها منوطان بوفرة الحريات الصحيحة ، واستطاعة كل انسان أن يتمتع بهــا دون مشاكسه او افتيات ..

وقد قلنا فى فصل مضى : ان حرية المرء هى الوجه الآخر لعبودية الله وحده ، فالمؤمن حقا رجل تختفى من حياته رهبــة الطواغيت ، ويقول ويعمل غير مكترث الا برضا الله وحده ..

وحرية الفكر هى المهاد الأول ، او المهــاد الاوحد لمعرفة الله ، واستكشاف عظمته ، وتقرير حقوقه ، وادراك هداياته ..

عندما اسرح عينى فى الزروع والثمار استجابة لأمر الله : « انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه (١) » فانا اسبح الله واحمده وان لم يتحرك لسانى بكلمة !

قد يكون هذا التسبيح الصامت معادلا لركعتين من النوافل، وربما نما واضحى معادلا لركعتين من الفرائض ! ، وذلك حسب قيمة هذا الفكر .

---

(١) الانعــام ٩٩.

قد يكون تحية اعزاز لمن ابرز الحياة من الموات . واخرج الوانا وطعوما شتى من ارض داكنة هامدة !

وقد يكون ــ الى جانب ذلك ــ عناية بالحصائل الناتجة : وتكثيرا لها ، ودفعا للآفات عنها ، ونفعا لعباد الله بها ودراسة ذكية للتربة ، وطبيعة العمل فيها وامكانات الافادة منها ..!

المهم فى الجو الدينى الصحيح الا أثقل العقل بما يؤوده عن هذا الفكر المثمر ، أو هذا التسبيح الصامت ..

والتدين المخترع والفاسد شديد المهارة فى صرف المؤمنين عن العمل العقلى والقلبى ، وتعليقهم باشكال ورسوم وأوراد ما انزل الله بها من سلطان .

مع ان هذه الاعمال ركن فى الايمان ، وغيرها أما بدع ، واما نوافل لا تقبل الا بعد اكتمال الفروض !

ليس هذا استطرادا ! وانما هو بيان لقيمة الحرية الفكرية التى اطردت الآيات فى القرآن الكريم لتقريرها وتقديرها ... ولكننا للأسف لم نحسن فهمها ولا البناء عليها ..

وقد ظفر اسلافنا بانصبة كبيرة من تلك الحرية الغالية كانت وراء تفوقهم الحضارى وسيادتهم العالم زمانا طويلا ..

ورايى ان هذه الحرية خرجت على نفسها او تحولت الى فوضى خلقية فى بعض الميادين ، فليس من حرية الفكر ان ينشد ابو نواس خمرياته ويفرض شذوذه على الادب العربى ..

وليس من حرية الفكر أن ينشغل العقل الاسلامى بالبحث فى ذات الله ــ متأثرا بالفلسفة الاغريقية ــ ويترك البحث فى المادة وخصائصها ، وعندى ان الجانب الطبى فى ثقافة ابن سينا

المع واضوا من الجسانب الفلسفى ! وان الحرية الفكرية عندنا انكمشت حيث يجب أن تمتد ، وامتدت حيث يجب ان تنكمش ، على انها اعتلت فى العهود المتاخرة ، وكادت تموت ، وذلك تبعا لاضمحلال الحـرية السياسية فى حياتنا العامة ، وغلبة الحـكم الفردى .

والحـريات كالفضائل يقوى بعضها بعضـا وينميه ، ومع ما اصاب الحريات اجمالا من علل ، فان الحـرية الدينية بقيت قوية وعاشت فى ظلالها طوائف اليهود والنصـارى والباطنيـة دون حرج ، وما أحسب دارا اخرى غير دار الاسـلام ، يقع فيها هذا التسامح !

لقد كانت الحرية الدينية اعصى الحـريات على النقض ، كان عرب اليمن يتقاتلون ويرخص بعضهم دم بعض ، وكان يهود اليمن مرعيى الذمام مصونى الحقوق ! وبقوا وافرين حتى التحقوا باسرائيل !

ومن الطرائف التى يحكيها الأدباء ان الخوارج اعترضـوا نفرا من الناس ، واحبـوا ان يتعـرفوا هويتهم ، وكان فيهم ابو حنيفة ، فأسرع يجيب الخوارج : نحن مشركون مستجيرون ! فلما تركهم الخـوارج يمضون لشأنهم قال الامام الفقيه : ان القـرآن يقول : « وان احـد من المشركين استجارك فأجـره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغـه مأمنـه ... » فأسمعونا كلام الله وابلغونا مأمننـا .. !! وفعل الخوارج ذلك ، ونجـا ابو حنيفة ومن معه من الفتك !

والقصة تستدعى التأمل ! ولئن كانت مثار ريبـة عنـد البعض . ان التاريخ الاسـلامى يصدق دلالتها ، ويكشـف عن العلة فى بقاء الطوائف الكافرة بالاسلام وسط بحر مائج من الأمم الاسـلامية ، مما لا نظير له فى القارات كلها ...!

ونتساءل بعد ذلك الاستعراض : هل من حرية الفكر أن يسلم رجل ليتزوج امرأة مسلمة ، فاذا نال مبتغاه منهـا وتحولت عاطفته عنها رجع الى دينـه الأول .. ؟

او من حرية الفكر أن يتصل شخص بأعداء امته ، وينقـل اليهم اسرارها ، ويتآمر معهم على مستقبلها ؟

انه لابد من التفريق بين العبث بالأديان او خيانة الأوطـان وبين حرية الفكر ! فالمسافة شاسعة بين المعنيين !

وقد ذكرنا فى موضع آخر كيف أراد اليهود استغلال هـذه الحرية المتاحة . لضرب الاسـلام وصرف الناس عنـه « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذىأنزل علىالذين آمنوا وجهالنهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون (١) » ! فهل ترضى جماعة تحترم دينها أن يقع العبث او ينجح هذا التلاعب ؟

اننا نريد أن نشرح حقيقة الارتداد . وسر الموقف الحاسم منـه ...

معروف ان الاسـلام عقيدة وشريعة أو بتعبير عصرنا دين ودولة . والدولة التى تقيمها الجماعة المؤمنة مكلفة بما تكلف به الدول فى أرجاء الأرض ، فهى تنشر الامان وتحميه وفق شرائعها الموحى بها من الله تبارك وتعالى ..

وهى تدفع المغيرين وترد المعتدين مستثيرة الهمم ببواعث اليقين وحب الاستشهاد وسائر خصائصها الذاتية الاخرى ...

---

(١) آل عمـران ٧٢

والسؤال الذى نورده : هل يطلب من هذه الدولة ان توهى خطوط الدفاع فى الداخل والخارج ، وأن تدع من شاء حرا فى نشر الفتن وتمزيق الصف ومساعدة العدو وخذلان الصديق ؟ ام لها ان تضرب على ايدى الخونة حتى يبقى كيانها سليما ؟

اذا كانت الدولة الشيوعية تقيم التعليم العام على الالحاد ، وتنفى او تغتال من يريدون بناءه على الايمان ، فهل الدولة الاسلامية وحدها هى التى تطالب باحترام الالحاد ، والاسراع فى اجابة مطالبه باسم الحريه ؟ انى يتماسك لها بعد ذلك كيان ؟

قد ينحرف امرؤ فيشرب خمرا او حشيشا ، هذه معصية نرجو لصاحبها المتاب ثم نؤدبه بما رسم الاسلام ! هل يستوى هذا المسىء مع رجل يدعو الى ترك تجارة الحشيش حرة ، والى فتح الحانات دون عائق ؟

قد يواقع امرؤ منكرا فى بيته ، من وراء جدار ! هل يستوى هذا مع آخر يجاهر باباحة البغاء ، وترك الغرائز تتنفس كيف تشاء ، ويرى ان الشذوذ لا حرج فيه وعلى المجتمع الاعتراف بعقد بين شخصين من جنس واحد ؟

قد يتكاسل امرؤ عن الصلاة ، فهل التارك المتهاون يستوى مع آخر يهاجم فرائض الصلاة والصيام ، ويقول : انها تعطل الانتاج ؟

ان الارتداد نقض متعمد متبجح للأسس التى يقوم عليها المجتمع ، وللدستور الذى تقوم عليه الدولة ، والزعم بأن هذا المسلك سائغ زعم سخيف .

وتزداد خطورة الردة على كيان الدولة اذا علمنا ان الغزو الثقافى ظهيرا وتمهيدا للغزو العسكرى ! وان اعداء الاسلام يرون محو شخصيته فى الداخل بفنون من الحيل ، وان الاستسلام لذلك هو استسلام للذبح ..

نحن نرفض كل عائق امام حرية الفكر ، ونضع كل عائق امام حرية الهدم ، اى امام تقويض الاسلام شريعة وعقيدة ...

وعندما ننظر الى تاريخنا الاسلامى الطويل نجد ان قتال المرتدين الى آخر رمق تم دفاعا عن الدين والدولة معا ، وما سمعنا برجل قتل مرتدا لانه ترك الصلاة مثلا .. بل على العكس رأينا ابا نواس يرفض من يلومه فى شرب الخمر ، ويقول فى وقاحه :

دع عنك لومى فان اللوم اغـــــراء
وداونى بالتى كانت هى الداء !!

فهل قتل ابو نواس ، او غيره بتهمة الردة ؟

واضطر صلاح الدين الايوبى الى قتل صوفى يدعو الى مبدا وحدة الوجود ! وذلك لان عصابات الباطنية التى اعتنقت هـــذا المبـــدأ ، تعـــاونت مع الصليبيين المهاجمين على ضرب الدولة ، وكانت حصون الحشاشين شوكة فى ظهور المجـــــاهدين الذين يقاومون الغـــزو الاوربى المميت !

فلم يجد القائد الاسلامى بدا من تطهير الجبهـــة الداخلية ، وازاحة كل من يعرض مستقبل الاسلام للضياع ، فى حرب حيـــاة أو موت ...

والا فان كتب كثير من رجال التصوف ملأى بفكرة الوحدة ، وقد ترك للعلماء ان يناقشـــوها بالبرهان وحده !

وقد لاحظت ان كثيرا من اهل الشغف بتكفـــير مخالفيهم ، يتخيرون من آراء الفقهاء ما يحلو لهم ، ويهيلون التراب على غيره ،

علما ثار كلام فى عقاب تارك الصـــلاة كسلا ، لم يذكروا الا انه يقتـل حدا أو مرتدا ، ومعلوم من ألفقـــه الحنفى الذى حكم الدولة الاسلامية قرونا طويلة ، انه **يقتل** لا حـدا ولا مرتدا ، بل يؤاخذ بأساليب أخرى اذا جحـد الحكم المعـلوم من الدين بالضرورة . .

أن الارتداد ـ كما شرحنا ـ خروج على دولة الاســـلام بغية النيل منها ومنه ، والاتيان عليها وعليه ، ومقاتلة المرتدين ـ والحالة هذه ـ دين . . .

٤٧ ـ ما هو الاجتهاد ؟ وهل هناك ضرورة لفتح بابه ؟ ولمــاذا ؟

يعلم المسلمون ان دينهم باق ما بقيت السموات والارض . وان به تبيان كل شيء يحتاج الناس اليه ! أى أن كتاب الله وسنة رســوله هما النور المبدد لكل ظلمة ، الكاشف لكل حيرة ، وهما الدواء الشافى من كل علة والساد لكل خلة ..

والاجتهاد هو بذل الجهد فى استخراج الحكم الشرعى من هذه الاصــول ، وفى ضبط مســيرة المجتمع بها ، وهو عمــل لا يقدر عليه بداهة كل انسان ، بل لابد من أهلية علمية عالية له .
فالقــرآن الكريم هو خلاصة الوحى الالهى من أزل الدنيــا الى ابدها صيغ فى اسلوب يعجز الانس والجن ، والسنة المطهرة هى توجيهات انسان ملهم استدرج النبوات الاولى كلها بين جنبيه . وشرع يصوغ العــالم كله باسم الله فى قالب جــديــد وقد أدرك أولو الألباب أن التغيير الذى احدثه برسالته الخاتمة كان حاسما فى سير الفكر والضمير ، وانه فتح صفحة جديدة فى تاريخ الحياة الانسانية ..

ومن ثم فان فقه الكتاب والسنة لا يرشح له الا أهل النباهة والتقوى !

وفقهاء الاسلام يرون أن مصدر التشريع ـ كما يقــول الشيخ الكبير محمود شلتوت ـ « هو القــرآن الكريم نصــه ومحتمله ، ثم السنة وهى أقوال الرســول وافعاله وتقريراته . بشرط صحة النقل ، ثم الرأى العلمى المستمد من النظر فى الكتاب والسنة والحاق ما لم ينص على حكمه بما جاء فيه نص » .

ويعنى بذلك القياس ، ثم فى تطبيق القواعد العامة المفهومة من النصوص والقضــايا الخاصة .

وهذه القواعد مثل « الإصل فى الاشياء الاباحة » « منـــع الضرر » « رفع الحرج » « سـد ذرائع الفساد » « الضرورات تبيح المحظورات » « ارتكاب اخف الضررين » « دفع المفســدة مقدم على جلب المصلحة » « تحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام » « ما لا يتم الواجب الا به فهــو واجب » « ما ادى الى الحرام فهو حرام » « ما قارب الشيء يعطى حكمه » ... الخ.

وهناك بعد ذلك ما يسمى بالمصالح المرسلة ، وهــو نهج فقهى غايته حماية النفس والمــال والعرض والعقل والدين ..

والواقع ان الفقيه فى الكتاب والسنة،الذى يعيش فى جوهما يقــدر على استبانة مبادىء تنطلق الحياة منها ورسم مســـــار تشريعى يضمن الرشد والخير للناس كافة كما يستطيع أن يواجه القضـــايا المتجددة بأحكام اسلامية سديدة ..

والفقه الاسلامى الذى ورثناه مع مطالعالقرن الخامسعشر للهجرة يعــد أغنى فقه فى العــالم ، والمهــاد الذى يتحرك فوقه لا نظير له فى دنيا الناس .

قال الفقيه الكبير الشيخ محمـــــود شلتوت : « استقبل اصحاب رسول الله بعد موته حياة أوســـــع ، اذ عرضت لهم شئون احتاجوا الى تعرف احكامها ، فكانوا يرجعون الى القرآن. فان لم يجدوا فيه ما يدل على حكمها بحثوا عنه فيما يحفظه العدول الثقـــات من بيان الرســـول واجتهاده . فان لم يجدوا الحـــكم نظروا وبحثوا مستلهمين روح الشريعة ، وما عرفوه من هدفها . وما ترشد اليه قواعدها العامة التى أضحت لها مكانة النصوص البينة » ..

وكان الشأن العام فى عهد ابى بكر وعمر التحرى الشديد فيما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والنزوع فى الشئون العامة الى استشارة كبار الصحابة المقيمين معهما فى دار الخلافة ! والمعروفين بدقة الراى ، وعمق النظر ، فى ادراك المصالح ، وحسن الفهم لروح الشريعة ، وجودة التطبيق على القواعد العامة .

وكانوا اذا اجمعوا على رأى وجب تنفيذه .. وبذلك كان اخذ الرأى بطريق الشورى ، مصدرا جديدا ظهر العمل به بعد وفاة الرسول فيما لا نص فيه من كتاب او سنة ، أو فيما فيه نص محتمل .

وترجع حجية الرأى فى التشريع الى امور :

اولا : تقرير القرآن مبدأ الشورى « وامرهم شورى بينهم » .

ثانيا : أمر القرآن الكريم برد المتنازع فيه الى اولى الامر وهم الذين اوتوا الفهم والحكمة وطرق الاستنباط « ولو ردوه الى الرسول والى اولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

ثالثا : ثبوت اقرار النبى صلى الله عليه وسلم لاصحابه الذين كان يبعثهم الى الاقاليم النائية على الاجتهاد والأخذ بالرأى فيما لم يجدوا حكمه فى الكتاب او السنة » .

وظاهر من مطالعة تاريخنا الثقافى أن الاجتهاد التشريعى بدأ رسميا جماعيا ، ذلك ان رئيس الدولة كان يختار من اهل الدراية والفقه ، وكان بقدرته العلمة يجمع حوله أمثاله فى النظر والاستنباط فاذا انتهوا الى حكم عملت به الدولة والامة جميعا ..

والدول العظمى الآن تقوم على هـــذا الاجتهاد الجماعى في دعم مبادئها ومصالحها ! ويغلب أن يقودها أكفــأ بنيها ، وان يعاونه فى المشكلات المتجددة مجلس شورى ذكى نزيه حافل بشتى الكفايات .

مع ملاحظة أن الاجتهاد عندنا رحب الدائرة ، يشمل العبادات والمعاملات والشئون الشخصية والدولية ، وقد رأينا عمر يجتهد فى تحديد نفقة المطلقة ثلاثا وسكناها ، كما يجتهد فى أنصـــبة المجاهدين من غنائم الارض المفتوحة !

وودت لو بقى الاجتهاد رسميا جماعيا كما بدأ اذن لوقى المسلمين اختلافا كثيرا ، لكن سيطرة الاسر الكبـــيرة على منصب الخلافة مكن رجالا جهلة من الظفر به ، والرؤساء القاصرون لا فقه لهم فى كتاب او سنة ، ولا علاقة لهم بشورى او استنباط .

وانه لمن المحزن أن يقود العباقرة شتى الملل والنحل ، وان يقود المهازيل امة الرسالة الخاتمة !

وليست الامة عقيمــــة ، بل ان اهل الذكر فيها كثر ، وقد تحركت الشعوب لمـــا وقفت الحكومات ، وبدأ الاجتهـــاد الفقهى يزدهر ، ورجاله يلمعون ، ولكنه كان نشـــاط افراد عظماء ، اسسوا مدارسهم العلمية بقوة وتجميع الاتباع حولهم بحماس .

ومع ان الائمـــة الفقهـــاء كانت بينهم وبين رجال الســلطة وحشة واكثرهم مسه الضر الا انهم نجحوا فى نشر علومهم وتنمية مدارسهم ، حتى ملأت ارجاء العالم الاسلامى .

ولم تخـــل عاصمة اسلامية قديما من فقيه كبير ، وامام مرموق ، على ان الفقهاء الاربعة المتبوعين كانوا اســـعد حظا ورزقوا من حفظ اجتهادهم وضبط تراثهم ، واستنقاذه من الضياع،

وفقه اولئك الاربعة على عظمته يمثل الاجتهاد الفردى ، ويحمل خصائصه ، وما يغنى قط عن الاجتهاد الجماعى الذى تلتزم الحكومة والجماهير بثماره !

ولا ريب أن اجتهاد محفل من العلماء ادنى الى الصواب والنفع من اجتهاد امام فرد .

والاربعة المشهورون يتفقون على استقاء الاحكام من الكتاب والسنة والاجماع ، الا أن الاحناف يرجحون ظواهر القرآن وعموماته على أخبار الآحاد ، وربما ردوا الحديث بالقياس الجلى ، وهم بهذا المسلك وغيره طليعة فقهاء الراى !

ويليهم المالكيون الذين اعتمدوا فى كثير من القضايا على بيئة الوحى ، وتقاليد أهل المدينة ، ويرونهم أعرف الناس بالسنة الثابتة ، وقد جعلهم هذا الفهم يردون أخبار آحاد أكثر مما رد الأحناف !

أما الحنابلة ومعهم الشافعية ، فارتباطهم بأخبار الآحاد اقوى ، وهم يردون بها القياس ...

ولكل امام منهج فى الفهم والاستنباط وتقرير الاحكام عرف به ، وقلده فيه آخرون ..

ويظهر أن انفتاح باب الاجتهاد الفردى أغرى كثيرين باستقلال النظر وتقرير الاحكام حتى تحولت الحرية الفقهية الى فوضى ، فتداعى أولو الغيرة لوقف هذا التيار ، ودون أن ينعقد مجمع أو يتفق مؤتمر تراجع الناس رويدا رويدا الى فقه الاربعة المشهورين وأهمل غيرهم

وقد كنت اول الامر ناقما على اغلاق باب الاجتهــاد ، ولكن لمــا انكسر الباب وتحدث فى الاســـلام من يعقل ومن لا يعقل ، بل كان صوت المرتزقة اعلى من صوت المخلصين ! عذرت الذين اغلقوا الباب ، واطفؤا الفتن .

ايعنى ذلك انى لا اريد فتح هذا الباب ؟ كلا !

ان الاجتهـــاد التشريعى ، خصوصا فيما يمس المعاملات الداخلية والخارجية ضرورة دينية واجتماعية !

والذى ادعو اليه أن تقوم مجامع كبيرة ، من علماء راسخين، لا يخافون فى الله لومه لائم ، يحيون الاجتهاد الجماعى القــديم ، ويقومون بعملين مهمين ..

الأول : انعاش او احيــاء الفقه الدولى لتحديد أوضاعنا العالمية ، واعادة النظر فى انظمة الحكم الداخلية لانقــاذ المسلمين من مساوىء الحكم الفردى ، ومظالم المستبدين ، وانشاء شرائع ادارية تضبط شئون العمال وتوزيع الاموال ، وتصون الحقــوق الخاصة والعامة ..

اننا متخلفون بضعة قرون فى هذا المجــال ، ولا يجوز ترك الاسلام يفترسه هذا الموت الأدبى !

اما العمل الثانى : فهو مراجعة المذاهب الفقهية السائدة ، وغربلة احكامها ، فمن الغرور القول بأن مذهبا ما انفرد بالصواب كله ، ومذهبا آخر يغلب عليه التخليط ..

ان المذاهب المشـــهورة وغيرها تحتوى على تراث نفيس من الافكار وجهد عقلى ونقلى قد يقصر أغلبنا فى بلوغ مســـتواه ، بيد أن القول المشـهور شىء والتحقيق العلمى شىء آخر ..

وقد نبهت فى مكان آخر الى أن ابن تيمية رد فقـــه الاربعـــة فى ايقاع الطلاق البدعى ، والحق معه عند التأمل ، وأن ابن حزم هدى الى أحكام فقهية أولى بالحياة من غيرها ..

ووجود مجمع فقهى اسلامى عالمى ، يجتهد فيما جـــــد من قضايا . وفيما عانينا من فرقة وضعف أمر لابد منه ...

٤٨ ــ ماذا عن تجديد الفكر الدينى فى الاسلام ؟

جرت على الالسنة كلمة تجديد الاسلام ، وظن البعض أن المقصود منها ، ترقيع ثوب لحقه البلى أو تحريك آلة ادركها العطب ! وقد يتطلب ذلك اهمال شعبة من شعب الايمان ، أو التجاوز عن حد من حدود الله ، أو ارخاص الماضى غرورا بالحاضر ، وتمشيا مع المدنية الحديثة ...!

وهذا كله لا يخطر ببال مسلم ، ولا يفكر فيه الا لصيق بديننا لا يدرى عنه شيئا ..!

ان التجديد المنشود حماية الاصل مما عراه وتنقيته مما شابه وعكر رونقه ، انه غسل الثوب حتى يزول عنه القذى ، او ازالة الغبار عن صورة غطى الاهمال ملامحها ...

قلت فى أول كتاب الفقه منذ نحو اربعين عاما « ...ان حقائق الدين من منابعه الفريدة ما ان أخذت تسير فى مجراها من هذه الحياة حتى علق بها من رواسب البيئات ، ومخلفات القرون ، وجهالات العامة ، وشهوات الخاصة ، ونزوات الحكام ما ذهب بالكثير من نقائها وصفائها ، حتى لتشبه ماء النيل فى مجراه الادنى ، لا يصلح للشراب الا بعد مجهودات متعاقبة من التنقية والتصفية ترده سماويا « كما كان » !

هل امداد الناس بالمياه النقية يضيف شيئا الى جوهرها الاصلى ؟ لا ، الأمل كله أن يعود الماء كما نزل من السماء ! وأملنا فى تجديد الاسلام قريب من عملنا فى تنقية مياه الشرب ...

وقد نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جلال هذا العمل عندما قال : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » !!

والكلمات الثلاث فيها من اعجاز النبوة المحمدية ما يبهر ويسحر ! قديما رأينا عبادا غلاة يكرهون الحياة ، ويقررون عدم الزواج ، وصيام الأبد ، وقيام الليل وهجر النوم . ثم رأينا كيف تعلموا الاعتدال ، وترك الغلو ..

وقديما رأينا من يضع الحديث فى فضائل السور فاذا قيل له : كيف تفعل هذا والرسول يقول : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » ؟ فيقول : كذبت له ولم أكذب عليه ! !

هذا لون مفضوح من انتحال المبطلين ، ومثله كل ابتداع فى الدين ، وخلق لتقاليد رديئة كبلت الامة واقعدتها فى عالم يجرى كالريح المرسلة أما تأويلات الجهله فما اكثرها فى تاريخنا القريب والبعيد ! وآخر ما وقع فى يدى كتاب لمؤلف من الجزيرة العربية زعم أن به نيفا واربعين دليلا على ان الارض واقفة والشمس هى التى من حولها تدور ..

ونظرت فى هذه الادلة فاذا هى تفاسير خاطئة لأكثر من اربعين آية قرآنية ، مال بها الكاتب المسكين عن وجهتها ليشعر الناس بأن الاسلام والعلم الحديث خصمان لا يتفقان !

والواقع أن حركات التجديد والاصلاح تخبو او تضىء وتكبوا أو تمضى بمقدار موقفها من هذه الآفات ، تحريف الغالين. وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين !

ولما كان تجديد الاسلام عودا الى الاصل النازل من السماء ، فان المثل الأعلى والقدوة الصالحة لا يؤخذان الا من سيرة محمد وصحبه !

ان محمدا عليه الصلاة والسلام ، والرجال الذين جمعهم حوله ورباهم على يده هم وحدهم الذين يمثلون الاسلام الحق . وهم أفضل القرون واجدرها بالاتباع ..

وقد وقع انحراف عن خطهم ، وبدأت زاوية الانحراف تتسع أضلاعها بمر الزمان .

فاذا جاء اليوم من يريد العودة الى القرن الماضى ، و القرن الذى سبقه ، فهو لا يزيد الامة الا خبالا ، ولن يصنع شـــيئا أكثر من مد زاوية الانحراف،وتوسيع الشقة بين الصراط المستقيم ومواريث العوج التى نشكو منها ، والتى انتهت بنا الى أن صرنا فى مؤخرة العالم ...

ان ســـوءات الحكم الفردى فى مطالع القرن الخامس عشر هى هى سوءات الحكم الفردى خـــلال القـــرن الثالث عشر . وقرون كثيرة قبله ..

والمنار الذى نمشى على سناه هو جو الشورى ايام الرسول ودولة الخلافة ، عندما كان الحاكم — تأسيا برسول الله — يوجل من الكبر . ويستكين للحق ، ويستشير أهـــل الذكر ، ويرى أنا اجير للأمة يكدح لمصلحتها ، ولا حق له فى أكثر من مرتبه المفروض له ، ويشعر بالرهبة عندما يقال له : اتق الله ، ويرى اسرته بعض الرعية الذين لا حول لهم ولا طول ، ويقتص من نفسه اذا اخطأ ، أو يترك لأمنـــاء الأمة ومشيريها ان يقتصــوا منه ، كما قال عمــر بن الخطـــاب — وهو يؤدب كبار الموظفين — لقد رأيت رسول الله يقص من نفسه !!

هذه التقاليد السلفية فى فن الحكم لها نظائر فى شئون المال . والقضاء ، وشتى الاوضاع الاجتماعية ، بل لها نظائر فى شئون العبادة ...

ثم شرع المسلمون يتزحزحون عنها قليلا حتى أمسوا سواد العالم الثالث ، أو حثالة البشرية التى تملأ الارض ...!

وذلك لانهم ذهلوا كل الذهول عن سنة نبيهم وتقاليد سلفهم ، ولم يعوا من دينهم شيئا ذا بال ..

وبديه أن ما حدث قديما يتضمن مبادىء ويرسم اتجاهات، وان صور التنفيذ قد تتجدد على اختلاف الليل والنهار داخل النطاق الذى يصون المبدا والوجهة .

فالجهاد حق ، وندب الناس اليه قد يكون باعلان عادى ، أو بصيحة « الصلاة جامعة » ..

فهل ذلك الاعلان أو تلك الصيحة هما الآن وسيلة اعداد الجيوش وحشد المقاتلين ؟ ان الوسائل تتغير ، والمبدأ ثابت .

والشورى حق ، وكان تنفيذها قديما يعتمد على وسائل قليلة الكلفة ، او على طلب الرأى من الحاضرين ، لكن الامر الآن يتطلب أنظمة دقيقة وتراتيب واسعة ..

والمشغولون بتجديد الفكر الاسلامى ينبغى أن ينظروا فى هذه الوسائل المطلوبة ، وأن يتخيروا منها أفضل ما يحقق الهدف ، ويبرز محاسن الاسلام ولا عليهم أن يقتبسوا من هنا ومن هناك ...

قال لى أحد الناس : أليس عيبا عليك وانت من دعاة الاسلام ان تعجب بالديمقراطة وتدعو لها ؟ قلت له الحق معك ! ينبغى ان أدع الكلمات الاجنبية ، واستخدم الكلمات العربية...!

قال : الامر أكبر من ان يكون اعتراضا على كلمة ، اننا نرفض تفويهك بنظام !

قلت له : اننى مسرور بحبك للاســـلام ، واوكد لك أننى لست اقل حبا له منك ! فاسمع ما عندى ...

عندما وقعت مجزرة « بيروت » الشهيرة ، وعندما وقعت مجازر قبلها تحركت الجماهير فى عواصم كثــيرة تتظاهر ضـــد الجزارين وتندد بجرائمهم ! كان ذلك كله بعيدا عن ارض العروبة والاسلام التى لم تنطلق فيها مظاهرة احتجاج واحدة !

ما السبب ؟ ان الناس فقدوا أو كادوا ملكة الشجاعة تحت ضغط النظم الاستبدادية .

لقد علموا أنهم لو خرجوا الى الشوارع لتعرضوا للموت ! فان الحكومات القــائمة لا تريد تجريئهم على الخــروج ، انهم لو خرجوا اليوم ضد اليهود فسيخرجون غــدا ضدها ، فلتغلق الباب ابتداء ..!

أرأيت ما انتهى اليه الحكم الفردى ، وضياع الشــورى الصحيحة ؟

وانظر الى حركة المــال العام والخاص فى دار الاســلام وبعيدا عن دار الاسلام ! ان استغلال النفــوذ لكسب درهم من طريق قريب يقتل صاحبه ادبيا فى اقطـــار الارض كلها ، اما لدينا وحـــدنا فان امتلاك القنــاطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والمساحات الشاسعة من اراضى الزراعة والبنــاء يتم بلا ضبط أو حساب ، وتسعه أمشـار الاغنياء من هذا القبيل !!

هل لهذا الموج الرهيب صلة بالاسلام ؟ ان ديننا اول من أعلن الحرب عليه ! فماذا صنعتم لاتقاء هذا البلاء ؟

هناك من خوف بالله وذكر الدار الآخرة فى وعظ بليغ أو غير بليغ ..

وهناك من سكت وآثر السلامة ! هناك من تحدث عن بدع المساجد وسخط لزيارة النساء للمقابر ! هنا كمن تحدث عن أن الحلف بغير الله شرك ونسى أن الرياء شرك ! وممالاة الظلمة كفر ! هناك وهناك ...

فاذا عمدنا الى أصل الداء واستفدنا من أدوية اصطنعها غيرنا لاتقاء مضاعفاته اعترضتم طريقنا ، واتهمتم سيرتنا ...؟

الحق أن موكب المتحدثين فى الاسلام ملىء بالهازلين . وهؤلاء يميتون الاسلام ولا يجددونه ..

ثم سل نفسك ايها الاخ المعترض : لو كان السلف الاولون يعتمدون فى غذائهم وكسائهم ودوائهم على ما يرد اليهم من الفرس والروم أكان ينجح لهم جهاد ؟ او يقدرون على تحرير مستضعف وحماية حقيقة ؟؟

انهم سيموتون فى أماكنهم هزالا !! فاذا شرعنا نتحدث عن الموات المادى والضياع الانسانى لأمتنا ، وبدأنا تحريكها لتخدم نفسها ورسالتها ، جاء صوفى أو سلفى ليطعن فى كفاحنا .

ان تجديد الفكر الدينى يتطلب عقلا أنضج ، وقلبا أزكى ! يتطلب بصرا بأخطاء التاريخ ومزالق الاجيال ، يتطلب علماء بالكتاب لا مجرد قراء ، وخبراء بالسنة لا مجرد رواة ، وفقهاء فى الشرع لا مجرد مقلدين ، وبصراء بالتربية والتثقيف لا عبيد تقاليد سائدة ، واصحاب دراسات عفنة .

٤٩ ـ ما مكانة الفقه الاسلامي في الاسلام كله ...؟

عندما أراد النبي صلى الله عله وسلم أن يدعو لابن عمه عبد الله بن عباس دعوة ترفع شأنه وتعلى رتبته قال : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » .

وثبت أن الله اذا حبا أحدا فضلا ، وآتاه من لدنه خيرا رزقه الفقه « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » .

وكلمة الفقه فى ثقافتنا التقليدية تشبه كلمة الفكر فى عصرنا الحاضر ، فاذا وصف أحد الناس بأنه مفكر فمعنى ذلك أن فى ذكائه حدة ، وفى بحثه عمقا ، وفى نظره بعدا .

وقد تميز الفقهاء فى تاريخنا العلمى بأنهم الأعرف بأسرار الدين ، ووجوه الحكمة ، وعلل الحكم ، وأهداف الشريعة ، ومن ثم القت الجماهير اليهم بالزمام ومشت وراءهم فى أغلب شئونها ..

ويوجد ناس صالحون قليلو الفقه لعلهم المعنيون بقول القائل : من أصحابى من أرجو دعوته وارفض شهادته .. والواقع أن هناك متدينين لا تقبل فتاواهم ولا أحكامهم ، كبعض الخوارج وبعض الصوفية وبعض المحدثين ، فانهم مع نقاء سرائرهم لم يرزقوا الحكمة ، والوعى ، ولم يحسنوا العمل بما يعلمون ؛ لأنهم حرموا الفقه !!

والحاجة الى الفقهاء ماسة ، لأن الفقه الاسلامى تتناول شئون الحياة كلها ، فهو مع المرء فى يقظته وفى فراشه ، فى خلوته وجلوته ، فى سفره واقامته ، فى أدق شئون جسده ، وفى علاقته بالدولة ، بل فى علاقته بشتى الملل والأجناس ..

واستيعاب الفقه لنواحي الحياة الخاصة والعامة على هذا النحو يجعله المسئول الاول عن حاضر الامة ومستقبلها ، ويجعل الفقهاء القادة الحقيقيين للجماهير ..

ومعلوم ان الفقه يستمد احكامه من الكتاب العزيز ، ثم من الوف السنن التى نقلت عن صاحب الرسالة خلال ربع قرن ، ثم من القياس والاستصلاح والاستحسان والاستصحاب والقواعد المستفادة من اصول الاسلام الاولى !

والخبرة بهذا البحر المتلاطم من المعارف تحتاج الى عبقرية فذة ... ثم ينضم الى ذلك ما قرره المسلمون — باجماع — ان العلم النظرى وحده لا يكفى فى اعطاء قيمة ادبية لانسان ! لابد معه من تجرد لله ، وصلابة فى الخلق ، ونزاهة فى السلوك واستعلاء على اغراء الحكم والمال !

ان الفقه والفقهاء اسس شامخة فى حضارتنا ، ولا يضير البحر احيانا ان يحمل موجه بعض الغثاء !

والمسلمون الآن يعانون هزائم فقهية وسياسية اليمة ! ومع تسلط الغزو الفكرى على اقطارهم حسب البعض ان الدين صلة خاصة بالله ، وان الصلات الانسانية بعد ذلك موكولة الى الفكر الانسانى العادى ، وبذلك يسقط الفقه عن مكانته ، ويتحرك الناس وفق ما يضعون من قوانين !

وهذا الكلام جهالة فاضحة بالاسلام ، بل هو ارتداد حقيقى عنه فان القرآن الكريم كما تحدث عن العقائد والاخلاق تحدث عن العلاقات الاجتماعية والدولية ، ورسم للأسرة ، وللدولة جميعا ما شاء الله من شرائع وتوجيهات ، وسيرة محمد صلى

الله عليه وسلم لم تكن سيرة رجل يعيش فى صومعة ، بل كانت سيرة عابد مجاهد يشرف على استقامة الأخلاق ، كما يشرف فى الوقت نفسه على توزيع المال فى المجتمع ، والامساك بدفة الحكم ، وشئون الحرب والسلام ، اى ان صومعته كانت الدنيا كلها ...

وموضوع الفقه الاسلامى بعد العقائد والاخلاق يتناول أعمال المكلفين دون استثناء ، ويبت فيها وفق توجيهات الكتاب والسنة،وما يعتمد عليهما من دلائل .. الا ما أرحب هذه الدائرة واغناها ...

وأرى ان اختلاف وجهات النظر بين الفقهاء يعطى الساسة والقضاة فرصا كثيرة للتصرف فى نطاق الشريعة على هدى من مبادئها . ولنضرب مثلا مما يقع فى عصرنا هذا الذى تقاربت فيه الازمنة والأمكنة والشعوب والملل ..

يقول الشيخ محمود شلتوت « من مسائل الخلاف أن ابا حنيفة يرى مسئولية المسلم — وتغريمه — اذا أتلف مالا لذمى اذا كان هذا المال مما يحرمه الاسلام كالخمر والخنزير ، ولو كان المسلم قاصدا باتلافه وجه الله وثواب الآخرة .

وخالف الشافعى فى ذلك ، وقال لا مسئولية ولا غرامة عليه اذا اتلف ما يحرمه الشارع !!

ويعتمد ابو حنيفة فى تقرير الضمان على المتلف ، بأن الاسلام أمرنا بترك اهل الكتاب وما يدينون ، وقد روى أن عمر بن الخطاب سأل عماله : ماذا تصنعون بما يمر به أهل الذمة من خمور ؟ قالوا : نعشرها !! فقال : لا تفعلوا ، وولوهم بيعها ، وخذوا العشر من اثمانها !

قال أبو حنيفـــــة : لولا انها متقومة -- اى لها قيمة — وان بيعها جائز بينهم لمـــا امرهم بذلك ! ومن المعلوم أن التقـــوم أصل الضمان والمسئولية ، اما اهدار تقومها فانما هـــو بالنسبة الى المسلمين وحدهم » .

ومن مسائل الخلاف كذلك أن أبا حنيفة يرى الاقتصـــاص من المسلم اذا قتل كافرا من اهل الذمة ، ويحكم بقتله ، ويخالف فى ذلك الفقهاء الآخرين ...

وكلام الاحناف هو الذى يمكن امضاؤه فى عصرنا ، وتستطيع الدولة الاسلامية به أن تتعايش مع الاسرة الدولية ، وتستطيع من خلال هذه المعايشة ان تبلغ رسالتها وتعرف شعوب الارض بما عندها ..

وكل ما تطلبه الامر اذا اختارت الحكومة مذهب الاحنـــاف ان يتقبل الشافعية والحنابلة الموقف بغير اكتراث ، والا يفـــكر بعضهم فى اللجوء الى عصيان مسلح !!

ان ضيق الخلق والافق يجر على المسلمين البلايا ، وما كان الفقهاء قديما يرون الخلاف مثار فتنة بل وجـــدنا الشافعى — يقول : الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة ، مع رفضه لكثير من آرائه !

كنت اسمع برنامجا فقهيا فى احدى الاذاعات العـــربية . فعجبت لاجابات المفتى على الاسئلة التى توجه اليه ، وقلت : هذا كلام اقرب الى الهدم منه البناء ..

سئل — عفا الله عنه — عمن أخـــرج زكاة رمضان نقدا ؟ فقال : لا تقبل ، الا ن تكون شـــعيرا أو تمـــرا او شيئا من غالب قوت البلد ! ثم استطرد يصف اخراجها نقدا بأنه مخالف للسنة .

وان رسول الله صلى الله عله وسلم يقول : « من أحدث فى امرنا هذا ما ليس منه فهو رد .. » !!

وبدا من حديث المفتى أن اعطاء الفقير مالا — ريالات أو جنيها — بدعة ... وان الأحناف بهذا المسلك اصحاب بدعة !

وقد رفضت كلام الرجل جملة وتفصيلا ، فان مصلحة الفقراء هى التى ترعى ، واخذ المال اجدى عليهم واطيب لانفسهم ، وجمهرة المسلمين تخرج زكاة رمضان نقدا تبعا لمذهب أبى حنيفة ، وهو اقرب الى العقل ولا يصادم نقلا ...

وسئل — هو او زميل له — من طلبة احدى المدارس عن الكتب التى بين ايديهم ، وما تحتويه من صور كثيرة ؟ فأجاب بعدما شكا عموم البلوى بأن رءوس هذه الصور تقطع ! وبذلك يحل تداول هذه الكتب !

ولماذا تقطع تلك الرءوس ؟ لان المصور يكلف يوم القيامة بنفخ الحياة فى هذه الصور ، اذا كانت تامة !

وتساءلت دهشا : كيف تحيا صور على ورق ، أو على شاشة تلفاز ، او على سطح مرآة سواء بقى الجسم برأسه أو بقى بلا رأس ؟

ظاهر ان المفتى يريد نقل حكم التماثيل الى الرسوم المسطحة. وهو نقل مرفوض .. والاجيال تشب بهذه العقلية تفقد الحس الاجتماعى السليم .

ونعود الى فقهنا الاسلامى الذى يتسع طولا وعرضا ليشمل كل شىء ، انه يتحدث فى شئون العبادة من صلاة وصوم وزكاة وحج ، ويتحدث فى شئون الاسرة من زواج وطلاق وحضانة

ومواريث ، ويتحدث فى الشئون التجارية من بيع وايجار وشركات وكفالات وحوالات ... الخ . ويتحـــدث فى الجنح والجنايات المتعلقة بالعرض والدم والمال ، ويشرع انواع الحدود والقصاص، ويتحدث فى الشئون الدولية وما قد يقع من حرب ، أو يعقـــد من صلح او هدنة او امان ... الخ .

وهناك ميدان ندر الكلام فيه أو انعدم وهـــو الفقه السياسى الضابط لعلاقات الامة بحاكمها ، وكيف يحاسب ويختار . وميدان آخـــر لشئون العمل والعمال يؤسفنى ان اكثر قوانينه ينقـــل الآن من الخارج لعجز فقهائنا عن تلبية مطالبه !

والذى أقترحه لخدمة الفقه الاسلامى أن تطوى مســـافة الخلاف بين رجاله وان يتعاونوا على ســـد الثغرات واستدراك ما فات ، ويواجهوا ببصيرة نيرة قضـــايا اليوم والغد وأخـــيرا هنا كموضوع جدير بالدراسة الجادة ، موضوع تقنين الفقـــه لاسلامى وصب احكامه فى مواد محدودة ، يتصرف القاضى على ضوئها ، وفى نطاقها ..

ان ذلك ابعد عن المجازفات وادنى الى العدالـــة ، وما زلنا نذكر أن فوضى الافتاء والتقاضى قديما هى التى انتهت باغلاق باب الاجتهاد ، وتجميد الفقه كله ، وما تبع ذلك من ركود وتراجع ..

٥٠ ـ لماذا يجب ان يكون الفقه الاسلامى المصدر الأساسى للتشريع ؟

وظيفة القانون فى اى مجتمع يحرس عقائده وقيمه ، وان يحمى افراده ، ويصون حقوقهم المادية والادبية وفق ما استقر بينهم من مبادىء ومثل ! ..

وبديهى ان تختلف القوانين باختلاف المجتمعات التى تسودها ! ففى العالم مجتمعات وثنية وملحدة ومجتمعات تنتمى الى اليهودية أو الى النصرانية .. ووظيفة القانون فى بلد يرى الدين خرافة غير وظيفته فى بلد يحترم الدين على نحو ما ..!

وفى الأقطار التى بقيت للأديان فيها قيمة اسمية قد يمنح الدين قدرا من الحركة بقدر استكانته الى الانظمة الغالبة وهروبه من مواجهتها ، فاذا ظهرت عليه اعراض المقاومة ، لاحقه النظر الشزر ليسكن او .. ليذهب حقه فى الحياة .. !

وخلال القرنين الاخيرين سقطت مساحات هائلة من العالم الاسلامى فى ايدى اعداء الاسلام فاستولى الاستعمار الشيوعى على اقطار رحبة فى آسيا واوربا وافريقيا كما استولى الاستعمار الغربى على اقطار اكبر واخطر .

وشرع كلا الاستعمارين يفرض قوانينه على الاراضى التى احتلها،ويعمل بدابواصرار على سلخ الامة من عقائدهاوشرائعها وقسرها على قبول نظم اخرى لا تمت بصلة ما الى كيانها الروحى والعقلى ..

كان المسلمون كجسد انتزع قلبـــــه ثم جيء له بقلب ثور أو ذئب ليحل محل القلب المقتطع !!

ان معنى ذلك الموت البطيء أو السريع ! ليكن ، فذلك هو المطلوب !

فى اليمن أو فى التركستان ، يكلف المسلم أن يحيـــا وفق معتقد جديد يضع الوحى الاعلى فى المتاحف ويجعل الولاء لسماسرة الفكر الاحمر ، لا لله وانبيائه !

وينهض القانون بدور التنفيــــذ الصارم لمتطلبات الوضع الجديد .

وفى اغلب عواصم العالم العربى الاخرى يكلف المسلم ان يصم أذنيه عن نداء الكتاب والسنة ، يكفى ان يكون للاســـــلام وجود رمزى لا يتخطى حدوده ، أما زمام الحياة الخاصة والعامة ، ففى يد أخرى تمحو وتثبت كيف تشاء ..

وعلى القانون أن يلوى عنق المجتمع وتقاليده ومواريثـــــه نحو هذا الهدف الجــديد .. نعم ، على القانون الذى وضـــعه الاستعمار أن يصرف البصائر والابصار عن شرع الله وهـــداه حتى يعمل الزمن عمله فى تمويت الاسلام كله بعدما مات تشريعه فى كل ميدان !!

ان للقوانين الوضعية التى جلبها الاستعمار معه وظيفـــــة مقررة ، وظيفة أهم من اقتياد أمة مهزومة عســـكريا وسياسيا ، وفرض ارادة الغالب عليها ! ان القوانين الوضعية هنا تشـــويه متعمـــد لوجه الامة الاسلامية ، أو مسخ حقيقى لكيانها الروحى والعقلى ، والهدف الاخير الاتيان على الاسلام من القواعد !

وعندما نقيس المسافة بين الدين ومطالبه وبين القوانين المجلوبة وآثارها ، تبدو الشقة بعيدة .. بعيدة ! خذ مثلا قضية الخمر - وهى نموذج للتقاليد الغربية الوافدة - أن المسلم يراها رجسا من عمل الشيطان ، ويراها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويرى شاربها ساقط المروءة واجب العقوبة ، ولكنه ينظر الى أرجاء المجتمع فيرى مصانعها تقام وحوانيتها تفتح واسعارها تقدر ، واحفالها تبرز واعلاناتها تكثر وشاربيها يكرمون ولا يهانون ! فأى تحد لايمانه ابلغ من هذا التحدى ؟

ان ولاءه لله ولاحكامه يصدم ، ومبدا السمع والطاعة يهتز ، والانزلاق عن سائر التعاليم الدينية الاخرى يمهد !!

ومن حق المسلمين فى كل شبر من ارضهم أن يرفضوا القوانين الوضعية وأن يعلنوا عليها حربا دائمة فهى الوجه الرسمى لغلبة الجاهلية على دولتهم ، وهى الاساس الموضوع لضرب بقايا الاسلام الخلقية والاجتماعية ، بل هى الجرثومة المتحركة لمحو الايمان من القلب وجعل الولاء لله ورسوله صفرا ...

من حق المسلم الذى ولد فى عصر الهزيمة الاسلامية وانتصار الجاهلية الحديثة أن يشعر بالدهشة والتساؤل : لماذا كتب على آيات من المصحف أن تموت وأن يرفض انطلاقها الى الحياة ؟ ولماذا تركت آيات اخرى يستطيع من شاء أن ينفذها وان يهملها ، وهل هذه الاستطاعة باقية أم الى حين ؟ ثم تلحق بالآيات المعطلة اى الميتة ؟ !

أن تطلع اى مسلم الى طاعة ربه فى كل ما أمر به او نهى عنه شيء عادى أو هو الشيء المرتقب الذى لا يرتقب غيره .

ولذلك فمن السماجة التى لا قرار لها ان يستغرب احـــد المطالبة بحكم الله ، وان يعرقل ســـير القوافل المؤمنة وهى تنتصر لشرائع السماء .

ولكنه الغزو العسكرى تحول الى غزو ثقـــافى خبيث ، وسخ مخ الجيل الجديد وضلل سعيه ، وخلق عصابات من الأدباء والمترجمين والاعلاميين والمؤلفين والفنانين ، هجموا على تراثنا يبتغـــون محوه ليحلوا محله أردا ما فى الحضارة الغربية ..

بذلك ينتهى وجودنا الادبى باسم التجـــديد ، وتتحـــول هزيمتنا السياسية الى غناء باسم التقدم .

بيد أن الله احبط كيد الخائنين ، ونشأت فى العالم الاسلامى شرقه وغربه نهضةعارمة تنشد العودة الى دينها وتزدرىما أدخله الاستعمار علينا من قوانين ما أنزل الله بها من سلطان !

ومع المطالبة بعودة الشريعة الاسلامية الى المجتمع الاسلامى ، نحب أن نلقى نظرة فاحصة الى هـــذه القوانين الوافـــدة .. ان المستعمرين الأوائل الذين فرضوها كانوا نصارى ، فهل هـــذه القوانين نصرانية ؟

الواقع ان الاناجيل ليست كتب تشريع ، وان عيسى عليه السلام بين انه منفـــذ لتعاليم التوراة فى الجملة ومعنى هـــذا ان شرائع العهد القديم هى التى يجب تطبيقها ، فهل طبق النصارى هذه الشرائع ؟ كلا ! لأن اليهود انفسهم أهملوا اغلبها فكيف يجيىء غيرهم ليرد اليها الحياة ؟ بل ان « بولس » داعية النصرانية الاكبر وسع دائرة التعطيل ، فألغى الختان وهو مقرر من عهد ابراهيم الخليل ، وأباح أكل الخنزير ، ونصوص التوراة تأبى ذلك ..!!

واتباع النصرانية فى العصــور الأخيرة ينظرون الى شرائع التوراة نظرة ريبة وتهمة .. فبعضها يستحيل علميا قبوله لقسوته وشناعته كتهديم بيوت بعض المرضى ونقضــها من أسســها ، وبعضها حف به ما وقف تنفيذه كشريعة الرجم ».. !!

وعلى اية حال فان اليهود والنصارى جميعا اماتوا اغلب الاحكام السماوية وشرعوا لأنفسهم قوانين أرضية تحكم شئون الأموال والدماء والاعراض ..

وظاهر ان عددا من القوانين والنظرات الرومانية ســاد المجتمعات الأوربية وساقها الى وجهته ، والقوانين الرومانيــة وثنية الأصل أرضية النزعة لا علاقة لها بالسماء .. وانما تستمد وجاهتها من تقاليد يتبغى — لأمر ما — ان يحتكم الناس اليها ..!!

وعند التأمل نشعر بان واضع القانون كان يتخيل نفســه مكان المنحرف ثم ينشىء العقوبة المناسبة فتجىء وكأنها اعتذار عن المجرم او تقدير لوجهة نظره ، او اتاحة لفرص النجاة امامه ..

اعنى انه ينظر فى حال القاتل ، فان كان الدافع الى القتل شعورا مفاجئا تملكه ، ابعــد عنه القصــاص ومهــد امامه طريق الحياة !

ان واضع القانون فى الحقيقة كان ينقذ نفسه من القتل لأنه يتصور نفسه مكان المجرم ، اما الآثار الاجتماعية لمنع القصاص فهو يتجاهلها .

وقــد مضى هذا الشعور المعتل فى طريقه حتى ابطل او كاد عقوبة الأعدام لجماهير القتلة .. وأمسى من العدالة ان يغتصب رجل ذئب بضع عشرة فتاة ، ثم يقتلهن جميعا ، ثم يقضى بقيةحياته فى سجن مهذب !!

وفى نظر القانون الوضعى ان الجسد ملك صاحبه . ليس لله حق فيه ! فاذا زنى انسان بملء ارادته فلا حرج ولا جريمة . واذا كان هناك حق لزوج . كانت المؤاخذة محدودة ، تذهب بتنازل الزوج !

والمال اخطر من العرض ، فسن الرشد المالى احدى وعشرون سنة ، أما سن الرشد عندما يتصرف أمروء فى عرضه فثمانى عشرة سنة . والقضاء فى شئون المال ملزم بما كتب ، فلا تسمع الدعوى فى دين شفوى زاد عن عشرين جنيها ، ولا مكان لضمير القاضى هنا فى محو أو اثبات .. اما فى شئون الدم والعرض فللقاضى أن يتصرف بما يراه ادنى الى الصواب ، والصواب هنا وفق مقررات البيئة ، وفى قضية الثرى المصرى على فهمى الذى قتلته زوجته الفرنسية ، رأت المحكمة ان القاتلة لا تستحق عقوبة ما تقديرا لظروفها النفسية !!

وانقطاع الصلة بين التوجيه الالهى وعلاج الانحراف انتقل من القضايا الخاصة الى القضايا الدولية فاذا قتل يهودى فى روسيا قامت الدنيا وقعدت ، واذا قتل ألف مسلم فى بلد آخر لم يتحرك أحد ..!!

ومظالم الزنوج فى جنوب افريقيا قد تثير قليلا من التعليق . ولكن هذا التعليق يختفى عندما تبلغ القضية مجلس الامن ويقترح توقيع عقوبات على جنوب افريقيا ! ان الدول العظمى كلها تستغل حقها فى الاعتراض لتبقى جنوب افريقية ملكا خاصا للرجل الأبيض — يقترف ما يشاءون حرج — ويجتاح حقوق السود بلا وجل .

وكان هلاك الامم السابقة أنهم اذا سرق الضعيف قطعوه واذا سرق الشريف تركوه ، أى أن العدالة تتلون مع القوة والضعف . وذلك ما يحدث الآن مع التقدم الحضارى الكبير ، انه

تقدم علمى حقا ، ولكنه مثقل بأوزار الهوى وأوحال الشهوات ، لانه لا يؤمن بالله ولا يخضع لحكمه ، ولا يتبع هداه .

ولا نزعم أن القوانين الوضعية شر كلها ، فهى من صنع الانسان الذى يصيب ويخطىء ويضل ويهتدى وربما تضمنت امورا جديرة بالقبول خصوصا عندما تعمل فى الميدان الادارى او الدستورى .. لكن ذلك لا ينسينا امرين : أولهما انها جعلت اقصاء الاسلام وازهاق روحه هدفها الكبير ، والآخر انها تنقل الينا قيم واعراف أقطار جرفتها فلسفات مادية لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر !

ومن ثم كان الخندق عميقا بين هذه القوانين الغازية المفروضة كرها ، وبين جماهير لم تنس ولاءها لله ورسوله ، ولم تتنكر لماضيها الأسلامى الثابت .

والصراع القائم الآن هو بين سماسرة الغزو الجديد ومروجى عقائده وأنظمته .. وبين حراس الاسلام والأوفياء لتراثه وتاريخه وأمته ..

ولما كان الاسلام دينا متعدد الشعب ، له فى كل ميدان توجيهات ومعالم فأن رحى المعركة تتسع يوما بعد يوم تتناول السياسة والاقتصاد كما تتناول الزواج والحضانة ، وقد رفضت الجماهير أن تقسم ولاءها بين ما تريد وما يراد لها .

وكل يوم يمر يزداد صوتها علوا بضرورة تحكيم الاسلام فى كل شىء ، وانزال العبادات والمعاملات جميعا ، على شرائعه المقررة فى الكتاب والسنة ...

وأعداء الاسلام ايقاظ لموقف امته من شريعته المهدرة ، وهم يضعون العوائق علنا وسرا أمام عودة الشريعة الاسلامية ..

وأمل الفريقين لا يخفى،فأعداء الاسلام يريدون بقاء القوانين الوضعية تمهيدا لأزالة الاسلام كله ، حتى من مجال الأخلاق ؛ فالاخلاق المدنية لديهم افضل من الاخلاق الدينية ..

وأنصار الاسلام يبغون من عودة التشريع الاسلامى حماية الايمان ذاته وحراسة آثاره فى شئون الحياة كلها ، ورد ما انتقص منها وارغام المغيرين على الانسحاب بكل مقوماتهم المضادة لتعاليم الاسلام المناوئة لشعائره وشرائعه .

بيد أننا بعد ما كشفنا جبهـــة العـــدو لا نريد ان ندافع عن انفسنا بالباطل ، فقد ظلمنا رسالتنا عندما جمدنا فقهنا الف عام ، واخذنا نطحن فى الماء خلال تلك القرون ، ما نزيد ولا ننقص.وكأنما اثبتنا الفلك واغمضنا عين الزمان ..

وعندما ارغمنا على الحركة شرع لفيف منا يبدأ العمل من حيث وقف الآباء غير معترف بأن شيئا ما قد حدث فى طول العالم وعرضه ..

انه لا بأس ان نغالى بما عندنا ، على شريطة الا نبخس ما حققه الآخرون فى فترة غيابنا عن قيادة العالم فقد يكون فيـــه

وشىء آخر لابد أن نراجع انفسنا فيه ، ان الشمال الأفريقى لا يعرف الا فقه الامام مالك ، واغلب الاتراك والهنود وجمهور من العرب لا يعرف الا فقه الامام أبى حنيفة .. ولكل امام كبير اتباع متحمسون ..

وهؤلاء الائمة الأعلام صنعهم الاسلام ولم يصنعوه ، وما اتردد فى اعتبارهم قمما مرموقة . لكن مسلمى العصر الحاضر لا يجوز ان يلقوا حضارة العصر وفكره المواز بوجهة نظر واحدة لامام لا يعرفون غيره .. الاسلام أكبر من ذلك .

الفقيه المسلم فى هذا العصر يجب ان يستوعب ما قاله رجالات الاسلام فى تفسير نصوصه ، وان يواجه بهذه الحصيلة الفنية ما طلع به العصر من نظرات ومبادىء !

ان التعصب المذهبى منكور بين العامة ، وارى انه بين الفقهاء جريمة غليظة .. فاذا شرعنا نرد القوانين كلها الى فقهنا الاسلامى ، فسنجد انفسنا امام ينابيع دفاقة وثروات طائلة ورجال مهدوا الطريق واستحقوا التقدير .. وما علينا الا ان نحسن التأسى ونسرع المسير .

انتهى الجزء الاول ويليه ــ ان شاء الله ــ الجزء الثانى

فهرس

محمد الغزالى

مائة سؤال عن الإسلام

الجزء الثانى

دار ثابت

الطبعـــة الاولى

رمضان ١٤٠٤هـ

يونيـــة ١٩٨٤م

الناشر : دار ثابت للنشر والتوزيع ــ ٩٢ (أ) شارع محمـــد فريد
القاهرة ــ ت : ٧٦٩٥٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

٥١ ــ ما معنى الاجماع وما مكانته فى الاســلام ؟

للاجماع معنيان نحب أن نوضحهما .. فهناك اجماع على حكم شرعى مستفاد بطريق القطع من كتاب الله تعالى أو من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى أن ــهذا الاجماع يعتمد على نص هو الذى أثبت الحكم الشرعى ويســتوى فى هــذا النص أن يكون من الكتاب أو السنة ، مادامت دلالته قاطعة !

والمجمعون هنــا هم الامة كلها من عامة وخاصة ، الامة الاسلامية اذا اتفقت كلمتها على حكم شرعى من هــذا القبيل فقد زادت الحكم قوة ، ومنعت للابد أى شغب عليه (ولمــا كانت الامة لا تجتمع على ضلالة فان الخروج على هــذا الحكم يعــد انفلاتا من الاسلام وخروجا عن الدين) ! ..

اما الاجمــاع الأخر فهو اتفــاق أهل النظر ، أو أرباب الاجتهــاد على حــكم ثبت بطريق القياس أو رعاية المصــلحة أو تطبيقا للقواعد الفقهية المعتبرة : أو ما أشبه ذلك من أدلة .

ويجب احترام هــذا الاجماع ، والتزام الافراد به ، واذا حدث ما يستوجب اعــادة النظر فيه فهو ينسخ باجماع آخر ، من أهل الذكر ، وأصحاب الحل والعقــد . وليس لاحــد أن يتصرف متجاهلا هــذا الاجماع ، والامة التى تحترم نفســها ، والافراد الذين يحترمون أمتهم لابد أن يتقيدوا بهــذا الاجماع قال الخروج

عليه قد يكون فسوقا أو عصيانا ، وربما لابسه ما يؤدى الى الكفر ..

ونعود الى شرح الاجماع بمعنييه ، وضرب الامثال التى تكشف حقيقته !

أمر الله بالصلاة فقال : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى . وقوموا لله قانتين »(١) .

ثم علم الرسول الامة كيف تصلى وبين عمليا أن الصلوات المفروضة تحتوى على سبع عشرة ركعة . موزعة على الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وان كل ركعة بها ركوع واحد وسجودان .. الخ .

وأجمع المسلمون اجماعا مؤكدا منذ القرن الاول على هذه الحقائق ! ما شذ أحد !

فاذا جاء اليوم من ينكر فريضة الصلاة ، أو من ينكر أداءها على النحو السابق ، فليس بمسلم !

وقد التقيت بأناس ينكرون السنة ، وسألت أحدهم : كيف تصلى ؟ فقال كلاما استغربته !

ومن عجب انه لما مثل لى السجود وضع ذقنه على الارض ، وقال : **هكذا أمرنا الله فى كتابه** وتلا الآية « **يخرون للاذقان سجدا** »(٢) .

---

(١) البقرة ٢٣٨ .
(٢) الاسراء : ١٠٧ .

وأيقنت أنى أمام جنون كافر !وكفر مجنون ! وقد بلغنى عن أحد الحكام العرب الكافرين بالسنة أنه اخترع طريقة أخرى فى الصلاة ، لا يخرج بها عن الوصف الذى ذكرنا . . .

وحدث أن أحد الزنوج الاميركيين المقدمين فى قومهم رأى ألا يكون الصيام فى شهر رمضان ، فكان يصدر قرارا بالشهر الذى يختاره كل عام ، قد يكون يناير أو فبراير حسب ما يهوى !

ومادام فى الرؤساء العرب من يغير الصلاة فلم لا يكون فى غيرهم من يقبر الصيا م؟

ويقول الله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين »(١) فاذا أتى من يقول : هذا حكم مؤقت ، كان يصلح قديما ولا صلاحية له الآن ، أو أتى نص قرآنى آخر تلقته الامة جمعاء بفهم موحد ، وقبول مطلق ، فرفض هو قبوله وامضاءه . فهو بهذا الرفض ينسلخ عن جماعة المسلمين ! وخروجه على جماعتهم امارة الكفر بدينهم . . .

والفقهاء من قديم يسوون جحد العقيدة ، وبين انكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة .

ونحن لا نشذ عنهم ، ولا نحب أن يكون الدين مرتعا للعبث والمجون ، أن الاجماع – والحالة هذه – سياج لحفظ الحرمات ، ومنع الفتن ، وتوجيه الجهود الى البناء المجدى . .

أما الاجماع بالمعنى الثانى ، فقد شرحه الامام محمد عبده

---

(١) النساء : ١١ .

وهو يفسر قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم »(١) . قال رحمه الله : « انه فكر فى هذه المسألة من زمن بعيد ، فانتهى به الفكر الى أن المراد بأولى الامر جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين ، وهم الامراء يعنى الرؤساء — والحكام والعلماء ، وقادة الجيش .. وغيرهم ممن يرجع اليهم الناس فى الحاجات والمصالح العامة . فهؤلاء اذا اتفقوا على أمر أو حكم وجب أن يطاعوا فيه بشرط أن يكونوا منا ، وألا يخالفوا أمر الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم التى عرفت بالتواتر ، وأن يكونوا مختارين فى بحوثهم لما عرض عليهم ، ومتفقين عليها ، وأن يكون ما يتفقون عليه من المصالح العامة ، وهو ما لاولى الامر سلطة فيه ، ووقوف عليه ، وأما العبادات ، وما كان من قبيل الاعتقاد الدينى ، فلا يتعلق به أمر أهل الحل والعقد ، بل هو مأخوذ من الله ورسوله وحسب ، وليس لأحد رأى فيه ، الا ما يكون فى فهمه . فأهل الحل والعقد من المؤمنين اذا اجتمعوا على أمر من مصالح الامة ليس فيه نص عن الشارع ، مختارين فى ذلك ، غير مكرهين عليه بقوة أحد ولا نفوذه ، فطاعتهم واجبة ويصح أن يقال : هم معصومون فى هذا الاجماع ولذلك أطلق الامر بطاعتهم » .. — نقلنا ذلك عن المنار بتصرف .

ويضيف الشيخ محمود شلتوت الى ذلك حقيقة أخرى : ان الاجماع الذى يعتبر دينا — من مصادر التشريع فيما لا نص فيه ، هو اتفاق أهل النظر فى المصالح ، وهم رجال الشورى الذين تعرض عليهم الاحداث ، ويتناولونها بالبحث ، وتتفق آراؤهم فيها . وبما أن هذا الاتفاق لا يكون الا أثرا للبحث والنظر كان خاصا

---

(١) النساء : ٥٩ .

بأهل البحث والنظر ، ولا عبرة فيه بموافقـة من ليس أهلا للنظر ولا بمخالفته » ثم يقول : « ويجوز للمجتهدين أنفسهم أو لمن أتى بعدهم ، اذا تغيرت ظروف الاجماع الاول أن يعيدوا النظر فى المسألة على ضوء الظروف الجديدة ، وأن يقرروا ما يحقق المصلحة التى تقتضيها تلك الظروف ويكون الاتفاق الثانى اجماعا منهيا لأثر الاجماع الاول ، ويصير هو الحجة التى ينبغى اتباعها : واذا وجدت المصلحة فثم شرع اللـه » ..

ان الاجماع بمعنييه معقول ! فأما بالنسبة الى ما يستند الى النصوص القاطعة فظاهر ، وما يحب الفكاك منه الا الذى فى قلبه مرض ..

ونتوقف قليلا عند الاجماع بالمعنى الثانى ، انه لا يوجد مجتمع بشرى يحب أن يعرض مقرراته للعبث مادام أولو الألباب قد انتهوا اليها ..

فاذا لاحظ أحد أن هناك تغيرا فى معنى المصلحة وفد به لزمان المتجدد ، دعا الى النظر فى الامر،وشرح ما لديه من دوافع الى مراجعة الاجماع السائد ، فان وافقه الآخرون فيها حل اجماع مكان اجماع .. والا فلا يحل له أن يتصرف وحده ويشذ عن الجماعة ...

اننى أود لو كتب المصحف بالاملاء المعهود لا بالرسم العثمانى ولكنى لا أبيح لنفسى نشر مصحف بهذا الاملاء شاقا الاجماع السائد ! ..

اذا اجتمع أهل الذكر فى الأمة على ترك الرسم القديم ،

واثبات الاملاء الجديد فيها ، والا فكتابة المصحف باقية على ما هى عليــه .

وقــد أنكرت على أحــد الحكام تغييره للتاريخ بالهجرة ، وجعله التاريخ بدءا من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم !! أن هــذا تصرف عابث ، وخروج على اجماع محترم دون سبب واضح أو غامض !!

وقــد يتخيل البعض أن هناك اجماعا على أمر ما ، وليس لخياله حظ من الواقع ..

فاجماع الأئمة الاربعة على حكم ما ، أو على فهم ما لا يسمى اجماعا اذا كانت ثم مذاهب لصاحبه أو تابعين أو مجتهدين آخرين

وقد رأيت من يحتقر الفقه الظــاهرى ، ويرى الاجماع يتم بدونه ، وهــذا تصرف مستهجن ، وقد رأيت لابن حزم آراء كان فيها أولى بالحق من غيره ، وأقوم قيلا ، كما رأيت لابن تيمية فقها ناضــجا بالذكاء والتألق ..

والفت النظــر الى أن الخلاف العــلمى يترجح بقوة الدليل لا بكثرة الاتباع ..

وأن مقــلدى الائمة لا تحسب لهم أصوات مســتقلة عنــد المناقشــة واحصــاء الآراء ، ان آراء المجتهدين هى التى توزن ويكترث بهــا ..

ثم أن التحقيق العلمى ، غير الشهرة ، فقد يذيع رأى يكون التحقيق ضــده ..

وارى أن مواريث كثيرة فى الفروع القائمة على الاستصلاح أو القياس أو ما يشبههما يمكن أن تراجع ، وتصدر فيها أحكام جديدة .

ولنضع نصب أعيننا أن سطوة الحكام القدامى كانت وراء شيوع آراء ضعيفة ، واستحيائها مع أنه كان يجب أن تدفن مكانها !!

ألا ترى أن الشورى — وهى أساس النظام السياسى فى الاسلام — عدها البعض من النوافل ، وعدها آخرون تفضلا من الحاكم ، يعطيها بصوت شامخ وتقبلها الامة بصوت خفيض ! ومن سماسرة الفقه من لا يزال ينشر هذا السخف !! ...

٥٢ ـ ما نظام الحكم فى الاسلام ؟ وهل الامة مصدر السلطة فيــــه ؟

عندما ظهر الاســـلام فى العالم كانت هنـــاك دول صـــغرى وكبرى ، وأديان سماوية وأرضية ، وفلسفات مزدهرة أو مدبرة ، وشهوات فردية وجماعية ، وهــذه طبيعـــة المجتمع البشرى من بداية التاريخ الى عصرنا هـــذا مع تفاوت يسير ..

وصاحب الوحى الخـــاتم كان يدرى ما يفعل لمـــا بدأ تبليغ الرسالة وبناء الامة التى تحملها !

كان يدرى أنه رحمة للعالمين ، وانه مكلف باســـعاد الانسانية كلها ، واخراجها من الظلمات الى النور ..

وكان يدرى أن الكتاب الذى يتلوه ، والسنة التى ينشمـــئها يتضمنان الاشفية التى تنقذ الامم من أمراضها المزمنة !!

وأمراض العالم كثيرة ، بيد ان الوثنية الســـياسية هى علة العلل لانها هى التى تحمى الوثنية الدينية ، وتســـتبقى الخرافات والمظالم ، وتمد حقها المزعوم على حساب ما لله من حقوق ..

والى يوم الناس هـــذا رأيت حكاما يغتفرون العدوان على اسم الله وتعـــاليمه ، ولا يغتفرون العدوان أبدا على ســـلطانهم ومراســـمهم !! ..

كنت أقرأ قوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور ، وذكرهم بأيام الله »(١) .

---

(١) ابراهيم : ٥ .

قلت : كان بنو اسرائيل يعيشـــون فى مصر ذات السـماء المشرقة والارض الضاحية فما الظلام الذى يخرجون منه ؟ انه ظلام الاستبداد السياسى والفرعونية الحاكمة ، والاستضعاف الاثيم ..

وفى صدر السورة يقول اللـه لنبيه محمد : ((كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمـات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميـد))(١) .

ان الكتاب الجديد الذى يحمله النبى العربى العظيم ، يخرج الناس من الظلمات التى عاناها بنو اسرائيل من قبل ، كما يخرجهم من ظلمات الجاهلية المخيمة على كل قطر ، انه يمحو الوثنيـات الدينية والسياسية على سـواء .

الناس يسجدون لاله واحد ، لا يسجدون لغيره !. ومشاعر الخوف والرجاء والرغبة والرهبـة ترتبط قبل كل شىء وبعـده بالخافض الرافع الضار النافع !

وكل تقليد سياسى أو اقتصـادى يربط المشاعر السـابقة ببشر ما فهى ذرائع شرك وأسباب فســاد ، ومحوها من الاصلاحات الاسـاسية للنظام الاسـلامى ..

ومعروف أن شبكة التشريعات الاسلامية تتناول الفرد من المهـد الى اللحـد ، وتتناول الدولة من تنظيف الطرق الى عقـد المعاهدات ، والأمة الاسلامية بهذا المنهاج أمة رسالة تعمل بها وتدعو اليها **وقد قال الله لنبيها : ((ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين))(٢)**

---

(١) ابراهيم : ١
(٢) النحل : ٨٩

ومعنى هـذا أن الحكم الاسلامى ليس دعوة الى سيادة جنس من الاجناس ، ولا هو محاولة لنشر فلسفة أرضية ، ولا تعاون بين أفراد شعب ماكى يعيشوا فى مستوى معين من الغذاء والكساء !

انه دولة تحمى عقيدة وتقيم شريعة ، وكما يصلى الناس وراء امامهم فى المسجد يعبدون الله ، ولا يعبدون هذا الامام ، يمضى الناس وراء حاكمهم لارضاء الله واقامة دينه ، لا لاعلاء الحاكم ، واشباع نهمه فى السلطة ، أو تملقه طلبا لدنيا ، وارتقابا لمغنم ..

تلك هى السمة العامة لنظام الحكم الاسلامى ، وللتفاصيل مكان يجيىء بعد .

والامة الاسلامية — وقد بينا وظيفتها — مصدر السلطات التى تنشأ بين ظهرانيها ، أعنى أنها وحدها صاحبة الحق فى اختيار الرجال الذين يلون أمرها وفى محاسبتهم على ما يقومون به من أعمال ، وفى ذمهم أو الثناء عليهم ، وفى معاقبتهم ان أساءوا ، وفى عزلهم اذا شاءت ..

وكلمة « مصدر السلطة » من مصطلحات العصر الحاضر ، ونحن لا نهتم بالاسم وانما نهتم بالحقيقة والمدلول ، كما أننا نرفض التلاعب بالالفاظ .

ان المسلمين أثبتوا حقهم فى اختيار الخليفة ، أو رئيس الدولة ، بعد وفاة الرسول مباشرة ، وتبين من مسلكهم انه لا خلافة بالاغتصاب او الانقلاب العسكرى ، ولا خلافة بالوراثة ، ولا خلافة

بعصبية ما تفرض نفسها بأى لون من ألوان الاكراه المادى أو **الادبى .**

أنها بيعة حرة تعمد الى **أكفأ رجل فتقدمه وتراقبه ،** فان صدق ظنها فى خدمتها وخدمة رسالتها كانت طاعته دينا ، وتوقيره تقوى ، وان صدق عليه **ابليس ظنه فلا طاعة له ولا كرامة ..**

ولأى مسلم يأنس من نفسه القدرة على هذه الرياسة أن يرشح **نفسه ، واذا انس القدرة فى شخص** آخر رشحه وعرض على الناس **اسمه ! ..**

ان يوسف الصديق رشح نفسه لشئون المال ، وقال للملك : **« اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم »(١) ورشح** خالد بن الوليد نفسه لقيادة المسلمين أول الاصطدام بالروم فى **معركة اليرموك ، لانه رأى نفسه** أبصر بأسباب النصر ، ورشح عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح الصحابى الكبير أبا بكر الصديق لرياسة الأمة وتمت مبايعته ..

وما روى مخالفا لما قلنا فله ملابساته الصحيحة .. ان **أبا ذر رضى الله عنه رغب فى الامارة ورشح نفسه لها** ، بيد أن **النبى صلى الله عليه وسلم افهمه أنه ضعيف وانه** ـ مع تقواه ـ لا يقدر على **اعبائها .**

كما أن النبى رفض ناسا من عشاق الامارة ، طلبوا منه أن يعينهم **فى بعض المناصب ..**

---

(١) يوسف : ٥٥ .

ان المتطلعين الى المناصب الكبيرة كثيرون ، وكذلك الذين يحسنون الظن بمواهبهم !

والامة وحدها هى التى تنتخب من تتوسم الخير على يديه ، وتراه أقدر على مقاليد الحكم ، وأجمع لخلال القوة والامانة ..

ومن السفه تصور أن الاسلام يكره الجماهير على قبول حاكم لا يرضونه لانه منحدر من عائلة كذا !!

واتفق المسلمون على تسمية الدولة الاسلامية الأولى : « بدولة الخلافة الراشدة » كما اتفقوا على سلب صفة الرشد عن حكومات الاسر القوية أو العائلات الكبيرة التى هيمنت على التاريخ الاسلامى فيما بعد ...

لقد جاء فى السنة النبوية أن الله لا يقبل صلاة رجل أم قوما وهم له كارهون ! والصلاة عبادة ميسورة الاداء ، يقدر عليها الصالح والماجن !

أما الرياسة العظمى للامة الاسلامية ، أو ما قاربها من مناصب حساسة ، فهى عبء هائل ، واستيلاء التافهين عليها بوسائل ملتوية سمجة ، بلاء ساحق ، ولعله السبب الاول أو السبب الاوحد فى طى ألوية الاسلام شرقا وغربا ...

الخلافة نظام بعيد عن الفرعونية ، والكسروية ، والقيصرية ، والخليفة رجل تختاره الامة — أى أنه برضاها جاء — وتنظر فى مبلغ وفائه لرسالتها ودينها فتستبقيه ما وفى ، وتستبعده أن عجز !

أو كما عبر ابن حزم : « انه الامام الذى تجب طاعته ماقادنا بكتاب الله وسنة رسوله ، فان زاغ عن شيىء منهما منع من ذلك ، وأقيم عليه الحد والحق ، فان لم يؤمن أذاه الا بخلعه ، خلع وولى غيره » .

وهذا هو ما نقصده بكلمة « الامة مصدر السلطة » ! ولا يجرؤ أحد على انكار ما نقرره هنا ، وما نقرره هو هو ما تزعمه ، ان صدقا ، وان كذبا ، شتى الانظمة الانسانية الحديثة ..

وقد رأيت بعض المتدينين قلقا من هذه الكلمة ، وربما أنكرها ؟ ..

لماذا ؟ ! أحسن هؤلاء المنكرين حالا من يقول : ان الكلمة تعطى الناس حق التحريم والتحليل وهو لله وحده !

وما ينكر مسلم أن هذا الحق لله وحده ، ولكن ما علاقة هذا الحق المقرر لرب العالمين بمبدأ اختيار الامة لحكامها واخضاعهم لسيطرتها ؟ لا علاقة ! ..

فالامة الاسلامية المؤمنة بكتاب ربها وسنة نبيها لن تخرج عنهما أبدا ، بل أنها هى التى تحاسب من يخرجون ! ..

وهناك متدينون محصورون فيما ورثوا من ضروب الافتيات والتجاوز ، للكلمات فى آذانهم طنين غامض ، وهم على استعداد لاتباع أى حاكم ، جاء من أى طريق ! ولو كان عن طريق المستعمرين ! مادام يقدم لهم الكلأ ! هؤلاء لا دين ولا دنيا ! .

وننظر فى أول خطبة ألقاها أبو بكر بعد انتخابه أميرا للامة كلها « أيهـا الناس ، انى وليت عليكم ولسـت بخيركم ! فان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى !

الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضـعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ان شاء الله ! والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شـاء الله .

أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » ...

تدبر هـذه الكلمات ، الخليفة المختـار من الامة يقول انه منها ، ويطلب عونها ان أحسن وتقويمها اذا أسـاء .

ويتعهد باعزاز الضعفاء حتى يبقى لهم حقهم وقمع الاقوياء حتى لا يمرحوا فى حقوق غيرهم ..

ويختم كلمـاته بأن طـاعة الناس له مرهونة بطاعته لله ورسـوله ، أى باقامته للكتاب والسـنة والا سقطت طاعته ..

أهناك اعتراف بسـلطان الامة ورقابتهـا أكـد من هـذا الاعتراف ؟ انه ليس سلطانا ينظر الى الناس من أعلى ، ويرتقب منهم أن يسارعوا اليه زلفى !

انه رجل يطلب من الامة أن تمنحه راتبا يطعم منه هو وأهله ! وليس لصا كبيرا جـدا يضع يده على مال اللـه ، ويومىء الى الخـدامين والمـداحين فيهرعون الى سـاحته ..

ان على المسلمين أن يعرفوا دينهم ، ومكانتهم ، والا هلكوا بالاوضـاع التى ورثوها وألفوها ! ..

الناس ترهب الحكم الدينى لامرين : الاول أنه قد يحرج مخالفيه فى العقيدة ، ويضيق عليهم الخناق ، ويعدهم بلغة العصر — مواطنين من الدرجة الثانية !

وهذا التصرف منفى نفيا تاما فى الدولة الاسلامية ، اذ أن الاسلام يجعل الموطنين المخالفين فى المعتقد فى ذمته وعهده وشرفه ! ويوفر لهم الحماية المادية والادبية على نحو لم تعرفه ولن تعرفه دولة اخرى .

وهذا سر بقاء الطوائف الدينية المخالفة بين ظهرانى المسلمين دون حرج أو عنت ، على حين فنيت القلة الاسلامية أو اعتلت تحت سلطان العقائد الاخرى ..

والمحذور الثانى من الحكم الدينى أن الخليفة ، أو الرئيس يمنح ميزات روحية وغيبية غامضة وكأنه ممثل لله على ظهر الارض، فله ما يشبة القداسة أو العصمة !

وهذا المعنى منكور ومرفوض فى الدولة الاسلامية ، فالحاكم واحد من الناس ، غير أنه اثقلهم حملا ، واشدهم مسئولية ، وهو يخطىء وينتظر التصويب من غيره ، ويضعف وحده الا أن يقوى بمظاهريه من أولى الالباب وذوى الغيرة ...

وقد رأينا فى الخلافة الراشدة كيف يقترب الخليفة من الناس ويلتمس النصح والعون ، وكيف ينفر من مظاهر العظمة الفارغة ، ويرى الخيلاء جريمة ، والتواضع تقوى ..

وأول معالم الدولة الاسلامية الشـورى وطلب الصـواب عند أهـله ، والانصـياع للحق اذا ظهر وتوفير الجو الذى يحق الحق ويبطل البـاطل ..

والشورى خلق انسانى رفيع ، محمود فى المجتمعات قديمها وحديثها ، ومعروف فى نظم الحكم من قديم ، وان خرج عليه كثيرون ، وتمرد عليه مستبدون .

يقول الحسن : الناس ثلاثة رجل رجل ورجل نصـف رجل ورجل لا رجل ! فالرجل الرجل من له رأى ومشورة ، والرجل نصف الرجل من له رأى ولا مشورة له ، والثالث من لا رأى له ولا مشورة !

روى البغوى عن عائشة قالت : ما رأيت رجلا أكثر استشارة للرجال من رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وهو بداهة انما يستشيرهم فى شئون الدنيا ، والمصالح العامة ، مما لم ينزل فيه وحى ..

وقد استشار المسلمين فى معارك بدر ، وأحد . والخندق . ونزل على رأيهم .

وروى أحمد بن حنبل فى مسـنده أن رسول الله صلى الله عليـه وسـلم قال لابى بكر وعمر « لو اجتمعتمـا فى مشـورة ما خالفتكما » .

وروى ابن بردويه عن على بن أبى طالب : سئل رسـول **الله عن العزم ـ يعنى قوله تعـالى « فاذا عـزمت فتوكل على الله »(١) . فقال : « مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم » !! والغريب**

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

أن أحد المفسرين شرح الآية فقال : تستشير ثم تمضى على الارشد لا على الشورى ، أى تخالف الشورى وتتبع رأيك أنت ويخيل الى أن عصا حاكم مستبد كانت فوق رأس هذا المفسر المضطرب ، فقال لارضاء الحاكم ما قال !!..

ان الله تبارك وتعالى وصف المسلمين بهذه الكلمة « أمرهم شورى بينهم » وهو قول فصل ، ليس بالهزل ! فكيف يجيىء أحد بعد ذلك ليقول : يمضى الحاكم على رأيه متجاهلا ثمرة الشورى ، فلم كان طلبها من قبل ؟ ..

ثم أن تنفيذ المبادىء المقررة يتخذ على امتداد الزمان شتى الصور ، فالعلم فريضة ، وتطوع الناس بطلبه فى بعض المساجد أو المدارس كان الصورة المألوفة فى مجتمع ساذج ، أما اليوم فقد جندت الاجيال له ، ونسقت مراحله ومعاهده ، ويستحيل ترك التعليم للتطوع الفردى !

والجهاد فريضة ، وكانت صيحة شجاعة تجمع الشبان والشيب للانطلاق الى ميادينه وخوض معاركه ، فهل تفعل الامم ذلك الآن ؟ أم تجعل للجيش كيانا قائماً دائما ، وتجعل للالتحاق به سنا معينة ، وترصد لتدريبه وتموينه وتسليحه الالوف المؤلفة ؟ ..

كذلك الشورى انها مبدأ مقرر ، وفريضة محكمة ، ولابد من انشاء اجهزتها ، وامدادها بأنواع الخبرة ، وتنظيم اشرافها على شئون الدولة ، وتمكينها من تقليم أظافر الاستبداد الفردى ، وضمان مصالح الجماهير !

ومحاولة استبقاء الشورى فكرة ساذجة ، او جعلها

نافلة عارضة ، كذب على الدين وخيانة له ، ورغبة فى ارضاء حاكم متسلط على حساب الاسلام وأمته ، ولم يخل جيل من أناس يبيعون دينهم بعرض من الدنيا ، وقديما قال شاعر دجال ، لحاكم مستبد :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فأحكم فأنت الواحد القهار !!

كيف يقال هذا ، مع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من أمير عشرة الا يؤتى به مغلولا يوم القيامة حتى يفكه العدل ، أو يوبقه الجور ، وان كان مسيئا زيد غلا الى غله » .

ان واحدا من الخلفاء الراشدين لا يمدح بهذه الكلمات الحمقاء ، فكيف بغيرهم من حكام الجور ؟..

ومن الذى أعطى الحاكم مهما علا شأنه حق الاعتراض على رأى الجماعة أو رأى الكثرة ، فاذا رفع يده رافضا سكت الناطق ، وحم القضاء ؟ وما قيمة « أمرهم شورى بينهم » مع هذا الحق ؟

ان أجهزة الشورى المنظمة ، المحترمة الملزمة ، هى التى تحفظ حدود الله ، وهى التى تأخذ على أيدى الظلمة وتقى الامة شرهم ، وتنفذ قول الرسول الكريم « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » .

وقد حكم التاريخ الاسلامى قريب من مائة خليفة من بضع أسر تعد على أصابع اليد ! أكدت سيرتهم حاجة المسلمين الماسة الى أدق أجهزة الشورى ، واشدها محاسبة لولاة الامور ..

ومن معالم الدولة فى الاسلام حفاظها الشديد على حقوق

الانسان المادية والادبية ، وتوفير الامن للافراد والجماعات . والترهيب من ايذاء أحد أو ترويعه ! وجعل الدماء والاموال والاعراض فى مثل حرمة البيت الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام أو أشد ! . واقرار العدل مع المؤيد والمعارض والقريب والغريب والغنى والفقير ، وتهديد الامة جمعاء بالهلاك ان هى تبعت الهوى ، واستمرأت الفساد « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »(١) .

ولما كانت للسلطة ضراوة كضراوة الخمر ، فان النبى عليه الصلاة والسلام ، حذر الحكام من الميل مع الهوى فقال : « صنفان من أمتى لن تنالها شفاعتى : امام ظلوم غشوم ، وكل غال مارق » والغلول الاختلاس من المال العام .

والغريب أن الفساد السياسى والاستغلال الشخصى لا يفترقان ، فقلما تجد مستبدا الا سارقا لمال الامة ، متخوضا فيه بغير حق ، هو وأقاربه وأتباعه !!

ومن هنا نفهم ما رواه ابن عباس أن رسول الله بعث معاذا الى اليمن — أميرا عليها — وقال له : « اتق دعوة المظلوم ، فانه ليس بينها وبين الله حجاب » .

ويستوى ان يكون المظلوم مسلما أو غير مسلم كما جاء ذلك مصرحا به فى روايات أخرى ..

وللمالأة الحاكم اغراء ! وكما يتساقط الذباب على الحلوى ، يتهاوى الطامعون عند أصحاب السلطة ، ولا يحتاج ذلك الى دليل ! وقد نبه النبى صلى الله عليه وسلم الى عواقب هذه المسالك ،

---

(١) هود : ١١٧ .

فقال : « ستكون امراء ، فتعرفون وتنكرون ، فمن عرف فقد برىء ، ومن أنكر فقد سلم ! ولكن من رضى وتابع » .. ولم يذكر النبى جزاءه لانه معروف ، ثم رأى أن يذكر جزاء مؤيدى الباطل واذناب المفسدين فقال : « يكون أمراء تغشاهم غواش أو حواش من الناس ، يكذبون ويظلمون ، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ! ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو منى وأنا منه » وفى رواية أخرى « فمن صدقهم بكذبهم فأعانهم على ظلمهم فأنا منه برىء ، وهو منى برىء » ! والروايات كثيرة فى هذا الموضوع الحساس فى حياتنا وتاريخنا ..

ولعل ذلك سر الخصومة الممتدة بين أئمة الفقه الاسلامى وبين جمهرة الحكام الذين تسموا خلفاء ، وهم ملوك من شرار الملوك !!

وقد كانت جماهير الأمة تعرف عدالة الفقيه بقدر قربه أو بعده من باب السلطان وما ذلك الا لشعورها العميق بأن هؤلاء السلاطين قطاع طريق ، لا خلفاء راشدون ! ..

أما رئيس الدولة — أو الخليفة الصالح — الوفى للأمة ورسالتها فان محبته عبادة ، وتوقيره دين ، وتأييده واجب على جمهور المؤمنين ! أليس الساهر على مصالحهم الناهض بأعبائهم ؟ أليس الحامل للراية القائد للجهاد ؟

لقد جاء فى السنن أنه أول السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله !! .. كما جاء عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة امام عادل رفيق . وشر عباد الله منزلة يوم القيامة امام جائر خرق » — أحمق !

٥٤ ــ ما مــدى تقبل الاســلام لاسس الدولة الحديثة ؟

أجــدنى بحاجة الى توكيد انه لا فرق بين مقتضيات الفطرة السليمة ، وتعــاليم الدين الحنيف !

أننى أحيانا أصحح بعض الافكار الدينية المــائلة على ضوء سلامة الفطرة ، كما أصحح بعض المسالك التى يزعم الانسانيون سلامتهــا على ضوء الوحى المعصوم ..

وقد بحثت عن المقصود بأسس الدولة الحديثة بعد ما ذكرت أن الحكم عندنا يقوم على الاختيــار الحر ، وان الشــورى تلزم الحاكم ، ماذا بقى ؟

قالوا بقيت أمور نعرضها واحدا واحدا ! هل يقبل الاسلام أن يختار الخليفة لاجل معــدود ؟

قلت : ليس هناك نص يمنع ، فاذا وجــدت الامة أن ذلك أحفظ لمصــالحها ، وأصون لحرياتها ، وأبعد عن اســاءة السلطة ، وادعى الى تواضع الحاكم ، فلا حرج عليها فى تقريره ! ..

قــد تقول : ان ذلك لم يعرف فى تاريخ المسلمين الطويل ! ونجيب بأن تاريخ الخلافة غير الراشــدة ليس أســوة ، بل قــد يكون مثــار لوم ومؤاخــذة لذويه !

أما تاريخ الخلافة الراشدة فان اختيار الخليفة فيه لم يتخذ نهجا واحدا ، فأبو بكر رضى الله عنه انتخبه أهل الحل والعقــد انتخابا مباشرا ، وعمر عهــد اليه الخليفة القائم بعــد مشورة عامة ، وذلك للظروف التى كانت تمر بالدولة ، فهى مشتبكة فى قتال

ضـار مع الروم والفرس جميعا .. وعثمان اختير من بين ستة عينهم عمر ، ثم أقبل الناس يبايعونه حتى تم استخلافه .

وعلىّ بايعته الجماهير بعد مقتل عثمان مبايعة حرة لا ثغرة فيها !

وهذا الاسلوب المتجدد يشير الى جواز كل ما يمنع الاستبداد الفردى ، مهما اختلفت صوره ، ولا يجرؤ مسلم على تحريم تصرف لم يجىء فى تحريمه نص ، من الكتاب أو السنة ، أو القياس الجلى ، أو الفوائد المحرمة ، بل الذى يقال هنا : اذا وجدت المصلحة فثم شرع الله !

وعندما نراجع تاريخ الخلافة غير الراشدة ، وجناياتها الشديدة على الاسلام ، نميل الى توقيت زمن الخليفة ، وتعريضه لانتخاب عام بين الحين والحين .

ولا يخدش هذا الحكم أن الاجانب سبقونا اليه فى معالجة الاستبداد السياسى الذى أصيبوا به ، ونجوا من عقابيله وما نجونا !

وأعرف أن هناك قوما لم ينطقوا بحرف فى التعقيب على ظلم قديم أو حديث ، يضيقون بتقييد المدة التى يبقاها الحاكم فى الحكم لماذا ؟ لعلهم لم يقرؤه فى متن ، أو شرح !

وهؤلاء لا يجوز أن يوزن لهم رأى !..

قال صاحبى : يمكن القول بأن تقييد زمن الخليفة مسألة لا يأمر الاسلام بها ولا ينهى عنها ! فما رأى الاسلام فى وجود احزاب

سياسية تسعى للحكم وتستعمل له أهبته وهى بعيدة عنه ، وتقوم بقيادة المعارضة الشعبية ، اذا جد ما يستدعى ذلك ؟

قلت : هى كسابقتها ، لا يوجبها الدين ولا يحرمها ..

ان تكون المذاهب الكثيرة ، واختلاف وجهات النظر ، أثر طبيعى للحرية الفكرية التى وفرها الاسلام لاتباعه ، وعرفها الناس بعد صراع مرير مع الجبابرة والادعياء ..

وايغال الحكم الفردى فى الاستئثار بكل شيىء هو الذى حظر على الناس حقا طبيعيا لهم كان يمكن أن يمارسوه فى سلام وسماحة !

قال : كيف يسمح الاسلام بمعارضة لولى الامر ؟

قلت : ان المعارضة فى نطاق الشورى ، وطلب الحقيقة واحترام حق الكثرة ، لا شيىء فيها ، وهذه المعارضة تقع فى تفصيلات تشريعية واجتماعية ليس لاحد أن يفرض رأيه فيها بالعنف ، سواء كان حاكما أو محكوما ، ولنضرب لك الامثال !..

هب أن جماعة من الناس تخيرت من مذاهب الفقه الاسلامى أن تؤخذ الزكاة من جميع الزروع والثمار ، وأن تبقى المناجم ملكا لاصحابها على أن يؤخذ منها الخمس ، وان يسوى بين دية الرجل والمرأة ، وأن تباشر المرأة عقد زواجها ، وأن تقبل شهادتها فى الدماء والاعراض كما تقبل فى الاموال ، وأن يقبل التفاضل فيما وراء الاصناف الستة .. الخ ثم وضعت هذه الجماعة منهاجها هذا وعرضته على الامة ، وذكرت أنه أساس حكمها اذا منحت التأييد من الجمهور ، أيكون هذا التصرف ارتدادا عن الاسلام ؟ أيكون عصيانا مسلحا للحاكم الموجود ؟ لا هذا ولا ذاك !!..

نعم أنه خروج على المألوف من تقاليد الحكم الفردى عندنا .

ألا لعنة الله على هذه التقاليد التى أذلت الدين وأمته ، وجعلت دار الاسلام نهبا للذئاب والكلاب !

لقد ذكرت طوفان الخلاف الفقهى الذى يختبىء وراءه الغوغاء .

وهناك ما يساويه فى الخطورة ، هب أن جماعة من الناس رأت أن نضع منهجا لتصنيع البلاد ، فى بيئة زراعية ، أولا تحادها مع غيرها ، فى أقاليم منفصلة أو لانشاء سوق اسلامية مشتركة ، أو لتطوير أساليب عرض الاسلام ، مستغله فى ذلك امكانات الحكم ، فما الذى يمنع من انشاء حزب ما ، لتحقيق ذلك ؟ سواء ضاق به الخليفة أو رضى !

أيكون ذلك نقضا للبيعة وخروجا على الجماعة ؟ لا هذا ولا ذاك ، لان الامة ستقول كلمتها ، وسترفض ما تراه خطأ ، وتقر ما تراه صوابا ، ومن فاز بثقتها اليوم يمكن أن يحرم منها غدا ، مع نجاح المعارضين فى كسب الرأى العام .

أليس هذا أفضل من الاغتيال والكبت والاحتيال ، والصاق التهم بالابرياء ، وتمكين الجهال من الامساك بدفة الامور زمنا أطول مما ينبغى ؟

قال صاحبى : كأنك معجب بالنظام الانتخابى السائد فى الغرب !

قلت : انه نظام أفاد أصحابه كثيرا أو قليلا ، بيد أنه فسد عندنا ، لان الاستبداد السياسى زوره ، ومال به عن فحواه ، وأنا

ــ باسم الاسلام ــ أحارب الاستبداد بكل ما لدى من طاقة .
ان الكفايات العلمية والعسكرية أهينت طويلا فى أمتنا ، وبطش الحكم الفردى بها دون رحمة ، أحيانا أسائل نفسى : لماذا يقتل فاتح السند محمد بن القاسم بقلة اكتراث ! لماذا يقضى فاتح الاندلس بقية عمره مهانا منبوذا ؟ لماذا يقتل أبو حنيفة سجينا وحيدا ؟ لماذا يضرب مالك ؟ ويجلد ابن حنبل ؟ ويموت ابن تيمية محبوسا ؟ لماذا يغتال حسن البنا ؟ لماذا يشنق أصحابه من بعده ؟ لماذا يضرب رئيس مجلس الدولة عبد الرازق السنهورى بالنعال ليموت من بعد مشلولا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

اننى أستطيع البقاء ساعات أتسائل وأتسائل ، فاذا فكرنا فى تغيير هذا البلاء ، ورسمنا أوضاعا تطيح به ، جاء نفر من الغوغاء الذين يلبسون زى الفقهاء ، ليقولوا باسم الاسلام : لا ، وهم ــ من الناحية العلمية ــ أشد الناس جهلا بالدين ، وخبرة بمآربهم ودناياهم ؟

قلت ومازلت أقول : ان مبادىء الاسلام معصومة ، أما الذين حكموا باسم الاسلام ، وهم عشرات الخلفاء من ثلاث أو أربع عائلات ، فأمرهم فرط ، ونريد انصاف الاسلام منهم ، وحماية حاضره ومستقبله من لوثتهم ..

لقد سقطت هذه الخلافة على أيدى التتار فى القرن السابع الهجرى ، ثم سقطت الخلافة مرة أخرى على أيدى الصليبيين فى القرن الرابع عشر الهجرى .

الاولى كانت حكرا على أولاد العباس ! والثانية كانت حكرا على أولاد عثمان ، وهو من وجهاء الاناضول فى القرن الثامن ! هل هذا الوضع هو الذى يستبقيه الاسلام ، ومن أجله يرفض تقييده مدة الحاكم ، ويرفض وجود الاحزاب السياسية .

٥٥ ـ كيف يقيم المسلمون دولة اسلامية واحدة ؟

« ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »(١) .
هذه الآية أدل شيء على صفة أمتنا وفحوى رسالتها . انها أمة أورثها الله كتابه وأوصاها أن تعمل به وتدعو اليه ، وأن تجعل وجودها المادى والادبى مربوطا بحقائق الوحى الاعلى ، وترجمة **عملية لمراد الله من خلقه « الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر »(٢) .**

وقد بقيت علاقة الامة المصطفاة قائمة برسالتها تلك على تفاوت مثير ، أحيانا تقوى فلا يعجزها شيء ! وأحيانا تهى فيغلبها الذر !!

ومع التأمل فى التاريخ الاسلامى أستطيع القول : أن بقاء المسلمين الى يوم الناس هذا يرجع قبل كل شيء الى حفظ الله تبارك اسمه ! ثم الى وفاء الجماهير العميق لدينها ثم الى جهاد الفقهاء والدعاة والمربين !

أما التاريخ السياسى فركام من الاقذاء نما على مر الايام وبلغ ذروته فى هذه السنين العجاف ! ..

وان كان يظهر بين الحين والحين خليفة أو ملك يمسح القذى ، ويمهد الطريق ويكبت العدو !!

لقد شقت الامة طريقها بقوة على عهد الخلافة الراشدة ، وكانت الجماهير والحكام جسدا وروحا لافكاك بينها .

---

(١) الانبياء : ٩٢ . (٢) الحج : ٤١ .

ثم اضطربت أجهزة الحكم العليا ، ودخلها خلل مزعج أيام الدولة الاموية وصدر الدولة العباسـية ، ومع ذلك رأى جمهرة العلماء والدعاة أن يبقوا الامة موحدة الصف والهدف وراء أولئك الحكام ، فكان المسلمون أمة واحدة وخلافة واحدة تقريبا . .

ثم نبتت الى جوار الجذع الغليظ سيقان أخرى ما لبثت أن اشتدت وتحولت الى جذوع قوية ، ومن هنا قامت دول اسلامية شتى ، فشاعت الفرقة والضعف ! . .

والحق أن مأساة الاسلام الاولى لم تجىء من كثرة حكوماته قدر ما جاءت من تفاهه الحـاكمين وندرة مواهبهم ، وسـقوط منصب الخلافة بين أناس لا يصلحون لادارة قرية صغيرة أو شركة محـدودة !!

وما بد من كيان سـياسى وثقافى موحد للمسـلمين ، حتى يستطيعوا أداء رسالتهم والقيام بحق الله عليهم، الى جانب ما هو معروف من أن الاخاء الدينى بين المسلمين ، يسبق أخوة النسب ، وأن الولاء للمعتقد فوق الولاء للنزعات العرقية والارضية !

وقد يظن ظان أن هـذا ضرب من الغـلو ! لكنى بعـد ما درست التاريخ الدولى للعلاقات بين المسلمين وغيرهم شعرت بأن هـذا الترابط الاسلامى ضرورة حياة ، ونداء البقـاء بين ملل ونحل تنظر الى المسلمين بكره ، وتود لهم العنت ، بل الضياع !

وما تزال الضغائن الاولى تتوارثها الاجيال ، وتزيد جذوتها وهجا ، حتى مطالع هـذا القرن الخامس عشر ، فمع عمق الفجوة بين الهندوكية والشـيوعية والصـليبية واليهودية ، رأيت الكل يعالجون الوجود الاسـلامى بالقتل .

المذابح الطائفية فى الهند ، والحرب الكيماوية فى أفغانستان ، ومجازر صبرة وشاتيلا فى لبنان ، ودير ياسين فى فلسطين المحتلة ، انها النقمة على الاسلام وأمته حيث كانت ، قاسم مشترك يجمع بين الاضداد على اختلاف الزمان والمكان ، ويغريهم بانتهاز فرصة الضعف السائد للاجهاز على هذا الدين الى الابد ...

فهل يلام المسلمون اذا فكروا فى وحدتهم وخلافتهم بعد ما فشلت النزعات العالمية والصيحات الانسانية فى حقن دمائهم وحفظ حقوقهم ؟

وسؤال آخر ؟ من من الوثنيين وأهل الكتاب نسى عقيدته . أو أصم أذنه عن ندائها ؟ حتى يقال للمسلمين : انسوا ما لديكم !!

ان التحالف المكتوب وغير المكتوب ضد الاسلام يجعل الانسان يهتف بين الحين والحين بالبيت المشهور :

كل يوم تبدى صروف الليالى

خلقا من أبى سعيد عجيبا !!..

فلنقم للاسلام دولته الجامعة ولتعد اليه خلافته الضائعة ، وليتعلم المسلمون من أخطائهم الماضية كيف يحترمون الصواب ويلتزمونه ..

سمعت من يقول : كيف يمكن حشد المسلمين فى دولة واحدة . وتحت راية واحدة ، وهم ألوف مؤلفة موزعون على أقطار فيحاء ؟ ..

قلت : ان المسلمين يبلغون الف مليون نسمة ، وقد قامت للصين

دولة وهى مثل ذلك العدد .. فان قلت : ان الصنيين على أرض واحدة ، ومساحة مشتركة . قلت : ان الاتحاد السوفيتى قدر على بناء دولة واحدة فوق أرض تأخذ نصـــف أوربا ، ومثلى ذلك من آســـيا مع تعدد الاجنـــاس واللغات !!

انه لا توجد عوائق مادية تمنع قيام دولة واحدة للمسلمين ، بل ان هـــذه الدولة ظلت قائمة أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، ما يخرج عن نطاقها الا عدد محـــدود ، يرنو اليهـــا ويستظل من بعيـــد بحمايتها .

ان العـــوائق دون هـــذه الدولة نفســـــية ، ومعنوية ، واستعمارية ، وهى ترجع الى المسلمين قبل أن ترجع الى خصومهم .

ان البعد عن الاسلام ، والموت الادبى الرهيب الذى حاق بشعوبه كانا من وراء سقـــوط الخلافة ، واقتسام الاقوياء لتراثها ، بل ان المستعمرين فى أقطار شتى من أفريقيا وآسيا خرجوا من الارض التى احتلوها طوعا لا كرها ، ودون أن تسفك قطرة دم ! وتركوا فى هـــذه الارض حكاما محليين يحرسون مصالحهم ونستحى أن نقول : تركوا حكاما حزنوا لانسحابهم !.

ومن هنا نؤكد أن عودة الدولة الاسلامية الواحدة تحتاج الى تمهيد واسع ، يعيد المسلمين اولا الى دينهم الحق ، ويملأ أفئدتهم وألبابهم برسالته وعقائده وشرائعه وفضائله ... كما تحتاج الى بصر حـــاد بأخطاء المـــاضى وأسباب الانهيار حتى يمكن تجنبها ، بلباقة ومقـــدرة ، فتبنى الدولة الجديدة على قواعـــد لا تنال منها الايام ..

وغنى عن البيان أن هـــذه الدولة الجديدة ، ليست مركزية ،

انها مجموعة من الاقطار أو الولايات لها حكوماتها المحلية ، ومجالس شوراها ، وضرائبها ، وشخصيتها المعنوية ، يتكون منها بعد ذلك ، كيان الدولة الكبرى ويوجد بعاصمتها الخليفة بسلطاته العامة ..

ويستطيع الاخصائيون وضع القالب القانونى لهذا البنيان السياسى ، ولا حرج عليهم أن يقتبسوا من الانظمة المطبقة فى دول مشابهه بعد اشرابها روح الاسلام ..

ان العصر الحاضر ليس عصر الدويلات المنثورة ، انه عصر التكتلات الكبيرة القديرة على الحياة والمقاومة الذاتية !

ان العالم الاسلامى ضم أجناسا كثيرة ، من عرب وفرس وترك وهنود وزنوج .. الخ وهى أجناس سعدت بهذا الدين ، وأرضت به ربها ، وحققت به وجودها ، ولكنا نقول بصراحة وصرامة ، الاسلام استفاد سياسيا وثقافيا من فضائل هذه الاجناس ، كما نكب ثقافيا وسياسيا من معايبها الاخرى !!..

ولما كنت عربيا مسلما فانى سوف أتحدث عن بنى قومى وأتحدث اليهم ..

ما هذه العروبة التى أخترعوها ، وكابروابها الاسلام ، وحسموا الولاء له ، وجعلوا قوميتها فوق الدين ، وبعثها بعيدا عن هداه ؟ .

هل العرب بلا اسلام يصلحون لشيىء ؟ أو يقدمون للانسانية أى شيىء ؟ ..

تفرست فى وجوه العروبيين الجدد ، ورابنى منهم ضغن على محمد ، وهو أعلى قمة فى التاريخ واستهانة بصحبه وبما حملوا للعالم من وحى ! أكان مطلوبا من هؤلاء الاصحاب الا يبلغوا القرآن ؟ وأن يتلوا على مسامع الناس هراء عمرو بن كلثوم .

اذا بلغ الرضيع لنا فطاما

نخر له الجبائر ساجدينا !

لماذا ؟ أيها الابله ؟

لا حياة للعرب ، ولا شرف ، الا بالعودة الى سيرة أجدادهم الاقدمين ، والاخلاص للاسلام عقيدة وشريعة ، واستبطان أدبه ، والتزام هدفه ، والاستقامة على صراطه المستقيم ..

أما أن يعود البعض الى قبر مسيلمة ، يناشده العودة الى الحياة ، ويطلب منه قيادة صحوة عربية جديدة ، فهو لا يألو أمته الا خبالا ، ولن يزيد العالم الا سخرية بها ..

ولما ترك العرب تقاليد الاسلام السياسية ، وتقوى الخلافة الراشدة ، وسلوك الفقهاء الكبار ، ماذا صنعوا ؟

استحيوا تقاليد المفاخرة والمنافرة ، والذهاب بالاباء ، واسترخاص الدماء ، فاذا الشعوب فى أرجاء الدنيا تتنفس بحرية ، وتعترض حكامها فى طمأنينة وثقة ، وتهتف ضدهم اذا شاءت .. أما العرب ، فان حاكما واحدا يقدر على سحق عشرات الالوف لتكون العزة لغير الله ! ومع هذه الفتكات الرهيبة يتواصى بقية العرب بالسكوت المطلق !

أظن العرب فى جاهليتهم الاولى لم يبلغوا هــذا الدرك من النــذالة ! .

انه لن تقــوم دولة الاســـلام الكبرى الا اذا اعتنق العرب

الاســـلام من جديد ، وكرروا ما صنع سلفهم الاول ، والا ذهب الله بهم وأتى بخير منهم .

٥٦ ـ يوجل الناس من الحكم الدينى ، وعودة الخلافة ! فهل هناك ما يدفع هـذا الوجل ؟

عندما يتخـذ التعصب الدينى قناعا له من الحرية الفكرية فان الامر يستحق كل ازراء ومن حق المسلمين أن يسألوا : لمـاذا نالت « اسرائيل » الرضـا التام بوجودها وهى تقوم على أساس يهودى صرف ؟ وترسم حدودها وفق مخططات التوراة ؟

أن الشرق والغرب كليهما اعترفا بحقها فى الحياة ، بل لم يعترفا بحق العرب فى « بقـاء جزئى » الا بعد الاعتراف بهـذه الدولة الدينية ! ..

لمـاذا قامت « للفاتيكان » دولة توجه أغلب نصارى العالم وتملك القوة الاقتصادية الثالثة ـ بعد أمريكا وروسـيا ـ وتضـع سـياستها الرتيبـة لتنصير الشـعوب الاخـرى وفى طليعتها المسلمون ؟

ان الحرب الصليبية التى شـنها قياصرة « روسـيا » لم تدع الشيوعية ثمراتها ، بل ضمت الى الاقطار الاسلامية المفتوحة « أفغانسـتان » !

والحرب الصليبية التى شنتها الدول الغربية تركت فى الكيان الاسلامى نزيفا طائفيا وثقافيا يوشـك أن يقضى عليه !

فاذا تحرك المسلمون ليحموا كيانهم ، ويجددوا دولتهم قيل لهم : يجب أن يبتعد الاسلام عن السياسـة ، فنحن نوجل من الحكم الدينى !! ومن عودة الخلافة الاسلامية ! الحق أن هـذه صفاقة مستغربة ! ..

ان الذى نوجل منه ، ويوجل منـــه كل عاقل ! هو عـــودة الاستبداد السياسى ! أو تولى رجل الحكم وهو يزعم أنه ذو صلة خاصة بالله ، أو أن الروح القدس حل فيه ويتعاون معه !!

والخلافة الراشـــدة بريئة من هـــذا الجنـــون المقـــدس ، وتصريحات رجالها واحدا واحدا يتمنى لو يقولها اليوم أعظم رجال « الديمقراطية » المعـــاصرين ..

الم يقل أبو بكر : ان احسنت فأعينونى ، وان زغت فقوموني ؟ وعندما يلى الامر يقول : ايها الناس كنت أحترف لعيالى ، أكتسب قوتهم ، فأنا اليوم احترف لكم ، فافرضوا لى من بيت مالكم !

ويجيىء بعد أبى بكر عمر ليقول للناس فى المسجد الجامع : اذا وجدتم فى أعوجاجا فقوموه ، فيسمع من بين الصفوف صوت يقول : لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ! فيكون جـــواب عمر : الحمد لله الذى أوجد فى المســـلمين من يقوم اعوجـــاج عمر بســـيفه !

وفى رواية أن عمر خطب فقال : يا معشر المسلمين ، ماذا تقولون لو ملت براسى الى الدنيا هكـــذا ؟ فشق الصـــفوف رجل يقول وهو يلوح بذراعيه كانهما حسام ممشوق : اذن نقول بالسيف هكـــذا ...

فسأله عمر : اياى تعنى ؟ فيجيب الرجل : نعم اياك أعنى بقولى ! فيرد عمر : رحمك اللـــه الحمـــد للـــه الذى جعل فيكم من يقوم عوجى .

ويجيىء دور عثمان ، الخليفة النبيـــل المظلوم ، الذى يقول للناس : « ان وجـــدتم فى كتاب الله أن تضـــعوا رجلى فى القيـــود فضـــعوهما » !! ..

وقد كان عثمان قديرا على استصراخ عشيرته ، واعمال السيف فى محاضريه لكن الرجل الحيى الرقيق قبل أن يموت دون أن يستبيح قطرة دم لمسلم !! . .

ويتولى على الخلافة فيقول : انما انا رجل منكم لى ما لكم وعلى ما عليكم ! ويقول : ليس لى أمر دونكم ويقول لصاحبه : اياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة — سواء .

ولما آلت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز ميراثا من أجداده بنى أمية كره الرجل الكبير هذا الوضع الذى يرفضه الاسلام ، وخرج الى المسجد الجامع يقول للناس : لقد ابتليت بهذا الامر على غير رأى منى ، وعلى غير مشورة من المسلمين ، وانى أخلع بيعة من بايعنى ، فاختاروا لانفسكم !

فردت الجماهير بصوت واحد ، بل اياك نختار يا أمير المؤمنين . .

هذه هى الخلافة الراشدة ، التى أمرنا أن نستمسك بسنتها ، أترى واحدا من رجالها يعرف الحق الالهى للملوك ؟ أو يظن نفسه فوق الامة قيد اصبع ؟ ويحتسب الحكم بقرة حلوبا تدر عليه وعلى أسرته وأتباعه ؟

أترى واحدا منهم نكل بمعارض أو ضيق عليه الخناق أو حرمه حقا له ؟ . .

والداهية الدهياء فى عصرنا هذا متحدثون عن الاسلام لا فقه فى الدين ، ولا بصر لهم بتاريخ المسلمين يصورون الحكم الاسلامى تصويرا منكرا ، ويقررون أحكاما ما أنزل الله بها من

سلطان ، يقولون — الحكم المسلم لا تقيـده الشورى ، ولا يسمح بأحزاب معارضـة ، ولا يعترف بمبدأ الانتخـاب ، وحق الكثرة فى فرض نفسـها !!

انهم يدافعون عن الفرعونية والهرقلية ، ويؤيدون الحجاج والسفاح وكل مفتات على الأمة .. انهم ناس يستمدون فقههم كله من تاريخ الخلافة غير الراشـدة ، والملوك الذين حكموا الاسلام ولم يحكمهم الاسـلام ...

وهم بفكرهم وسـلوكهم امتداد لزاوية الانحـراف الثقـافى والسياسى فى التاريخ القريب والبعيد ، وبعضهم له اخلاص الدبة التى قتلت صاحبها ، وللبعض الآخر باع طويل فى الارتزاق والاكل على موائد الحاكمين !! ...

علماء الدين عندنا يقولون فى الاخبار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الراوى الثقة اذا خـالف من هو أوثق منه عـد حديثه شـاذا ورفض . واذا كان الراوى ضعيفا ، ونقل ما يخالف الصحاح عد حديثه منكرا أو متروكا ورفض !..

فما نقول فى ناس يرسمون صورة الاسلام من أحاديث شاذة أو منكرة أو متروكة ؟ وفى أى مجال ؟ فى ميدان الحكم ، أو لمظاهرة فرد مستبد ! .

روى المحدثون عندنا هـذا الحديث الضعيف ، نذكر نصـه ثم نعلق عليه ! رووا بصيغة التمريض ان النبى صلى الله عليـه وسلم قال « السلطان ظل الله فى الارض ، يأوى اليه كل مظلوم من عباده ، فان عدل كان لـه الاجر وكان على الرعية الشكر ، وان جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر ، وعلى الرعية الصبر .

هـذا الحديث الضعيف مخـالف لسنن صحيحة كثيرة منها « لتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم » .

ومنها « ان الناس اذا رأوا الظـالم فلم يأخـذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقـاب منـه » .

ومنها أحاديث تغيير المنكر بمراتبه الثلاث ..

وظاهر الحـديث الضـعيف مرفوض من ناحيتى الشـكل والموضوع ، وهو اما منكر أو متروك ! ومع ذلك فقد نقله وروج له بعض المرتزقة من المتحدثين عن الاسلام ..

ونسارع الى القول بأن الاخـذ على يد الظالم ليس باغتياله ، بعد محاكمة فردية له من بعض الناس ..

التصرف الاسـلامى الوحيـد مد رواق الحـكم الشـورى والمعارضة الحرة ، فمن رأى من الحاكم عوجا حـدث الناس عنه ، وشرح للرأى العام موقفه ، فان ايده الناس اسقطوه فى انتخـاب صحيح ، وجاءوا بخير منـه .

قال لى غلام ساذج : انك تعترف بالنظام الانتخابى وتقرر رأى الكثرة مع ان القرآن ذم الكثرة فى مواضع كثيرة ! قلت : أى كثرة تلك التى ذمها القرآن ؟ اذا قال الله تعالى : « ان السـاعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون »(١) . أو قال فى آية

---

(١) غافر : ٥٩ .

اخرى ((ولكن أكثر الناس لا يعلمون))(١) ٠ كأن معنى النظم القرآنى الكريم أن أغلب المسلمين منافقون وجهـــال ؟ ٠٠

قبح الله فهمكم ! ان النبى ، صلى الله عليه وسلم كان يرى فى معركة أحد استدراج المشركين الى داخل المدينة ، والقضاء عليهم فى حرب شوارع ! بيد أن الكثرة من أصحابه أبت الا الخروج اليهم فى العراء ، فنزل على رأيهم وهو كاره ، فلما رأوا أنهم أكرهوه على الخروج عرضوا عليه أن ينفذوا خطتــــه ، فأبى ! ٠٠٠

فهل كانت كثرة الاصحاب جاهلة ، أو غير مؤمنة ؟

كان ــ عليه الصـــلاة والسلام ــ كثيرا ما يقول : أشيروا على أيها الناس ! فهل حاكمكم الذى ترون الا تقيده الشـــورى ، والا يلتفت الى الكثرة ، أرشـــد من صـــاحب الرســـالة العظمى واعقل ؟

ان غباؤكم فى فهم القرآن والســـنة لا يستفيد منه الا أعداء الاســـلام ، وعشـــاق الفرعنة من الحكـــام !

عندما نطلب عودة الخلافة الاســـلامية ، وقيام حكم للكتاب والســـنة ، فنحن نرنو الى المبادئ الشريفة التى وعـــاها عهـــد الخلافة الراشـــدة ، ونريد تجنب أخطاء الســـلاطين ، والانتفاع بكل جهد انسانى للخلاص من الاستبداد والمستبدين ٠

---

(١) غافر : ٥٧

الانسان ليس ملاكا معصوما ، ومن ثم لا نستغرب وقوع الخطأ منه ، واذا اخطأ فلا ينبغى أن نبادر الى تمعه بوحشية ، واظلام حاضره ومستقبله ..

والشارع الاعظم يعلم هذه الطبيعة البشرية ، ويمهد لها طريق التوبة والتسامى « والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا »(١)

هذه حقيقة لا ريب فيها ، وهناك حقيقة أخرى لا ننساها .. أن كل امرىء يحب أن يعيش آمنا فى سربه ، وافرا فى دمه وماله وعرضه ، وان انحرافات المخطئين لا يجوز ان تتحول الى وباء يعصف بالامن ويجتاح الحرمات !

والاسلام عندما يضع عقوبة لخطيئة ينظر الى هاتين الحقيقتين .

قد يعذر العاصى ويلتمس له الدواء ! ولكنه لا يأذن أبدا للجريمة أن تعكر الصفو ، وتنشر الخوف .

من أجل ذلك وضع الحدود ، ودرأها بالشبهات ، ووقفها بالتوبة اذا رأى القاضى(٢) . أن من تورط فيها ثائر على نفسه ، نادم على سقطته ، وان عودته اليها مستبعدة ، وان مستقبله هو الصلاح والاستقامة ..

---

(١) النساء : ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) نحن نتابع ابن تيمية فى هذا الكلام ونرى الحق معه ..

ان النبى صلى الله عليه وسلم حاول أن يثنى ما عزا — غفر الله لناوله — عن اعترافه ، ورأى أن توبته تطهره ، ولكن الرجل كان مهتاج الاعصاب لما بدر منه ، وأراد أن يطهر نفسه بالرجم فتركه النبى الكريم وما يريد !

على حين اذن لمن صلى معه ، أن ينصرف بما أقترف ، فقد طهرته صلاته او اعتبرت توبة له ..

لكن اذا اضطرب حبل الامن ، او رأى القاضى أن المذنب قاس مخوف الغدر ، فان الحفاظ على المجتمع ، ومؤاخذة المجرم الجسور توجبان الضرب على يده وحماية الناس من شره ....

ان الحدود حق ، واقامتها — بصورتها الشرعية — مطلوبة الى آخر الدهر ، وما يقال عن قسوتها ضرب من الهراء ، ونحن نستبن ذلك كل الاستبانة عندما نتوسم احوال المجتمعات التى أنكرتها أو تركتها ..

يقول الصحفى انيس منصور : اذا سرت فى شوارع « أمريكا » فلا تحمل فلوسا كثيرة ، فقد يستوقفك احد الزنوج وفى يده سكين ... واذا ذهبت الى محل لشراء شيىء فلا تخرج من جيبك مالا كثيرا للسبب نفسه ، ان الامريكيين يتعاملون بالبطاقات المالية ودفاتر الشيكات ولا يحملون مالا ... وفى الفنادق يطلبون منك أن تضع فلوسك عندهم والا فأنت المسئول اذا سرقت اموالك أو أشياؤك الثمينة !

وقد تجد مكتوبا على باب الحمام : أغلق عليك الحمام من الداخل ، واذا هاجمك أحد فاطلب رقم كذا بسرعة !

وهم ينصحونك ألا تمشى وحدك فى الشوارع فاذا اضطررت الى ذلك فكن متجهما بادى القوة ، حتى لا يظن بك الخوف !

قال : ونزلت أتمشى وحدى قريبا من البيت الابيض ، وكان الشارع خاليا تماما من المارين ، وفجأة وجدت رجلا يتوكأ على عصاه ، استوقفنى وسألنى : كم الساعة ؟ فتوقفت أنظر فى ساعتى ، فاذا هو يخرج سكينا من بين ملابسه .. فأعطيته الساعة ! ونظرت فاذا هو يزيح القناع عن وجهه ويبدو شابا صغيرا ! لم يكن شيخا ولا زنجيا ، وضحك وضحكت .

وبينا أنا أنظر الى الشاب اذ تقفز الى جوارى شاب آخر .. فرفعت يدى الى أعلى ، مظهرا انه ليس معى شيىء ، فأشار اليه — اللص الاول — من بعيد ، فتركنى !..

وعرفت أن الزنوج ليسوا وحدهم قطاع الطرق فى أمريكا » !.

لقد فقد هذا السائح المصرى ساعته لانه سرى وحده ، فالامن مفقود فى العاصمة الكبيرة ، لا أرتاب أن السارى لو كان أنثى لفقدت مالها وعرضها جميعا ، واذا قاومت مغتصبها فقدت حياتها !

وقد يكون القتيل رب أسرة لا يعود اليها !

والحديث عن قلب يخشى الله أو يهاب لقاءه حديث خرافة ! فقد انقطع التيار الكربائى فى المدينة مدة طويلة ، فنهبت أغلب المتاجر والمعارض فى الظلام العارض ، ان وجود الضمير مرتبط برجل الشرطة وحده ! ما أشرف هذه الحضارة ! .

وعجبت لعمى القانون عندما قـرأت أن لصا أطلق النار على جنـدى كان يطارده ، ثم قبض بعـد لأى على اللص ، وأودع السجن ، وقضى الامر !

ماذا حـدث ؟ ان عقـوبة الاعـدام ملغاة لان القصـاص وحشـية !!

انه لا يقر الامان ، ويمنع الاجرام فى هـذه البلاد الا اقامة الحدود ، الحدود وحدها هى الدواء قد تكون نجـد والحجاز أقل حضارة من الولايات المتحـدة ، بيد أن ظلام الارهاب والاجـرام والتوجس والفـزع لا وجود لهـا فى هـذه الارجاء الفيحـاء ، ما السبب ؟ اقامة الحدود .

لو أن عربة محملة بالذهب مشت من شمال اليمن الى أول الشام ما فكر أحد فى اعتراضها ، اذ الناس رجلان أما خائف من الله فهو يعاف أكل السحت ، واما خائف من شريعته فهو واقف عند حـده ، لا يتعرض لقطع اليد ، ولا لقطع العنق !

أرى أنه لا يحنو على المجرم ولا يعطل القصاص الا خائف منه على نفسـه ! .

لقد قلت فى مكان آخـر : ان رب الحيـاة الخبير بدروبها ومتاهاتها وضع رسما لمعالم الطريق اذا التزمه الاحياء لم يضلوا ، فما معنى الاعراض عنـه ؟ ان المصنع الذى أخرج الآلة وضـع تعليمات بطريقة استخدامها ، فلماذا نرفض هـذه التعليمات ؟

ان خالق البشر أنزل أحكـاما محـددة ، وقال لنا ونحن

نسمعها : « يبين الله لكم ان تضلوا ، والله بكل شيء عليم »(١) . فماذا نبغى ؟

« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون »(٢) !

يظن بعض الجهال أن الحدود نقطة ضعف فى الشرائع السماوية ! ونسوا أنهم سوف يعانون القلق والترويع ماداموا يأبون اقامتها ، ولن يستريحوا الا بعد اعلان السمع والطاعة .

ان الحدود المقررة تعد على الاصابع ، ويخيل الى أن تطبيق **حد ما على اى انسان يرتبط بقدر غالب !**

ولأشرح ما أعنى ، ان الله يعلم ضعفنا ، ويتجاوز كثيرا عن هفواتنا ، ولو أخذ المرء بأول عثراته ما نجا أحد من عقابه **« ولويؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة »(٣) .**

انه يمهل ويمهل ، حتى اذا فاض الاناء فضح وآلم ! . وذاك ما أشار اليه « عمر » عندما استغاثته امرأة « يا أمير المؤمنين ، ابنى سرق وهذه أول مرة ، فقال لها : كذبت ان الله لا يفضح عبده لاول مرة » !!

نعم ان الله يستر كثيرا ، حتى اذا توقح المرء وتبجح جره سوء أدبه الى مضيره .

---

(١) النساء : ١٧٦ .
(٢) المائدة : ٥٠ .
(٣) النحل : ٦١ .

ومع ذلك ، فان الذى شرع الحدود ندب المؤمنين الى الستر على المنحرفين ، ومنحهم فرصة متـــاب ! لعلهم يرعوون ! فعن سعيد بن المسيب أن رجلا من قبيلة أسلم اسمه « هزال » شـــكا رجلا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متهما اياه بالزنا ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « يا هزال ، لو سترته بردائك لكان خـــيرا لك » ! ..

وكانت هذه الشكوى قبل نزول آية القذف ، والا لجلده النبى ثمانين جـــلدة ..

والغريب أن الرجل المشكو الذى أمر الرسول بستره ، هو « ماعز » المؤمن التائب الذى أبى الا أن يموت مطهرا ، كأن الرسول الكريم الهم الدفاع عن رجل صالح يكره الاثم ، ويضيق باقترافه ، وان وقع فيـــه !!

وفى اقامة الحدود جاء عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادرؤا الحـــدود عن المســـلمين ما استطعتم ، فان كان له مخرج فخلوا عن سبيله ، فان الامام ان يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » .

وقد كان حد السكر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربا مهينا يوقع بالعربيد الذى قبض عليه ، ثم رأى الصحابة بعد أن يجلد السكير أربعين أو ثمانين جـــلدة .

اما حـــد السرقة فهو قطع اليد ، ولم يقل احد ، أن الجائع تقطع يده اذا سرق ما يقوته انما تقطع يد البطال المعتـــدى على كسب الآخرين وكدحهم ، والذى يبنى سلوكه على الظلم والافساد ،

ولا ارى سببا لاحترام هـــذه اليد ، وتركها تؤذى وتفجع النـــاس فى حقـــوقهم ..

أما المسلحون المتظاهرون على النهب والسلب ، المتعاونون على الاثم والعدوان وقطع الطريق واشاعة الفوضى ، فان قتلهم حق ..

بقى أن نقول : ان عقوبة الزنا صعبة التنفيذ ، فان المجيىء بأربعة شهداء يرون وقوعها يكاد يستحيل . الا اذا كان المجرمان فى طريق عام ، عاريين مفضوحين لا يباليان بأحد !

وعندما يتحول امرؤ الى حيوان متجـــرد على هـــذا النحو الخسيس ، فلا مكان للدفاع عنه أو احترام انسانيته ...

٥٨ ــ ما هى الضرائب فى الاسلام ، وما نظامها ؟

سمعت كلمة من صديق عاش فى أوربا ردحا من الزمن . عجبت لها ولم أنسها ، قال : أن يوم اقرار الموازنة العامة للدولة يكاد يكون يوم عيد ! الفرحة عامة ، والبشر باد على الوجوه !

قال : وفى بعض البلاد يقال لدافعى الضرائب : ادرسوا تفاصيل الانفاق . أنظروا أين وضعنا ما أخذنا منكم من مال !!

لقد روعيت المصلحة العامة بأمانة وسدت الثغرات ، وكفلت مدارس ومستشفيات ، وفرحت طوائف ، وتحققت آمال .. الخ ، نعم أخذ المال بحق وأعطى ببصر ، ووزع بعدل . فهناك لا تفرض ضريبة الا بموافقة نواب الامة ، ولا تصرف الا بهذه الموافقة ..

تذكرت أنين « سديف » الشاعر الذى انضم الى ثورة النفس الزكية وهو يقول : « اللهم قد صار فيؤنا دولة بعد القسمة ، ــ أى استأثر الاغنياء به فهو دولة بينهم ــ

وامارتنا غلبة بعد المشورة ــ يشكو الاستبداد السياسى ــ

واشتريت الملاهى والمعازف بسهم اليتيم والارملة ــ سوء التصرف فى المال العام ــ

وحكم فى أبشار المسلمين أهل الذمة ! ــ فهم نعم العون للامير الجائر ــ

وتولى القيام بأمورهم فاسق كل محلة ـ هكـــذا تقع الطيور على اشـــكالها .

اللهم قد اسـتحصـــد زرع الباطل ، وبلغ نهيته ، واستجمع طريده .

اللهم فافتح له من الحق يدا حاصـــدة تبدد شـــمله وتفرق أمره ، ليظهر الحق فى أحسن صـــوره ، وأتم نوره » ...

مالى ولهـــذا الانين القديم ؟ ان الشـــجا يبعث الشجا .. كأن الزمان أو كأن الحاضر صورة المـــاضى ، فى عالمنا الاسلامى المهيض !!

يقصد بالضرائب المـــال الذى تأخذه الدولة من الجمهور فى صور شتى ليعود ذلك المـــال مرة اخرى الى الناس فى صـــورة خدمات عامة وضمانات لوجود الامة ورخائها ، وصـــون مصالحها ودعم القائمين عليها .

ومن هنا كان اداء الضريبة لابد منه وكان التهرب منه أشبه بالخيـــانة الوطنيـــة ..

وفى البلاد الراشدة يندر كل الندرة أن تذهب حصيلة الضرائب فى اجابة شهوة خاصة ، من أجل ذلك ينظرون الى المتهرب من الضرائب على أنه ارتكب ما يحرمه من المناصب الكبرى وما يصمه بأردأ التهم ! ..

وقـــد فرقنا فى كتاب آخر بين الضريبة والزكاة ، فان الله فرض الصدقة تطهيرا للنفس من رذيلة الشح ومساعدة للفقـــراء

على رد الضوائق والازمات ، واسهاما فى الدفاع عن العقيدة .. الخ .

وحدد القرآن الكريم مصاريف الزكاة فى ثمانية أصناف لا يجوز أن تعدوها الى غيرهم ...

أما دائرة الضريبة ، فهى أوسع مصادر ومصارف ، ومن حصيلة الضرائب ينهض الكيان السياسى والعسكرى والحضارى للامة ، ومنها ينفق الجهاز الادارى .

وقد تكثر الضرائب وترتفع نسبها خصوصا أيام الحروب حتى تصل الى ٩٠٪ من الدخل العام ..

أما الزكاة فموكول اليها ابتداء القضاء على اليأساء والضراء ، ومن مصارفها الثمانية سهم قد يوجه للجهاد العسكرى ! لكن مغارم الجهاد قد تمتد لتشمل المال كله ، والنفس معه ..

ولعلك ترى من هذا أن ثمت تشابكا بين دائرتى الضريبة والزكاة مع انفراد كل منهما بمجال تختص به !

والامم الكبرى — خصوصا من لها نشاط عالمى — تفتن فى وضع الضرائب وتعديد أوعيتها وتقرن ذلك بأهداف قومية مباشرة وغير مباشرة .

والاسلام حدد نسب الزكاة ، ومستحقيها ، لكن النشاط الاسلامى العالمى الممتد يفرض على المسلمين بذلا لا يقف عند حد كى يبلغوا رسالات الله ، ويحسنوا الدفاع عنها ..

وقد تأملت فى مطالب التربية والتعليم ، ومطالب الدعوة والثقافة ، ومطالب الاسطول البحرى والجوى ، ومطالب الجيش وأسلحته الكثيرة ومطالب الصناعات المدنية والعسكرية .. الخ فوجدت أن ذلك يتطلب أموالا لا تغيض منابعها ، فأدركت معنى **قوله تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم »(١) ..**

وقوله : « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله »(٢) ..

ويظهر أن كلمة « النفقة » تشمل الصدقات المفروضة والنافلة ، وتشمل أنواع البذل التى يفرضها العمل لله فى شتى الميادين .

وربما تمر بالمسلمين أيام يكلفون فيها بانفاق ما يزيد عن حاجاتهم الخاصة ، لا يستبقون شيئا استجابة للآية الكريمة : « **ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : العفو** »(٣) ..

وهذا ما يقوم به الجهاز الضرائبى ! وقد تكون كلمة ضريبة بغيضة الى الناس ! وعلة ذلك فيما يلوح فساد الحكم فى أغلب الاقطار الاسلامية ، والتبذير الشيطانى فى المال العام ، وقدرة الخائنين على العب منه دون حساب ..

---

(١) التوبة : ١١١ .
(٢) التوبة : ٤١ .
(٣) البقرة : ٢١٩ .

وقد رأينا أن الدول الاخرى معافاة من هذا البلاء ، وأن ما يؤخذ من دافعى الضرائب ينفق فى أرشد مواضعه ، ويراقب بعيون نافذة حادة . .

وهكذا نرى المكثرين والمنتجين يرعون مصالح أممهم ، **ويعطون دون من « وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين »(١) .**

وقد كنت فيما كتبت صدر حياتى أرى ذلك من مقتضيات الفطرة ، وافهمه من ظواهر الرأى ، ثم وجدت أن فقهائنا استنبطوه من القواعد المقررة فى الشريعة ! قال الاستاذ الشيخ يوسف القرضاوى انه يمكن « اذا قضت ظروف الحرب فرض ضرائب على القادرين وأهل اليسار لتمويل الجهاد ، وامداد الجيوش واعداد الحصون ، وما الى ذلك من احتياجات الحروب ! ان الشرع يؤيد ذلك ويوجبه كما نص على ذلك الفقهاء ، وان كان كثير منهم فى الاحوال المعتادة لا يطالب الناس بحق فى المال غير الزكاة ، واستدل الغزالى على ذلك بقوله : « لانا نعلم أنه اذا تعارض شران أو ضرران ، قصد الشرع الى دفع أشد الضررين وأعظم الشرين !

وما يؤديه كل واحد منهم — يعنى المكلفين بهذه الضرائب — قليل بالاضافة الى ما يخاطر به من نفسه وماله لو خلت بلاد الاسلام عن ذى شوكة يحفظ نظام الامور ويقطع مادة الشرور » .

قال الدكتور القرضاوى : « ومثل ذلك فك أسرى المسلمين ، وتخليصهم من قيود الكافرين واذلالهم ، مهما كلف ذلك من أموال !

---

(١) آل عمران : ١١٥ .

قال الامام مالك : يجب على كافة المسلمين فداء أسراهم وان استغرق ذلك أموالهم « ذلك لان كرامة هؤلاء الاسرى من كرامة الامة الاسلامية ، وكرامة الامة فوق الحرمة الخاصة لاموال الافراد » .

وهذا منطق سديد هدى اليه الفقهاء والدعاة والموجهون فى تاريخنا العلمى ، وسارت عليه الامم الآن شرقا وغربا ، فالحكومات الواعية قد تجعل من الضرائب شريان حياة كما تجعل منها أحيانا جراحة شفاء وتجميل ..

رأينا الضرائب تزاد على أسباب الترف وأدوات الزينة ولا بأس فى ذلك فالحصيلة ستكون سنادا للفقراء والمعوزين ..

ورأينا الضرائب تفرض على المصنوعات الاجنبية حماية للصناعة الوطنية ، وهذا حسن ، وقد نهضت فى الهند صناعات توشك أن تحقق الاكتفاء الذاتى للهنود ، بسبب الضرائب الصارمة التى أوجبتها الدولة .

واذا أكره الجمهور على استخدام أدوات أو سلع غير جيدة ، فان سنة الارتقاء ستصل بها الى المستوى المنشود يوما ما .

على اية حال لابد أن نذكر أن الدولة الاسلامية مربوطة بمبادىء وآداب وأهداف لا يمكن تجاهلها ، فى الداخل والخارج على سواء !

وربما بلغت الدولة بعض غاياتها بوسائل قريبة ، كما حدث من تآخ بين المهاجرين والانصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو على نحو ما فكر عمر بن الخطاب عندما قال :

لو لم أجد للناس ما يسعهم الا أن أدخل على أهل كل بيت عـــدتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم ، حتى يأتى الله بالحيا لفعلت ! فانهم لن يهلكوا على انصاف بطونهم !!..

لكن هـــذه الوسائل قد تصعب الآن ، والبديل المحتوم عنها هو الضريبة التى تمكن الحكومة من مباشرة الاطعـــام والايواء ، وامداد المحتاجين بما يسعفهم ويصونهم ماديا وأدبيا .

وما يقال فى مطالب السلام يقال مثله فى مطالب الحروب ، ســـيما وقد أحاطت بنا الذئاب من كل فج وســـمع لعوائها طنين رهيب ! ..

ولن يأسى مؤمن على مال يذهب فى هدف شريف ..

٥٩ — كيف يحقق الاسلام التوازن الاقتصادى فى المجتمع :

لا يرتاب عاقل فى أن الاســـلام منح الفرد حق التملك مادام السبب مشروعا ، **قال الله تعـــالى : ((أو لم يروا انا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون فيها منافع ومشارب افلا يشكرون)) ؟(١) .**

وقد رغب الواجدين اولى السعة ان يؤتوا غيرهم ويشركوهم فى نعمة الله لديهم « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم »(٢) ..

ورهب — سبحانه — من تسليط اليد السفيهة على المـــال تريقه فى العبث ، وتهـــدد المصــــالح المرتبطة به القائمة عليـــه **((ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل اللـــه لكم قياما))(٣) ..**

ونادى تبارك اسمه جماهير المؤمنين أن يستعفوا على الحرام ، والا تكون معـــاملاتهم انتهابا وشرها ، بل يجب أن تكون عن طيب نفس ، وعن رضـــا قلبى **((يا ايها الذين آمنـــوا لا تأكلوا اموالكم بينكم بالبطل ، الا تكون تجارة عن تراض منكم)) والواقع أن ازدهار** العمران وتوقد الملكات ، وتضاعف الانتاج انما يجيىء مع ســـباق الحوافز الخاصة ، ورغبة البشر فى الكسب ، والمزيد من الكسب ، لانفســـهم واولادهم ..

وقد أقر الاسلام حرية التملك ، وان كان قد أثقلها بالقيود التى تمنع سطوة الانانية ، وطغيان الاستغناء ..

---

(١) يس : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ .
(٢) النور : ٣٣ .
(٣) النســـاء : ٥ .

والشيوعية تلعن الملكية الخاصة ، وتجعلها مسئولة عن المظالم الاجتماعية قديمها وحديثها ! .

وقد تكونت للشيوعية بشقيها الاقتصادى والفلسفى الالحادى دول كبيرة ، والذى يعنينى أنا المسلم المؤمن بالله وكتبه ورسله — أمران أحدهما أهم واخطر من الآخر .

الاول :

اثبات معالم الايمان جملة وتفصيلا فلا هوادة فى جحد الالوهية ، وانكار الوحى الاعلى ..

الثانى :

احترام الملكية الصحيحة ، ورفض ما عداها من تملك أساسه السحت والاغتصاب وضروب الاستغلال السيىء .

وانما أقرر ذلك لأن هناك ناسا يزعمون الاسلام — ويعلم الله ما فى قلوبهم — ثم يتخوضون فى مال الله تخوضا رهيبا فلا يتركون منه الا ما عجزوا عن حمله ! ولا يبالون من أين اكتسبوا ! ولا يرقون لضعيف داسوه وهم يجمعون ولا يكترثون لمحتاج يرنو اليهم ابتغاء معونة !!

يقول أولئك : انهم يحاربون الشيوعية لانها ضد الدين !! وهم الطريق الموصل اليها والمغرى بها !! والدين الذى يذكرونه بعيد عن أخلاقهم وأعمالهم !

على أية حال نحن نحامى عن الاسلام الذى يخرج الناس من الظلمات الى النور ، ومن عبادة العباد الى عبادة الله الواحد ،

ونأبى أن تبقى رسالته العظمى فى وصاية نفر من المترفين والمتخومين « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض »(١) ..

ومن الصعب فصل الاقتصاد عن السياسة ، ومن هنا فانك حيث تجد الخلل السياسى تجد الاثراء الحرام ، واستغلال السلطة الى أبعد الاماد . وسوق المغانم الى الاقارب والاتباع والحواشى ..

وأرى أن طهارة الربح أصل عظيم لصلاح المجتمع ، وأن مصادرة الاملاك التى سرقت من حقوق الآخرين تعيد الى النفوس والاوضاع قدرا كبيرا من الاستقرار والتوازن ! ان رأى الاجانب فى أساليب الربح والخسار والغنى والفقر فى بلادنا ينكس رؤس الدعاة ، ويلصق بالاسلام تهما هو منها براء !

وقد سردنا النصوص فى تحريم النهب والغش والاحتكار والاستغلال فى أماكن من كتبنا ..

والمال المكسوب من حلال تجب فيه حقوق شتى ، أولها الزكاة ، ومكانتها فى الاسلام كبيرة ، والغاية منها قطع دابر البأساء والضراء ، وابداء العون الذى يحقق للفقراء الاكتفاء الذاتى .

وتدبر قول الرسول الكريم : « الا رجل يمنح أهل بيت ناقة تغدو بعس — قدح كبير — وتروح بعس ؟ ان أجرها لعظيم » .

أى توفر لاهل البيت مقدار سخيا من اللبن فى الصباح والمساء ، وبذلك تتم تغذيتهم !

---

(١) القصص : ٥ ، ٦ .

ان الصورة المعروفة للزكاة يد تمتد ذليلة سائلة لتتلقى فتاتا يسد حاجة اليوم ، ثم تكرر الضراعة والطلب لتسد حاجة الغد ، وهكذا دواليك !!

وتلك لعمر الله صورة مستكرهة ، ان الاسلام أول دين قاتل لاستخراج حق الله فى المال ، ثم تولت الدولة اعطاء من ترى بهم حاجة ، لكن كيف تعطى وكم ؟؟ يجيب الدكتور يوسف القرضاوى على ذلك فى تفصيل نقتبس منه هذه السطور(١) « فهناك المذهب الذى رجحه الغزالى وهو مذهب المالكية وجمهور الحنابلة وبعض الشافعية وهو أن يأخذ المحتاج ما يتمم كفايته من وقت الاخذ الى سنة مستقبلة ــ أى نفقة عام كامل ــ قال الغزالى فهذا أقصى مايرخص فيه من حيث أن السنة اذا تكررت تكررت أسباب الدخل ، ومن حيث أن الرسول الكريم ادخر لعياله قوت سنة ، والقائلون بهذا الرأى يذكرون أن كفاية السنة ليس لها حد معين تقف عنده « فان كانت لا تتم الا باعطاء الفقير الواحد أكثر من نصاب ، من نقود أو حرث او ماشية أخذ من الزكاة ذلك القدر ، وان صار به غنيا ، لانه حين الدفع اليه كان فقيرا مستحقا » !!

ومن الطرائف التى ذكرها صاحب الكتاب الجليل « فقه الزكاة » أن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز أمر من ينادى فى الناس كل يوم : أين المساكين ؟ أين الغارمون ؟ أين الناكحون ؟ يعنى طالبى الزواج الذين لا مهر معهم !! فان بيت مال المسلمين يساعد على الزواج وايتاء المهر !!

ثم ذكر الاستاذ رأيا آخر للفقهاء فى القدر الذى يمنح من

---

(١) نعد نحن كتاب « فقه الزكاة » أعظم ما ألف فى موضوعه فى تاريخنا العلمى ..

الزكاة ، هـــذا القدر ليس كفاية عام كما ذكرنا ، انه كفـــاية العمر ! قال : « وهـــذا الرأى هو الذى نص عليه الشـــافعى فى الام ، واختاره جم غفير من أصحابه » ..

ان الاسلام دين طبيعى يحارب السرقة بتموين النـــاس ! ويحارب الزنا بتزويج الراغبين فى العفاف ! ويسخر تعاليمه المـــالية لتحقيق أهـــدافه الخـــلقية ، وضـــبط المســـار الاجتماعى حتى لا يعوج أو يزيغ ..

على أن دائرة الزكاة مهمـــا اتســـعت فينبغى ألا نعدو بها حدودها ، قـــد تكون الزكاة عونا للعاجزين ، ولكنها مساعدة مؤقتة للعاطلين الى أن يجدوا العمل !

وقد جاء فى الحديث « لا تجوز الزكاة على ذى مرة سوى » أى أن الرجل السليم الخلقة ، الســـوى الحواس والاعضاء يتجه الى العمل ليكتسب منه ويقوت أهله !

ولا ننسى أن الزكاة نفسها هى فضـــول من عملوا وكســـبوا وادخروا ، فالعمل هو المصـــدر الاســـاسى للثروة ، وعلى الدولة أن تمهد ميادينه لكل قادر ، وأن تحـــارب البطالة بكل ما لديها من قوة ! ..

وأجـــدنى مكلفا بمصـــارحة قومى ، وان ســـائتهم هـــذه المصارحة ، أن غيرهم من الناس كان أجلد منهم على العمل ، وأبصر بأسبابه ، وأحيل على معالجته والنجاح فيه ونيل الغنى البـــاذخ منـــه !..

وقـــد تساءلت عن سر ذلك ؟ فوجدت ن تقاليد البدو تسللت

الى تعاليم الاســـلام وتقاليد المسلمين فوقفت بأمتنا على حين تحرك غيرها وسبق سبقا بعيـــدا .

والبدو يحتقرون الفلاحة ، ويزدرون الحرف ومجالس الاغراب ملأى بالمفاخرات والمنافرات والتطـــاول بالرياســـة ، والتنزه عن عدد من الصـــناعات !

فالفرزدق يهجر جريرا لان أباه حــداد ! أما مجاشع جـــد الفرزدق فلا تدرى مم يأكل ؟ ..

والى أمد قرب كان ابن عمدة القرية آصـــل من ابن طبيب القرية ! أو ابن شرطيها !

واليـــد الملوثة بالنفط والقار مؤخرة عن اليـــد التى تقبض النقود حصيلة كـــدح هـــذا وذلك !!

وربما وصل هـــذا التفاوت الى عقود الزواج فعد ابن هـــذا ليس كفأ لبنت ذاك ، ونسب ذلك كله الى الاســـلام ..

ان المجتمع الاسلامى يجب ان يعاد تشـــكيله وفق القانون الآلهى الفذ **« اعملوا فســـيرى الله عملكم ... »**(١) .

أما عوائد المترفين والقاعدين فلتطوح معهم الى الجحيم .

---

(١) التـــوبة : ١٠٥ .

٦٠ ـــ ما موقف الاسلام من نظام المصارف الحالى ، وما البديل الذى يقدمه ؟؟

المتأمل فى أعمال هذه البنوك يجد بعضها حلالا محضا ، والآخر حراما لا ريب فيه ، وهناك أعمال يمكن بتعديلات يسيرة أن تأخذ الصورة المشروعة .

ومن هنا شرع الاقتصاديون المسلمون يرفعون قواعد المصارف على أسس من الفقه الاسلامى ، ففى هذا الفقه عقد المضاربة الذى يتم بين الخبرة من ناحية ورأس المال من ناحية أخرى ، كما أن فى هذا الفقه قواعد ممهدة للصرف والحوالات والضمان والوكالة وغير ذلك .

ثم ان جماهير المسلمين راغبة كل الرغبة فى ان تبعد طعمتها عن الشبهة فضلا عن الحرام لذلك ما كادوا يسمعون عن مصرف اسلامى حتى سارعوا الى الاسهام فيه !

وقد نهضت الآن عدة مصارف فى وجه مقاومة منظمة من البنوك العالمية التى لا يسرها ما حدث !..

وقد قرأت كلمات لرؤساء المصارف الاسلامية تشرح وظائفها ، وعلائقها بالمؤسسات الاقتصادية الاخرى ارى انها تلقى أضواء على الموضوع كله ، فالاستاذ « سعيد لوتاه » رئيس المصرف الاسلامى « بدبى » يقول(١) : ان انشطة هذه المصارف هى الترجمة العملية للنظام الاقتصادى الاسلامى فى ايسر صوره ، نحن نقوم بدور الوسيط بين المال ورجل الاعمال فى كل المجالات ،

(١) بتلخيص قريب من الاصل .

وذلك فى نطـــاق محكم من تعاليم الشريعة ، وتقدير عملى لحاجات الافراد ، أى أننا نربط الفكر النظرى بالواقع .

وفى العلاقة مع البنوك الربوية يقول : هناك فاصل لا يمكن تخطيه ! فنحن لا نأخذ فائدة والربا عندنا محرم فى كل قرض سواء للاستهلاك أو الانتاج .

ويمكن أن نتعامل مع البنوك الاخرى فى الحسابات الجارية ، وتحويل العمـــلات ، وصرف الصكوك « الشـــيكات » وخطـــابات الضـــمان ، وأنواع الكفالات ، فهـــذه كلها أعمال مصرفية جائزة شرعا .

ويقول الاستاذ أحمـــد أمين فؤاد رئيس المصرف الاسلامى الدولى للتنمية : ان المـــال والكون كله ، ملك الـــه ســـبحانه ، وقـــد اســـتخلفنا اللـــه فى هـــذا المـــال ليرى كيـــف نكتســـبه وكيـــف ننفقه ، فما يجوز أن نتملكه من وجـــه مجرم ولا أن ننفقه على نحو سيىء ، كما لا يجوز أن يكون تداول المـــال فى المجتمع على نحو يزلزل قواعـــد الاخلاق ويهـــدد كرامة البشر ، فالمـــال أداة لخـــدمة الانسان وليس الانسان عبـــد للمال ..

والمفروض أن يكـــدح المـــرء ويخاطر لينجح لا أن يحاول الربح دون جهـــد يذكر .. والمصـــارف الاســـلامية وهى تعطى المـــال لطالبه تشارك فى رسم الخطة وتقـــدير الظروف وتحمل المسئولية ، أما البنوك الربوبية فهى تتنصـــل من هـــذا كله ، وتحتمى وراء ضمان الفائدة وحسب !

وقـــد كان نتاج الاسلوب الربوى مريرا ، وانطبق عليـــه قوله تعـــالى :

« يمحق اللـــه الربا » ..

كيـــيف كان هـــذا المحق ؟ ننظر الى الدول المـــدينة والدول الدائنة على مدى أربعـــة أجيال من القروض الدولية ! ..

ان الدول النامية — المقترضة — تتـــدحرج من سيىء الى أسوأ ، وها هى ذى قـــد وقفت برامج التنمية وعجزت عن سداد الاقساط ، والفوائد المقـــررة ، ويوشك اغلبها أن يعلن افلاسه .

أما الدول الدائنة فقـــد كانت فرحة بقـــدرتها على الاقراض وفرصتها فى أكل الربا .. ثم ذاقت وبال أمرها بعـــد تدهور أحوال المـــدين ، وظهور عجزه .

حتى اعادة جـــدولة الديون لا تحقق خـــيرا ، فان هـــذه الاعادة تؤدى الى خسارة ٨٠٪ من القيمة الاصلية للدين .

ولو طبقت الانظمة المحاسبية على هـــذه المؤسسات لأعلنت افلاسها .. اليس هـــذا هو المحق الـــذى توعـــد القـــرآن به المـــرابين ؟ ..

٦١ ـ ما هى حـــدود الكسب الحلال فى التجارة ؟ وكيف يضـــع الشارع حـــدا لأرباح التجار ؟ ..

التجارة باب عظيم من أبواب الثراء فى الدنيا كما هى ميـــدان فسيح للنشاط العمرانى ، وتنقيل الخيرات بين أرجاء الارض .

والعجيب أنها كـــذلك باب عظيم الى الثـــراء فى الاخـــرة ورفعـــة المـــكانة عنـــد اللـــه ، وحسبنا فى ذلك قول الرسول الـــكريم :

« التاجر الامين الصـــدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصـــالحين » ..

وقـــد وقفت مليا أمام حـــديث آخر يشـــيد بخلق السماحة والرحمة فى معاملة التاجر لغيره ، وبهرنى ما ذكر من مثوبة لهـــذه الخلال ، فعن حـــذيفة وأبى مسعود البـــدرى أنهما سمعا رسول اللـــه صلى اللـــه عليـــه وسلم يقول : ان رجلا ممن كان قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه ! فقال له : هل عملت من خـــير ؟ قال : ما أعلم ... ! قيل له : انظر ... ! قال : ما أعلم شيئا .

غير انى كنت أبايع الناس فى الدنيا فأنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر !! .. فأدخله اللـــه الجنـــة » ..

والمعروف أن قوم النبى عليه الصلاة والسلام كانوا يشتغلون بالتجارة ، بل لعلها كانت مصـــدر رزقهم وعماد معايشهم ، وكانت حركتهم ناشطة بين اليمن والشام ، وبين فارس والروم .

وقـــد شارك النبى نفســـه فى بعض الرحلات التجارية .

وعاش — صلى اللــه عليه وسلم — من العمل فى هــذا المجال عمره الاول ، وكــذلك كان صحبه ! .

ولمــا كان العرب يمسون ويصبحون فى هــذا الجو التجارى المشغول بالارباح والمغامرات فان لغــة الوحى اتجهت اليهم من هــذه الزاوية :

« هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عــذاب أليم ؟ تؤمنــون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل اللــه بأموالكم وأنفسكم »(١) .

وفى وصف المنافقين ، وعبيــد الدنيــا ، وطلاب المــآرب الخاصة يقول سبحانه :

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهــدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتــدين ! »(٢) .

والتجارة على كل حال ينبغى أن تكون شريفة الوســائل ، نبيلة المســالك ، وفى صيحة تحــذير من الغش والخداع والجشع يقول الرسول صلى اللــه عليه وسلم :

« ان التجار يبعثون فجارا يوم القيامة الا من اتقى اللــه وبر وصــدق » ..

ومعروف أن التاجر يشترى السلعة بثمن ما ولكنه عنــدما يضع لها سعرا للبيع ، يضيف الى ثمنها الاصلى نفقات النقــل والتخزين ، ثم الربح الذى يقيم عليه حياته ، وقــد يضيف الى ذلك زيادة ما لضمان غــده ! ..

---

(١) الصــف : ١٠ ، ١١ (٢) البقرة : ١٦

ان التاجر ليس موظفا حكوميا له أجره الرتيب ، وله مدخرات تكفل معاشه بعد ترك الوظيفة ، كلا ان الميدان الذى يعمل فيه يقوم على المخاطرة ، وبديهى أن يحتال التاجر ليحفظ حاضره ومستقبله جميعا ..

والناس تعلم ذلك ، وترضى به فى نطاق الاعتدال ، وان كان هناك من يغالى فى تقدير أجره على تعبه أو يغالى فى مستوى العيش الذى ينشده ! ..

وفى ربح التجارة يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم »(١) ..

وللشيخ محمد عبده تفسير غريب لهذه الاية ، فهو يقول انما استثنى الله التجارة من عموم الاموال التى يجرى فيها الاكل بالباطل — أى بدون مقابل — لأن معظم أنواعها يدخل فيه الاكل بالباطل ! . فان تحديد قيمة الشيىء وجعل ثمنه على قدره بقسطاس مستقيم عزيز عسير ، ان لم يكن محالا ! . فالمراد من الاستثناء التسامح بما يكون فيه أحد العوضين أكبر من الاخر وما يكون سبب التعارض فيه براعة التاجر فى تزيين سلعته ، وترويجها بزخرف القول — من غير غش ولا خداع ولا تغرير .. فان المرء قد يشترى الشيىء من غير حاجة ملحة اليه ، وقد يشتريه بثمن يعلم أنه أكبر مما يباع به فى مكان آخر ، ولا يكون لذلك سبب الا أن البائع أمهر وأقدر ، مع بعده عن الغش ، ومحافظته على الصدق ! ..

---

(١) النساء : ٢٩

قال الشيخ : فيكون هـــذا الكسب من باطل التجارة التي تمت بالتراضى ، وهو ما استثنته الاية الكريمة ! . والحكمـــة فى اباحته الترغيب فى التجارة لشـــدة الحاجة اليها ، وتنبيه النـــاس الى استعمال ما أوتوا من ذكاء فى اختيار الاشياء ، وضبط المعاملات وحفظ أموالهم التى جعلها اللـــه لهم قياما أن يذهب شيىء منهـــا بالباطل ..

ثم قال : فعلى هـــذا يكون الاستثناء متصلا خرج به الربح الكبير الذى يحصل عليه التاجر من غير غش ولا تغرير ، بل تم بتراض لم تنخـــدع فيه ارادة المغبون ، ولو لم يبح الشـــارع مثل هـــذا لمـــا رغب فى التجارة ولا اشتغل بها أحـــد من أهل الدين .. الخ ..

وقـــد ناقش الدكتور محمـــد زكى عبـــد البر هـــذا الكلام ورفضه ، وفسر التراضى بأنه ركن التجارة المباحة ، ويعنى طيب النفس بالأخـــذ والاعطاء ، فلا يحل مال امرىء مسلم الا بطيب نفس منـــه . قال صلى اللـــه عليه وسلم :

« لا يحل لامرىء مسلم ان يأخـــذ عصا أخيـــه بغير طيب نفس منـــه » ..

قال الدكتور : « لا نذهب الى ما ذهب اليه الاستاذ الامام من مشروعية التجارة عن تراض ولو كان بها شىء من الباطل ؛ ترغيبا فى التجارة لشـــدة الحاجة اليها ، لأن القول بالمشروعيـــة يتنافى مع الباطل ولأن الأمر اذا شرع لا يعـــد باطلا ، واذا كان باطلا يكون مشروعا .. الخ » ..

ويبقى بعـــد ذلك كله السؤال الوارد : أليس لأرباح التجار

حـد تقف عنـده ، وتحرم بعـده ؟ ربما لا نجـد نصا صريحـا فى تحديد الربح ، والذى نراه أن الظروف الطبيعية تقف بالمكاسب عادة عنـد حـدود الاعتـدال ! .

لكن نفـرا من التجار يحاول السيطرة على هـذه الظروف والتلاعب بقانون العرض والطلب ، ويصل الى غايتـه بالاحتكار المتعمـد للسلع ، حتى يبيعها بأضعاف سعرها ..

والاحتكار جريمة خلقية واجتماعية ، وهو أقصر طريق لأكل أموال الناس بالباطل ، واشباع النهم الفردى من حاجـة ذوى الحاجات ..

ولعل من أدهى العلل التى وفـدت بها الحضارة الحـديثة حرق بعض المحاصيل الزراعية حتى لا يرخص السعر الذى حـدده الباعة ... ! والكفر ، كالجنون ، فنون ! ..

بعـد ما تبينت ضخامة الارباح التى تجنيها الشركات المحتكرة فهمت قول رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم : « لا يحتكـر الا خاطىء » ، وما روى عنه « يحشر الحاكرون وقتلة الانفس فى درجـة ! . ومن دخل فى شيىء من سعر المسلمين يغليه عليهم كان حقا على اللـه تعالى أن يعـذبه فى معظم النار يوم القيامة » . وكـذلك ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام من رواية معاذ بن جبل « بئس العبـد المحتكر أن أرخص اللـه تعالى الاسعار حـزن ، وان أغلاها فـرح » ..

وقـد رأى الشيوعيون الغاء التجارة لمـا رأوه من جشـع أغلب التجار ! وعينوا من يوزع السلع بعـد نقلهـا من مواطن انتاجها الى مواطن استهلاكها ! ..

وهـذا الحل لا يجدى فى تلبية الرغبات العامة ، ولا يتجاوب مع الحريات الطبيعية ، وهو جزء من خطـة فى العيش لم تحظ برضا الجمهور ، فبقيت فى حراسة السلاح ! ..

والذى نراه ابقاء سوق العرض والطلب ، واطلاق المنافسة الحرة بين الافراد والشركات ، وتدخل الدولة بالتسعير الجبرى اذا أحست سوء الاستغلال ! .

ويبقى أمر له وزنه الكبير وان مارى فيه البعض أعنى وازع الدين وقانون الاخلاق ! . فان زكاة النفوس فى جو التربية السليمة والحريات المكفولة يمنع أنواعا من البلاء ، ويجعل التجارة فى اطار الحـديث الشريف :

« رحم اللـه رجلا سـمحا اذا باع واذا اشـترى واذا اقتضى » ..

ومن لطائف عمر بن الخطاب أنه قال :

« لا بيع فى سوقنا الا من قـد تفقـه فى الدين » !! ..

٦٢ ـ ما دام الدين واحــدا فلماذا تتعدد حركات التجــديد وتكثر مناهج المصلحين ؟

شرائع الاسلام لا يغنى بعضها عن بعض ، ومعالمه الكاملة تؤخــذ من نصوصه وقواعده ، وفروضه ونوافله فى صورة متسقة حسب الوضع الالهى الذى أتت به ..

غير أن المسلمين قــد يسيئون الى الموضوع أو الشكل وقــد ينحرفون عن الاصل أو الفرع ! . والعلل التى تصيبهم شتى ..

وهناك عينان حمئتان تسيلان بالشرور فى واقــع المسلمين المعاصر ، احــداهما من الاضطراب الداخلى فى ثقافتنا وسياستنا ، وهو اضطراب قــديم مضت على جرائيمه قرون ..

والاخرى من الاستعمار الخارجى الدائب على محو شخصيتنا وهــدم قواعدنا وحوك المؤامرات فى كل ميــدان ضدنا ..

ومن ثم تتغاير الادواء التى يحاصرها المصلحون ، ويبغون شفاء الامة منها ، واهتمام أحــدهم بوضع ما وجــده فى بيئتــه لا يعنى قلة اكتراثه بالاوضاع الاخرى .

ان الظروف التى يواجهها هى التى تحكم عليــه بمنهــج معين يتخصص فيه ويعرف به ..

رفع محمــد بن عبــد الوهاب شعار التوحيــد ، وحق له أن يفعل ! فقــد وجــد نفسه فى بيئة تعبــد القبور ، وتطلب من موتاها ما لا يطلب الا من اللــه سبحانه ..

وقــد رأيت بعينى من يقبلون الاعتاب ويتمسحون بالابواب

ويجأرون بدعاء فلان أو فلان ، كى يفعل لهم كذا وكذا ! ما هذا الزيغ ؟ ما الذى أنسى هؤلاء ربهم ؟ وصرفهم عن النطق باسمه والتعلق به ؟ وماذا يرجو العبيد من عبد مثلهم لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ؟ انه لو كان حيا ما ملك لهم شيئا ، فكيف وهو ميت ؟ ..

وتذكرت قوله تعالى :

« ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون »(١) .

وقوله :

« أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ فالله هو الولى وهو يحيى الموتى وهو على كل شيىء قدير »(٢) .

أن هذا المسلك ينافى جملة وتفصيلا عقيدة التوحيد ! وانكاره واجب كل مؤمن غيور ..

بل اننى أذهب الى أبعد من هذا فأقول : كل انسان له بشخص ما أو بشيىء ما صلة تشبه من كل ناحية صلة المشرك القديم باللات والعزى فهو مثله ، وحكمه حكمه .. ! .

لقد رأيت من يهاب بشرا أكثر مما يهاب الله ، ومن يرجوه أكثر مما يرجو الله ! فكيف أعد هذا مؤمنا ، وليس فى قلبه اتجاه الى الله ! أن قلبه خال من ربه ملىء بغيره ! فلماذا يكون خيرا من عبد اللات أو عبد العزى ؟؟ .

---

(١) الاحقاف : ٥ (٢) الشورى : ٩

الذى أراه أن عبادة القبور وعبادة التصور ، أعنى عبادة الاموات وعبادة الاحياء ، آثار متشابهة وخواتيمها سوء !! .

ان رفع شعار التوحيد هنا اصلاح عظيم لعوج هائل ، فهل معنى ذلك أن الاصلاح كله يقف عند رفع هذا الشعار ؟ كلا هناك اصلاحات خلقية واجتماعية واقتصادية وسياسية لا يتم الدين الا بها ! .

وقد توفر رجال آخرون على هذه الاصلاحات ، وبذلوا فيها جهودا مشكورة .

وفى مقدمة أولئك الرجال مقاوموا الفساد السياسى ، ورافضوا الفرعونية والهرقلية فى تاريخنا المديد ، انه قتل من هؤلاء المجاهدين من قتل وعذب من عذب ، وبقيت حياتهم أسوة حسنة لرواد الخير وحماة الحق ..

وفى عصرنا هذا ائمة استشهدوا وهم يحاربون الاستبداد السياسى ، ويستنقذون حقوق الانسان من براثن الجبابرة ..

ولأشرح هنا موقفا اضطرب فيه المتكلمون باسم الاسلام ..

ان الاسلام يرفض الانحراف عن الحاكم اذا كان لغرض خسيس ! نعم هناك قوم ينظرون الى مغانم الحكم باشتهاء ، فان اعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون ! ..

ومعارضة هؤلاء للحاكم محقورة منكورة ، لا نكترث بها ، بل قد نشجبها ..

وهناك معارضون اغبياء ، يهدمون من اجل شيىء تافه

بنيانا قائما ، ولا يدرون شيئا عن عواقب الامور ، تأملت فى ثورة الخوارج على على بن أبى طالب ، ان قــرار التحكيم الذى قبله لم يعجبهم ، فقاتلوه حتى قتلوه ، وانتهى تمردهم بقيام نظام ملكي أجهز عليهم دون رحمة !! ..

ماذا عليهم لو قبلوا القــرار ، وبقوا مع أمير المؤمنين حتى استقر له الامر ؟ اليس ذلك خيرا مما حــدث ؟ ..

وهناك معارضة تضعف الدولة أمام خصومها ، وتــد تهدد وجودها ورسالتها ، ان هــذه معارضة سيئة بلا ريب ..

وقــد رفض الاسلام كل معارضة من هــذا القبيل ، فهل معنى هــذا اعطاء الحكم الفردى الاعمى ضمانات أبــدية لبقائه والدفاع عنه ؟ هل معنى ذلك أن الاسلام يسكت عن حكم يغتال الحقوق ، ويذل النفوس ، ويعطل الحــدود ، ويستحل الحرمات ؟ كــلا ..

وأمامى الان فتوى جبانة مضللة تلبس الحق بالباطل وتحرف الكلم عن مواضعه ، فتحت عنوان : هل تجــوز منازعة الامام الجائر ؟ جاءت هــذه الكلمات « .. ذهبت طائفة من المعتزلة ، وعامة الخوارج الى منازعة الجائر ، وأما أهل الحق ــ وهم أهل السنة والاثر ــ فقالوا : الصبر على طاعة الجائر أولى ، والاصول تشــهد أن أعظم المكروهين أولاهما بالترك . فقــال عيــاض : وأحاديث مسلم كلها حجــة على ذلك كقوله صلى اللــه عليــه وسلم « أطعهم ، وان أخــذوا مالك ، وضربوا ظهرك » !! .. وقال الطرطوشى فى سراجه : حــديث أبى داود عظيم الموقــع فى هــذا الباب : قال رسول اللــه صلى اللــه عليه وســلم : « يطلبون منكم ما لا يجب عليكم ، فاذا سألوا ذلك ، فأعطوهم

ولا تسبوهم » .. أى يدفع لهم ما طلبوا من الظلم ، ولا ننازعهم ، ونكف ألسنتنا عنهم ، وقال ابن العربى : السلطان نائب رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم(!) يجب له ما يجب لرسول اللـــه من التعظيم والحرمة والطاعة ! . ويزيد على النبى صلى اللـــه عليه وسلم(!) لا بحرمة زائدة ، لكن لعلة حادثة بأوجه ، منهـــا الصبر على أذاه ويدعى له عنـــد فساده بصلاحه ..

وقيل لمـــالك : الرجل عنـــده علم بالسنة أيجادل عنهـــا ؟ قال : يخبر بالسنة ، فان سمع منـــه والا سكت ! قيل : فينصح السلطان ؟ قال : ان رجا أن يسمعه ! والا فهو فى سعة » .

والواقع أن الجبن وحب الحيـــاة ومهادنة الضلال تقطر من كلمات هـــذه الفتوى ، وما تربى الا أذنابا للحاكمين ، وحواشى للمســـتبدين ..

وما سقتها الا لأنها تصور الفكر السائد عنـــد جمهور من المتـــدينين وهو الفكر الذى حاربه زعماء الاصلاح وأئمـــة العلم ، وبينوا بعـــده السحيق عن دين اللـــه .

وما أدرى كيف يكتب هـــذه الكلمات من يعـــرف أن الدين النصيحة ، ومقاومة المنكر ! وأن أفضل الجهاد كلمة حق عنـــد سلطان جائر ! وأن الامة اذا هابت أن تقول للظالم يا ظالم فقـــد ماتت موتا ماديا وأدبيا ..

هل قـــرأ مصـــدر هـــذه الفتوى قوله تعالى :

« ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون اللـــه أولياء ، ثم لا تنصرون »(١) ؟ .

---

(١) هود : ١١٣

اننا لم ننصره من عـــدة قرون ، لشيوع الظلم بين المسلمين ، وكثرة من يداهنون الجائرين ويأكلون على موائدهم ! ..

فى بنى اسرائيل — وهم من هم — دعا القاضى « كاهان » رئيس الحكومة فمثل بين يديه ، ثم دعاه مرة أخـــرى وأنذره ان تأخر ، فجاء رئيس الحكومة طائعا ، ثم صـــدر الحكم ضـــده وضد من معـــه ..

وقال الناس : يستحيل أن يقع هـــذا فى بلد عربى !! .. وأردفوا ساخرين : المـــاء لا يجرى الى أعلى ! .. قلت : وبركات السماء لا تنزل على الادنى ، ان الاستبداد السياسى أعمى المسلمين عن حقائق الكتاب والسنة فغشيهم من الضياع ما غشيهم ..

والاصـــلاح فى الميـــدان السياسى كالاصـــلاح فى الميـــدان العقائدى له رجاله المرموقون ..

وهناك الاصلاح فى الميـــدان الثقافى ، وغايته — كما أرى — اعادة الرشـــد الى العقل الاسلامى الذى كاد يفقـــد وعيه بعـــد غيبوبة طالت وتراكمت آثارها ، وأمسى المسلمون معها لا يعرفون رأسا من ذنب فى افق المعرفة الدينية ، وامسوا عالة على غـــيرهم فى علوم الكون والحيـــاة ..

ان اللـــه يبعث رسله من أنفس السلالات البشرية معدنا ، وأحـــدها ذكاء وفطنة ، والغريب فى الامة الاســـلامية أنها كادت تحصر علوم الدين بين الغوغاء والهمل ، وتكاد تلاوة القـــرآن الكريم تكون حرفة لأشباه المتســـولين !! . فهل نجنى من ذلك الا المـــر ؟ ..

ولـــما كنت جنـــديا فى جيش الدعاة الاسلاميين فانى مضاعف الحس بما يعانى الاسلام من بلبلة وغموض فى قضـــايا شـــديدة الوضوح ، ففى ميـــدان التربية فوضى أثارها متصوفون ، وفى ميـــدان التشريع فوضى أثارها متفقهـــون ، وفى ميـــدان التعليم فوضى أثارها قاصرون حتى لأكاد أقول : **ما يبـــدأ الاصـــلاح الا من هنـــا ! ..**

وسواء **بدأ الاصلاح ثقافيا أو** سياسيا ، فان المسار واحـــد لابد **أن** يلتقى على صعيده المخلصون وان تباينت نقط الابتداء ، وستجنى الامة منه أطيب الثمر !! ..

٦٣ ـ ماذا عن احاديث آخر الزمان ، وهل لها دلالات معينة ؟؟ :

قبل أن ينتهى أجل الدنيا ، وتتلاشى الحياة فوق هـذا الكوكب ستقع أشياء كثيرة مثيرة ! .. بعضها يتصل بالامة الاسـلامية التى كلفت بهـداية العالمين . وفرطت فى هـذا التكليف ! وبعضها يمس الناس كلهم ، الذين خلقهم اللـه لعبـادته فآثروا عبادة أنفسهم ، وجعلوا آلههم هواهم ! ..

يظهر أن التقـدم المـادى سيبلغ الـذروة ، وأن الغنى سيملأ كل يـد ، وأن الارض ـ قبل أن تسلم النزع الاخـير ـ ستتخلى عما فى بطنها ! . لمن تدخره ؟ يوشك أن تصفر جنباتها ! فلترم بذهبها وفضتها لمن على ظهرها الان ، ومن هنـا سيتطاول الرعاع فى البنيان ، ويسكنون ناطحات السحاب ، وينعم العبيد بمستوى المعيشة التى عرفت للملوك ! ..

ذلك ما نفهمه من قوله تعالى :

« حتى اذا أخـذت الارض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلا او نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس »(١) ..

وقوله :

« واذا الارض مدت ، والقت ما فيها وتخلت . وأذنت لربها وحقت »(٢) ..

أى استمعت لأمره ، وحق عليها أن تسمع ! ..

---

(١) يونس : ٢٤ (٢) الانشقاق : ٣ ، ٤ ، ٥

وذلك ما أشار اليه الحـديث الشريف فى علامات السـاعة « ... ويفيض المـال حتى لا يقبله أحـد ! » وقوله عليه الصلاة والسلام فى هـذه الامارات « .. أن تلد الامة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاه يتطاولون فى البنيان » وفى رواية « .. اذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس » ..

وقـد وهل البعض فى فهم هـذه الكلمات ، وظنوا الاسلام يكره رياسة الفقراء ! وهـذا خطأ فاحش وهل كان العرب حملة الحضارة الاسلامية الا فقراء يرعون الغنم ؟ ..

ان المقصود تقـدم السفلة بالوسائل الهابطة ، ووصـول من لا كفاية له الى مناصب لا يستحقها ، وهـذا ما نفهمـه من الاحاديث الاخرى مثل قوله عليه الصلاة والسلام « لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع » أى اللئام الاقذار .

وفى رواية « لا تقوم الساعة حتى يرث الدنيا شراركم » وفى أخرى « لا تقوم الساعة على أحـد يقول اللـه اللـه » .

والواقع أن فساد الحكم شر أنواع الفساد كلها ، فانه يتيح للاوغاد أن يدمروا الاخلاق والامجاد وأن يرخصوا الدماء والاعراض .

ويبـدوا أن الامة الاسلامية سيشيع فيها هـذا البلاء أكثر من غيرها ، فقـد صح ، عن الرسول الكريم أنه بينا كان يحدث القوم جاءه رجل فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم فى حـديثه حتى اذا قضاه قال : أين السائل ؟ قال : هاأنذا يا رسول اللـه ! قال : اذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة ! قال : وكيف اضاعتها ؟ قال : اذا وسـد الامر الى غير أهله فانتظر الساعة » !! .

ومع أن الخيانات الاجتماعية والسياسية ضاربة الجذور فى تاريخنا الا أنها ستزداد فشوا وعتوا فى الاعصار الاخيرة .

هناك حاكم مات أبوه وهو يشتهى ركوب الحمار ! مكن له القــدر فأصبح ينتقل بالطائرة ، ولم يكتف بذلك حتى جعل الطائرة تنقل الحلوى لأولاده وأحفاده ، من مال الشعب ! ما أتعس الإسلام بأولئك الحكام !! ..

وقــد وردت أحــداث بين يدى الســاعة نحب أن نشرح بعضها ! من ذلك نزول عيسى بن مريم وعيسى بشر كريم ، ونحن المسلمين نرفض أن يكون الها أو ابن اله ، وكتابنا يقول فيــه :

« ان هو الا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني اسرائيل »(١).

ثم يقــول :

« وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها ، واتبعون هــذا صراط مســتقيم »(٢) .

وهــذا تلميح الى نزول عيسى قبيل الساعة ، بيد أن السنة جاء بها تصريح واضح قال رسول اللــه صلى اللــه عليه وسلم : « والذى نفسى بيــده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية » ..

ولمــاذا ينزل ؟ ينزل ليكــذب بنفسه من زعموه آلها ، وهم جماهير غفيرة ! .

وفى حــديث آخر أنه سينزل بين المسلمين ــ وهم أتباعــه

---

(١) الزخرف : ٥٩ (٢) الزخرف : ٦١

الحقيقيون — فيقاتل معهم الصليبيين ، حتى يهزمهم ، ويسقط دولتهم ، عن جابر بن عبد الله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين الى يوم القيامة ، فينزل عيسى بن مريم ، فيقول له أميرهم : تعال صل بنا — يعرض عليه امامة المسلمين — فيقول عيسى : لا ، ان بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله تعالى لهذه الامة .

والحديث يشير الى أن الاسلام خاتم الرسالات ، وأن عيسى لن يجىء بجديد ! ..

وظاهر القرآن أن عيسى مات ، والقول بأنه حى فى مكان ما أو فى السماء لا دليل له ، ولا يمنع ذلك من أن يحييه الله مرة اخرى كما أحيا عبيدا آخرين ، ليقوموا بعمل له خطره ! وهذا رأى أهل الظاهر عندنا ، وهو عندى أرجح من القول بأنه حى الان ..

ومن الاحداث المروية بين يدى الساعة ظهور الدجال الاكبر الذى يختم طائفة من الدجالين الكذبة أدعياء النبوة والمهدية الذين يزعمون أن لهم بالله علاقة ، وأنهم يتحدثون بوحى منه ! . وفى الحديث « لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين ، كلهم يزعم انه رسول الله » ..

والدجال الاخير رجل من اليهود أوتى علما وقدرة ، وربما ادعى الالوهية ، وليس ذلك غريبا فان المدعو بالبهاء ، زعم أن الله حل فيه ، وانه مجلى الالوهية الهادية ، وأن انكار ذلك نوع من الكفر الذى حذر منه القرآن فى الاية الكريمة :

« ... **ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله** »(١) .

فالتفريق عدم الايمان بالحلول(!) .

---

(١) النساء : ١٥٠ .

وفى السـنة تحـذير من الدجال ومخرقتـه ، وتخويف من اتباعه ، ولفت الى أنه سيكون شخصا أعور مقبوح الهيئة ..

وقـد وردت أحاديث كثيرة فى فتنة هـذا الدجال تحتاج الى بحث خاص ، والذى يهمنى هنا حـديث « انما أخاف على أمتى الائمة المضلين » .. وفيه « ... انه سيكون فى أمتى ثلاثون كذابا كلهم يدعى أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين لا نبى بعـدى » .

العـدد للتكثير ، والذين ادعوا أنهم أصحاب وحى كى يقودوا الناس باسم الدين جم غفير وليس بعـد خاتم المرسلين وحى ! . ان المحتالين باسم الدين أكثر من المحتالين طلبا للدنيا ، ويغلب أن يلتف بهم أتباع واهمون مسحورون ينسبون لهم خوارق عادات ، ويطلبون لهم طاعة عمياء وديننا قوامه العقل ومعجزته انسـانية خالـدة .

والائمة المضلون هم الخلفاء الظلمة والملوك المسـتبدون ، وهؤلاء مذ ظهروا بدأ خط الانحراف فى تاريخنا فانفصل العلم عن الحكم أو انفصلت السياسة عن الثقافة .

ثم انشعبت المعرفة الدينية شعبتين بعـد ما توحدت زمانا ، فاذا متصوفون لا فقـه لهم ، وفقهاء لا قلوب لهم ! . ثم مضى الانحراف الى مداه فاذا المتصوفة يفقـدون الاخلاص والتجـرد ويمسون أصحاب مراسم وشيوخ طرق ، واذا الفقهاء يخلفـون بعـدهم مقلدين لا يذوقون حكمة نص ، ولا يحسـنون الاجتهاد لنازلة ! .

وصحب هؤلاء وأولئك قصور شائن فى علوم الحياة وشئون

الدنيا فكان لابد أن تركع الامة أمام أعدائها بعـــد ما انهارت ماديا وادبيا ! واذكر ان صـــديقا قال لى : ان الاوربيين والامريكيين يكرهون اليهود ، ولكنهم يحتقرون العرب !! . وماذا لدينا يستدعى الاحتــرام ..

فى تلك الحال يذكر حـــديث عن رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم « يوشك أن تداعى عليكم الامم كما تداعى الاكلة الى قصعتها . فقال قائل : من قلة نحن يومئـــذ ؟ قال : لا ، بل أنتم يومئـــذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن اللـــه من صـــدور أعدائكم المهابة منكم وليقـــذفن فى قلوبكم الوهن ! . قيل : وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » ! .

ومن علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها قال رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم : « لا تقوم الســـاعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كســـبت فى ايمانها خيرا » ..

ان الرتابة التى يتسم بها النظام الكونى خـــدعت البله فلم يبصروا الرب المـــدبر ، والسيد المشرف ، فأخـــذوا يقـــولون : هـــذه طبيعة الامور ! وكان ينبغى أن تكون لهم قلوب يفقهون بها .

فلما زالت الرتابة المـــألوفة صاحوا دهشين : عرفنا صاحب هـــذا النظام المحكم !! .. وهيهات وهيهات ! . انه لا قيمـــة للامتحان بعـــد ما انكشفت الاسئلة ! ..

بعـــد هـــذا الانقلاب الفلكى لا يقبل من كافـــر ايمان ، ولا من فاســـد صلاح ! ..

وطلوع الشمس من مغربها أو من مشرقها سواء لدى القدرة العليا ، فان الكواكب المتهادية فى فضائها ، تتحرك وفق مشيئة خالقها ومسخرها ، باذنه تنطلق ، وبمشيئته ، تنطفىء يوم يسلبها نورها وحرارتها .

متى ذلك ؟ عند قيام الساعة « اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت ... »(1) .

---

(1) التكوير : ١ ، ٢

٦٤ ــ هل ينبغي فى عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء أن نقدم الولاء للانسانية ونلغى الولاء للدين ؟ ..

يظن كثير من الناس أن هذا العصر ليس عصر الاديان ، بما توحى به كلمة دين من تعصب خاص ، وأفق محدود ، ورباط بالماضى ، وتجهم لما لم نألف .. ! ويقولون : هذا عصر الانسانية العامة ، ذات المعالم المطلقة والانفتاح على الاخرين .

انه عصر هيئة الامم ، والميثاق العالمى لحقوق الانسان ، والدعوات التى تتسامى على الاجناس والالوان والقوميات والاديان ! ..

والواقع أن التفكير السائد هو أن القرن الخامس عشر للهجرة أو العشرين للميلاد هو القرن الذى انسحبت فيه الاديان ، وتركت الزمام لمبادىء أخرى تقود العالم ، وعلى المتدينين الاكتفاء باللقاء العاطفى فى معابدهم وعدم شغل الناس بقضاياهم القديمة .

هذا الكلام خدعة كبرى لا أصل لها ، بل هو زيف من الفه الى يائه ، واستطيع أن أكرر ما قلته فى مناسبات شتى أن هذا العصر هو العصر الذهبى للاديان كلها ما عدا الاسلام ..

وأخشى أن يكون ترديده من مكر الطوائف الاخرى بنا ، حتى تبنى وجودها على رفاتنا ، وتستطيع أن تملأ الفراغ الحادث بعد ذهابنا ..

ان هذه الايام العجيبة تشهد انطلاق أديان كانت مقيدة !

وعقائد كانت جامدة ، بل لقـد تحرك مزهوا من كان أمله أن يدفع العار عن نفسه ، وحسبه أن يظفر بحق الحياة المجردة ! .

لننظر الى اليهودية التى سلخت من عمر الزمان فوق ثلاثين قرنا ، هل وجدت أزهى من هـذا العصر ؟ ان العالم أجمع يستمع اليها ، وينصت لأسلوبها فى عرض الامور ! ..

هل استطاعت اليهودية خـلال عشرة قرون أو عشرين قرنا أن تجمع فلولها من أقطار الارض ، وأن تقيم لها دولة على أنقاضنا ؟ وأن ترفض بصلف رجاء الراجين أن تسمح للعرب باقامة دويلة الى جوارها ؟ ..

لقـد انتهت قصة اليهودى التائه ، وبدأت قصة العربى التائه ..

بدأت مأساة لاجئين ، جمهرتهم الكبرى من المسلمين ، يطاردون من قطر الى قطر لأن « هويتهم » سرقت منهم تحت الشمس ، ومنحتها هيئة الامم لابناء التوراة ، ورأت ذلك هـو الانسانية الصحيحة ..

أفـذلك ما نكلف بقبوله والا صرنا مسلمين متعصبين ؟ نعمل ضـد الانسانية ! الا قبحا لهـذا المنطق ..

وكانت النصرانية حتى مطالع هـذا العصر تجر وراءها تركة مثقلة من الخصام الدامى بين العلم والدين ، لقـد قتلت العلماء وعوقت التقـدم العلمى ، ومشت على أشلاء الضحايا من طلائع الفكر الانسانى .. ورأت دول الغرب نفسها أن تقلم أظفارها ، وتسمح لها بالعيش بعيـدا عن كل نشاط ذى بال !! .

وبغية تغير الوضع كله ، وأصبحت النصرانية سيدة الموقف وانعقــد صلح وارف الظلال بينها وبين شتى الحكومات فى أوربا وأمريكا ..

ورأينا « بابا رومة » ينطلق من قلعته فى « الفاتيكان » الى مشارق الارض ومغاربها ، ليجــد الالوف المحشـــورة تنتظره ، ورؤساء الدول فى شرف استقباله ، ومن مرت بهم طائرته أرســـلوا اليه فى الجو تحيات عطرة ! ..

فاذا خطب فى « نيجريا » وأكثر من تسعة أعشارها مســـلم تناول بالضيق قضـــية تعـــدد الزوجات ، وأومأ الى منافاتهـــا للاخلاق(!) وهو يعرف أن العالم الغربى غارق فى الخنا الى أذنيه .

ان مهاجمة الاسلام هـــدف انسانى .. وفى سبيل ذلك رأينا تعاونا وثيقا منظما بين « الكاثوليك » والانجيليين و « الارثوذكس » علام يتعاونون ؟ على اخماد الصحوة الاسلامية التى لاحت فى أقطار كثيـــرة !! ..

وفى سبيل تلك الغاية الانسانية اتسع نطاق التعاون ليشمل اليهود ! ..

وتذكرت قول « تشرشل » لمـــا حالف الروس الشيوعيين ضـــد الالمـــان المسيحيين : اننى مستعد للتحالف مع الشيطان ضد عـــدوى ! ..

ورجعت الى تاريخ البعثات التنصيرية فقرأت هذه المقتطفات للمطران « نيل » وهو يتحـــدث عن جهود الصليبيين فى العصور

الوسطى للتعاون مع المغول على ضرب الاسلام قال « ... عندما سمع العالم الغربى للمرة الاولى عن غزو التتار للعالم الاسلامى ، استقبل هذه الانباء بانشراح ، لانه اذا استطاع النصارى التحالف مع القوى المغولية على ضرب الاسلام من الخلف أمكن الخلاص بصورة نهائية من خطر المسلمين ، وقد يكون من الافضل أن يدمر هذان العدوان بعضهما الاخر ، فستصبح الكنيسة بعدئذ الخيار الافضل ، وذلك ما جعل المطران « وينشستر » يقول للملك هنرى الثالث ملك انجلترا ما نصه « ليدمر هؤلاء الكلاب بعضهم بعضا ، وليصف كلاهما الاخر ! وعندها سنرى الكنيسة الكاثوليكية العالمية تتأسس على أطلالهم » ..

يقول محرر مجلة الامة تعليقا على هذه النصوص : « ان بعض السذج من المسلمين يعجبون للتواطؤ القائم بين الشيوعية والصليبية على ضرب الاسلام ، والذى ظهرت آثاره فى زنجبار وتنجانيقا والسودان والحبشة وأغندة وفلسطين .. الخ لامكان للعجب ، فالتاريخ يعيد نفسه وأحداث العصر تماثل كل المماثلة ما نقلناه آنفا على لسان المطران نيل .. لم يتغير الا الوقت ، أما الحقد الكامن ، والجهل المتعصب ، والنفوس الملتوية والميول العدوانية فهى هى مازالت فى القرن العشرين كما كانت فى القرن العاشر ، وما قبله وما بعده » ..

ولنترك جيراننا أهل الكتاب ! ولننظر بعيدا الى ديار البوذية والهندوكية ، ان الديانتين الوثنيتين فى عصرهما الذهبى، الان ما بلغتا هذه الذروة يوما ما .. !! .

يعرف دارسوا الملل والنحل أن بوذا لم يرفع بصره يوما

الى السماء لا داعيا ولا خاشيا ، لانه لا يؤمن الا بالارض وما عليها وقــد وضع لاتباعه تعاليم حسنة ليعيشوا بها ! .

فلما مات جعله هؤلاء الاتباع آلها ، وجعلوا تعاليمه توراة وانجيلا وقــرآنا ، وأصبحت البــوذية دينــا ! ما أغرب نقائض البشــر ! .

ورأيت القباب الذاهبة فى الفضاء تحتها تماثيلَ لبوذا جالسا يفكر ! والالوف من العابدين يزدلفون حوله ، ان الدول الغربيــة أعانت هؤلاء على مطاردة الاسلام وطى راياته عن أقطار كثيــرة فالوثنية ــ من الناحية الانسانية ــ أفضل من الاسلام !! ..

أما الهنادك فهوايتهم المفضلة مطاردة المسلمين حيث كانوا ! انهم يقــدسون الابقار والقردة ، بل الجراثيم ! الشيىء الــذى يستحق الموت هم المسلمون ، وأقرأ الان وأنا أكتب هــذه السطور ــ كيف قتل أكثر من خمسة آلاف طفل وامرأة رميا بالسهام او ضربا بالفئوس أو حرقا بالنيران ، مما جعل مئات الالوف تفــر حــذر الموت الى جبال « الهيملايا » ، ذلك كله فى ولاية واحــدة ، ولاية « آســام » .

تلك هى الانسانية فى عصرنا الحــديث ! ان رنين الكلمــة المزيفة يقرع الاذان ، ويثير الغثيان !! ..

اننى باسم الاسلام وأمته على استعداد كامل للحفاوة بهذه الكلمة يوم تكون عنوانا له موضوع ، وعنــدما أفعل ذلك فأنا أوفى لدينى ولا أخرج عليــه ، بل أعــد من الولاء لدينى أن أحســن الحسن ، وأقبح القبيح ، وادفع عن المظلوم ، وأنشر الرحمــة ، واقيم العــدل ، وارق للحيوان بله الانسان أيا كان لونه ودينه !!.

اننى أعرف من دينى أن اللـــه يقبل دعوة المظلوم ولو كانت من كافـــر ! ..

وأعرف من دينى أن حلفا شريفا تم فى الجاهلية الاولى ، قال النبى الكريم عنه : لو دعيت به فى الاسلام لأجبت !! .. انه حلف الفضول ، للحفاظ على الحقوق ونجـــدة المستضعفين ..

وعلى ضوء ذلك أعلن احترامى الشـــديد للجنـــة العفـــو الدولية التى تقف بجهـــدها ضـــد العـــدوان ، وتكشف أصحابه ، وتؤلب عليهم ذوى الضمائر الحية فى هـــذه الدنيا ..

وأؤيد من أعماقى حسن معاملة الاسرى وأعلن الحرب على الرق الفردى والجماعى وعلى التفرقة العنصرية بجميع صورها .

معنى أننى مسلم أننى أعتنق دينا طبيعيا ، يحتـــرم الفطرة البشرية ونوازعها الطيبة ويحترم العقل الانسانى وأحكامه المنطقية، ويتوقع الخطأ ولا يحكم على مقترفه بالموت ، بل يمهـــد له طريق التوبة ويفتح أمامه أبواب الرجاء ، ويلحظ حكم القـــدر فى اختلاف

الاديان فيـــدعوا الى رايه بالحكمة والموعظة الحسنة ويرفض الفتنة والقســـوة ..

تلك هى الانسانية التى نحبها ونراها امتدادا لرسالة اللـــه ، ومرادفا للاسلام ..

٦٥ ــ أصحيح أن الفتــوح الاسلامية تعود الى عوامل قوميــة أكثر مما تعود الى عوامل اقتصادية أو دينيــة ؟؟ .

لا ريب أن الفتوح الاسلامية كانت شيئا خارقا للعــادات ، واو أنك سألت اعرابيا قبل بعثة محمــد أو ابانها : هل تفكرون فى غزو فارس أو الروم ؟ لظن بك مسا !! .

ان هــذا لا يرد فى أحلام النيام ! انه كالهبوط الى القمــر بغير وسائل علمية !! ..

لكن الواقــع الذى لا يمكن انكاره أن العــرب ــ بعــد ما أسلموا ــ هزموا الفرس والروم معــا فى جبهتين متعاصرتين ، واحتلوا بلادهم فى وقت واحــد ! ..

ان القبائل الهائمة على وجهها فى صحراء الجزيرة . قامت لها فجأة دولة تحت علم التوحيــد ، لم تسلخ من عمرها بضــع سنين بعــد وفاة صاحب الرســالة حتى شرعت تصارع الدولتين العملاقتين ، وتلحق بها هزائم أبدية ! ..

ماذا حــدث فى دنيا الناس ؟ انها معجزة ما عرف خبــرها الا محمــد وحــده ، الذى أقسم بربه أن تنفق كنوزها فى سبيل اللــه قال عليه الصلاة والسلام « اذا هلك كسرى فلا كسرى بعــده ، واذا هلك قيصر فلا قيصر بعــده ، فوالذى نفسى بيــده لتنفقن كنوزهما فى سبيل اللــه تعالى » !! ..

ان الانسان الملهم العابد المجاهــد هو صاحب هــذا التغيير الحاسم فى تاريخ البشر ، لقــد جعل القمم سفوحا والســفوح

قمما ، وبين أن الهمل يستطيعون الوصول الى أعلى السلم بالعلم والتربية ، وأن الملوك يتحولون الى عبيد بالترف والمعصية .

ولقد ثبت لكل ذى بصيرة أن محمدا وحده هو الانسان الاول أو القمة الاولى فى تاريخ الحياة من أزلها الى أبدها ..

غير ان اغلب المستشرقين أبى الاعتراف بهذه الحقيقة ورأى أن يلتمس تفسيرا لما حدث فقال : ان جفافا سيئا حل بجزيرة العرب على عهد البعثة المحمدية وعقيبها جعل العرب يتحولون الى جيرانهم زرافات ووحدانا يطلبون القوت ، ويفرون من المجاعة الى ارض الهلال الخصيب فى سوريا والعراق ! .

ويبدو أن خبر هذه المجاعة العربية نمى الى المستشرقين وحدهم فلم يذكره أحد من الناس ! .

ولنفرض جدلا أن مجاعة وقعت ! هل اذا حل قحط بسويسرا أغارت عسكريا على روسيا والولايات المتحدة ابتغاء القوت ؟ لماذا قلت : سويسرا ؟ هل اذا حل قحط بالكونغو ناوش الدولتين العظميين فى العالم ، واحتل أرضهما سعيا وراء الرزق ؟ هذا تفكير سكارى ! .

ثم تذكرت أن فى كتبنا القديمة كلاما قد يكون من وراء هذا الهذيان ، قرأت فى وصف احدى المعارك بفارس أن المسلمين بعد انتصارهم استولوا على غنائم كثيرة من بينها فطائر ورقائق ، فقال أحد الجنود : لو لم نقاتلهم على هذا الدين لقاتلناهم على هذا الرقاق !! ..

قلت ساعتها : هذه نكتة مثل ما يصدر عنا نحن المصريين من دعابات ! ولم اكن أدرى أن الاب « لامانس » سيتخذ من هذا الكلام دليلا على أن للفتح العربى أسبابا اقتصادية !! ..

ومثل ذلك ما قاله « رستم » للمغيرة بن شعبة فى أثناء المفاوضات بين الفرس والعرب : قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه الا ضيق المعاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم ما تتشبعون به ، ونصرفكم ببعض ما تحبون ، وهذا كلام هزل ! فان رستم يعلم أن كتابا جاء سيده كسرى من بضع سنين يدعوه الى الاسلام ، مرسله هو محمد عليه الصلاة والسلام وان أتباع هذا النبى جاءوا اليوم بالدعوة ذاتها ، وهم مستعدون للعودة الى بلادهم اذا ما اقتنع الفرس بها .

فما مكان هذا الطعام المعروض ؟ ومن الذى طلبه ؟ ومن الذى يقبله ؟ انه كلام هزل ! .

وكتب التاريخ لدينا تروى الغث والسمين ، وقد نبه الطبرى قراءه الى ذلك ، حتى لا يخدعوا بكل ما يرويه ، ولو صدقنا جدلا ما حكاه الطبرى — بسند تافه — أن خالد ابن الوليد قال لرجاله : الا ترون الى الطعام كرفع التراب ؟ بالله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء الى الله عز وجل ، ولو لم يكن الا المعاش لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ! ونولى الجوع والاقلال من تولاه ممن أثاقل عما أنتم فيه !! .

ان هذا الكلام — لو صح — لكان ضربا من المزاح أو لفت النظر الى ما فى أيدى الكافرين من نعماء ليسوا أهلا لها لأنهم لم يشكروا الله عليها ، ولم يؤدوا حقه فيها ..

ويستحيل أخذ العبارة على ظاهرها القريب لأن الادلة قائمة أمام عيون المؤمنين على أن القتال طلبا للغنيمة جريمة ، وأن المجرمين لا يفتح لهم ولا يفتح عليهم ، فعن أبى هريرة أن رجلا قال : يارسول الله ، رجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى

عرضا من الدنيا ! فقال : لا أجر له ! فأعاد عليه ثلاثا ، كل ذلك يقول : لا أجر له ..

وروى مسلم فى صحيحه خبر أول ثلاثة يدخلون النـــار يوم القيامة ، وبعـــد أن ذكر القارىء المـــرائى والمتصـــدق قـــال : « .. ثم يؤتى بالذى قتل فى سبيل اللـــه ، فيقول اللـــه له : فيماذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت ! فيقول اللـــه له تعالى كـــذبت وتقول له المـــلائكة كـــذبت ! يقول اللـــه له : بل أردت أن يقال : فلان جرىء ! وقـــد قيل ذلك ! ثم ضرب رسول اللـــه على ركبة أبى هريرة فقال : يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق اللـــه تسعر بهم النار يوم القيامة ! ..

قال شفى الاصبحى : فأخبرت بهـــذا الحـــديث ، معـــاوية فبكى بكاء شـــديدا حتى ظن أنه هالك ! وقال : قـــد فعل بهؤلاء ذلك فكيف بمن بقى من الناس ؟ وتلا قوله تعالى :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الاخرة الا النـــار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون »(١) .

ان الصحابة جميعا ، والتابعين معهم ، يعلمون أن القتـــال طلبا لمغنم دنيوى مهلكة للدين ومن ثم خرجوا للجهاد ، ونفوسهم خالية من طلب الدنيا ، مقبلة على طلب الاخرة ، وذاك سر فلاحهم ونصرهم على عـــدوهم ! .

هناك عقـــد فادح الثمن بين المؤمنين وربهم ولكنه جليـــل

---

(١) هود : ١٥ ، ١٦

العوض ، يقـــدمون حياتهم له ويمنحهم الجنة فى مقابله ، ومن طلب عظيما خاطر بعظيمته « ان اللـــه اشترى من المؤمنين أنفســـهم وأموالهـــم بأن لهم الجنــــة ، يقاتلون فى ســـبيل اللـــه فيقتلون ويقتلون ... »(١) .

ان الايمان حول أصحابه الى زلازل وبراكين أنتت على الشرك من القواعد ! فاذا قيـــل : يا خيـــل اللـــه اركبى ، والى اللــــه ارغبى .. رأيت الرجال يتسابقون الى الموت موقنين بأن بعـــده الجنــــة ..

وقـــد يكون أحـــدهم شيخا كبيرا أثقلت جسمه السنون ، فاذا سمع النـــداء تحامل على نفسه ليؤدى واجبـــه ، فيقول له بنوه ان اللـــه عذرك ! ونحن نجاهـــد عنك ! فيقول : كيـــف عذرنى وهو القائل :

« أنفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم فى سبيل الله »(٢) .

ان الشـاب والشيخ ، المثقل والمخفف ، ســـواء فى ضرورة الجهاد ! الحق أن الوثنيات الدينية والسياسية والاقتصادية لم تجـــد فؤادا أشجع ولا ذراعا أشـــد ، من فؤاد محمـــد وذراعه .

لقـــد حشـــد ضـــدها الجموع ، ورمى طواغيتها بالابطال ، وأخـــذ يقول لهم : « من قاتل فى سبيل اللـــه فواق ناقة وجبت له الجنة » .. « رباط يوم فى سبيل اللـــه خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل » .. « ما من مكلوم — جريح — يكلم فى سبيل اللـــه الا جاء ، يوم القيامة وكلمه — جرحه — يدمى ، اللـــون لون الدم والريح ريح المسك » .. « لا يجتمع كافر وقاتله فى النار

---

(١) التـــوبة : ١١١ (٢) التـــوبة : ٤١

أبدا ! لا يجتمع فى جوف عبـــد غبار فى سبيل اللـــه وفيح جهنم ولا يجتمع فى قلب عبـــد الايمان والحســـد » .. « سياحة أمتى الجهاد فى سبيل اللـــه » .. « ألا أخبركم بخير النـــاس ؟ وشر الناس ؟ ان من خير الناس رجلا عمل فى سبيل اللـــه ، على ظهر فرسه أو ظهر بعيره ، حتى يأتيه الموت ، وأن من شر الناس رجلا يقـــرأ كتاب اللـــه لا يرعوى بشيىء منـــه » ! ..

يقول المغيرة بن شعبة للفرس : أخبرنا نبينا صـــلى اللـــه عليه وسلم عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار الى الجنـــة ! فنحن أحب فى الموت منكم فى الحياة ! ..

بهـــذه التوجيهات وتلك المشـــاعر بدأ الهجوم على قـــوى الكفر والعـــدوان ، فاذا الدول الكبرى التى غالبت الزمن وطاولت التاريخ تترنح وتتراجع ثم تهوى !! ..

وجماعة المستشرقين دون مستوى الوعى بهـــذه الحقائق ، فهم ما عرفوا ــ فى ظل الاســـتعمار الا حروب النهب والسلب ، والاحقـــاد والاطماع ، ولذلك يتحـــدثون عن محمـــد وصـــحبه حـــديث السكارى عن المـــلأ الاعلى ..

ثم ظهر بدع مضحك يقول للناس : ان العـــروبة من وراء الفتوح العظيمة فى فارس والروم ! أى عروبة ؟ كان العرب غربى فارس أذنابا لكسرى واسمهم المناذرة ، وكانوا جنوبى الروم أذنابا لقيصر واسمهم الغساسنة ، وكانوا فى قلب الجزيرة يسمعون عن الروم والفرس كما يسمع الحمالون عن ركاب الدرجـــة الممتـــازة فى السكك الحـــديدية !! ان العرب قبل الاسلام ومن غير الاسلام ما كانوا شيئا ، ولن يكونوا شيئا وسنزيد ذلك بيانا فى الاجابة التاليـــة .

٦٦ ــ يدرس الان فى بعض الجامعات أن القومية العربية هى العامل الاول فى نجاح الفتح الاسلامى وهزيمة الفرس والروم فما مدى الصحة فى هذا القول ؟ ..

هذا الكلام اقرب الى الهزل منه الى الجد ، بل يمكن وصفه بأنه جريمة علمية ومحاولة لتزوير التاريخ وقلب حقائقه ..

وقد استمعنا الى أوصاف محدودة توجه النفوس الى هذا الغرض ، وتجاوزناها لتفاهتها ، ثم تبين لنا أن هناك خطة مرسومة متعمدة للنيل من الاسلام وتاريخه !! ..

من ذلك وصف السلطان المظفر قاهر التتار قطز بأنه بطل القومية العربية(!) ..

والرجل ما عرف قط هذه الكلمة ، ولا خطرت له ببال ، فهو ــ باسم الاسلام وحده ــ قاد المسلمين من عرب وترك لمواجهة التتار ، ووقف تقدمهم الى مصر ، وكان حماسه لدينه وحبه له بارزين فى سيرته ، فلما رأى الجيش المصرى يضطرب عند الاصطدام بالعدو صرخ صرخته المشهورة ، وا اسلاماه ! فكانت مفتاح النصر ، وسر انكسار التتار للمرة الاولى فى تاريخهم العسكرى ..

ومعروف انه من تركستان لا من جزيرة العرب ومع ذلك فقد كتب على مسجده أنه بطل القومية العربية !! ..

ومثل ذلك الكذب وصف صلاح الدين الايوبى بأنه بطل العروبة ! والرجل مسلم كردى الاصل دعاه دينه ، واخلاصه

للـــه ورسوله الى محاربة الصليبيين حتى أجلاهم عن بيت المقدس وأعاده للعرب المطرودين منه وذلك باسم الاسلام الذى لا يعرف غـــيره ! ..

والواقع أن فكرة القومية عرفتها أوربا فى القرنين الاخيرين فقط ، ثم نقلها الاستعمار الثقـــافى الى بلادنا ليطيح بوحـــدتها الكبـــرى ، فالقول بأن العـــرب عرفوها وقاتلوا باسمها الروم والفرس ضرب من الهراء الموغل فى السخف ..

ونذكر هنا بعض الحقائق التاريخية أن العـــرب المتنصرين سواء من كان منهم تابعا للروم ، أو الفرس ، أو قاطنا شـــمالى جزيرة العرب ، هؤلاء كانوا من أسوأ الناس معاملة للمسلمين ، وتحاملا عليهم ..

فرسل النبى صلى اللـــه عليه وسلم الى الملوك والامراء ، عادوا جميعا الى المـــدينة سالمين ، فلم يقتل الا الرجل الـــذى بعث الى الامير الغسانى المنتظر شر حبيل بن عمرو ! ، وهنـــاك أمير عربى نصرانى آخر شرع يعـــد العـــدة لمهاجمة المسلمين فى المـــدينة مما عجل بمعركة مؤتة ! ..

ويذكر التاريخ انه عنـــدما أمر النبى صلى اللـــه عليـــه وسلم بمقاطعة كعب بن مالك ، أحـــد الثلاثة الذين خلفوا فى معركة تبوك ، أرسل اليه الامير النصرانى يستضيفه ويغـــريه بترك المـــدينة ونبـــذ الاسلام ! ..

وقـــد ارتد الى النصرانيـــة جبلة بن الايهم وأبى قبـــول الاقتصاص منـــه فى مخالفة ارتكبها وآثر ترك العرب والمسلمين واللحاق بالروم ، فأين منطق القومية فى هـــذه الاحـــداث كلها؟ .

ان العرب النصارى لم يدخروا جهدا فى النيل من الاسلام ووقف تقدمه مؤيدين فى ذلك الروم والفرس جميعا !! ..

ونسأل : أكان الروم أو الفرس يكنون للعرب احتراما ؟ كلا ، لما جاء كتاب النبى صلى الله عليه وسلم الى كسرى يدعوه الى الاسلام غضب غضبا شديدا وقال : « يكتب الى هذا وهو عبدى » ؟ الكلمة نفسها التى قالها فرعون لما عرض عليه موسى وهارون عبادة الله الواحد « أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون »(١) .

كان الفرس يحتقرون العرب كما كان المصريون يحتقرون اليهود .. ان الاسلام وحده هو الذى رفع العرب الى مستوى آخر ، جعلهم أساتذة يعلمون الفرس والروم ، ويحاولون نقلهم من الظلمة الى النور ، فأين هذه القومية التى يفخر بها العرب ، ويردون اليها انتصارهم على الدولتين العظميين ؟ ..

كان عرب العراق يقاومون الفتح الاسلامى مع الفرس ، فلما هزمهم خالد بن الوليد كان يسائلهم : أعرب فما تنقمون من العرب ؟ أم عجم ؟ فما تنقمون من العدل والانصاف ؟ ، فأين هذه القومية المزعومة ؟ ..

لقد غلبتنى الدهشة وأنا أقرأ لأستاذ(٢) جامعى يكتب لطلابه : « .. ان العامل الرئيسى للفتوحات الاسلامية هو عامل قومى أساسه نضج قومية العرب ! وارتفاع روحهم المعنوية بعد استرجاع وحدتهم التى هددتها حركة الردة » !! .

---

(١) المؤمنون : ٤٧

(٢) كتاب تاريخ الدولة العربية للدكتور السيد عبد العزيز .

هل حركة الردة كانت تهـديدا للقومية العربية ، والوحدة العربية ؟؟ أم كانت انتقاضا على الاسلام وتكـذيبا للوحى وعودا الى الجاهليـة ؟ .

أجـدنى مضطرا لمصارحة العرب ـ وهم قومى التائهون ـ بجملة حقائق ثقيلة ! .

أننى ألمح مظاهـر ردة أنكى من الردة الاولى تبغى الولاء للجنس وتأبى الولاء للاسلام ! .

ليكن ! . فحاجة العرب للاسلام أشـد من حاجة الاسلام للعرب ، « والكافرون هم الظالمون »(١) .

وعنـدما يقع هذا فسينتصب لمساندة الدين قوم أولى بالله منهم ، وأحق بالكرامة « وان تتـولوا يسـتبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »(٢) .. « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى اللـه بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين ، يجاهـدون فى سبيل اللـه ولا يخافون لومة لائم »(٣) .

اننى مصرى عربنى الاسلام ، ولولا لغـة الوحى ما كانت لى صلة بالعرب ، اللغة وحـدها لا الـدم أو العرق أو الجلد تنمينى الى هـذا الجنس ! وما يسرنى أن أكون هاشميا ، اذ الشرف عنـدى هو الاسلام وحسب ! وكما قيل :

ليس الاعاريب عنـد اللـه من احـد !! ..

---

(١) البقـرة : ٢٥٤
(٢) محمـد : ٣٨
(٣) المـائدة : ٥٤

والجيل الذى رباه محمد صلى الله عليه وسلم هو خير القرون ، وشرف الانسانية كلها ، لأنه الجيل الذى اعتز بالاسلام وحمل لواءه ، وبلغ رسالته ، والذى رفض أن يقدم على العقيدة أى شيىء آخر ولو كان الاباء والابناء .

لقد كان الوحى الالهى برنامجه الملتزم ، وثقته الوحيدة ثم خلفت خاوف تقبل الوحى على اغماض وتكلف ، وتكره الانتماء الى الدين وتحب الانتماء الى العروبة(!) وعند وزن البشر بانتاجهم المادى والمعنوى تطيش كفة هؤلاء ، وتود الارض لو صغرت منهم ، فما يصلحون الا علفا لمدافع الغزاة !! ..

لما كان الاسلام دينا عالميا فقد دخلت فيه أجناس كثيرة، استفادت منه وافادته ! وسعت رقته على ظهر الارض ، وعمقت ثقافته وحفظتها وورثتها الاجيال المقبلة ، وبذلت المال والدم فى سبيل عقائدها ، ولا تزال تجاهد دونها الى يوم الناس هذا .

وصحابة محمد عليه الصلاة والسلام هم أزكى أتباعه وأطهرهم ، وأجدرهم بالتكرم والتأسى ..

•

بيد أننا نلحظ أن العرب حاشا الصحابة وتابعيهم باحسان ـ كانوا كالوارث المعتمد على جهد أبيه ومدخراته ، أخذوا أكثر مما أعطوا ، وتشبعوا من الدنيا باسم الدين ، وطلبوا من الناس أن يحملوهم ويقبلوهم مع الاسلام نفسه(!) ففرضوا خصائصهم العرقية على هدايات الله ، وتقاليدهم الجاهلية والقبلية على حقائق الفطرة ..

فكان الملك العضوض أيام الامويين ! وكانت الخلافة

الكاهنة أيام العباسيين والفاطميين ! وكان احتقار الحرف والصناعات ، وكان الافتخار بالاصل والعزوة ! وكان احتقار النساء — بعد وأدهم فى الجاهلية — ومضى الانحراف الى العصر السابق فخان العرب الترك حتى جعلوهم يرمون الخلافة فى البحر ثم كانت الطامة الكبرى اذ ظهرت العروبة متخففة من الاسلام أو مستنكرة له ، يقودها من لا علاقة له بالله أبدا .

ويوم نقول : أن القومية العربية هى السبب الاعظم فى نجاح الفتح الاسلامى الاول ، فمعنى ذلك أن عقائد الاسلام وفضائله وحاجة العالم اليه أمور ثانوية أو وهمية ! .

ومن ثم يفقد الاسلام أمجاده التاريخية كما فقد وجوده التشريعى والتربوى فى الحاضر المهزوم ! .

لا يجوز للجنس العربى أن يعدو قدره ، ويفتات على غيره ، وينسى أن الأسلام ولى نعمته ومقيم دولته ، وحافظ كيانه وداعم أركانه .. ! .

ان شعوب العالم فتحت أحضانها لحملة التوحيد النقى والاخوة الجامعة ، ومبدأ « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » ولم تفتح أحضانها لنعرة جنسية أو عزوة أموية أو عباسية ، أو اعراف بدوية وأوهام صحراوية .

كانت « قادسية » سعد بن أبى وقاص معبرا لأركان الايمان وحقوق الانسان ، ونظام الشورى ، واقامة العدل ، بعد اطفاء المجوسية المخربة ، ومحو الاستعباد السياسى واخراج الناس من ضيق الاديان الى سعة الاسلام ! .

لا كرامة للعـــرب بـــدون اسلام :

ونعود ــ بتفضيل قليل ــ الى تاريخ العرب أبان الفتوح ، ونسأل : هل انتقض العرب الخاضعون للروم ، أو الخاضــعون للفرس على الفرس حين وجــدوا عرب الجزيرة يشــتبكون مع أعدائهم ؟ ..

ان هـــذا أول ما يرتقب منهم تلبية لنــداء العروبة ! لكن شيئا من هـــذا لم يحــدث قط ! .

ونسأل ثانية : هل استقبل أولئك الخاضــعون اخوانهم القادمين بشيىء من الترحاب ، وذاك أيسر ما يبــذلون لو كان للعروبة قومية ملحوظة ؟ لم يقع شيىء من ذلك ! .

الذى وقع ان العرب المستذلين قاوموا العرب الفـــاتحين بكل ما لديهم من وسع ! .

ولنلق نظرة على الجبهة الرومانية ، فى موقعة اليـــرموك التى أجهزت على الوجود الاجنبى بالشام فنرى جبلة بن الايهـــم يقود الالوف من النصارى العرب ، مقاتلا .

مع الرومان انفسهم ورابطا مصيره بمصيرهم ! .

ان كرهه لعمر بن الخطاب رسب فى أعماقه لان عمر رفض الاعتراف له بامتيازات الامارة ، ورأى أن يسوى بينه وبين اعرابى من عامة الناس فارتد الى النصرانية ، وتألب مع القبائل التى على دينه ضــد عقيــدة التوحيــد للخالق والمساواة بين الناس .. فأين هى القومية العربية ؟ التى حاربت الروم ؟ .

وقبل ذلك بسنين كانت معركة مؤتة التى حاول فيها مائة الف من النصارى العرب ومعهم مثلهم من الرومان أن يفتكوا بالجيش الاسلامى القليل العدد الجيش الذى حركه الغضب لأن هؤلاء العرب أذناب الرومان قتلوا بطريقة سافلة رسول للنبى صلى الله عليه وسلم الى أحد أمرائهم .

كاد هذا الجيش يذوب لولا انسحاب خالد بن الوليد ! وسبب المعركة ، ما ذكرناه آنفا ، قال الامير الغسانى للحارث بن عمرو -- رسول النبى لتبليغ الدعوة -- لعلك من رسل محمد ؟ قال : نعم ! فشد وثاقه ، ثم ضرب عنقه بالسيف ! ..

فأين هى آصرة القومية التى تجمع بين المسلمين والعرب الخاضعين للروم ؟ ان الامر بلغ حدا من الهزل يستحق الدهشة أى قومية يعنون ؟ ونذهب الى جبهة فارس فماذا نرى ؟ نرى عرب العراق ينضمون الى مجوس فارس فى مقاومة الصحابة والتابعين ، مع أن آخر ملك لهؤلاء العرب مات فى سجن كسرى ! ولكنه الذل وقبول الدنية .

كانت موقعة الولجة ، واليس ، على نهر الفرات من أقسى المعارك التى خاضها العرب المتنصرون مع سادتهم المجوس ضد زحف خالد ورجاله ! حتى بغ الغيظ من خالد مبلغه ، وهو يرى بنى جنسه يكسوهم هذا الصغار ! فكان اذا ظفر بهم يقول : أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فما تنقمون من العدل والانصاف ؟ ..

فكيف يجيء بعد هذه الحقائق الدامغة من يزعم زورا أن هذه الحروب كانت تحررا وطنيا ، أو ثورة قومية (!) تعاون

فيها عرب الشام وعرب العراق مع زملائهم عرب الجزيرة ضد الروم والفرس !! ..

ان الصحابة والتابعين الذين خرجوا من المدينة المنورة كانوا يحملون حقا رسالة تحرير ، لكنها للشعوب كافة ، لجماهير الفرس والروم والعرب الذين طحنهم الحكم الفردى ، وكبل ضمائرهم وحرمهم الحقوق الطبيعية للانسان .

ان الاسلام لم يكن فورة جنسية ، ولا نزعة استقلالية عن التدخل الاجنبى ، كما يريد نشر ذلك المستشرقون والمبشرون والعروبيون ! انه حركة انسانية عامة تعلو على الاقوام والاوطان ، تربط الناس بربهم ليستهدوا به وحده ، ويستلهموا منه وحده ، وليكونوا فى القارات كلها سواسية فى الكرامة والولاء ، فلا سجود الا لله ولا حكم الا لله ..

فان عقل ذلك العرب أفلحوا ، والا بادوا ، واتى الله بخير منهم فى التأسى بمحمد ورفع لوائه ! ..

٦٧ — الا يمكن ردم الفجوة بين السلف والخلف حتى تستطيع الامة رد الغارات المتتابعة عليها ؟ ..

لا يوجد مسلم يحجب ولاءه عن السلف ، أو يرفض الاستقامة على نهجهم ! كيف وهم دعامة الدين وحرسه الشديد ، وحاملوه الينا نقيا قويا ؟ ..

ان التفاوت نشأ من القصور العقلى لدى الدهماء ومن اليهم ، ومن ضعف الخلق — أو ضعف التقدير — عند بعض المشتغلين بالمعرفة الدينية ، ولا توجد قضايا جسيمة تقسم الامة اليوم الى سلف وخلف ، وتتيح لاعدائها فرصة القضاء عليها ..

ولأستعرض صورا من الخلاف الناشىء ، وانظر : أين هى الفجوة المزعومة ! ..

هل أتباع أحمد بن حنبل هم السلف ، وغيرهم هم الخلف ؟ ما أظن عاقلا يزعم هذا ! قد يكون التفرق المذهبى والتعصب الاعمى لامام بعينه بدعة لم يعرفها السلف ! وهذا حق ! ..

والعلاج ان تشيع فى هدوء دراسة الفقه المقارن ، وأن تبحث القضايا من خلال مراجعة واعية لكتاب الله وسنة رسوله ، وان يتم ذلك فى بيئات متخصصة بعيدة عن هوس الدهماء ..

ثم تقدم خلاصات عملية للجماهير مع ملاحظة :

(أ) أن فقه الفروع ثانوى فى رسم السلوك الاسلامى .

(ب) أن شغل العامة به لون من الثرثرة الدينية المعطلة للانتاج ، والمضعفة للطاقة على الجهاد .

(جـ) ان اتباع اى رأى لامام ثقة خطأ كان أم صوابا فى نظر الغير ، لا حرج فيه ، ولا يلد عداوة لأحد ! ..

ان اولى الالباب أخذوا على عوام المسلمين قديما وحديثا مغالاتهم الغريبة فى فقه الفروع واهمالهم لسلامة الاخلاق والقلوب ، وتكاسلهم عن التفوق فى شئون الدنيا وأسباب الحضارة ، وهذا مسلك يودى بالدين كله .

وأمر آخر يثير البلبلة والفتنة ! زيارة القبور والاستشفاع بأصحابها عند الله ..

الحق أن الخاصة الاولى فى الاسلام تعليق القلوب بالله وحده ، واسلام الوجوه اليه ، والنظر الى الاحياء والموتى على أنهم عبيد وحسب ..

ولم يطلب الله منى وانا ادعوه أن أستظهر معى بأحد ، أو أستشفع اليه بمخلوق ..

ولست أحب أن أعكر صفو التوحيد بمسلك سخيف .. وقد رأيت من زوار الاضرحة ما يثير التقزز ، ويوجب الانكار ..

والذى أراه أن تعليم هؤلاء قد يفتقر الى جهد شديد ولكنه واجب ، بل هو متعين ، وهو أولى وأجدى من تكفيرهم واستباحتهم واعتبار دارهم دار حرب !! ..

أنهم يكرهون التجسيد اليهودى ، والتعـــديد النصرانى ، وأنواع الوثنيات البــوذية والهنــدوكية والعربيـــة القــديمة ، ويحرصون كل الحرص على انتمائهم الاسلامى ، بل يقاتلون دونه بكل ما أوتوا ! ..

فلماذا يحرص البعض على تكفيرهم ، ويعجز عن ارشادهم الى المسلك ؟ أكاد أقول أن الحرص على تكفيرهم مرض نفسى لا يقل عن المرض الذى يعـــانى منـــه هؤلاء !! ..

نظرت الى اختلاف الفقهاء فى حكم الصلاة بالمقبرة ، وتحيرت بادىء ذى بدء ! أن جمهرة الائمـــة الاربعة بين كاره ، أو مبيح ! ثم جاء ابن تيمية — وللرجل وزنه العلمى — فحرم وشـــدد وذكر المسلمين بحـــديث نبيهم « لا تتخـــذوا القبـــور مســـاجد ، انى أنهاكم عن هـــذا » ! ..

وخيل الى أن تغير الناس هو السبب فى اختلاف الحكم ، فما كان المسلمون الاوائل يذهبون الى مقبور يلتمسون منه شيئا ، ومن ثم لم يشعر الفقهاء المفتون قـــديما بأن الامر يستحق الخطر والوعيـــد ..

أما فى القـــرن السابع — عصر ابن تيمية — فان أعـــدادا من العامة كانت تستجير من التتار الغازين بقبر أحد الصالحين ! .

كيف يقع هـــذا ؟ وما يغنى المسكين عن هؤلاء اللائذين به ؟ انه لو كان حيا ما أفادهم ! ..

وهل يفيـــد فى الحرب الا من استكمل عدتها ؟ « ود الذين

كفــروا لو تغفلون عن أســلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحـــدة »(١) ان ذلك ما جعل الرجل يتشـــدد فى انفاذ كــلام رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم ألا يبنى على القبر مسجد ، وألا يصلى فى مقبرة ســـدا للذريعة !! ..

الواقع أن حركة ابن عبـــد الوهاب ـــ من الناحية العلمية ـــ سليمة ، وقـــد تكون الوسائل الرديئة هى التى هزمتها ، يذكـــر الاستاذ أحمـــد أمين « أنه قام فى الهنـــد زعيم وهابى اســـمه السيد أحمـــد حج سنة ١٨٢٢م وهناك آمن بالمـــذهب الوهابى ، وعاد الى بلاده فنشر الدعوة فى « البنجاب » وأقام شبه دولة وهابية وأخـــذ سلطانه يمتـــد حتى هـــدد شمال الهند ! وأعلن حربا عوانا على البـــدع والخرافات ! وهاجم الوعاظ ورجال الدين الرسميين ! ثم دعا الى الجهاد ضـــد من لم يعتنق مذهبه ، ويقبل دعوته ، وقـــرر أن الهنـــد دار حـــرب ! وقـــد لقيت الحكومة الانكليزية متاعب كثيرة من أتباعه حتى استطاعت اخضاعهم » .

ألا نستفيد من ذلك كله أن الوسائل ينبغى أن يعاد النظـــر فيها على ضـــوء التجارب الفاشلة ؟ ..

ان الاقناع أهم من التخويف ، والدليل أجـــدى من السيف ، وأنا أريد هـــداية الناس لا أسرهم ! ..

ومن نظر الى الدنيا على أنها مغنم له اذا انتصر ، فهو قاطع طريق ! وليس داعيا الى اللـــه ، وهو أجهل النـــاس بســـيرة محمـــد وشريعته ! ..

---

(١) النساء : ١٠٢

وإذا كان القتال الغبى لا مساغ له من أجل العقيدة فكيف اذا كان فى سبيل نقاب يوضع على وجه امرأة أو غطاء يوضع على قافية الرأس، أو صورة ترسم على ورقة ، ان البعض مستعد لحرب أشد من حرب داحس والغبراء من أجل هذه القضايا المحقورة !! ..

وعلى أية حال فمن الخير أن ينآى عن ميدان الدعوة الدينية أصحاب الامزجة السوداوية والطباع الغضوب والمتلمسون للبراء العيب ! ..

وشيىء أخير نثبته هنا .. لقد درسنا فى الازهر ونحن طلاب مذهبى السلف والخلف فى آيات الصفات ، أعنى التفويض والتأويل ، وتم ذلك دون تشنج أو توتر أعصاب ، وترك لمن شاء أن يختار ما شاء من أقوال ! ..

وقد اخترت رأى السلف لانه فى نظرى أعرف بوظيفة العقل الانسانى وقدراته ، ولأنه يسد الابواب أمام مجالس الثرثرة الدينية التى تضيع الوقت سدى ! ولانه احترم مصادره الاصلية، وازدرى فكر اليونان ! ..

ومع ذلك فقد تعمقت فى فهم أفكار الخلف ، وأستطيع القول بأن جمهرتهم حراص على توحيد الله وتوقيره ! . وان دراستهم لابد منها فى فهم الملل والنحل ومقارنة المذاهب ، وأن الافضل الان تحنيط هذه الدراسات ووضعها فى المخازن للذكرى والتاريخ .

فالنزعة العقلية المعاصرة لا تحب أن تسمع بحثا : هل

اللـــه عالم بذاته ؟ أم بصفة زائدة على الذات ! ان هـــذا اللون من الفكر أمسى لغـــوا ! ..

وعلى معتنقى فكر السلف أن يتجردوا لنصرة دينهم فالمـــدى فسيح ! . اما أن يعتبروا اعتناق الفكر السلفى هو نصرة الدين ، وان الحاق هزائم بالاشاعرة قربى الى اللـــه ، فذاك الان نوع من البطالة ! ..

قال لى صديق من نجـــد : نطاق العقائد أوسع مما ذكرت ، والذين يقفون به عنـــد هـــذه الحـــدود هـــم الذين لا يؤمنـــون بالوحيين معـــا ! ..

قلت دهشا : ما تعنى بالوحيين ؟ قال : الكتاب والســـنة ! قلت : هـــذه تثنية مثيرة ! فان القـــرآن معجز تحـــدى اللـــه به الانس والجنة ! وهو مقطوع بثبوته كلمة كلمة ! ولا كذلك السنة ! اكثر السنة أحاديث آحاد ، يعمل بها فى الفروع أما العقيدة فتحتاج الى نص مستيقن ثابت بالتواتر ! ..

والقـــرآن اصل الاسلام ، والسنة فرع يجيىء بعـــده ، بيانا وتفســـيرا ..

قال : السنة مثل الكتاب فى أنها مصـــدر للعقائد مادام السند صـــحيحا ! ..

قلت : ما هى العقيـــدة التى ترى انها ثبتت بحـــديث آحاد ؟ وكلفت الامة جمعاء باعتناقها ؟ ..

فتروى قليلا ثم قال : ثبت فى الصحاح أن الرسول صـــلى اللـــه عليه وسلم قال : « لا تمتلىء النار حتى يضع اللـــه تبارك

وتعالى فيها رجله فتقول : قط قط ، فهناك تمتلىء ويزوى بعضها الى بعض ولا يظلم اللــه تعالى من خلفه أحــدا » ، فالحــديث أثبت صــفة القــدم ! ..

قلت : هــذا كلام باطل ، انك مع بعض السطحيين فهمتم أن الرجل كلمة تعنى العضـــو المعروف ، وقــد قال المفسرون : أن القــدم ما يقدم للنار من الاشخاص الاراذل الذين يستحقونها ، وارجع مثلا الى تفسير القرطبى لترى أن القــدم وكذلك الرجل مفرد أرجال الجراد ، وأرجل يعنى الارتال ، والمعنى معروف لــدى العلمــاء ..

فلا دلالة الحــديث قطعية ، ولا ثبوته قطعى ، فكيف تنشىء عقيــدة من ظن حائر ؟ ..

وما طولب عربى ولا رومى ولا عجمى باعتقاد أن لله قدما ، فهل نأخــذ الدين من سلفنا الاول أم نأخــذه من عقولهم ؟ ..

راجعوا أنفسكم ليلتقى المؤمنون على كلمة سواء ..

هـذا ميـدان شائك ! لأنه يتصل بعالم الغيب ، ودرايتنا به قليلة ، وسأنقل خطواتى بحـذر ، مستهديا بما املك من طاقـة عقلية ، وبما تيسر من تعاليم سماوية ! ..

أوكـد أولا أن الوجود أكبر من الانسـان ! وأن تصـور الانسان نفسه على أنه الكائن المحتكر للحياة ينطوى على غـرور وجهالة ، فالكون أكبر منا ، وساكنوه أكثر عددا ، واشد قوة ! .

وقـد فهمت من القـرآن الـكريم أن الجن عالم برز الى الحياة قبل الانسان ، وربما كلف قبله قال تعالى :

« ولقـد خلقنا الانسـان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم »(١) .

ويبـدو أن ابليس أبا الجن ضايقه هـذا الكائن الجديد ، وظنه منافسا على مكانة استقرت له ، فكره آدم وبنيه ، وساءل الخالق معترضا : لم خلقت هـذا الانسان ذا الطبيعة الهشـة ؟ ولم أمرت بالسجود له ؟ أننى أقـدر منه وأصلب ! ولو أطلقنا فى سباق لألحقن به وبأولاده شر هزيمة « أرأيتك هـذا الـذى كرمت على لئن أخرتنى الى يوم القيامة لاحتنكن ــ لأستأصلن ــ ذريته الا قليلا »(٢) .

وابليس بهـذا التصرف أحمق ! فليس له ــ وهو أحـد العبيـد المخلوقين لرب الارض والسماء أن يقف هـذا الموقف ،

(١) الحجر : ٢٦ ، ٢٧ — (٢) الاسراء : ٦٢

فلله أن يخلق ما يشاء ، ولله أن يفضل ضعيفا متواضعا على متكبر ! وما أدرى ابليس أن من أبناء منافسه من يبهر بحسن الطاعة وصدق العبودية ، وحطم ما يتعرضه من عقبات ، حتى يرضى ربه بجدارة ؟ ..

على أن عالم الجن لم يمض كله فى طريق ابليس ، فقد بقى منه نفر كثير يعلن ولاءه لله ، ويثابر على طاعته ، ويؤدى التكاليف المطلوبة منه ..

نعم فى الجن ناس طيبون ، يسبحون بحمد ربهم وينكرون أن يكون له ولد ، ويهتدون الى الرشد وينفذون وصايا المرسلين ، وهناك أيضا من واصلوا الحملات ضد آدم وبنيه ، واحتالوا طويلا لأشقائهم وأقنائهم « وأنا منا الصالحون ومنادون ذلك كنا طرائق قددا .. وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الارض ولن نعجزه هربا .. وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا »(١) .

والاحتكاك دائم بين ذرية ابليس وذرية آدم ، فما طبيعة هذا الاحتكاك ؟ ..

الظاهر أن الشياطين — أعنى الجن العصاة — ليس لهم أكثر من الوسوسة والاستغفال ! ومع ضخامة قواهم المادية فهم مكفوفون عن استخدامها ضد بنى آدم ! أنهم يجيئون لمتردد

---

(١) الجن : ١١ — ١٥

فيغرونه بالجبن ، ولمتوتح فيغرونه بالكبر ، ولمتهافت على الشهوات فيغرونه بالفسق ، وهكـــذا ..

وعنـــدما يوقف الكل للحساب ، يقول الشيطان لمن أغراهم « .. أن اللـــه وعدكم وعـــد الحق ووعدتكم فأخلفتكم . وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى . فلا تلومونى ولوموا أنفسكم »(١) .

والقانون ــ كما قيل ــ لا يحمى المغفل ، فاذا زاغ بشـــر فهو المسئول عن نفسه ، وما يملك أحـــد ارغامه على عوج ، ولو استخدم مواهبه ما قـــدر أحـــد على الضحك منــــه .

قـــد تكون قصتنا على ظهر الارض هى قصة أبينا آدم أيام الجنـــة ! انه لو ظل ذاكرا فلم ينس ، قادرا فلم يضعف لارتـــد سهم ابليس الى نحره ! ولكنه لم يكن عنـــد حسن الظن « ولقـــد عهـــدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجـــد له عزما »(٢) .

والذين ينزلقون فى دنيانا وقع لهم ما وقع لخلل داخلى فيهم جعلهم يتجاوبون مع كيـــد الشيطان ، وينخـــدعون بكذبه « ولقد صـــدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالاخرة ممن هو منها فى شك ، وربك على كل شيىء حفيظ »(٣) .

وعنـــدما تقع رذيلة فلذة الشيطان منها الاز عليها وتزيينها ، ذاك كل ما يشتهى ! اما الانسان المجرم فلذته اكل حرام أو سرقة

---

(١) ابراهيم : ٢٢ (٢) طـــه : ١١٥
(٣) سبأ : ٢٠ ــ ٢١

عرض أو ظلم ضعيف ، وما يحس مؤقتنا بحلاوته لا يحس الشيطان شيئا منـــه ولا يرى لذة فيـــه ! ..

فرحة الشيطان أن يرى الانسان ساقطا ذليلا مغاضبا لربه ، ولذلك يقول اللـــه لبنى آدم موبخا :

« أفتتخـــذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بـــدلا »(١) .

ويظهر أن للشياطين تخصصات شتى ! كما يظهر أن بعضهم يلازم أنواعا من البشر ، ويقف نفسه على أغوائهم « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين »(٢) .

واذا كان للعصاة قرناؤهم ومضللوهم ، فان الاقوياء ييأس الشيطان منهم « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان »(٣) .

ونترك عالم الجن وعلاقته بالانســـان الى عالم آخر أنقى وأطيب ..

ان الانس والجن جنسان مكلفان ممتحنان قادران على الخير والشر ، والذكر والنسيان ، من أجل ذلك يحصى اللـــه عليهما نعمه ثم يقول :

« فبأى آلاء ربكما تكذبان » ؟ ..

لكن هناك عالمـــا آخر ارادته من ارادة اللـــه ، وحيـــاته

---

(١) الكهف : ٥٠ (٢) الزخرف : ٣٦
(٣) الحجر : ٤٢

وقف على انفاذ مشيئته ، هو عالم الملائكة الذين يرنون دائما الى أنوار الالوهية ويستغرقون فى أمجادها قال تعالى :

« ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون »(١) .

ووظائف الملائكة كثيرة ، وهم مع أبناء آدم من بدء تخلقه حتى يوارى فى التراب .

ففى الحديث عن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات ، يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » !! ..

واذا صح أن نسمى هؤلاء الموكلين بالارحام ملائكة الحياة ، فهناك آخرون للوفاة « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون »(٢) .

والمحيى المميت هو الله جل شأنه ، وهو الذى يلهم ملائكته ويقدرهم على فعل ما يريد .

وقدرات الملائكة أعظم كثيرا من قدرات الجن ، واذا كان العفريت يستطيع أن يلمس السماء ، أو ينقل شيئا من اليمن الى فلسطين فى ساعة ، فان الملائكة أوسع طاقة ، وفيهم من يستطيع تطويق أعتى المردة ، والهوى به الى أسفل سافلين ..

---

(١) الانبياء : ١٩ ــ ٢٠ (٢) السجدة : ١١

والملائكة يتابعون حياة البشر ، ويسجلونها سواء كانت نيـة فى القلوب ، أو كسبا للجوارح ، ويعنى هذا بلا ريب رؤية عجيبة وصحوا تاما « اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد .. ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد »(١) ..

وما يحتاج ربنا جل جلاله الى من يعلمه أو يذكره ! ولكن النظام الذى وضعه لكونه ، أحصى فيه كل شيىء من المخلوقات والاعمال « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين »(٢) .

والملائكة الكرام الكاتبون لا ينتهى لهم تسجيل ، ولا يقف لهم احصاء « كل يوم هو فى شأن . فبأى آلاء ربكما تكذبان »(٣) ؟

والملائكة صديقة للمرء المؤمن تفرح بعبادته وتهش له ، واذا دخل المسجد للصلاة حفت به ، واذا جلس فى طاعة اللـه شرعت تدعو له : اللهم ارحمه ، اللهم اغفر له ، وثبت أن لها نوبات فى صلاتى الفجر والعصر ، ثم تصعد الى ربها تذكر له ما ترى ، وهو أعلم به ، ولكنه النظام الذى وضعه سبحانه .

فى المحافل الجادة ، وفى مجالس الخير تكون الملائكة بلطفها ودعائها مع المؤمنين فربما قال أحدهم الكلمة يعينه عليها ملك كريم ، وربما صاغ القصيدة فى الدفاع عن اللـه ورسوله ، يؤيده فيها الروح القدس — كبير الملائكة ..

وفى الوقعات التى يصطرع فيها الحق والباطل ، ويبيع جند

---

(١) ق : ١٧ ، ١٨ (٢) يونس : ٦١
(٣) الرحمان : ٢٩ ، ٣٠

اللـــه أنفسهم لنصرة دينه ، تتنزل المـــلائكة لتشجع وتلهم « اذ يوحى ربك الى المـــلائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعنـــاق واضربوا كل بنان »(١) فى هـــذا الحين تكون ملائكة أخرى لنزع أرواح الكفرة ، تتناولها باللطمات ظهر البطن « ولو ترى اذ يتوفى الذين كفـــروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق »(٢) .

وهـــذا الكلام يحتاج الى تفسير شامل ، فان المـــلائكة لم تعمـــد الى سكير فى حان لتدعو له وتلتمس له المغفرة ، بل دعت لامرئى يريد أن يتزكى ، سعى الى المسجد ليؤدى حق اللـــه ، وغالب أشغال العيش وأوقات اللهو ، ورجح عليها ذكر ربه فهو أهل لأن يصلى عليه الكرام الكاتبون ..

كـــذلك لم تعمـــد المـــلائكة الى جبـــان غار من الميـــدان لتسأل له التثبيت والرضا ، وانما دعت لرجل مؤمن هزم حب الحياة وآثر نصرة اللـــه ، فهو جـــدير بالايناس والبشرى ! ..

والاصل فى هـــذا التفسير قوله تعالى :

« ان الذين قالوا ربنا اللـــه ثم اســـتقاموا تتنزل عليهـــم المـــلائكة الا تخافوا ولا تحـــزنوا وابشروا بالجنـــة التى كنتـــم توعـــدون »(٣) ..

أن تنزل المـــلائكة كما يفيـــد ظاهر الاية فى أحوال الحيـــاة كلها ، لا فى الرمق الاخير وحـــده كما يرى البعض ..

---

(١) الانفال : ١٢ (٢) الانفال : ٥٠

(٣) فصلت : ٢٩

ويتضح ذلك عندما نعلم أن هـــذه الاية فى مقابلة ما نزل فى الغافلين المعوجين قبل ذلك مباشرة وهو قوله تعالى :

« وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى امم قـــد خلت من قبلهم من الانس والجن انهـــم كانوا خاسرين »(١) .

فالاشرار تؤزهم الشياطين والاخيـــار تؤيدهم المـــلائكة ، والفريقان مسئولون برؤسهم عن نفوسهم ، فهم ذوو عقول ، ولهم ارادة حرة يحاسبون بها قبل اى شيء ! ..

---

(١) فصلت : ٢٥

٦٩ – ما معنى أن للـــه تسعة وتسعين اسما وما مغزاها ؟ ..

فى القـــرآن الكريم « اللـــه لا اله الا هـــو له الاسمـــاء الحسنى »(١) . وفيه كـــذلك « وللـــه الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون »(٢)

المتأمل فى هـــذه الاسماء يجـــدها صفات علا ، ونعـــوت كمال وجلال وجمال .. والصفة تسمى اسما اذا دامت لصـــاحبها ولازمته فلم تنفك عنه كأنها أشبهت القلم الذى أطلق عليه وعرف به ! ..

والاسماء الحسنى ـــ بهـــذا المعنى ـــ كثيرة ، لأن معـــالم العظمة الالهية ليست لها نهاية ، وهى مبثوثة فى القـــرآن كمـــا تنبت النجوم فى آفاق السماء ـــ وللـــه المثل الاعلى ـــ ويغلب أن تختم بها آياته ، ويختار الاسم ، أو الاسماء الخاتمة من الســـياق الذى جاءت به الايات .. وسنشرح ذلك بعـــد حين ..

وجـــاء فى الحـــديث الصحيح « ان للـــه تســـعة وتسعين اسما ، من حفظها دخل الجنة ، ان اللـــه وتر يحب الوتر » .. وفى رواية من أحصاها دخل الجنة ، والمراد بالاحصاء ألا يقتصر فى معرفة اللـــه ودعائه على بعض دون بعض ، بل يعيها كلها ، ويتعرف على الكمال الأعلى والعبودية الصحيحة من خلال مدارستها وأشراب القلب حقيقتها ..

وليس المقصود أن الاسماء الحسنى محصـــورة فى هـــذه التسعة والتسعين ، فهى أكثر من ذلك ..

---

(١) طـــه : ٨ (٢) الاعراف : ١٨٠

والاسلام جاء لتصحيح أخطاء البشر فى فهم الذات الاقدس ، وتنزيهه عن أوهام القاصرين والجاهلين ، فان الاديان الارضية أثبتت للألوهية صورة مشوهة منكورة يرفضها ألو الالباب ، ويدركون أن مبدع هذا الملكوت أعلى منها وأجل ..

ثم جاء أهل الكتاب يتحدثون عن اله يتمدد واضعا يده تحت قفاه ، وواضعا قدما على أخرى !! اله ينسى ويندم ، ولا يدرى خطورة تصرفاته ! ..

وقد أمر المسلمون أن يتركوا أولئك الملحدين فى أسماء الله ، وأن يعبدوا الله بأسمائه الحسنى وحدها ..

وقارىء هذه الاسماء لا يفهمها الا اذا عرف الكون والحياة ؛ عرف هذه السماء المبنية والارض المفروشة ، عرف قوافل الاحياء وهى تعبر عصرا بعد عصر فى طريقها الى الدار الاخرة .

لا يمكن أن تتم معرفة الله بمعزل عن ملكوته الكبير ؛ ومتابعة لقدره المحكم وهو يهزم وينصر ويضحك ويبكى ويخفض ويرفع « يدبر الامر يفصل الايات لعلكم بلقاء ربكم توقنون »(١) .

والعارف بالله من خلال احصائه للاسماء الحسنى ، يعرف أن العالم كبير ، ولكن خالقه أكبر منه ! وأن عقل الانسان جهاز رائع ، ولكن مبدع الالوف المؤلفة من العقول المنتشرة فى القارات ! الموجودة من أزل الدنيا الى أبدها ! أروع وأوسع ! .

وماذا نقول ؟ ان الحشرة المتحركة على الثرى لا تدرى :

---

(١) الرعد : ٢

ما الانسان ، وما ذكاؤه ؟ وما الكون ، وما أبعاده ؟ ان الكلمة لا تدرى : ما كاتبها ؟ فكيف نعرف نحن التافهين كنه الذات العليا ، وآماد عظمتها ؟ ..

اننا فى نطاق العبودية العاجزة نسبح بحمد الله ونتحدث عن مجده ، ونعلن بصدق ولاءنا له وفقرنا اليه ..

ولعلمائنا بعض التعليقات على الحديث الذى ذكر الاسماء التسعة والتسعين ، قالوا : الاسماء المتقابلة لا ينبغى أن نذكرها مفردة ، واقفين عند المعنى الذى لا نحب ، كالضار النافع ، والمذل المعز ، والقابض الباسط ..

فان هذه الاسماء ذكرت بمعانيها المتضادة حتى يعلم البشر أن ما ينوبهم من خير وشر ليس بمعزل عن علم الله وتقديره ! وله جل شأنه أن يختبر عباده بما يسوء ويسر ..

وعلى العبد أن يطلب كشف الضر ممن أرسله ، ويغلب أن يكون نصاب المرء من عند نفسه وأنه حرم اللطف بسبب ما اقترفه ، ومن ثم يطلب العفو والتجاوز .

ومن الادب لذلك أن ينسب الخير لله ، وينسب الشر لنفسه ، وتأمل فى دعاء الخليل « الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين . واذا مرضت فهو يشفين »(١) ولم يقل : أمرضنى ..

---

(١) الشعراء : ٧٩

وتوقف بعض العلماء عنـــد اسم « المنتقم » ورده قائلا : لم يرد فى الكتاب أو السنن الصحاح .

الذى ورد فى آية « ان الذين كفروا بآيات اللـــه لهم عذاب شـــديد واللـــه عزيز ذو انتقام »(١) .

والفارق كبير بين العبارتين ، ان اللـــه لم يصف مكة بأنها قـــرية ظالمة عنـــدما آذت المؤمنين قـــديما وانما جـــاء فى الاية « .. الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها »(٢)، وبين الوصفين تفاوت ! ..

والاسماء الحسنى تقريب للعظمة الالهية من العقل الانسانى الكليل ، ومن مشاعر البشر المـــأنوسة ، والا فلا يعرف اللـــه الا اللـــه ، أو كما وصف رسوله محمـــد صلى اللـــه عليه وسلم « سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ! ..

ومن الحقائق التاريخية أنه لا يوجـــد انسان أحسن تمجيد اللـــه ، واجلاله مثل محمـــد عليه الصلاة والسلام ، وكأنما عقد مســـابقة بين أصحابه ليتنافسوا فى الثناء على اللـــه ومدحـــه والتزلف اليه واللهج بمحامده ! ..

عن بريدة رضى اللـــه عنه ، سمع النبى صلى اللـــه عليه وسلم رجلا يقول : اللهم انى أسألك بأنى أشهد أنك أنت اللـــه لا اله الا أنت الاحـــد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحـــد .. فقال : والذى نفسى بيـــده لقـــد سأل اللـــه باسمه الاعظم الذى اذا دعى به أجاب واذا سئل به أعطى » ..

---

(١) آل عمران : ٤ (٢) النساء : ٧٥

وعن أنس رضى اللـــه عنه قال : دعا رجل فقال : اللهـــم انى أسألك بأن لك الحمـــد ، لا اله الا أنت المنان ، بديع السموات والارض ذو الجلال والاكرام يا حى يا قيوم .. فقال النبى أتدرون بما دعا ؟ .. قالوا : اللـــه ورسوله أعلم ! . قال : والذى نفسى بيـــده لقـــد دعا اللـــه باسمه الاعظم الذى اذا دعى به أجاب ، واذا سئل به أعطى » !! ..

واسم اللـــه الاعظم يبلغه العبـــد الذى ينبعث عن اخلاص عميق ، ودعاء حار ، والذى يجتهـــد فى الثناء على اللـــه بما يحفظ من صفاته وأمجاده ..

وعن أنس بينما رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم يصلى اذ جاءه رجل قد حفزه النفس ، أى يلهث وتتتابع أنفاسه . فقال : اللـــه أكبر ، الحمـــد للـــه حمـــدا كثيرا طيبا مباركا فيه ! فلما قضى الرسول الصلاة قال : أيكم المتكلم بالكلمات ؟ فأرم القوم — أطرقوا سكوتا — فقال الرسول : انه لم يقل بأسا ! فقال الرجل : أنا يا رسول اللـــه ، فقال لقـــد رأيت اثنى عشر ملكا يبتدرونها ، أيهم يرفعها — الى اللـــه ..

وظاهر أن الصحابى القائل أنشـــأ الكلمة من بيانه ! ولم يسبق اليها .. ! انها نضح الايمان الذى تعلمه من نبيه فأطلق لسانه بهـــذا الثناء والتكبير .

ومعرفة الاسماء الحسنى ليست تصورا نظريا للكمال الذى تومىء اليه ، انها فى احساس المؤمن لابد أن تختلط بشئون الحياة التى يحياها وتملى عليه السلوك الذى يلائمها ..

لاحظت أنه فى أوائل سورة الحـــديد قرابة خمسة وعشرون

اسما ووصفا للـــه تعالى ، تتابع سردها على نحو يثير الفؤاد ! .

ثم لاحظت كأن هـــذا كله كان تمهيـــدا لتكاليف محـــددة من الايمان والانفاق والجهاد والهجرة بدأت بقوله تعالى :

« آمنوا باللـــه ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير »(١) ..

ان احصاء الاسماء الحسنى كما جاء فى الحـــديث الشريف هو اقامة الخلق والسلوك عليها ..

من أولى من اللـــه أن نؤمن به ؟ أنه الاول والاخر والظاهر والباطن ! ..

من أولى من اللـــه أن نرفع الصوت بتسبيحه وتكبيره ؟ أنه اللـــه الذى سبح له ما فى السموات والارض ..

من أولى من اللـــه أن ننفق فى سبيله ، أنه مانح المـــال فى الحياة ، ووارثه مع فنـــاء الكون كله ..

من الذى يلجأ اليه الحائر ، ويستهدى به التائه ؟ أنه النور، الهـــادى ! ..

من الذى ينقى له القلب وتخلص له النية ؟ أنه العليم بذات الصـــدور .

---

(١) الحـــديد : ٧

والبشر يتفاوتون فى هـذه المعانى وآثارها ، ولذلك يقول اللـه للمؤمنين فى هـذه السورة :

« لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك اعظم درجة من الذين انفقوا من بعـد وقاتلوا وكلا وعدا للـه الحسنى واللـه بما تعملون خبير »(١) ..

ولما كان المسلمون قـد جاءوا بعـد اتباع أديان لم تحسن معرفة اللـه ، ولم تع أسماءه الحسنى ، فقد نبهوا الى اليقظة ، ونبـذ الغيبوبة التى طوت الاولين ، « الم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر اللـه وما نزل من الحق ولا يكونوا كالـذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم »(٢) .

والخشوع لذكر اللـه فى السياق الذى يملأ السورة كلهـا يقوم على أن الاسماء الحسنى لا يمكن عزلها عن الكون والحياة ، فالايمان باللـه لا يتم داخل صومعة معتمة ، لا ضوء بها ولا حراك ولا جهاد .

ربما لا يتحقق هنا الخشوع الا فى ميـدان عراك مع الملحدين فى أسماء اللـه ، الجاهلين بحقوق الخالق الكبير ، الذين يريدون أن تمضى الحياة بعيـدة عن هـداه ، محرومة من بركته وجداه .

---

(١) الحـديد : ١٠ (٢) الحـديد : ١٦

٧٠ ــ هل من شرح وجيز لأسماء اللـــه الحسنى ؟ ..

اللـــه اسم الذات ، المختص به جل شأنه ، لا يتسمى به غيره ، فهو علم على المعبود بحق ، الذى تعنو له السموات والارض وما بينها ، ونحن نرفض اطلاق اسم « جود » أو « دييه » على الذات الاقــدس فلفظ « اللـــه » وحــده هو العلم الحقيقى .

« الرحمن » و « الرحيم » من أسماء اللـــه الحسنى ، ومعنى الرحمة معروف ، والاسم الاول مختص كــذلك باللـــه ســبحانه فلا يوصف به غيره « قل ادعوا اللـــه أو ادعوا الرحمن »(١) . وهــذه الصيغة فى اللغة تعنى بلوغ الصــفة تمامها أما الرحيم فالصيغة تعنى فيضان الوصف ليشمل الاخرين فالذات العليــا ممتلئة بالرحمة ، وهــذه الرحمة تعم الغير ، وتشمل كل شيىء .

« المــلك » « ان كــل من فى الســموات والارض الا آتى الرحمن عبــدا »(٢) . « وللـــه يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها » (٣) .

« القــدوس » المطهر من كل عيب ، المنزه عن كل نقص ، ومحور التسبيح يدور على هــذا المعنى ، سبحانه وتعالى .

« الســلام » : الذى لا يجيىء من قبله عدوان ، بل يرتقب الخــير والرضــا .

---

(١) الاسراء : ١١٠ (٢) مريم : ٩٣

(٣) الرعــد : ١٥

« المـــؤمن » : الذى يذهب القلق والخوف ويمنح الطمأنينة والامان « الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »(١) .

« المهيمـــن » الذى لا يغيب عن سلطته شيىء ، فهو يرقب ملكوته كله رقابة استيعاب وشهود .

« العـــزيز » : الغالب فلا يغلب ، والذى يجـــير ولا يجار عليه ، « من كان يريد العزة فللـــه العزة جميعا »(٢) .

« الجبـــار » : العالى فوق الخلائق كلها ، وفارض قضائه وقـــدره على كل شيىء « الا له الخلق والامر »(٣) .

« المتكبر » : المتعالى على صـــفات الخلق لا يتنزل اليها ، والتاء فى هـــذه الصيغة للانفراد والتخصص ، لا للتكلف ، من الكبرياء بمعنى العظمة التى هى حق اللـــه ، ومن نازعة هـــذا الحق من جبابرة الارض تصمه .

« البارىء » : الخالق ويغلب أن تستعمل الكلمة فى ايجاد الاحياء ، فيقال : بارىء النسم أى الارواح ..

« المصور » : منشىء الخلق على صور شتى « هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء »(٤) . وقلما تتفق ملامح الوجوه ، مع كثرة الناس ، ويكاد يستحيل اتفاق بصمات الاصابع ، وهو سبحانه مصور خطوطها ..

« الخالق » : موجـــد الكون من عـــدم ، ولا يقـــدر أحـــد

---

(١) قـــريش : ٤ (٢) فاطر : ١٠
(٣) الاعراف : ٥٤ (٤) آل عمران : ٦

على الايجاد من عـــدم « افمن يخلق كمن لا يخلق »(١) .

« الغفــار » : الذى يتجــدد غفــرانه لعباده مع تجــدد عصيانهم له ، وأصل الغفر الستر والتغطية ثم العفو ! ..

« القهــار » : الذى تنفــذ ارادته دون اعتراض ! فيستحيل أن يردها بشرا وملك ، وهــو معطى الكواكب أحجامها ومعطى الرسل أقــدارها ومكانتها ، واذا منــح أو منع لم يجرؤ على رد مشيئته أحــد « وأن يمسسك اللــه بضر فلا كاشف له الا هو ، وأن يمسسك بخير فهو على كل شيىء قــدير ، وهو القاهــر فوق عبــاده »(٢) .

« الوهاب » : صاحب العطايا الجزيلة ، تفضلا منــه على من شاء « أن الفضل بيــد اللــه يؤتيه من يشاء واللــه واســع عليم »(٣) .

« الرزاق » : الذى يطعم ولا يطعم ، ويسوق لكل حى ما يفتقر اليه ، ويفعل ذلك عن سعة واقتــدار « ان اللــه هــو الرزاق ذو القوة المتين »(٤) .

« الفتاح » : الذى يفتح أبواب الخير المــادى والادبى من رزق أو علم « ما يفتــح اللــه للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعــده »(٥) ..

---

(١) النحل : ١٧
(٢) الانعام : ١٧ — ١٨
(٣) آل عمران : ٧٣
(٤) الذاريات : ٥٨
(٥) فاطر : ٢

« القابض الباسط » : هـذه الصفات المتقابلة تشير الى أفعال اللـه بين الناس حسب حكمته وارادته « اللـه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له أن اللـه بكل شيء عليم »(١) ، وليس هناك من يقترح أو يتدخل أو يعترض أو يعقب بل اللـه هو القابض الباسط وفق ما يعلم من خلقه ويشاء لهم .

ومثل ذلك « الخافض الرافع » و « المعز المذل » وآثار هـذه الاسماء بين الناس تحتاج الى ايضاح ، ان المرء بفطرته يكره الذل والخفض ، ويحب العز والرفع ، فاذا اشتهى ما يحب فعلى باب اللـه يجب أن يقف داعيا ، واذا استعاذ مما يكره فعلى باب اللـه يجب أن يقف لاجئا مستعيذا ! ..

وهو سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخير ، ما يستعير شيئا من أحد ! ، وهل معه أحد ؟؟ ..
لكن الكثيرين من الناس لا يعرفون ما العز ؟ وما الذل ؟ ان ملوك الاخرة عاشوا سوقة فى الدنيا ما يأبه بهم أحد ، وأن حطب جهنم ربما عاشوا فى الدنيا فراعنه يستعرضون الجيوش، ويسيرون المواكب ! حتى تجيء الاخرة فتصحح الاوضاع المقلوبة « اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة »(٢) وفى الحديث « رب كاسية فى الدنيا عارية يوم القيامة » ! وفى الحديث كذلك « رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على اللـه لأبره » .

فاذا ذكرت هـذه الاسماء الحسنى وما شابهها ففى ضوء هـذه المعانى ينبغى أن تفهم ..

وثم ضميمة اخرى ، أن اللـه اذا أعز فلا ذل أبدا ، واذا

---

(١) العنكبوت : ٦٢ (٢) الواقعة : ١ — ٣

أذل فلا عز أبدا « أن ينصركم اللـــه فلا غالب لكم ، وأن يخـــذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعـــده ؟ »(١) .

وكل صوت تهمس به فى أذن صاحبك فاللـــه سامعه ! وكل حركة فوق الثرى فاللـــه رائيها ! . وعنـــدما شعر موسى بالخوف لـــا بعث هو وأخوه الى فرعون ، وقالا : « ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا أننى معكما أسمع وأرى »(٢).

فاللـــه هو السميع البصير « .. ومن أسمائه الحســنى « الحكم » .. « العـــدل » انه المشرع الاعظم ، فلا حاكم غيره ولا معقب لحكمة ، ولا يلتمس العـــدل عنـــد غيره الا أحمق « أفغير اللـــه تبغى حكما »(٣) .

وهو يحكم بين عباده بما شاء فى الدنيـــا والاخرة ، وقـــد يؤخر حكمة فى أمور تقع بين الناس الان ليبت فيها يوم الفصل ، والدنيا دار اختبار ، وقـــد يكون من لوازم الاختبار أن يتـــرك الناس على نظامهم الى حين « ثم ردوا الى اللـــه مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين »(٤) .

ومن أسمائه الحسنى « اللطيف » أنه يبلغ أمره بخطة رائعة وحكمة بالغـــة ، وقـــد شعر بذلك يوسف فى نهاية قصته فقال : « أن ربى لطيف لـــا يشاء انه هو العليم الحكيم »(٥) كما أنه فى سننه الكونية يقـــدر بلطافته على استخراج الحبوب والرياحين

---

(١) آل عمران : ١٦٠ (٢) طه : ٤٥ ، ٤٦
(٣) الانعام : ١١٤ (٤) الانعام : ٦١
(٥) يوسف : ١٠٠

من بين المـــاء والطين « ألم تر أن اللـــه أنزل من الســـماء ماء فتصبح الارض مخضرة ؟ ان اللـــه لطيف خبير »(١) .

« الخبـــير » : العارف بالبواطن والاسرار .

« الحليم » : بعيـــد الاناة فى معاملة المخطئين فلا يعالجهم بالعقوبة « ولو يؤاخـــذ اللـــه الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة »(٢) .

« العظيم » : ان علماء الكون يشـعرون بضآلة أمام أبعاده وأغواره ! فكيف يكون الشـعور أمام من أبرزه من عـــدم ، وبنى فأوســـع ؟ ..

« الغفـــور » : للمسيىء « الشـــكور » للمحسـن « العلى » فوق الخلائق كافة سبحان ربنا الاعلى .

« الكبير » : المنصف بجلال الشـأن ، وعظمة الذات والكلمة مأخوذة من الكبر ، ومنها الهتاف المتكرر فى الاذان بالغدو والاصال : اللـــه أكبر ، فما عدا اللـــه موصـــوف بالصـغر وملوك الارض وجبابرتها موصـوفون أمامه بالصـغار ..

« الحفيظ » : الذى لا تضيع عنـده الودائع « المقيت » القيم على الاحياء يوفـــر لهم أقواتهم فيغـــذيهم صـغارا وكبارا .

« الحسيب » : الذى يكفى من أوى اليه وتوكل عليه « اليس

---

(١) الحج : ٦٣ (٢) النحل : ٦١

اللـــه بكاف عبده »(١) ومن ذلك التعبير المحفوظ حسبنا اللـــه .
« الجليل » : من الجلال أو الجلالة وهو العلو المقـــرون بالمهابة « الكريم » يـــده تسخ بالعطاء ليلا ونهارا من بدء الخلق وما دام الخلق « الرقيب » من الرقابة وهى النظر الى الاشـــياء بدقـــة واحاطة .

« المجيب » : قابل الدعاء والرجاء ممن قصـــده « يستجيب الذين آمنـــوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله »(٢) .

« الواسع » الذى وسعت رحمته كل شيىء ، ووسع غناه كل فقير « الحكيم » الذى لا يقع فى فعله عبث ولا فى وحيه عوج ، ولا فى خلقه تفاوت « الودود » الذى يتقرب الى عباده بالنعمـــة والتجاوز مع غناه عنهم ، وحاجتهم اليه « المجيـــد » المجـــد تمام الشرف ، واللـــه أهل الثناء والمجـــد وأمجاد الالوهية تعنو لهـــا الخلائق كافة « الباعث » محيى الموتى ليوم النشور .

« الشهيد » الذى لا يغيب عنه شيىء « فلنقصن عليهـــم بعلم ، وما كنا غائبين »(٣) « الذى له ملك الســـموات والارض واللـــه على كل شيىء شهيدا »(٤) .. « الحق » الوجود الالهى واقع لا يزول ولا يحول ، وكل كائن يأخـــذ وجوده من اللـــه عارية تسترد يوما « **الا كل شيىء ما خلا اللـــه باطل** » !! ..

« الوكيل » : الذى نفوض اليه أمورنا فيقوم بها عنا ، وله القـــدرة على كفالة ارزاقنا ، وانجاح ســـعينا ، ومن ثم يجب التوكل عليـــه .

---

(١) الزمر : ٢٦ (٢) الشورى : ٢٦
(٣) الاعراف : ٧ (٤) البروج : ٩

« القوى » : « ما كان اللــه ليعجزه من شيىء فى السماوات ولا فى الارض أنه كان عليما قــديرا »(١) .

« المتين » : الذى لا يلحق قــدرته أعياء « الولى » الذى يتولى أمور الكون ، ويقوم بها كما يقوم ولى اليتيم القاصر بشئونه كلها ، ولـلــه المثل الاعلى « الحميــد » كل أفعاله جديرة بالحمــد والحمــد معنى يمتزج فيه المــدح والشكر والتمجيد « المحصى » فى سجلاته احصاء لكل شيىء « وكل صغير وكبير مستطر ! »(٢).

« المبــدى » خالق الاشياء لاول مرة و « المعيــد » الذى يرد اليها وجودها بعــد افنائها « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيــده ، وعدا علينا انا كنا فاعلين »(٣).

« المحيى المميت » الذى خلق الموت والحياة ، وأخضع لهما الكائنات أما هو فانه « الحى » بذاته وهو « القيوم » لا تقــوم الاشياء الا به ، ولو سلبها وجودها لتلاشت فتيار الوجود يجيئها مددا بعــد مدد من الحى القيوم ، فمنه الايجاد والامداد جميعا . .

« الواجــد » : من الجــدة وهى الثروة ، وأملاك اللــه لا تعــد ، لأن كل شيىء ملكه « المــاجــد » كالمجيــد « الواحد » المنقطع القرين لا شريك له ولا ند ولا ضــد ، « والاحــد » مثله ، وأساسه الانفراد والوحــدة عن الاصحاب « الصمد » هو السيد المقصود عنه كل سؤال « القادر » و « المقتــدر » المعنى واضح والتكرار زيادة فى نفى العجز ، فان جهلة البشر تتعاظمهم أمور هى عنــد اللــه بين الكاف والنون . .

---

(١) فاطر : ٤٤ (٢) القمر : ٥٣
(٣) الانبياء : ١٠٤

« المقدم » و « المؤخر » : اللـه ـ تبارك اسمه ـ يرتب الاشخاص والاشياء وفق مشيئته وحكمته ، وهو يتفضل دون مساءلة ! ولكنه منزه عن الظلم وفى الحديث « أنت المؤخر ، لا اله الا أنت » ..

« الاول » : السابق فليس قبله شيىء . « الاخر » الباقى فليس بعده شيىء « الظاهر » المستعلى فليس فوقه شيىء « الباطن » المحتجب عن الابصار ، فليس دونه شيىء ! ..

« الولى » : المتصرف فى ملكوته لا ينازعه أحد « المتعالى » المنزه عن أوصاف الخلق وعما لا يليق بكماله ، « وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا »(١) . « سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا »(٢) .

« البر » : مصدر البر والحنان وكل ما يتعاطف به الناس . « التواب » ملهم عباده ترك الاثم ، والندم عليه والاعتذار الى ربهم عنه « المنتقم » المقصود أنه بالمرصاد للمجرمين يقمع غرورهم ، ويؤدبهم على طغواهم ! . « العفو » يصفح عمن أساء ، والعفو أحب اليه من القصاص « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون »(٣) .

« الرءوف » : الرأفة رقة تجعل المرء يخفف فى التكليف ، ويؤثر التجاوز عند الخطأ ، ولله المثل الاعلى ، وهو يكلف فى حدود الطاقة ويقدم الصفح على المؤاخذة « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا »(٤) . « ويمسك السماء

---

(١) الجن : ٣ (٢) الاسراء : ٤٣
(٣) الشورى : ٢٥ (٤) النساء : ٢٨

أن تقع على الارض الا باذنه ان اللـــه بالناس لرءوف رحيم »(١).

« ذو الجلال والاكرام » : صفات الجلال تورث الخشيـــة والرهبة ، وصفات الجمـــال ــ وأساسها الاكرام تورث الحب والرغبة ، وجاء فى الحـــديث « انطقوا بياذا الجلال والاكرام » اى ألحوا على اللـــه بهـــذا الاسم .

« مالك المـــلك » : كل شيىء خلقه وعبـــده ، لا شريك له ! « المقسـط » العادل . « الجامع » الذى يحشر الخلائق للحساب « ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه »(٢) .

« المـــانع » : يحمى أولياءه ويدفع عنهم وينصرهم « الغنى » المعنى واضح . « المغنى » واهب الغنى النفسى والمـــادى .

« الضار النافع » : ما تراه من سرور وحزن ، ونعمـــة ونقمة ، ونصر وهزيمة فمن اللـــه وحـــده . « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيى »(٣) يختبر اللـــه عباده بالاضداد .

« النـــور » : الذى يبصر بنوره ذوو العماية ، ويرشـــد بهـــداه ذوو الغواية ، وهو فالق الاصباح ومضىء الافاق ! .

« الهادى » : المنقـــذ من الحيرة ، ومثبت المـــؤمنين على الحق . « البـــديع » الابداع اختراع ما ليس له مثال ، والكون صنع اللـــه الذى لم يصنع من قبل مثله . « الباقى » كل شيىء هالك الا وجهه »(٤) . « الوارث » الذى يؤول الوجود اليه ..

---

(١) الحج : ٦٥ — (٢) آل عمران : ٩

(٣) النجم : ٤٣ ، ٤٤ — (٤) القصص : ٨٨

« الرشيد » مرشـــد الناس الى مصالحهم فى معاشهم ومعادهم .
« الصبور » الذى يرى من عباده القبيح فلا يسارع بالفضيحة ويسمع منهم السوء فلا يعاجل بالعقوبة ، فهذا الاسم كاسمه « الحليم » غير أن قد يطول لطفه ، ويرجى صفحة . أما الصبور فينبغى القلق من امهاله !! ..

ويمكن أن يطالع القارىء فى شرح الاسماء الحسنى بتوسع وبصيرة كتاب أبى حامد الغزالى « المقصد الاسنى » ففيه ان شاء الله ما ينفع .

٧١ — طائفة من العباد يجتمعون على ذكر اللــه بأسمائه الحسنى كلها أو بعضها ، وقــد يتمايلون أو يهتزون ، فما حكم هــذه العبــادة ؟ ..

هــذه بدعة قــديمة استحدثها بعض أصحاب المشــاعر المضطربة ، وقــد سماها بعض الصحافيين الاجانب « الرقص الديني » وهى تسمية يحس المسلم بالخزى اذا سمعها ، لانهــا تجعل الاسلام أشبه بالعبادات التى يمارسها الزنوج فى أفريقيــة وهــذه فتنة مزعجة ، واهانة شــديدة للاسلام ..

والغريب هو ظهورها من قــديم ! فقــد سئل الحســن البصرى عن هــذه المجالس فنهى عنها أشــد النهى ! وقال : لم يكن ذلك من عمل الصحابة ولا التابعين ، وكل ما لم يكن من عمل الصحابة ولا التابعين فليس من الدين — يقصــد فى شئون العبادات — وقــد كان السلف حراصا على الخير وقافين عنــد حــدود اللــه ، وكانوا أحرص على الخير من هؤلاء ، فنعلم أن ما تركوه ليس من الدين وقــد قال تعالى :

« اليوم أكملت لكم دينكم » ..

قال مالك بن أنس تعقيبا على كلام الحســن : فما لم يكن يومئــذ دينا لن يكون اليوم دينا ، وانما يعبــد اللــه بما شرع ، وهــذا التجمع بالذكر والتمايل فيه لم يشرع قط فلا يصح أن يعبد اللــه به ..

وحكى عياض عن التنيسى قال : كنا عنــد مالك وأصحابه حوله ، فجاء رجل من أهل « نصيبين » يقول : يا أبا عبــد اللــه

عندنا قوم من الصوفية يأكلون كثيرا ثم يأخذون فى انشاد القصائد ثم يقومون فيرقصون ! فقال مالك : أصبيان هم ؟ قال : لا ! قال : أمجانين هم ؟ قال لا ، قوم مشايخ يذكرون الله ! . قال مالك : ما سمعت أحدا من أهل الاسلام يفعل هذا ؟ ..

وقال أبو اسحاق الشاطبى : ان الاجتماع على ذكر الله بصوت واحد من البدع المحدثة التى لم تكن فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا فى عصر السلف ، ولا عرفت قط فى شريعة محمد . وفى الحديث الصحيح « أن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد وشر الامور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » ..

الواقع أن هذا المسلك انحراف دينى مرفوض ، ونحن هنا نتساءل : ما الذى حمل عليه ، ودفع جماعة من العابدين اليه ؟؟ . لابد من تحديد السبب لامكان الدواء ..

ان الفقير قد يلزم طعاما واحدا لانه لا يجد غيره ، ولو كان موسعا لنوع وكثر ! .

وخطيب الارياف الذى لا يحفظ الا خطبة واحدة لا يجد بدا من تكرارها ! ماذا يصنع ؟ ذلك مبلغه من العلم ! . وهكذا ..

والامة الاسلامية خبست نفسها ، أو حبستها ظروف سيئة فى حملة من العبادات لا تتجاوزها ، فاذا اتسع وقتها ، وشاقتها الطاعة كررت ما تعرف ، فضمت الى صلاة الفريضة مثلا صلاة نافلة ، فاذا اتسع الوقت أكثر تنفلت أكثر ! ..

وربما عن للبعض أن يخترع من عند نفسه عبادات لا أصل لها ، ليزداد بها قربى الى الله ..

ونسأل مرة أخرى : لماذا انفتح باب الاختراع فى الدين ، وهو شر ؟ ولم ينفتح باب الاختراع فى الدنيا وهو خير ؟ ..

ولماذا كرر الاتقياء الصلوات ، والصيام ، والذكر والاستغفار ، وزادوا أرصدتهم من النوافل هنا ، على حين قلت أو صفرت الارصدة فى ميادين الامر والنهى والجهاد المدنى والعسكرى ، والاحتراف والتطواف بالبر والبحر ، ومسابقة الامم فى تنمية النشاط العمرانى وتطويعه لدعم الحق ومساندة الخير ؟؟

الحق المر أن الفساد السياسى من وراء هذه البلبلة الفكرية » فان الرجل التقى قد يحاول مرضاة الله بكلمة صادقة صريحة فاذا هو يدفع رأسه ثمنها !! وقد يؤثل لنفسه وبنيه مالا ! فاذا مصادرة جائرة تجتاح كل ما جمع ! وقد يبرز فى ميدان ثقافى أو أدبى أو صناعى فاذا هو يساوم : أيعطى ولاءه للحاكم الفذ ، أم يختفى ؟ أما الحياد فلا !! ..

الفرار من هذا البلاء أولى ولو الى مجالس ذكر تبتدع ؟ أو خلوات قصية تقصد ، ويعتزل بها المجتمع !

لقد كان المهندس « سنمار » ماهرا فى فن البناء ، فلماذا أبدع قصرا لأحد شيوخ القبائل كى يتطاول فيه ، رأى الشيخ الكبير أن سنمار قد يبنى مثله لغيره ! فيشاركه العظمة ، فماذا يصنع ؟ القى بسنمار من سطح القصر ، ليبقى القصر وحيدا للرجل الوحيد ! .

ان جنون العظمة لا يقف عند حد ، وهو قمين اذا استبد أن يهلك الدين والدنيا معا ..

واعتقــادى أن الفســاد السياسى من وراء انهيــار الامة الاسلامية ، وضياعها دنيا ودينا .

لقــد بقيت صور العبادات الشخصية ، بل زاد حجم هذه العبادات بالبدع التى اخترعها أهل البطالة وأقبل عليها الرعاع ، يتمايلون ويتراقصون .. أما العبادات الاجتماعية والاقتصــادية والسياسية ، وسائر الانشطة الحضارية ، فقــد اعتلت ، ثم توقفت ، فلما جاء العصر الاخير كنا فى ذيل العــالم نترنح ، أما الحكام الاكارم ففى ظل ممدود وماء مســكوب ..

وهمس فى أذنى رجل صالح ، قال : دعنى من ســخريتك هــذه ! وسأقرأ عليك صفحة فيها خير كثير ! .. قلت : اقــرأ فأنا الى خير اللــه فقير ! .

قال : كتب محمــد المواق وفقــه اللــه : الحمــد للــه والصلاة والسلام على رسول اللــه ، قال اللــه سبحانه وتعالى لسيد خلقه « ولقــد نعلم أنك يضيق صــدرك بما يقولون » وأنا — أيها الانسان — قــد ضاق صــدرى بما يقول الناس ، لكن قال تاج الدين : متى توجه الناس بالذم اليك فارجع الى علم اللــه فيك ، فان كان لا يقنعك علمه ، فعــدم قناعتك بعلم اللــه أعظم من وجود الاذى منهم .

وأنا — أيها الانسان — بالنسبة الى ما بينى وبين ربى غير راض واللــه عن نفسى ! واللــه ما أرضى حياتى لماتى ! ولا نفسى لربى ! فلا صواب لى أن أعتب على الناس !! ..

وأما بالنســبة الى ما ينقم النــاس منى ، فما ندمت على

ما كتبت ، ولا أستغفر اللـــه منـــه !! . ولا أقـــدم اعتـــذار الناس على قول أرضيت به ربى ! .

اللهم أغنى برحمتك عن بركاتهم . اللهم انى أعوذ برضاك من شخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

اللهم احرسنى بعينك التى لا تنام ، واكنفنى بركتك الـــذى لا يرام ، وارحمنى بقـــدرتك على ، أنت ثقتى ورجائى ! ..

فكم من نعمة أنعمت بها على قل لك بها شكرى ! ..

وكم من بلية ابتليتنى بها قل لك عنـــدها صبرى ! ..

فيا من قل عنـــد نعمته شكرى فلم يحرمنى ، ويامن قل عند ابتلائه صبرى فلم يخـــذلنى ، ويا من رآنى على المعـــاصى فلم يفضحنى ! اسألك اللهم أن تصلى على محمـــد وآله ، وان تعيننى على دينى بدنياى وعلى آخرتى بالتقوى ..

واحفظنى فيمـــا غبت عنـــه ، ولا تكلنى الى نفسى فيمـــا حضرته ..

يا من لا تضره الذنوب ، ولا تنقصه المغفرة ، هب لى ما لا ينقصك ، واغفر لى مالا يضرك ! ..

يا الهى أسألك فرجا قريبا وصبرا جميلا ، وأسألك العافية من كل بلية ، وأسألك الشكر على العافية ، وأسألك دوام العافية، وأسألك الغنى عن الناس ، ولا حول ولا قوة الا باللـــه العلى العظيم ..

ان هــذا الدعاء نقلنى من حال الى حال ، وشعرت بأن الرجل ينطق بلسانى ويترجم عن جنــانى ، وغالبت أنينا دار فى فؤادى ، وفاضت به عيناى ! ..

ان الذكر ليس صياح فم ، وانما هو خشوع قلب ، واستكانة عبــد الى سيده ، وعمله له دون من أو خيلاء ! « بل اللــه يمن عليكم أن هــداكم للايمان ان كنتم صادقين »(١) .

وعدت الى نفسى أفكر فى الطرق الصوفية ! ما أشــك أن للعوام حماقات مرفوضة ، وأن حلقات الذكر التى تجمعهم بــدع سيئة ، بل أن لخواصهم كلمات يعاقب عليها ، ولا يصــدقها عقل او نقل .. لكن ايضا لبعض العلماء الرسميين ، قلوب مغلقة ودنيا مؤثرة ، وطباع تنبعث منها روائح منكرة .. فهل يضيع الدين بين هــذه المتناقضات ؟ ..

لمــاذا تكون لبعض المخلصين جهــالات مردودة ؟ ولبعض المتفقهين مقاصد مغشوشة ؟ لمــاذا لا يصطلح العقــل والقلب ، أو العلم والتربية ، أو الذكاء والاخلاص ، فيصلح الانسان بجوانبه كلهـــا ؟ ..

عنــدما أقــرأ فى بعض كتب التصوف يتملكنى الشعور بأنى مسافر ترك عمله ، ومصــدر رزقه الى بلد ناء يستجم فيــه ، ويتخلص من قيود الواجبات وعناء التكاليف ! هل هــذه النشوة العاطفية هى الصورة الكاملة أو الصحيحة للحياة كلها ؟ ..

بل السؤال الاول ، هل هــذا الانقسام موجود فى مفهــوم

---

(١) الحجــرات : ١٧

الدين عنــدما تقــرا القــرآن الكريم أو عنــدما تطالع السيرة ، وكتب السنة ؟ لا ، لا انقسام ولا تفاوت ، فالنية التقية شرط لكل عمل مقبول وذكر اللـــه اطار لابد منه حتى يستحق العمل الاحترام والثـــواب ! ..

ويخالط هـــذا الذكر كل شئون الحياة بدءا من عمل الفلاح فى حقله الى عمل الحاكم فى ديوانه ، وتسأل : ما هـــذا الذكر ؟ وأجيب : ما صنعه عمر بن الخطاب عنــدما خطب الناس يوما فذكر لهم تفاهة حرفته صـــدر حياته وكيف كان أجيرا لا يؤبه له ! فلما نزل من المنبر قال له عبـــد الرحمن بن عوف : ما زدت على أن هجوت نفسك ! فقال عمـــر : ذاك ما قصـــدت ! ان نفسى تطاولت فأحببت أن أقمعها ..

هـــذا حاكم يفهم بعمق معنى قوله سبحانه « تلك الـــدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا »(١) .. انه سياسى كبير يحمل فؤاد عابد كبير ، أنه لن يتفرعن يوما وهو يحمل بين حناياه هـــذا القلب ! ..

---

(١) القصص : ٨٣

الصلاة جزء من النشاط الاسلامى فوق كل أرض يعمرها الاسلام ، والمسجد هو السمة الاولى للحضارة الاسلامية فى كل قرية أو مدينة .

وعندما ينجح المؤمنون فى اقامة مجتمعهم بعيدا عن أذلال الفتانين وعماية الكافرين ، فان أول عمل يفكرون فيه ويبادرون اليه هو اقام الصلاة ، استجابة للاية الكريمة « الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر »(١) .

وقد حاول البعض أن يدخل فى الاسلام متخففا من الصلاة، فأبى الرسول اباء حازما وهو يقول : لا خير فى دين بلا صلاة ..

ونبه القرآن الكريم الى أن المدنيات التى تفسخت وبادت هى تلك المدنيات التى جفت فيها ينابيع الروحانية ، وهيمنت عليها الشهوات المادية ، وانقطعت بالله صلتها ، فقطع عنها بركته ! ..

قال تعالى فى وصف هذه الاجيال المنحلة :

« فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا »(٢) .

---

(١) الحج : ٤١
(٢) مريم : ٥٩

ان ارتباط العفة والاعتدال بالصلاة مفهوم ، واشتداد السعار الحيوانى مع البعد عن الله واقع ، ولن تكسب الحضارات المغرقة فى المادة الا الصراع على الوهم والهلاك وراء سراب يلمع ولا غوث فيه ! ..

وقد أوصى الاسلام بالانطلاق الى المسجد خمس مرات كل يوم وحافظ المسلمون على ذلك حتى قال ابن مسعود : « لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة الا منافق قد علم نفاقه أو مريض وقال : ان رسول الله علمنا سنن الهدى وأن من سنن الهدى الصلاة فى المسجد الذى يؤذن فيه » .

ويظهر أن أعداء الاسلام على عهد الوحى غاظهم هذا المنظر المهيب المتكرر بالغدو والاصال ، منظر المسلمين وهم يجيئون من أطراف المدينة ليصلوا وراء نبيهم ، ما تنفض لهم جماعة حتى تقوم أخرى ، « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا »(1) ..

فماذا يصنعون ؟ اخذوا ينفسون عن ضغائنهم بالغمز واللمز ، وربما تضاحكوا ، وعقدوا المجالس عند سماع الاذان ، وقيام الجماعات ليرسلوا التعليقات الساخرة ! ، وهذا مسلك شرير ما يمكن تركه ! ..

ونزل الوحى يطالب المؤمنين أن يقاطعوا هؤلاء العابثين ، وأن يتجهموا لهم ، وهذا أقل ما يمكن عمله « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين.

---

(1) النساء : ١٠٣

وإذا ناديتم الى الصلاة اتخــذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قــوم لا يعقلون ! »(١) .

ما الذى جمع اليهود ، وعبــدة الاصنام ، والمنافقين على التنــدر بالدين الجــديد والنيــل من شعائره ؟ انما الايغــال فى الكفر والتحــدى ! .

وكره النبى صلى اللــه عليه وسلم أن يقابل الاسلام بهذا المجون ، وأن تنال شعائره بهــذا العبث ، وأن يجــد المنافقون ظهيرا لهم من بين الكفار يساعدهم على النيل من المسلمين بهــذا الاسلوب الدنىء فأرسل هــذا التحــذير الذى بلغ صــداه القوم فأقض مضاجعهم ، قال : « لقــد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ، ثم آمر رجلا يصلى بالناس ، ثم انطلق معى برجال معهم حزم من حطب الى قوم لا يشهــدون الصلاة ، فأحرق عليهم بيوتهم » .

وكانت أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشــاء وصــلاة الفجر ! .. ولا ريب أنهم المعنيون بالتهــديد السابق ! فان اليهود والنصارى لا يكلفون بصلاة ! ..

وليس معنى الحديث أن تجميع الناس للصلاة يتم بالتهديد ، فذاك مستحيل لأن جمهرة المؤمنين كانوا ابتغــاء وجــه اللــه يهرعون الى المسجد كلما سمعوا النــداء ، وكان أملهم ادخــار الاجر العظيم عنــد اللــه . قال ابن مسعود : ان كان المريض ليمشى بين الرجلين — يحملانه لمرضه — حتى يأتى الصــلاة ، وكان أبعــد الناس ممشى يحتسب خطاه عنــد اللــه ، ويحرص على الانتظام فى الصفوف » ..

---

(١) المــائدة : ٥٧ ، ٥٨

لكن من حق المؤمنين عند اقام الصلاة فى الجماعات العامة ، ألا تنتظم جماعات أخرى للعبث ، وألا تنعقد مجالس لجد أو هزل ، وألا تقام أسواق للشغب ..

وقد لاحظ الناس عند عقد اجتماعات الهدنة بين المصريين واليهود أن اليهود كانوا يتحرون أيام الجمعة للمفاوضات وكأنهم يريدون عمدا انتهاك وقت الجمعة ، واضاعة شعائرها !!

وتهديد الساخرين والماجنين بالتحريق عليهم ترك أثره ، ولم يؤثر قط عن النبى الكريم ، أو أيام الخلافة الراشدة ، ان وقع شيىء من ذلك ، وقد شرحنا ملابسات هذا التهديد كما جاءت فى الكتاب العزيز ، فلا مجال للاستحقاق ، والقول بأن الاسلام يأمر باحراق المتخلفين عن الصلاة !! ..

عن أم الدرداء قالت : دخل على أبو الدرداء وهو مغضب ! فقلت : ما أغضبك ؟ قال : والله ما أعرف من أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم شيئا الا أنهم يصلون جميعا ..

وعن أنس ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انى لأدخل فى الصلاة ، وأنا أريد أن أطيلها ، فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى — أخففها — لما أعلم من وجد أمه من بكائه » ! ..

وعن أم سلمة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سلم — من صلاته — يمكث فى مكانه يسيرا ، فنرى والله أعلم أن مكثه لكى ينصرف النساء قبل أن يدركهن الرجال .

وعن أبى هريرة ، قال رسول اللـــه صلى اللـــه عليـــه وسلم : « خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها » وظاهر أن الوصف بالشر لمن يحاول من الجنسين أن يقترب من الاخر ! ، أما من لا يجول بخاطره شيىء يريب فلا يلحقه اثم ، والمراد توفير جو الطهر والتقوى فى المسجد .

وهـــذه الاثار المتتابعة قليل من كثير من السنن الدالة على أن المسجد كان يستقبل الامة كلها ، وأن اقصاء النساء عنـــه لم يعرف فى سلف الامة ، بل كانت روحانية المسجد وثقافته تسريان على امتـــداد الشـوارع وداخل البيوت ..

واذا كانت الجماعة للصلوات الخمس سنة مؤكـــدة ، فان حضور الجمعة فرض عين على كل مسلم قادر . قال تعالى :

« اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر اللـــه وذروا البيع ذلكم خيرا لكم ان كنتم تعلمون »(١) .

وعن عبـــد اللـــه بن عمرو ، قال رسول اللـــه صـــلى اللـــه عليه وسلم : « يحضر الجمعة ثلاثة نفر ، فرجل حضـــرها يلغوا ، وهو حظه منها !! ورجل حضرها يدعو ، فهو رجل دعا اللـــه ان شاء أعطاه وان شاء منعـــه ، ورجل حضرها بانصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحـــد ، فهى كفارة له الى الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام ، ان اللـــه تعالى يقول :

« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها »(٢) ..

---

(١) الجمعة : ٩ (٢) الانعام : ١٦٠

وقال على بن أبى طالب وهو يخطب على منبر الكوفة ــ اذا كان يوم الجمعة غذت الشياطين براياتها الى الاسواق ، فيرمون الناس بالربائث ــ الربيثة ما يعوق المــرء عن عمله ويصرفه عن واجبه ويثبطونهم عن الجمعة ! وتغــدو المــلائكة فيجلسون على أبواب المسجد يكتبون الرجل من ساعة والرجل من ســاعتين ! حتى يخرج الامام .. فاذا جلس الرجل مجلسا يستمكن فيــه من الاستماع والنظر ، فأنصت ولم يلغ كان له كفلان من الاجــر ! فان نأى وجلس حيث لا يسمع فأنصت ولم يلغ كان له كفل من أجره ! وان جلس مجلسا يستمكن فيه من الاستماع والنظر فلغــا ولم ينصت كان عليه كفلان من وزر . فان جلس مجلسا لا يستمكن فيه من الاستماع والنظر . فلغا ولم ينصت ، كان عليه كفــل من وزر ، ومن قال لصاحبه يوم الجمعة : صه ! فقــد لغا ، ومن لغا فليس له فى جمعته تلك شيىء ! .

ثم قال فى آخره : سمعت رسول اللــه صلى اللــه عليه وسلم يقول ذلك .

والجمعة شعيرة ترجح أعظم أجهزة الدعاية التى وصل اليها العالم ، واذا كان المسلمون الان ألف مليون نسمة ، فمفروض أن تلقى بينهم خطب بين المليون والمليونين كل أسبوع ! يقوم رجــل موجه فيتحدث باسم اللــه الى عباده ، يقول ما لديه ، والمصلون صامتون يصغون لمــا يقال ، لا يتشاغل عنــه أحــد ، ولا ينصرف من مكانه حتى يسمع الخطبة كلها ويؤدى الصلاة !! .

ان أمة هــذه نظمها ينبغى أن تتوحــد صبغتها ووجهتها ، وأن يرقى مستواها الفكرى والعاطفى ، وأن تغالب أسباب التفكك والفرقــة ..

وأكره أن تكون الخطبة تحرشا شخصيا ، أو تهجما سياسيا، أو تعليقا قاصرا على الاحـداث العابرة ، فان المساجد لم تبن لشيىء من هـذا ، وتشريع الخطبة كما جاء فى القـرآن الكريم :

« اسـعوا الى ذكر اللـه » ..

والذكر المقصود ربط الناس بربهم من خلال النظر فى آفاق الكون وشئون الناس على نحو ما وضـح القـرآن الكريم :

« سنريهم آياتنا فى الافاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »(١) .

وتطويل الخطبة غير سائغ ولا مشروع ، فعن أبى وائل قال : خطبنا عمار بن ياسر فأوجز وأبلغ فلما نزل قلنا : يا أبا اليقظان لقـد أبلغت وأوجزت ، فلو كنت تنفست — أطلت ! فقال : انى سمعت رسول اللـه صلى اللـه عليـه وسلم يقول : ان طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه ! — علامة — فأقصروا الخطبة وأطيلوا الصلاة » .

وكانت أكثر خطب رسول اللـه من القـرآن الكريم ولذلك لم تحفظ عنـه خطب من كلامه عليه الصلاة والسلام ، الا على ندرة .. وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت « ما أخـذت ق والقـرآن المجيـد — حفظتها — الا من لسان رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم يوم الجمعة يقرأ بها على المنبـر فى كل جمعة » كانت قـد شهدتها .. والمفروض أن خطبة الجمعة نحو خمسمائة مرة بعـد هجرته عليه الصلاة والسلام ..

---

(١) فصلت : ٥٣

٧٣ ــ ماذا تقترحون لرفع مستوى الخطبة ودعم رسالة المسجد ؟

المسجد قلب المجتمع الاسلامى ، وملتقى المؤمنين بالغد والاصال لاداء حقوق اللـه ، واستلهام الرشد ، واستمداد العون منه جل شأنه .

وهو مصدر طاقة عاطفية وفكرية بعيدة المدى خصوصا أيام الجمع عندما تنصت جماهير المصلين فى سكينة وخشوع « للامام » وهو يشرح لهم تعاليم الاسلام ويبين لهم حدود اللـه ، ويفقههم على ما فى الكتاب والسنة من عظات وآداب .

ان خطبة الجمعة من شعائر الاسلام الكبرى ، ومعانيها تنساب الى النفوس فى لحظات انعطاف الى اللـه وتقبل لوصاياه.

ومن ثم كان موضوعها جليل الاثر كبير الخطر ..

والامام الذى يدرس موضوعه : ويجيد عرضه ، يقوم بنصيب ضخم فى تثقيف الامة ، وترشيد نهضتها ، ودعم كيانها المادى والادبى ، ووصل غدها المأمول بماضيها المجيد ..

لما كنا نريد الوصول بمستوى الخطابة فى المسجد الى مكانته اللائقة به ، ونريد جعل المنبر مرآة لما حوى الاسلام من معرفة صالحة وتربية واعية ، فقد أثبت هذه التوجيهات الموجزة لما ينبغى أن يتوفر فى خطبة الجمعة من زاد روحى وثقافى منظم .

١ ــ يحسن أن يكون لخطبة الجمعة موضوع واحد واضح غير متشعب الاطراف ولا متعدد القضايا ، فان الخطيب الذى

يخوض فى أحاديث كثيرة يشتت الاذهان وينتقل بالسامعين فى أودية تتخللها فجوات نفسية وفكرية بعيدة ، ومهما كانت عبارته بليغة ، ومهما كان مسترسلا متدفقا فانه لن ينجح فى تكوين صورة عقلية واضحة الملامح لتعاليم الاسلام .

والوضوح أساس لابد منه فى التربية ، والتعميم والغموض لا ينتهيان بشىء طائل ، وخطبة الجمعة ليست درسا نظريا بقدر ما هى حقيقة تشرح وتغرس .

٢ — عناصر الخطبة يجب أن يسلم أحدها الى الاخر فى تسلسل منطقى مقبول كما تسلم درجة السلم الى ما بعدها دون عناء بحيث اذا انتهى الخطيب من القاء كلمته كان السامعون قد وصلوا معه الى النتيجة التى يريد بلوغها . وعليه أن ينتقى من النصوص والاثار ما يمهد طريقه الى هذه الغاية .

٣ — ولما كانت الخطبة الدينية تنسج من المعانى الاسلامية المستمدة من « الكتاب والسنة » وأثار السلف الصالح فان لحمتها وسداها يجب أن يكونا من الحقائق المقبولة . وفى آيات القرآن الكريم ، ومعالم السنة المطهرة متسع يغنى فى الوعظ والارشاد . ولذلك لا يليق البتة أن تتضمن الخطبة الاخبار الواهية بله الموضوعة .

واذا كان العلماء قد تجوزوا فى الاستشهاد بالاحاديث الضعيفة فى فضائل الاعمال فقد اشترطوا لذلك : ألا تخالف قواعد الاسلام الكلية ولا أصوله العامة . وفى الاحاديث الصحيحة والحسنة مجال رحب للخطيب الفاقه . وفى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والائمة المتبوعين ما يغنى عن الاساطير والاوهام .

٤ ـ لا يجوز أن تتعرض الخطبة للامور الخلافية ، ولا أن تكون تعصبا لوجهة نظر اسلامية محدودة .. فان المسجد يجمع ولا يفرق ، ويلم شمل الامة بشعب الايمان التى يلتقى عندها الكل دون خوض فى المسائل التى يتفاوت تقديرها . وما أكثر العزائم والفضائل التى تصلح موضوعا لنصائح جديدة وخطب موفقة .

وقد شقى المسلمون بالفرقة أياما طويلة وجدير بهم أن يجدوا فى المساجد ما يوحد الصفوف ، ويطفىء الخصومات .

٥ ـ بين الخطبة والاحداث العابرة ، والملابسات المحيطة، والجماهير السامعة ، علاقة لا يمكن تجاهلها ومما يزرى بالخطيب ويضيع موعظته أن يكون فى واد ، والناس والزمان والمكان فى واد آخر ..

ولأمر ما نزل القرآن منجما على ثلاث وعشرين سنة . فقد تجاوب مع الاحداث وأصاب مواقع التوجيه اصابة رائعة .

ولما كان القرآن شفاءا للعلل الاجتماعية الشائعة فان الخطيب يجب عليه أن يشخص الداء الذى يواجهه وأن يتعرف على حقيقته بدقة . فاذا عرفه واستبان أعراضه وأخطاره رجع الى الكتاب والسنة فنقل الدواء الى موضع المرض . وذلك يحتاج الى بصيرة وحذق فان الواعظ القاصر قد يجىء بدواء غير مناسب فلا يوفق فى علاج . وربما أخطأ ابتداء فى تحديد العلة فجاءت خطبته لغوا وان كانت تتضمن مختلف النصوص الصحيحة .

٦ ـ هناك طائفة من الاحاديث تسوق الاجزية الكبيرة على الاعمال الصغيرة .. وقد قرر العلماء المحققون أن هذه

الاحاديث ليست على ما يفهم منها لاول وهلة .. وأن ما فيها من أجزية ضخمة انما هو لأهل الشرف فى العبادة وأهل الصدق فى الاقبال على اللـه .. وليس ذلك للاعمال الصغيرة التى اقترنت بها ..

ومن هنا لايجوز للخطيب أن يضمن خطبته هذه الاحاديث سردا مجردا فيحدث فوضى فى ميدان التكاليف الشرعية ولكن اذا قضى ظرف يذكر هذه الاحاديث ذكرها مع شروحها الصحيحة .

٧ — تقوم التربية الدينية على بيان الجوانب الخلقية والاجتماعية فى الاسلام وشرح ما يقترن بالخير والشر من معان حسنة أو سيئة ، ومن عواقب حميدة أو ذميمة . ولا بأس من التعريج على الاجزية الاخروية وعرض ما أعده اللـه فى الاخرة للابرار والفجار بيد أن الاسهاب والتفصيل فى ذكر الاجزية المغيبة لا لزوم له ويكتفى بالالماع الى ما جاء فى القرآن والسنة عن ذلك دون تطويل وتعمق .

٨ — من الخير أن تتضمن خطبة الجمعة أحيانا شيئا من أمجاد المسلمين الاولين الثقافية والسياسية وتنويها بالحضارة اليانعة التى أقامها الاسلام فى العالم مع الاشارة الى أن ينابيع هذه الحضارة تفجرت من الحركة العقلية التى أحدثها القرآن الكريم واليقظة الانسانية التى صنعها الرسول صلى اللـه عليه وسلم ويكون الغرض من هذه الخطب — على اختلاف موضوعاتها — أن ترجع الى المسلمين ثقتهم بأنفسهم ورسالتهم العالمية .

٩ — معروف أن هناك فلسفات أجنبية ونزعات الحادية تسربت الى الامة الاسلامية فى كبوتها التاريخية الماضية وطبيعى

أن تتعرض الخطبة لذود هــذه المفاســد النفســية عن أبنــاء الامة ، ووظيفة الخطبة فى الاسلام عنــدئذ أن تتجنب الاخذ والرد والجــدال السيء .. ولكن تعرض الحقائق الايجابية فى الاسلام بقوة وترد ، على الشبهات دون عناية بذكر مصــدرها لان المهم هو حماية التراث الروحى والعلمى .. وليس المهم تجريح الاخرين والحاق الهزائم بهم .

١٠ — قبل أن يواجه الخطيب الجمهور ينبغى أن تكون فى ذهنه صورة بينة لمــا يريد أن يقوله . بل يجب أن يراجع نفسه قبل الكلام ليطمئن اطمئنانا كاملا الى صحة القضايا التى ســوف يعرضها ، والى سلامة آثارها النفسية والاجتماعية .

وعليه أن يتثبت من الادلة والشواهــد التى يســوقها فى معرض الحــديث فان كان قــرآنا حفظه جيــدا وان كان سنة رواها بدقة ، وان كان أثرا أدبيا أو خبرا تاريخيا فان توفيقه يكون بحسب مطابقته أو اقترانه من الاصل المنقول عنــه .

ان التحضير المتقن دلالة احترام المــرء لنفسه ولسامعيه وقــد تفجأ الانسان مواقف يرتجل فيها ما يلقى به الناس ويصور ما بنفســه .

والواقع أن القــدرة على الارتجال تجيء بعــد أوقــات طويلة من الدربة على التحضير الجيــد وعلى تكوين حصيلة علمية مواتية لكل موقف .

ومع ذلك فان المهارة فى الارتجال لا تغنى عن حسن التحضير للعالم الذى يريد أداء واجبه بأمانة وصــدق والذى يقــدر انصات الناس له واحتفاءهم بما يقول .

١١ — الايجاز أعون على تثبيت الحقائق ، وجمع المشاعر والافكار حول ما يراد بثه من تعاليم .

فان الكلام الكثير ينسى بعضه بعضا ، وقد تضيع أهم أهدافه فى زحام الاطناب والافاضة .

ألا ترى الارض تحتاج الى قدر محدد من البذور كيما تنبت ، فاذا كثر النبات بها تخللها الفلاح باجتثاث الزائد حتى يعطى البقية فرصة النماء والاثمار .

كذلك النفس البشرية لاتزكو فيها المعانى الا أمكن تحديدها وتقويمها ، أما مع كثرة الكلام وبعثرة الحقائق فان السامع يتحول الى اناء مغلق تسيل من حوله الكلمات مهما بلغت نفاستها .

وللاطناب الممل أسباب معروفة منها سوء التحضير فان الخطيب الذى يلقى الناس بالجزاف من الاحكام والتوجيهات لا يدرى بالضبط أين بلغ قوله وهل وصل الى حد الاقناع أم لا فيحمله ذلك على التكرار والاطالة .. وما يزداد من الجمهور الا بعدا ..

وقد تنشأ الاطالة عن سوء التقدير للوقت والمواقف فيظن الخطيب أن بحسبه أن يقول ما عنده وعلى الناس أن ينصتوا طوعا أو كرها — وهذا خطأ .

ومما يحكى فى قيمة الايجاز أن أحد الرؤساء طلب منه

القاء خطبة فى بضع دقائق فقال : « أمهلونى أسبوعا » فقيل له : نريدها فى ربع ساعة قال : « أستطيع بعد يومين » قيل له : فاذا طلبناها فى ساعة ؟ قال : « فأنا مستعد الان » .

ان الايجاز يتطلب الموازنة والاختيار والمحو والاثبات . أما الكلام المرسل فالجهد العقلى فيه أقل والحقيقة أن خمس دقائق تستوعب علما كثيرا وعشر دقائق وخمس عشرة دقيقة تستوعب خطبة أو محاضرة جيدة .

٧٤ ــ ما الحكمة فى قيام الليل ؟ وكيف يكون ؟ ..

لابد من تمهيد لهذا الموضوع ، وللموضوع الذى يجىء بعده ، نتحدث فيه عن الاوج الذى رفع محمد صحبه اليه ، وثبتهم ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ فى رباه ! لقد اتفق الدارسون لشخصية محمد على أن قدراته الروحية خارقة للعادة ، وأنه يخطف البصائر بطيب نفسه وعظمة خلقه ووهج مشاعره ، وأنه استطاع بالقرآن الكريم أن يشرح صدورا ويوسع آفاقا ، وينقل جيلا من البشرية الضيقة الى الربانية الرحبة المشرقة ! ..

ان الجيل الذى رباه محمد كان جيلا محسنا يعبد الله كأنه يراه ، شجاعا يركل الدنيا بقدمه ويمضى ثابت الخطا الى ربه ، كريما لا يحرص على مال ، بل ما يعطيه لله أحب لديه مما يستبقيه لنفسه ، مقيما للصلاة ينتظم فى صفوفها برغبة وخشوع ، ويحافظ على أوقاتها فى الصحة والمرض والسلم والحرب ..

هذا الجيل تلقى الحق وصانه وسلمه الى من بعده فى وفاء وفداء لم تعرف الدنيا لهما نظيرا فى تاريخها الطويل ! .

ان الملائكة لتنظر باعجاب الى هؤلاء الاصحاب ! بل أنها لتحفهم وهم يجاهدون ، تتنزل عليهم وهم يتهجدون ! ما أحسبها ــ وهى ترقب الارض من قديم ــ رأت خيرا منهم ، حاشا أنبياء الله السابقين ! ..

من أجل ذلك لم أحس باستغراب عندما قرأت فى الصحاح هذين الخبرين ..

عن أسيد بن حضير رضى اللـــه عنه قال : بينما هو يقـــرأ من الليل سورة البقرة ـــ وفرسه مربوطة عنـــده ـــ اذا جالت الفرس ، فسكت ، فسكنت ! فاستأنف القراءة فجالت ، فسكت فسكنت الفرس ! ثم قـــرأ فجالت ، وكان ابنه يحيى قريبا منهـــا فانصرف فأخره ـــ أبعـــده عن قوائمها ـــ ثم رفـــع رأســـه الى السماء ، فاذا مثل الظلة ، فيها أمثال المصابيح ! فلما أصـــبح حـــدث النبى صلى اللـــه عليه وسلم ـــ بما رأى ـــ فقال له : أوتدرى ما ذاك ؟ قال لا .. قال : تلك المـــلائكة دنت لصـــوتك ولو قـــرأت ـــ تابعت التلاوة ـــ لاصبحت ينظر اليها النـــاس ما تتوارى منهم » ! ..

قلت : ما الغرابة ؟ ملائكة السماء اقتربت من ملائكة الارض الذين يقومون الليل بالقـــرآن .

وقـــد تكررت هـــذه القصة لغير أسيد ، وسواء استبعدها المـــاديون أو قبلوها ، فان من يناجى اللـــه بكتابه والناس نيام له مكانة خاصة ، وقـــد جاء فى الحـــديث « ما أذن اللـــه بشيء ـــ أى ما أنصت ـــ أذنه ـــ أى انصاته ـــ لعبـــد يقـــرأ القـــرآن فى جوف الليل ، وان البـــر ليـــدر على رأس العبـــد ما دام فى مصلاه .. وما تقرب العباد الى اللـــه تعالى بمثل ما خرج منه » .

قال أبو النضر : يعنى القـــرآن ، منـــه بـــدأ الامر يه ، واليه يرجع الحكم فيه ..

والناس عادة ينطرحون فى فرشهم يحسبون النوم غيبـــوبة تتخللها أضغا ث الاحلام ، وغرائز الاجهزة الدنيا أو وساوسها ! لكن هناك ناسا آخرين رسب فى أعماقهم اجلال اللـــه ، والتوجه

اليـــه ، يشبه نومهم نوم المشـــوق الى غائب أو البـــاحث عن حقيقـــة !! ..

فاذا نابتهم يقظة خلال الرقاد ، اتجهوا الى الغائب المشوق ، أو الصواب المنشود ! ..

صور الحـــديث الشريف حال هؤلاء فى قوله صلى اللـــه عليه وسلم : « من تعار من الليل ــ أى استيقظ ــ فقال : لا اله الا اللـــه وحـــده لا شريك له ، له المـــلك ، وله الحمـــد ، وهو على كل شيىء قـــدير ، الحمـــد للـــه ، اللـــه أكبر ، ولا حول ولا قوة الا باللـــه ، ثم قا ل: اللهم أغفر لى ، أو دعا استجبت له ، فان توضأ وصلى قبلت صلاته » !! ..

شتان بين نائم مغمى عليه ، ما يحركه الى ربه شيىء ، وبين آخر يستجم بنومه ، ويسبح بحمـــد ربه كلما عاد اليه وعيـــه ! الصنفان موجودان فى الدنيا ، والفارق بينهما شاسع « أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحـــذر الاخرة ويرجو رحمة ربه .. قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انمـــا يتذكر أولو الالبـــاب »(١) ..

وقيام الليل فريضة على النبى وحـــده ، ان الاحســـاس باللـــه نهر جار فى شعوره لا يتوقف أبدا ! فى وضح النهار أو فى جنح الليل لا يرى محمـــد الا موصول القلب باللـــه ! ..

وهو بهـــذا الذكر الدافق فى حسه ، المستولى على نفســـه

(١) الزمر : ٩

ينضح على من حوله ، ويصل الارض بالسماء طهراً وضوءا ، مستجيبا لقول الله :

« أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل ، وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا • ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا »(١) •

وقد حاول نفر من أصحابه أن يتابعوه فى هذا النهج ، لشدة حبهم له ورغبتهم فى تقليده ، غير أن الله سبحانه رحم ضعفهم ، وحط عنهم ما جشموا به أنفسهم « ان ربك يعلم انك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن »(٢) .

ذلك بالنسبة الى الاصحاب ، أما الرسول نفسه فبقى قيام الليل كله من خصائصه وقد كان ينبعث الى هذا القيام عن حب ورغبة لا عن تكلف وعنت ، كان عميق الشعور بنعمة الله عنده ، واصطفائه له ، والى ذلك يشير عبد الله بن رواحة بقوله :

وفينا رسول الله يتلو كتابة اذا انشق مكنون من الفجر ساطع
ارانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات ان ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه اذا استثقلت بالمشركين المضاجع

فى الايام الاولى للبعثة قيل له « قم الليل الا قليلا • نصفه

---

(١) الاسراء : ٧٨ ، ٧٩ (٢) المزمل : ٢٠

أو أنقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا »(١) وقد استجاب لامر الله حتى لحق بالرفيق الاعلى ! ..

أما جمهور الامة فلم يكلف بذلك ، فليس القيام فى حقه فريضة لازمة ، ولا سنة مؤكدة ، وهو نافلة مقبولة ممن يؤثر فيهم السهر ، ولا يعجزهم عن أداء واجباتهم طول النهار ! .

حسبهم ما يستطيعون قراءته بالليل ، وأمامهم سبح طويل بالنهار « .. علم أن سيكون منكم مرض ، وآخرون يضربون فى الارض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه »(٢) ..

والواقع أن الجهاد العسكرى والاقتصادى يحتاج الى يقظة ونشاط ، والتفريط فى هذا أو ذاك مضيعة للأمة .

ورأيت ناسا يقومون الليل أحيانا ، ثم يجيئون الى مكاتبهم ثقالا يترنحون ، فزجرتهم عن هذا المسلك ، وشرحت لهم الحكم ! ومع ذلك فما كانوا يسمعون ! ..

وقد رويت فى الامر بالقيام أحاديث ضعيفة مثل ما جاء عن بلال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : عليكم بقيام الليل ، فانه داب الصالحين قبلكم وقربة الى ربكم ، ومنهاة عن الاثام ، وتكفير للسيئات ، ومطردة للداء عن الجسد .

ومع ما فى سند الحديث من ضعف ، فاننا نحمله على ما ورد فى الصحاح مثل حديث عثمان رضى الله عنه عن النبى صلى

---

(١) المزمل : ٢ — ٤ (٢) المزمل : ٢٠

اللـــه عليه وسلم « من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما صلى الليل كله » ذلك أن النهوض للفجر فيه مقاومة للنوم ، ومشى فى الظلمة ، واستفتاح النهار بالخير قبل أن تطلع الشمس بوقت وكذلك الانتظام فى جماعة العشاء ، وكانت قـــديما تتأخر ، حتى تغمض عيون البعض فى انتظارها .

وسئلت عائشة رضى الله عنها : أى حين كان يقوم الرسول صلى اللـــه عليه وسلم من الليل ؟ فقالت : اذا سمع الصـــارخ — تعنى الديك — ! .

وما فهمناه وافق وللـــه الحمـــد ما رواه أبو داود عن أنس فى تفسير قوله تعالى :

« تتجافى جنوبهم عن المضاجع »(١) .

قال : نزلت فى انتظار الصلاة التى تدعى العتمة — يعنى العشاء — كانوا يتنفلون بين المغرب والعشاء ..

وزيادة فى ايضاح الموضوع نذكر أن الجسد البشرى يحتاج الى ساعات معينة ينام فيها ، ويستعيد قواه ، ويســـتحيل أن يستغنى عن هـــذه الساعات التى قـــدرها الاطباء بثمانى ساعات أو أكثر أو أقل حسب الاعمار المختلفة ..

والقـــرآن الكريم يقـــر هـــذه الحاجة الطبيعية ، ويلفت الانظار الى أنها من آثار اختلاف الليل والنهار « هو الذى جعـــل

---

(١) السجدة : ١٦

لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا »(١) .. « وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا »(٢) ..

وقد تنشأ أحوال يجب فيها العمل بالليل ، فى ظروف السلم والحرب جميعا ، فعلى المرء أن يقوم بواجبه ، وسيطاوعه جسمه مع تعويض يرد اليه ما بذل ..

وهناك ناس لهم طاقة على العمل الكثير ، مع الاكتفاء بنوم قليل ! كما أن هناك من فى أعصابه مدخر من النشاط يستطيع به أن يضم الى عمل النهار جزءا من الليل ..

وهنا نؤكد أمورا ، أن اليوم الاسلامى يبدأ مع الفجر ، فكل سهر يضيع صلاة الفجر مرفوض ! وهناك قلة من الرجال تستطيع الجمع بين طول التهجد بالليل ، وطول الكدح بالنهار ، وهذه قلة لا يقاس عليها ! .

وقد يستطيع البعض أن يقرأ نصف القرآن فى ليلة ثم يستقبل نهاره باسترخاء لا يساعده على أداء واجب ، هذه معصية ! لقد تلا ألفاظا لم يتدبرها ، وأهمل واجبات ترتبط بها حياته وحياة أمته ! ..

وأوغل فى مخالفة من يبيت يردد بعض أسماء الله الحسنى ، ثم يصبح كليل التفكير لا يحسن شأنا فى دنيا أو دين !! ..

أن عمر بن عبد العزيز سرح فكره فى آية واحدة ظل

---

(١) يونس : ٦٧ (٢) النبأ : ٩ — ١١

يرددها طوال الليل « وقفوهم أنهم مسئولون »(١) ! لان دقة احساسه جعلته يتصور — وهو أمير المؤمنين — أنه الموقوف المسئول ، فطار النوم من عينه ! . .

ولو أن قاضيا سهر فى قضية يتحرى الحكم العادل ، أو مجتهد سهر فى موضوع يبحث فيه عن الصواب ، لكان أولى بالله من قارىء لا يعى ، أوقائم نائم الضمير والتفكير . .

---

(١) الصافات : ٢٤

٧٥ ـ كيف ، ولماذا أختير الاذان نداء للصلاة ؟ ولماذا لم يأت عن طريق الوحى مباشرة ؟ ..

لا أرى كلمات أحق بالسماع وأولى بالتأمل من كلمات الاذان ، ولا أرى داعيا أقرب الى الرشد من المؤذن .. ان الكلمات الجهيرة المدوية فى الافاق ، تذكير بالله وحقوقه ، تذكير بالعمل الذى خلقنا من أجله ، أنها مناشدة لابناء آدم أن يعرفوا الصراط المستقيم ويثبتوا عليه ، وأن يحذروا السبل المعوجة وينأوا عنها .

عندما يقول المؤذن الله أكبر الله أكبر . ويؤكدها فكأنه يقول للانسان : لا تدر حول نفسك واذكر من رباك وسواك ، واجعله غايتك من مسعاك ، يبارك لك فى وقتك وجهدك « من كان يريد حرث الاخرة نزد له فى حرثه »(١) .

وعندما يقول : « أشهد أن لا اله الا الله » ويكررها مرة أخرى ، فكأنه يقول للانسان لا تخش آلهة أخرى فى الارض ، الامور كلها صائرة اليه وحده ، يبت فيها ولا راد لحكمه ، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، فانتصب عزيز النفس رفيع الرأس ، واذهب لتسجد لله ، فانك لن تذل بعده لأحد ! .

وعندما يقول : « أشهد أن محمدا رسول الله » ويكررها مرة أخرى ، فهو يرسم أمام بصيرتك صورة الكمال الانسانى لتقتدى به وتقتفى آثاره ، محمد وحده الاسوة الحسنة فى الايمان والتقوى والخلق والاستقامة ..

---

(١) الشورى : ٢٠

وعنـــدما يقول : « حى على الصلاة » ويكررها مرة أخرى فهو يدعوك لتتشرف بالمثول بين يدى ربك كى تســـبح بحمـــده وتستزيد من رفـــده وتشترك مع اخوان العقيـــدة فى التجمع عليه والتحاب فيـــه ..

وعنـــدما يقول : « حى على الفلاح » ويؤكـــدها مرة أخرى فهو يدلك على الجهـــد المثمر والســـعى الناجح ، فما أكثر الذين يزرعون ولا يحصـــدون ، أو يمشون ولا يصلون ! أما أهل الصلاة فلا يضـــيعون ، « وان اللـــه لهـــادى الذين آمنـــوا الى صراط مســـتقيم »(١) .

وعندما يقول مرة ثالثة « اللـــه أكبر اللـــه أكبر » فهو يؤكد الغاية الصحية من الحياة والكـــدح طول العمر ، ان المرء يخرج من بيته لعمله ، وليحصل ما يقـــدر عليه من نفع لنفسه وأهله ، وصيحة التكبير التى يسمعها تهيب به أن يقصـــد ربه ، ويجعل له عمله ، وعنـــدما يقـــدم نفسه لربه فسيجدها موفورة مقدورة . أما من آثر نفسه ، فسيفقدها « لا تكونوا كالذين نســـوا اللـــه فأنساهم أنفسهم »(٢) .

ويختم الاذان بصيحة التوحيد ، لاسقاط الوثنيات كلها ، ان العالم الان لا ينحنى لصنم من حجر ، ولكنه يتفانى فى أصنام حيـــة قامت شواخص مهيبة فى دنيا الحكم والمـــال ، وخافها الناس أكبر مما يخافون رب الارباب .

ان كلمات الاذان منهج كامل ، ودعوة تامة ، ما يمكن أن يغنى عنها بريق نار ، ولا رنين جرس ، ولا صفير بوق .. أنها هتاف

---

(١) الحج : ٥٤ (٢) الحشر : ١٩

من المـــلأ الاعلى ، يهيب بالبشر أن يرجعوا الى أصلهم السماوى العـــريق ..

هـــذه الكلمات نزلت من السماء ولم تخـــرج من الارض ، استمع اليها نفر من الصحابة فى رؤى متقاربة ، وأحـــد المـــلائكة الكرام يهتف بها ، فى أعقاب مؤتمر تباحث فيه الصحابة مع الرسول صلى اللـــه عليه وسلم حول أمثل الطرق للدعوة الى الصلاة ! والحـــديث هنا يعود بنا الى الاجابة السابقة ، وكيف كانت الملائكة تدنو من الارض تستمع الذكر من تاليه وهو يناجى به ربه ، وتعود بنا الى الاثر الروحى لمحمـــد فى أصحابه ! ..

ان صحابيا أنكر نفسه لمـــا أحس الفرق الشاسع بين حالته مع رسول اللـــه وحالتـــه بعـــد أن يخالط الاهل ويكابد همـــوم الرزق ، وظن أنه نافق بهـــذا التفاوت انه مع رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم يكون منير القلب ، يتغلب فى مقام الاحســـان ، وكأنه يشهد ربه ويحس جلاله ! حتى اذا رجع الى البيت والشارع والاهل والناس هبط ، واعتكر !! ..

قال له الرســـول : لو بقيتم على حالتكم معى لصـــافحتكم المـــلائكة ! ولكن ساعة وساعة ! ..

وكثير من الصحابة كان يستديم ساعات الاشراق التى تجمعه بصاحب الرسالة العظمى ، ويغالب الى أمـــد طويل كثافة الطبع ، ومشاغل العيش ، وظلال الخلق ! ..

جاء فى الســـنة عن أبى عمـــير بن أنس عن عمومة له من الانصار قال : اهتم رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم بالصلاة : كيف يجمع الناس لها ؟ فقيل له : أنصب راية عند حضور الصلاة ! فاذا رأوها آذن بعضهم بعضـــا ، فلم يعجبه ذلك ! ..

فذكر له شبور اليهود ــ البوق الذى ينفخون فيه للاعلام بصلاتهم ــ فلم يعجبه ذلك وقال : هــذا من أمر اليهود ! فذكر له الناقوس ، فقال : هــذا من أمر النصارى ! ..

فانصرف عبــد اللــه بن زيد الانصارى ، وهو مهتم لهــم رسول اللــه صلى اللــه عليه وسلم ، فأرى الاذان فى منامه .

وفى تفصيل آخر يذكر الراوى أن رجلا من الانصار جاء فقال : يا رسول اللــه ، انى لمــا رجعت ــ الى بيتى ــ لمــا رأيت من اهتمامك رأيت رجلا كأن عليه ثوبين أخضرين فقام على المسجــد فأذن ، ثم قعــد قعــدة ثم قام فقال مثلها ، الا أنه يقول : قــد قامت الصــلاة ! ..

ولولا أن يقول الناس لقلت : انى كنت يقظان غير نائم ! .. فقال رسول اللــه : لقــد اراك اللــه خيرا ، فمر بلالا فليؤذن !.

فقال عمر بن الخطاب : أما انى قــد رأيت مثل الذى رأى ولكنى لم سبقت استحيت ، وقال فيه فاستقبل ــ الملــك الــذى رآه عمــر ــ استقبل القبلة وقال : اللــه أكبر اللــه أكبر مرتين أشهد أن لا اله الا اللــه مرتين ، اشهد أن محمدا رسول اللــه مرتين حى على الصلاة مرتين . حى على الفلاح مرتين اللــه أكبر اللــه أكبر ، لا اله الا اللــه ، ثم أمهل هنيهة ، ثم قام فقال مثلها ، الا أنه زاد بعــد ما قال حى على الفلاح قــد قامت الصلاة قــد قامت الصلاة ، فقال رسول اللــه صلى اللــه عليــه وسلم : لقنها بلالا ! فأذن بها بلال .

وكان بلال ندى الصوت ، عــذب الاداء ، وتتفاوت الروايات تفاوتا قليلا فى عــدد الالفاظ مع اتفاقها جميعا فى أصل القصــة ومصــدر التلقى ..

وعنـــدما أتجرد من التأثر بكل ما يروى ، أرانى أميل الى سماع الاذان ومتابعة كلماته الهادية ، فانى أحب أن أقاد من عقلى لا من أذنى ! ان الاذان يوقظ فؤادى ، ويعرفنى بربى على نحـــو ينسجم مع الفطرة السليمة ..

ومن ثم استحب الشارع لسامعى الاذان أن يرددوا كلماته ، ويغرسوها فى مشاعرهم ، عن أبى هريرة كنا مع رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم ، فقام بلال ينادى ــ للصلاة ــ فلما سكت قال رسول اللـــه « من قال مثل هـــذا يقينا دخل الجنـــة » وعن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم قال : من قال حين يسمع المؤذن : وأنا أشهد أن لا اله الا اللـــه وحـــده لا شريك له وأن محمـــدا عبـــده ورسوله ، رضيت باللـــه ربا ، وبمحمـــد رسولا ، وبالاسلام دينا ، غفر له ذنبه ..

وعن جابر أن رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم قال : « من قال حين يسمع النـــداء : اللهم رب هـــذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمـــدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته الا حلت له شفاعتى » .

والمـــرء عنـــدما يتأمل فى كلمات الاذان يجـــدها خلاصات للرسالة الاسلامية ، ووصفا للـــه قائما على الحق المطلق ، الحق الذى لا يتغير بين مشرق ومغرب ! ..

ماذا وراء تكبير اللـــه وتوحيده والنـــداء الدائب لعبادته ؟ .

ان هـــذا لنـــداء يتنقل على سطح الارض ، عابرا خطوط الطول فوق البـــر والبحر ، مصاحبا الارض فى دورانها حول أمها الشمس « ووظيفة محمـــد العظمى تلبية الامر الصادر اليـــه »

« وسبح بحمـــد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى »(١) .

ان الكون كله لا الارض وحـــدها يتجـــاوب مع أصـــوات المؤذنين وهى تهيب بالبشر أن يهرعوا لمرضاة اللـــه ! ..

وليس بغريب أن يطلب من ســـامعى الاذان ـــ وصـــداه لا يزال يرن فى آذانهم ـــ أن يدعوا للانسان العظيم الذى يقودهم الى اللـــه ويؤمهم على الصراط المســـتقيم ! أنه واللـــه جـــدير بالدعاء المستديم أن يرفع اللـــه درجته ، ويجزيه عن المســـلمين خـــيرا ..

على أن رؤى البشر مهما صلحت حالهم لا تكون مصـــدر وحى ، ولا دليل ، ولولا أن رؤيا الاذان أقرها النبى صلى اللـــه عليه وسلم ووافق على العمل بها ، ما التزم العمل بها أحد ! .

ولعل اللـــه سبحانه وتعالى أراد طمأنة نبيه على أن رسالته قـــد نجحت فى تكوين جيل نقى الصفحة زكى السريرة يلتقى بالملأ الاعلى فيسمع منهم وينقل عنهم ، وقـــد قلنا فى اجابة ســـابقة : أن المـــلائكة تتنزل على المؤمنين المستقيمين فتلهمهم الرشـــد ، وتساند على الحق ، وتقـــذف فى قلوبهم بالبشريات « ان الـــذين قالوا : ربنا اللـــه ثم استقاموا تتنزل عليهم المـــلائكة الا تخافوا ولا تحزنوا » ..

---

(١) طه : ١٣٠

لكن باب الاوهام والمزاعم لابد من سـده فما يقبل كلام عن عالم الغيب الا من المعصوم وحـده ! والمسلمون مجمعون على أن الشريعة ، لا منبع لها الا الكتاب والسنة .

وقـد ظهر فى عصرنا هـذا فلاحون اقتحموا ميدان التدين وزعموا أن وحيا يجيئهم ، وخير علاج لهم أن يقادوا الى تبليغـه فى مستشفيات الامراض العقلية ..

٧٦ ـ ما حقيقة الصـــوم ، وما حكمته ؟؟ .

الصيام عبادة مستغربة أو منكورة فى جو الحضارة المـــادية التى تسـود العالم . أنها حضارة تؤمن بالجســـد ولا تؤمن بالروح، وتؤمن بالحياة العاجلة ولا تكترث باليوم الاخر ! ومن ثم فهى تكره عبادة تقيـــد الشهوات ولو الى حين ، وتؤدب هـــذا البدن المدلل وتلزمه مثلا أعلى ..

ان الافراد والجماعات فى العالم المعاصر تسعى لا غير لتكثير الدخل . ورفع مستوى المعيشة ولا يعنيها أن تجعل من ذلك وسيلة لحيـــاة أزكى ! ..

ونسارع الى تبرئة الدين من حب الفقر ، وخصومة الجسم ؛ فالغنى سر العافية والجسم القوى نعم العون على أداء الواجب والنهوض بالاعباء ، وانما نتساءل : هل يتعامل الناس مع أجسامهم على أسلوب معقول يحترم الحقائق وحـــدها ؟ .

يقول علماء التغـــذية : ان للطعام وظيفتين ، الاولى امداد الجسم بالحرارة التى تعينـــه على الحـــركة والتقلب على ظهر الارض ، والاخرى تجـــديد ما يستهلك من خلاياه واقـــداره على النمو فى مراحل الطفولة والشباب .

حسنا ، هل نأكل لســـد هاتين الحاجتين وحسب ؟ ان أولئك العلماء يقولون : يحتاج الجسم الى مقـــدار كـــذا من « الســـعر الحـــرارى » كى يعيش ..

الطعام وقود لا بـــد منه للالة البشرية . والفرق بين الالات

المصنوعة والانسان الحى واضح .. فخزان السيارة مصنوع من الصلب ليسع مقدارا معينا من النفط يستحيل أن يزيد عليه ٪ أما المعدة فمصنوعة من نسيج قابل للامتداد والانتفاخ يسع أضعاف ما يحتاج المرء اليه ! ..

وخزان السيارة يمدها بالوقود الى آخر قطرة فيه ، الى أن يجىء مدد آخر ..

أما المعدة فهى تسد الحاجة ثم يتحول الزائد الى شحوم تبطن الجوف ، وتضاعف الوزن ، وذاك ما تعجز السيارة عنه ، أنها لا تقدر على أخذ « فائض » ولو افترضنا فانها لا تقدر على تحويله الى لدائن تضاف الى الهيكل النحيف فيكبر أو الى الاطارات الاربعة فتسمن !! ..

الانسان كائن عجيب ، يتطلع أبدا الى أكثر مما يكفى ، وقد يقاتل من أجل هذه الزيادة الضارة ، ولا يرى حرجا أن تكون بدانة فى جسمه ، فذاك عنده أفضل من أن تكون نماء فى جسد طفل فقير ، أو وقود فى جسد عامل يجب أن يتحرك ويعرق !! .

كان لى صديق يكثر من التدخين ، نظرت له يوما فى أسف ، ثم سمعنى وأنا أدعو الله له أن يعافيه من هذا البلاء ، فقال رحمه الله فقد أدركته الوفاة (اللهم لا تستجب ولا تحرمنى من لذة « السيجارة ») ..

ولم أكن أعرف أن للتدخين عند أصحابه هذه اللذة ، فسكت وقد عقدت لسانى دهشة .

ان الانسان هو المخلوق الوحيد الذى يعرف ما يضره ، ويقبل عليه برغبة .. انها الرغبة القاتلة !! ..

على أن النفس التى تشتهى ما يؤذى يمكن أن تتأدب وتقف عند حدود معقولة ، كما قال الشاعر قديما :

والنفس راغبة اذا رغبتها   واذا ترد الى قليل تقنع

وهنا يجىء أدب الصيام ! أنه يرد النفس الى القليل الكافى ، ويصدها عن الكثير المؤذى ! ..

ذا لكيوم نصوم حقا ، ولا يكون الامتناع المؤقت وسيلة الى التهام مقادير أكبر كما يفعل سواد الناس !! ..

لعل أهم ثمرات الصوم ايتاء القدرة عى الحياة مع الحرمان فى صورة ما ..

كنت أرمق النبى صلى الله عليه وسلم وهو يسأل أهل بيته فى الصباح : أثم ما يفطر به ؟ فيقال : لا ! فينوى الصيام ، ويستقبل يومه كأن شيئا لم يحدث ..

ويذهب فيلقى الوفد ببشاشة ويبت فى القضايا وليس فى صفاء نفسه غيمة واحدة ! وينتظر بثقة تامة رزق ربه دونما ريبة ، ولسان حاله « فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا » ..

قلت : لوجاءنى فطورى دون شاى لسخطت !! ولرفضت امضاء ورقة على مكتبى ، بل كتابة مقال !! ..

أنها لعظمة نفسية جديرة بالاكبار أن يواجه المرء البأساء والضراء مكتمل الرشد ، باسم الثغر ، والافراد والجماعات تقدر على ذلك لو ــ شاءت ! .

وأعتقد أن أسباب غلب العرب فى الفتوح الاولى قلة الشهوات التى يخضعون لها ، أو قلة العادات التى تعجز عن العمل ان لم تتوفر .

يضع الواحد منهم تمرات فى جيبه وينطلق الى الميدان ، أما جنود فارس والروم فان العربات المشحونة بالاطعمة كانت وراءهم ، والا توقفوا ..

وقد اعتمد غاندى على هذا السلاح عندما حارب « بريطانيا » العظمى .. كان الانتاج البريطانى يعتمد على الاستهلاك الهندى .. وقرر غاندى أن ينتصر بتدريب قومه على الاستغناء نلبس الخيش ولا نلبس منسوجات « مانشيستر » نأكل الطعام بدون الملح ما دامت الدولة تحتكره ، نركب أرجلنا ولا نركب سياراتهم ..

وقاد حركة المقاطعة رجل نصف عار جائع ، يتنقل بين المدن والقرى مكتفيا بكوب من اللبن ..

واستجابت الجماهير الكثيفة للرجل الزاهد ، وشرعت تسير وراءه فاذا الانتاج الانكليزى يتوقف ، والمصانع تتعطل ، والوف مؤلفة من العمال الانجليز يشكون البطالة ..

واضطرت الحكومة الى أن تطلب من « غاندى » المجىء الى لندن كى يتفاوض معها ، أو يملى شروطه عليها !! ..

وحياة أحمد شوقى وهو ذاهب الى لندن بقصيدته التى يقول فيها محذرا من الاعيب الساسة ..

وقل : هاتوا افاعيكم أتى « الحاوى » من الهنـــد ..

ان الانسان الذى يملك شهواته قوة خطيرة ، والشعب الذى يملك شهواته قوة أخطر ، فهل نعقل ؟؟ ..

فى صـــيام غاندى وأثر سياسته على انجلتـــرا ، وظفره باستقلال الهنـــد يقول الشاعر القروى سليم خورى :

لقـــد صـــام هنـــدى فجوع دولة ..
وما ضار علجا صوم مليون مسلم
تجشم عن أوطـــانه صـــوم عامد
مجشم اوطان العـــدا صوم مرغم !
وخـــلى بـــلاد الظـــــالمين بـــلاده
تضـــيق بجيش العـــاطلين العـــرمرم
والقى على « مانشيســـتر » ظل رهبة
تضـــج بأشـــباح الشـــقاء المخيم ..
اهـــاب بألات الحــــــديد فعطلت
مصـــــانع كانت جنـــــة المتنعم ..
وشـــل دواليب الرخـــــاء بصـــرخة
ادارت دواليب القضـــــاء المحتــــم
كســـاها نسيج العنكبوت وكم كست
جســـوم البـــرايا بالقشـــيب المنمنم
تهـــدمها أســـــرار نفس عجيبـــــة
تجـــول بـــذاك الهيكـــل المتهـــدم
فيالك من عار ، لـــديه تصـــــاغرت
جبابر ابـــدان ، وعقـــــل ودرهـــم !!
وراحت ملوك المـــال تشـــكو ببـــابه
من الظلـــم ، ياللظـــــالم المتظلـــم !!

وفى عيــد الفطر يقول رشـــيد سليم خورى أيضا :

أكرم هـــذا العيد تكريم شاعر   يتيـــه بآيات النبى المعظم
ولكن اصـــبوا الى عيـــد أمة   محررة الاعناق من رق أعجم

أحفظ للشيخ الكبير « محمـــد الخضر حسين » شيخ الازهر الاسبق كلمة عظيمة :

« لست أنا الذى يهـــدد ، أن كوبا من اللبن يكفينى أربعا وعشرون ســـاعة » ! ..

ومن قبله قال الشيخ عبـــد المجيـــد سليم وقـــد حـــذروه من غضب جهات عالية :

« أيمنعنى ذاك من التردد بين بيتى والمسجد ؟ قالوا : لا .. قال : لا خطر اذن ! ليس هناك ما يخاف » ..

من أركان العظمة أن يجعل الرجل مآربه من الدنيا فى أضيق نطاق مستطاع .. أنه يعيى عدوه بذلك الاستعفاف أو الاستغناء .

وذاك نهج الشرف الذى خطه على بن أبى طالب عنـــدما قال : « استعن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج الى من شـــئت تكن أسيره » .. وما يستقيم على هـــذا النهج الا امرؤ يحســـن الصـــيام ..

أعجبتنى هـــذه الوصية لابى عثمان النورى لابنه ، وأثبتها الجاحظ ، وليس لى فى كتابتها الا فضل النقل .. « يا بنى كل مما يليك ، واعلم أنه اذا كان فى الطعام لقمة كريمة أو شىء مستطرف فانما ذلك للشيخ المعظم أو الصبى المـــدلل ، ولست واحدا منهما .

يا بنى عود نفسك مجاهدة الهوى والشهوة ، ولا تنهش السباع ، ولا تخضم البغال ، ولا تلقم لقم الجمال ، فان الله جعلك انسانا فلا تجعل نفسك بهيمة واعلم أن الشبع داعية البشم . والبشم داعية السقم ، والسقم داعية الموت .

ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة ، لأنه قاتل نفسه ، وقاتل نفسه الأم من قاتل غيره ..

يا بنى والله ما أدى حق الركوع والسجود ممتلىء قط ! ولا خشع لله ذو بطنه ، والصوم مصحة والوجبات عيش الصالحين .

يا بنى قد بلغت تسعين عاما ما نقص لى سن ولا انتشر لى عصب ، ولا عرفت ذنين أنف ، ولا سيلان عين ، ولا سلس بول ، وما لذلك علة الا التخفف من الزاد ..

فان كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة ، وأن كنت تحب الموت فتلك سبيل الموت ، ولا أبعد الله غيرك » ..

هذه وصية رجل لا يعرف عبادة الجسد التى تهاوى فيها أبناء هذا العصر ، والتى جاء فيها قوله(١) تعالى :

« ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون » ..

وقوله(٢) :

---

(١) الحجر : ٣ (٢) محمد : ١٢

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم » ..

وتجتاح الناس بين الحين والحين أزمات حادة تقشعر منها البلاد ، ويجف الزرع والضرع ، ما عساهم يفعلون ؟ انهم يصبرون مرغمين أو يضومون كارهين وملء أفئدتهم السخط والضيق .. وشريعة الصوم شيء فوق هذا ، انها حرمان الواجد ، ابتغاء ما عند الله . انها تحمل للمرء منه مندوحة — لو شاء — ولكنه يخرس صياح بطنه ، ويرجيء اجابة رغبته ، مدخرا صبره عند ربه ، كيما يلقاه راحة ورضا فى يوم عصيب .. « ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود »(١) ..

وربط التعب بأجر الاخرة هو ما عناه النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » ! ..

ان كلمتى « ايمانا واحتسابا » تعنيان جهدا لا يستعجل أجره ، ولا يطلب اليوم ثمنه لان باذله قرر حين بذله أن يجعله ضمن مدخراته عند ربه .. نازلا عند قوله :

« ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا !! »(٢) .

وسوف يجد الصائم مفطرين لا يعرفون لرمضان حرمة ولا لصيامه حكمة ، اذا اشتهوا طعاما اكلوا ، واذا شاقهم شراب أكرعوا .. ماذ يجدون يوم اللقاء ؟ ..

---

(١) هود : ١٠٣ (٢) النبأ : ٣٩

أنهم يجـدون أصحاب المـدخرات فى أفق أخـر ، مفعم بالنعمة والمتاع ، ويحـدثنا القـرآن الكريم عمن أضاعوا مستقبلهم فيقول : « ونادى أصحاب النار وأصحاب الجنة ان أفيضوا علينا من المـاء أو مما رزقكم اللـه .. قالوا ان اللـه حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا »(١) .

ان الصيام عبادة مضادة لتيار الحياة الان ، لان الفلسفات المـادية المسيطرة فى الشرق والغرب ، تعرف الارض ولا تعرف السماء ، تعرف الجسم ولا تعرف الروح ، تعرف الدنيا ولا تعرف الاخـرة ..

ليكن للقوم ما أرادوا ، ذلك مبلغهم من العلم ! .. بيد أننا نحن المسلمين يجب أن نعرف ربنا ، وأن نلزم صراطه ، وأن نصوم له ، وأن ندخر عنـده ! ..

على أن هناك حقيقة مؤسفة هى أن الصوام قلة وان امتنع عن الطعام كثيرون ! ..

---

(١) الاعراف : ٥٠ — ٥١

٧٧ ـ فى المجالات الاجتماعية والسياسية نرى للاسلاميين مقالات متباعدة أو متناقضة ! .. فلم هــذا ؟ ..

اعترف بأن الملاحظة صادقة ، واشــعر بأن بقــاء هــذا الوضع يعوق الدعوة ويحرج الدعاة ! وسأذكرها هنا ما أراه باعثا على هــذا الاضطراب ، حتى يمكن تجاوزه ..

ان الاسلام صراط مستقيم ، وقــد خرجت من هــذا الصراط طرق شتى تميل يمنه أو يسرة ! وكان اعوجاجها بارزا كــذلك فى الاجتماعية والاقتصــادية والسياسية .. وكان بارزا كــذلك فى النواحى المــدنية والحضارية .. وقــد خيل الى أن الصــراط المستقيم خلا من أهله فى العصر الاخير ، وتزاحمت القوافل الشاردة فى مسالكها التى انطلقت فيها ، ومن هنا استوحش الحق ، وأصابه ضر شــديد ..

وسأختار نموذجين لهــذا الشرود ، ولنتائجه فى عالم المعرفة والتوجيــه ..

يعرف الاسلام أمير المؤمنين على أنه وليــد ببعة حــرة ، أو اختيار صحيح يتجه فيه الناس الى انتخــاب أكفأ انســان لقيادتهم، ويعرف القائد المنتخب أن الحكم أمانة ومسئولية جسيمة ، وأنه تكليف لا مغنم ، وأن عليه الاستعانة بأهل الشورى فى تعرف الصواب وتحــديد الارشــد ، وأنه ليس بمعصوم ولا مســتغن بنفسه بل يحتاج الى مظاهرة الاقوياء والانتفــاع بشتى الاراء ، وأنه اذا أخطأ وجب تقويمه ، واذا عجز ترك للامة أن تختار غيره فليست الرياسة حقا شخصيا له او لغيره ..

هـــذه مسلمات فى أصول الحكم كما يعرفها الاسلام ، وهذا هو الصراط المستقيم .

لكن خط الانحراف الذى بدأ من عهـــد مبكر ، جعل الخلافة اغتصابا وميراثا ، وجعل الحصول عليها مغنما لا مغرما وتنوسيت أجهزة الشورى حتى لكأنها وهم أو أسطورة ، واقترب من الحاكم أهل الملـــق وابتعـــد رجال الحق ، أو أبعـــدوا ، واعتبروا النقد الصحيح فتنة أو خروجا ، واعتبرت المـــداهنة طاعة وولاء ! .

من حقى أن أصف الثقافة التى تنظر الى الصراط المستقيم وهى تتحـــدث عن الاسلام ـــ بأنها الثقافة الاصلية ، كما أن من حقى أن أصف الثقافة التى قبلت الواقع وبنت عليـــه وأفتتنت به ثقافة خط الانحراف ! ..

التوجيهات القـــرآنية والنبوية وتطبيقات ســـلفنا الصـــالح هى الثقافة الاصلية أما الواقع الذى رسمه المـــلوك ، ونضـــحت به طبيعة جنس من الاجناس ، فهو علم متأثر بخط الانحراف .

وهـــذا العلم لا يفرضه على الاسلام عاقل ، مهما حـــاول أهله اعطاءه الصيغة الاسلامية ، فالقول بأن الشـــورى لا تلزم الحاكم ، والقول بأن الانتخاب بدعة ، والزعم بأن نقـــد الحاكم نقض للبيعة ، وأن على الجمهور أن يصبر على غصب المـــال ، وضرب السياط .. الخ ، كل ذلك من وحى خط الانحراف وليس من معالم الصراط المستقيم .

والعرب جنس له محامده ومعايبه ، ومن معايب العـــرب العصبية للاسرة ، والتعالى بالنسب ، وحب السلطة والحـــرص

على الامارة ! وقــد جعلوا منصب الخلافة يحمل معالم شــيخ القبيلة ، الذى يقول فيسمع ويأمر فيطاع ! ..

وأرى أن هــذه الخصال السيئة فى طلب الحكم ، والتصدير بالدعوى أساءت قديما للاسلام ، وتسىء يومنا هــذا للعرب .

والفقهاء الناصحون ، للــه ورسوله ، يفصلون بين طبيعة جاهلية فرضت نفسها ، ودين قويم يجب أن يسود .

وقــد ألف عبد الرحمن الكواكبى كتابه « طبائع الاستبداد » لينصف الاسلام ممن حكموا باسمه وكذبوا عليه ، وفيــه يقول : « المستبد يتحكم فى شئون الناس بارادته لا بارادتهم ، ويحكم بهواه لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتــدى فيضع كعب رجله على أفواه الالوف المؤلفــة ، يســدها عن النطق بالحق ومطالبتها به ! والمستبد يود أن تكون رعيته بقرا تحلب ، وكلابا تتذلل ولا تتملق ! وعلى الرعية أن تدرك ذلك فتعرف مقامها منه ! هل خلقت خادمة له ؟ . أو هى جاءت به ليخــدمها فاستخدمها ؟ والرعية العاقلة مستعدة أن تقف فى وجه الظالم المستبد تقول له : لا أريد الشر ! ، ثم هى مستعدة لان تتبع القول بالعمــل ، فان الظالم اذا رأى المظلوم قويا لم يجرؤ على ظلمه »(١) .

ومن الحكام من يحاول استجلاب صورة للشورى بها شبه من « ديمقراطية » الغرب ! شــبه التمثال الميت بالجسد الحى ، قال الشيخ محمــد عبــده فى وصفها : لو حــدث أن انســانا عرض وجهة نظر غير ما يرى الحاكم لتعرض للتلف ، فان أمام كل لفظ بقوله نفيا عن الوطن أو ازهاقا للروح أو تجريدا من المال » ! .

---

(١) عن زعماء الاصلاح لاحمــد أمين .

والواقع أن المستبدين فى كثير من الاقطار الاسلامية برعوا فى تزوير الشورى ، عنـــدما ألجأتهم الظروف الى مجالسها ، حتى أمست الجماهير بين استبداد صريح أو استبداد منافق !! .

ان حقوق الانسان وحقوق الشعوب هى الوجـــه المقابل فى ديننا لعقيـــدة التوحيـــد ، وأحسب أن سدنة الوثنية السياسية لا يقلون شرا ولا أذى عن سدنة الاصنام .

وهؤلاء للاسف يجيـــدون تحريف الكلم عن مواصفه وتطويع النصوص لخـــدمة السلاطين ..

وهاك نموذجا آخر لطغيان التقاليـــد الموروثة على تعاليم الاســـلام ! ..

كان العـــرب فى جاهليتهم يكـــرهون الانثى ويتشـــاءمون لولدها ، وقـــد اشتطت بهم هـــذه الكراهية حتى حملتهم على اقتراف جريمة لم تعرف فى جنس آخر ، جريمة وأد البنات ، ولست أدرى : أذلك خشية العار كما يزعمون ! أم هو ايحاء دينى ضال ؟ كما يفهم من الاية الكريمة :

« وكـــذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبســـوا عليهم دينهم »(١) .

ليكن هـــذا أو ذاك ، لقـــد جاء الاسلام فبـــدل الاحوال ، وكـــرم الانثى وأوصى بالبشـــاشـــة عنـــد مولـــدها ، ورعاها

---

(١) الانعام : ١٣٧

طفلة وفتاة وأما .. وأعطاها فى المجتمع حق الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفى العبادة حق التردد على المسجد من الفجر الى العشاء ، وفى التعليم ما تكمل به انسانيتها فلم يقصرها على نصيب محدود ! ..

وكان ان علا شأن المرأة ، فبايعت ، وجاهدت ، وحققت لنفسها ما يشرف نوعها ، وظفرت المسلمة بما لم تظفر به امرأة أخرى ! ..

ثم غلبت تقاليد الجاهلية العربية شيئا فشيئا حتى أقبل العصر الحاضر ، والمرأة محظور عليها أن تدخل مسجدا(!) فى أغلب العواصم — خصوصا المحافظة — أما حق التعليم فانه لولا الحضارة الحديثة ما دخلت أنثى مدرسة ولا انتمت طالبة الى جامعة ، كأن تجهيلها فرضا محتوما ! ..

وانكمشت انسانية المراة حتى كاد ميراثها يجتاح كله ، وحتى أصبح اذنها فى عقد الزواج شكلا لا حقيقة له ، واذا اقترفت فاحشة قتلت ونجا الطرف الاخر ..

والقاعدة العامة أنها لا ترى أحدا ولا يراها احدا ، وخط الانحراف فى هذه المسالة أساء ولا يزال يسيىء الى الاسلام ، ويضع العوائق أمام دعوته ! ..

هذا لون من العلم الذى اشاعه خط الانحراف فى تاريخنا وثقافتنا ، وهو علم لا يعى بعض المتدينين غيره ! ، اذا وجدوا فى الميدان السياسى انه لا شورى ، ولا اجهزة لها ، ولا ضوابط للحكم الفردى ، نسوا النصوص المهملة ، واخذوا صورة الاسلام من الواقع السيىء ..

واذا وجـــدوا ان المـــراة كم مهمل وأنه لا مكان لهـــا فى مدرسة أو مسجد ، وأنه لا يجوز أن ترى أحـــدا أو يراها أحد ، تجاوزوا القرآن والسنة ، وحكموا على المـــرأة بالاعدام الادبى !.

وقـــد رأيت هؤلاء يختلقون الاحاديث ، أو يقوون الضعيف منها ، أو يهملون الصحيح لتغير الزمان ، ويحـــدث هـــذا كله فى وقت تعمل فيه المبشرات من كل ملة على تنصير المسلمين والمسلمات بل أن المجنـــدات فى الجيش اليهودى يسبقن الرجال عنـــدنا فى صناعات الموت (١) ..

اننا نحـــذر الامة من العلم الدينى المغشوش ومن فتانين يهـــدمون الحق ، على حين يبنى غيرهم الباطل ..

---

(١) وزع كتاب عن ضرورة ضرب النقاب على وجه المـــرأة المسلمة كى يتم ايمانها ويكمل دينها ومن بين ما قال مؤلفه : حرم الاسلام الزنى ، وكشف الوجه طريق اليه ، فما أدى الى الحرام حرام ! ونعجب نحن لهـــذا الاستدلال ، فان الاسلام أوجب كشف الوجه فى الحج وفى العمرة ، وجعله الاساس عنـــد أداء الصلوات كلها ، فهل كان الاسلام بهـــذا الكشف يمهـــد للفاحشة ؟ ومن أغرب ما قـــرأت تعليق المؤلف على حـــديث المـــرأة الخثعمية التى رآها النبى صلى اللـــه عليه وسلم مكشوفة الوجه ، فلم يأمرها بتغطيته ، قال : لعل النبى أمرها بالنقاب .. فلم لم ينقل الرواة لنا ذلك ! ؟ ..

٧٨ — ما موقف الاسلام من اختلاط الجنسين ؟ ..

اذا ذكر الاختلاط ارتسمت فى الذهن الصورة الدميمة للعلاقات الاجتماعية بين الرجال والنساء كما استقرت فى الغرب والحق أن هذه العلاقات سيئة ، وأن وضع المرأة هناك لا يرتضيه دين ! ..

ان التبرج ، وابداء الزينات الباطلة هما أساس الملابس العادية ، وكأن سرور المرأة لا يتم الا اذا أثارت الانتباه ولفتت اليها الانظار ! ..

ثم حشرت النساء فى أعمال شتى تتيسر فيها الخلوة ، وتعجز المرأة الشريفة فيها عن التصون ! بل أن الحضارة الغربية فى اباحتها للرقص ، واستباحتها لارواء اللذات بسبل كثيرة ، أرخصت قيمة الاسرة ، وجعلت الزواج محدود الاثر فى حماية الاعراض وقصر كلا الزوجين على صاحبه ! ..

وقد نتساءل عن مكانة الدين فى هذه الجاهلية السائدة ؟ أن اليهود مشغولة بتهويد فلسطين وقتل العرب ، والنصرانية مشغولة بالحملات الصليبية على بلاد الاسلام ، وتيسير الارتداد عنه بكل طريقة ! ..

أما حقيقة التدين بالنسبة الى الجماهير فلا تعدو أيام العطلة والاعياد السنوية ..

وان كان هناك من بقى على تدينه ، ووائم بين ما يعرف وما يرى ! ..

ان الحضارة البشرية السائدة فى العالم اعتبرت اللذات الجسدية حقوقا طبيعية ، ولم تر فى الاعتراف بها ما ينافى الاخلاق ، ووجهت نشاطها بعد ذلك الى الميادين العملية ، من مدنية وعسكرية ، وسبقت سبقا بعيدا ..

أما الامة الاسلامية فانها لم تسر مع فطرة الاسلام المقررة ، ووضعت أمام الزواج عقبات اقتصادية واجتماعية صعبة ، وأنشأت تقاليد صارمة فى امكان رؤية كلا الجنسين للاخر ! ..

وعند التأمل نجد هذه التقاليد مبنية على الرياء ، والجهل ، والكبرياء المزعومة لبعض الاعراق ، ثم دعوى التدين !.

وعندى أن تقاليد الغرب اذا وصفت بأنها لا شرف لها ، فان التقاليد الشرقية لا عقل لها ، الاولى فاضحة والاخرى فادحة وضحايا التقاليد المرعية هنا وهناك ، كثيرة ومتشابهة ! ..

فلننظر الى تقاليد الاسلام كما تعرف من مصادره ، ومن تطبيقات سلفه الاول ! ..

لا كما يزعمها أشخاص درسوا خط الانحراف ورأوا أن يئدوا المرأة معنويا اذا كان آباؤهم قد وأدوها ماديا ..

المرأة فى الاسلام تقدر على التردد خمس مرات كل يوم بين بيتها والمسجد ، ومتروك لضميرها الا يكون ذلك على حساب خدمتها لزوجها وولدها ، ومتروك لرب البيت المؤمن الا يمنعها من ذلك ما دامت قد أدت واجبها نحو بيتها .

وفى المسجد لا يختلط الحابل بالنابل ، فللرجال صفوفهم والنساء صفوفهن ! والنساء سوافر أى مستورات الاجسام ما عدا

الوجه والكفين ، هل يسمى هـــذا اختلاطا ؟ .. ان الرؤية ممكنة فى المسجد ، وفى أثناء التردد عليـــه ! لكن أى رؤية ؟ مع غض البصر ! وأدب النفس ، فاذا رأى رجل محاسن امرأة لم يعـــاود النظر ليتملى ، فذلك مرفوض ، له النظرة الاولى وليس له الثانية !.

ان هـــذه الرؤية العابرة من أحـــد الجنسين للاخر لا شيىء فيها شرعا ، وان جادل المجادلون ! ..

والشارع الاسلامى تسير فيه المـــرأة محتشمة على ما وصفنا تذهب الى السوق ، أو الى المدرسة أو الى المسجد دون حرج ! .

ولنفرض أن رجلا مر بجمع من النسوة فألقى عليهن السلام ، أنه لم يرتكب اثما فقـــد صح عن أسماء بنت يزيد قالت : مر علينا رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم فى نسوة ، فسلم علينا ، وفى رواية للترمذى فألوى يده بالتسليم ! ..

وقـــد خرجت صحابيات مع الجيش ـــ فى نطاق الاحتشام الذى وصفنا ـــ وكن يطهين الطعام ، ويمرضن الجرحى ، وينقلن الموتى ، وكافأهن الرسول صلى الله عليه وسلم ببعض الهدايا ..

ووقفت مليا عنـــد حـــديث رواه البخارى ، أضعه بين أيدى المؤمنين ليروا فيه بعض معالم المجتمع الاول ، عن أبى جحيفـــة رضى اللـــه عنه قال : آخى رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم بين سلمان وأبى الدرداء رضى اللـــه عنهما ، فزار ســـلمان ابا الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذلة ـــ أى رأى ثيابها رديئة الهيئة ـــ فقال : ما شأنك ؟ قالت : أخوك ابو الدرداء ليس له حاجـــة فى الدنيـــا !! ..

فجاءه أبو الدرداء فصنع له طعاما ، وقال له : كل .. فقال : انى صائم ! فقال سلمان ما أنا بآكل حتى تأكل ، فأكل ! .. — وترك صومه — فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم .. فقال له سلمان : نم ! فنام ..

فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الان ، فصليا ، فقال له سلمان : أن لربك عليك حقا ، وأن لنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا ، فاعط كل ذى حق حقه ! « فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « صدق سلمان » ..

قلت فى نفسى : أن البيئة التى يصنعها خط الانحراف ترى فى سؤال سلمان لأم الدرداء جريمة ، وترى فى اجابة أم الدرداء جريمة أشد ، وربما عالجت هذا بضرب تزهق فيه الروح أو يترك عاهة مستديمة ! .

ولا أدرى كيف يتم الزواج فى هذه المجتمعات المغلقة ؟ يكاد يكون نوعا من المقامرة ! ومن أجل ذلك عرف العرب فى عواصم أوربا وأميركا بالسعار الجنسى ، وغلقت بيوت لا تحصى على آلاف العوانس ! والسبب فى ذلك تقاليد فرضها العرب من عند أنفسهم على المسلمين ما أنزل الله بها من سلطان .

لا أصف المجتمع المسلم بأنه منغلق أو منفتح ، أنه مجتمع طبيعى تحكمه تعاليم الفطرة السليمة وحدها ..

المجتمع المنغلق يرتاب فى حركات المرأة كلها ، ويفسرها بابتغاء الشر ، أو يخشى عليها ذلك ، ومن ثم فهو يحرم المباح ويضع السدود ، ويتناول النصوص بالتأويل ، أو يقوى الضعيف منها ويضعف القوى ، وينتهى بمحو شخصية المرأة .

والمجتمع المنفتـح يضع عنان المـرأة فى يدها ، ويحرض الذئاب على نهشها ، ويستغل اعترافه بشخصيتها كى يستغل ضعفها فى مبـازله ..

وكلا المجتمعين شر ! ولست أرى بديلا عن تعاليم الاسـلام يفهمها عقل طبيعى لا عقل ملتاث ! .

لقـد رأيت رجلا جامعيا متزمتا يستغرب قوله تعالى :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »(١) ..

كأنه لم يسمع الاية حتى ذكرتها له محتجا بها على أن المـرأة تأمر وتنهى ، وتحق الحق وتبطل الباطل ! كان يتصور أن صـوت المـرأة عورة ، فما يجوز لها أن تتكلم ناصرة حقا ، أو خاذلة باطلا ..

وقال لى شخص ممن يرون حجب المـراة عن المجتمع : اليس يقول اللـه :

« وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرح الجاهلية الاولى ؟ »(٢) .

قلت : ان القـرآن لا يضرب بعضه بعضا ، وتفسير الاية الكريمة على ان البيت سجن للمراة لا تخرج منـه تفسير باطل ، فان الحديث الصحيح « أن اللـه أذن لكن أن تخرجن فى حوائجكن »

---

(١) التوبة : ٧١ (٢) الاحزاب : ٣٣

على أن خروج المـــرأة من بيتها لا يجوز أن يكون مع تبرج الجاهلية القـــديمة أو الحـــديثة ، ان مكثها فيه أولى من هـــذا الخـــروج السـيىء ..

وعنــدما تخرج ــ وهــذا حقها يقينا ــ فان آية أخــرى أرشـــدتها الى الهيئة التى تخرج بهــا ! أن للاستعفاف ملابس سابقة تلف الجســد وتنفى الريبة ، وتنطق بأن هـــذه المــرأة تقيـــة نقيـــة أما المـــلابس الخليعة المتبرجة التى تستفز الشهوات فهى تغرى السفلة ، وتشتم منها الذئاب رائحة معينــة ، وعلى المسلمة الشريفة ألا تؤذى نفسها بهـــذه المـــلابس ، فانها بثياب الفضيلة تحمى عرضها، وتحصن نفسها ، وهذا معنى قوله تعالى :

« يا أيها النبى قل لازواجك وبناتك ونســاء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان اللـــه غفورا رحيما »(١) ..

فى المجتمع المسلم لابد من تقوى تسكن القلوب ، واقام للصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ومحافظة على حـــدود اللـــه تملأ أكتاف المجتمع بالعلامات الخضراء والحمراء ، على ما أمر اللـــه وما نهى عنـــه .. فى هـــذا الجو تخرج المـــرأة للعمل ان احتاجت اليه أو احتاج العمل اليها ، ولها أن تقاتل فى البر والبحر كمــا فعلت قبل ذلك صحابيات ، وما يمنعها الاسلام من غزو الفضــاء اذا أتاحت لها مواهبها ذلك ! ..

فليست المـــرأة ــ بالاسلام ــ دون غيرها من اية ملة ! ..

---

(١) الاحـــزاب : ٥٩

أعرف أشخاصا يوغر صـدورهم هـذا الكلام ، ان هؤلاء المساكين أصابوا الاسلام فى مقاتله بقصورهم الشائن ، لقد كونوا جيلا من النساء ما يحسن تربية أولادهن على حين تكافح اليهوديات بجلد مزعج لاقامة دولة اسرائيل ، وتكافح الراهبات لتحويل الالوف عن الاسلام ..

الواقع أننى أتشاءم من المستقبل عندما أسمع مفتين منسوبين الى الاسلام لا يزالون يحرمون على النساء دخول المساجـد ! ..

وأريد لفت الانظار الى أن العلاقات بين الجنسين قضـية تاليـة لما هو أهم منها ، وهو غرس الايمان الصحيح ، ثم انضاج المعانى المبنية عليه من اخلاص وتوكل ورغبة ورهبة وولاء وبراء ، ثم اقامة الاخلاق الاجتماعية من صـدق وبر ووفاء ورحمة ! ..

فان العلل النفسية الناشئة عن فقـدان ما ذكرنا تهلكّ الامم أكثر مما يهلكها الاضطراب الجنسى .. وأثر التحاقـد بين العرب شر من أثر التحلل بين أعدائهم ..

ومن الحماقـة ان يظن البعض كشـف الوجـه أخطر من خبث القلب وحسـد الغير ! ..

٧٩ – ما موقف الاسلام من تحديد النسل ؟ ..

يطلق هذا العنوان على قضيتين مختلفتين كل الاختلاف ، الاولى تعنى التحديد المؤقت - بعبارة أدق تنظيم النسل ، أما الاخرى فتعنى تقليل عدد الامة ، وحصرة فى رقم معروف مثلا ، وتوجيه الافراد بعد ذلك لتنفيذ مطالبه ..

ونتناول القضية الاولى ، فنواجه حالات فريق من النسوة يحملن ولم ينقض على وضعهن عدة أسابيع ! .

ان هذا الحمل يجىء والام ضعيفة غالبا من آثار الولادة السابقة ، ورضيعها بين يديها يحتاج الى عناية موفورة ، والجنين الجديد ينشأ فى ظروف صعبة ، فاذا تم وضعه انشغلت الام بولدين يرهقانها ويوهن أحدهما الاخر ! ..

من حق الام أن تتقى هذه المشكلة ، وأن تؤخر الحمل بعد ولادتها نحو سنتين تتم فيهما الرضاعة ، وتقوى بعدها على حمل جديد ! ..

وجمهور الفقهاء يبيح ذلك ويرى أن هذا التحديد المؤقت النسل يحقق مصالح لها وزنها ، ويشترط أن يتم ذلك بموافقة الزوجين ، وباتباع وسيلة لا تضر الام ، فان كثيرا من الادوية المانعة للحمل تترك آثارا سيئة على الامهات والاجنة ! .

والواقع ان هذا التنظيم فردى لا جماعى ، وانه لا رقما معيبا للاولاد ، فما تقدمه الاقدار هدايا جديرة بالحف ومن الغرور الزعم بأننا نسعد ونشقى ! ..

وهنا يجيىء الحـــديث عن القضية الاخرى ، قضية الا يزيد عـــدد الامة المصرية أو العراقية أو الباكستانية عن رقم معين ، أو نسبة مضبوطة فى الزيادة السكانية ..

ونحن مضطرون الى ذكر حقائق قـــد يكون بعضها مخجلا ، أو يكون من وضع ساسة يكنون للاسلام وأمته أخبث النيات ..

ونبـــدأ بالتنبيه الى أن الحـــدود الجغرافية التى رســـمت لدار الاسلام وشعوبها فى هـــذا العصر حـــدود وهميـــة مزورة لا اعتراف بها من الناحية الدينية ..

فلكل مسلم أن يطلب رزقه فى أى مكان ينشـــده بين الاطلس والهادى ، دون أى قيـــد ، وخيرات الارض الاسلامية متاحة لكل من ينطق بشهادة التوحيـــد ، لا يحجبه عنها مولده فى قطـــر من الاقطار .

ومن الجاهلية تكليف شعب فى أفريقية مثلا بتقليل عـــدده لأن نتاج أرضه قليل على حين أن الارض الاسلامية فى آسيا ثرية الينابيع ! هـــذه تعاليم استعمارية لافساد الامة الاسلامية كلها بزيادة الفقر فى جانب وزيادة الغنى فى جانب آخر ، وهى تتوسل بالنزعات القومية لاشاعة هـــذه الفوضى التى لم تعرفهـــا دار الاسلام منـــذ بدأ الاسلام ! ..

ولو فرضنا جـــدلا ان العالم الأسلامى قل خـــيره وجفت ينابيعه فان المسلم لا يرتبط بمسقط رأسه ولا بديار اخوانه فى الدين ! أمامه أرض اللـــه الواسعة ! اليس يقول اللـــه :

« هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »(١) .. أليس يقول : « ولقد مكناكم فى الارض وجعلنا لكم فيها معايش ؟ »(٢) ..

لماذا لا ينتشرون فى أرجاء الدنيا وينشرون دينهم كما فعل آباؤهم الاقدمون ؟ ..

الحق أن قصة تحديد النسل بين المسلمين خاصة تخفى وراءها فضيحة انسانية تضحك وتبكى ! .. هذه الفضيحة هى ضمور المواهب البشرية فى أجيال من الناس تمشى فوق مناجم الذهب وتكسل عن أخذ ما بها ! أو تعجز عن افتتاح أبوابها ! .

ناس يعيشون على الشواطىء ولا يحسنون الصيد ! ولا يتقنون الزرع ، وقد تكون تحت أقدامهم بحيرات من البترول ولكنهم مشغولون عن استخراجه بالسمر والثرثرة والفخر بالاباء !.

ان الاموال التى تنفق للاغراء بتحديد النسل ، لو أنفقت فى تحريك الاجهزة العقلية المتوقفة عند هؤلاء لكان ذلك أجدى !.

لكن كيف تتغير مصارف هذه الاموال ، وهى من أثرياء اليهود فى أميركا وأوربا ؟ .. ان القوم يريدون أن يقل النسل بين المسلمين خاصة لاغراض معروفة ! ..

---

(١) الملك : ١٥
(٢) الاعراف : ١٠

ونتسائل : ما الجـدوى آخر الامر ؟ أنه بدل أن يكـون التعـداد « ٥٠ مليون » كسلان سيكون « ٤٥ مليون » فقط ! أبهـذا تنهض الامم ؟ أو تحل المعضلات الاجتماعية ؟ ..

ونلقى نظرة أوسع على العالم أجمع ! أصحيح أن خيرات الارض دون اعداد البشر التى تنمو باطراد ؟ ..

الذى نراه أن جهودا هائلة فى الانتـاج الزراعى والصناعى تجمـد عمـدا فى أسلحة الدمار الشامل ! ان اللـه لم يقتل البشر بتقليل رزقه واجاعة خلقه ، ولكن البشر يتظالمون وينتحرون بالاثرة والعـدوان ..

والمسلمون يحملون وزرا مضـاعفا فى تلك الفوضى ، لانهـم يجهلون ما لديهم من حقائق أو يجحـدونها ، وهوانهم الانسـانى أزرى برسالتهم وزهد الاخرين فيها ! ولو هبطوا الى نصف عددهم ما أغنى عنهم ذلك ! واثبت هنا هـذه الكلمة فى العـدد ١٥٦١ من صحيفة « الشرق الاوسط » فى عمود « أسود وأبيض » كتب الاستاذ فاروق لقمان كلمة عن اليابان وسر تطورها حضاريا وصـناعيا ، وكيف أضحت طليعة زاهية فى العالم الاول ، وكيف أن أمريكا وأوربا معا تخشيانها ، وترهبان منافستها لهما ! ..

وعزا الكاتب سر هـذا الارتقاء الى الام اليابانية ، فهى التى تغرس فى أولادها خصـائص التفوق ، والاصرار على النجاح ، وفضائل الصـدق والاخلاص وحب الوطن .. الخ .

والواقع انى أحسست بالاسى لان الام الاسلامية لا تعى شيئا من هـذا كله ، لقـد كتب عليها باسم الاسلام المفترى عليه ألا ترى

احـــد والا يراها أحـــد ، ومنعت منعا باتا أن تدخل مســـجدا اكثر من عشرة قرون ! ومنعت منعا باتا أن تدخل مدرسة أو تتلقى علما فى معهـــد خاص أو عام ، كأنتجهيلها دين ، حتى قيـــل : لولا الحضارة ما فتحت جامعة أمام طالبة ، بل ما فتحت مدرسة ابتـــدائية !! .

واحزننى أن يسأل الاسلام عن هـــذا الهوان !! ..

ثم قرأت بعـــد ذلك تعليقا للسيد الزبير محمـــد نور سليمان يؤيد فيه تعاون الجنسين فى اليابان على النهوض بمستويات الامة كلها ، ويؤكـــد عظمة النصيب الذى تسهم به « الام » ! مما يذكر يقول حافظ ابراهيم :

الام مدرســـة اذا أعددتها أعددت شعبا طيب الاعراق !

قال السيد الزبير : هـــذا الحديث ذكرنى بأشياء شاهدتها وعشتها فى اليابان .. ساقتنى الظروف الى هناك على ظهر سفينة يونانية ، كنت ضمن بحارتها كانت السفينة محملة بفول سويا .. من ميناء نيو أورليانز بأميركا الى ميناء يوكوهاما والباقى فى ميناء آخر فى اليابان نفسها .. عملية التفريغ تتم دائما لمثل هذا النوع من الحبوب ، بواسطة أنابيب كبيرة توضع داخل العنابر وتشفط الحبوب بواسطة الضغط الى صومعة الغـــلال ماشرة .. أسرع طريقة أشاهدها .. أى فى غضون خمسة أيام تفرغ سفينة حمولة قـــدرها ثمانون ألف طن .. هـــذا غير الذى شاهدته فى مينـــاء الاسكندرية ، حيث مكثنا ثلاثة أشهر بالتمام لتفريغ حمولة بنفس القـــدر من القمح بواسطة الجوالات .. نصفها يضيع على سطح السفينة وداخل المـــاء طعاما للسمك ، والنصف الاخر تحملهـــا ترلات الى داخل البلد ، والقمح يصب من الجوالات المهترئة على الارض .. فى شريط ليس له نهاية ..

ان هـــذه الظاهرة هى التى رأيتها فى الاسكندرية وللاسف الشــــديد نعود الى اليابان ، بعـــد أن تم تفريغ نصف الشـــحنة فى يوكوهاما ، بدأنا نستعد لمغادرة الميناء ، ولكن قبل المغادرة كان يجب تسوية أكوام فول الصوية داخل العنابر ، كى لا تميل السفينة وتتعرض لخطر الغرق .. اذا كان لزاما على المســـؤلين فى الميناء القيام بهـــذه المهمة .. بعـــد ساعات قليلة رأيت مجموعة من النساء العجائز يهرعن الى السفينة وهن يحملن معدات العمل، من حبال ، ومجارف وجوالات ، أقول نساء عجائز عمر أصغرهن يقارب الستين عاما .. عمر جـــدتى بادىء ذى بدء لم أصـــدق قلت ربما جئن لمساعدة العمال فى أشياء خفيـــة .. ولكن رأيت النساء ينزلن العنابر كالشياطين ويبدأن فى العمل بهمة لا تعرف الكلل .. وأى عمل .. عمل شاق يصعب على الرجال الاشداء .. أنا كبحار ورجل عنـــدما أنزل فى هـــذه العنابر على الســـلالم الحـــديدية ، العارية من اى أمان ، أشعر بالدوار والرهبـــة .. لأن عمق العنبر نحـــو خمسة عشر مترا ، وطوله أكثر من خمسين مترا كله مبنى من الحـــديد .. رأيت النساء ينزلن ويصعدن هذه السلالم فى دقائق معـــدودات .. تعجبت من هـــذه الامة .. قلت اذا كانت نساؤهم يعملن هكـــذا ، فكيف يعمل الرجال انهـــن يحققن المعجزات التى لا تخطر على بال .. فلا عجب اذا رأيت اليابان ، فى هذا العلو الشاهق من العلم ، والتطور ، والتكنولوجيا والصناعات التى أذهلت أوربا وأميركا .. أننى أســـجل هـــذه القصة لانها تشير الى عمل ما تقوم به بعض النسوة ! وان كنت أتردد — ولعل ذلك من آثار التربية ، وطبائع البيئة — فى اختيار هـــذا العمل لعجائزنا ..

بل أننى رفضت أن تقوم النساء بغسل شوارع « موسكو » ليلا ، وعافت نفسى اسناد هـــذه المهنة لهن عنـــدنا ! ..

ان كل الذى أريده تنفيـذ تعليمات الرسول صلى اللـه عليه وسلم فى أن النسـاء شقائق الرجال ، وتنفيـذ الحقيقـة القـرآنية .. « لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى بعضكم من بعض »(١) ..

أما هـذا السحق لشخصية المـرأة ، وعـدها للمهـام الجسـدية وحـدها ، فذاك عوج أعتقـد أن تقاليـد الصحراء هى المسئولة عنـه ، لا تعاليم الاسلام ، ومن الظلم أن يؤاخـذ الاسلام بتقاليـد أمة من الامم التى دخلت فيـه .

على هـذه الامة أن تنقاد لتعاليم الاسلام لا أن تفـرض تقاليـدها على هدايات اللـه ..

---

(١) آل عمران : ١٩٦

٨٠ ــ لمـــاذا حرم الاسلام الخمر ؟ وما عقوبتها ؟ ..

بين يدى العــدد ٣٨ الذى أصــدرته منظمــة الصــحة العالمية سنة ١٩٨١م عن الكحول والعقــاقير المخــدرة ، وقــد أجلت النظر فى صحائفه فوجــدتها ملأى بالنــذر من ضراوة الخمر وفتك المخــدرات ، ووجدت دراسات طبية واحصاءات اجتماعية تثير التشاؤم بسبب كثرة السكارى والمــدمنين ! ..

تحت عنوان « ثمن الكأس » جاءت هــذه العبارة : أن الخمر شراب يبعث على السرور والاسترخاء لــدى الالوف المؤلفــة ! ولكن المشــكلات التى تنشأ عنهــا تعوق التنميــة الاقتصــادية والاجتماعية بل تهــدد بفيضانها العرم كل الخــدمات الصــحية المتــاحة ..

ثم يقول الكاتب « جون مادبى » ÷ ان الخمر تتسبب فى وفاة ما بين ٣٣٪ ، ٥٠٪ من ضحايا حوادث الطرق فى البلاد المتقدمة ، وتتزايد نسبة الوفيات فى العالم الثالث ، و « الكحول » مخــدر يمكن أن يحطم الخياة العائلية ، ويكلف الكثيرين فقــدان مكانتهم الاجتماعية ، أو وظائفهم ومواردهم التى تؤمن حياتهم ! ..

كما يسبب الكحول ثلاثة من عشرة من حوادث العمل ، وهو أســاس فى ضــعف الانتاج ، كما أنه سبب رئيسى فى ارتكاب الجرائم ، ذلك الى جانب أن الكحول يؤدى الى تليف الكبــد ، وهو يشكل عبئا ثقيلا على الخــدمات الصحية فى جميع أنحــاء العالم ، وفى استراليا مثلا نراه العلة الاولى وراء نصف المرضى فى مؤسسات الصحة النفسية !! ..

والخمر من وراء فقــدان المــلايين من ساعات العمل على

امتداد السنة وقد قدرت الولايات المتحدة خسائرها فى الانتاج ــ بسبب الكحول ــ بعشرين مليار دولار سنويا ..

وفى مقال آخر عن الخمر والنساء تقول الكاتبة : ان النساء المدمنات يعانين أكثر من الرجال من أمراض الكبر ، رغم قلة المقادير التى يتناولنها ، كما أن استجابتهن للعلاج أقل من استجابة الرجال ، وينتهى أجلهن فى سن أصغر من نظرائهن من الذكور ! .

وفى مقال عن الخمر والشباب بدأ الكاتب حديثه بهذه العبارة : عندما يشرب الاباء الخمور ، فان الابناء هم الذين يدفعون الثمن ! ..

والواقع أن الاباء والابناء جميعا يدفعون الثمن الفادح وأن كانت العبارة الاولى هى التى رفعها الفرنسيون شعارا لهم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ! ..

ومما يلفت النظر أن المستعمرات بعد تحررها يزداد استهلاكها للخمور ! ، وان دولا كثيرة فى العالم الثالث تقبل على السكر ، وتتجه الى الادمان ، وليس هذا عجيبا ، فان الفهم الاعوج للحضارة والتقليد الاعمى للغالبيين من وراء هذا الانحطاط المبين ..

ان الاسلام حرم الخمر ، وعدها من كبائر الاثم ! ونظمها فى سلك واحد مع الزنى والسرقة ففى الحديث « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » ..

وعن أنس بن مالك : لعن النبى صلى الله عليه وسلم

فى الخمر عشرة ! عاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وساقيها ، وحاملها ، والمحمولة اليه ، وبائعها ، ومبتاعها ، وواهيها ، وآكل ثمنها !! وظاهر من هـذا الاستقصاء أن الشـارع يريد قطـع دابرها ، ومحو آثارها ، واغلاق كل الابواب التى تؤدى اليها .

والقـرآن عدها مع الوثنية والقمار وأوهام الشرك « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العـداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصـدكم عن ذكر اللـه وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » ..

والخمر كل ما غطى العقل ، وأعجز الفكر أيا كان مصدره ! يستوى فيـه العنب والموز والقصب ويسـتوى فيـه الجـامد والسـائل .. فان القصد واضح ، اللـه كرم الانسان بالعقل ، فما أضاع العقل حرام ..

ومن السخف كـذلك تصور الشـارع يحرم الخمر السـائلة ، ويتجاوز عن عقاقير جامدة قـد تكون اشـد من الخمر ضـراوة وأعظم فتكا ، واذا كان أئمة الفقه الاقـدمون لم يذكروا الحشيش والافيون فلأن بيئاتهم لم تعرفه ..

فلما ظهرت بعض المخـدرات أيام ابن تيمية عدها لفـوره من الخمور ، وفى أيامنا هـذه ظهرت عقاقير أخرى كالكوكايين ، والمـاريجوانا وغيرهما تغتال العقول ، وتهلك المـدمن وتستأصل انسانيته فكيف تترك ؟ .

وفى الحـديث : « كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام » وفى حـديث آخر : « ان من العنب خمرا ، وان من التمر خمرا ، وان

من العسل خمرا ، وأن من البر خمرا ، وأن من الشعير خمرا ، وأنهاكم عن كل مسكر » !! ..

وظاهر من الحديث أنه يسوق نماذج ، ثم يذكر القاعدة العامة ، ونحن لا نهتم بالاسماء ، ولا بالمصادر ، وانما نهتم بالتشخيص العلمى للاشربة والعقاقير ، فما ثبت تغييبه للعقل ، أو ما أفقد المرء اتزانه الفكرى فهو محرم بيقين !! ..

ولم تكن الخمر مألوفة فى البيئات الاسلامية ، وأذكر أننى فى طفولتى سرت مع موكب كثيف من أهل قريتنا وراء رجل ثمل ، نستغرب تمايله ونستنكر سكره ! وعرفت أنه سكر فى حانة فتحها بعض اليونانيين فى ظل الاحتلال الانجليزى ..

ثم أخذت الخمر تشيع مع هيمنة الاستعمار على شئوننا ، ثم أمست معهودة فى الاحفال « الدبلوماسية » وعلى موائد بعض المنحلين ! ..

والواقع أن الخمر غامضة الحكم بين النصارى ! وأغلبهم يستحل قليلها ، وينأى عن كثيرها ! وان كان القليل عادة يجر الى الكثير ، وتلك طبيعة عامة فى الاشربة المسكرة والعقاقير المخدرة ..

ومع اضطراب الاعصاب ، وما وفدت به المدنية من هموم ، رأينا من يؤثر الغيبوبة على مواجهة المكاره ! ولا بأس أن يغمض بصره أو بصيرته حتى لا يرى ما يكره ! ..

أهو منطق العامة ؟ أم هو لون من الانتحار ؟ أم هو التماس السرور فى الاوهام كما قال الاعرابى الابله :

واذا سـكرت فانني رب الخورنق والسدير !
واذا صحوت فانني رب الشويهة والبعير !

ان فترة الغيبوبة التى يحدثها السكر تعطل عمل العقل وتترك الشهوات سائبة دون قيد ، وتتيح الانطلاق الحيواني دون خوف على كرامة أو تهيب لسلطة ! ..

وقد حكى الادباء أن بدوية وفدت على بغداد ، وحضرت عرسا يشرب فيه المنكر، فلما انتشت قالت : أيشرب هذا نساؤكم ؟ قالوا بلى ! قالت : زنين ورب الكعبة !! ..

الحق أن تحريم الخمور حفاظ على الدين والشرف والخلق والكرامة .. الا أن الاوربيين مشوا فى طريقهم فلما رأوا المخدرات سريعة التدمير للامة حظروها بعنف ، ويوجد تعاون عالمى على مطاردة هذه المخدرات ، ومعاقبة تجارها ومتناوليها ..

أما الخمر فقد ازداد الاحساس بضراوتها فى الايام الاخيرة وتوجد حكومات غير اسلامية تحرمها — كالهند مثلا — لضرورات قومية ..

وفى العالمين الراسمالى والشيوعى تنطلق الدعايات الصحية والاجتماعية للتنفير منها ، وابراز مقابحها ، فهل ذلك يكفى ؟ ..

ان الاسلام تأنى فى اعلان حكمه على الخمر ، وان كان من أول يوم ينظر اليها شزرا ، ولم يقرر مهاجمتها الا بعد أن أقام دعائم من الايمان ، وضوابط الاخلاق تعين على الخلاص منها ، فلما أصدر الحكم بعد هذا المهاد أريقت دنان الخمر فى الازقة ، ورميت قربها فى المزابل ..

أى انه لابد من مقـــدمات نفسية وفكرية تسبق أو تساند الحظر ...

وجمهور الاطباء والمربيين والساسة والقواد العســـكريين يكافحون المسكرات فى العهود الاخيرة واظن أنه لا يمنع من عقاب شاربيها الا الخوف من التشبه بالاسلام ! ..

والفقه الاسلامى يضع حـــدا لشارب الخمر قـــدره ثمانون جلدة ، وليس لهـــذا الحـــد سند من الكتاب الكريم أو الســـنة المطهرة ، وانما اتفق عليه جمهور الصحابة ، واوصى به الدولة فنفـــذته ! ومن الفقهاء من يكتفى بأربعين جلدة ..

وفتهاؤنا مجمعون على أن من سكر من اى شراب نفـــذ فيه الحـــد ، وان أخـــذ أى جرعة من الخمر اسكرت أم لم تســـكر حرام ، وفيها العقوبة المقـــررة ..

ان دولا كثيرة عاقبت تجار الافيون ومتناوليه بالقتل ، ولم يسلم لها كيانها الا بهـــذا العقاب الصارم ، مع أن قليلا من الافيون يحتاج اليه ضحيا ، وفى مجلة الصحة العالمية التى أومأت اليهـــا آنفا « .. ان المواد المشتقة من نبات الافيون مثل « الكوديين » و « المورفين » مفردات مهمة فى دستور العقاقير » !! .. فهـــل شفع ذلك فى تخفيف العقوبة على مروجيه ومدمنيه ؟؟ ..

فلماذا نتهاون فى مجال المســـكرات ، ثم نشتط فى مجـــال المخـــدرات ؟ قـــد تكون نسبة الكحول فى البيرة وما يشبهها ٣٪ أو ازيد قليلا ، بيـــد أن الملحوظ فى هـــذه الاشربة أن قليلهـــا يجـــر كثيرها ، اى أن الذى يشرب زجاجة من البيرة يتجرع من سموم الكحول مثل او اكثر من الذى تناول كأس خمر !! ..

٨١ ـ التدخين عادة شائعة ، فهل للدين راى فيها ؟ ..

لم يكن التبغ موجودا على عهد النبوة حتى يصدر فيه حكم ، وليست له خصائص الاسكار التى لانواع الخمور حتى يمكن الحاقه بها ، ومن ثم فان الحكم له أو عليه يرتبط بالاثار التى يتركها فى جسم الانسان ..

ولم أقرأ لاحد كلمة فى أن للتدخين فائدة ، بل أن جمهرة العقلاء من باحثين وأطباء أطالوا القول فى أضرار التدخين ، ويكاد اجماعهم ينعقد على أنه سم بطيىء ! ..

وقد طالعت عددا من المجلة التى تصدرها منظمة الصحة العالمية عنوانه الواضح على الغلاف « التدخين نقمة والصحة نعمة والاختيار لك » ! ..

وفى المقال الاول من هذا العدد وردت هذه العبارات « لقد اتضحت العلاقة بين تدخين السجائر وطائفة من الامراض المزعجة ! كما اتضح أن نسبة الوفيات بين المدخنين أزيد كثيرا من نسبتها بين رافضى التدخين ! ولعل أكثر الامراض ارتباطا بتدخين السجائر سرطان الرئة ، والتهاب الشعب ، وانتفاخ الرئة ، وأمراض القلب الاسكيمية ، وأمراض الاوعية الدموية ! وترجع ٨٠٪ من الوفيات المتزايدة الى هذه العلل ! وهناك أمراض أخرى أكثر شيوعا بين المدخنين ، هى سرطان الشفة واللسان والفم والحنجرة والبلعوم والمرىء والمثانة ! ويتكرر حدوث قرحة الاثنى عشر بين المدخنين أضعاف حدوثها بين غيرهم .. الخ .

وقد تأملت فى هذا الكلام طويلا ، ولم أستطع رده ، ولكنى تساءلت : لماذا تبدو هذه النتائج ببطء حتى أن البعض يرتاب فيها ؟ وعلمت أن الخالق أبدع تكوين الجسم البشرى ، وأودع فيه مقاومة شديدة للبلاء الهاجم ! كأن الجسم ثوب متين النسيج يمكن أن تحمل فيه الحديد والحجر دون أن يخترق ! بيد أن كثرة الاستعمال ، ستوهن قدرته يوما فلا يتماسك أمام شيىء يوضع فيه ! ..

وربما ظن البعض أنه محصن ضد السرطانات وضروب الاذى المقرونة بالتدخين — وليس لهذا الظن أساس علمى — لكن يبقى ما لا شك فيه ، وهو أن التدخين مضعف عام للصحة ، وأن جهد المدخن أقل من جهد غيره ، وأن الرائحة الرديئة المنبعثة من التبغ المحترق تلوث الفم والاصابع والملابس والجو المحيط بالمدخنين ، بل أن رائحة التدخين قريبة من النتن ، ومن حق الشخص السوى أن ينفر منها ..

وجمهور كبير من المدخنين ليسع واسع الثراء حتى يحرق أمواله بلا مبالاة ، لقد ظهر أن الالوف المؤلفة من صرعى هذه العادة يحتاجون وتحتاج أسرهم الى هذه النفقات الضائعة لتوفير الالبان والفواكه والاطعمة التى لا غنى عنها .

وقد رأت الحكومات على المستوى الدولى أن تدق أجراس الخطر ضد التدخين ، ولكنها اكتفت لاسباب — نضرب عن ذكرها — بالصاق لافتة على كل علبة سجائر تشير الى ضرر التدخين ! .

والعدد الذى بين يدى من مجلة الصحة العالمية يقول :

« .. بالرغم من تحول صناعة السجائر فى البلدان الفنية الى انتاج سجائر تنخفض فيها نسبة القطران ! وسجائر مزودة بالمرشحات « الفلتر » فان السجائر المصـــدرة الى العالم الثالث عموما تحوى نسبة من القطران تزيد ثلاثة أو أربعة أمثال على ما يشابهها فى البلدان المتقـــدمة » ! ..

ان حيـــاة السكان فى العـــالم الثالث تافهـــة ، ولا معنى للمحافظة على صحتهم ! ..

والحقيقة أن التـــدخين بدأ يقل فى أغلب الاقطار الواعية ، وأن طوائف كثيرة من المثقفين هجرته ، وقـــد قرأت فى مجلة الصحة العالمية المذكورة أنه تبين من دراسة أجريت على ٦٠٠٠٠ طبيب بريطانى أن نصفهم كف عن التـــدخين بين عامى ١٩٥١ و ١٩٦٥ ، ونتيجة لذلك انخفض معـــدل الوفيات بين الاطباء ..

ان شركات التدخين العملاقة تجـــد ضـــحاياها فى العـــالم الثالث ، وقـــد ارتفعت نسبة التـــدخين بل نسبة الســـكر بين الالوف المؤلفة فى هـــذه الاقطار التعيسة ، وافتن المعلنـــون فى اجتـــذاب الفرائس الغبية ، فهـــذه أمرأة أفهموها أن التـــدخين يزيد جاذبيتها ! وهـــذا عيل أفهموه أن التـــدخين مظهر رجولة ! وهـــذا عامل أفهموه أن التـــدخين يجعله فارسا لا ينقصـــه من مظاهر الفروسية الا أن يمتطى صهوة حصان ، أو حمار !! وهذا أمرؤ مستغرق فى فكر عميق يحلم مع سحب الدخان المنعقـــدة من سيجارة ، بم يحلم ؟؟ أو فيم يفكر ؟ فى هراء وخديعة كبرى ! ..

ان التواطؤ على استغلال العالم الثالث بلغ حـــد الفجـــور فى الاستخفاف والاستغلال ، فقـــد كتب محرر جريدة « الراية »

تحت عنوان « عقاقير الموت » هـــذا الخبر : أجرى فريق من علماء جامعـــة « كاليفورنيا » دراسة خلال السنوات العشر المـــاضية فى أكثر من عشرين بلدا من بلدان العالم النامى ، تم خلالها تحليل نحـــو ٥٠٠ دواء وعقار من المعروضات الصيدلية التى تنتجهـــا ١٥٥ شركة عالمية وتصـــدرها الى أقطارنا ! ثم أصدرت الجامعة نتيجة هـــذه الدراسة فى كتاب نشرته بعنوان « وصفات المـــوت فى العقاقير الموردة لبلاد العالم الثالث » ..

وتؤكـــد النتائج أن بعضا من كبريات الشركات العالمية ذات المكانة المرموقة فى انتاج الادوية والعقاقير الطبية تسوق منتجاتها فى أقطار العالم الثالث بوسائل من الاعلانات المكـــذوبة والدعايات القائمة على الغش والرشوة والخـــداع ، وتتغاضى هذه الشركات عن ذكر الاعراض الجانبية للادوية التى تبيعها ، والمضـــاعفات الخطيرة التى قـــد تنشأ عن منتجاتها ، وكثيرا ما تكون لها عواقب وخيمة ومميتـــة ..

وأشارت الدراســـات الى أن أربع شركات وحســـب من الشركات الـــ ١٥٥ هى التى تلتزم بأمانة العمـــل وأخلاقياته ، وذكرت أن الادوية المعروضة تتنوع بين علاجات للصداع والحمى ومهـــدئات وبين مضادات حيـــوية ، أو حبوب لمنع الحمل ..

قال المحرر : وبما أننا من أبناء العالم الثالث فان أســـواقنا سوف تبـــقى مجالا لهـــذه الانشطة المسمومة ، وسوف تبـــقى مستهلكة لمقادير ضخمة من أدوية الطالح فيها أضعاف الصالح ..

الحقيقـــة أن الامم الغربية لا تعـــدنا بشر مثلهم ، وأنهم ينظرون الينـــا باســـتهانة أو بازدراء ! .. ان كلمـــات الشرف

والاستعفاف والامانة ملغـاة فى معاملتنا ونحن المسئولون عن هذا السلوك المحقور ..

ومن دعا الناس الى ذمة ذموه بالحق وبالباطل !

ان قدرا كبيرا من الاموال العربية يذهب فى مطالب السرف ومظاهر الترف التى تسيطر على الخاصة والعامة ! ..

والغربيون يعلمون أن تقاليد الرياء الاجتماعى هى التى تحكمنا ، وعن هذا الطريق يستنزفون ثرواتنا ..

الصعلوك يخرج من بيته واضعا السيجارة فى فمه ، وبيته محتاج الى بعض الضرورات ، وحسبه ذاك من مخايل الرجولة ! والغنى يبعثر بيديه فى ميادين اللهو الحلال والحرام ، وهو يعلم أن أعداد لا تحصى من المسلمين قتلهم الجفاف أو استحوذ عليهم التبشير فكفروا بعد ايمان ! ..

وقد كنت أحيانا أنظر الى العمال والى الفلاحين العائدين من الجزيرة والخليج فأعجب لما يحملون من هدايا ! لقد أهدروا عرقهم المبذول فى أجهزة التليفزيون والفيديو ، وعادوا ليسهروا عليها مع الاصحاب ، مضيعين بسهرهم العشاء والفجر ! ومبتدئين بعدئذ نهارا لا بركة فيه ولا انتاج ..

لأدع هذا الاستطراد — وما منه بد — ولأسأل : هل التدخين مباح ؟ اننى لا اقدر على الحكم باباحته بعد ما قرأت عن أضراره المؤكدة ..

هل هو حرام ؟ قد يكون حراما على بعض الناس ! وقد يكون مكروها عند البعض الاخر ! ..

والغريب أننى قرأت لامرأة مدخنة : ان رائحة التدخين أخف من رائحة الفم الطبيعى ! فأيقنت أنها هى أو بعلها مرضى ! وأنهما يجب أن يذهبا الى طبيب يشفيهما بدل أن يحكما باباحة التدخين ، فقد قرر أطباء محترمون أن التدخين شديد الاضرار بالنساء ، وأنه قد يؤثر فى صحة الجنين ! ..

ان الرائحة الجميلة من شعائر الاسلام ، سواء كانت فى الجسم أو فى الملابس ، والرجل الكريه الرائحة ينبغى ألا يخالط الناس ، فان صلاة الجماعة تسقط عنه ، ولا أستطيع القول بأن رائحة الدخان حسنة !! ..

٨٢ ــ ما حكمة الزكاة ؟ وما نصابها ؟ ..

البخل عاهة قديمة فى الطبيعة البشرية ، ترجع الى حب المرء لنفسه وحرصه على مصلحته ، وارتيابه فى المستقبل ارتيابا يغريه بالادخار ، والجمع بعد الجمع ! ..

والدين لا يبغض للمرء نفسه ولا يزهده فى مصالحها ولكنه يرفض أن يتحول ذلك الى تجاهل للاخرين ، وفقدان للشعور بوجودهم وحقوقهم ! ولعل ذلك هو الفارق بين الانسان والحيوان ! ..

فالحيوان ما يتحرك الا وفق قوانين اللذة والالم ، انه يستقتل من أجل قوته أو قوت صغاره الذين هم امتدادا له ، والعالم فى عينه لا يتجاوز هذا النطاق ..

والانسان القريب من الحيوان يصبح ويمسى محصورا فى مآربه ومطالبه ، لا يفكر أبعد من ذلك فليحى هو ولتمت الدنيا كلها بعدئذ ..

وقد جاء الاسلام فخلع الفرد من هذه الاثرة ، وجعله جزءا من كيان مشترك او جسد واحد ، وأفهمه أن الايمان يقتضى محبة الاخرين والرحمة بهم واحترام مصالحهم ، وقد يقتضى الايثار والعطاء المبرأ من المن .

قال تعالى : « ومن يوق نفسه فأولئك هم المفلحون »(١) وقال : « وسيجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى »(٢) .

---

(١) التغابن : ١٦   (٢) الليل ١٧ ــ ٢٠

وعنـــد التأمل نجـــد أن حب المـــرء لنفسه ونسيانه لغيره يكمن وراء تشبعه مع جوع الاخرين ، وتطلعه الى مزيد مع فقدان غيره للضرورات المـــاسة ! ولم أعر فشيئا يورث الضغائن كهذا التفاوت ، أنه يحول الجماعة البشرية الى قطيع متوحش ! ..

ومحنة الدين فى المجتمعات التى تحولت الى المـــاركسية ـــ أتت من ذلك التفاو تالظالم ، والثوار ما كانوا حاقـــدين على الوجود الالهى قـــدر ما كانوا ضائقين ببطنة الكهان ومســـغبة البائسين ..

وقـــد رأينا القـــرآن الكريم يعـــد أولئك الهنـــة البطـــان هم السبب فى كفر الناس ! ويعتبر مسلكهم صـــدا عن ســـبيل اللـــه « ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلوا أموال النـــاس بالباطل ، ويصـــدون عن سبيل اللـــه ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل اللـــه فبشرهم بعـــذاب أليم »(١).

والكلام فى الزكاة فرع تنقيـــة الطباع من الشـــح ، وغرس الاخوة المتحابة المتراحمة المتكافلة ..

وقبل أن أعطى أحـــدا من مالى أنا باســـم الزكاة يجب أن أضمن للكادح ثمن عرقه ، وجزاء سعيه ! ..

لقـــد رأيت قاعدين يشركون الاخرين فى ربحهم تحت عناوين ما انزل اللـــه بها من سلطان ! رأيت الاعرابى يكفل عشرة من الناس ليستولى على نصف رواتبهم جميعا ! والاسلام برىء من هـــذا الجشع والغصب ! ..

---

(١) التوبة : ٣٤

ان دور الزكاة يجيىء بعـــد ارساء قواعد الحلال والحرام ، فاذا حـــدثت ثغرات فى المجتمع بعـــد تسييره وفق سنن عادلة فان الزكاة تمسح الالام ، وتنشر الرحمة والوئام ، ان الزكاة طهارة نفسية واجتماعية قبل أن تكون مساعدات مادية « خذ من أموالهم صـــدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم واللـــه سميع عليم »(١) ..

لم أعرف نظاما دينيـــا فى الاولين والاخــــرين اهتم بالزكاة والصـــدقة مثلما اهتم الاسلام ، وفى كتاب اللـــه وسنة رسوله آيات وحكم تحس معها كيف يريد الاسلام تعميم الخير واشـــاعة النعمة ومطاردة البأساء والضراء ، وجعل بسمة الرضا يصطبغ بها كل فم ! ..

من قـــديم والناس يكرهون استخراج المـــال من خزائنهم ، ويودون لو بقى لهم وحـــدهم ، بيـــد أن الاسلام يقاوم هـــذه الرغبة ، ويكسر حـــدتها ، واذا احتاج الامر الى مقاتلة أصحابها اعلن عليهم الحرب حتى يفيئوا الى أمر اللـــه ، وهكـــذا فعـــل الخليفة الاول ، فهل يتكرر ما فعل ؟ ..

عن الاحنف بن قيس قال : كنت فى نفر من قريش فمر أبو ذر رضى اللـــه عنه وهو يقول : بشر الكافرين برضف يحمى عليهم فى نار جهنم ، فيوضـع على حلمة ثدى أحـــدهم حتى يخـــرج من نغض كتفه ـــ أعلاه ـــ ويوضـع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه ، يتزلزل ، فوضع القوم رؤسهم فما رأيت أحدا منهم رجع اليه شيئا ! فأدبر ، فأتبعته حتى جلس الى سارية ، فقلت :

---

(١) التوبة : ١٠٣

ما رايت هؤلاء الا كرهوا ما قلت لهم ! فقال : ان هؤلاء لا يعقلون شيئا ! أن خليلى أبا القاسم دعانى فأجبته ، فقال : أترى أحدا ؟ فقلت : أراه ! فقال : ما يسرنى أن لى مثله ذهبا أنفقه كله الا ثلاثة دنانير ! ثم هؤلاء يجمعون الدنيا لا يعقلون شيئا » ..

وقد جاءت عن أبى ذر رواية أخرى تفسر ما نقلناه هنا قال : انتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال : هم الاخرون ورب الكعبة ! قلت : يا رسول الله فداك أبى وأمى ، من هم ؟ قال : هم الاكثرون أموالا ! الامن قال هكذا وهكذا ثلاث مرات من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ! وقليل ما هم ! ما من صاحب ! بل ولا بقر ولا غنم لا يؤدى زكاتها الا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه « تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها ، كلما نفذت أخراها عادت اليه أولاها حتى يقضى بين الناس » ..

وهذا الحديث يفيد اخراج الحقوق المعلومة ، والتيقظ الى كل خلل يقع فى المجتمع والمسارعة الى سده ، وهو ما قاله الله سبحانه « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وهذا الانفاق المطلوب لا يعنى أبدا أن يظل المرء ينفق حتى يفلس ، ويصبح مساويا لمن كان يعطيهم ! فهذا فهم سخيف ، وانما القصد قهر البخل واحسان المواساة ! عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال جاء رجل بمثل بيضة من ذهب ، فقال : يا رسول الله ، أصبت هذه من معدن فخذها فهى صدقة ، ما أملك غيرها ، فأعرض عنه رسول الله صلى

اللـــه عليه وسلم ، ثم أتاه من قبل ركنه الايمن فقال مثل ذلك ، فأعرض عنه ، فأتاه من قبل ركنه الايسر فقال مثل ذلك ، فأعرض عنه ، ثم أتاه من خلفه فقال مثل ذلك فأخـــذها صلى اللـــه عليه وسلم فحـــذفه بها فلو أصابته لأوجعته ، وقال : يأتى أحـــدكم بما يملك فيقول : هـــذه صـــدقة ! ثم يقعـــد يتكفف الناس ! خير الصـــدقة ما كان عن ظهر غنى ! ..

وانما شرحنا هـــذه القضية لأن البعض نسب الى أبى ذر أنه يحرم الكنز ، ويأمر بالنفقـــة حتى لا يبقى شيىء ! ..

هنـــاك حق معلوم قـــدر فى الســـنة الشريفة بربع العشر فى الاموال المدخرة وعروض التجارة ، وبنصف العشر فى المحاصيل التى يتكلف فيها أصحابها ، وبالعشر فى المحصـــولات السهلة . واختار فى الاراضى الزراعية المستأجرة أن تكون الزكاة بين المـــالك والمستأجر ، كما اختار القول بأن الزكاة فى جميع ما تخرجه الارض من حبوب وفواكه وثمار ..

وقـــد جـــدت فى ميادين المـــال أشياء تقتضى النظر فى أحكام الزكاة المتوارثة ، فان القواعد التى درسناها تجعل الوزير مثلا لا يخرج زكاة عن مرتبه الذى ينفقه فى بيتـــه ، ما دامت النفقـــة تستغرقه ! على حين توجب الزكاة على فلاح يزرع فدان شعير ، وتطالبه بحق الفقير يوم الحصاد ! كما أن أغلب الفقهاء القـــدامى لا يأخـــذون زكاة من فـــدان فاكهة يدر ألف جنيه ، ويأخـــذونها من فـــدان يدر ربع هـــذه القيمة ..

وقـــد لفت النظر من أربعين سنة فى أول كتاب ألفته الى هـــذا التفاوت المثير ، وتحـــدثت عما أسميته زكاة المـــال وزكاة الدخل ! وقـــد كان ذلك اشارة محـــدودة الى ما يجب عمله ،

لا سيما أن الزكاة ليست عبادة محضة يستحيل فيها التغيير ، بل هى عبادة مربوطة بحكمة ، وتترتب عليها مصالح متجـــددة ..

ثم جاء الشيخ يوسف القرضاوى فوضع كتابه فقـــه الزكاة الذى قلت : انه أهم كتاب الف فى هـــذا الركن الاسلامى منـــذ بدأ تاريخنا الثقافى ..

والواقع أنه يجب أن تقوم على عجل لجنـــة من الفقهـــاء والاقتصاديين تترجم المصطلحات القديمة الى مفاهيمها الحديثة ، وتبين كم تساوى عشرون مثقالا من ذهب ، ومئتا درهم من الفضة وخمسة أوسق من الحبوب ، وماذا يتركه التضخم من آثار فى قيم الانصبة ؟ ..

ان الزكاة عمل رائع فى ديننا العظيم ، وقـــد حصنت المجتمع الاسلامى من زلازل دكت غيره ، ولكن الامر يحتاج الى مزيد من الدرس والتطبيق الواعى ، وضبط الحقوق المعلومة ، وايصالها الى أصحابها بأشرف أسلوب .

٨٣ – ما العلاقة بين الاسراء وبنى اسرائيل ؟ ..

ليس من قبيل المصادفات العارضة أن تروى آية فذة قصة الاسراء ، ثم ينتقل السياق بغتة الى تاريخ بنى اسرائيل . وليس من قبيل المصادفات العارضة أن تسمى سورة الاسراء فى بعض المصاحف صورة « بنى اسرائيل » ! ..

بل اقول : أنه ليس من المصادفات العارضة أن يدخل صلاح الدين « بيت المقدس » ويسترده من الصليبيين فى السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣هـ بعد أن لبث فى أيديهم قرابة قرن : كأن الاقدار جعلت عودة المسجد الاقصى الى المسلمين فى ذكرى احتفالهم بالاسراء اشارة الى ان المسجد الذى ورثه الاسلام يجب أن يبقى له ، وأن العلاقة بين أولى القبلتين وأخراها لا تنفصم ، وأنه لا الصليبية قديما ولا الصهيونية حديثا ستغيران سنن الله فى مصاير الامم ، وان نجحت كلتاهما الى حين فى الحاق هزيمة بالمسلمين ! ..

ونعود الى ما بدأنا به كلامنا ..

قال الله تعالى :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا أنه السميع البصير »(١) .

---

(١) الاسراء : ١

وعقب هـــذه الاية مباشرة نقــرأ قوله تعالى :

« وأتينـــا موسى الكتاب وجعلنـــاه هـــدى لبنى اسرائيــل الا تتخـــذوا من دونى وكيلا ! »(١) .

ما العـــلاقة بين الاسراء ، وانزال التوراة وتاريخ اليهود ، ثم حكاية مفاسدهم والتعليق عليها ، وتبصير المسلمين بعواقبها ؟؟

ان الاسراء كان من مكة الى القـــدس . ولليهود فى هـــذه البقاع تاريخ ! ..

صحيح أنه لم يكن لهم وجود فى فلسطين يوم وقع الاسراء ، بل كان وجودهم فى فلســـطين محظورا . لكن وجودهم الســـابق لا ريب فيـــه ..

وانتهاء هـــذا الوجود ثم حظره يحتاج الى تفسير ، وهـــو ما اشارت اليه الاية وما بعـــدها فى صـــدر سورة الاسراء ، وهو ما أريد الان متابعته من الناحية التاريخية ..

كان الكنعانيون يسكنون فلسطين قـــديما وهم سلالات عربية كاخوانهم العدنانيين والقحطانيين ، ويظهر انهم تجبروا . وأثاروا الرعب حيث يعيشون ، وأراد اللـــه تأديبهم على مفاســـدهم ، فسلط عليهم بنى اسرائيل . وقـــد وجل الاسرائليون أيام موسى من التعرض للكنعانيين ، وغلبهم الجبن ، ورفضوا الزحف الى فلسطين قائلين لموسى : « أن فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها

---

(١) الاسراء : ٢

حتى يخرجوا منها » .. فلما ألح عليهم قالوا مرة أخرى « لن ندخلها أبدا ما داموا فيها » ! ..

وعوقب الاسرائيليون على جبنهم بالتيه فى سيناء أربعين سنة مات خلالها موسى ، ثم خلفه يوشع الذى قاد بنى اسرائيل الى فلسطين منتصرا على الكنعانيين ، وبانيا حكما دينيا باسم التوراة بعد هزيمة العرب ! ..

بيد أن اليهود لم يلبثوا طويلا حتى نجمت بينهم علل خلقية واجتماعية بالغة السوء ، زادوا بها شرا على من كان قبلهم ! وقد حكوا عن أنفسهم ، وحكى القرآن عنهم ما يستحق التأمل ، فقد اقترفوا رذائل جعلت القدر يحكم بطردهم من فلسطين شر طردة ، وبدا أن السلطة فى يدهم تعين على الافتراء والاعتداء الى حد بعيد ، فليسوا لهابأهل ! .. ينبغى تجريدهم منها ! ..

وكانت فلسطين — حتى بعد قدوم اليهود — مليئة بأجناس أخرى ، وكان المسلك المستحب لبنى اسرائيل تحقير هذه الاجناس والنيل منها بأسلوب غريب ! فقد زعموا أن « البنعميين » من أصل لا يمكن أبدا أن يرتفع ، كيف ، قالوا : أنهم سلالة « لوط » لما سكر وزنى بابنته »! .. وكتبوا ذلك فى فى سفر التكوين !! ..

والقصة يقينا مكذوبة ، فأنبياء الله لا يسكرون ولا يزنون !!

ثم جاءوا الى الكنعانيين العرب ووصفوهم بأنهم كلاب ! وقد امتد هذا الوصف حتى ذكر فى العهد الجديد فقد لقيت امرأة كنعانية عيسى وهو يدعو فى بيت المقدس ، وصاحت به : يا سيد يا ابن داود ، بنتى مريضة جدا ..

وطلبت منـــه شفاءها ! ..

فقال لها : اذهبى يا امرأة فان طعام البنين لا يرمى للكلاب .
يعنى بالبنين : بنى اسرائيل ، وبالكلاب : الكنعانيين ..

فقالت المحزونة : والكلاب أيضا تأكل تحت أقدام السادة ! .
فشفى لها ابنتها بعـــد هـــذه الضراعة الذليلة ! ..

ونحـــن نجزم بأن الانســـان الرقيق الرحيم عيسى بن مريم يستحيل أن يسلك هـــذا المسلك ، أو يرسل هـــذه الشتائم ! لكنهم اليهود الذين تخصصوا فى تجريح الانبياء واهانة الشعوب ! ومن ثم نفهم قول القـــرآن فيهم :

« .. أولئك الذين حبطت اعمالهم فى الدنيا والاخرة وما لهم من ناصرين » ..

أيكفى فى معاقبة بنى اسرائيل ان يطردوا من فلسطين ؟ ..

لا .. ان اللـــه عزلهم نهائيا عن القيادة الدينية التى كانت لهم ، وحرمهم من الوحى وشرف ابلاغه ، واصطفى الامة العربية لتقوم بهـــذه الامانة ، وكانت ليلة الاسراء والمعراج التصـــديق الحاسم لهـــذا التحول . فقـــد انتقلت الرسالة من بنى اسرائيل الى بنى اسماعيل ، واصبحت الامة العربية لا العبرية هى الوارثة لهـــدايات السماء ! ..

ونهض الاسلام بالعرب نهضة رائعة ، وجعـــل منهم حملة حضارة زاهية ، وفوجىء العالم بالامة التى لم تعرف الا رعى الغنم

ونقل السلع ، تتلو من كتابها أصح العقائد وأحكم الشرائع وأشرف التقاليـــد ..

كان دريد بن الصمة يصف نفسه وقومه وعلاقة العرب بعضهم ببعض فيقول :

يغـــار علينا واترين فيشتفى بنـــا
ان اصــبنا أو نغــــير على وتر
قسمنا بذاك الدهـــر شـــطرين بيننا
فما ينقض الا ونحـــن على شــــطر

وها هم العرب بالاسلام يعلمون الناس السماحة والاخـــوة والتعاون على البر والتقوى حتى قال « غستاف لوبون » : ان العالم لم يعرف فاتحا أرحم من العرب ! ..

وكان دخول المسلمين بيت المقـــدس أيام عمر بن الخطاب آية من آيات التواضع للـــه والبر بالناس ..

ثم كان دخولهم بيت المقـــدس أيام صلاح الدين آية من آيات السماحة والعفو والمرحمة ..

أما الامة العبرية فقـــد خطت لنفسها طريقا آخر ، لقـــد هبت على اليهود عاصـــفة غضب بعثرتهم فى أرجـــاء الارض . فتوزعتهم المـــدائن والقرى فى المشارق والمغارب ، بيـــد أنهـــم حيث ذهبوا كان لهم فكر واحـــد ونهـــج ملحوظ ، يزعمون أنهم شعب اللـــه المختـــار ، ومع هـــذا الزعم فانهم نسبوا الى اللـــه ما لا يليق بجلاله ، ونســـبوا الى رســـله ما لا يليق بشرفهم : واستباحوا لانفسهم الربا وأكل مال الناس بالباطل ..

وتقوقعوا فى حاراتهم يحلمون بالعودة الى الارض التى طردوا منها بسوء خلقهم مع اللــه والناس ..

والغريب أنهم جعلوا أمالهم هــذه وحيا يتلى ، وأودعوها صحائف كتبهم وكأن اللــه هو الذى أنزلها عليهم !! .. وقـد تضايق النصارى من مزاعمهم وأعمالهم لا سيما أنهم هم الـذين سعوا فى قتــل عيسى ! ..

واذا كنا على عكس النصــارى نعتقــد أن عيسى نجا من مؤامرتهم فالقوم على أية حال قتلة بضــمائرهم . ومن ثم شرع النصارى حكاما وشعوبا فى اضطهادهم وارخاص دمائهم ..

وعرضت لهم مآس فى أنحاء أوربا كادت تنتهى بابادتهم حتى قال نفــر من المؤرخين : لولا ظهور الاسلام لفنى اليهود ! أنهم وجــدوا فى أرضه الفسيحة وسماحته الممتدة ما أبقى حياتهم !! .

ومن المؤرخين من يرى اليهود مسئولين عما نزل بهم من آلام، فأثرتهم الشديدة ، وشرههم فى حب المــال ، وقلة اكتراثهم بقضايا الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها كل ذلك جعل القلوب تنطوى على بغضهم . وقــد كان « هتلر » الحلقة الاخيرة فى سلسلة طويلة من الحكام الذين أذلوهم فى طول أوربا وعرضها ..

ومرت السنون ثقيلة طويلة ، وظهرت الخلائق المستورة ، أو نبتت ونضجت البــذور الكامنــة ! ..

كان المسلمون يغطون فى نوم عميق ، وكانت الدنيا من حولهم تتحرك بحقــد مشبوب وتطالب بثارات قــديمة .

كان يحلوا للمسلمين أن يتحــدثوا عن الرحلة الجوية بين المسجد الحرام والمسجد الاقصى وســدرة المنتهى ! ولا بأس أن

يقولوا شعرا ونثرا ! .. أما الدرس الواعى للامم التى توارثت فلسطين ، وأسرار ازدهارها واندثارها فقلما يفكرون فى ذلك . وربما لا يخطر لهم ببال أن هـــذه الامم تفكر فى العودة ، وتحسن استغلال الفرص ..

فلما جاء العصر الحـــديث انكشـــف الغطـــاء عن مفارقات مذهلة . انكشف عن تعصب يهودى شـــديد النبض ، وعن تأييد حار له من رجال الكنيسة وأغلب الساسة .. أما العرب فقـــد قيل لهم : احلموا بانسانية عامة متجردة عن الهوى ، نؤازركم فى المحافل الدولية ، وتعـــدل بينكم وبين خصومكم !! ..

واســـتكان النوام للاحلام فما صـــحوا الا على المـــذابح تحصـــدهم رجالا ونساء ، والتسميم يجتاح الطلاب والطالبات . والغيوم تســـد الافاق كلها أمام مستقبل معقول ..

ما الذى حـــدث ؟ ..

ندع الجواب لغيرنا ! ..

ندعه لخصومنا ونتـــدبر ما يقولون ..

كتب « حاييم وايزمان » فى مذكراته يقول لقومه : تحسبون أن لورد « بالفور » كان يحابينا عنـــدما منحنا الوعد بانشاء وطن قومى لنا فى فلسطين ؟ .. كلا ، ان الرجل كان يستجيب لعاطفة دينية يتجاوب بها مع تعاليم العهـــد القـــديم !! ..

... وندع « وايزمان » و « بالفور » ، ونتـــدبر تصريحات مستر « كارتر » ومن بعـــده ! ..

انهم جميعا يتحـــدثون مع « بيجن » عن أرض الميعـــاد ، وعن نبوءات التوراة والحـــدود التى رسمتها ! ..

ان المشاعر الدينية الغائرة فى العقل الباطن والظاهر هى التى جعلت جنرال « جيرو » يقول فى دمشق أمام قبر صلاح الدين : ها نحن قـــد عدنا يا صلاح الدين ! ..

وهى نفسها التى جعلت مارشال « اللنبى » يدخل القـــدس فى الحرب العالمية الاولى ويقول : الان انتهت الحروب الصليبية .

يظهر أن العـــالم كله شـــديد الاحســـاس بعقائده وآماله الدينية الا قومنـــا وحـــدهم ، فانهم يتذاكرون بينهم أن الـــدين رجعيـــة !! ..

ان قضية بيت المقـــدس وفلسطين منـــذ فجـــر التـــاريخ الى قيام الساعة قضية دينية عنـــد أصحاب الرسالات السماوية جميعـــا ، فكيـــف يتجرأ البعض على جعلها قضـــية قوميـــة أو اقتصـــادية ؟ ..

المسلمون يرون المسجد الاقصى يذكر فى سياق واحـــد مع المسجد الحرام والمسجد النبوى ، ويرون الدفاع عنـــه جزءا من الايمان ، ويعترضون باسم اللـــه ورسوله جهود اليهود لهـــدمه واقامة الهيكل فوقه ! ويعـــدون هـــذه الجهود جريمة ضد الاسلام والالف مليون مسلم الذين يعتنقونه ! فكيف يتجاهل هـــذا ؟ ..

والنصارى يرون بيت المقـــدس قبلتهم ، وبه قبر المسيح ، وقـــد جعلوا مفاتيح كنيسة القيامة بأيدى المسلمين لانهم أمنـــاء عليها ، وحماة لها ، ولرفع التنازع الطائفى بينهم على حيازتها ! .

واليهود يرون أن هــذه الارض منحها اللــه ابراهيم الخليل وذريته من بعــده وزعموا أنهم هم الذرية المعينة(!) وأن طردهم منها لعصيانهم وقتلهم الانبياء لا يمنع من العودة اليها وطرد العرب منهـا ! ..

فاذا كان الدين وراء كل دعوى ، فكيف جاء من أسـموا أنفسهم العروبيين ، وجردوا العـرب من ولائهم الاسـلامى ، وأغروهم بجعل القضية صراعا جنسيا أو نزاعا « امبرياليا » وغير ذلك من الاوصاف المكـذوبة ؟ ..

وعنـدما يفقـد صاحب البيت عاطفته الدينية ويهجم اللص بهـذه العاطفة المهتاجة فماذا تكون النتيجة ؟ ..

ان اليهـود اغتصبوا نصف مسجد الخليل ، ويتآمرون على اغتصاب بقيته ، والاخبار تترى — وأنا أكتب هـذه السطور — ان مساجد شتى فى يافا وعكا نسفت ، وأن ترويع الطلاب العرب فى مدارسهم بمحاولات التسميم مستمر حتى يترك العرب الضـفة الغربية ، وقطاع غزة ، أو كما يعبر اليهود « يهوذا أو السامرة » احياء لعناوين التوراة ! .

اننى أتساءل : ماذا وراء تجـريد فلسطين من صـبغتها الاسلامية الا الضياع ؟ ..

نحن نحتفى بالبقعة التى انتهى اليها الاسراء ، وبدأ منها المعراج ، ونريد أن يسأل العرب أنفسهم : لمـاذا لم يكن المعراج من المسجد الحرام الى سدرة المنتهى مباشرة ؟ ان الاجابة تعرف

من الايات التى أعقبت قصة الاسراء فى سورتها المباركة ، كما تعرف من دراسة التاريخ القديم والوسيط والحديث ! ..

فى هذه الارض قامت رسالات وانتهت ، وفيها نهضت دول وتلاشت ..

ثم ورث المسلمون بيت المقدس باسم الله ..

ولو انك قرأت أحوال أمتنا أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين لظننت أنك تقرأ أحوال المسلمين فى هذه الايام العجاف ! ..

ان الصليبيين القدامى تقدموا فى فراغ ! ..

كانت الفرقة بين العرب والمنافسة على السلطة هى الاسلحة التى هزمنا بها أعداؤنا ، ولو اشتبك المسلمون مع الهاجمين فى أية معركة جادة ما سقطت فلسطين ..

وكأن التاريخ يعيد نفسه ، ان الصهيونيين تقدموا فى الفراغ نفسه ! .

أعانتهم الفرقة ، والشهوات المطاعة ، والعقائد المنحلة ، والانانية الطاغية ، فكسبوا معركتهم بأيدينا ..

أريد — كلما استقبلنا ذكرى الاسراء — أن نتجاوز الهامش الى الصميم ..

أن نترك السرد السطحى للقضية ..

أن نعمق النظر فى الاسباب التى من أجلها كان الاسراء .. ولاجلها قامت للعرب دولة تحمل الرسالة الاسلامية ، وتضع الموازين القسط بين الناس .

٨٤ ـ لماذا كانت قبلة العالم فى ارضنا ؟ ..

قبل بضعة أسابيع من معركة بدر وقع حدث له دلالاته العميقة فى صلة المسلمين بأهل الكتاب . فقد كان بيت المقدس القبلة التى يتجه اليها أصحاب الاديان السماوية جميعا .

ثم صدر الامر الى المسلمين أن يتحولوا من بيت المقدس الى مكة المكرمة ! ..

ما سر هذا التحول ؟ ..

الواقع أن أهل الكتاب ما كانوا سعداء بالدين الجديد ! ولا فهموا من وحدة القبلة أن قرابة مشتركة تربطهم بأتباعه !

الذى حدث أنهم ضاقوا أشد الضيق بالنبى العربى ، وعدوه منافسا محذورا كأن الامر صراع على مغنم عاجل ، أو مأرب قريب ! .

ولو كان أهل الكتاب مخلصين لأديانهم لكان لهم موقف آخر ، فان العرب كانوا عباد أصنام ! حتى عرفهم محمد بالاله الواحد . وكانوا يعيشون ليومهم حتى أقنعهم بالعمل الاخر . وكانوا لا يدرون شيئا عن نبوة سبقت حتى حدثهم عن موسى وعيسى وغيرهما من المرسلين ! ..

فلم الضيق بهذه الرسالة ؟ ومخاصمة صاحبها ؟ ..

بيد أن الامر تجاوز الخصومة المحتملة الى ضرب من اللدد يثير الاشمئزاز . تدبر قوله تعالى :

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعـــد ايمانكم كفارا حســـدا من عنـــد أنفسهم من بعـــد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتى اللـــه بأمره »(١) .

واذا كانت للمسلمين مساجـــد تنبعث من منائرها صيحات التوحيد وتستقبل ساحاتها الركع السجود ، فان أهل الكتـــاب تواصوا بصرف الناس عن هـــذه المساجد ، وتآمروا على تهديمها **« ومن أظلم ممن منع مساجد اللـــه أن يذكر فيها اسمه وســـعى فى خرابها »(٢) .**

فلم يبق بعـــدئذ مساغ لمشاركة هؤلاء الحاقـــدين قبلتهم ، وانبعث فى نفس الرســـول الكريم الرغبة فى الاتجـــاه الى القبلة الاولى ، الى الكعبة التى بناها جـــده الاكبر ابراهيم الخليـــل ، ولكنـــه لا يستطيع ذلك الا باذن من اللـــه ، فلينتظر ، وليؤمل !.

ثم جاء — على تلهف وشوق — الامر الالهى « قـــد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شـــطر المسجد الحرام »(٣) . فاتجه المسلمون الى الكعبة المشرفة بعـــد قـــرابة سبعة عشر شهرا من الصلاة الى بيت المقـــدس .

كانت هـــذه المـــدة كافيـــة لفضح ضغائن اليهود ، وأثرتهم المفرطة ، وظنهم أن الدين مؤسسة احتكارية يديرها حكماء صهيون كمصلحة جنس من الاجناس ، أنهم لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا أن الدين علاقة سمحة رحبة بين الناس ورب الناس .

---

(١) سورة البقرة : ١٠٩

(٢) البقرة : ١١٤ (٣) البقرة : ١٤٤

وقد بدا لى من تجارب كثيرة أن المتاجرين بالحق قد يكونون شرا من المخدوعين بالباطل ، وأن العرب الاميين كانوا — بنقاء سرائرهم — أصلح للحياة والاحياء من أهل الكتاب المستكبرين الشرهين ..

كان أولئك العرب يعتزون بكعبتهم ، ويرغبون طول عمرهم فى استقبالها ، وهم لم ينسوا أن الله حماها عندما أراد نصارى الحبشة هدمها ! وان قوى السماء هى التى تصدت للمغيرين لما عجز أهل الارض عن الدفاع ، فاذا الجيش المعتدى يلقى « طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول »(١) ..

مع ما كان للمسجد الحرام من هذه المكانة الوطيدة ، فان الصحابة قبلوا عن طيب خاطر ترك استقباله لما هاجروا ، ولبوا أمر الله باستقبال بيت المقدس ! .

كان امتحانا صعبا غير أنهم نجحوا فيه « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله »(٢) .

وعندما يحتدم النقاش حول القبلة التى يتجه الناس اليها يذكر الاسلام حقائق رفيعة ، يلقيها فى مسامع كل من ينتسبون الى دين ! حقائق لا يقررها الا الاسلام وحده ! انه يتساءل : ما هذا اللغط حول الاتجاه الى شمال أو جنوب ؟ ..

---

(١) سورة الفيل   (٢) البقرة : ١٤٣

ان الكمال البشرى لا يصنعه استقبال مكان هنـــا أو مكان هناك ! الكمال المنشود عمل حقيقى داخل النفس الانسانية تزكو به وتســـمو ..

العظمة الانسانية ، هى اليقين الراسخ والاستمساك باللــه وان هاجت العواصف ! وبذل المعروف واجابة الملهوف ، ومساندة الضعفاء وايتاء المحرومين ! ..

وهى الثبات على المبـــدأ وان كثرت المغريات ، والمضى فى الجهاد وان فدحت المغارم ! ..

ان اتجاه المسلمين الى المسجد الحرام فى صلواتهم حق لا ريب فيـــه ، وهى قضية تنظيمية سنشرح بعـــد قليل أبعادها ، بيـــد أن ذلك لا يعنى نسيان الحقيقة فى الوصول الى الكمال الانسانى والرضوان الالهى ، وتدبر قوله تبارك اسمه :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المـــال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب واقام الصـــلاة وآتى الزكاة والموفون بعهـــدهم اذا عاهـــدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البـــأس أولئـــك الذين صـــدقوا وأولئك هم المتقون »(١) ..

ان اليهود يلتمسون الشرف من الانتساب الى نبى اللـــه يعقوب ! والاب العظيم لا يرفع شأن بنيه اذا كانت أعمالهم هابطة !

---

(١) البقرة : ١٧٧

وهم يرتبطون بالقدس والارض المقدسة ، والارض لا تقدس أحدا ، انما يتزكى المرء بالهدى والتقى والعفاف والعدالة !.

والخلاف بين الناس باق الى قيام الساعة ، أنه جزء من طبيعة الحياة ، وهو بعض الحكمة فى خلق الناس ! ..

لكن الخلاف مهما اتسعت شقته لا يجوز أن يكون مثار عدوان وتظالم ، ولا يجوز أن يجعل الحيف حقا ، ومن ثم قال الله لنبيه :

« ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين »(١) .

والجملة الاخيرة فى الاية الكريمة تشير الى خصائص أمتنا ، والى الرسالة التى كلفت بحملها الى آخر الدهر ..

ان العرب عندما يحملون للناس حضارة فهذه تنفرد بأنها موصولة بالسماء ، تعرف الله ، وتلتزم هداه ، وترفض الفلسفات المادية ، والرغبات المجنونة فى عبادة الحياة ونسيان ما بعدها ..

وقد شاء الله أن يذكر للعرب وظيفتهم الدولية ، عندما جعل قبلة العالمين فى أرضهم وعندما طالب البشر فى كل مكان أن يولوا وجوههم شطر المسجد الحرام ! ..

---

(١) البقرة : ١٤٥

فما معنى هــذا ؟ ..

اذا قيل : أن موسكو قبلة الشيوعيين فى العالم ، فليس معنى ذلك اتجاه اليساريين الى جـدار فى « الكرملين » ! بل المعنى أنهم يستقون أفكارهم ويتلون توجيهاتهم من هناك ! ..

والواقع أن القــرآن الكريم فى سياق تحـديده للقبلة قال للعرب فى جلاء : « وكـذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شـهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »(١) . والاية توضـح الوظيفة التى اختارها القـدر لأمتنا ، فان اللـه اختار محمـدا ليحمل أمانات الوحى ، وليكون بسيرته وسنته أسوة حسـنة ! . وقـد تلقى العرب ذلك منه ليعلموا الناس كما تعلموا ، وليهدوهم كما اهتـدوا ، أو ليكونوا أساتذة للعالم كما كان محمـد أستاذا لهم ! . تلك وظيفتهم التى رفعهم اللـه اليها ، والتى لابد من حسابهم عليها ..

والشهادة على الناس منزلة فوق التبليغ العادى ! قـد يكون المـرء شاهدا فى قضية لا علاقة له بوقائعها ، كل دوره فيها أنه يقول الحق ، فهل هـذا دور الامة العربية فى تاريخ البشرية ؟ كلا ، ربما تحول الشـاهد الى متهم اذا تبين من التحقيق أن له أصابع فى وقوع الجريمة !! ..

والعرب مذ حملوا رسالة الاسلام وجب عليهم أن يستنيروا بها وأن يرفعوا منارها ، وأن يستطبوا بأدويتها ، ويعالجوا علل العالم بدوائها ، فمسئوليتهم مضاعفة . الرسول أمام اللـه يشهد

---

(١) البقرة : ١٤٣

بأنه علمهم من جهالة ، وأقامهم من عوج ، وهم أمام اللـــه كـــذلك مطالبـــون بالشـــهادة على سكان الارض ، انهم بلغوهم الوحى الاعلى وقـــدموا من أنفســـهم نماذج عمليـــة للتقوى والاصـــلاح والانصاف ! ترى هل قام العرب بهـــذه الامانات ؟ ..

ان رباط العروبة بالاسلام وثيق ، وهـــذا الرباط وحـــده هو الذى يجعل العرب أمة قائدة رائدة فاذا وهت صلتها به ، فهى تخون أساس وجودها ، وهى ستتحول حتما من رأس الى ذنب ! أو من أمة تدفع غيرها نحو الخير ، الى أمة يدحرجها الاخرون الى الشر أو الى الهاوية ! .

وقـــد تأكـــد هـــذا المعنى مرة أخرى فى سياق تحويل القبلة من المسجد الاقصى الى المسجد الحرام وذلك فى قوله تعـــالى :

« ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحـــرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس حجـــة »(١) .

أى حتى تنقطع حجج العرب الحراص على كعبتهم الضائقين بالاتجاه السابق الى بيت المقـــدس ! أما أهل العناد والمتشبثون بالجاهلية الاولى ، فلا تخافوهم ، فأمرهم الى أدبار ونارهم الى رماد .. « الا الذين ظلموا منهم فلا تخشـوهم واخشـون ، ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتـــدون »(٢) .

---

(١) البقرة : ١٥٠ .   (٢) البقرة : ١٥٠ .

أى أن اللـــه باختياره المسجد الحرام قبلة لكل مصل فى الدنيا ، يضاعف على العرب منته ، ويتم عليهم نعمته .. وقـــد بدا الانعام عليهم بانبعاث الرسول منهم « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم أياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون »(١) .

والمعنى أن العرب بهـــذا الدين أضحى لهم تاريخ جـــديد ، وافتتحوا به صفحة مجـــد باذخ ما كان لهم به عهـــد من قبل ، ذلك أنهم يتلون أيات الحق ، ويمهـــدون طريق التربية الفاضلة ، ويخطون معلم الحكمة والرشـــد ، فليعرفوا اللـــه حقـــه وليقدروه قـــدره « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون »(٢) وهكذا يخاطب اللـــه العرب ويشرح لهم ما أســـدى اليهم من جميل ! فهل نذكر ونشكر ؟؟ ..

والانبياء شهود على أممهم بالبلاغ المبين ، وقد كان رسولنا صلى اللـــه عليه وسلم وهو يخطب الناس فى حجة الوداع يقول : اللهم قـــد بلغت .. اللهم أشهد ! ..

وهناك قبل شهادة الانبياء مواثيق الفطرة التى أخذها اللـــه على أبناء آدم . ان اللـــه أودع فى كل ضمير صوتا يذكر باللـــه ويدفع الى صراطه المستقيم ، ويقاوم التقاليـــد المنحرفة والاصوات الزائفة ، وما من انسان الا هو مسئول عن هـــذا الميثاق : « واذا أخـــذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ! أن تقولوا يومالقيامة انا كنـــا عن

---

(١) البقرة : ١٥١ (٢) البقرة : ١٥٢

هـــذا غافلين . أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعـــدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ »(١) .

ويتضـح من ذلك أن العـــدل الالهى يستظهر على كل مخطىء بشاهـــدين من العقل والنقل ! ومع ذلك ، فان ناسا يوم الحساب سيحاولون بالكـــذب الافلات من مصيرهم ! ..

مشركون يقولون : « والله ربنا ما كنا مشركين »(٢) ودجالون مرنوا على الاحتيال والمخـــادعة فى الدنيا يحـــاولون فى الاخرة أن يقوموا بالدور القـــديم « يوم يبعثهم اللـــه جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء الا أنهم هم الكاذبون »(٣) .

وهيهات أن يجـــدى هـــذا التملص مهما صاحبه حلف ! ..

ولمـــا كان محمـــد صلى اللـــه عليه وسلم شـــهيدا على العرب فسيجاء به يوم القيامة وبالكتاب القيم الجامع الذى بلغه ، وسيرى عنـــدئذ من وفى ومن غـــدر ؟ بل من آمن ومن كفر ؟ قال اللـــه سبحانه :

« ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنـــا بك شهيدا على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمـــة وبشرى للمسلمين »(٤) .

---

(١) الاعراف : ١٧٢ ، ١٧٣
(٢) الانعام : ٢٣
(٣) المجادلة : ١٨
(٤) النحل : ٨٩

أننى أحببت أن أشرح هـــذه القضية لان العرب من أمـــد قريب أو بعيـــد سرعوا ينسون أو يتناسون رسالتهم ! بل بدا لهم أن يستقيلوا من الوظيفة الشريفـــة التى آثرهم اللـــه بهـــا أو اصطفاهم لهـــا .

وسمعنا من يقول فى جهل فاضـــح : أن العـــروبة شىء ، والاسلام شىء آخر ! وأن العروبة يمكن أن تشق طريقها بغـــير دين الى مستقبل مكين ! ..

وقـــد استجاب نفر من الاغرار لهـــذه الفرية ، فاذا الامة المسكينة تتراجع فى كل ميـــدان ، وتلاحقها الهزائم الشائنة فى كل أفق ، ولولا بقايا ايمان مبثوثة هنا وهناك لحل بها خزى الابد ، ولكنها تقاوم اليوم ببأس شـــديد معتمـــدة على مواريث الاسلام وحـــده .

هل للعرب فى قـــديم الزمان وحـــديثه رسالة أخرى غـــير الاسلام يمكن أن يؤدوها للعالم ؟ ..

ان لمحمـــد كتابا وسنة قامت عليهما دولة وأينعت حضارة ! وتصـــدرت قافلة البشرية أمة تعتز بها وتبنى عليهما ، فماذا لغيره فى الاولين والاخرين ؟ وما قـــدر العرب من غير محمد والاسلام ؟ .

قال شخص غر : وهل ضرورى أن تكون لأمة ما رســـالة سماوية حتى تقتعـــد مكانة مرموقة فى العالم ؟ .. ما أكثر الشعوب التى استراحت واستقرت برسالات أرضية !! ..

قلت : هـــذا الكلام قـــرة عين الاستعمار والصهيونية !

انهما يريدان أكثر من تجريد المسلمين من عقائدهم وتاريخهم حتى يقفوا أمام أعدائهم عزلا من كل سلاح فعال .

وعندما يفقد عرب فلسطين أساسهم الدينى أمام أتباع التوراة فستضيع فلسطين ! ..

وعندما يزهد غيرهم فى معتقداته الاسلامية فسينطلق التبشير العالمى دون عائق وتكسب الصليبية جولتها الجديدة .

لا بل ان الوثنية التى ذبحت المسلمين فى « أسام » ستقطع شوطا أوسع فى الاجهاز على مبدأ التوحيد ! ..

ان تحقير الثقافة الاسلامية وتوهين أركانها لابد أن ينتهى بهذه النتائج ! ..

أما يحق لنا ان نحصن الاجيال الجديدة ضد هذه الخيانات الفكرية والاجتماعية ؟؟ ..

٨٥ ــ هل من تكريم المــرأة اباحة التعــدد والطلاق ، وجعلهــا نصف الرجل فى الميراث والشهادة ؟ ..

فى قضية تعــدد الزوجات أريد أن أسأل أولا : هل الاسلام مبتــدع التعــدد مخالفا بذلك الأديان التى سبقته ؟ ان الاديان كلها ، وثنية أو سماوية أباحت التعــدد فلماذا يسأل الاسلام عنه ويؤاخــذ به ؟ ..

ليس فى العهــد القــديم حظر على تعــدد الزوجات ، وقد جمع سليمان الحكيم ــ صاحب نشيد الانشاد العامر بالغزل ــ الف امرأة فى بيته بين حرائر وآماء ! ..

وليس فى الاناجيل التى كتبها تلامذة عيسى عليه الســلام حظر على التعــدد ! ان التحريم الذى وقع بعد ذلك كان تشريعا مدنيا لا دينيا ، أو كان كنسيا يعتمد على الاجتهاد لا على النص !.

قــد يقال : فليسع الاسلام ما وسع الاديان قبله ، وليحرم التعــدد !! ..

وهنا لا أجــد مناصا من توجيه سؤال آخر ؟ هل اكتفى كل رجل ، أو أغلب الرجال ، بما لديهم فلم يتصل أحــدهم بأخرى ؟ بل أسأل الرجال الذين تظلهم حضارة الغرب فى عدة قارات : ألم ينشئوا علاقات متصلة طويلة الامد أو قصيرته بأعداد كبيرة من النساء الاخريات ؟ ..

لمــاذا يراد قبول المــرأة الاخرى خليلة لا حليلة ؟ لمــاذا يرمى ابنها لقيطا ، أو ينشأ زنيما ، ولا ينسب لابيه الحقيقى ؟ ..

اننى أتهم اخواننا أهل الكتاب بأنهم استهانوا بمقاييس الحل والحرمة ، وأنهم اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله ، وأنهم — من الناحية الجنسية استباحوا الاعراض واجتاحوا الفروج ويسروا الشذوذ ومهدوا لمناكر ما عرفت بهذه الوفرة الا فى حضاراتهم المادية الموغلة فى الاثم ! ..

أيعنى ذلك أنى أدافع عن تصرفات سيئة ارتكبها المسلمون باسم التعدد ؟ كلا لقد عدد من لا يعدل ، وهذا مرفوض ! بل عدد من لا يستطيع الانفاق على واحدة ! وهذا مرفوض ! .

ان التعدد جائز بشروطه المادية والادبية فاذا لم تتوفر هذه الشروط فلا تعدد ..

وحل المشكلات الاجتماعية من هذا النوع يرجع الى يقظة القلوب وسلامة الاخلاق قبل أن يرجع الى سطوة القانون ، ومكاسب النساء من التعدد والحالة هذه — ليست أقل من مكاسب الرجال ! ..

أما اباحة التطليق للرجل فأحب أن أضع بين يديه هذه الروايات ، قال رجل لعمر بن الخطاب : أريد أن أطلق امرأتى ! فقال له عمر : لم ؟ قال : لا أحبها ! فقال له عمر : أو كل البيوت بنى على الحب ؟ .. فأين التذمم والوفاء ؟ ..

ويشبه هذا ما رواه ابن مردويه أن أبا أيوب أراد طلاق أم أيوب ، فاستأذن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال أنس : فقال له الرسول : ان طلاق أم أيوب لحوب ! — أى اثم فكف عن مراده وأمسك امرأته ..

وقـــد **روى مثل ذلك من طريق** آخر ، **أراد أبو** طلحة أن يطلق أم سليم امرأته ، فقال النبى صلى اللـــه عليه وسلم : « ان طلاق أم سليملحوب » فتراجع الرجل عن مراده ..

وقـــد يكون الاصل فى هذا الامساك قوله سبحانه وتعالى :

« فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ان اللـــه كان عليا كبـــيرا »(١) ..

ان الحياة الزوجيـــة أشرف من أن تعصف بها أزمة عابرة أو غيمة عارضة ، وما بين الزوجين من وشـــائج لا يرخصـــه الا لئيم ..

بيـــد أن سياج الاسرة لا يقيمه الا الخلق الزكى والاسر التى يمسكها القانون هى أسر على الورق وحســـب ، وقـــد ســـئم الاوربيون هـــذا الخـــداع واضـــطروا الى الاعتـــراف بالواقـــع المرير ، فأباحوا الطلاق فى انتخابات عامة هزمت وصايا الكنيسة فى الموضـــوع ..

اننى لا أدرى كيف يدفع رجال الشرطة امرأة الى زوجها أو رجلا الى امرأته ! الحل الامثل هو فى قوله تعالى :

« فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف »(٢) ..

وذلك بعـــد مراحل من الانذار والاصلاح مبسوطة فى كتب الفقـــه ..

---

(١) النساء : ٣٤ (٢) الطلاق : ٢

قــد يكون الطلاق جراحة لا مفــر منها بعــد ذهاب الود وجفاف الحنان وتولد مشـــاعر أخرى على نحــو ما قيل .

ان القلوب اذا تنافر ودها مثل الزجاجة كسرها لا يجبر !

واذا كان الطلاق حق الرجل للخلاص ، من هــذا الوضع فالخلع حق المــرأة للراحة منــه ! وليس لأحــد أن يكره المرأة على البقاء فى بيت مقتت صاحبه وأحســت الضرر بجواره « ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقــد ظلم نفسه »(١) .

وعنــدما تطلب الزوجة الفراق فيجب أن ترد الى زوجهــا ما ساق اليها من مال ، ومن الحيف أن يدفع الرجل المهر ويرسل الهــدايا ثم تستولى المــرأة على هــذا كله وتطلب الانفصال ! .

ويحزننى أن جل الفقهــاء تناسى شريعــة الخلع أو أبطل حكمتها ، وأن الجماهير لا تعرف شريعة تمتيع المطلقة ! وأن طلاق السنة ــ كما صح عن صاحب الشريعة ــ لا يطبق! وانما المألوف المحترم هو طلاق البــدعة ، فقــد أمضيت آثاره كلها بوحشية !.

وعنــدما تيقظ فقيه ذكى كابن تيمية الى أن طلاق البــدعة باطل منكور الاثار تعرض لنقــد شــديد ! . .

ومما يثير الدهشة أن أنصار ابن تيمية فى عصرنا لا يوافقونه على ابطال طلاق البــدعة ، وانما يوافقونه على انكار وقوع المجاز فى القــرآن الكريم ! وهــذا من هناته غفر اللــه له .

---

(١) البقــرة : ٢٣١

واعتقادى أن الفقهاء المسلمين المعاصرين — وهم يحسون المحنة الاجتماعية التى يمر بها المسلمون — سوف يسدون هـــذه الثغرات ، وينتقون من أقوال الائمة والمجتهـــدين ما يلم شـــمل الاسرة ، ويقيها عبث العابثين ..

ويجيىء بعـــد ذلك عمـــل المـــرأة لتنفق على نفسها ! ان الاسلام له منهج آخر غير ما يعرف الان فى الحياة الغربية بشقيها الشيوعى والرأسمالى ، المـــرأة هناك ــ عنـــد البلوغ ــ تستقل بنفسها ، وتواجه مستقبلها ، وتكلف بتحصيل قوتها ، والضرب فى فجاج الارض لتأمين عيشها ، وهى تزاحم الرجل فى كل ميدان ! .

ماذا نشأ عن هـــذا الوضع ؟ فقدان أغلب النساء لعفتهن ، واستطالة الذئاب فى أعراضهن لسبب أو لاخـــر ! ..

والمجتمعات الاوربية والاميركية والاسترالية كادت تطبق على اعتبار الناحية الجنسية حاجة جســـد لا علاقة لها بالخلق والدين، وكانت لهـــذه الفلسفة الحيوانية نتائج رهيبة ! .

والاسلام يرفض هـــذا الفكر وآثاره كلها ، نعم ، قـــد تعمل المـــرأة فى ظروف تختارها او تختار لها ، وبعـــد توفير ضمانات الصون وحماية الشرف ومرضاة اللـــه ..

أما تكليفها بالكـــدح لتقتات ، ولتوفـــر مهرا للرجل المنتظر فلا . . . ولا ..

وهنا يوجب الاســـلام نفقتها على ابيها او أخيها أو ذوى قرابتها فان لم يوجـــد احـــد ارصـــد لها ما يكفيها من بيت مال المسلمين ..

واعانة للرجل على النهوض بهذا العبث جعل حظه فى أغلب المواريث ضعف حظ المرأة .. وقد يتساويان فى حالات كثيرة . كما أمره بأن يدفع هو للمرأة مهرها لا أن تدفع له كما توصى بعض الديانات .

وعلى الرجل ان ينصب ليقوت زوجه وولده ، فاذا عرضت ظروف لتعمل المرأة خارج البيت كان لذلك وزنه الخاص وملابساته المقدورة ! ..

أعتقد أنه ليس من تكريم المرأة تكليفها بالارتزاق فى أحوال مقلقة ، ولا من تكريمها أن تجمع بين وظيفة ربة بيت ، ووظيفة أخرى ترهق أعصابها وتستغرق انتباهها ..

وبعض الجهلة يستغل فضل الرجل على المرأة فى الميراث ليهينها ويزدرى منزلتها ، وكم أسيىء الى ديننا من أولئك الجاهلين .

ولنثبت هنا حديثا يحتاج الى بيان وفقه ، دار على كثير من الالسنة ، واستغل بخبث لتحقير النساء والهاب عداوتهن ضد الاسلام .. روى مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى اللـه عليه وسلم انه قال : « يا معشر النساء تصدقن ، وأكثرن الاستغفار ، فانى رأيتكن أكثر اهل النار » ! ..

فقالت امرأة منهن جزلة : ومالنا يارسول اللـه أكثر أهل النار ؟ ..

فقال : « تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ! ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن » ! ..

قالت : يارسول اللـــه ، ما نقصان العقل والدين ؟ قال : أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعـــدل شهادة رجل ، فهـــذا نقصان العقل ! وتمكث الليالى لا تصلى ، وتفطر فى رمضـــان ، فهـــذا نقصان الدين » ..

وقبل ان نحكم على ظاهر هـــذا الحـــديث ونشرح معنـــاه نذكر حـــديثا آخر يساويه فى قوة السند ، ويزيد عليه فى تكـــرر سياقاته ، وتعـــدد رواياته ..

هـــذا الحـــديث هو قول رسول اللـــه صلى اللـــه عليـــه وســـلم : « اطلعت فى الجنة فرأيت أكثـــر أهلها الفقـــراء ! واطلعت فى النار فرأيت اكثر اهلها النساء » . وفى رواية أحمـــد « .. فرأيت اكثر أهلها الاغنياء والنساء » ..

وعن أبى هريرة قال رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم « يدخل فقـــراء المسلمين الجنـــة قبل الاغنياء بنصف يوم ، وهو خمسمائة عام » ..

وعن أسامة رضى اللـــه عنه عن النبى صلى اللـــه عليـــه وسلم قال « قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين ! وأصحاب الجـــد ــ اليسار والعافية ــ محبوســـون غـــير أن أصحاب النار قـــد أمر بهم الى النار ، وقمت على باب النار فاذا عامة من دخلها النساء » !! ..

ماذا تعنى ظواهر هـــذه الاحاديث جميعا ، وما أثرها المنظور فى بناء الامة الاسلامية ؟ ؟ ..

انها تعنى ترجيح الفقر على الغنى ، والمسكنة على السعة ، والصعلكة على الثراء والتمكين ! ..

أيمكن أن تقوم دولة أو تزدهر حضارة أو يكسب المسلمون معركة وهم واقفون عنـد هـذه الظواهر لمـا روى عن نبيهم ؟.

ان ذلك مستحيل ، والحق أن هـذه الظواهر غير مرادة أصلا ، وأن معناها فوق مستوى القاصرين ، ولذلك قلنا فى كتاب آخـر : أنه لا سنة بغير فقـه !! ..

الزعم بأن كل غنى رذيلة زعم سخيف ، فالغنى المحقـور هو المـكسوب من سحت ، أو المـكنوز لا يستفيد منه مجتمع ، والاغنياء من هـذا القبيل أعداء اللـه وأعداء الشعوب واذا ملأوا جهنم فهى لهم مصير عـدل ..

أما تكوين الثروات من وجـه شريف ، وايتاء حق اللـه فيها ، وتطويعها لاعلاء الايمان ، وحماية الثغور فهـذا محض الايمـان .

وقـد كان العشرة المبشرون بالجنة من هـذا الصـنف ، ولم يكن فيهم رجل مقـل ..

والفقير الذى آثر القلة من حلال على الكثرة من باطل ، أو الذى ملك بجهـده المبـذول ولكنه ضحى بما يملك فى سـبيل ربه ليس أقل درجة من غيره ، وكونه يسبق غنيا أو يسبقه غنى ليس الينا ، وانما يبت فيـه علام الغيوب ..

ثم عنـــدما يكون عامة من دخل النار من النساء فأين يذهب قوله تعـــالى :

« جنـــات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهـــم وذرياتهم ؟ » ..

الواقع أن عرض الحـــديث النبوى دون فقـــه صالح لون من تحريف الكلم عن مواضعه ، ومصاب الاسلام شـــديد من هـــذا التصرف ! ونعود الى حـــديث النساء ونقصان العقل والدين ..

صـــدر هـــذا الحـــديث يقى الاسرة الاسلامية سرا يشيع بين الناس ، جرثومته امرأة تحيا على خير رجلها ، وتنكر فضله وتجحـــد حقـــه ، قـــد يخطىء الرجل ، وكل بنى آدم خطاء ، وينبغى أن تتجاوز المـــرأة هـــذا الخطأ العارض ، وربما كان الخطأ من وجهة نظرها هى .. ولكنها بدل ذلك تغضب غضـــبا طائشا ، وتنسى فى ثورتها كل شىء ، وتزعم أنها ما رأت خـــيرا قط من زوجها ، وقـــد تلعن نفسها وحظها وما حـــدث أو يحـــدث لهـــا ! ..

أليس من حق النبى صلى اللـــه عليه وسلم أن يحـــذر من هـــذا المسلك ، وأن يذكر لصاحباته أنهن ان أصررن عليه يكن من أهل النـــار ؟؟ .. ثم يستطرد الحـــديث « .. ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن » والعبارة متصلة بالجملة قبلها ، فان الرجل قـــد يستكين لامرأته ، والحق معـــه ، حتى يوفـــر الهـــدوء فى بيته ! ويمنع اللجاجة والخصام ! وقـــد يلغى فكره الصائب من أجل ذلك الهـــدف مما قـــد يدفع بالمرأة المغرورة الى مزيد من العنت ! ..

وهـذه هزيمة ذى اللب كما عبر الحـديث أو أولى الالباب كما نرى فى مجتمعات كثيرة تنتصر فيها رغبات النساء على عزائم الرجال ..

والمـرأة ـ على ضعفها ـ تحب أن تغلب غيرها وتعرض نفسها ! قـد تقول وما هـذا الضعف ؟ والجواب فى تكوينهـا الخلقى ، فانها تضحى عليلة أو شبه عليلة خـلال الدورة الشهرية التى تعتادها ، وتؤثر فى أعصابها وأفكارها ، وقـد عذرها اللـه من أجل ذلك ، واعفاها من بعض الفروض .

ان نفـرا من المتحـدثين فى الدين شاء أن يفهم من هـذا الحـديث أمورا لا علاقة لها به ، فصاغ قاعدة كلية نشرها فى طول الامة وعرضها مفادها « النسـاء ناقصات عقل ودين » ، وسواء كانت « أل » للجنس أو الاستغراق فهـذه الكلية الشائعة فاسـدة ، من ناحيتى العقل والنقـل ، فقـد اكتملت قـديما وحـديثا نسوة أرضين اللـه ورسـوله وخـدمن الدين والامة خـدمات جليلة .

وهـذه الكلية المزعومة تناقض الايات القـرآنية التى قررت أن النساء والرجال بعضهم من بعض وتناقض الاحاديث التى جعلت النساء شقائق الرجال ! ..

وزاد الطين بلة فى تأليب المـرأة المعاصرة على الاسلام أن البعض فسر نقصان العقل بالحماقة ونقصان الدين بالمعصية ، وعـد الانوثة ترادف الخسة والهوان ، وهـذا التفكير امتـداد للجاهلية الاولى ، وهو بعض ما يشين النفسية العربية ، والاسلام برىء من هـذا اللغـو ..

ونسأل بعد ذلك البيان : أكل امرأة تتصف بالبخل ؟ أكل امرأة تتصف بنكران الجميل ؟ أكل امرأة تتهم بكفران العشير ؟ ما أبعد ذلك عن واقع الحياة ..

لكن من المسلمين الى الان من يظن الفنى أخطر طريق الى النار ، ومن يظن الانوثة أسرع شيىء الى جهنم ..

ونريد ان نقى ديننا لوثات هؤلاء المفتين الكذبة ، وأن ننصف النصوص والاخبار ممن يتهجمون عليها دون وعى ..

٨٦ ـ ما موقف الاسلام من المـرأة فى ضوء الاوضاع السـائدة فى مجتمعاتنا ؟ ..

اننى أسـأل أولا :

هل عوملت المـرأة فى العالم الاسلامى وفق تعاليم الاسلام ؟ ما اظن ذلك وقع الا لمـاما ..

ان الحاكم فى مستدركه روى حـديثا موضوعا حكم العالم الاسلامى أكثر من ألف عام ، يقول هذا الحديث : لا تعلموا النساء الكتابة ، ولا تسكنوهن الغرف .. اى اذا كان البيت مكونا من طبقات لم يجز اسكان النسـاء فى الطبقات العليا . حسبهن ظهر الارض أو تحتها ان امكن !! ..

وتطبيقا لهـذا الحـديث المكذوب لم تفتح مدرسـة لتعليم البنات فى قـرية أو مدينة خـلال القرون المـاضية وأصبح تثقيف النساء من الفضول ، بل من المناكر المحظورة !! ..

وروى عبـد اللـه بن عمـر قول رسول اللـه : لا تمنعوا اماء اللـه مساجد اللـه ، وفى رواية اخرى : ائذنوا للنسـاء بالليل الى المساجد ! فقال ابنه معترضا التوجيـه النبوى ، اذن يتخـذنه دغلا ـ اى مهربا لاقتراف المفاسـد ـ والله لنمنعهن .

فوكز عبـد اللـه ابنه فى صـدره ، واشتد عليه غضبه ، وقال أ: اقول قال رسول اللـه وتقول : لا .. وقاطعه الى آخر حيـاته ..

والغريب أن العالم الاسلامى لم يكترث لرواية ابن عمر — على صحتها — وتبع رأى الولد السيىء الادب !! ..

ويوجد حظر عام على ارتياد النساء للمساجد ..

وبعد جهاد سنين طويلة للسماح بصلاة المرأة فى المسجد أمكن فتح أقل من ١٠ ٪ من بيوت الله لأماء الله ، أما الكثرة الساحقة من مساجد القرى والمدن فهيهات أن يدخلها النساء ..

كنت فى دولة الامارات المتحدة ، وشاركت فى قضية جديرة بالعرض ، نشرتها جريدة الاتحاد على هذا النحو : قال الاستاذ مصطفى شردى : نحن فى احدى أمسيات الثلاثاء بمسجد سعد بن أبى وقاص . انتهى المحاضر من حديثه وبدأ التحاور .

سؤال جاء من الشرفة المخصصة للسيدات . تقول صاحبة السؤال انها متزوجة منذ سنوات . من رجل له أكثر من زوجة . وأن زوجها لا يسمح لها بزيارة أبيها ورعايته بين الحين والاخر ، على الرغم من ان الاب وحيد ويحتاج الى الرعاية والعناية ، والشعور ببر الابناء لأبائهم ينغصها فهل تطيع الزوج وتهمل واجب رعاية الاب ، أم تخالف زوجها وتطيع قلبها وتكون بارة بوالدها أثار السؤال الهمس ، ثم سكت الجميع انتظارا لما سيرد به المحاضر وهو عالم فاضل ، وكان من الواضح ان السؤال مس اوتارا فى العديد من القلوب ، واعتقد أن قلب المحاضر من بينها ..

حمد الرجل الله واثنى على الرسول الكريم ، وتحدث عن التزام الزوجة بطاعة الزوج ، وكيف ان الاسلام شدد على

الوفاء والتمسك بهـذا الالتزام لصلاح الاسرة وسلامة المجتمع ، وطالب الزوجة بأن تضاعف جهـدها لاقناع زوجها حتى يسـمح لها برعاية أبيها ، الا انه اختتم اجابته براى محـدد اجتهـد فيه فقال : انه فى حال تمسك الزوج بموقفه القاسى الغريب دون مبرر مقبول ، فانه على الزوجة ان تبادر الى زيارة أبيها ورعايته وتقديم حنانها اليه ، لأن النص القـرآنى بشأن بر الوالدين واضح وقاطع وصريح ، ولأن لهـذا الزوج بالذات أكثر من زوجـة تخـدمه وترعاه اذا غابت عنه واحـدة لاداء واجب البر والاحسان تجاه والد عجوز مريض ضعيف أمرها اللـه بأن ترعاه وتحسن اليه .

انتهى المحاضر من اجابته فاشتد الهمس ! وبين الحـاضرين عـدد كبير من المتزوجين بأكثر من واحـدة ! وقـد راوا فى اجابة المحاضر تحريضا للزوجات على عـدم الالتزام بأوامر الزواج ، حتى ولو كانت متعارضة مع المنطق ومتضاربة مع المعقول ! وبدأ فريق من الحاضرين يناقشون الراى بأعصاب توشك على الانفلات! فقالوا : ان راى المحاضر يتعارض مع تعاليم الاسلام ! ولابد من التراجع عنه ! لأن طاعة الزوج واجبة قبل أى اعتبار آخـر ، وتمسك المحاضر برايه وكادت تهب عاصفة من الاحتجاجات بسبب هـذا الراى وتتحول الى مهاترة لا يسمح بها ..

المهم أننا انصرفنا من المسجد وظل السؤال معلقا بين الاراء التى اختلفت عليه ! ..

كان مطلوبا من الشيخ المفتى أن يغير فتواه ، وان يحكم بحبس المـرأة فى البيت ولو مات أبوها ! وأيد ذلك الاتجـاه أن متفيهقا ذكر حـديثا معناه أن اللـه رضى عن زوجة بقيت فى بيتها حتى توفى والدها فلم تعـده فى مرضه الاخير ! ..

لأن زوجها كان فى سفر فلم يأذن لها بالخروج من البيت ! .

قلت : هــذا حــديث مكذوب ! واستغربت أن يطلب من

امرأة ما باسم الاسلام أن تعق أباها ، وتقطع به صلتها ، وتدعه يموت مستوحشا لان هــذا حق رجلها ! ..

وعنــدما تفقــد المسكينة عاطفة البنوة فماذا يبقى من كيانها الانسانى فى بيت الزوجية ؟ أنها ستكون أسيرة فحل يملك أمرها وقهرها .. وحسب ! ..

وفى الارياف كان أغلب النســاء يفقــد ميراثه الشرعى ، فتقسم الارض على الذكور وحدهم ، ويقول الاخوة الذين اجتاحوا الارض : كيف نترك غريبا ينزل بأرض أبينا ؟ ويعنون بالغريب زوج اختهم ! ..

فاذا حــدث أن طالبت الاخت بنصيبها الشرعى قاطعهــا اخوانها الى الابد ! ..

والاسر الشريفة لها تقليــد عجيب ــ أعنى الاسر التى تدعى الانتسـاب الى البيت النبوى ــ فالمــرأة تموت عانسا بائسة اذا لم يجئها الكفء من الاشراف ، أما الرجــل فله حق الزواج من الانكليــز والامريكان ! ..

ويظهر ان بنات العم سام أو العم جون لهن شرف يضارع شرفه ، أما النســاء اللاتى نكبن بالــدم الشريف ، فلا كفء لهن على المــدى البعيــد الا الموت ! ..

وروى البخارى عن الربيع بنت معوذ قالت : كنا نغزو مع النبى صلى اللـه عليه وسلم فنسقى القـوم ونخـدمهم ونرد الجرحى والقتلى الى المـدينة ..

ويبـدو أن هـذا التقليد كان قصير العمر جدا ، فاستخفى فى أيام الحرب والسلم على سواء وتعتمـد المستشفيات فى العالم الاسلامى اليوم على المرضات الاجانب ، واذا كان النساء قـد منعن المساجد أفكان يؤذن لهن بالذهاب الى ميادين القتال ؟ .

ولا أريد أن يفهم غر أنى راغب فى نقل معالم الحضـارة الغربية الى مجتمعاتنا ، فهـذه الحضارة تجمع خليطا من التقاليد الحسنة والتقاليـد الرديئة ..

وانما أريد أعمال النصوص المـكتوبة أو المفهومة من سيرة الرسول صلى اللـه عليه وسلم ، وسلفه الاول ، وهـذا مسلك يعجز عنـه أصحاب الخيـال والشـذوذ ..

لقـد رأيت فى قضية المـرأة أحاديث موضوعة ، وأحاديث واهية صححها الغرض المـدخول ، وأحاديث صحيحة حرفت عن موضـعها ..

واستغربت وانا اقـرأ لبعض الفقهاء أن صـلاة المـرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى المسجد الحرام أو المسجد النبوى ! .

وقلت : لو كان الامر كـذلك فلم أشرف الرسول على تنظيم صفوفهن فى مسجده ؟ ولم جعل لهن بابا خاصا بهن ، ولم ذهب اليهن فعلمهن وحثهن على الصـدقة ، ولم حـذر « البعض » أن يحرص على القرب من صفوفهن ؟؟ ..

الواقع أن المـــرأة أولى بها أن تصلى فى البيت اذا كانت مسئولية التغـــذية أو التربية تفرض عليها ذلك ، أما اذا تخففت من هـــذه الواجبات لسبب أو لاخر فلا يمنعها بشر من الذهاب الى المسجد ليلا أو نهارا .

أى أن صـــلاة الجماعة ليست مؤكـــدة فى حقها كالرجال . وليس يفيد ذلك فرض حصار قاتل على حياتها العلمية والعبادية ، وتحويلها الى مسخ لا مكان له فى دنيا ولا دين ، كما انتهت بذلك الاوضاع الاجتماعية فى العالم الاسلامى ..

عنـــدما فتـــح النبى صلى اللـــه عليه وسلم مكة خـــرج النســاء لمبايعته ، وتلقى تعاليم الاسلام منـــه ، ولم يحتبســـن فى بيوتهن قعودا عن هـــذا الغرض ، أى أن علاقة المـــرأة بالحياة العامة كانت قائمـــة ، وكانت من الناحية العملية — تسير فى خط يحاذى علاقة الرجل ، ولا يتطابق معـــه ..

وقبل فتح مكة اهتـــدتنساء كثيرات الى الاسلام ، ورفضن البقاء مع أزواجهن الكفار فقررن الهجرة الى المـــدينة ..

وحـــدث ذلك فى وقت كان المسلمون فيـــه ملزمين برد كل من يلحق بهم من مكة فارا بدينه — تنفيـــذا لمعاهـــدة الحديبية .

ولكن القـــرآن نزل يستثنى النســـاء من ذلك الحكم فقال تعـــالى :

« يا أيها الذين آمنـــوا اذا جاءكم المؤمنـــات مهـــاجرات فامتحنوهن اللـــه أعلم بايمانهن . فان علمتموهن مؤمنـــات فلا

ترجعوهن الى الكفار »(١) ..

وورد أن عمر بن الخطاب كان فى ذلك الامتحان يحلف المرأة المهاجرة : « باللـــه ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ! وباللـــه ما خرجت من بغض زوج ! وباللـــه ما خرجت التماس دنيـــا ! وباللـــه ما خرجت الا حبا للـــه ورسوله » ..

ماذا ترى فى هـــذا القسم ؟ .. وفيمن أدته ؟ .. ألا ترى شخصية مستقلة واضحة الوجهة محتـــرمة المسلك ، تحـــارب وتسالم وتقيم أو تسافر وفق ضميرها وتفكيرها ؟ ..

أين هـــذه الشخصية التى واثقت الرسول فى مكة ، والتى هاجرت اليـــه فى المـــدينة . من شخصية المـــرأة المسـلـــمة فى القـــرون الاخيرة ؟ ..

المـــرأة التى لا تعرف كتابا ولا ايمانا ولا صلاة ولا ثقافـــة عامة ، بل التى يعتبر من العيب الفاضح أن يعـــرف لها اسم ، أو يبـــدو لها شبح ؟؟ لانه لا وظيفة لها الا اعـــداد الطعام ، وارضـــاء البعل !! ..

---

(١) الممتحنة : ١٠

٨٧ ـ ما ابعاد النشاط الاجتماعى للمراة على ضـــوء الاجتهاد والفقهـــى ؟ ..

فى النشـــاط الاجتماعى للمراة يمكن أن نعرف أبعاد هـــذا النشاط اذا ذكرنا أن قاعدة الامر بالمعروف والنهى عن المنكـــر تشمل الرجال والنساء على سواء . وذلك ظاهر قوله تعالى :

« والمؤمنـــون والمؤمنـــات بعضهم أوليـــاء بعض يأمرون بالمعـــروف وينهـــون عن المنكر ويقيمون الصـــلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون اللـــه ورسوله »(١) .

ان الامر والنهى والصلاة والزكاة وطاعة اللـــه ورســـوله ليست حكرا على احـــد الجنسين ، والزعم بأن المـــراة تصـــلى وتزكى وتسكت فى ميـــدان النصيحة زعم باطل ..

والذى حـــدث فى القرون الاخيرة ، فى قرى كثيرة أن المـــراة سقطت عنها هـــذه التكاليف كلها ، فلا تصـــلى أو تزكى ، الا قبل الوفاة بفترة تطول أو تقصر حسب الملابسات ! ..

على أن حراسة المجتمع تنقل من ميـــدان النظر الى ميدان التطبيق ، وهنا تبتعـــد المسافة بين أقوال الفقهاء فى الامكانات التى تعطاها المـــراة ، ويبلغ الاختلاف حـــد التضاد ..

فابن جرير الطبرى يجيز للمراة القضاء فى كل شيىء يجوز للرجل أن يقضى فيـــه دون استثناء ! .

---

(١) التوبة : ١١

ويقول الاحناف — كما جاء فى البدائع — أن الذكورة ليست شرطا لتقلد منصب القضاء فى الجملة ، لان المرأة من أهل الشهادة فى الجملة . الا انها لا تقضى فى الحدود والقصاص لانها لا شهادة لها فى ذلك . وأهلية القضاء تدور مع أهلية الشهادة !.

وهنا نسأل : ما قيمة شهادة المرأة فى الحدود والقصاص ؟ والجواب أن جمهور الائمة يردها ! .. جاء عن الزهرى رضى الله عنه ، مضت السنة من رسول الله والخليفتين بعده انه لا تجوز شهادة النساء فى الحدود والنكاح والطلاق ، وفى رواية أخرى والدماء ! ..

ويرفض ابن حزم هذا الكلام كله ! ويجيز شهادة النساء فى كل ما ذكر ! ويقول فى حديث الزهرى : أنه بلية ، وأن اسناده منقطع ، وهو من طريق اسماعيل بن عياش — وهو راو ضعيف — عن الحجاج بن أرطاة — وهو هالك — تلك قيمة حديث الزهرى عنده ..

ويرى ابن حزم قبول شهادة المرأة فى كل قضية بعد مضاعفة النصاب ، فيقبل فى حد الزنا ثمانى نساء بدل أربعة رجال ! .

والدليل الذى يعتمد عليه ابن حزم هو العموم الظاهر فى حديث مسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال .. « فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل » وما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حديث « أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ؟ قلنا : بلى » ..

فقطع رسول اللـــه بأن شهادة امرأتين تعـــدل شـــهادة رجل .. قال ابن حزم فوجب ضرورة أنه لا يقبل — حيث يقبل رجل لو شهد — الا امرأتان ، وهكـــذا ما زاد ..

ويفسر ابن حزم قوله تعالى :

« ان اللـــه يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعـــدل »(١) ..

فيقول : هـــذا متوجه بعمومه الى الرجل والمـــرأة والحر والعبـــد ، والدين كله واحـــد ! لا حيث جاء النص بالفرق بين المـــراة والرجل ، وبين الحر والعبـــد ، فيستثنى من عموم أجمال الـــدين ! ..

وقبل ذلك يقول ابن حزم : وجائز أن تلى المـــرأة الحكم . وهو قول أبى حنيفة ، وقـــد روى عن عمـــر بن الخطاب أنه ولى الشفاء — امرأة من قومه — الســـوق ..

فان قيل : قد قال رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم : لن يفلح قوم اسندوا أمرهم الى امرأة قلنا : انما قال ذلك رسول اللـــه فى الامر العام الذى هو الخلافة .

برهان ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « المـــرأة راعية على مال زوجها وهى مسئولة عن رعيتها » . وقد اجاز المـــالكيون

---

(١) النســاء : ٥٨

أن تكون وصية ووكيلة ولم يات نص بمنعها من أن تلى بعض الامور ..

والفقهاء متفقون على أن شهادة المرأة مقبولة فى المعاملات المالية لقوله تعالى :

« واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى »(١) ..

وقد نقلت فى أحد كتبى كلاما للاطباء عن اعتلال مزاج المرأة وبدنها عند الدورة الشهرية وقلت : لعل ذلك سر توكيد خبرها بأخرى معها ، والضلال هنا يعنى الذهول والشرود.

وأبادر الى القول بأنى لست ظاهريا ، لكنى أتبع الدليل حيث كان ، وكثيرا ما ارفض اجتهادات لابن حزم ولغيره من أئمة الفقه ، لان وجهات نظر اخرى بدت لى أرجح .

وغايتى خدمة الاسلام بما يناسب المرحلة التى بلغتها الانسانية كلها فى هذا العصر الخطير ..

ان تعاليم الاسلام قسمان ، قسم مقطوع به ، لا مكان لخلاف فيه ..

---

(١) البقرة : ٢٨٢

وهــذا القسم هو صلب الدين ومعقــد أموره ، ولا أثر لاختلاف الامكنة والازمنة فيه ، والدعوة العامة انما تكون اليه ، والمفاضلة بيننا وبين غيرنا انما تكون عليــه ..

أما القسم الاخر فهو القضايا الظنية والمسائل الخلافية .

ان المجــال رحب هنا للاخــذ والرد والفعل والترك .

وقــد رفض أولو الالباب أن يكون رأى مجتهــد ما بمنزلة الوحى المعصوم فى الاخــذ به والتعويل عليــه .

ومن ثم يجب ترك الناس أحرارا فى اتباع المجتهد الــذى وقعت ثقتهم به . وتركهم كــذلك أحرارا فى التحول الى غــيره لسبب أو لاخــر .

ولتوضيح ما اعنى اريد — وانا أعرض الاســلام فى بلاد أخرى — الا أغير سلوكا فى هــذه البلاد يرى بعض فقهائنا الا جــرح فيــه ..

فاذا كانوا يقتنــون الكلاب فليفعــلوا فمالك بن أنس يرى الكلاب طاهرة الريق والعرق وقــد كان للفتية المؤمنين من أهل الكهف كلب يلازمهم فى أحلك الاوقات .

واذا كانوا يســمعون لموسيقى فليفعلوا . فالغــزالى وابن حزم وغيرهم يرون سماعها ولا مساغ لزجرهم عن أمر ليس لدينا قاطع فى منعــه ..

واذا كانوا يولون النساء بعض المناصب المهمة فليفعلوا فما

أستطيع باسم الاسلام أن احظر عليهم ذلك ، ان الحظر عندنا رأى مجتهـــد ، وليس وحيا حاسما .

الشيىء الذى أتشبث به فعلا وتركا ما انعقـــد اجماعنـــا عليـــه .

أما عرض بعض المذهبيات السائدة أو الشاذة ، وعرض بعض التقاليـــد البـــدوية أو الحضرية على أنها الاسلام ، فهذا ظلم للاسلام ، وربما كان صـــدا عن سبيل اللـــه ..

وما أقوله هو ما كان عليه سلفنا الاول الذى نشر الـــدين عقائد وعبادات واخلاقا وقيما جوهرية .. وقلما اكترث بالتوافه والاشـــكال ..

وأمر آخر أريد التنبيه اليه . أرى مع سير الزمن أن نتغلغل النظر فى الاجتهادات الفقهية لنعرف بدقة نتائجها التطبيقية .

ان الائمة الاربعة أمضوا الطلاق الثلاث ثلاثا ولو بكلمـــة واحـــدة ، وغبرت على ذلك قرون ، ثم جاء ابن تيمية وغـــيره فجعلوا الثلاث واحـــدة ..

وكنت فى مصر ارقب اثر ايقاع الطلاق على كيـــان الاسرة فوجـــدت صـــدوعا رهيبة فى هـــذا الكيان جعلتنى أوثر فقـــه ابن تيمية وغيره ، وأؤيد تحول المحاكم الشرعية عن رأى الائمة .

لقـــد تركوا احتهادا الى اجتهاد ، ولا حـــرج ، فالعصمة للوحى وليست لبشر ما ..

وما يقال فى قضايا الطلاق يقال فى معاملات أخرى تجارية وزراعية ، كانت مسرحا رحبا لأنظار الفقهـاء الاقـدمين ، أنه لا قـداسة لاجتهاد ، والخلود لكتاب اللـه وسنة رسوله .

وبديه اننا ندع اجتهاد فقيه لاجتهاد مثله ، ولا نفتح الباب للادعياء والدجالين ومن لا قـدم لهم فى علوم الشريعة ..

وبديه أيضا أننا نضاعف الاسوار حول المقطوع به ونستميت دون أن يمسه أحـد ..

وقضايا المـرأة فيها نصوص قطعية ، وفيها اجتهادات فقهية اكتنفها الخطأ والصواب .

ويؤسفنى القول بأن الجـراءة على النصوص المستيقنة كان سـببها تشبث المقلـدين البله بأفكار رديئة عن حقوق المـرأة العادية والعبادية ..

ان اللـه أمر بالغض من البصر ، ووجه هذا الامر للمؤمنين والمؤمنات ، فجاء من أمر بمنع النظر أصلا ..

فلا يجوز للمرأة أن ترى أو ترى ، ولتحقيق ذلك تم حبسها أبدا فى البيت ..

ونشأ عن ذلك الغلو قتل انسانية المـرأة واضاعة حقوقها الدينية والمـدنيه ..

ثم جاء من يعالج هـذا العوج بنقل تقاليـد أوربا وأميركا ، أى استبدال داء بداء ..

ونحن نأبى غبـاوة هؤلاء وانحـلال أولئـك !! .. ونريد

الاوضاع التى عرفها العهد النبوى والفقه الذكى الذى يدرك هذه الاوضاع ..

ان محدثا جليل القدر كأبى عبد الله البخارى نظر الى السنن الصحاح ثم استنتج منها دون تكلف ولا تخوف أحكاما يرفضها اليوم بعض الناس ، ففى كتاب المرضى يذكر امام المحدثين هذا العنوان « باب عيادة النساء الرجال ، وعادت أم الدرداء رجلا من أهل المسجد من الانصار .. الخ » ..

وفى مكان آخر يثبت عنوانا آخر « باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال » و « باب غزو المرأة فى البحر » .. الخ .

ولو أن امرأة طلبت شيئا من ذلك فى بعض البيئات التى تحترف التدين لضربت حتى الموت . أنهم يقرءون البخارى للبركه لا للفقه ..

وقد يبسطون ألسنتهم فينا بالقدح لاننا أحيينا هذه الحقائق من ديننا السمح ..

ومع ما ذكرنا فنحن نؤكد ان نشاط المرأة لا يجوز أن يكون على حساب أسرتها ، وأن حق زوجها وولدها أسبق من شتى الحقوق الاخرى ، وقد قرأت لوزيرة فرنسية ، وأخرى انكليزية ان عمل المرأة فى بيتها هو رسالتها الاولى .. وهذا تفكير جيد . فان منصب « ربة بيت » منصب كبير وهو فى نظرى يحتاج الى مؤهلات رفيعة ..

انشاء الحياة وفق المقررات الاسلامية يتطلب حظوظا مضاعفة من العلم والخبرة ، فكيف توائم بين شتى الاوضاع والغايات ؟ ..

ذاك ما يتطلب حسن التفكير والتنسيق ؟ ..

٨٨ — ما نظرة الاسلام الى الاسرة ، وما عمل المرأة فى بنائها ؟ *

الذين خبروا الحياة فى أوربا وأميركا يؤكدون أن الاسرة وهم لا حقيقة له ، وانها فى أفضل أحوالها تقوم بجزء تافه مما يجب أن تقوم به لانشاء اجيال ازكى واقوم ..

ان البيت خاو على عروشه أغلب اليوم ، لأن الذكور والاناث توزعتهم ميادين العمل والعلم ، حتى الاطفال وكلتهم امهاتهم الى دور الحضانة ، وانشغل كل امرىء — بعد — بما انشغل به ..

وهم يسمعون عن جو الاسرة فى بلادنا ، وربما حلمت بعض المرهقات ان تحيا فيه ، ولكن الهوان الفكرى والنفسى الذى يلف المرأة فيه يصرف الكثيرات عن التعرض لمآسيه .

وعندى أن المثقفة التى تحيا خارج بيتها ليست خيرا من الجاهلة التى تعيش داخل هذا البيت ..

ألا فلنعلم انها نعمة حقيقية أن تمتد الحياة من الاباء الى الاولاد الى الاحفاد ، وان تكون الاسرة المؤمنة المستقرة هى المهاد الوثير لهذا الامتداد .

وليس الانتاج الحيوانى سر هذه النعمة ، ان العظمة هنا فى توارث العقائد والفضائل وانتقال التقاليد الصالحة من جيل الى جيل ..

ان الاسرة هنا حصن الدين وسياج مبادئه وعباداته ، ودور المرأة واجرها كدور الرجل واجره سواء بسواء .

والى عظمة هـــذه النعمة يقول اللـــه سبحانه :

« واللـــه جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفـــدة ، ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمـــة اللـــه هم يكفرون »(١) .

ان الرجال هم حمالوا الاعبـــاء الثقـــال فى قافلة الحيـــاة الســـائرة ، سواء كانوا اساتذة أو ساسة ، أو أجراء أو باعة فهم يعودون الى بيوتهم فقـــراء الى المشاعر الدافئـــة والعـــون المبـــذول ..

والبيت الذى تكون قاعدته امرأة تنفح هـــذه المعـــانى ، بيت رفيع القـــدر ، بل هو بيت يحتوى على أثمن الكنوز .

والتقاليـــد الغربيـــة هزت كيـــان الاسرة ، وهى تقاليـــد تجتاح العالم ، اما التقاليـــد الاسلامية فالعارفون بها قلة ونشرها يلقى مقاومة عنيدة خصوصا من جهلة المتـــدينين ..

من اجل ذلك رأيت لفت النظر الى أن وظيفة ربة البيت من أشرف الوظائف .

وقـــد تخرج المـــرأة من بيتها وراء أعمال مشروعة ، بيـــد أن هـــذه الاعمال مهما سمت لا يجوز أن تجور على عملها الاول الذى لا يشركها غيـــه احـــد ..

روى ابن عبـــد البر فى كتابة الاستيعاب أن أســـماء بنت يزيد الانصارية أتتت النبى صلى اللـــه عليه وسلم فقالت : بأبى

---

(١) النحـــل : ٧٢

أنت وأمى يا رسول اللـــه ! أنا وافـــدة النساء اليك . ان اللـــه عز وجل بعثك الى الرجال والنساء كافة . فآمنا بك وبالهك ! . أنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم ، وأنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل اللـــه عز وجل .. وأن أحـــدكم اذا خـــرج حاجا أو معتمرا أو مجاهـــدا ، حفظنا لكم أموالكم وغزلنا لكم أثوابكم وربينا لكم أولادكم افنشاركمكم فى هـــذا الاجر والخير ؟فالتفت النبى الى أصحابه بوجهه كله ثم قال : هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن مسألة فى دينها من هـــذه ؟ فقالوا : يا رسول اللـــه ، ما ظننـــا أن امرأة تهتـــدى الى مثل هـــذا .. فالتفت النبى صلى اللـــه عليه وسلم اليها وقال : افهمى أيتها المـــرأة ، وافهمى من خلفك من النســاء ، أن حسن تبعل المـــرأة لزوجها — يعنى قيامها بحقه واحسانها لعشرته — وطلبها مرضاته واتباعها موافقته ، يعدل ذلك كله ..

على أن هناك ميادين للاعمال لابد ان يكثر فيها النساء ، اولها الميـــدان الطبى ، فيجب أن تكون هناك طبيبات ماهـــرات فى كل ناحية من نواحى الطب ، والاشعة ، والصيدلة ، والولادة والتمـــريض ..

ثم ميـــدان التـــدريس لجميع المراحل دنياها وعلياها .

ولا يجوز أن يوصـــد باب من أبواب المعرفة أمام النساء الا ان يكون لاسباب فنية أو مواصفات خاصـــة .

عنـــدئذ ينطبق التخصيص على الرجال والنساء جميعا ، فيوجه كل احـــد الى ما يناسب قـــدرته وخبرته .

ان النساء فى عالم الكفر الشيوعى يغزون الفضاء فلا يسوغ اجترار الاسلام ليمنع امرأة من علم تحسنه ..

والنســـاء فى عالم التثليث يشتغلن بالتبشير والاستشراق فلا يسوغ تسخير الاسلام لمنع النساء من أعمال يجـــدنها ويجدين فيها ..

ان القماءة الفقهية عنـــد بعض المشتغلين بالعلم الـــدينى أحرجت الاسلام كثيرا ، ومكنت خصومه من خناقه ! وأذكر وأنا طالب فى معهـــد الاسكندرية — من خمسين سنة — أن الدكتور طه حسين فتح فصلا للطالبات بكلية الاداب التى كان عميـــدا لهـــا ..

وحـــدث هيجان هائل لفتح الجامعة أمام المـــرأة وبعـــد سنين طوال ، طوال ، فتح الأزهر كلية للبنات .. لقـــد وصل متأخرا كثيرا ..

ما السبب ؟ انها القماءة الفقهية عنـــد بعض المتحـــدثين باسم الاسلام ، ولمـــا مشوا فى الطريق كانوا يمشون منهزمين ، فقبلوا أمور وصورا لا ريب فى أن الاسلام يرفضها .

عنـــدما يدعم الاسلام مكانة المـــراة يحصنها من الصـــور الحيوانية التى ابرزتها فيها الحضارة الحـــديثة ، وجعلتها محور لاثارات متصلة تزلزل العفة وتهيج الغريزة ..

الدين ينشـــد الصون ويؤثر الاحتشام والحضارة الحـــديثة تنشـــد التبرج وتدفع الى الاغراء .

ومع ضعف اليقين وحب الحياة العاجلة أخذ السعار الجنسى يشتد ويفرض رغائبه ، حتى فقد الاتصال الحرام دمامته وأمسى كأنه حاجة تلبى دون حرج كبير !! ..

والدين يرفض أى خلوة بين رجل وامرأة ، والحضارة المعاصرة تتجاهل هذا الرفض .

وهو يباعد بين أنفاس الرجال والنساء ، وهى تقرب بينهم فى الاعمال الجادة والهازلة ..

وكثيرا ما تساءلت : لماذا تكون « للمدير » سكرتيرة خاصة ؟ ..

لماذا تشتغل الفتيات بالخدمة فى الطائرات . وحدهن ؟ ويقضين فى الجو وفى الفنادق ليلهن ونهارهن ؟ ..

ان النساء يحشرن فى أعمال كثيرة لا معنى لها .. وعندما نقرر أحكام الاسلام وتوجيهاته فان ابتذال المرأة سيمنع للفور ، وسيكون عملها فى أى موقع مضبوطا بآداب الشرع وحدوده .. ذلك ، ومن الصعب أن تكون المرأة ربة بيت متقنة ، وصاحبة منصب منتجة ..

ان ذلك قد يقع على ندرة ، وأقترح أن تنشأ للنساء وظائف نصف وقت حتى تستطيع الزوجة القيام الحسن على شئون بيتها وأولادها ..

ان تعاون المسلمين والمسلمات لاقامة مدنية مشرفة طاهرة أمر ميسور ..

ويحتاج ذلك الى محو فكرة تحقير المـرأة وجعلها متهمـة حتى تثبت براءتها .. وهى فكرة تسيطر على بعض المتحـدثين فى الدين وتجعل فتاواهم أقـرب الى اللغو منها الى الصـدق .

ان القول بأن المـرأة هى التى أخرجت آدم من الجنـة تزوير على الاسلام ، والزعم بأنها لا تزال تقوده الى النار تزوير كـذلك ..

والتصور الاسلامى كما أثبته القـرآن الكريم « لا أضـيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض »(١) ..

اننى غيـور على الاعراض كأشـد المتزمتين ولكن الحفاظ على العرض لا يتم بعقلية السجان ..

فالبون بعيـد بين تكوين العقل والضمير بالعلم والتقـوى وبين حبس الاجساد فى قفص من حـديد .

والاسلام قاد المـرأة الى المسجد لتسمع الدرس ، وتسجد لربها ، وبذلك صقل روحها وفكرها ، وفى المسـجد كانت ترى الامام وربما علقت على ملابسه !(٢) وكانت ترى المدرس وربما ناقشت ما يقول ..

أما عقلية السجان فأساسها ان المـرأة لا ترى ولا ترى ، واذا كان المسجد مظنة ذلك فلا ذهاب الى المسجد ! وهـذا هو الاسلام فى فلسفة السجان .

---

(١) آل عمران : ١٩٥

(٢) روى البخارى أن امرأة نددت بثوب الامام لانه مشقوق!

عنــدما آثر الناس السيارة والطيارة على الخيل والبغال والحمير لم يكن ذلك تحقيرا للمواصلات الاسلامية الرديئة ، فما علاقة هــذه المواصلات المهجورة بالاسلام ؟ .

وعنــدما يترك النــاس التقاليــد التى وضــعتها عقليــة السجان ، فهم لم يتركوا الاسلام قط ، وانما تركوا أساليب بعض الناس فى الحيــاة ..

والحكم هو كتاب اللــه وسنة رســوله أولا وآخــرا .. والمشكلة تجيىء من طريقة فهم البعض للنصوص والاثار ..

روى البخارى ومسلم واحمــد عن ابن عباس عن النبى صلى اللــه عليه وسلم انه قال « اطلعت فى الجنة فرأيت أكثــر اهلها الفقراء ، واطلعت فى النار فرأيت أكثر اهلها النساء » .

ورواية احمــد فى مسنده « اطلعت فى النار فرأيت أكثــر اهلها الاغنياء والنســاء » ..

ان جماهير من المتصوفة اعتمــدوا على الشق الاول من الحــديث فحاربوا المــال ، وحقروا الغنى حتى طلعت القــرون الاخيرة على المسلمين وهم صعاليك الارض .

وجماهير اخرى من قصار النظر والباع عــدت الانوثة لعنة ، وجعلت جمهور أهل النار من النسـاء ، فهن حبائل الشيطان وشباك المعــاصى ..

وهــذا المنهج فى فقــه الامور لا وزن له ، وأصحابه لا علم لهم لا بكتاب ولا ســنة ..

بين الافراط والتفريط خط وسط نريد التعرف عليه والتزامه ، وهو خط لا يتطابق مع وضع المرأة الاسلامية فى أغلب المجتمعات ، وكذلك لا يتطابق مع تقاليد الفرنجة التى تستمد من وثنية الرومان ومن فلسفة الاغريق ..

ان أفلاطون فى مدينته « الفاضلة » يجعل المرأة مشاعا بين الاخرين ، فما تكون اذن المدينة الدنسة ..

على ان عقلية السجان هى الاخرى لا تقيم أمة راقية الفكر زاكية القلب ..

وتعاليم الاسلام الصحيحة هى الامل فى بناء عالم متراحم مصون ؟ ..

٨٩ – يرى البعض أن النقاب فريضة على المرأة ، فما قيمة هذا الرأى ؟ ..

فى العصر الاول وجدنا عمر بن الخطاب – وهو المشهور بغيرته – يولى على سوق المدينة الشفاء بنت عبد الله المخزومية قضاء الحسبة ، وهى وظيفة دينية مدنية تتطلب الخبرة والصرامة ..

وذكر ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » أن عبد الرحمن بن عوف ظل ثلاثة أيام يستشير الناس فيمن يخلف عمر بعد مقتله – من الستة المرشحين – فلم يبق رجل ولا امرأة يعتد برأيه الا استشاره ..

كانت النساء تستشار ! ولم لا وقد استشار النبى أم سلمة عندما تقاعس الناس عن التحلل من عمرة الحديبية .

أما المرأة المسلمة فى الاعصار الاخيرة فقد ماتت أدبيا وراء تقاليد جاهلية ليست من الدين حتى دهمتنا الحضارة الحديثة بمنازعها المادية ومسالكها الاباحية ، فلم يدر أهل الدين ما يفعلون .. لقد طالعت فى السيرة النبوية أحاديث تبرز المجتمع الاول فى صورة ارحم وارحب من الصورة التى يرسمها بعض الناس للمجتمع المسلم ، وهى صورة قاتمة موحشة .

روى مسلم فى صحيحه أن جارا فارسيا للنبى صلى الله عليه وسلم كان طيب المرق ، فصنع لرسول الله – طعاما – ثم جاء يدعوه فقال : وهذه – لعائشة – فقال الفارسى : لا فقال

رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم : لا ! أى لا أذهب معك وحـــدى . فعاد يدعوه . فقال رسول اللـــه صلى اللـــه عليـــه وسلم : وهـــذه .. قال : لا .. فقال رسول اللـــه ! لا .. ثم عاد يدعوه ــ للمرة الثالثة ــ فقال رسول اللـــه : هـــذه ! قال الفارسى : نعم . فقاما بتدافعان حتى أتيا منزله(١) ..

وروى البخارى أن ابا سعد الساعدى دعا النبى صـــلى اللـــه عليه وسلم لعرسه ، وأصحابه رضى اللـــه عنهم ، فمـــا صنع لهم طعاما ولا قربه اليهم الا امرأته أم سيد ، فقـــد بلت من الليل تمرات فى تور ــ اناء من حجارة ــ فلما فرغ النبى صـــلى اللـــه عليه وسلم أماثته له ــ أى هرسته بيـــدها ــ فســـقته تتحفه بذلك ــ وكانت امرأته خادمتهم يومئـــذ وهى عروس .

وبديه أن ذلك الاختلاط المحـــدود تم فى اطار تعاليم الشريعة التى توجب على المـــرأة الحشمة الكاملة ..

والحشمة المطلوبة ستر الجسد كله ما عدا الوجه والكفين .

وقـــد زعم البعض أن النقاب كان مضروبا على الوجه ، فلم يبـــد من المـــراة شىء قط ..

---

(١) ربما كان ذلك قبل نزول آية الحجاب ، لكن الحجـــاب خاص بأمهات المؤمنين كما قـــرر ذلك المحققون ويبـــدو أن الفارسى المضيف كان قـــد أعد الطعام لواحـــد فقط ولذلك تحرج من قدوم ضيفين معا .. ولم يدر أن طعام الاثنين يكفى ثلاثة ، وأن الرسول الكريم يريد ايناس زوجته على مائدة فارسية ..

وهـذا زعم مردود فقد قرأت نحو اثنى عشر حديثا فى أصح كتب السنة تشير الى أن النساء كن يكشفن وجوههن وأيديهن أمام النبى صلى الله عليه وسلم ، فما أمر واحدة منهن بتغطية شيىء من ذلك ، وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم يفعلون ..

ومع ذلك فان ناسا لا فقه لهم ولا تقوى يسلقون السوافر بلسان حاد مع انهن تامات الحشمة ، ويرون انسياقا مع أفكار غبية أن وجه المرأة ويديها وصوتها عورة ! ..

مات سعد بن خولة فى السنة العاشرة للهجرة وترك امرأته حاملا ، وشاء الله أن تضع قبل عدة الوفاة — قبل أربعة أشهر وعشرة أيام — فتركت المرأة أحدادها ، وتجملت للخطاب — اكتملت وتخضبت وتهيأت — فلقيها رجل اسمه أبو السنابل ، وأنكر عليها ذلك وقال لها : لعلك تريدين الزواج ؟ بعد أربعة أشهر وعشر ! ..

قالت : فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وذكرت له ما قيل .. فقال لها : قد حللت حين وضعت .. والقصة موجودة فى الصحيحين ومسند أحمد ، وهى كقصص أخرى وقعت فى آخر حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا مساغ للزعم بأنها قبل الحجاب ..

ان شيئا آخر غير دين الاسلام يراد فرضه على الامة الاسلامية ..

والذين يريدون ذلك يخضعون لدوافع نفسية لا لشواهد علمية ..

والشييء الوحيد الذى يذكرونه هو التاسى بأمهات المؤمنين ، وتقول : لو كان التأسى بهن مطلوبا فى هــذه القضية فلم تركــه الرسول وصحابته ، ولم تركوا الوجوه مكشوفة دون اعتراض ؟ .

الواقع أن تنظيم البيت النبوى خضع لظروف خاصة ، وقــد صرح القــرآن بذلك عنــدما قال لزوجات الرسول : « لســتن كأحــد من النساء » ..

ان تحريم الزواج منهن بعــده صلى اللــه عليه وســلم ، ومضاعفة الثواب أو العقاب لهن ، تشريع خاص بهن ..

ومعروف أن البر والفاجر كانوا يطرقون باب النبى صــلى اللــه عليه وسلم ، كيف لا وهو محط الرجال ومقصد الوفود من كل فــج ؟ ..

وفى بعض البــدو جراءة على النظر والقول ، وبين الاعراب بقايا جاهلية فى التطلع الى النســاء ، فكان من أعزاز اللــه لنبيه أن نزلت آية الحجاب فى سورة الاحزاب تمنع الدخول عليهن بتة ، فلا يراهن احــد الا ما استثنى اللــه عز وجل فى قوله :

« لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا أبناء اخوانهن ولا أبناء اخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين اللــه ان اللــه كان على كل شيىء شهيدا » ..

وظاهر ان هــذا التنظيم خاص بأمهات المؤمنين وأنه بعــد نزوله رئى النساء المؤمنــات مقاتلات فى حنين ، ورئين فى مناسبات كثيرة فى المسجد وغيره سافرات الوجوه ، فما أنكر عليهن أحــد

ومن الناس من يحظر رؤية النساء للرجال والرجال للنساء مطلقا . واستدل لرأيه بما روى من كراهية الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرى نساءه عبد الله بن أم مكتوم ، ويرى ابن حجر أن ذلك كان لسبب خاص ، هو أن عبد الله أعمى لا يحسن تعهد ثيابه ، وستر بدنه كله ..

وهو تعليل اضطر اليه ابن حجر لما رأى الحديث يخالف الصحاح .

ان ابن حجر رد حديث « أفعمياوان أنتما » بطريقته الخاصة ، فتغاضى عن السند ، وتأول المتن .. لكن ابن العربى رفض الحديث سندا ومتنا ! . وقال عن نبهان .. راوى هذا الحديث أنه مجهول .. ونبهان هذا كان خادما لأم سلمة رضى الله عنها ، ولم يعرف بين أهل العلم بشيىء وحديثه اذا كان قد خالف ما رواه البخارى فى رؤية عائشة للاحباش عند عرضهم الرياضى ، فهو قد خالف واقعة أخرى رواها مسلم أيضا تتصل ببنت عم لابن أم مكتوم أمرها النبى صلى الله عليه وسلم أن تقضى عدتها عنده ..

روى مسلم عن فاطمة بنت قيس أن زوجها عمرو بن حفص طلقها البتة — طلقة ثالثة — فجاءت رسول الله فذكرت ذلك له. فأمرها أن تعتد فى بيت « أم شريك » ثم قال : تلك امرأة يغشاها أصحابى ، اعتدى عند ابن مكتوم ، فانه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده ..

وفى رواية انتقلى الى أم شريك — وهى امرأة غنية من الانصار واسعة النفقة فى سبيل الله ، ينزل عندها الضيفان

– فقلت : سأفعل .. ثم بدا لرسول الله أمر آخر ، فقال : لا تفعلى ، ان أم شريك امراة كثيرة الضيفان ، فانى أكره أن يسقط خمارك ، أوينكشف الثوب عن ساقيك فيرى القوم منك بعض ما تكرهين ، ولكن انتقلى الى ابن عمك عبد الله بن مكتوم . فانك اذا وضعت خمارك لم يرك – الوضع الانزال والكشف – فانتقلت اليه ، فقالت : فلما انقضت عدتى سمعت نداء المنادى : الصلاة جامعة فخرجت الى المسجد ، فصليت مع رسول الله . فلما قضى صلاته جلس على المنبر فقال : انى والله ما جمعتكم لرغبه ولا لرهبة ، ولكن جمعتكم لأن تميما الدارى كان رجلا نصرانيا فجاء وبايع وأسلم .. الخ ..

قال الشيخ محمد ناصر الدين الالبانى :

وجه دلالة الحديث على أن الوجه ليس بعورة ظاهر . وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم اقر فاطمة بنت قيس على أن يراها الرجال وعليها الخمار (وهو غطاء الرأس) فدل هذا على أن الوجه منها ليس بالواجب ستره كما ستر رأسها ، ولكنه صلى الله عليه وسلم خشى عليها أن يسقط الخمار عنها فيظهر منها ما هو محرم بالنص ، فأمرها عليه السلام بما هو الاحوط لها وهو الانتقال الى دار ابن أم مكتوم الاعمى قال : « وهذه القصة وقعت فى آخر حياته صلى الله عليه وسلم لأن فاطمة بنت قيس ذكرت بعد انقضاء عدتها سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يحدث بحديث تميم الدارى أنه جاء وأسلم ، واسلام تميم كان سنه تسع للهجرة ، فدل ذلك على تأخر القصة عن آية الحجاب ، فالحديث اذن نص كذلك على أن الوجه ليس بعورة » ..

فى السنة العاشرة للهجرة ، وبعد نزول آية الحجاب بست سنين وقعت قصة « الخثعمية » وهى امرأة جميلة الوجه جاءت الى النبى صلى الله عليه وسلم يوم النحر وهو فى حجة الوداع تريد أن تستفتيه فى شأن ما من مناسك الحج ..

قال الرواة : وكان الفضل بن العباس رديف النبى صلى الله عليه وسلم ، فلفته جمال المرأة حدث الفضل عن نفسه — كما روى أحمد فى مسنده — « فكنت أنظر اليها .. فنظر النبى صلى الله عليه وسلم فقلب وجهى عن وجهها ، حتى فعل ذلك ثلاثا وأنا لا أنتهى » ! ..

وأصل هذه القصة ثابت فى البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى ، كانت المرأة وضيئة الوجه ، لم يرو أحد عن صاحب الرسالة صلوات الله عليه أنه زجرها عن كشف وجهها ، أو اتهمها ببث الفتنة وقلة الحياء ! . ولكن الملكيين أكثر من الملك يريدون الاستدراك على المشرع الاعظم ، واطلاق السنتهم فى الناس ويريدون طى هذه السنن الصحاح ، وابراز آثار منكرة تفيد أن المرأة تغطى عينا وتبدى اخرى ! .. او تغطى جسدها كله من الوجه الى القدم ، فلا يرى منها شيىء ، ولا يسمع لها صوت ، لأن الصوت هو الاخر عورة !! ..

ان هذا الغلو اعقب — على امتداد القرون — آثارا اجتماعية سيئة قتلت شخصية المرأة ، وانسانيتها وأساءت ولا تزال تسيىء الى الاسلام ..

يقول البعض : لا بأس ان تضع المرأة نقابا على وجهها اقتداء بنساء الرسول صلى الله عليه وسلم ..

نقول : ولا بأس أيضا من تحريم الزواج على المــرأة اذا مات زوجها امتــدادا لهــذه الاسوة ..

اننا نريد التزام خط اسلامى صحيح لا علاقــة له بتبرج الغربيات ولا بهوان الشرقيات المسلمات واهــدار آدميتهن ..

ان الغضــب للــه على العين والراس .. أما الغضــب لتقاليــد ملصقة بالوحى دخيلة عليه فشيىء لا نكتــرث له ، ولا نخشى أصحابه ..

قال لى صــديق : ان الطريقة التى تعرض بها قضايا المرأة تخالف تقاليــد قوية ومذاهب مستقرة ، وهــذا يسيىء اليــك وقــد يعوق آراء صالحة شرحتها للناس فى ميادين أخرى ..

قلت : نصيحة مقــدورة ! .. واحب ان أذكر لك ما عندى لتــدرك ما هنالك ..

اننى فى هــذه القضية وفى غيرها أرفض الاحاديث الموضوعة والواهية ، ولا أحترم التقاليــد التى تنبنى عليهما .. ان العرف السائد يحكم عليه ولا يحتكم اليه ، والاساس المرعى هو كتــاب اللــه وسنة رسوله ..

وانى اعوذ باللــه ان اكون قــد خرجت عليهما ، أن المتواتر يحكمنى والصحيح يلزمنى .. أما المرويات الاخرى فلا اكتــراث ...

وما زلت اذكر أن رئيس جماعة اسلامية كتب مقالا ضــدى تحت عنوان « مدير المساجد يكــذب رسول اللــه » !! ..

وقد اقشعر جلدى من التهمة . فأنا أحد الارقاء لجميل محمد ، الشاعرين بعظمته ، المتابعين لسيرته ، فكيف أكذبه !! ومحور المال حديث منكر يقول أن المرأة لا ترى أحدا ولا يراها أحد ..

والذى يصدق هذا الكلام يجب أن يكذب المتواتر والصحيح فى قضايا المرأة كلها ! وهذا ما فعله البعض وأقام بعدئذ تقاليد فرضها على الدين فرضا ، كيف احترام هذه التقاليد ؟ ..

وهناك آثار صحيحة السند ، شرحها البعض من زاوية خاصة ، ولهم ما ماله الله من فهم وان كان معتلا ، وليس لهم الزام غيرهم .. فقوله تعالى :

« لا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها » .

فسره أولئك بأن الزينة لا تظهر أبدا ، ولا يجوز اظهارها بتاتا ، وأن الاستثناء هو لما يقع أحيانا من مجاذبة الريح للنقاب المضروب على الوجه ..

ان كشف الوجه كان العادة السائدة ، وربما تنقبت بعض النساء ، ولم يحدث أن النبى صلى الله عليه وسلم اعترض امرأة سافرة ، والسنن شاهد صدق على ذلك ، وكان مجتمع الصحابة قائما على هذا الوضع دون تكبر ..

وتأمل فيما رواه الامام أحمد فى مسنده — والحديث صحيح — قال عن ابى أسماء أنه دخل على أبى ذر رضى الله

عنـــه وهو بالربذة ـــ أيام عثمان ـــ وعنـــده امرأة سوداء مشعثة ليس عليها أثر المحاسن ولا الخلوق ـــ الطيب ـــ فقال : الا تنظرون الى ما تأمرني هـــذه السويداء ؟ .. تأمرني أن آتى العراق ، فاذا أتيت العراق مالوا على بدنياهم .. وان خليلى صلى اللـــه عليه وسلم عهـــد الى أن دون جسر جهنم طريقا ذا دحض ومزلة ، وأنا أن ناتى عليـــه وفى أحمالنـــا اقتـــدار أحـــرى أن ننجو من أن نأتى عليه ونحن مواقير ..

يعنى اذا كنا خفافا فى الدنيا قـــدرنا على النجاة من هـــذا الطريق الزلق ، أما اذا أوقرتنا أحمالها وأثقلتنا مآربها فسنهوى .

وأبو ذر يشكو امرأته لبعض صحبه ، لانها تشـــير عليـــه بالارتحال الى العراق ، وقـــد رأى الصحب المـــرأة ووصـــفوها بما قـــرات ..

أعرف أن هناك من يرى أن المـــرأة لا يجوز أن يلمح شبحها فى مكان ! فما الذى يجعل هـــذا الكلام هو دين محمـــد ، أنه أمر بالغ السخف أن يرى أحـــد رأيا ثم يقول : هـــذا هو الـــدين ، لا دين غيره ..

نعم قـــد يقال : هو وجهة نظر فى فقـــه ما ورد من آثار .

ولا أحارب هـــذا ، وانما أضم الى الموضوع حقيقة أخـــرى ليست خاصة بالميـــدان النسائى ، وانما تعم كل ميـــدان اختلفت فيـــه آراء المجتهـــدين ..

هناك خلافات لا يضر بقاؤها الى قيام الساعة ، فليقنت من شاء فى صلاة الفجر أولا يقنت ، ان مذاهب المجتهـــدين هنا لا تترك آثارا مهمة فى مسيرة المجتمع .

لكن هناك من يرى أن الخمر والحشيش والافيون سـواء فى الحرمة ، وهناك من يفاوت بينها ، بل هناك من يبيح بعضها ! وقـد شعر أولو الالباب أن الامم التى تقبل على المخدرات أسوأ حالا وأضعف انتاجا من الامم التى تشرب المسكرات ..

فهل يقبل من أتباع بعض المـذاهب الفقهيـة القـول بأن الاسلام يبيح كـذا من المخـدرات فلا تحرموا ما أحل اللـه ؟؟ .

لمـاذا لا يسكت من اعتنقوا وجهة نظر ما اذا كانت الايام قـد كشفت أن وجهة نظرهم سيئة ؟ ..

ولمـاذا يريدون جعل ما يعتنقون دينا لا يمس ؟؟ ولحساب من هـذا التعصب والحماس ؟؟ ..

الامر كـذلك فى قضايا المـرأة . ان ترددها على المسـاجد وتزودها بالعلم سنة يساندها التواتر ..

ثم نبتت وجهة نظر أخرى فحرم عليها الذهاب الى المساجد ، وحظر عليهم التعلم ..

وهـذه الوجهة لا تعـدو أن تكون فهما رديئا لاثر ما أو اتباعا أعمى لحـديث موضوع ..

ثم انهار العالم الاسلامى كله ، وأصـبح رجاله ونسـاؤه أمثلة مزرية للتخلف ، فاذا جاء من يعيـد الكرامة الادبية والعقلية للمرأة . ويعيد الامة الى معالم سلفها الاول . قيل له : لا ! ..

والدليل ؟ فقـــه مغشوش ! أو نقل مريض ، أو رأى امرىء يريد التقـــدم بين يدى اللـــه ورسوله ليجعل من سلوكه وادراكه النهج الذى يفرض على الكتاب والسنة لا نهج غيره ..

اننا نؤكـــد أن النصوص على العين والرأس ، وأن الخلاف الفقهى وجهات نظر تخضع للموازنة والترجيح ولا قداسة لاحداها، وأن من حق المسلمين فى أ ىبلد أن يدعوا رأيا تبين من تطبيقته أنه حطهم فى الداخل وأزرى بهم فى الخارج ..

ولا يوصف أبدا ترك هـــذا الرأى بأنه ترك للدين ، بل أن أغلب ما يشيع بين المسلمين فى المجـــال الانسانى مخالف للدين ، وليس وراءه اتباع محترم ..

من أجل ذلك كله أرفض عرض الاسلام فى هـــذا العصـــر على أنه نقاب أو أنه رفض لشهادة المـــرأة وعملها فيما تصلح له ، أو رفض لقيادتها السيارة مثلا ، ورفض لاضطلاعها بمهام تطيقها مع تأكيـــدى أن عمل المـــرأة فى الاسرة يتصـــدر كل أعمالهـــا الاخرى ويحكمها ..

٩٠ — يرى البعض أن هنـــاك مملكة فى عالم الغيب تتكـــون من الاقطاب والاوتاد .. الخ . تؤثر فى عالم الشـــهادة . فما قيمة هـــذا الرأى ، وما مصادر المعرفة فى هـــذه القضايا وأمثالهـــا ؟ ..

العلم الذى يتلقاه الناس ويحظى بينهم بالقبول نوعان : دينى ومدنى ، ولكل منهما مصادره المحترمة بين أهله ، وحـــدوده التى يقرها خبراؤه ، والراسخون فيه والعلوم المـــدنية متروكة للاجتهاد المطلق وأساسها الملاحظة والتجربة والاســـتقراء ، ولـمـــا كانت هـــذه العلوم متصلة بشئون الدنيا ، فان دائرتها ليست وقفا على جنس من الاجناس أو عصر من الاعصار ، والسباق العالمى فيها يجرى دون توقف ! ..

وقـــد أفهمنا المعصوم صلوات اللـــه عليـــه اننا فى هـــذا الضرب من المعرفة الانسانية أحرار حرية تامة فقال : أنتم أعلم بشئون دنياكم ..

وليت العقل الاســـلامى انطلق فى هـــذا الميـــدان يبتـــدع ويكتشف ، ويأتى بالعجائب والغرائب كما صنعت عقول أخرى ..

انه لا يتقيـــد فى حركته هنا الا بالحقائق التى يستقر الناس عليهـــا ، وينتهون اليها ، وليس للوحى الالهى دخل فى بحـــوثه الكيماوية أو كشوفه الفلكية أو انتاجه الصناعى .. الـــخ .

أما العلوم الدينية فأساسها العتيـــد ، النقـــل عن اللـــه ورسوله ، وتستمد مكانتها من قيمة النقل ، وصحة المعنى ولذلك قال العلماء : الاسناد من الدين ، ولولاه لقال من شاء ما شاء .

ولا يمكن اعتداد شيء ما دينا اذا كان ضعيف الصلة بالله ورسوله أو منقطعها ! وتتفاوت قيم الثبوت تفاوتا شاسعا بين المتواتر المقطوع به وأخبار الاحاد المعتلة التى يرفضها البعض أو التى يترخص البعض فى قبولها عندما تتعلق بفضائل الاعمال ، أو بمناقب الرجال ..

على أن ما استقر عليه الامر فى دوائر التشريع أن الاحاديث الضعيفة ليست مصدرا لحكم شرعى عملى ، وأن القضاة والمفتين فى حل من التقيد بها دون تكبر ولا تأثيم ..

فاذا لم يكن ثمت سناد من نص دينى قوى أو ضعيف ، فلا مجال للزعم بأن للـه فى هذا الامر توجيها خاصا ..

للناس أن يقولوا ما يقولون من عند أنفسهم ، ولكن لا مكان لاعطاء كلامهم هالة معينة توهم بأن لهذا الكلام صلة بالدين ..

اننى أثبت هذه المقدمة وبين يدى نقل طويل قرأته لامام من أئمة التصوف المعاصر تحت عنوان «مراتب أهل الغيب» ما يلى :

للصوفية بحسب مراتب الاذواق والكشوف والمقامات ، مؤيدة بمفاهيم الايات والاثار اقوال شتى فى مراتب السادة (أهل الباطن) المعروفين عندهم باسم (أهل الغيب) أو (أهل الديوان) وتتلخص هذه الصورة تقريبا فى الاتى :

١ — الغوث الاعظم ، والفرد الجامع ، الذى هو قدم النبى صلى اللـه عليه وسلم ومجاله الروحى حول العرش .

٢ — ثم الامامان ، وهما وزيرا القطب عن يمينه وشماله ؛ ومجالهما الروحى فى طرفى الفرش (الفرش بالفاء : ما دون العرش بالعين) .

٣ — ثم الاوتاد ، وهم الاقطاب الاربعة الكبار ، ومجالهم الروحى : الجهات الكونية الاربع .

٤ — ثم الابدال السبعة ، ومجالهم الروحى : السبع الطباق ..

٥ — ثم النقباء الاثنا عشر ، ومجالهم الروحى البروج السماوية الاثنا عشر ..

٦ — ثم النجباء السبعون ، وهم أهل الخلوة والميقات ، ومجالهم الروحى : الافلاك والمجرات ..

٧ — ثم الاخيار ، وهم الحواريون وأهل المعارج وعددهم بين الثلاثين والثلثمائة ، ومجالهم الروحى : أقطار الافق الاعلى ، وأصحاب هذه المقامات السبعة هم الاقطاب .

٨ — ثم المفردون ، وهم الاولياء المختارون من صالحى الامة. ولا عدد يحصرهم ، ومجالهم الروحى الافق الادنى . وأقطار المدن والقرى ..

٩ — ثم الصالحون ، وهم أتقياء الامة وهم درجات شتى ، ومجالاتهم الروحية : متعددة ، ثم أن لكل صاحب مقام من هذه المقامات خلفاء وعرفاء ، فاذا خلا المقام انتقل اليه الخليفة ،

ثم ارتفع العريف الى رتبة الخليفة ، واختير من المستوى الثانى من هو أهل للعرافة ، وهكـذا . .

وقـد تختلف هـذه الصورة عند بعض السادة فى التسميات والاعداد وترتيب المستويات وكلها صحيح فى ذاته معلل بدليله (كما قدمنا) وهو راجع الى اختلاف نسب المقامات وافاضات الكشوف لكن ما ذكرناه هنا هو الاوثق عندنا ، واللـه أعلم .

وعندنا أيضا أن كل مستوى من هـذه المستويات محفوف بأرواح كل من سبق أن شغله من أهل اللـه السابقين وعلى هذا فان شاغله من الاحياء يعتبر ممثلا للارواح التى سبقته ، الى هذا المقام ، فهى تحوطه ، ومنها يستمد الكثير من السر والافاضة .

وكما أرجعنا أقـدام الاقطاب الاربعة الكبار الى نظام أهل الملأ الاعلى باعتبـاره مرجع النظام الكونى كله . والتناسـب الرابط بينه وبين العالم الارضى حقيقة مسـلمة فكـذلك مقـام الامامين أحـدهما مسـتغرق فى (الجـلال) على قـدم (مالك النار) ومن هنا صح مقام (الكمال) للغوث الاعظم ، جامعا فيـه بين الجمال والجـلال . .

ثم نجـد مقام الامامين عنـد أهل الكشف مثلا ، هما مقاما : آدم وادريس ، ثم الياس والخضر ، ومن شاء اللـه من أهـل النبوات ، ثم من على أقدامهم من الربانيين مشهورين أو مستورين ، وكان على مقام الامامين السعيدان : سـيد الاوس والخـزرج ، والسعيدان : ابن المسيب وابن جبير ، والصاحبان الفقيهان : أبو يوسف ومحمـد بن الحسن ، والشيخان المحـدثان : البخـارى ومسلم وهكـذا . .

ويجتمع (أهل الديوان) وهم كبار أصحاب الوظائف الغيبية ، أرواحا وهيولا ، فى المعاهد الثلاثة المقدسة : الحرم المكى ، والحرم النبوى ، وبيت المقدس ، ثم فى أماكن مقدسة أخرى يكشف عنها لاهل القلوب ، على توقيت وترتيب دقيق ، فليس فى الغيب فوضى ، ولا تجمد وعدم ولا انفصال الغريب المفصل المعالم الوجود وقوى مطلق !! ا.هـ ..

قرأت هذا الوصف للكون وحركات عالمى الغيب والشهادة ثم تساءلت عن هذا اللون من المعرفة : أهو مادى التمس أدلته من علم الكون والحياة والطبيعة والكيمياء ؟ ..

وكان الجواب السريع : لا .. فان علماء الكون والحياة لا يقررون من هذا الكلام حرفا ..

أهو دينى نلتمس أدلته من الكتاب الكريم والسنة المطهرة ؟.

وراجعت سور القرآن كلها ، فلم أجد لهذا الكلام شاهدا ، وأخذت أتذكر ما أعرف من السنن التى رواها البخارى ومسلم والترمذى وأبو داوود والنسائى وابن ماجه وابن حنبل .. الخ . فلم أجد لهذا الكلام شاهدا ..

قلت : هل هذا الكلام رأى فقهى يستند الى أثر ضعيف عند الناس قوى عند صاحبه ! .. ان هذه الاراء وجدت فى علومنا ، ألا ترى الاحناف يحكمون بنقض وضوء من يقهقه فى الصلاة اعتمادا على أثر أخذوا به ، والشافعية يشترطون أربعين لصلاة الجمعة اعتمادا على حديث لين ؟؟ . ان أصحاب هذه المذاهب معروفون لدينا وقد يخطئهم غيرهم فى هذه الاراء ،

وعلى كل حال فان من ذهب اليها لا يتعصب لها ولا يظن أنها الصواب الذى لا صواب وراءه ، ولا يصفها بتاتا بأنها حقائق مستيقنة ! .. لكن الاستاذ الكاتب — عفا الله عنه — لا يعتمد فيما كتب على مرويات قوية أو ضعيفة ، ومع ذلك فهو يتهم من يعارضه بالجهل ويوصيه بأن يمسك جهلة على نفسه وحدها ، والا فهو سيقول هرطقة أو شقشقة ، أو هنبقة أو فيهقة باسم الدين المظلوم .. هكذا يقول ! ..

عجبا ، هل اذا أنكرت اجتماع أهل الديوان من أصحاب الوظائف الغيبية ، فى مكة أو المدينة أو القدس — قبل احتلالها أو بعده — أتعرض لهذه التهم ؟ .. لماذا ؟ شىء لم يقله الله ولا رسوله ، بل شىء نجزم أن أصحاب رسول الله ماتوا وهم لا يعرفون عنه شيئا ، يعتبر انكاره هرطقة وهنبقة ؟؟ لماذا ؟

هل لأى انسان يقوم الليل ويصوم النهار أن يقول لجماهير المسلمين كلاما لا يعرفونه فى مراجع دينهم ، ويلزمهم باعتناقه ؟ والا فهم جهال ؟ ..

ذاك ما نرفضه جملة وتفصيلا ..

بل أن الذى نوصى الجماهير به أن يعضوا على كتاب الله وسنة رسوله .. وأن يحكموا ما عداه الى ما ورد وثبت .. فمن أتى لهم بشىء من عند نفسه ردوه عليه ..

وليس للخواطر أو الالهامات أو الرؤى أو الخيالات أى موقع من مصادر التشريع . لقد قرر علم الفلك حقائق معروفة عن حركات الارض حول نفسها وحول الشمس فاذا جاء رجل يحلف

بالله أنه أمسك بذيل الثور الذى يحمل الارض ، فليحلف ما شاء ، وليبق على معتقـــده ما شاء ..

اما أن يتحول من ذلك الى مهاجمة الاخرين والنيل منهم باسم العلم فذاك شيء مضحك ..

اننا نرحب بالتصوف طريقا الى أدب النفس ورقابة اللـــه ، وتمكينا من مقام الاحسان ، وترويضا على إيثار الاخرة والاعتـــدال فى الدنيا .. وتأبى اباء شـــديدا أن يكون التصوف ذريعـــة الى قبول ما لم يجيء به نص من كتاب او سنة او اجماع .

القـــداسة للوحى الالهى وحـــده ! كمـــا جاء فى القـــرآن الكريم ، والسنة المطهرة .. أما تصورات بعض الشـــيوخ عن العالم فهى خيالات غامضة قـــد تشبه ما يؤلفه البعض من روايات وقصـــائد ، ولا تعـــدو فى قيمتها هـــذا النطاق ..

وليس لبشر أن يلزم الناس بسبحات خيـــاله ولو انبـــرى جسمه من العبادة والسهر ! فنحن مسلمون لا نأخـــذ ديننا الا من مصادره المقررة وحـــدها .. اننا من أنصار التصوف ، وأولى الغيرة عليه ، يوم يكون التصوف انعاشا لعاطفة الحب الالهـــى وانضباطا مع معالم الكتاب والسنة ..

أما اذا أفلت من قيود المنطق ، ومفاهيم اللغة ، وموازين الرواية والدراية فأية قيمة له ؟ .. ومن الذى يلزم الخاصـــة والعـــامة به ؟ ..

وائمة التصوف أنفسهم يلزمون هذا النهج السوى فلا يجوز أن نبعـــد عنـــه ..

أنه لا خلاف بيننا على أن اللـــه يؤتى فضله من يشـــاء ، وانه فضل بعض الانبياء على بعض ، وبعض الامكنة والازمنـــة على البعض .. الخ ..

لكن من أين تعرف هـــذه التفضيلات ومداها ؟ ..

الذى نقـــرره قاطعين ان الشارع وحـــده مصـــدر هـــذه المعـــرفة ..

ونحن من الكتاب والسنة نعرف أن المؤمن ينظر بنور اللـــه وقـــد قال اللـــه تعالى :

« يا أيها الذين آمنـــوا اتقوا اللـــه وآمنـــوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به » ..

لكن ليس من النظر بنور اللـــه أن تفتح أبواب الرجم بالغيب لكل انسان مهما اجتهد فى عبادته وتقواه ليقول فى دين اللـــه كلاما لا برهان له به الا المعاناة الخاصة والكشف الذاتى ..

ان قسم السمعيات من ديننا يشـــمل الامور الغيبيـــة التى لا تعرف الا عن طريق المعصوم ، فالصراط والميزان ، وثواب القبر وعقابه ، وشئون المـــلأ الاعلى ، وبعض الاوصاف الالهية ، كل أولئك لا ينفرد العقل بادراكه ، ولا سبيل للبشر اليه الا بتوقيف من الشارع نفســـه ..

فاذا جاء امرؤ مثلا فزعم أن حملة العرش الثمانية تحتهـــم ستة عشر ملكا ، ثم اثنا وثلاثون ملكا .. وهكـــذا فى متواليـــات هنـــدسية قلنا له : من أين جئت بهـــذا الكلام ؟ ..

ومن حقنا أن نقول له هـــذا ! .. بل اننا نجرم فى حـــق ديننا اذا لم نقل له : من أين جئت بهـــذا الكلام ؟ ..

فاذا لم يذكر آية من كتاب ، ولا أحاديث مقبولة عن رسول اللـــه وجب أن نمحو هـــذه الزيادات وأن نرفض تلك الاضافات .

والمقامات الكبرى التى شرحها الاستاذ محمد زكى ابراهيم . وتحـــدث فيها حـــديثه المـــدون فى مجلة المســـلم عن المـــلائكة والاقطاب هى اقحام لجملة من المعلومات الغريبـــة على قســـم السمعيات فى ديننا ، دون أن يكون لهـــذه المعلومات الدخيلة أى اسناد من كتاب أو سنة ..

وقـــد هـــدد من ينكرها بأنه « عنـــد أهل الحق معوق عن السلوك ، مؤخر عن الوصول ، معرض للسلب والاستدراج » ! .

بل قـــال أن انكارها « موطىء لمـــا قـــد يكون به ســـوء الخاتمة والعياذ باللـــه ، لانه حكم على مجهول لا يقين عليه لغير العالم به فيسلم له » !! ..

ونقـــول دون تردد : هـــذا باطل ، فقـــد انتهى الوحى . ولا نسلم لبشر أن يزيد فى حقائق الدين ، بل أن الزيادة فى هـــذا الباب لا تقل خطرا عن وضع الاحاديث على رسول اللـــه ، ومن حق المسلمين فى المشارق والمغارب أن ينادوا هـــذا وحى من عند اللـــه فيقبل وهـــذا لغـــو من عنـــد الناس فيرفض .

ثم انه فى باب الســـمعيات لا تقبل الروايات المعتلة ، ولا الاسانيد والمتون المختلفة ، لقـــد ذكر السيوطى فى كتابه الاتقان

أن هناك ثلاثة أقوال فى الفاظ القــرآن ، انها من عنــد محمــد (كــذا) ! وأنها من عنــد جبريل ! .. وأنها كالمعانى من عنــد اللـــه ..

وايراد هــذا الكلام ضرب من الجهــل رفضــه المسلمون أجمعــون ، فالقــرآن الفاظ ومعــانى من عنــد اللـــه ، ولكن السيوطى حاطب ليل وجماع للحق والباطل دون تمحيص ، ونحن لا نأخــذ ديننا بهــذه الطريقة البلهاء ..

واننى أعجب : لمــاذا يريد بعض اخواننا أن يقرن التصـوف بهــذه المبتــدعات والغرائب المنكورة ؟ . ان التصوف عند رجاله الاوائل طريق تربية نفسية صالحة ، وتدريب على مراقبة اللــه ومشاهدته فيما نفعل ونترك ..

ويمكن تسميته على الاخلاق الدينيــة ، لان تراثه المتنــقى لا يخرج على هــذا الاطار وقــد كان أبى رحمه اللــه صــوفيا من أتباع الشيخ أبى خليل ، فما عرفته الا كادحا يتقى اللــه فى رزقه ، ويقــرأ كتابه فى دكانه ، ويعايش النــاس على الاخوة السمحة ، ولا يعرف شيئا بعــد ذلك من هــذه الخيالات .

أخشى اذا حرص صوفية العصر على التشبث بغير الكتاب والسنة أن يجنــوا على التصوف جملة وتفصيلا ، فيجتــاح من أصــله ..

ولهــذه المناسبة نذكر ما لهجت به الالسنة أخيرا من تفسير الدكتور عبــد الحليم محمود لأوائل سورة النجم .

يقول اللـــه تعالى واصفا الوحى النازل على نبيه محمــد عليه الصلاة والسلام :

« علمه شــديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالافق الاعلى ثم دنا فتــدلى فكان قاب قوسين أو أدنى » ..

فمن هو شــديد القوى الذى استوى بالافق ثم اقتــرب من الرسول فعلمه ما تعلم ؟ ..

فى ســورة التكوير يذكر هــذا المعنى بأسلوب آخر « انه لقول رسول كريم ذى قوة عنــد ذى العرش مكين .. الى أن قال : ولقــد رآه بالافق المبين » ..

وفى سورة الشعراء يصاغ هــذا المعنى نفسه فى قالب آخر « وانه لتنزيل من رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبــك لتكون من المنــذرين » ..

وظاهر من هــذه الايات كلها أن الموصوف بالقوة ، البادى بالافق ، النازل على قلب الرسول الامين هو ملك الوحى ، جبريل لا غــير ..

لكن الدكتور عبــد الحليم محمود عفــا اللــه عنــه لوى عنق الايات من أوائل النجم ، وجعل الذى دنا فتــدلى ، هو اللــه ـــ سبحانه وتعالى .

وهو خطأ مبين ، وينبغى عنــد تفســير آية ما نزلت فى موضــوعها آيات أخرى وأحاديث متعــددة الروايات الا نحصر

أنفسنا داخل آية واحــدة ورواية واحــدة ثم نتعسف القول ، خصوصا عنــدما يتصل الامر بذى الجلال والاكرام .

وحب رسول اللــه صلى اللـــه عليه وسلم لا يشفع فى هذا الخطـــأ ..

لقــد اعتمــد الدكتور الفاضل فى رأيه على حديث للبخارى أخرجه من رواية شريك بن أبى نمــر عن أنس بن مالك ، وهـــذه الرواية مجرحة ، قال النووى فى شرحه لمسلم : قــد جاء من رواية شريك فى هـــذا الحـــديث أوهام أنكرها عليه العلماء وقــد نبـــه مسلم على ذلك بقوله « قــدم وأخر وزاد ونقص !! يعنى فى الرواية التى أوردها البخارى عنـــه ..

وهـــذه الرواية المنكرة تصرح بأن الاسراء قبل البعثـــة ! وأن القصة كلها رؤيا منام ! وأن رب العزة هو الذى دنا فتدلى ! .

ونقل القاضى عياض انكار أهل العلم لهـــذه الرواية ، قال النووى : وهـــذا الذى قاله القاضى عياض قاله غيره ..

وقال الحافظ عبــد الحق فى كتابه « الجمع بين الصحيحين » بعـــد ذكر هـــذه الرواية عن أنس — التى أثبتها البخـــارى — قـــد زاد فيها شريك زيادة مجهولة وأتى فيها بألفاظ غير معروفة .

هـــذه هى الرواية التى اعتمــد عليها الدكتور عبد الحليم فى تفسيره الذى دافع عنـــه بحرارة وأثبته فى رسالته التى نشرها مجمع البحوث ، وهو تفسير لا يقبل بتاتا ! ..

ولا أدرى لم تلقى الاحكام الخطيرة بهذه الطريقة المستغربة ؟ ولم لا نعود الى كتبنا الاولى نستبين منها الرشـــد ؟ ..

٩١ — لم حرم الاسلام لحوما معينة ، وهل لذلك حكمة ؟؟ ..

بين العباد وربهم عقود تتصل بحقوقه جل شأنه ، أو تتناول علاقة بعضهم ببعض ، وقد تتناول علاقاتهم بالكون المسخر لهم ، والاحياء التى ذللها لمناغعهم ..

وقد أمر المؤمنين برعاية هذه العقود والاحساس بحرمتها : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، أحلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم » (١) ..

وما يتلى عليهم أربعة أنواع على الاجمال ، وعشرة على التفصيل ذكرت فى قوله تعالى :

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب »(٢) ..

والتحريم مشروع هنا لمصالح الناس ، والحفاظ على صحتهم ، ولا يقال : ان الناس تأكل الخبائث ولا يصيبها ضرر ظاهر ، أو أن الجماهير تشرب الخمر والدخان والمخدرات ويتأخر اعتلالها ، أو تكون وعكاتها خفيفة ، ان هذا الكلام مردود ، اذ أن التحقيق العلمى أثبت أخطار هذه السموم ، واذا كان البعض ينجو منها فلأسباب غير مطردة .. والواجب أن تتنزه الجماهير عن أكل هذه المحرمات ، فرارا من بلاء الدنيا وعذاب الاخرة ..

---

(١) المائدة : ١
(٢) المائدة : ٣

أول هــذه المحرمات « الميتة » وهى الحيوانات أو الطيور التى تموت حتف أنفها ، ويغلب أن يكون هلاكها لمرض باطن بها ، وليست الاسماك التى تموت بعــد خروجها من المــاء من صنف الميتــة ، بل هى لحم حــلال ..

ثم الــدم ، أى المسفوح الذى يسيل من عروق الذبيحة ، لا يجوز تجميعه وطبخه .

ولحم الخنزير لقذارته واحتوائه على جراثيم وديدان خبيثة ! ولحم الخنزير محظور فى الاديان الاولى كما هو واضح فى تعاليم العهــد القــديم ، وقــد أباحه « بولس » ولا ندرى : لمــاذا ؟ مع أن شرائع العهــد القــديم ملزمة للنصارى ..

وما أهل لغير اللــه به ، وهــذا تحريم تعبــدى محض ، والمقصود منــه قطع دابر الوثنية وما يمت اليها بصلة ! فماذبح مقترنا باسم صنم أو بأى اسم آخر غير اسم اللــه حرم أكله ..

والاصل فى الذبح أن يكون باسم اللــه الذى سخر وأباح . قال تعــالى :

« فكلوا مما ذكر اسم اللــه عليه ان كنتم بآياته مؤمنين .. ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم اللــه عليه وانه لفسق »(١) ..

ويرى فريق من الفقهاء أن ذكر الاسم الكريم مستحب وليس فرضا ، فذكر اللــه مستكن فى قلب كل مسلم وان لم يجــر على

(١) الانعام : ١١٨ ، ١٢١

لسانه ، وانما يوصف المذبوح بأنه فسق اذا ذكر عليه غير اسم الله ، وقد اعتمد هؤلاء فى فهمهم على سنن واردة !.

وهنا تضحية أخرى : هل ذبائح أهل الكتاب باسم الصليب أو باسم الكنيسة تندرج فى هذا التحريم ، وتعد مما أهل لغير الله به ؟ يرى ذلك جمهور الفقهاء .

ومن رجال المذاهب من يخص العموم هنا بإباحة طعام أهل الكتاب التى تقررت فى آية أخرى ، وهو استدلال قد يتقبل ، وان كنت أعاف الاكل من ذبيحة على هذا النحو ! ولكنى لا أعيب الآكلين ..

ومن أنواع الميتة المحرمة « المنخنقة » وهى التى شنقت نفسها أو شنقها غيرها بأن لف حبلها حول عنقها حتى طاحت .

و « الموقوذة » وهى التى ظلت تضرب حتى هلكت سواء كان بعصا أو بما أشبه العصا ..

و « المتردية » وهى التى هوت من مكان عال ، أو داخل حفرة ، ففقدت حياتها ..

و « النطيحة » وهى التى ماتت فى صراع مع حيوان آخر ظل ينطحها حتى أهلكها .

« وما أكل السبع » التى عدا عليها وحش مفترس فأعطبها ، فاذا أدرك المرء بهيمة من هذه الخمسة الاخيرة ، وما تزال بها حياة ، فذبحها حتى سال منها الدم ، جاز أكلها ، ما دام قد رأى ان ذبحه هو الذى أجهز عليها ..

أما « ما ذبح على النصب » فهو من قبيل ما أهل لغير الله به ، والنصب شاخص يقيمه الناس لمعنى يتواضعون عليه ، كالنصب التذكارى للشهداء ، أو للجندى المجهول مثلا ..

والذبح عند نصب قائم أو ضريح يزار نوع من الوثنية يأباه الاسلام ، وتحرم به الذبيحة ..

ان الله الذى خلق كل شيىء هو الذى سخر لبنى آدم بعض مخلوقاته منها « وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ، ومنها تأكلون »(١) ، « الله الذى جعل لكم الانعام لتركبوا منها ومنها تأكلون »(٢) ..

وللنباتيين رأى فى ترك اللحوم كلها لا تقرهم الاديان عليه ، ولا أعرف شريعة سماوية حظرت ذبح الحيوان ..

وما دام الله هو الذى أحل فينبغى التزام الاسلوب الذى قرره فى الانتفاع بهذه الذبائح ورفض ما عداه .

والمحرمات التى أحصيناها هنا تكرر ذكرها فى أربعة مواضع من القرآن الكريم على طريق القصر والحصر ، مما يجعلنا نعد ما ورد من نهى عن أكل غيرها من قبيل الكراهية ، وفى ذلك خلاف فقهى معروف ..

وقد أطال صاحب المنار فى التعليق على تحريم كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير ، واقترب من مذهب

---

(١) المؤمنون : ٢١ (٢) غافر : ٧٩

مالك رضى اللــه عنه ، ولا نقحم أنفسـنا فى هــذا الميـدان ، وانما نلفت النظر الى أن نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام قـد بعث بتحليل الطيبات وتحريم الخبائث ! ونحن نجزم بأن ما نص الشارع على تحريمه فهو من الخبائث .. فما الرأى فيما لم يتناوله الكتاب بنص ؟ ..

يقول الشيخ محمـد رشيد رضـا : « ما لا نص فى الكتاب على حله أو على حرمته قسمان : طيب حلال ، وخبيث حرام . وهل العبرة فى التمييز بينهما ذوق أصـحاب الطباع السـليمة ، أو يعمل كل أناس بحسب ذوقهم ؟ كل من الوجهين محمتل .. والموافق لحكمة التحريم الثانى ، وهو أنه يحرم على كل أحـد أن يأكل ما تستخبثه نفسه وتعافه ، لانه يضره ولا يصلح لتغذيته . ولذلك قال بعض الحكماء : ما أكلته وأنت تشتهيه فقـد أكلته ، وما اكلته وانت لا تشتهيه فقـد أكلك ! ..

ونحن نرى أن الاستعانة بعلم التغـذية وما وصـل اليـه الاخصائيون فى علوم الاحياء مطلوبة ، ولعل ذلك يميز الخبيث من الطيب .. على أننا نرفض كل احتيال على اهمال النص ، فان الاسلام حرم الخنزير مثلا لو ساخنه وحمل لحمه لمصادر البلاء ! فاذا جاء اليوم من يقول : انه ربى خنازير معينـة على مراعى حسنة واتخـذ ضمانات لانتقاء لحمها من مصادر العلل ، لم نقبل قوله ، ولم نستبيح الحرام ! .. ان ذلك يشبه ما تزعمه شركات التبغ من أن « الفلتر » الذى تضعه فى سجائرها يمنع القطران من تلويث الرئة .. ما أغنانا عن هـذا كله ، وفى الحلال الكثير الميسور ما يغنى عن هـذه الحيل ..

ولا يجوز تعـذيب الحيوان عنـد ذبحه ، وأفضـل طرق التذكية ما يخفف على الحيوان خروج روحه ، وقـد رأى فقهاؤنا

القــدامى أن يكون الذبح بقطع الحلقوم والمــرىء والودجين — عرقان على صفحتى العنق — أو أكثر ذلك ، لتتم تنقية البــدن من الدم الكامن فيه ! يقول صاحب المنــار : « ان هــذا لتحكم فى الطب والشرع بغير بينة ، ولو كان الامر كــذلك لمــا أحــل الصيد الذى يأتى به الجارح ميتا » ..

ثم يقول : « وانى أعتقــد أن النبى صلى اللــه عليه وسلم لو اطلع على طريقة للتذكية أسهل على الحيوان ، ولا ضرر فيها كالتذكية بالكهربائية »(!) ان صــح هــذا الوصف لفضلها على الذبح ، لان قاعدة شريعته أنه لا يحرم على الناس الا ما فيــه ضرر لانفسهم أو لغيرهم من الاحياء ..

ولا أعرف الطريقة التى يومىء اليها الشيخ رشيد ! وقــد عرفت أن مصانع اللحوم البقرية تضرب البهيمة قبل ذبحها ضربة تخــدر أعصابها ، ثم تقطع الرأس ، وتمضى فى تهيئة الحم لاكليه ، قــد تكون الصــدمة التى تذهب باحســـاس البهيمة ولا تذهب بحياتها مشــبهة للمخــدر الذى يتناوله المــريض قبل جراحــة يجريها الاطباء ولا شيىء فى ذلك بداهة ..

بيــد أن أعدادا من الغربيين والشرقيين يخنقون الطيور ، أو يجهزون على حياتها بوسائل همجية أقسى من الذبح ، وان كانوا يعيبون الذبح ! وذلك ما تأباه الشريعة الاسلامية .

ذلك ، وقــد عطف القــرآن الكريم على الطيبات المباحة مثل لحوم الصيد « يسألونك ماذا أحــل لهم ؟ قل : أحــل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهم مما علمكم اللــه فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم اللــه عليه »(١) .

---

(١) المــائدة : ٤

والصيد كما يكون بالكلاب المدربة والبزاة والصقور يكون بالاسلحة الفاتكة « ليبلونكم الله بشيىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب »(١) .

وفى عصرنا هذا اختفت الرماح والسهام لتحل محلها الاسلحة النارية التى تقتل الصيد أو تصيبه بجراح مجهدة ، وعند ادراكه حيا ينبغى أن يذبح الذبح الشرعى المعهود ، والا فان موته بأى أداة من أدوات الصيد السابقة يعتبر ذكاة له ..

وليس الصيد مسلاة لطلاب اللهو وهواة قتل الحيوان ، بل هو مصدر من مصادر التغذية التى كان الناس ، ولا يزالون فى بعض البيئات يحتاجون اليها ..

والصائد يذكر اسم الله عندما يرسل كلبه ، أو يطلق رصاصة ، وروى ابن جرير : « اذا أرسلت جوارحك فقل باسم الله وان نسيت فلا حرج ، أى أن عدم الذكر لا يحرم الصيد ..

وروى البخارى أن قوما قالوا : يا رسول الله ، ان قوما يأتوننا باللحم لا ندرى أ ذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : سموا عليه أنتم وكلوا .. قال : وكانوا حديثى عهد بكفر ..

تابعت عن كثب النقاش الحاد الذى دار حول ذبائح أهل الكتاب وغيرهم من الامم : وكان الناس يطلبون رأيى فأقول فى قلة اكتراث : من شاء أكلها مهما كانت طريقة ذبحها ، ومن شاء تركها ، واستعاض عنها بما يحب ! .. وألح على بعض الاخوة

(١) المائدة : ٩٤

أن أدلى برأى فى القضية .. فلم أر بأسا من نقل وجهات النظر فيها مع تعليق لابد من اثباته ..

يقول الشيخ عبد الله بن زيد رئيس المحاكم الشرعية بدولة قطر : « كل ذبيحة من حيوان ، أو دجاج تجلب الى الناس وهى مجهولة ، لا يعلم من ذبحها ولا كيف ذبحها ، فانها تندرج فى عموم الحديث الذى رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها انهم قالوا : يا رسول الله ان قوما حديثى عهد بجاهلية يأتوننا باللحم ، لاندرى أ ذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : سموا الله أنتم وكلوا » ..

وقد أباح القرآن ذبائح أهل الكتاب بدون قيد ولا شرط ، وما سكت القرآن عن تحريمه فهو حلال لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم ، غير نسيان ، فلا تبحثوا عنها » .. قد يقال : اننا نعلم بيقين أن من أهل الكتاب من يذبح باسم الصليب ، أو من يخنق الطيور ، أو من يهوى بمثقل على أم رأس الحيوان فيقتله ، فكيف نطعم شيئا من ذلك ؟ ..

قلت للسائل : هذا بحث قديم ، وقد اختلف الفقهاء فيه . فمنهم من أدرج هذه الصور المحكية تحت عنوان « ما أهل لغير الله به » أو تحت عنوان « المنخنقة » أو تحت عنوان « الموقوذة » .. واستثناها من ذبائح أهل الكتاب المباحة .. ومن الفقهاء من جعلها من ذبائح أهل الكتاب المباحة بالنص . واستثناها من المحرمات السابقة ، وقال : الله أعلم — اذ

أباح أطعمتهم — ما يقولون وما يفعلون .. من هؤلاء الفقهاء مالك رحمه الله فقد جاء فى « المدونة » أنه سئل عما ذبحوه للكنيسة أو غيرها ، فقال أكره ذلك ولا أحرمه ! ان الله أباح لنا ذبائحهم وقد علم ما يفعلونه . وقال القاضى ابن العربى المالكى فى كتابه « أحكام القرآن » عند تفسير قوله تعالى : « أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم » .. قال : وسئلت عن النصرانى يقتل عنق الدجاجة ثم يطبخها هل يجوز أن نأكل معه منها ؟ فقلت : نعم كلوا منها ، فانها طعام أحبارهم ورهبانهم ، وان لم تكن هذه الطريقة ذكاة عندنا .. ولكن الله أباح لنا طعامهم مطلقا » ..

الخلاف الفقهى قديم كما ترى ، والاساس الشرعى لكل مذهب قائم ، من شاء تبع هذا فأكل ولا حرج ومن شاء تبع هذا فامتنع ولا حرج .. ولا أشتغل بمزيد من عرض الادلة المتقابلة لا تأييدا ولا تنفيذا ، فوراء هذه القضية أمر آخر يتصل بالسلوك الاسلامى العام ، أو يتصل بحاضر المسلمين ومستقبلهم .. لماذا يستورد المسلمون هذه الذبائح من أنعام وطيور ؟ لماذا عجزوا عن تنميتها وتكثيرها فى بلادهم ؟ هل تربية الابقار والدجاج تحتاج الى اخصائيين فى علوم الذرة ؟ وعندما تصاب قدرات المسلمين بالشلل فى مجال الثروة الزراعية والحيوانية فهل ينتظر لهم تفوق أو نجاح فى الميادين الاخرى . برا وبحرا وجوا ؟ ان الحماس فى عالم الجدل مرض عفن اذا صحبه برود فى عالم الانتاج .. وقد رأيت التدين التقليدى يتسم بهذه الخاصة المزعجة ، قصور فى فهم أو فى عرض وجهات النظر المختلفة ، ثم تراشق بالتهم ، وتبادل لسوء الظن .. فاذا تطلب الايمان ضرورة اكتفاء الامة بمواردها ، واستغنائها عن سواها تبخر الحماس ، وخلا الميدان .. لست

من هواة التغلغل فى الفروع الفقهية ، فان أصول العقيدة والاخلاق والتشريع تهمنى وتستغرق وقتى . وما أنظر فى الامور الفرعية الا بمقدار ما أجمع به الشمل وأمنع الفرقة وأقصى المتزمتين والمعلولين عن أماكن الصدارة ..

ان حاجة المسلمين الى القمح لصنع الرغيف ، أو الى الدواء لعلاج العلل ، أو الى اللحوم ميتة أو حية شىء — فى نظرى يهدد عقائدهم ذاتها ، ويجعلهم يعيشون عالة على أهل الارض ..

فهل نوجه قدرتنا على الكلام والاعتراض الى عمل ايجابى ؟ أم تبقى مهمة بعض المتدينين الطعن فى الدواء لانه ذائب فى « الكحول » ورفض اللحم المستورد لان ذكائه موضع ريبة ؟ . ثم ينتهى دورهم ! .. اننى أقدر النية الحسنة لكل من شارك فى هذا البحث ، ولكن الطريق لما يمهد بعد لعمل جاد تتحرك به أمة كسول ! ..

لست بعيـدا عن هـذا الميـدان ، بل أحسبتنى واحـدا من الكادحين فى جنباته .. لقـد تلقيت العلم على مجاهـدين ذوى صلابة ، ثم قمت بتعليم شباب سبقونى سبقا بعيـدا فى احراز الرضوان الاعلى ، لانهم ماتوا شهداء فى سبيل اللـه ..

اننى لست بيـدى صحوة الاسلام فى هذه الايام ، وصافحت بحرارة وحب رجالا يقاتلون عن بقايا الاسلام فى « الفلبين » على شواطىء الهادى ، ورجالا آخرين يحرسون مواريث الاسلام على شواطىء الاطلس .. وبين الشـاطئين المتباعدين قامت مدارس تجاهـد بالقلم وكتائب تجاهـد بالسلاح ، تزود الغزوين الثقاف والعسكرى عن أراض فيحاء نام ساستها حينا من الدهر ، فدفعوا ثمن نومهم ذلا فادحا واستعمارا فاضحا ..

ان الصحوة الاسلامية حقيقة قائمة ! ولكن الاعداد لسحقها وتبـديدها حقيقة أبرز للعين وأرهب للنفس ..

والمستشرقون الاوربيون يعرفون طبيعة الاسلام ، ويرصدون تاريخه القـديم والحديث بعينى ذئب جائع وتدبر قول المستشرق الالمـانى « باول شمتز » فى كتابه « الاسلام قوة الغـد العالمية » الذى صـدر من نصف قرن تقريبا : « ان انتفاضة العالم الاسلامى صوت نذير لاوربا وهتاف يجوب آفاقها ، يدعوها الى التجمـع والتساند لمواجهة العملاق الذى بدأ يصحو » ..

ويقول : « ان قوة القرآن فى جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن ! ولم تفلح الاحـداث الكثيرة فى زعزعة ثقتهم به .. وأن

الروح الاسلامية ما زالت تسيطر على تفكير القادة وعواطفهم . وستظل كذلك ما دامت الشعوب الاسلامية قد ربطت مصيرها بتعاليم الاسلام ، واعتقدت أنه الرباط الجامع بين أجناسها المختلفة » ..

ان هذا القول القديم الجديد يكشف ما وراءه من اعداد لضرب الاسلام غيلة أو جهرة ، ويفرض علينا المزيد من الحذر واليقظة ..

والحق أن الصحوة الاسلامية المعاصرة تكتنفها أخطار هائلة، يشارك فى صنعها مبشرين ومستشرقون وساسة وعسكريون وأدباء واعلاميون ، وملاحدة وكتابيون ، ومصارحون ومداهنون وأناس غرباء عنا واناس من جلدتنا ..

ولست أخاف أولئك كلهم يوم يكون قادة الصحوة الاسلامية من معدن اسلامى صاف يجددون سيرة سلفنا الاول فيعملون بعقل مفتوح وقلوبهم ترنو الى الله وحده ..

لقد كادت الدعوة الاسلامية تعلن افلاسها منذ قرنين تقريبا ، بل لقد تركت الميدان خاليا لشتى الملل والنحل تنشر الخرافة وتعلى راية الباطل .. ثم بدت تباشير صبح جديد وتيقظت الثقافة الاسلامية من سباتها تدافع بقوة وتمهد لغد أفضل ..

وأريد أن أقدم للصالحين الجدد بعض ما أفدت من تجارب حتى يتجنبوا النكسات ، وحتى لا يقدموا أرض الاسلام غنيمة باردة للمتربصين من لون ..

اننى أشعر بانزعاج حين أرى المجاهدين فى قطر ما يبدءون العمل من الصفر ، غير منتفعين بما حــدث لاخوانهم فى قطر مجاور بل حين تبــدأ جماعة ما العمل غير منتفعة بما وقع لزميلتها فى القطر نفسه من بضع سنين .. انهم يلدغون من حجر واحــد مرتين ، أو أكثر دون وعى ..

ما تقول فى مدير يبــدأ العمل فى شركة مضطربة دون أن يدرس أسباب الاضطراب ومسالك المــديرين من قبله ، وأسرار فشلهم أو توقفهم ؟ ألا يستحق التأديب ؟ ..

ان خسائر جسيمة أصابت الدعوة الاســلامية من هــذه القيادات الذاهلة ..

ولا يقبل فى هــذا المجال اعتــذار بحسن النية ، ولا تنجو الامم المسترسلة وراء هــذه القيادات ، واذا كان الجهل بقوانين البشر لا ينجى من اللائمة فان الجهل بسنن القــدر أسوأ عقبى ، ومن هنا رأينا الحساب شــديدا للمنهزمين فى أحــد ! قيل لهم دون مواربة لمــا ســألوا عن سر الهزيمــة « قل هو من عنــد أنفسكم »(١) ..

ويوجــد عاملون فى الحقل الاسلامى يظنون أنفسهم فوق المساءلة ، لعل ذلك ببركة الوضوء والصلاة ! ..

والذى أراه أن القوم يعانون عللا نفسية ، وانه لا بركــة هنالك بل فوضى ! ..

---

(١) آل عمران : ١٦٥

ولأترك هـذا التعليق العابر الى أخطاء لها جذور فى ماضينا الطويل ..

كان الادباء قديما يلتزمون السجع فى مقالاتهم ، ومرت بالادب العربى عصور احتبس فيها داخل هذه القيود اللفظية .

والتزام السجع يتم على حساب المعنى غالبا ، فلن تجد فكرا عميقا ولا أداء منسابا سهلا ولا معالجة خصبة ثرة لمختلف القضايا والموضوعات ، بل أن السجعة قد تخلق المعنى ، ومن الطرائف فى هذا أن أحد الولاة قال للقاضى : أيها القاضى بقم ، قد عزلناك فقم ! فقال الرجل المعزول : والله ما عزلتنى ولكن عزلتنى القافية ! ..

ولم يأخذ الادب العربى طريقه صعدا الا بعد ما تخلص من القافية أو السجع ..

وما حدث فى ميدان الادب حدث مثله فى ميدان الدين . فقد مرت بالمسلمين عصور طوال أصبح فيها فقه الفروع عمود الدين وسنامه وذروة أمره ! أو أصبح البحث فى صور العبادات وأشكالها هو الشغل الشاغل للخاصة والعامة ..

وتصور الدهماء أن اتقان المراسم شارة الكمال وسلم الارتقاء ووسيلة القبول عند الله ..

وعلم الفقه جزء له مكانته فى الثقافة الاسلامية لكن مكانته تجيىء بعد علوم العقيدة والاخلاق ..

واتقان مذهب فقهى فى الفروع العملية شىء حسن ، ولكن هـذا الاتفاق لا يغنى قليلا ولا كثيرا عن مهاد الاخلاق والعقائد الذى لابد منـه أولا وآخرا ..

ربما اختلف الفقهاء : أيقرأ المصلى وراء امامه أم لا ؟ بيـد أنهم متفقون على أن الخشوع روح الصلاة ، وأن من فقد هـذا الخشوع فقـدت صلاته قيمتها ، سواء قـرأ أم صمت ..

ومع ذلك فقـد استفحل الغلو فى قيمة أفعـال الصـلاة استفحالا مزق شمل الامة ، فاذا الصلاة الواحـدة تنعقـد لهـا أربع جماعات فى الازهر الشريف واحـدة للاحنـاف . وثانيـة للشافعية ، وثالثة للمالكية ورابعة للحنابلة ، لان صلاة مقلـد لا تصلح وراء مقلد آخر ! .. وكان ذلك الانقسام يقع فى الحرم المـكى نفسه حتى أدركت المسلمين رحمة اللـه ففضت هـذه الجماعات كلها ، وصلى الكل وراء امام واحـد ..

ان توسيع المساحة التى يعمل فيها فقـه الفروع تم على حساب تضييق المساحة التى تعمل فيها التربية الدينية ، وتتحول فيها العقيـدة الى قوى روحية وملكات نفسية ..

وتصور رجلا منـح جنيها ليعيش به فاشترى بنصفه مياها غازية ومعـدنية ، وبالنصف الباقى لديه سكرا وشايا ، ووجد ما بقى بعـدئذ للخبز واللحم والبقول والفواكه .. الخ .. ان هـذا رجل سيقتله فقر الدم يوما ..

وقـد لاحظت أن مصابنا شديد فى الانشطة العقلية والخلقية بسبب هـذا العوج .. وحسـب كثـير من المتـدينين .. ان

التشبث ببعض المراسم العبادية الثانوية يغطى هـذا التصور وهيهات ..

وكنت أرجو أن تنقه الجماعات الاسلامية من هذا الاعتلال .. فساءنى أن بعضها غرق الى الاذقان فى البحوث الفقهية وما تشعب عنها من خلاف وما بنى عليها من أوهام كبار ..

ان حكم تحريم الذهب على النساء كما يرى البعض يساوى — وقد يرجح — تحرير أفغانستان من الشيوعية ! وضبط الفرجة المستحبة بين قدمى المصلى يكاد يبلغ مجلس الامن ! وتحليل الموسيقى يشبه الكفر أو دونه الكفر ..

لقد ذكرنى هـذا الخلل الردىء بما كنت أقـرأ فى كتب التاريخ .. قال الراوى : دخل فلان على الخليفة ، وتحدث معه بأغلظ القول .. قال : فضممت على ثيابى مخافة أن يصيبنى دمه ! ..

اننى عجبت لهذه المخالفة ، مصرع رجل شجاع ، ويتم أولاده ليس هو المحذور .. المحذور أن تبتل ملابس الراوى بدم القتيل .. ألأن الدم نجس ؟ أم لان ثمن غسله باهظ ؟ ان توارث هـذا الفكر سقوط عقلى وخلقى معا ، وأهل هذا الفكر لا يصلحون لشىء فى دنيا الناس ..

اننى ميال الى اغلاق باب الاجتهاد فى فقه العبادات . وابقاء حق الاختيار ، أو ما يسمى بالاجتهاد الانتقائى ، نأخذ ما تدعو اليه الحاجة وندع ما عداه ، من الثروة الطائلة التى آلت الينا ..

والذى يدفعنى الى ذلك أن وجوه الرأى فى كثير من القضايا تكاد تستوعب الصور العقلية ، أو الشيىء وضده معا ، خذ مثلا امامة المرأة فى الصلاة ، يرفضها فقهاء مطلقا ويجيزها البعض مطلقا ، ويرى الشافعى جوازها للنساء خاصة ..

ولمس المرأة ؟ ينقض الوضوء مطلقا ، ولا ينقضه بتة ، وقال مالك : البعض وعدمه مقرون بطلب اللذة من اللامس ! .

وامامة الفاسق ؟ ردها بعض الفقهاء باطلاق ، وأجازها قوم باطلاق ، وفصل آخرون متسائلين : هل فسقه بتأويل أم بتبجح ؟ هل فسقه قطعى ؟ أم ظنى ، ومع تغير الجواب بتغير الحكم ..

ليت شعرى ما نصنع نحن بعد ذلك الا الموازنة والترجيح ؟ واذا انتهى أحد الى رأى فهل له الزام الاخرين به ومؤاخذتهم على تركه ؟ لا ..

وقبل ذلك كله وبعده هل هذه الاحكام تسبق فى الترتيب ايحاءات العقيدة ، ومقرارات الاخلاق ، وضوابط التربية ؟ لا .

ان الذى يكره مسلما لانه لا يضع يديه تحت رقبته فى الصلاة ، أو لانه يقنت فى الفجر مثلا ، رجل منحرف ضعيف الخلق ..

واتقانه للصلاة على النحو الذى يألف لا يمحو عنه هذه الوصمة فالخطأ الفقهى مأجور أما الخطأ الخلقى فهو اثم ، وهذه الاخطاء الخلقية من وراء الفتوق الرهيبة التى تسلل منها الغزو الاستعمارى وفتك بنا ..

أحسست غضبا شديدا وأنا أسمع مفتيا فى احدى الاذاعات يجيب عن سؤال وجه اليه : هل يجوز اخراج زكاة الفطر نقودا ؟ قال المفتى : لا يجوز ، ومن أخرجها نقدا وجب عليه أن يعيد اخراجها شعيرا أو قمحا ، واستتلى : ان هذا التصرف بدعة ، ومن أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد عليه ..

وخيل الى من غضب المفتى أنه لو وجد أبا حنيفة لأمسك بخناقه وأخمد أنفاسه لان هذا الامام يرى اخراج الزكاة مما هو أنفع للفقراء نقدا كان أم حبوبا ..

وأغلب المسلمين يتبع هذا الرأى ، فلماذا نحرجهم ؟ .. ولماذا نرى فهمنا هو وحده الدين ؟ .. لم ضيق الافق ؟ .. وقطع ما أمر الله به أن يوصل ؟ .. ان المتوقعين فى نطاق الاحكام الفقهية المحدودة يسيئون أكثر مما يحسنون ..

وحدث فى احدى الكليات أن أقبل العميد على جمع من الطلاب كانوا جلوسا على بعض مقاعد الحديقة وخف الكل الى استقبال أستاذهم وقوفا ، الا واحدا ظل على كرسييه لم يتحرك ، زاعما أن ما فعل هو السنة ! ..

قلت : ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال للاوس لما جاء زعيمهم سعد بن معاذ : قوموا الى سيدكم ! والطلاب الذين قاموا مرحبين بعميدهم أقرب الى الفطرة والسنة والادب من هذا الطالب ، وهو يسيىء الى الاسلام بهذا المسلك .

قال لى أحدهم : انه طالب محافظ يربى لحيته ! قلت :

تربية اللحية من سنن الفطرة ، وتربية النفس من أركان الايمان ، وماذا عليه لو أحسن الشكل والموضوع ؟ ..

ان الاهتمام بالشكل أول مراحل التقليد ، فالطفل عندما يرى أباه وهو يصلى يحفظ حركات جسمه ركوعا وسجودا ، ويبدأ محاكاته فيها .. أما مشاعر الخشوع ومعانى الكلمات فهو لا يراها ولا يحسن تقليدها ، لعله يبلغ ذلك مستقبلا بالدراسة والتجربة والمعاناة ..

والامم الطفلة هى التى تبرع فى تقليد الشكل وتفصله فصلا تاما عما ارتبط به من معان ، فهى فى ميدان الادب تحسن السجع والجناس أكثر مما تعمق الفكرة وتسدد النظرة ، وهى فى ميدان الدين تضحى بوحدة الامة فى سبيل اخفاء البسملة أو الجهر بها ..

وسلفنا الاول كان أرفع كثيرا جدا من هذا المستوى ، ولذلك خدم رسالته وبلغ دعوته ..

هل من الصحوة الاسلامية أن يهمل البعض التفوق الصناعى مدنيا كان أو عسكريا لانشغاله بحكم الصلاة فى النعال ، وجواز دخول المساجد بها ؟ هذا المسلك اغماء عقلى وهوس دينى ، ولا يوصف أبدا بخير ..

ثم ، أيصنع العقل الغربى السيارة ونشتريها نحن لنكتب عليها « عين الحسود فيها عود ! .. أو كايدة الاعداء ! ..

ان أى يقظة انسانية انما تنهض بدءا وختاما على حدة

العقل ، وسناء القلب ، والاسلام انما أنهض العرب وحلق بهم فى الاوج لانه انعش هـذه الملكات الانسانية وأطلقها تسعى ، والصحوة الاسلامية الحاضرة ينبغى أن تترسم الخطا الاولى لا أن تتبع خلوفا ظلموا دينهم وأنفسهم على سواء ..

هل نستقدم خبراء ليعلمونا نظافة البيوت والمدن ؟ .. هل نستقدم خبراء ليعلمونا الهدوء والنظام والسير فى الشوارع برتابة وكياسة ؟ .. هل نستقدم خبراء ليعلمونا أن التزوير فى اداء الشهادات واجراء الانتخابات ضرب من الوثنية ؟ .. هل نستقدم خبراء ليعلمونا كيف ندفع الكفاءات الى الامام ونرد التافهين الى الوراء ؟ ..

ان هناك أبجديات فى الفطرة الاسلامية لا ندرى لماذا ننساها ؟ ولن تتم صحوة الا عندما نفتتح بها أولا ..

قال لى صديق عالم فى « الجولوجيا » : اننى قلق لان أمامنا عشرات السنين حتى نطوى مسافة التخلف الحضارى بيننا وبين من سبقونا فى ميادين الذرة والفضاء والطاقة وغيرها ! .. ودعم الحق ميئوس منه بالوسائل البدائية ..

قلت : اننى أومن بعون اللـه .. ثم استتبعت أقول لنفسى ولكل مهتم بأمر دينه : ان العون الاعلى يظفر به الصاحون بين السكارى ! فلنجتهد فى ترشيد صحوتنا المعاصرة حتى تؤتى جناها ..

٩٣ ـ ما مكانة العمل والعلم فى الاسلام ؟ وهل هما قاصران على العمل العبادى والعلم الدينى ؟ ..

الاسلام هو الوحى النازل على محمد صلى الله عليه وسلم ليوجه به الحياة الى ربها ، ويهدى الناس كافة الى الصراط المستقيم .. أى أنه حقائق مقررة أولا ثم أساليب متجددة فى البلاغ والعرض ، والحماية والدفاع ..

لنفرض أن صاحب فلسفة ما اقتنع بأن ما لديه ينفع العالم .. انه ابتداء يشرح ما عنده ويطبقه فى ذات نفسه ، ثم ينتقل الى تفهيم الاخرين بكل وسائل الفهم ، ويحتاط ضد المعتدين والمعوقين بكل أسباب المقاومة ..

وقد مضى الاسلام على هذا النهج منذ بدأ مسيرته ، أو منذ استمع نبيه الى صوت الوحى « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم »(١) .

ان العلم هنا من شقين ، علم بحقائق الوحى ، وعلم بطرق غرسه ، وذود الاذى عنه ! ..

فى الفلسفات المادية المعتادة يسير العلمان معا سيرا لا يتسم بأى تناقض ! .. فالشيوعية تسوى بين رجل الاعلام الذى يعرض مبادئها فى الصحف المحلية والهيئات الدولية ، وبين

---

(١) العلق : ١ ـ ٥

رجل الفضاء الذى يستكشف الكون ، ويستخدم الاقمار الصناعية فى الكر والفـــر والظفر فى حرب الكواكب ! ..

كلا الرجلين يؤدى واجبـــه نحـــو مبـــدئه ، وكلا العلمين يعمل للاخر ويعانقـــه ..

اننا نضرب هـــذا المثل ليعلم السذج من المسلمين أن تالى القـــرآن الكريم فى الاذاعة يعرض نوعا من المعرفة الدينية ، وأن الذى يشرف على توجيه صاروخ فى الفضاء كى يدافع عن هـــذه المعرفة لا يقل مكانة عن القارىء المرتل ، وقـــد يكون ــ بصـــدق نيته ــ أولى بالللـــه منـــه ! ..

انه هو الاخر يمثل علما لابد منـــه ، ما يحيا العلم الاول الا به ، فالايمان آس والجهاد حارس .

والواقع أن الثقافة الاسلامية منذ نشأتها تشعبت أصولها وفروعها وتشعب العمل الذى يقوم به المسلمون فرادى وجماعات ، وليس فى تاريخ هـــذه الثقافة علم دينى بعيـــد عن الحيـــاة ، وعلم مدنى بعيـــد عن الدين ، ولم يقع انقسام العلم الى دينى ومدنى الا فى عصور السقوط والاضمحلال ..

وبديه أن تكون علوم الشريعة أول مظاهر الحركة العلميـــة فى الاسلام ، فنشأت علوم القـــرآن والسنة والفقـــه والاخلاق والتربية ، ولا يجرؤ أحـــد على انكار ما فى القـــرآن الـــكريم والسنة المطهرة من خصوبة فكرية ومنابع غزيرة للفكر والوجدان والسلوك ، وأنهما مهاد جليل لحضارة انسانية ذكية رحبة ..

ثم صاحب ذلك ميلاد العلوم العربيـــة من نحـــو وصرف ومعان وبيان وبديع ، وازدهر الادب والبحث فى فلسفة اللغة وأسرار البلاغة والفت القواميس . واصبحت الدراسات الادبية واللغوية جزءا أصيلا من عمل المعاهـــد الدينية ..

ونشطت الدراسة الفلسفية — التى تجولت فى عصرنا الى علوم انسانية — فلم تبق فى أرض اللـــه اثارة من معـــرفة الا استقدمها العرب ، وتوفروا على فهمها وتقويم مسارها ..

ومع نضـــج الفكر الاسلامى ظهرت علوم الكون والحيـــاة مستهـــدية بمنطق المـــلاحظة والتجـــربة — وهو منطق قـــرآنى المنبت — فكانت علوم الرياضـــة من حســـاب وجبـــر ، وعلوم الطبيعة والكيمياء ، والفلك ! ..

ويكاد المنصـــفون من مؤرخى الحضـــارة يجمعون على أن المسلمين هم أولو الفضل على النهضة الاوربية ، وأنهم السبب المباشر فى عصر الاحيـــاء ..

وقـــد كان من وراء الانتصارات العسكرية الاســـلامية — الى ما قبل بضعة قرون — تفوق علمى وصناعى ، هو الـــذى أعان على فتـــح « القســـطنطينية » وحصـــار « فينـــا » ووقف الزحف الصليبى ..

ويرى المحققون أن الحرب التى نشبت بين العلم والدين فى اوربا ، قـــد اشعلتها الكنيسة عن عمـــد لانها رأت أن الاتجاه العلمى المبتكر الناشط هو أثر الزحف الاسلامى الناجح ، وأن العلماء الباحثين هم — طابور — خامس للجهاد الاسلامى القديم .

بيد أن هذا كله تلاشى مع خمول المسلمين الاخير ، وانطفاء جذوتهم ، وانتشار الجهل العام فى ربوعهم ، وفهم كثير منهم أن العلم لا يتجاوز دراسة الوضوء والصلاة والمواريث ! وأن ما وراء ذلك من أدب وفن وكشف وذكاء نوع من الفضول .

وقد دفعوا ثمن ذلك الخطأ سوادا صبغ الوجوه وأخزى النفوس ، وجعل بلادهم بين الاطلسى والهادى مسرحا لاستعمار أنانى ظلوم ، أكل دينهم ودنياهم على سواء ..

ومن الغرائب أن بعض الفتية المشتغلين بالدين لا يزالون صرعى هذا الغلط الفاحش ، وأن المنتسبين منهم الى كليات عملية أو مدنية يصدفون عن الدراسات المكتوبة عليهم ويقولون : ندرس علوم الدين ..

ويحكم ! وهل يقوم الدين الا بالعلوم التى فيها تزهدون ؟ .

وكما لا يقوم الا بها ، فهو ما يحسن فمهه الا فى ضوئها ..

من هؤلاء الفتية من امضى عدة سنوات فى كليات الهندسة أو التجارة أو غيرها ، ورأى أن يضحى بالسنوات التى قضاها ويلتحق باحدى الجامعات الاسلامية ..

وأقتطف هذه الفقرات من رسالة كتبها لى أحدهم « .. يؤلمنى ألما شديدا ، ويعتصر قلبى حزنا تعدد الاهواء ، واعجاب كل ذى رأى برأيه ! وقد دعوت الله أن يلهمنى الحق ويهدينى الطريق القويم ويوفقنى الى الالتحاق بالجامعة الاسلامية فقد علمت من قراءتى للامام الشافعى « ان العلم ما كان قال حدثنا ،

وأخبرنا ، وغير ذلك وساوس شياطين ! ولذلك فانى أرغب فى التعلم الدينى المنهجى ! والله يوفقك لمساعدتى » .

وقد رق قلبى لصاحب الرسالة ، وحاولت الحاقه بكلية الشريعة فى دولة قطر ، ولكن التعليمات القانونية لم تسمح ! ..

ولابد من وعى الكلمة المنسوبة للامام الشافعى - ان صحت - فالمراد منها أن شئون العبادات لا مجال فيها للاراء الشخصية . وانما تأخذ العبادات من النقول الثابتة عن المعصوم ..

وقضايا العبادات قطرة من بحر فى سلوك المسلمين وشئونهم العلمية ، ولا دخل للروايات فى موضوعات العلوم الاخرى ..

وقد تأملت فى سيرة نفر من خريجى الجماعات الاسلامية فكدت أيأس من جدواهم ، هذا رجل يحمل حملة شعواء على الاضرحة ، قال لى أحد مستمعيه : لكن لا توجد فى هذا البلد أضرحة .. قلت : كلام سمعه لا يعرف غيره فأفرغه بيننا ..

وفى افتتاح مسجد بباريس ، وأثناء التقاط صور تذكارية للحفل قام واحد من هؤلاء فى حالة تشنج ، يذكر أن التصوير الشمسى حرام ! ..

فقال له أحد الحضور : ذلك رأيك ! وما أكثر الفقهاء الذين يخالفونك ، انك تقف سير الدعوة الاسلامية فى باريس بهذا التعصب الضيق لرأى ما ، فهل تريد التضحية بالدين كله من أجل وجهة نظر لك أو لأناس قاصرين خلفك ؟ ..

قلت فى نفسى : ما أتعس حظ الاسلام . اذا كان المتحدثون باسمه لا يعرفون العلم الخادم له أو المبين عنه .. الا بعض المرويات ، وبعض الافهام ..

عندما عرض عفريت من الجن على سليمان ان يأتيه بعرش بلقيس من اليمن الى فلسطين قبل أن يقوم من مقامه .. « قال الذى عنده علم الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربى »(١) ..

ما أحوج المسلمين الى رجال أوتوا علم هذا الكتاب .. أم أن هؤلاء الرجال خشوا سوء الاستقبال عندنا ، فحطوا رحالهم فى أوربا وأمريكا ؟! ..

ليس للعلم ولا للعمل صورة واحدة صالحة ، أو ميدان واحد مقبول .. فان الله أمر المسلمين أن يفعلوا الخير « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون »(٢) وكلفهم مع فعله أن يدعوا الاخرين اليه « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير »(٣) فهل للخير المطلوب شكل واحد ؟ لا يرى الا فى الصلاة والصيام ؟ ..

ان صنوف الشر لا تحصى ، وصنوف الخير لا تحصى ! وما يحشده البشر لتحصيل الخير أو الشر لا يحصى ، وللوسائل حكم الغايات ..

والحق أن العمل الصالح — الذى هو صنو الايمان — هو كل سلوك يترجم عن نية حسنة وغاية شريفة ، وقد يكون

---

(١) النمل : ٤٠ (٢) الحج : ٧٧

(٣) آل عمران : ١٠٤

فلاحة أو صناعة أو ادارة ، وقــد يكون سفر أو اقامة ، وقــد يكون قتالا أو سلاما .. انه مسلك غير محــدود لباعث واحــد هو حب الخير ، وطلب الاصلاح ..

« .. فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كــذبوا بآياتنا يمسهم العــذاب بما كانوا يفسقون »(١) .

وقــد سمى القــرآن الكريم تجويد الصناعات الحربية — لدعم الحق بداهة — سماها عملا صالحا ، فقال عن نبى اللــه داود « .. والنا له الحــديد أن أعمل سابغات وقــدر فى السرد ، واعملوا صالحا . انى بما تعملون بصير »(٢) .

وجعل كل تعب يعانيه المجاهــدون ، وكل بذل يتكلفونه عملا صالحا « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصــة فى سبيل اللــه ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عــدو نيلا الا كتب لهم به صالح أن اللــه لا يضيع أجر المحسنين »(٣) .

وما يذكره القــرآن الكريم ليس .. الا نماذج وأمثلة .. ولقــد اعتبر الرسول الصلة الجنسية بين الرجل وامرأته عملا صالحا يثاب عليه لانها حصانة الاثم ، ووقاية من الشرور ..

ان كل علم تسمو به الانسانية ، وكل عمل تزكو به هو من صميم الدين ، ترجح به الموازين ، وترتفع به الدرجات ، فى الدنيا والاخــرة ..

---

(١) الانعام : ٤٩ (٢) سبأ : ١١
(٣) التوبة : ١٢٠

٩٤ ـ لماذا لم يحرم الاسلام الرق كما حرم الخمر والربا ؟ وما موقفه الحقيقى من هذه القضية ؟ وهل يجوز للمسلمين فى حروبهم مع أعدائهم أن يعدوا أسرى الحرب رقيقا ؟ ..

فى مطالع البعثة المحمدية كان الرقيق واقعا غير مؤلم ولا مستغرب ولا منكور .. وكانت جماهير الارقاء تزحم المشارق والمغارب لا يأبه لهم أحد ولا يفكر فى انقاذهم مصلح ..

فى أرجاء الدولة الرومانية النصرانية كان العبيد يخدمون فى صمت ، وربما قدم بعضهم طعاما للوحوش فى بعض المناسبات ، وكان اليهود ـ وفق تعاليم التوراة ـ ينظمون أساليب الاسترقاق للعبرانيين وغير العبرانيين ..

ولم الاسى على الرقيق وحدهم ؟ ان المنبوذين فى القارة الهندية كانوا أنجاسا لا تعرف لهم حرمة ، ولقد وقع ابن لامرأة برهمية فى بئر ، وكان أحد المنبوذين يستطيع انقاذه لو أذنت أمه ! لكن الام فضلت أن يموت ولدها ولا يعيش بعد ما لمسه منبوذ ..

وجاء فى الكتاب المقدس أن طعام النبيين لا يعطى للكلاب .. والبنون هم بنو اسرائيل .. والكلاب هم الكنعانيون الذين كانوا يسكنون فلسطين قديما ..

فى هذا الجو القابض الظلوم كانت الانسانية تعيش ، ما أنصفتها فلسفة اليونان التى تقر الاسترقاق بعقلها المفكر !

ولا أنصفتها مواريث التـــدين التى احتضنها الكهنة ، وأظلمت بها الارض ..

حتى تكلم محمـــد ، وأصاخ الناس الى ما جاء به فاذا هم يسمعون أن البشر كلهم اخوة . بينهم نسب واحــد ، وتسـرى فى أوصالهم نفخة من روح اللـــه ، وأنهم سواسية فى الحقــوق والواجبات .. وأنهم خلقوا ليتعارفوا ويتحابوا « يا أيها النـــاس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عنـــد اللـــه أتقاكم »(١) .

وسمع الناس الناس للمرة الاولى فى تاريخهم أن المسترقين يجب أن تفك قيودهم وتعتــق رقابهم ، وأن العانين ينبغى أن يحرروا من الذل والجوع والهوان ، وأن العقبات دون هـــذا كله لابد من اقتحامها لمن يريد رضوان اللـــه « فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبه . أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة »(٢) .

وعلى المؤمنين أن يتجردوا لاداء هذا الواجب ، فلا يحرروا الاسرى ليجعلوهم أتباعا ، أو عبيـــد احسان بعـــد ما كانوا عبيد سطوة كلا انهم « يطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . انما نطعمكم لوجه اللـــه لا نريد منكم جزاءا ولا شكورا »(٣) .

ولـــما جاء دور التشريع لنقل هـــذه المبادىء الى قوانين ملزمة نظر الاسلام الى مصادر الرق فألغاها كلها على النحو الاتى :

---

(١) الحجرات : ١٣ (٢) البلد : ١١ : ١٦
(٣) الانسان : ٨ ، ٩

كان الرومانيون ومن قبلهم العبــرانيون يحكمون بالعبودية على مقترفى بعض الجرائم .. ومن هــذه الجرائم عنــد الرومان عجزالمعسر عن الوفاء بالدين .. وقــد رفض الاسلام هذه النظرة رفضا حاسما ، ولم يسترق فى أية مخالفة ، بل رصـــد من الزكاة المفروضة سهما لازما لســداد ديون المعسرين ، وقال تعــالى :

« وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وان تصــدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون »(١) .

وكان الخطف الى القرن المــاضى مصدرا هائلا للاستعباد ، وقــد ظل الاوربيون يصطادون البشر بضعة قــرون من غرب افريقية ، فى ظروف تكتنفها الوحشية المطلقة ، وتم خطف عشرات المــلايين وهلاك مثلهم فى أثناء الغارات التى كان يقــوم بهــا قراصنتهم ..

وأبى الاسلام اباء شــديدا خطف الاحرار ، وهــدم كل ما انبنى على هــذا الخطف من آثار ، وجاء فى الحديث القــدسى عن رب العزة قال اللــه تعالى :

« ثلاثة انا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته — غلبته — رجل أعطى بى ثم غــدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منــه ولم يعطه الاجر » ..

والمصــدر الثالث للاسترقاق — وهــو مصــدر خطير — أسرى الحروب ، ان أولئــك المنكودين الخزايا كانوا يواجهــون مستقبلا غامضا ، وقــد يكون الاسترقاق أهون ما يتوقعون .

---

(١) البقرة : ٢٨٠ .

وفى الحرب العالمية الثانية لم تعرف مصاير الالوف المؤلفة من أسرى الروس لدى الالمان ، أو أسرى الالمان لدى الفرنسيين ..

فان كان ذلك ما وقع أيام التحضر والارتقاء فما ظنك بما كان يقع قديما ؟ ..

على أية حال فان الاسلام فى أول حرب خاضها خرج على الدنيا بمبادىء أزكى وأرق فى معاملة الاسرى ، فنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاسرى بعد معركة بدر .. « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الاسرى أن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم . وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم »(١) ..

والخيانة التى تشير اليها الاية موقف المشركين من قضية الحريات الدينية والانسانية كلها ، فقد كان موقفا غبيا متعنتا مليئا بالكبرياء والقسوة .. اكان هذا موقف عبدة الاوثان وحدهم ؟ ..

كلا ، فان اهل الكتاب كانوا أخس وأظلم ..

يقول الله تعالى :

«ولئن أتيت الذين اوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك»(٢).

---

(١) الانفال : ٧٠ ، ٧١
(٢) البقرة : ١٤٥

ليكن ! فليس لاحـــد أن يرغمهم على اتباع ! لكنهم لم يكتفوا بهـــذا بل لجأوا الى صـــد الاتباع وفتنة الضـــعفاء وقيل لهم : « قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل اللـــه من آمن تبتغونها عوجا وأنتم شهداء وما اللـــه بغافل عما تعلمون »(١) .

ولو أن الكره للاسلام كان عواطف فرد أحمق ، أو ســـلوك نفـــر متعصبين لهان الخطب .. لقـــد تحول الى حرب ساخنة يصلاها دين عـــده خصـــومه خارجا على القـــانون ، ولم يروا الاعتراف به ابدا ..

ولننظر الى صـــدر تاريخنا القـــديم ، ولنتســـائل : متى اعترفت الاديان الاخرى بحق الحياة للاسلام ، وحق أتباعه فى اقامة مجتمع له ؟ ..

لا مجوس فارس ، ولا يهود المستعمرات المقامة فى جزيرة العرب ، ولا الرومان الذين اعتنقوا النصرانية ليجعلوا منها ذريعة استعمار اسود أكل لشام ومصر وغيرهما طول خمسة قرون ..

ومع ما أحسه سلفنا من وحشة ونكير ، فقـــد خاضـــوا ضـــد أعدائهم حربا عادلة ، وأمروا بكسر شوكتهم ومحق كبرهم حتى اذا قلموا أظافرهم واذلوا طغيانهم قيل لهم : لكم أن تمنوا على الاسرى والمنهزمين « .. فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشـــدوا الوثاق ، فاما منا بعـــد واما نـــداء حتى تضع الحرب أوزارها »(٢) .

---

(١) آل عمران : ٩٩
(٢) محمـــد : ٤

وقـــد يفزع البعض لكلمة « ضرب الرقاب » بيــد أن فزعه هـــذا يذهب عنـــدما يعلم أن عربيا من أذناب الروم ، ومن ولاتهم شمال الجزيرة قبض على المسلم الذى جاء برسالة من لدى النبى صلى اللـــه عليه وسلم يدعو فيها الى الاسلام وقال له : أنت حامل رسالة محمـــد ؟ : نعم ، فأمر بضرب عنقه !! ..

كان حمل كتاب رقيق العبارة ، مقبول العرض جريمة تعالج بالقتل السريع ..

بم يعامل هؤلاء الاذناب من سماسرة الاســـتعمار الرومانى المتعصب ؟ ..

انها الحرب ولا شيىء غيرها ..

ثم قيل بعــد ذلك للمقاتلين المسلمين « .. فاذا أثخنتموهم فشـــدوا الوثاق ، فاما منا بعــد واما فـــداء حتى تضع الحـــرب أوزارها » ..

المن أو الفـــداء ! ليس هناك تصريح فى الاية باسترقاق أحد ، لم يعـــد الاسر منبعا دائما لاسواق الرقيق ، كما كان ذلك معهودا فىالقـــرون الاولى ..

وهنا نبحث : كيف يتم تنفيـــذ هـــذا المبـــدأ ؟ .. هل يطلق المسلمون سراح الاسرى دون قيـــد أو شرط ليعودوا الى مقاتلتهم مرة أخـــرى ؟ ..

هل يتم هـــذا التحرير فى الوقت الذى يباع أبناؤهم فيـــه هنـــا وهناك ؟ ..

ان معاملة الاسرى ليست تشريعا محليا . يصـــدر من جانب واحـــد .. انه تشريع تلتزم به أطراف متشابكة المصالح ، متعاونة على احترام قيم معينـــة ..

هل يجـــد المسلمون هـــذه المعانى عنـــد خصومهم ؟ كلا ! فان هؤلاء الخصوم من عبـــدة الاصنام ، أو من أتباع الكتب الاولى لا يقرون للمسلمين بحق الوجود ، فكيف يسمحون لهم بحق البقاء وحرية التـــدين ؟؟ ..

وعنـــدما يوجـــد تفاهم دولى على « المن أو الفـــداء » فنحن أول من يهرع الى الاسهام فيه ، وانفاذ عهوده .. ان مبدأ المعاملة بالمثل له أثره العميق فى العلاقات والمعاملات الدولية وقـــد قلنا : ان الاميركيين لو عرفوا أن اليابان تملك رادعا نوويا ، ما فجـــروا قنابلهم الذرية فوق هيروشيما وناجازاكى !! ..

والى أن يتم تفاهم عالمى على أسلوب انسانى فى معـــاملة الاسرى انفرد الاسلام بتعاليم تحنو على أولئك المنكوبين ، وتذكر بالاخوة الانسانية وتوصى بالرحمة وتعاقب على الغلظة ، أو بعبارة موجزة : جفف منابع الرق جهـــد الطاقة ، نوع أسباب التحرر والانطلاق ! فليس هنـــاك أمر باسترقاق ، وانما هنـــاك أوامر بالاعتاق ، وقـــد بسطنا ذلك كله فى موطن آخر(١) ..

قال لى شخص من المتأثرين بالاستعمار الثقافى : ان الحضارة الحـــديثة هى التى حررت النساء والارقاء ولا ريب أنها انســـاقت الى ذلك من مواريثها الدينية ! ..

---

(١) حقوق الانسان بين تعاليم الاسلام واعلان الامم المتحدة.

قلت له : ان الحضارة الحديثة مكنت ناسا لهم فطرة سليمة من خدمة البشرية مثل ابراهام لنكولن الذى قاد حربا شديدة لتحرير العبيد ، وقد لقى الرجل مصرعه بعد هذا البلاء ، كما لقى غاندى مصرعه على يد هندى متعصب لدينه ! ..

وأصحاب الفطرة السليمة الذين جاهدوا فى سبيل هذه الغايات النبيلة كانوا يستوحون ضمائرهم وحدها ..

« اين تجد المواريث الدينية فى تحرير النساء عندما تقرأ رسالة بولس الاولى الى أهل كورنتوسى ، الاصحاح الرابع عشر فقرة ٢٤ وما بعدها : « لتصمت نساؤكم فى الكنائس لانه ليس مأذونا لهن أن يتكلمن ، بل يخضعن ! .. كما يقول الناموس أيضا ، ولكن أن كن يردن أن يتعلمن شيئا فليسألن رجالهن فى البيت ، لانه قبيح بالنساء أن يتكلمن فى كنيسة » ..

وأين تجد المواريث الدينية فى تحرير الارقاء عندما تقرأ رسالة بولس الى أهل أفسس « أيها العبيد ، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة ! فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، ولا بخدمة العين كمن يرضى الناس ، بل كعبيد المسيح .. الخ »(١) .

ان رجالا من أصحاب القلوب الكبيرة هم الذين جاهدوا بشرف لتكسير القيود التى أنشأها التظالم البشرى على مر العصور .. والحقيقة انه لا دين اذا طمست الفطرة وطغت الاثرة ! ..

---

(١) على هذا النص وغيره استقر الرق فى الغرب ، وقتل أحد المتدينين المتعصبين له « لنكولن » محرر العبيد ..

وللاسلام علامة مميزة يعرف بها ، ويلفت كل امرىء اليها ، تبـــدو فى قوله تعـــالى :

« فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة اللــــه التى فطر النـــاس عليها لا تبـــديل لخلق اللـــه ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون »(١) .

ومن هنا حكمنا بأن التقاليـــد التى يتعارف الناس عليها يجب نبـــذها اذا خالفت الفطرة ! ..

ويستحيل أن تكون هـــذه التقاليـــد دينا وان استمسك بها بعض الكهان ..

---

(١) الروم : ٣٠

٩٥ ـــ ما موقف الاسلام من الحضارة المعاصرة ؟ .. وهل يمكن القول بأن للاسلام حضارة خاصة يدعو اليها ؟ ..

هناك جوانب فى الحضارة الحديثة جديرة بالاحترام كله ، بل أعتقد أنها امتداد أو انطلاق من الفكر المتحرر الراشد الباحث عن الحق ، الحفى بالمعرفة ، المستغل لأثمن مواهب الانسان ..

ان الوصول الى اليقين فى قضية حسية أو عقلية ليس شيئا رخيصا ، انه ثمرة غالية لأعلى مواهب البشر بل هو الاستجابة الوحيدة لقوله تعالى :

« لا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »(١) .

وهو كذلك البعد المطلوب عن منهج المنحرفين والواهين والقاصرين الذين قيل فيهم : « أن يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا »(٢) ..

والحضارة الحديثة نجحت فى ميدان البحث المادى ، وتعمقت فى الدراسات الكونية كلها ، وهذا النجاح ـــ فى رأيى ـــ يجعلها اقترب الى منطق القرآن الكريم ، وأدنى الى منهجه ، فان التفكر فى الكون ، أرضه وسمائه وما بينهما ، مطلب الهى لا ريب فيه ..

---

(١) الاسراء : ٣٦

(٢) النجم : ٢٨

والمسلمون يحملون أوزار التخلف فى هـذا المجال ، وقـد دفعوا ثمنه فادحا ، وأرى أنه من عصيان اللـه ، والفسـوق عن أمره الانشغال بالجـدل العقيم ، وفلسـفة ما وراء المـادة ، وتشقيق الخلاف وتكثيره فى شئون يستوى فيها العلم والجهل ..

ان الحضارة الحديثة اكتشفت كثيرا من قوى الكون وأسراره ولها الان حصيلة كبيرة فى علوم الذرة والفضاء و « الالكترونيات » و « الكمبيوتر » وقـد نقلت آثار ذلك الى تفوق مدنى وعسـكرى فى البـر والبحر والجو ..

ومع هـذا السبق البعيـد ، فان الحضـارة الحـديثة لا تزال واقفة عنـد العصر الحجرى فى ضبط الغرائز ، وترويض الحيوان الرابض داخل الجسم البشرى ، وكبح الاثرة المسعورة ، وجعل المـرء يحب غيره ويغار على حقوقه ، أو على الاقل يعدل مع غيره ، ويعترف له بحقوقه طوعا لا كرها !! ..

وقبـل ذلك فشلت هـذه الحضارة فى التعـرف على رب العالمين ، وتأسيس علاقة صحيحة معه تقوم على توقيره وتقـدير نعمته والشعور بعظمته والتسـبيح بحمـده والتعويل عليـه فى الازمات والاطمئنان اليـه فى المخـاوف ..

ان الانسان مهما قوى بالعلم لن يكون آلها ، وسيبقى ما عاش فقيرا الى سيده ، لا يحس طمأنينة الا فى السجود بين يـديه ، واستلهامه الرشـد ..

لكن من أين تطرق الخلل الى هـذه الحضارة حتى انه ليهدد مستقبلها ؟ ..

قـــد يكون الجواب : من غرور الماديين بما وصلوا اليه ، واستهانتهم بما قصروا فيـــه .. والغرور بالعلم داء قـــديم ، وقـــد حـــدثنا القـــرآن الكريم أن أمما عمرت هـــذه الارض قبلنـــا ، وأقامت بها مدنيات فخمة ، وأنها انتشت بما تيسر لها من لـــذة وسخرت مما قـــدم لها من نصح ، فماذا كانت عقباها ؟ « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عنـــدهم من العلم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون »(١) .

والاعتزاز بالتقـــدم العلمى مرض مخوف ، بيـــد أنى لا أرد اليه وحـــده عوج هـــذه الحضارة ! ..

السبب الاول ناشىء — فيما أرى — من خيانة أهل الاديان لرسالات اللـــه ، فالاسترخاء العقلى السيىء عنـــد المسلمين ، والغش المجوج عنـــد اخوانهم أهل الكتـــاب ، من وراء هـــذا البـــلاء ! ..

أهل الكتاب قـــدموا من عنـــد أنفسهم تعاليم نسبوها الى اللـــه ، ضاق بها العقل ، وتبرمت بها الفطرة فلما نشب العراك بين العلم والدين ، كانت النتائج المعروفة ، الحـــد العلم وســـاء ظنـــه بالوحى كله ..

وأما المسلمون فقـــد أوغلوا فى البعـــد عن دينهم حتى أمسوا فى واد ودينهم فى واد آخـــر ! ..

التفكير الذى هو فريضة عليهم حسب وصية الكتاب تحول

---

(١) غـافـــر : ٨٣

الى تقليد وجمود ، واذا عرض له نشاط ففى ما وراء المادة لا فى المادة نفسها كما شكونا مرارا .

ومفاخر الحياة الاسلامية الاولى تلاشت ، فاذا قال شوقى :

الدين يسر ، والخلافة بيعة والامر شورى ، والحقوق قضاء !

وجدت التاريخ فى أعصار شتى يؤكد أن الامر استبداد ، والخلافة اغتصاب ، ويسر الشريعة رياء وتعقيد ، والحقوق دعاوى « من الناب والظفر برهانها » ! ..

على حين ظهرت الحضارة الحديثة بأساليب ثقافية وادارية أدنا الى الفطرة والشورى والاختيار الحر وان شانها ما لابسها من هوى جامح واسراف كثير ..

وصلاح الحياة لا يتم بهدم الباطل لأن الباطل جدير بالزوال ! كلا ، لابد أن يكون الحق تام الاستعداد ليحل محله ، ويؤدى عمله بقدرة أعظم وأشرف ..

وأعترف بأن المسلمين لم يستكملوا هذه الخصائص ، ولا هم اليوم اهل لتلك القيادة ..

الحضارة الحديثة نسيت الله كل النسيان ، ولم تأخذ أى أهبة للقائه ، انها تعبد اليوم الحاضر ، وتجحد ما وراءه ، وتعبد الجسد وتغالى بمطالبه وحدها ..

ونحن باسم الاسلام نقاوم هذا الاتجاه الزائغ ، ونرفضه جملة وتفصيلا ..

أما الاقتـــدار العلمى ، وتسـخيره لتنعيم الانسـان وتكريمه فنحن معجبون به ، كـــذلك نحن معجبون بالقـــدرة التنظيميـــة التى جعلت الادارة فنا رفيع المستوى ، وأبدعت اساليب لمنـــع الطغيان الفردى والهوان السياسى ، وان كان الغربيون جعلوا هـــذه الثمار حكرا على الرجل الابيض ..

ولا أستحى من أن أسائل نفسى وقومى : أين كنا حين استخرج الاوربيون النفط من أرضنا ؟ ماذا كنا نصنع ؟ وأية ثقافة كانت تملأ أدمغتنا ؟ ..

أؤكـــد وأنا من علماء الدين أن الصحابة تجهل تسعة أعشار الفكر الدينى الذى شغلنا ! ونمنا فيه وصحونا عليـــه ! ..

وأؤكـــد أن نظم الحكم فى بلادنا كانت أشبه بنظم الحكم فى فارس والروم على عهـــد سلفنا الفاتح العادل الذكى ..

وأؤكـــد أن اللغة العربية فى الجاهلية الاولى كانت أضـــوأ وأنصع منها فى الاعصار النكـــدة الاخيرة ..

ان مجـــددى الاسلام بذلوا جهودا جبارة ليعود الينا الوعى الغالب ! ومن عجب أن البعض الان يفتح فمه لسبهم ، وينتقص أقـــدارهم ، اننا لم نستشف — بعـــد — من عللنا ..

وقـــد مضت حضارة الغرب فى طريقها لا يثنيها شيىء ، غير أن الاستغراق فى الدنيا لا يحقق الخير لا للفرد ولا للمجتمع ، وقـــد كرع « أبو نواس » من اللـــذة حتى آخر قطرة ، ثم استيقظ من سكرته يقول :

اذا عرف الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق ! .

وكذلك يفعل الخراب الروحى ، وخواء الايمان بأوربا وأميركا، ان الجماهير تشعر بالقلق والضيق ، ولاثبت هنــا كلمة للاديب الكبير الاستاذ أحمــد بهجت كتبها وهو يزور « لنــدن » يصــور اثر هــذه الحضارة : قال : « عيون الناس هنا ملونة ، وبشرتهم كشمع مسقى بالدم ، وابتساماتهم حاضرة وجاهزة لكل نظرة وأى سؤال .. رغم ذلك ، ثمة طيف غامض من الكآبة يلوح وراء ألوان العيون والبشرة ، ويتبــدى فى هــذا الصمت الذى يغرقــون فيــه حين يركبون المترو أو الاتوبيس ..

هنا لا حــد لجمال الناس ، ولكنه جمال يشبه جمال الجزر المنعزلة فى المحيط ، ان صفحة المياه الزرقاء تمتــد بصمتها الفاجع وتحيط بالجزر من جميع الجهات ..

رغم العزلة المرشحة ينهض الجمال ، ويكتسب الجمــال شحوبه من العزلة النفسية ، حتى لتعكس أغوار العيون قلقــا يبــدو وسط يسر الحياة وسهولتها مثــل حزن غير مفهوم فى عرس من أعراس الحيــاة ..

بالنسبة لكثير من الشرقيين تبــدو لنــدن عاصمة مبهجــة فى الصيف . هى سوق عظيم للمرح والمتعــة والجمال والثيــاب واللهو والحرية . كيف تفسر اذن هــذا البحث الذى قامت به احــدى شركات البحوث . وقالت نتائجه : ان مليون بريطــانى يعانون من اكتئاب نفسى ، وأن من المحتمل أن يقــدم ثلث هــذا العدد على الانتحار بسبب الكآبة .. كيف نفسر أن معظم المصابين بالاكتئاب من النســاء ..

اســتبعد البحث مشكلة البطالة كسبب رئيسى للكآبة .. وأشار الى المشاكل الزوجية والمنزلية والانسانية ..

عاودت النظر فى وجوه النــاس ..

أهؤلاء مكتئبون ..

ان النظرة السريعة تقول أن الناس تعيش وسط نعيم مقيم فى لنـــدن .. كل شىء ميسر .. لا صوت للشوارع ولا صـــوت الناس . وكل ما تريده موجود وحاضر ، هناك مكان فى الاوتوبيس والمترو والتاكسى والقطار ، ليست الحياة اليومية معاناة كالحياة اليومية فى مدن العالم الثالث أو الشرق ..

ان المـــدنية الحـــديثة توفـــر للناس جهـــدهم الانســـانى وتقوم عنهم بأداء كثير مما كان يقتضى جهـــدا بدنيا أو عضليا ..

والخدمات أكثر من الحاجة اليها . والعرض أكثر من الطلب، والتليفون لا يستعصى عليك ، ولا يتكلم معك فى الخط أحـــد .. لـــاذا يكتئب الناس اذن وحياتهم تمضى بهـــذه النعومة والكفاءة .

ان الحضارة الغربية تكشف هنا عن احـــد أسرار الحياة .. ان للتخلف مشاكله وللتقـــدم مشاكله ..

وليست مشاكل التقدم بأخف فى الميزان من مشاكل التخلف . هنا توفـــر الحياة للناس وقتا يفكرون فيه فى حياتهم وهـــدف هـــذه الحياة ومصيرهم بعـــدها ..

وهنا يحس الناس بالوحـــدة القاســـية رغم كل مبهجـــات العيش ..

ان الوضع الصحيح الوحيـــد للانسان أن يكون تابعا للـــه لا مستقلا بنفسه ، وأن يسترشـــد بوحيه لا أن يغتر بفلســـفته الخاصـــة ..

ما أضعف الانسان اذا لم تسنده قوة ربه .. وما أشقاه حين يحرم بركته ..

٩٦ ـ هل فى استطاعة الاسلام أن يقــدم حلولا للمشكلات الكبرى التى تعــانى منها الانسانية اليوم ؟ ..

تقع المصائب والمشاكل عنــدما يفرط الانســان فيما يجب عليه أو يستهين بما يمنع منــه .. فحوادث الطرق تنشأ غالبــا من السرعة الزائدة ، أو من التوقف المباغت ، أو من خروج المــرء عن المســار المحــدد له ..

ولو تبع اناس التعاليم الصادرة اليهم لوقاهم اللــه سيئات كثيرة ، ولكن « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيــدى الناس »(١) .

ولسنا ننكر أن هناك أقــدارا قاهرة تعرض لنا بما نكره ، وتفجؤنا بما لا دخل لاراداتنا فيه ، وهــذه المصائب والمشــاكل لا نؤاخذ بوقوعها ، وانما علينا أن نتصرف تجاهها بثبات وتسليم ، لا بجزع وتمرد فهى بعض بلاء الدنيا الذى نختبر به !! ..

ولكنى استعرض مشكلات كبيرة فى عالمنا المعــاصر فأجــد اغلبها من صنع الناس ..

انها تنشأ فى غياب الايمان الصحيح ، والاستهداء بنور الله ، والاستشاد بالعلامات الخضراء والحمراء التى تعصم من الزلل ..

القلق الشــديد محنة كامنة وراء الركض الوحشى طلبــا للرزق ، ان هؤلاء الراكضين قد يدوسون قواعد الحلال والحرام ، بل قــد يدوسون العجزة والضعاف كى يصلوا قبل غيرهم ..

---

(١) الروم : ٤١

بم نفسر هـذا السعار الذى ملأ الدنيا ؟ لا تفسـير له الا الجهل باللـه ، وبقيامه على الخلق وتدبيره للرزق ..

وأذكر هنا جملة من الحقائق الدينية غير خاش من تأويل الجهلة لها وانحرافهم بها ..

لو كان للانسان صـديق نبيل الخلق حلو العشرة مأمون الوفاء لجعله واحتـه الظليلة فى صحراء هـذه الحياة ! أفتكون صلة المؤمن بربه أنزل من هذه الصلة ؟ ربه الودود المجيد « اللـه لا اله الا هو له الاسماء الحسنى »(١) .

اننا نحيا فى رحمته الواسـعة ونعمتـه المبـذولة وبركاته الهامية ولكن ذلك كله يشبه العافية التى قيل فى تبلد الشعور بها : الصحة تاج على رءوس الاصحاء لا يراه الا المرضى ..

انه شيىء مؤسف أن يقل احساسنا بفضل اللـه الـذى يغمرنا بالليل والنهار ..

ثم يتضاعف جؤارنا بالشكوى اذا فقـدنا بعض ما نهوى ! والغريب أننا نعتبر ما نفقـده هو مصلحتنا المؤكـدة ، أو الخير الذى حرمناه .. ان مواقفنا مع القـدر تكرار لموقف موسى مع الخضر حين اعترض ما يجهل عقباه ..

مع أن القصة ذكرت لتقول لنا : رب ضارة نافعة .. رب أمر أنكرنا بدايته وحمـدنا نهايته « عسى أن تكرهوا شيئا ويجعل اللـه فيه خيرا كثيرا »(٢) ..

---

(١) طه : ٨ (٢) النساء : ١٩

هناك أبجــديات للايمان لو عرفناها لزالت مشـــكلة القلق والاكتئاب والتوتر التى تسود العالم .. وأرى أن الغرور البشرى أو احساس الانسان بأنه يقوم وحـــده من وراء تلك المشكلة ..

لقـــد خيل الينا مع التقـــدم العلمى الجاف اننا مديرو هـــذا الكون ومالكوا زمامه ..

وأن الانسان يستطيع المضى وحـــده الى هـــدفه دون صحبة من رعاية عليا ، أو مساندة من رب قـــدير .. وهـــذا هو الغباء المحض ..

ان المساحة التى تعمل غيها اراداتنا الحرة ضيقة جـــدا ، حقا هى موجودة بيـــد أنها محكومة بظروف لا دخل لنا فيها مـــذ ولدنا الى أن نموت ، ما أغبى السمكة التى تظن أنها صنعت ميـــاه البحار والمحيطات ، وأنها صنعت الخياشيم التى تستخلص بهـــا أنفاسها وسط المـــاء ..

الواقع أن الخطط التى تحكم حياة البشر خفضا ورفعا وضيقا وســـعة جزء من الخطط التى تحكم الفضاء وتقلب كواكبـــه بين شروق وغروب ..

مبتـــدؤنا ومنتهانا وما بين ذلك يشرف عليه « الذى بيـــده المـــلك وهو على كل شىء قـــدير »(١) .. الذى « بيـــده ملكوت كل شيىء ، وهو يجير ولا يجار عليه »(٢) .. الذى « لا اله الا هو كل شيىء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون »(٣) ..

---

(١) المـــلك : ١ (٢) المؤمنون : ٨٨

(٣) القصص : ٨٨

فما معنى تجاهل هـــذا الواقع ، والانطلاق فى الدنيـــا دون وعى ودون غاية ؟ ..

الايمان باللـــه وصفاته هو لا غير حل تلك المشكلة ! والاسلام يعرف الناس بربهم على نحو رائع مقنع مشبع ، يغمر اللب والقلب بهـــداه ويجعل المـــرء اذا كرب فزع الى الصلاة ! ..

ثم هو ينظر الى ما أصابه وما أخطأه عارفا : من يدبر الامر ؟ فيقول : « اللهم لا مانع لمـــا أعطيت ولا معطى لمـــا منعت ولا ينفع ذا الجـــد منـــك الجـــد » ..

وعند هـــذه الجملة الاخيرة نقف قليلا .. فأصحاب الحظوظ الحسنة قـــد يكثرون أو يقلون فى هـــذه الدنيا، غير أن مجـــرد وجودهم يثير الغيرة والتساؤل : لمـــاذا أوتوا هـــذا الثراء أو هذا التقـــدم أو هـــذا الرجحان ؟ ..

ويؤكـــد الاســـلام أن هـــذا الجـــد لا يجـــدى أصـــحابه شيئا ، ولا ينفعهم عنـــد اللـــه أبدا ! أنه بعض ما يســـاءلون عنـــه يوم الحساب ، أو هو جزء من الاختبار الذى يكون للبعض بالجمع وللبعض بالطرح ، ولا امتياز هنالك ! « ورب كاسية فى الدنيا عارية يوم القيامة » وذاك من ثمرات الايمان بيوم آخر ..

ومن المشكلات التى يشكو العالم منها الفقر المتوطن فى بيئات كثيرة ، وأحب أولا أن أحـــدد المفاهيم حتى تنضبط الاحكام ! أعرفت موظفا فى وزارة العـــدل يقوت أسرة كبيرة ، عرضت عليه يوما مائة جنيه كى يدع أحـــد الخصوم يستولى على وثيقة تفيـــده فى ملف تحت يده ! وأبى الموظف الشريف مع أنه كان يبيت طاويا ليعشى أولاده ، وكان بحاجة الى جنيه واحـــد لا الى مائة ..

هـــذا الفقير وأمثاله هم الذين قال الدين عنهم انهم ســـواد أهل الجنـــة ..

وأعرف أن الزعيم محمـــد فريد فقـــد ما كان يملك من أرض فى سبيل أسفاره كى يعرض شكوى وطنه من الاحتلال الانجليزى ! هـــذا فقر يذكرنا بالسابقين الاولين من المهاجرين والانصار الذى ضحوا بما لديهم فى سبيل عقائدهم ..

وأعرف رؤساء كانوا يملكون القليل أو ما كانوا يملكون شيئا ! فلما ولوا الحكم فاضت أنهاره عليهم سمنا وعسلا ، فأضحوا هم وأقرباؤهم وأصـــدقاؤهم ومن يلوذ بهم أصحاب جاه عريض ومال ممـــدود ! ..

هؤلاء الاغنياء من سحت هم الذين قال الدين عنهم أنهم جمهور النار ، وبئس القـــرار ..

لكن هناك فقرا نشأ عن آفات عضوية فى الكيان الانســـانى والمـــلكات التى زود بها أصلا ، وهو الفقر الذى ينشر فى الاقطار المتخلفة أو فى أرجاء العالم الثالث .. انه فقـــر تعود وصعلكة ، وهو فقر ينكره الدين ، ويعـــد أصـــحابه آثمين ، أو عجـــزة ملومين ! ..

ان اللـــه سبحانه يسر كل ما فى الارض من خير للانسان ، ومكنـــه من ارتقائه ..

ولم يطلب منه بازاء ذلك الا أن يعرف حقـــه ويشكر فضله ، فاذا جاء امرؤ أو جاءت شـــعوب ، وتجاهلت هـــذا البـــذل ، ورأت أن تعيش عارية بدل أن تكتسى ! أو جائعة بدل أن تطعم ، فهى شعوب مجرمة ..

وقـــد رأيت ناسا ينتمون الى الاسلام ـ وهو انتماء مريب ـ يشبهون الثعالب التى تأكل من فضلات الاسود ، تراهم أمام قوى الكون ، وأسراره حيرى ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ..

اذا جاءهم الغيث شبعوا ، اذا هاجمهم الجفاف تضـــوروا وتسولوا .. لو وضعت مفاتيح الكنوز بين أيديهم لعجـــزوا عن ادارتها ، وبقوا وقوفا أمام خزائنها المغلقة .. هؤلاء جــديرون بالفقر يقينا .. وعلاجهم يحتاج الى تغيير نفوسهم ..

واذا كان هؤلاء محنة فى الميــدان الاقتصادى فهم كــذلك محنة فى الميــدان السياسى ! ..

ذكرتهم وأنا أقــرأ الكلمات التى كتبها أنصار زعيم المعارضة الفلبينى الذى قتل فى مطار « مانيلا » .. لقــد وضـــعوا فوق رفاته هــذه الجملة « لا مكان للطغاة لو لم يكن هناك عبيــد » نعم ، ان أى فرعون لا يوجــد الا حيث يكون الاوغاد والاذناب .

والفقراء من هـــذا الصنف يمدون أكفهم فى الازمات ؛ وباسم الانسانية قــد يضع الاقوياء فى أيديهم بعض ما يستبقى الحيــاة ، ولا عليهم ! فستبقى أيديهم السفلى وأيدى الاقوياء هى العليــا ، لكن الى متى ؟ ..

ان الحل لمشكلة الفقر هو العمل لا الاستجداء ، هو فهــم قوله تعالى للناس :

« ولقــد مكناكم فى الارض وجعلنا لكم فيها معايش »(١) ..

وذلك يتطلب تغيير النفوس لتنتج بدل أن يكون قصاراها الاســتهلاك ..

---

(١) الاعراف : ١٠

والمعاناة هى سلم الكمال ، ويعجبنى قول أبى الطيب :

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والاقدام قتال ..

وشعوب العالم الثالث تحسب السعد والنحس طوالع فلكية ! أو كما صور الاستاذ مصطفى أمين يحسب أحدهم أنه يجلس على كرسى فى مقهى ، وكما يصفق بيديه طالبا من الساقى « واحد شاى » يصفق طالبا « واحد حقوق انسان » أو « واحد حريات شعوب » أو « واحد عدالة اجتماعية » ! ..

ولندع مشكلة الفقر فطالما كتبنا فيها ، بل استفتحنا حياتنا الادبية بالخوض فى مآسيها ..

ولننظر نظرة خاطفة الى مشكلة أخرى هى السلام ! وهى مشكلة قد يؤدى تجاوزها الى أن يفقد العالم حياته وحضارته كلتيهما .. بعد ما أصبحت أدوات الفتك ذريعة الى ابادة جماعية ..

والساسة الذين يتحدثون عن السلام لهم منطق عجيب ! فبنو اسرائيل ينشدون السلام بعد أن يدمروا الوجود العربى فى فلسطين ، ويضعوا الخطة لاقامة هيكل سليمان على أنقاض المسجد الاقصى ! ..

والروس ينشدون السلام بعد ابتلاع أفغانستان الى جانب آسيا الاسلامية كلها واعتبار الدين خرافة لا معنى لبقائها ..

وجنوب أفريقية تطلب السلام بعد اخماد أنفاس الزنوج وحرمانهم من منزلة البشر أو من مكانة الجنس الابيض ..

والامريكيون يطلبون السلام بعد تأييد اليهود ودعم حقهم فى بناء المستعمرات على الارض العربية وقولهم : خلقت اسرائيل لتبقى .. الخ ..

ان العالم أمام لون من النفاق والتبجح يستحيل أن يبقى معهما سلام ..

العدل أولا ثم المطالبة باحترامه ، والتسلح للذود عنه ..

ويستحيل أن يوجد سلام ما حكم الدنيا منطق الغابات ..

ان القرآن الكريم ناشد أهل الايمان أن يحرصوا على السلام ويستريحوا اليه « يا أيها الذين آمنوا أدخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين »(١) ..

فماذا يحدث أن أعرضوا عن هذا النداء ؟ ستمتلىء الارض بالاحزان والخراب « فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم »(٢) .

لقد قرأت قصصا أليمة عما يصيب الرجال والنساء والاطفال فى أثناء الحروب من أسى وضياع يهتكان الاستار ، ويسترخصان العار ! ورأيت صورا قابضة مبكية للجثث على عرض الطريق أو تحت الانقاض ، أمست رفاتا هامدا وولت عنها بشاشة الحياة وآمالها العراض ..

ان الحرب شىء كريه حقا ، والويل للمجرمين الذين يشعلون نارها ويحتقرون آثارها ..

---

(١) البقرة : ٢٠٨ (٢) محمد : ٢٢ — ٢٣

وفى الاديان السماوية كلها لم يأذن اللـــه بحرب عدوان ، وانما أذن فى حرب تحمى بها الحقوق وتصان الحقائق ، وتبــقى فيها بيوت اللـــه قائمة لعبادته وحـــده ..

وفى قـــراءة صحيحة يقول اللـــه تعالى :

« ولولا دفع اللـــه الناس بعضهم ببعض لهـــدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم اللـــه كثيرا »(١) ..

ورب البيت لا يطالب بالاستسلام للص المغير ايثارا للسلام ، وصاحب العقيـــدة لا يكلف بتركها تحت بريق السيوف ..

واذا خلصت النيات يمكن اقامة مؤسسات عالميـــة للحفاظ على السلام ، بعـــد غسل النفوس من الاثرة والبغى ، واشعارها بأنها أولا وآخرا من اللـــه بدأت واليه تصير ..

---

(١) الحج : ٤٠

٩٧ ــ بم تفسر النكسات التى أصابت الامة الاسلامية ، بدءا من الخلاف الداخلى بين على ومعاوية حتى يومنا هذا ؟ ..

أجمع أولو الالباب من عدو وصديق على أن الاسلام عقائد وشرائع ، وعبادات ومعاملات ، وأخلاق ونظم وتراتيب ادارية وتقاليد اجتماعية .. وأنه يكلف أتباعه بتطويع الشئون العادية لخدمة ذلك كله ..

وكنا فى أثناء دراستنا الاسلامية نعرف الفرق بين الاسلام والفكر الاسلامى ، وبين الاسلام والحكم الاسلامى .. الاسلام وحى معصوم لا ريب فيه ، اما الفكر الاسلامى فهو عمل الفكر البشرى فى فهمه والحكم الاسلامى هو عمل السلطة البشرية فى تنفيذه ، وكلاهما لا عصمة له ..

وعندما يخطىء مفكر فان خطأه لا يبقى طويلا حتى يستدرك عليه مفكر آخر .

وعندما يخطىء حاكم فان زلته لن تطول حتى يصوبها ناقد راشد ..

والامة الاسلامية ــ بفضل الله ــ لا تجمع على خطأ . وجهاز الدعوة بها حساس ، وهو عن طريق التعليم والامر والنهى ينصف الحق ..

ولما كانت هذه الامة حاملة الوحى الخاتم فان القدر يؤدبها اذا استرخت أو فرطت حتى تلزم الصراط المستقيم ؛ ويتعهدها بالمجددين الذين يغارون على حقائق الوحى وسبل فقيه وأساليب حكمه .. قال تعالى :

« ومن خلقنا أمة يهـــدون بالحق وبه يعـــدلون »(١) .

ومن هـــذا التقـــديم يظهر أنه لا غرابة فى وجود أخطاء فى تاريخنا الثقافى والسياسى ، وانما الغرابة فى التستر على هـــذه الاخطاء أو الاستحماق فى معالجتها والتعفية على آثارها ..

وجمهور المســلمين يعلم أن ســلفنا الاول شـــغله قتال الاســتعمارين الرومى والمجوسى ، ولعله أشرف قتــال عرفتـــه الدنيا ، ولكنه يشعر بغضاضة والم لمـــا أعقب ذلك من قتـــال داخلى بين المسلمين أنفسهم كانت له آثار بعيـــدة المـــدى على حاضرهم ومستقبلهم ..

وجمهور الفقهاء والمؤرخين والدعاة يؤكـــد أن على بن أبى طالب ــ الخليفة الرابع ــ كان امام حق ، وأن معاوية بن أبى سفيان كان يمثل نفسه وعصبيته فى خروجه على على ..

وشاء اللـــه أن يكسب معـــاوية هـــذه المعارك ، ومن ثم تحولت الخلافة الراشـــدة الى ملك عضوض فى بنى أمية ..

ان هـــذا التحول كان هزيمة للحق ، وضربة موجعـــة للمثل العليا الا أن من الغلو المرفوض تضخيم نتائجه لمـــا يأتى :

(أ) ان الخلفاء أو المـــلوك الذين ولوا أمور المســـلمين بطريقة غير صحيحة أعلنوا أن ولاءهم للاسلام .. وأن التغير فى أشخاص الحاكمين لا يعنى التغـــير فى القـــوانين أو الاهـــداف الاسلامية ، ومن اجل ذلك استأنفوا الجهاد الخارجى ، كما تركوا للفقهاء حرية الحركة ، ما لم يمسوا سلطانهم فى الزعامة ..

---

(١) الاعراف : ١٨١

(ب) ان العلم الدينى مضى فى طريقه يوسع الافاق ويربى الجماهير ، ويقرر الحقائق الاسلامية كلها من الناحية النظرية أى أن الاسـلام الشعبى مع أزوراره عن السلطة بقى قـديرا على الامتـداد والتأثير ..

(جـ) مع أن الدولة كانت عربية ، تتعصب لجنسـها فان الجماهير والت تعاليم الاسلام وحـدها ، وألقت قيادها فى أغلب العواصم لفقهاء ودعاة مربيين من الاعاجم ! ..

واجـدنى هنا مسوقا لتوكيـد حقيقـة مهمة : ان الجنس العربى له خصائص رفيعة رشحته لظهور الاسلام فيه ، واختيار النبوة منـه ، وهو الى جانب ذلك جنس له نقائص منكورة مثل الاعتزاز بالنسب الى حـد السخف وازدراء الحرف من فلاحـة وصناعة ، والحرص على الامارة ولو بطريق اللف والخطف ..

وقـد أفاد الاسلام من خصائصه ، وخبر من نقائصه ، ومن أجل ذلك نريد أن نضع فواصل بارزة بين التعاليم الاسـلامية والتقاليـد العربية ، فان الاخيرة غلبت الاولى فى مجالات كثيرة .

ان أسرتين عربيتين احتكرتا فى ذراريهما مهام الخلافة العظمى بضعة قـرون الى ان سقط الاسلام بحكامه هؤلاء تحت وطأة التتار فى بغـداد ، وتحت وطأة الصليبيين فى الاندلس .. بأى منطق وقع ذلك ؟ ..

ان دينا عالمى الشرائع والشعائر لا يحتمل هـذا السفه ! .

وجاء العثمانيون فقلدوا العرب ! ولمـاذا يكون عثمان التركى أقل من حرب أو هاشم المولودين فى بطحاء مكة ؟ لقـد بقيت هذه الغلطة حتى انزلت لـواء الخلافة عن الاستانة وحلت بالاسـلام نكبـة هائلة مهينة ..

وأرى أن الروح القبلية عنـــد العرب كانت من وراء هـــذا الانحـــدار كله ، قـــديمة وحـــديثة ..

وعلى العرب أن يحترموا الاســلام ، وليس على تعــاليم الاسلام أن تلين للتقاليـــد العربية ..

والعـــرب — مع بعض الامم القـــديمة — كانوا يؤخرون المـــرأة ، ويضيقون بالانثى ! كان الهنود يحكمون على الزوجة أن تنتحر بعـــد وفاة زوجها ! وكان عرب كثيرون يئـــدون البنت بعـــد ولادتها ..

وجاء الاسلام فأعلن حربا شعواء على هـــذه التقاليـــــد الهمجية ، الى أن رد للمراة كرامتها ، وصـــان حقوقها المـــادية والمعنـــوية ..

لكن الاستهانة بالانوثة بقيت كامنة فى النفوس ، تنشىء تقاليد وتمحو أخرى حتى كادت تعاليم الاسلام تطوى وتحل محلها التقاليد العربيـــة الاولى ..

وظهر ذلك اول ما ظهر فى حرمان المـــرأة من التعليم ، ومن حرمانها من غشيان المساجد ، والصلاة فى الجماعة ، وقـــد وازنت بين النصوص الواردة والشروح المصـــاحبة لها فرايت النقائض المضحكة ..

جاء فى الصحاح عن أم عطية رضى اللـــه عنها قالت : أمرنا رسول اللـــه صلى اللـــه عليه وسلم فى الفطر والاضـــحى أن تخـــرج العواتق — الشـــواب البالغات — والحيض ، وذوات

الخدور ــ المكنونات فى الاستار ــ ولكن الحيض يعتزلن الصلاة ، ويشهدن الخير ودعوة المسلمين ! قلت : يا رسول اللـــه ، احدانا لا يكون لها جلباب ! قال : لتلبسها أختهــا من جلبابها .. أى تستعير من احــدى المسلمات جلبابا وتخرج لتشهد الجماعة ..

قال صاحب التاج ، الجامع للاصول فى أحاديث الرسول : هـــذا كان فى سالف الزمان ! .. أما الان فلا يجوز خروجهن لمـــا هن عليه من زيادة التبرج ، الا العجائز ان كان لهن مكان خاص ..

وصاحب التاج غفر اللـــه له يتابع فى هـــذا الحكم علماء السنة من قبله ، فان شروحهن غالبا لا تخرج عن هـــذا المعنى ..

والواقع أن أولئك الشراح يذهبون بعيدا عن مراد الرسول صلى اللـــه عليه وسلم ، وتجرفهم التقاليـــد العربية ، فينسخون بها أحكام الشريعة ، ومقررات الدين ..

وفى حـــديث جابر ــ وهو فى منتهى الصحة ــ أن أمرأة من وسط النساء سفعاء الخـــدين ، استفهمت من الرسول عن بعض ما قال فى خطبة العيـــد .. والسفعاء الحمراء وزنا ومعنى أو التى فى حمرة خـــدودها سمرة ! ..

وظاهر أن المـــراة كانت سافرة الوجه دون حرج ، وهـــذا أمر يمارى فيه المتعصبون لبعض التقاليـــد الموروثة .. أما تعاليم الاسلام فموضع نظر ، لانها تخالف ما ألفوا من تقاليـــد ..

ومن النكسات التى أصابت جماعة المسلمين وأوهنت قواهم من قـــديم ، انفصال الحكم عن العلم ، وسير كل منهما فى مجـــرى اختص به ، لقـــد كان الخلفاء الراشـــدون حكاما وفقهاء معا .

ولست أعنى بالفقه الاستبحار فى تفاصيل العبادات وفروع الاحكام كما يتصور الناس ، كلا .. كلا ! .. انما أعنى بالعلم ادراك الاصول والغايات العظمى لدين اللـــه ، وادراك ما يدعمها من حجج وما يشين غيرها من شبه ، والقـــدرة النفســـية على الغرس والحصاد ، والكر والفـــر ..

ان المـــرء ليغوص فى بحار الحيرة عنـــدما يرى كرادلة العالم النصرانى يختارون أدهاهم وأذكاهم وأجلدهم على خـــدمة الدين ، وعنـــدما يرى معتنقى الشـــيوعية يختـــارون أقـــدرهم وأمهرهم وأشجعهم على خـــدمة المـــذهب ! على حين يقود المسلمين على مر التـــاريخ رجـــل أعظم مؤهلاته أنه ينتمى الى المـــأسوف على شبابه أمية بن حرب ، أو الصحابى المعروف عباس بن عبـــد المطلب(١) أو ابن الاناضول عثمان بن هيان بن بيان ! ..

ان أولئك الخلفاء لا ترشحهم مواهبهم الخاصة لمنصب ذى بال ، وليس فى كتاب اللـــه ولا سنة رسوله الا ما يشجب هـــذا المسلك ، بيـــد أن تقاليـــد العرب اعوجت بتعاليم الاسلام كرها ودفعتها فى هـــذا المجرى .

ونشأ عن ذلك أن العلم بدأ يستوحش ، وقـــد كابر وقاوم واستمسك بحقه فى الحياة مستمدا كفاحه من تعاليم الاسلام ، وما بقى لها من كرامة بين الجماهير ..

---

(١) نحن نحب نبينا من أعماق قلوبنا ، وهو عليه الصـــلاة والسلام الذى شرح لنا سنن الخلافة الراشـــدة فليس لاحـــد من أسرته أن يحبسها فى ذريته بضعة قرون .

لكن العلم ، وأعنى الدينى منه خاصة ، أخــذ ينحــدر ، وتقل وجاهته ، وانصرفت عنه كل الانصراف الطبقات الثرية ، أو المرشحة للوظائف العليــا ، ولم يبق على الوفاء له الا بعض المغامرين بأولادهم فى سبيل اللــه .. أو بعض الذين عز عليهم السير فى ميــدان آخر من ميادين المعرفة فرضــوا بما لا محيص عنه ، أو لا مفــر منــه ..

ومن انفصال العلم عن الحكم ورث المسلمون المعــاصرون مشكلتين جــديرتين بالنظر العميق :

الأولى : هجرة العقول الكبيرة الى الغــرب ، والأخــرى رداءة الاوعية الحاملة للفقه ، وطلبها للدنايا تحت أقدام المستبدين .

٩٨ ـ هل نجح الاسلام فى تحقيق اهدافه خلال تاريخه الطويل ؟ ..

عندما قرأت هذا السؤال أسرعت بالقول : لماذا لا يوجه هذا السؤال الى الدينيين السابقين عليه من الناحية التاريخية ؟ هل أحدهما أو كلاهما حقق أهدافه ، وفرض على العالم صبغته ؟ ..

سكان العالم الان أربعة مليارات ونصف تقريبا ، فيهم مليار مسلم ، ومليار نصرانى ، ومليار وثنى ، والباقى شيوعيين ! ذلكم هو الانتماء الظاهر الذى يمكن احصاره ..

غير أنى أنظر فى الاجابة من ناحية أخرى ، أن الاسلام لا يمثل نفسه عندما يفشل فى سوق الاحياء جميعا تحت لوائه ! انه يمثل الاديان كلها فى الحقيقة ، فمعنى أنى مسلم أنى أومن بموسى كأحد أتباعه الذين عاصروه وأيدوه ، وأومن كذلك بعيسى كواحد من حوارييه الذين يحبونه وينصرونه ! كل ما هنالك أنى أضم الى الايمان بهذين الرجلين الصالحين ! ايمانا برجل آخر هو أخ لهما ومحى لتعاليمهما ، رجل تلقى عن ربه هذه العبارة « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك »(١) .

فاذا لم ينجح أتباع محمد فى بسط دعوته على الناس ، فمعنى ذلك فشل الدين كله والرسل جميعا ! ..

هذا عندما يكون الرفض لحقائق الرسالة المعروضة ! أما اذا كان الرفض لسوء خلق العارض وفقدانه الوعى الصحيح ،

---

(١) فصلت : ٤٢

فان اللوم أو التساؤل لا يوجه الى الاسلام ، بل الى الامة التى أساءت البلاغ ، وشانت المبادىء التى تحملها ! ويبــدو أن ذلك هو المقصود من السؤال ..

واذا كان الامر كــذلك فان السؤال يجب أن يصــاغ على هــذا النحــو : هل نجح المسلمون فى خــدمة رسالتهم خــلال القرون الاربعة عشر ، أم كان فشلهم أغلب ؟ ..

ومع أنى شــديد اللوم لأمتى ، دائم التقــريع لها فاننى لا أستطيع أبدا الزعم بأن اليهود أو النصارى كانوا خيرا منها حالا ، ولا تخــدعنى الهزائم السياسية المعاصرة عن تقــرير الحقيقة .. فلا يزال المسلمون برغم جراحاتهم الخطيرة أولى باللـــه ، وأعرف برسالاته ، وأملك لأسباب العافية ، وأحق بالبقاء ..

وما قــدموه للعالم ، وما ينتظر منهم تقــديمه يرجح كفتهم ، ويعلى حجتهم ..

ان الاسلام انتقل بالحياة البشرية نقلة حاســمة فى عــدة مجــالات :

(أ) نفى عقيــدة الوحــدانية من كل شوائب الشرك .

(ب) رفض أى عنصر فى الايمان يناقض العقل .

(ج) أقــر المساواة فى الحقوق والواجبات على اختــلاف الالوان والاديان ..

(د) خفف من ويلات الحروب وحرم الدمار الشامل .

ومع ما تعرض له التاريخ الاسلامى من مد وجزر ، وذبول وازدهار ، فان الامة الاسلامية فرضت طابعها المتميز على الفكر

البشرى ، وجعلت خصومها يراجعون انفسهم ، ويجمدون بعض مواريثهم أو يتخلون عنها ..

كانت صورة الالوهية مفزعة فى كلمات بعض المتحدثين عن الله اذ يبدو رب العالمين وكأنه شخص حاسد ذاهل يخطىء ويندم ويجهل ويتراجع ، ويفتقر الى من يرشده ويصحح له عمله ..

تأمل فى هذه العبارات : لما قرر الله الانتقام من بنى اسرائيل بعد عبادتهم للعجل قال موسى له : ارجع عن حمو غضبك ، واندم على الشر بشعبك ! فندم الرب على الشر الذى قال : انه يفعله بشعبه ! ..

وفى مكان آخر : فندم الرب واغتاظ لما أغضبه بنوه وبناته ..

فندم الرب على أنه ملك « شاول » على اسرائيل ! .

الرب كجبار يبرز ، وكرجل قتال يثير غيرته ، ويهتف ، ويصرخ ويظفر على أعدائه ..

سطع دخان من أنفه ، ومن فيه نار آكلة جمر متقد ، طأطأ السموات والضباب تحت قدميه ، ركب على كروب وطار ، وخطف على أجنحة الرماح .. الخ ..

وقد يعجب المرء عندما يرى أن الله أخرج آدم من الجنة غيرة منه أو خوفا من مزاحمته له ..

والنص الوارد أنه حظر على آدم الاكل من شجرة المعرفة خشية أن يكون مثله ..

ان عقيــدة الوحدانية والكمال المطلق للـــه سبحانه وتعالى كما عرضها المسلمون ، قهرت وبهرت وجعلت العالمين يستكينون اليها ويتجاهلون ما عداها أو يذكرونه بحياء واغماص ! ..
اليها ويتجاهلون ما عداها أو يذكرونه بحياء واغماض ! ..

وهــذا أثر اسلامى لا مثيل له ..

وقــد غالى المسلمون بالحكم العقلى ، وقرروا أن ما يرفضه العقل يستحيل أن يكون دينا .. بل هو من أهواء البشر .. وهذه النزعة الاسلامية شقت طريقها الى مستقبل الانسانية ، وتخاذلت أمامها شتى الملل والنحل ..

ويسوؤنا أن نتهم الحضارة الحــديثة بأنها لا تزال تحتــرم التفرقة العنصرية ، وتتعامل مع الاجناس الملونة ، ومع معتنــقى الاسلام خاصة بمشاعر الضغن والزراية ! ..

ان القوانين ــ من الناحية النظرية ــ تلغى هــذه التفرقة . أما من الناحية العملية فالحيف ينزل بالضعاف من المسلمين والزنوج دون حرج ، وقــد أصــدرت هيئــة الامم المتحــدة ٢٥٠ مئتين وخمسين قرارا لمصلحة أهل فلسطين ، لم ينفذ منها قرارا واحدا !.

ولم يعرف المسلمون بتة حروب الابادة الجماعية ، ولم يعرف العالم فاتحا أرحم من العرب بل أن الاكراد والاتراك المسلمين كانوا أعف الف مرة من الدول الاوربية الغابرة والحاضرة على سواء ..

وطيبة المسلمين الى حــد الغفلة المعيبة هى التى تجعلهــم ينسون ما حل بآبائهم واخوانهم فى أيات نجسات ..

لقــد غزا «نابليون» مصر والشام فقتل فى الشــام أربعة آلاف أسير بعــد ما أمنهم على حياتهم ..

واستحر القتل بسكان مصر فى الوجهين البحرى والقبلى والعاصمة نفسها حتى اهتز عدد السكان ، ولا يريد أن يذكر هذا أحد ..

ويظهر أن اغتيال الاسرى على كثرتهم داء قديم ، فان صلاح الدين الايوبى أرسل الى « رتشارد » ملك انجلترا — وكان على رأس حملة صليبية تقاتل المسلمين فى الشرق — أرسل اليه بفدية كبيرة ليفك قيود هؤلاء الاسرى فماذا حدث ؟ ..

اليك ما كتبه « ستيفن رنسيمان » فى الجزء الثالث من « تاريخ الحروب الصليبية » بعد ما شرح مراوغات « رتشارد » وتعنت مفاوضيه قال : أضحى « رتشارد » حريصا على أن يغادر عكا وأن يزحف على بيت المقدس ، وصار الاسرى المسلمون مصدر حيرة له ثم انشرح صدره للخلاص منهم بعد ما دبر اعتذارا رآه مقبولا ، قال : ان صلاح الدين نقض عهده معه ، ومن أجل ذلك فقد أمر بالاجهاز على ٢٧٠٠ الفين وسبعمائة أسير من الذين بقوا على قيد الحياة من حامية عكا ! .. قال المؤلف « .. واشتد حماس عساكره للقيام بهذه المجزرة ، وحمدوا الله فى جزل وسرور .. حسبما يروى المدافعون عن رتشارد — فقد هيأ لهم فرصة للانتقام لرفاقهم الذين سقطوا أمام المدينة أثناء الهجوم عليها ، ولقى زوجات الاسرى وأطفالهم مصارعهم الى جوار رجالهم ! ..

ولم يبق الصليبيون الا على بعض رجال يستفيدون منهم فى أعمال السخرة ، وبعض الاعيان ، أما الباقون فقد فنوا جميعا ، وشهد المسلمون المرابطون فى أقرب المعاقل الى عكا ما قد حدث فاندفعوا لانقاذ اخوانهم وأهليهم ، وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتى حلول الظلام فقد عجزوا عن الوصول اليهم ..

ولما انتهت المذبحة غادر الانجليز البقعة بما تناثر عليها من الجثث المشوهة ، وأضحى بوسع المسلمين أن يقدموا للتعرف على أصدقائهم الذين استشهدوا ..

لندع هذا المشهد الكئيب ، ولنترك دلالاته البينة ، ولننتقل مع « ستيفن رنسيمان » الى مشهد آخر ذكره فى الجزء الثانى من كتابه بعد ما انتصر صلاح الدين فى حطين .. قال : « وقبل صلاح الدين أن يضع شروط الصلح ، فعرض بأن بوسع كل مسيحى أن يفتدى نفسه ، على أساس عشرة دنانير للرجل ، وخمسة دنانير للمرأة ، ودينار للطفل . وعندئذ أشار باليان الى أن بالمدينة حوالى عشرين ألف من الفقراء ، ليس بوسعهم أن يؤدوا هذا المبلغ ، أفلا يجوز للسلطات المسيحية أن تدفع مبلغا اجماليا ، لافتدائهم . ورضى صلاح الدين بأن يقبل مائة ألف دينار عن جميع العشرين ألف من الفقراء ، غير أن باليان أدرك أنه ليس من المستطاع تحصيل هذا المبلغ الضخم ، فتقرر اطلاق سراح سبعة آلاف مقابل دفع ثلاثين ألف دينار وبناء على أوامر باليان ، ألقى العساكر السلاح . وفى يوم الجمعة ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ ، دخل صلاح الدين بيت المقدس ، ويوافق هذا التاريخ السابع والعشرين من رجب ، الذى يجرى فيه الاحتفال بعيد الاسراء ، حين أسرى النبى الى بيت المقدس ، ثم ارتقى الى السماء ..

والواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والانسانية ، فبينما كان الفرنج منذ ثمانى وثمانين سنة يخوضون فى دماء ضحاياهم ، لم تتعرض الان دار من الدور للنهب ، ولم يحل بأحد من الاشخاص مكروه . اذ صار رجال الشرطة ، بناء على أوامر صلاح الدين ، يطوفون بالشوارع والابواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين . وفى تلك الاثناء حرص كل مسيحى

على أن يلتمس المـــال اللازم لافتـــدائه . وأخـــذ باليان كل ما فى بيت المـــال من الاموال لدفع ما وعـــد به من أموال الافتـــداء ، وقـــدرها ثلاثون ألف دينار . ولم يخرج الاسبتارية والداوية عن شىء من أموالهم الا بصعوبة ، ولم يحفل البطريزك وهيئة الكنيسة الا بأنفسهم ، ودهش المسلمون حينما رأوا البطريرك هرقل يؤدى عشرة دنانير ، مقـــدار الفـــدية المطلوبة منـــه ، ويغادر المدينة ، وقـــد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الذهب ، وقد تبعته العربات التى تحمل ما بحوزته من الطنافس والاوانى المصنوعة من المعادن النفيسة . وبفضل ما تبقى من منحة المـــلك هنرى الثانى ، تقرر اطلاق سراح سبعة آلاف من الفقراء . وقـــد كان يصح أن ينجو من الاسترقاق ألوف عديدة من المسيحيين لو أن الاسبتارية والداوية والكنيسة كانوا أكثر سخاء . ولم يلبث أن تدفق من أبواب المدينة طابوران من المسيحيين ، تألف الاول من أولئك الـــذين افتـــدوا أنفسهم ، أو تم افتـــداؤهم بفضل جهود باليان ، أما الطابور الثانى فشمل أولئك الذين لم يستطيعوا افتـــداء أنفسهم ، ولذا توجهوا الى الاسر . ومن المناظر التى تدعو للاسى والحزن ، ما حـــدث من التفات العادل الى أخيه صـــلاح الدين يطلب منـــه اطلاق سراح ألف أسير ، على سبيل المـــكافأة عن خـــدماته له ، فوهبهم له صلاح الدين ، فأطلق العادل على الفور سراحهم . واذا ابتهـــج البطريرك هرقل لان يلتمس هـــذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير ، لم يسعه الا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الارقاء ليعتقهم فبـــذل له صلاح الدين سبعمائة أسير ، كما جعل صلاح الـــدين لباليان خمسمائة أسير . ثم أعلن صلاح الدين أنه ســـوف يطلق سراح كل شيخ ، وكل امرأة عجوز . ولمـــا أقبل نســـاء الفرنج اللائى افتـــدين أنفسهن ، وقـــد امتلأت عيونهن بالدموع ، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن ، بعد أن لقى أزواجهن أو أباؤهن مصرعهم أو وقعوا فى الاسر ، أجاب بأنه وعد باطلاق سراح كل

من فى الاسر من أزواجهن . وبذل للارامل واليتامى من خزانتـــه العطايا كل بحسب حالته . والواقع أن رحمته وعطفـــه كان على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين فى الحملة الصليبية الاولى » ..

ان الامة الاســـلامية ـــ برغم تعاســـة الظروف التى ألمت بها ـــ أرست قواعد خير كثير فى هـــذه الحياة ، وما يبقى لها بعد معادلات الحـــذف والاضافة يزينها ولا يشينها ..

وأعرف أن خصومها أصفق وجوها وأقـــدر على فعل المناكر ودفنها فلا تعرف ، وأجرأ على تلمس العيوب للبراء ، والاصرار عليها حتى تثبت ..

وفى عصرنا هـــذا أمر رجل دين أحمق فى غيانا بأمريكا الوسطى ألف شاب بالانتحار الجماعى ، فماتوا كلهم فى صمت ! ولو فعـــل شيخ مسلم واحـــد فى المـــائة من هـــذه المـــأساة لدمغت الامة الاسلامية بعار لا تقـــدر على الافلات منه ! ولنسب الاســـلام كل شر ! ..

وما ننكر أن هناك منصفين صارحوا بفضل الامة الاســـلامية على العالم وآخر ما قـــرأنا لهؤلاء كتاب « شمس العرب تســـطع على الغـــرب » لاستاذة ألمـــانية طاهرة الذمة ..

صحيح أن المسلمين اليوم فى أوضاع بالغة السوء ! وصحيح أن فساد الحكم حقبا طويلة من وراء هـــذا الانحـــدار ، بيـــد أن الامة الجريحة لا تزال أنبل من قاتليها ، ولا تزال ثروتها الروحيـــة أجـــدر بالتقـــدير ، وأحق بالتقـــديم ..

ان الذكاء الانانى فى أوربا وأمريكا سيجر الويل على أصحابه وقـــد يجره على العالم كله ، ما لم يرحمنا اللـــه ..

٩٩ — كيف تتصور مستقبل الاسلام فى عالم الغـــد ؟ ..

حاضر المسلمين يقبض الصدر ، وقـــد يبعث على التشاؤم ! ولكنى واثق من أن هـــذه المحنة ستنجلى كما انجلت محن أخـــرى فى أيام مضت ..

على أن انجلاء المحن لا يشبه انقشاع السحب ، نرقبه ونحن مكتوفو الايدى .. كلا،لابد من عمل جاد وسعى لاغب .. أو كما قلت فىموضع آخر : لابد أن يعتنق المسلمون الاسلام يقينا وخلقا ونشاطا وفكرا ..

أما مع النقائض الموجودة فيستحيل أن يكسب المســـلمون خـــيرا ..

ان أعطابا نفسية وعقلية أصابت كيانهم بشلل لا تعرفه أمم أخرى ، والحقت برسالتهم مهانة كبيرة .. أقول ذلك وأنا أقرأ كلمات للمهندس ماهر أباظة وزير الكهرباء جاء فيها : ان قطاع الطاقة ظل يبحث منـــذ خمس عشرة سنة عن سر صناعة مادة معينة فى الغازات الكهربائية دون جدوى فقـــد رفضت الشركات الاجنبية — نحو سبع شركات — أن تعطى أسرار هذه التكنولوجيا حتى تبقى المصـــدر الوحيـــد لها وحتى تبيعها وفق شروطها ..

قال الوزير : ثم تطوع العلماء الصينيون باخبارنا أن المواد التى تصنع منها هذه العازلات موجودة فى تربتنا ، وأنهم سيرسلون خبراءهم ليرشـــدونا اليها فى بلادنا !! ..

علماء الصين درسوا طبيعة أرضنا فى البحر المتوســـط ، اننى لم أدهش للخبر .. لانى لمـــا ذهبت الى « نواكشوط »

عاصمة موريتانيا عرفت أن المياه التى تغذى العاصمة تأتى من آبار جوفية اكتشفها الصينيون ، وقاموا بمد أنابيبها الينا ، لقد عرفوا وهم على المحيط الهادى خيرات أرضنا على المحيط الاطلسى ..

قلت لنفسى : اننى أعرض الدعوة الاسلامية كلاما ، وهؤلاء الصينيون يعرضون الدعوة الشيوعية عملا .. وخامرنى حزن عميق ..

ومضيت أتابع ما قرأته فى موضوع العازلات الكهربية ففوجئت بأمر آخر ، لقد تكلم عالم مصرى هو الدكتور عصام حسن فقال : ان مادة الكولين التى تنتج العوازل المطلوبة موجودة فى سيناء وفى كلابشة ، وأن امكانات استخدامها قدمت الى الادارة المصرية من سنين طويلة ، وهى الى الان حبيسة أدراج بعض الرؤساء ! قال : وان العلماء الصينيين لم يعرفوا نبأ هذه المادة الا من كتابات وبحوث العلماء المصريين التى نشروها فى الخارج !.

لقد صدقت هذا التعليق ، وأدركت أن المحنة ليست جهلنا ، وانما هى تبلد بعض الرؤساء أو هى ما أشرت اليه فى اجابة سابقة ، انفصال العلم عن الحكم فى أغلب البلاد الاسلامية.

فالامر كما قيل :

ان كنت لا تدرى فتلك مصيبة   أو كنت تدرى فالمصيبة أعظم !

ويظهر أن هناك نوعين من الشلل الجزئى يقطع دورة الاحساس فى الكيان الاسلامى العام ، ويقعد الامة عن أداء

رسالتها الكبرى .. ذاك لو بقى لدينا شعور بأننا تحمل للعالم رسالة كبرى ..

ان الوهن الذى حل بالمسلمين دوخهم ، وجعل أبصارهم عند مواطىء أقدامهم .

ولكن نطمع فى استماع الناس الينا يجب أن نقول ما يعقل ! أو نعقل ما قيل لنا فى كتابنا ونكون نموذجا حسنا له ..

هل من التصور المحترم للاسلام أن يقول بعض « العلماء » : الحاكم يمضى فى طريقه دون اكتراث بالشورى لانها غير ملزمة له ؟ هل تخدم الفرعونية بأفضل من هذا اللغو ..

هل من التصور المحترم للاسلام أن يقال فى حكومته : أنها حكومة الحزب الواحد ؟ ..

ان أقمار التجسس الاميركية صورت الطائرة الكورية التى أسقطت قريبا من قاعدة عسكرية روسية ، ولا يزال بعض علمائنا يحارب التصوير بضراوة ، ويراه وثنية ! ..

وبعضهم حكم بأن وصول الاميركيين الى القمر خبر آحاد ، لا يفيد العلم ، وأن الامر اشاعة ..

ولنترك هذا الهزل الى آفة أخرى تخدش الفكر الدينى ! ان مناقشة السند أو التمحيص النظرى للحكم المروى أساس الحكم فى القضايا المعروضة ، أما ملاحظة الاثار الاجتماعية عند ترجيح اجتهاد على اجتهاد فلا يلتفت اليها ..

ومن هنا أستبعد رأى ابن تيمية فى رفض الطلاق البدعى ، ورفض الاثار المترتبة عليه ..

واستبعد رأى أبى حنيفة فى أن المسلم يقتل فى الذمى أو أن المـرأة تباشر عقـدها ، وكان العمـدة عنـد المستبعدين مجرد النظر فى قواعد الاستدلال ، أما استقصاء الابعاد الاجتماعيـة لهـذه الاحكام الفرعية العملية فلم يرد على البال ..

ونحن لا نهون من قيمة الاستدلال فى القضـايا الاجتهادية ، وانما ندعو الى احترام التقاليـد المستقرة فى بيئات كثيرة مادام لا يصادمها نص ، كما نرفض التشبث باجتهاد ما اذا كان يعوق سير الدعوة الاسلامية ، فلا وزن لاجتهاد فرعى يعترض انتشـار الاصول والاركان ..

واذا رأينا أن الاوربيين يقبلون الاسلام لو سمحنا للمـرأة بالقضاء فى الدماء والاعراض وولاية المناصب العامة فليدخلوا فى الاسلام ! وليعملوا بمذهب ابن حزم ! أليس ذلك خيرا لنا ولهم ؟ .

وقـد أمسى الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسـلمة بعـد ما اقتحمت دار الاسلام من أقطارها ، ومن أبجديات الجهاد العلم بكل ما أودع اللـه من قوى فى أرجاء البر والبحر والجو ، ان هـذا العلم الضرورى يسبق علو ما كثيرة ظهرت أيام الترف والتفوق ، بل لقـد أمست علوم اللغـة العربية من فروض العين على المثقفين ، بعـد ما تدحرجت هـذه اللغـة ، واسـقطت مكانتها عن عمـد ..

ومن النفاق أو الجبن شغل المسلمين بنوافل علمية أو عملية قبل استكمال الفروض المهملة ..

بناء الامة الاسلامية من جـديد يفرض على الساسة والدعاة والفقهاء أن يمعنوا النظر ويطلبوا التفكير وأن يحاربوا بجهد متساو

الغزو الثقافى الوافـــد من الخارج والانحرافات الكثيرة المتوارثة من الداخل ..

وللاخلاق قصة لا يجوز اغفالها .. هناك أخلاق تنشأ من حسن معرفة اللـــه ، أو من صـــدق عقيـــدة التوحيد ، أبحث عنها فى سلوك خاصة وعامة فلا أجـــدها ..

هل أستطيع وصف رجل يخاف الناس ولا يخاف اللـــه ، ويسترض الناس ولا يسترضى اللـــه ويتوكل على الناس ولا يتوكل على اللـــه ، هل أستطيع وصف هـــذا المخلوق بأنه مسلم ؟ .

وهناك جملة أخلاق تقوم على محو النفاق وتزكية السريرة وتنضبط بها الاعمال والاحوال ، نبه اليها النبى العظيم الذى قال بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ، انه أحصى امارات النفاق فى الكذب وخلف الوعد وخيانة الامانة ونكث العهود والفجور فى الخصومة ! ماذا يقول المسلم ؟ .. اذا كانت مجتمعات أخرى أحرص منا على الصـــدق والامانة والوفاء والسماحة ؟ ..

ولقـــد رأيت نظافة القرى والمـــدن فى أمم شتى ، ورأيت النظام الصارم يشيع بين مشاتها وركابها وألقيت نظرة خاطفـــة على بلادنا ثم شعرت بغصـــة ..

لا أدرى ماذا حـــدث لنا ؟ اننا نموت ونميت ديننا معنا ! .

ورأيت عما لا يكرهون الاتقان ، وموظفين يكرهون الخـــدمة العامة ، ورؤساء يشبعون مركبات النقص أو عقـــد الوضاعة وينظرون الى الجماهير من أعلى .. وهم آلهم وعشيرتهم ..

ان قضايا الاخلاق أخطر من قضايا أخرى لا سيما والخلق عنـــدنا يرتكز على الايمان باللـــه ، ولا يرتكز على فلسفات بشرية أو مادية ، وذلك يعنى أن هـــدم الاســـلام ـــ وهو دين أكثر من تسعة أعشار العرب ـــ لا ثمرة له الا ضياع الاخلاق يقينا ..

وعنـــدما يقول اللـــه تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله »(١) .

فلا تنتظر عدالة ، ولا شهادة نقية من شخص خرب القلب ! والواقع أن الذين ينتقضون الاسلام ويعبثـــون بشـــعائره يهزون الاخلاق هزا ، وينشئون أجيالا لا تصلح فى حرب ولا سلام ..

وليس بقائم بنيان قوم   اذا أخلاقهم كانت خرابا ! ..

يجب أن تقوم للاسلام أمة تعمل به ، وتعطى صورة صادقة له .. ومن السفاهة تكليف العالم أن يدرس الاسلام مجـــردا من سيرة معتنقيه .. وتحميله مسئولية فلسفية عن كفره وايمانه بعد تلك الدراسة العجيبة ..

وأرى أن الصحوة الاسلامية المعاصرة مكلفة بتكوين هـــذه الامة الجـــديدة ، وانضاف رسالة الاسلام من هـــذا البلاء ..

ومع تمام هـــذا التكوين نعرض أنفسنا على ساكنى القارات المعمورة ، واعتقادى أن النجاح سيكون حليفنا ، فان لصـــاحب الحق مقالا ، وللحقيقة سناؤها واغراؤها ، وقـــد سئم الناس

---

(١) النســـاء : ١٣٥

ما صحب الحضارة الحديثة من جفاف واباحية ، ومن شره ووحشية ، ومن بعد عن الله وكفر بلقائه ..

وفى حقائق الاسلام ، وشعب الايمان الجامعة الجليلة ما يغنى ويستحق كل حفاوة ..

وفى لقائى ببعض الكبار الذين أسلموا رأيت أن الجانب العاطفى من الاسلام هو الذى اجتذب الانتباه ، أو المنطقى العقلى للقرآن الكريم ، أى أن القوم ينشدون ما ينقصهم ..

وهنا ألفت النظر الى أن بالاسلام أصولا صلبة ، وفروعا مرنة ، وفيه أقوال وآراء نسبتها الى الناس أقرب من نسبتها الى رب الناس ، والدعاة الراشدين يعرفون واجبهم بازاء هذا كله ..

وأخشى أن يذهب داعية ليطعن فى قانون السببية ويزعم أن النار لا تحرق بحرها ، وأن السكينة لا تقطع بحدها ، كما هو مقرر فىكتب الكلام عندنا ..

أو يذهب آخر ليقول : لا تقيدوا الحاكم بالشورى ، فليس يجب عليه ذلك ..

أو يذهب آخر فيقول : لابد من ضرب النقاب على وجوه النساء وحبسهن فى البيوت أغلب العمر ، فلا تعلم ولا تعبد ولا تمشى فى الاسواق ..

ان أصول الاسلام ومعاقد العبادات والاخلاق هى التى يدعى اليها ، والناس يتخيرون بعد ما يعجبهم من تفاسير ووجهات نظر ..

وفى رأيى أن النموذج العملى الذى يقـــدمه المسلمون هو الاساس الاول لنجاح الدعوة ..

ثم أن الدول الاسلامية الكثيرة يجب أن تتقارب وتومى الحدود بينها ، ولا بأس أن يبـــدأ ذلك بأسواق مشتركة أو بتكـــوين اتحادات اقليمية كما تم بين دول الخليج ، ودول وادى النيل ، وما يقترح بين دول المغرب الكبير .. على أن يكون الهـــدف الاهم تجميع المسلمين كافة فى كيان واحـــد ، أو جسد روحه الاسلام .

١٠٠ ـ الى أى مدى يمكن أن نقتبس من هذه الحضارة المعاصرة ؟؟

كان رجال التعليم والتربية فى اليابان أيقاظا عنــدما اتصلت بلادهم بأوربا فى القرن المــاضى ، أو قل : كان حراس التقاليــد الموروثة صاحين عنــدما قــررت اليابان الاســتفادة من التفوق الصناعى الغربى ، فقــد أعــدوا لكل جــديد يقتبس مكانه فوق أرضهم ، ومساحته المــادية والادبية التى لا يعدوها ، وهيمنوا ببصر حاد على الاثار المتوقعة حتى لا تفلت من أيديهم ، أو تتحرك بعيــدا عن خططهم المرسومة ..

ومع التزام هــذا الخط الصارم بقيت الشخصية اليابانيــة محفوظة السمات ثابتة المــلامح ، فانتقلت الصناعات الغربية الى اليابان ، ولم يتحول اليابانيون الى أوربيين فى عقائدهم أو لغتهم أو آدابهم وأخلاقهم ..

انهم فعلوا ولم ينفعلوا وقادوا ولم ينقادوا ..

وكانت هناك أديان بينها فجوات ، البوذية من ناحيــة ، والشنتوية من ناحية أخرى .. والاتباع المخلصون تتقسمهم وجهات نظر شتى ، ومذاهب فقهية كثيرة ــ ان صح التعبير ــ بيــد أن لونا من المعايشة السلمية فرض نفسه على الجميع فاذا اليابانيون كلهم دون حساسيات دينية يتعاونون على انهاض بلدهم ورفع لوائه ، وتم لهم ما أرادوا ..

ان للنجــاح الحقيقى أســاسا لا يتغــير .. هو النفس الانسانية ، فاذا استقر هــذا المهاد لم يبق شيىء ذو بال ، وقــد كان محمــد صلى اللــه عليه وسلم أعرف انسان بهذه الحقيقة ،

فاتجهت جهوده كلها قبل أى شيىء الى داخل الانسان تصوغه وتضبطه وتطمئن الى قراره ومساره ، وهو يعرف أن هذا الانسان سوف يفرض نفسه على بيئته يوما عندما تنزاح العوائق من أمامه ..

ولم يحاول قط الاصطدام بالاسوار الخارجية قبل استكمال هذا الداخل المهم .. ومن ثم ترك الاصنام منصوبة حول الكعبة عشرين سنة ، لم يهشم واحدا منها فى معركة طائشة ، بل الثابت فى سيرته أنه طاف فى عمرة القضاء فى السنة السابعة حول الكعبة والاصنام جاثمة حولها ، وفى الاوضاع التى كانت عليها من بدء الدعوة ..

أكان ذلك بقيا عليها ، أو توفيرا لها ؟ .. كلا .. لقد كان يعلم أن لها أجلا لا ريب فيه ، وأنها عن قريب أو بعيد ستتحول جذاذا ..

ومن الذى يقوم بهذا التحويل الحاسم ؟ الرجال الذين استناروا من الدخل ، وتربوا على التوحيد الحق ..

لقد عرفوا أن الذباب أقوى من هذه الاصنام ؛ وانها لا تثبت فى معركة معه .. الم يتلوا قوله تعالى :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون اللـه لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب »(١) .

---

(١) الحج : ٧٣

فليتربصوا بهـــذه الاصنام يوما لا ريب فيه دون استعجال ، وليهتموا بداخلهم يتعهـــدونه فهو الوجود الاتى مع الغـــد ..

ويتساءل أناس : ما هـــذا التعهـــد الشاغل المهم ؟ ونقول : هو تعهـــد الوعى ليكون صحيحا ، والباطن ليكون نظيفا ، والخلق ليكون عظيما ، والاخاء ليكون وثيقا ، والهـــدف ليكون واضحا .. فالامم لا تبنى بالصور وانما تبنى بالحقائق ..

ان المنافقين أحسن الناس اتقانا للمراسم ، وقلوبهم هواء .. أما المؤمنـــون فان نضج نفوسهم ، وزكاة سرائرهم ، هما ســـر عظمتهم ، وسر مآل الامور اليهم ..

ولا يعرف فى تاريخ الهـــداة رجل مثل محمـــد صلى اللـــه عليه وسلم أحسن صوغ النفوس وايقاظ ملكاتها وادارتها بأعظم ما فيها من طاقة ، وجعلها تدفع ولا تندفع ، وتؤثر ولا تتأثر ..

فهل نحن الدعاة المنتمين اليه نفهم هـــذا المنهج ، ونلتـــزم منطقه ؟؟ .. ان الموجهين اليابانيين كانوا أذكى منـــا وأقـــدر فى مواجهة المشاكل وهزيمة الصعاب ..

نظرت بحسرة الى « الخلق الفردى » فى الافادة من التقدم الصناعى العالمى ، ما هـــذا ؟ هـــذا شاب يقود سيارة فارهة ، تنهب الارض نهبا ، ينزل منها بأناقة وكبرياء ، ويرمق الشارع بنظرة استعلاء ، يشترى بعض السلع ثم يمتطى سيارته ويعود من حيث جـــاء ..

انه مازاد من الناحية الانسانية شيئا عن الايام التى كان سلفه يمشى فيها حافيا أو منتعلا .. وما تشرف به أمته ولا أسرته .

وهــذا عامل قادم من وادى النيل ماذا يحمل الى وطنه ؟ « فيــديو » ! . ان المسكين جمــد عرق جبينه وارهاق أعصابه فى هــذا الجهاز المســلى ، وسيحمله منتصب القامة والهــامة لانه أصبح به أرفع مستوى ، وما درى المسكين أنه بما يحمل نقص وما زاد ..

العرب فى الحضارة الحــديثة شـــعوب مستهلكة تتنافس الدول الصناعية على الهائها بالادوات البراقة والمخترعات المريحة .

والدعاة لا يدرون كيف يستنقذون أمتهم المحروبة من هــذه الاوضاع القاتلة .. لانهم لا يتجهون الى داخل الانســان المسلم يحركون ما توقف من أجهزته ، وينيرون ما أظلم من مصابيحه .. انهم يتحركون نحو الظاهر القريب او تحته بقليل ..

ان قــدرة أمة ما على الصــدارة فى الارض ، أو توريث أمة ما قيــادة العالم كما يعبر القــرآن الكريم ، لا يجيىء بين عشية وضحاها ، ولا يتم بخصائص سهلة ، لا ان له صلاحيات معينة أومأ اليها الوحى فى قوله سبحانه :

« ولقــد كتبنا فى الزبور من بعــد الذكر ان الارض يرثهــا عبــادى الصالحون »(١) ..

لا تظن المــدى قريبا بين ما قصه القــرآن الكريم عن ذل بنى اسرائيل قــديما ، وبين تمكينهم فى الارض بعــد ذلك . عندما توعــد فرعون قوم موسى ، وجاء على لسانه .. « سنقتل أبناءهم ونستحى نســاءهم وأنا فوقهم قاهرون(٢) . قال موسى لقومه :

---

(١) الانبياء : ١٠٥ (٢) الاعراف : ١٢٧

استعينوا بالله واصبروا ، ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين »(١) .

ومرت السنون ، وتغيرت الاوضاع « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها »(٢) ان ذلك كله لم يتم فى أيام قلائل ، انه استغرق عشرات السنين ، حتى أمكن وفق سنن الله الاجتماعية أن يرزق العبيد أخلاق السيادة الحقيقية ..

والواقع أن العرب أيام البعثة تعهدتهم بالصقل والتهذيب يد صناع ، ومضت بهم فى طريق المجد نبوة ملهمة ، نبوة حولت الماء والطين الى أزهار ورياحين ..

نعم ان الاسلام حول العرب الى ربانيين بعد ما كانوا شياطين وجعلهم نماذج تحتذى فى ميادين العبادات والمعاملات ، فكانت قيادتهم خيرا وبركة وكانت فتوحهم الفكرية والروحية أندى وأجدى من فتوحهم العسكرية الخارقة ..

وعندما سقطت القيادات القديمة من الفرس والروم لم يبكها أحد ، لم يتخلف عن سقوطها فراغ يحاول الاخرون ملأه ! بل الذى حدث أن الشعوب تنفست الصعداء ، ورأت أن ما جد فى ربوعها أولى بالتقدير والاحترام ، أو أولى بالرعاية والحماية .

لكن عرب اليوم على غرار آخر ، ودعك من التخلف الصناعى والحضارى ، ولننظر الى قضايا اجتماعية وأخلاقية هى من صميم حياتنا الداخلية ..

---

(١) الاعراف : ١٢٨ (٢) الاعراف : ١٣٧

ما تقاليد الزواج عندنا ؟ هناك أعراف متبعة أن قبيلة دون قبيلة .. وأن أسرة أعرق من أسرة .. وأن مكانة امرىء ما تنيع من نسبه .. وقد ساند هذا السلوك الجائر تفكير فقهى يؤكد أن المرأة من بنى أمية أو بنى هاشم لا يرقى الى مستواها الرجل من عرق آخر ..

أليست هذه هى التفرقة العنصرية التى جاء الاسلام لمحوها ؟ هل نستطيع تصدير هذا التفكير الى العالم ؟ وهل نكون صادقين مع الله عندما نزعم أن ذلك دينه ؟ .. وهل يقبله أهل الارض منا ؟ ..

وفى أقطار كثيرة رأيت الشباب يئن من غلاء المهور ، وأحسست أن العوائق هائلة دون الحلال وأن المغريات كثيرة نحو الحرام ، فهل هذا العجز فى علاج أهم الغرائز البشرية يعد نصرا اسلاميا ، وهل رسالة أمتنا الاجتماعية تصعيب الطيبات وتيسير الخبائث ، وهل يهش العالم لتقاليدنا تلك ؟؟ ..

ولا أمضى فى سرد أمثلة لتعثر قضايانا الاجتماعية ، وانما أمد البصر لقضايانا الخلقية التى لن نستورد لبحثها خبراء أجانب ..

شكا لى شاب ناشىء موهوب ، وعورة الطريق أمامه ، فقلت له يائسا : امضى بمواهبك الى الامام دون انتظار عون من أحد .. بل توقع الكيد والصد لان البيئات التى تعيش فيها لا ترحب بالموهوبين ، ولا تؤتى كل ذى فضل فضله .. لا كارهة ؛ أو مغلوبة ..

أغلب الناس يعيش داخل قوقعة من نفسه ومآربه ، وقلما يلتفت الى الاخرين ليسدى عونا ، أو يقدم يدا ..

والطريقة التى يدرسون بها الدين لا تعين على زكاة النفس

وسنائها ، فالاجرب عندما يرتدى ثوبا غاليا جميلا قد يستر علته حينا ، بيد أن ذلك لا يشفى سقامه .. هكذا نرى الذين يؤدون مراسم العبادات ، ولا يهذبون أنفسهم ..

الفارق بين الانسان والحيوان أن الحيوان يتحرك بدوافع حاجاته الخاصة ولا يحس الا ذاته ! أما الانسان فالمفروض أنه يحيا فى مجتمع له ضوابطه وآدابه ، وعلى المرء أن يحس بنفسه وبغيره معا ، والصورة الدنيا للسلوك البشرى تظهر فى أفعال المجرمين الذين لا يهتمون الا بما يشتهون ، أما صور الرقى المنشود فتتضح كلما اختفت الانانية ، ونما الاحساس بالغير ، والتقدير لحقوقه ..

وقد أقام الاسلام شعار « فى سبيل الله » ليخلع الانسان من أثرته ، ويدفعه الى ربه ! فالانفاق ينبغى أن يكون فى سبيل الله ، والجهاد ينبغى أن يكون فى سبيل الله ، والسعى فى هذه الدنيا ينبغى أن يكون فى سبيل الله ، بل المحيا والممات جميعا فى سبيل الله ..

وهذا الشعار يعنى فى النشاط العام أمرين : ابتغاء وجه الله ، وتحقيق المصلحة العامة ، وفقهاؤنا يرون أن حق الجماعة داخل فى كل ما هو لله ، اذ الاسلام يمزج بين الدين والدولة ، والعبادات والمعاملات ..

والذى حدث فى هذا العصر أن المقاييس الاخلاقية فى الغرب غالت فى حق المجتمع ، وقهرت به النوازع الشخصية ، وجعلت « المواطن » يرعى وطنه ، ومصلحة قومه ورفعة أمته .. الى آخره ، وضبطت بذلك أنانيته الخاصة ..

أما المنتمون الى الدين فان شعار فى سبيل الله « نسى ، أو تنوسى ، فى مجال التربية » ! .. وترك سرطان الانانية يمتد

ويتوغل ، فماذا كانت النتيجة ؟ .. فرقة مستغربة بين مجاهدى أفغانستان ، وبين محررى فلسطين ! وسيطرت الملرب على أغلب الانشطة العامة .. فماذا الشخص الذى يعمل لوطنه فى أوربا أيقظ ضميرا من مثيله الذى ينتمى الى الدين ولا يفكر فى سبيل الله ،وانما يفكر فى تنمية ثروته أو دعم مكانته ..

ان المبدأ الاسلامى الاول فى التربية وهو « قد أفلح من زكاها »(١) لا يتحقق بالدعوى ولا بالصياح ، وانما يتحقق بتطبيق عميق حاسم فى شئون الحياة ، وبين جميع الطوائف ..

ان « ديجول » ولى نعمة فرنسا الحديثة دفن دون احتفال فى قريته ، وامرأته الفاضلة تعيش بين جدران ملجأ يرعى شيخوختها .. على حين نرى من خانوا أمتهم أو غشوها يدفنون وسط أحفال مائجة ، وتوضع فى أفواه أسرهم ملاعق الذهب ! فهل هذه مثاليات الاسلام كما نراها ؟ وهل تنتصر الدعوة الاسلامية بهذا التفاوت الصارخ ؟ ..

ان الطيبة أو التقوى أو القدرة على ميز الخبيث من الطيب وايثار الحسن القبيح ، كانت المشاعر التى برز بها سلفنا الاولون بل آباؤنا الاقربون .. ولقد عرفت فلاحى قريتنا وأنا صغير ينامون مبكرين بعد صلاة العشاء ، ويستيقظون مع الفجر ، فيذهبون صوب حقولهم ، وقد تذهب اليهم زوجاتهم أو أولادهم بالغذاء ، فما يعودون من مزارعهم الا مع الغروب .. وكانت أرضيهم تدر السمن والعسل ، وبركات الله تنهمر عليهم بالغدو والاصال ..

---

(١) الشمس : ٩

والان بعـــد السهر والسمر على شتى البرامج والنوم حتى الضحى ، واضاعة الصلاة ، واتباع الغفلات ماذا نجنى ؟ ..

والسؤال نفسه مع أهل الخليج ، لقـــد ســـمعت معمرين منهم يتحـــدثون عن المـــاضى بأسى واعزاز معا ! يقولون : كنـــا فقراء ، ولكن الرجولة والاستعفاف وتقوى اللـــه كانت تســـود الافاق .. ان الغـــد مع الشهوات الوافـــدة مر الثمر ..

أريد من أمتنا أن تقتبس من حضـــارة الغـــرب ما يوافق أو يتواءم مع فطرة اللـــه فى مواريثنا ..

ثم ماذا على الدعاة والمربين لو درسوا الاساليب التى اتبعها اليابانيون فى الاستفادة من هـــذه الحضارة ؟ ..

ثم أن هناك خللا فى التركيب الانسانى لامتنا طرأ عليها مع ترادف العلل السياسية والاجتماعية جعل المنطق العلمى يتقهقر ، وتحل محله الاوهام ، وجعل الاكتمال النفسى يضعف وتسد فراغه بعض الشعائر وسور الطاعات ..

وعلماؤنا الكبار لم تخـــدعهم هـــذه النقائض ، ولذلك رفض ابن القيم من الغنى البخيل أن يكثر الذكر ويطيل الصيام ، فعبادته الاولى العطاء ! كما رفض من الداعية الجبان أن يثرثر بالاوراد ، ويعتكف بعيدا عن الناس فعبادته الاولى الامر والنهى والنصح .

وفى عصرنا هـــذا لا يخفى ما تحتاج اليه أمتنا كى تنهض من عثرتها ، وما أيسر التوفيق بين التقـــدم الحضارى ومواريث الدين والخلق ، والوفاء بحقوق اللـــه ..

فهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب ٨٤/٣٩٠٩

المطبعة الفنيــة ت : ٩١١٨٦٢